ليف تولستوي

الحرب والسلام

ترجمة: د. سامي الدروبي

الجزء الثاني



ليف تولستوي



(II)

ترجمة: د. سامي الدروبي



ليف تولستوي

الحرب والسلام

(II)

الكتاب: الحرب والسلم (II)/ رواية

تأليف: ليف تولستوي

ترجمة: الدكتور سامي الدروبي

عدد الصفحات: 576 صفحة

الطبعة الأولى في دار التنوير: 2017

الترقيم الدولي: 978-9938-886-95-5

رقم الناشر: 17/399-101

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة - جاردن سيتي - 2 شارع فؤاد سراج الدين (السراي الكبرى) - الدور الأرضي - شقة رقم 2.

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com

الترقيم الدولي: 978-977-828-001-2

رقم الإيداع: 2017/2379

صدرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة في دمشق عام 1976.

الجزء الأول

الفصل الأول

في مطلع سنة 1806، عاد نيقولا روستوف من إجازة. وكان دينيسوف ذاهبًا كذلك إلى أهله في فورنيجي[1]، فأقنعه روستوف بأن يصحبه إلى موسكو وأن ينزل ضيفًا على أهله. وقبل الوصول إلى موسكو بمحطتين، التقى دينيسوف برفيق له، فشرب معه ثلاث زجاجات وغطّ في نوم عميق طول الطريق متهالكًا داخل الزلاجة لا يوقظه شيء، رغم الأخاديد التي تملأ الطريق.

وكان يزداد نفاد صبر روستوف كلما تقدّمت العربة مزيدًا من التقدم، فاقتربت من هدفها مزيدًا من الاقتراب. «هل نصل بعد قليل؟ أوه! شوارع أخرى! دكاكين أخرى! مخابز أخرى! مصابيح! عربات! شيء لا يُطاق!» كذلك كان يقول لنفسه حين دخلوا موسكو بعد أن حصلوا على تأشيرة السماح بالدخول عند الحاجز المقام لهذا الغرض.

صرخ روستوف مناديًا دينيسوف وهو يدفع كل جسمه بغريزته إلى الأمام كأنه يأمل أن يعجّل سرعة الزلاجة:

- دينيسوف، وصلنا!

ولكن دينيسوف لم يحرّك ساكنًا.

صاح روستوف:

- هذا مفرق الطرق الذي يرابط فيه زاخار وزلاجته عادة... آ... ها هوذا زاخار نفسه، وها هوذا حصانه نفسه لم يتغيّر... وها هي ذي الدكان التي

---

(1) مدينة وإقليم على نهر الدون الأعلى جنوب موسكو.

نشتري منها فطائر... هلا أسرعنا مزيدًا من السرعة! مزيدًا من السرعة!...

سأله الحوذي:

- عند أي منزل يجب أن أقف لك؟

- المنزل الكبير، في آخر الشارع... هل ترى؟ هذا منزلنا...

وصاح ينادي دينيسوف:

- دينيسوف، دينيسوف! وصلنا!

فرفع دينيسوف رأسه، وتنحنح، ولكنه لم يقل كلمة واحدة.

قال روستوف لخادمه الجالس على حافّة الزلاجة:

- ديمتري، هذا النور الذي نراه، أليس في منزلنا؟

- هو في منزلنا يا سيدي، حتى إنه في مكتب أبيك.

- إذًا لم يناموا بعد. ماذا تظنّ؟...

وأردف يأمره وهو يملس شاربيه النابتين:

- لا تنسى خاصّةً أن تفضّ سترتي المجرية فورًا.

وصاح يهيب بالحوذي قائلًا:

- مزيدًا من السرعة! مزيدًا من السرعة!

وقال ينادي دينيسوف الذي عاد يهزهز رأسه:

- هلمَّ يا فاسيا! هلا صحوت أخيرًا!

والتفت إلى الحوذي يصيح مستحثًا إياه على مزيد من الإسراع مع أنه لا تفصله الآن عن منزله إلّا ثلاثة منازل:

- مزيدًا من الإسراع، مزيدًا من الإسراع! لسوف أعطيك ثلاثة روبلات بقشيشًا إذا أنت أسرعت مزيدًا من الإسراع. يا إلهي!

كان يخيل إليه أن الخيل لا تتقدّم.

وانحرفت الزلاجة أخيرًا إلى اليمين، فصارت عند مدخل المنزل. عرف روستوف جوانب الرصيف، ودرجات المدخل، والإفريز وجبسه المتكسّر. وثب من الزلاجة وهي لا تزال تسير، وركض إلى الدهليز فوجده خاليًا. كان المنزل بسكونه وجموده وفظاظته لا يبدو مكترثًا بوصول القادم. قال روستوف محدِّثًا نفسه وهو يتوقّف منقبض الصدر: «آه... رباه!... أتكون

مصيبة قد حلت». ولكنه سرعان ما استأنف ركضه في الدهليز، وأخذ يصعد درجات السلم أربعًا أربعًا، وهي درجات معوجّة مألوفة له. إن باب الدخول لا تزال له تلك القبضة نفسها التي طالما أثارت وساختها حنق الكونتيسة والتي لا تزال تتحرّك سهلة ليّنة. وأن شمعة تشتعل في حجرة المدخل. وإن ميخائيل العجوز نائم على صندوق. وأن يروكوي الخادم التابع، وهو عملاق ضخم يستطيع أن يرفع عربة من مؤخرتها، يضفر حاشية لحذاءين من نسيج.

فلما سمع الباب يُفتح التفت، فإذا هيئته التي تكون في العادة ساكنة نعسانة، تعبّر الآن عن شدّة الفرح؛ وإذا هو يصيح وقد تعرف مولاه الشاب:

- أيتها الملائكة! هو الكونت الشاب! أهذا ممكن؟ آه... يا عزيزي!

وهذا بروكوف يرتعش انفعالًا واهتياجًا، ويهرع إلى باب الصالون يريد أن يذيع النبأ ولا شك، ولكنه عدّل عن رأيه، وعاد أدراجه، وأسند رأسه إلى كتف مولاه الشاب.

سأله روستوف وهو يخلّص ذراعه:

- هل الجميع بخير؟

- الحمد لله. كل شيء بخير! لقد قاموا عن العشاء منذ قليل. دعني انظر إليك يا صاحب السعادة.

- هل صحيح أن كل شيء بخير!

- الحمد لله. الحمد لله!

نسي روستوف صاحبه دينيسوف نسيانًا تامًّا من فرط استعجاله لرؤية أهله، فنضا عنه فروته، ودخل إلى الصالة المعتمة الكبيرة سائرًا على رؤوس الأصابع. إن كل شيء في هذه الصالة لا يزال على حاله:

طاولات القمار نفسها، والثريا نفسها في غطائها نفسه. ولكنهم كانوا قد لمحوه، فهذا أحد يسقط عليه سقوط الصاعقة من باب جانبي، قبل أن يصل إلى الصالون الصغير، فيطوّق عنقه بذراعيه ويغرقه بالقبل. وهذا ثانٍ فثالثٌ ينطلقان من أبواب أخرى، فتتجدّد القبل وتتجدّد الصيحات، وتتجدّد دموع الفرح. كان روستوف لا يستطيع أن يميز من هو بابا، ومن هي ناتاشا، ومن

هو بيتيا. كانوا جميعًا يصرخون ويتكلّمون ويعانقونه ويقبّلونه في آن واحد. ولكنه أدرك غياب أمه.

- ما كنت أتوقع وصولك، ولا خطر لي على بال.. نيقولا، صديقي!

- هوذا طفلنا!... هوذا عزيزنا الصغير! لشد ما تبدّل!... هاتوا شموعًا! هاتوا شايًا! أسرعوا!

- ولكن هلّا قبلتني!

- وأنا يا قلبي، أنا أيضًا.

كان كلّ من صونيا، وناتاشا، وبيتيا، وآنا ميخائيلوفنا[1]، وفيرا، والكونت الشيخ، يشدّونه إلى أحضانهم بأذرعهم، وكان الخدم والخادمات يحدقون بالغرفة من جميع الجهات ويهتفون. وكانت ناتاشا تتشبّث بتلابيب ردائه «الدولمان»، وتلتهمه بقبلاتها التهامًا، ثم تتركه فجأة وتأخذ تثب منقلبة بجسمها انقلابًا تامًّا: وتطلق صيحات حادة.

كانت النظرات كلها تفيض حنانًا، والأعين كلها مبتلة بالدموع. وكانت الشفاه كلها شرهة إلى القبل.

كانت صونيا التي احمرَّ لونها حتى صار كالأرجوان، وفاض محياها سعادة وأشرق فرحًا، تتشبث هي أيضًا بذراعه تلتمس نظرة. إنها الآن قد بلغت السادسة عشرة من عمرها، وهي جميلة جِدًّا، ولا سيما في هذه اللحظة من الانتعاش السعيد والحماسة الحارة. كانت تتأمّله حابسة أنفاسها، مبتسمة تبسّمًا فائضًا. فأولاها نظرة فيها انفعال، ولكنه كان ينتظر أحدًا ويبحث عن أحد. إن الكونتيسة لما تظهر بعد. وسُمعت أخيرًا خطوات بقرب الباب، وكانت هذه الخطوات تبلغ من السرعة أنها لا يعقل أن تكون خطوات أمّه.

ومع ذلك كانت أمّه في زينة جديدة لم يعهدها فيها. تنحّى الجميع، وهرع روستوف إلى لقاء أمه. فهوت الكونتيسة على صدر ابنها، وأخذت تنتحب. وكانت كأنها لا تستطيع أن ترفع رأسها فهي تسنده إلى أزرار «دولمانه» الباردة.

---

(1) هي الأميرة دروبتسكوي تقيم عند آل روستوف.

وكان دينيسوف قد دخل من دون أن ينتبه إليه أحد فهو متسمّر في مكانه، يتأمّل هذا المشهد وهو يعرك عينيه.

لما وقع عليه بصر الكونت سائلًا مستفسرًا، قال يعرّف بنفسه أخيرًا:

- فاسيلي دينيسوف، صديق ابنكم.

فقال الكونت وهو يفتح ذراعيه لدينيسوف ويعانقه مقبّلًا:

- آ... تمامًا. حدثنا عنك نيقولا كثيرًا في رسائله... أهلًا وسهلًا. ناتاشا، فيرا، هذا هو، هذا دينيسوف.

فالتفتت تلك الوجوه التي تفيض سعادة وحماسة، التفتت هي نفسها إلى دينيسوف المشعّث الهندام، وتحلّقت حوله.

ولم تستطع ناتاشا أن تسيطر على نفسها وأن تتحكّم بسلوكها، فإذا هي تثب إليه وترتمي على عنقه، وتصرخ قائلة له:

- دينيسوف العزيز، دينيسوف العزيز!

فشعر الجميع بحرج. واحمرّ دينيسوف هو أيضًا، ثم ابتسم وتناول يد الفتاة يقبّلها.

وبعد أن قادوه إلى الغرفة التي خُصَّ بها، اجتمعت الأسرة كلها في الصالون الصغير محيطة بنيقولا.

لم تترك الكونتيسة يد ابنها، وظلّت تغمرها بالقبل، وجلست إلى جانبه. فكان الآخرون المحتشدون حولهما، يرصدون كل حركة من حركات نيقولا، وكل نظرة من نظراته، وكل كلمة من كلماته، وكانت أبصارهم التي تزخر بالنشوة والوجد ثابتة عليه لا تزيح عنه لحظة. وكان أخوه وأخواته يتنازعون الأمكنة الأقرب إليه، ويسارعون إلى إعطائه الشاي أو إعطائه منديلًا، أو إعطائه غليونه متسابقين متشاجرين.

إن روستوف وحيدًا جِدًّا بهذا الحب الذي يغمرونه به، ولكن الدقيقة الأولى من اجتماعهم كانت قد بلغت من الروعة والفتنة بحيث إن السعادة التي يذوقها الآن تبدو له فقيرة، فكان في كل لحظة من اللحظات ينتظر شيئًا زيادة.

وفي صباح الغد استراح المسافران من عناء السفر، إذ ناما حتى الساعة العاشرة.

وفي الغرفة التي تسبق غرفتهما، كانت تتكدّس سيوف وجعب سيوف، وحقائب مفتوحة، وجزمات ملطخة بالأوحال. وكانت جزمتان ملمعتان بالشمع، وليس لهما مهمازان، قد أسندتا إلى الجدار. وكان خدم يحملون إلى الشابين طشوتًا وماءً ساخنًا لحلق الذقن، ويجيئونهما بملابسهما بعد أن نُظّفت بالفرشاة. وكانت الغرفة تفوح برائحة والتبغ.

صاح صوت فاسيلي دينيسوف الأجش الأبح، ينادي:

- هيه! غريشكا! أعطني غليوني.

وأضاف يخاطب روستوف:

- روستوف! روستوف! انهض! قم!

فرك روستوف جفنيه الملتصقين من النوم، وانتزع رأسه من المخدة الساخنة انتزاعًا، وقال يسأل:

- أنهض؟ أقوم؟ هل تأخّرنا؟

فأجابه صوت ناتاشا:

- طبعًا! أزفت الساعة العاشرة.

وسُمع في الغرفة المجاورة حفيف فساتين مصمغة، وسُمعت همسات، وضحكات كرنين الفضة، بينما كان باب الغرفة مشقوقًا يلمح المرء من شقه شيئًا أزرق وأشرطة وشعرًا أسود ووجوهًا جذلة فرحة. إن ناتاشا قد جاءت مع صوفيا وبيتيا لترى هل قام أخوها.

عادت ناتاشا تقول بقرب الباب:

- قم يا نيقولا! قم! انهض!

- حالًا!

وفي أثناء ذلك كان بيتيا، إذ رأى السيوف، قد أمسك أحدها، فكان يشعر بتلك الحماسة الساذجة التي تسيطر على الصبية الصغار حين يرون عُدَّة الحرب التي يستعملها الكبار. ومن دون أن يراعي المواضعات الاجتماعية التي لا تبيح لأخواته أبدًا أن يرين رجالًا غير مرتدين ثيابهم، فتح الباب على مصراعيه، وصرخ يسأل:

- أهذا سيفك؟

فوثبت البنات إلى الالوراء، وأسرع دينيسوف يخفي ساقيه الشعراوين تحت الغطاء وهو يلقي على رفيقه نظرة مكمودّة مكروبة. وما إن دخل بيتيا الغرفة حتى أغلق الباب، وأخذت تُسمع من ورائه انطلاق قهقهات.

قال صوت ناتاشا:

- نيقولا! تعال بثوب المنزل!

وعاد بيتيا يسأل دينيسوف، الذي كان شارباه الأسودان الضخمان يفرضان على بيتيا الاحترام والتهيب:

- أهذا سيفك؟

أسرع روستوف ينتعل، ويلبس ثوب المنزل، ويخرج من الغرفة. فكانت ناتاشا أثناء ذلك قد احتذت إحدى جزمتيه وهي الآن بسبيل احتذاء الأخرى، وهما جزمتان لهما مهمازان. وكانت صوفيا تدور على نفسها، وتتهيأ لأن توسّع ثوبها وتجلس. كانتا كلتاهما تلبسان فستانين زاهيين جديدين كل الجدة، متشابهين كل التشابه. وكانتا كلتاهما متورّدتين ضاحكتين. فلما خرج روستوف من الغرفة ولّت صوفيا هاربة. أما ناتاشا فقد جرّت أخاها إلى الصالون الصغير، حيث أخذا يثرثران. لم يكن وقتهما قد اتسع قبل الآن لتطارح آلاف الأسئلة الصغيرة التي لا تهم أحدًا غيرها، ولا يمكن أن يكون لها شأن إلّا عندهما. وكانت ناتاشا تنطلق ضاحكة لكل كلمة يقولها، وأيضًا مع كل كلمة تقولها، لا لأن ما يقولانه يشتمل على شيء يثير الضحك، بل لأنها كانت فرحة وكانت لا تستطيع أن تكظم فرحها الذي كان يُعبِّر عن نفسه بالضحك.

كانت تقول في كل لحظة:

- آه... ما أحسن هذا! ما أروعه!

وكان روستوف يحس دفق هذا الحب الحار والحنان الرقيق لأول مرة منذ ثمانية عشر شهرًا، فكانت تتفتّح في قلبه وفي وجهه تلك الابتسامة الطفولية التي هجرته منذ أن غادر هذا المنزل.

قالت ناتاشا:

- ها أنت ذا أصبحت رجلًا! ما أسعدني بأن تكون أخي!

ومسّت شاربيه، وتابعت تقول:

- لشد ما أحب أن أعرفكم، معشر الرجال! أأنتم مثلنا؟ لا؟

قال روستوف يسأل أخته ناتاشا:

- لماذا فرّت صونيا؟

- آ... تلك حكاية طويلة! قل لي بالمناسبة: أتنوي أن تظل تخاطبها بصيغة المفرد أم تريد أن تكلمها بصيغة الجمع؟

- سأترك لساني ينطلق على سجيته.

- خاطبها بصيغة الجمع، أرجوك. وسأشرح لك السبب من بعد. بل سأشرحه لك فورًا. أنت تعلم أن صونيا صديقتي، وأنني مستعدة لأن أحرق ذراعي من أجلها. انظر.

قالت ذلك وشمّرت كمها المصنوع من قماش شفاف، وأرته في ذراعها الطويلة الممشوقة علامة حمراء بقرب الكتف أعلى من الكوع كثيرًا (في موضع تغطيه زينة حفلات الرقص)، وأردفت تقول:

- أنا التي أحرقت هذا الموضع من ذراعي لأبرهن لها على صداقتي. حمّيت على النار مسطرة من معدن، وجعلت طرف المسطرة على ذراعي.

روستوف، أثناء جلوسه على كنبة تزيّنها وسائد صغيرة، في هذا الصالون الصغير الذي كان له في الماضي قاعة تدريس، وأثناء شعوره بالنظرة الملتهبة حماسة تلقيها عليه ناتاشا، كان يغرق من جديد في هذا العالم المألوف، الطفولي، الذي ليس له معنى إلّا عنده، ولكنه كان قد هيأ له أقوى مسرّاته وأعظم مباهجه. ولم يحس بأن حرق أخته لذراعها بالمسطرة برهان على الصداقة أمر سخيف تافه، بل هو فهم هذه المغامرة وأدرك قيمتها، وسأل أخته يقول:

- ماذا؟ لا شيء إلّا هذا؟

- آه... ليتك تعلم مدى ما بيننا من صداقة. صحيح أن حكاية المسطرة هذه ليس لها شأن يستحق الذكر. ولكننا صديقتان إلى الأبد!.. هي حين تحب أحدًا فإنما تحبه إلى الأبد. أنا من جهتي لا أفهم هذا... أنا من جهتي أنسى فورًا.

- ماذا أيضًا؟
- هي تحبّنا أنا وأنت هذا النوع من الحب.
واحمرّت ناتاشا فجأة، وأردفت تقول:
- هل تذكر؟ قبل سفرك؟... إنها تسألك الآن أن تنسى كل شيء... قالت لي: «لسوف أحبّه إلى الأبد. أما هو فليبق حرًّا!»، شيء رائع! شيء نبيل! أليس هذا نبلًا عظيمًا؟ ألا ترى هذا الرأي؟
كذلك سألت ناتاشا أخاها ملحّة، وكانت نبرتها الزاخرة بالجد والانفعال تدل على أن ما قالته قد سبق أن قالته باكية.
ففكر روستوف لحظة ثم قال:
- إنني لا أنكث بوعدي. ثم إن صونيا هذه فتنة تبلغ من الروعة أن المرء لا بد أن يكون غبيًّا غباء شديدًا إذا هو رفض السعادة منها!
هتفت ناتاشا تقول:
- لا، لا. لقد سبق أن تحدّثنا في هذا الأمر. كنا نعلم أنك لن تقول غير هذا الكلام. ولكن لا يجب ذلك، لأنك تعد نفسك كالمرتبط بكلامك المتقيّد بوعدك، فكأنها قالت ما قالت عامدة، وكأنك تتزوجها قيامًا بالواجب، وليس هو المطلوب.
أحس روستوف بصحة هذا التفكير وسلامة هذا الاستدلال. كان جمال صوفيا قد أدهشه في مساء الأمس، حتى إنها ظهرت له في هذا الصباح أجمل وأروع، رغم أنه لم يرها إلّا لمحًا سريعًا. لا شك أن هذه البنيّة تهواه هوى شديدًا، ولا شك أنها مولهة بحبه تولهًا (هو لا يخامره في هذا أي ريب لحظة واحدة)، فلماذا لا يحبّها هو أيضًا؟ بل لماذا لا يتزوّجها؟ ولكن ما أكثر المسرات وما أكثر المشاغل التي تنتظره! «نعم، إنها على حق. فالخير أن أبقى حرًّا غير مقيّد».
بذلك حدّث روستوف نفسه. ثم قال لأخته:
- طيّب. كما تشائين. سنتحدّث في هذا الأمر من بعد. آه.. ما أسعدني أن أراك ثانية!.. ولكنْ قولي لي: ألم تخوني عهدك لبوريس على الأقل؟
فصاحت ناتاشا تقول ضاحكة:

- ما هذه السخافات؟ إنني لا أفكر لا فيه ولا في أحد غيره.
- غير معقول. ففي أي شيء تفكّرين إذًا؟
قالت ناتاشا مشرقة المحيا:
- أنا؟ هل رأيت دوبور؟[1]
- لا.
- دوبور الشهير، الراقص، ألم تره في يوم من الأيام؟ إذًا لم تفهم. انظر.
قالت ناتاشا ذلك، ودوَّرت ذراعيها، وأمسكت تنورتها كما تمسك الراقصات تنوراتهن، وابتعدت راكضة، ثم التفّت، ووثبت وثبة تتصالب فيها الساقان في رقص الباليه، وقرعت الأرض بقدميها، وسارت بضع خطوات منتصبة على رؤوس الأصابع، وقالت تسأل أخاها:
- هل ترى كيف أحسن الانتصاب؟
والحق أنها ألقت هذا السؤال وقد أصبحت لا تقدر على الانتصاب زمنًا أطول.
وأردفت تقول:
- ذلك ما سأفعله. لن أتزوج أبدًا. سأكون راقصة. ولكن لا تحدّث بهذا أحدًا.
فانفجر روستوف يضحك ضحكًا فيه من الصراحة أن دينيسوف الذي سمعه وهو في غرفته، قد شعر من ذلك بغيرة وحسد، وناتاشا لم تملك إلّا أن تجاريه في هذا الضحك.
وكانت لا تفتأ تكرّر سؤالها:
- حسنًا، أليس كذلك؟
نعم، حسنًا، ولكنك في هذه الحالة لن تستطيعي أن تتزوّجي بوريس.
فاحمرّ وجه ناتاشا، وقالت:
- أكرّر لك أنني لا أريد أن أتزوج! وسوف أقول له هذا القول حين ألقاه.

---

(1) خطأ في تحديد الزمن يرتكبه المؤلف، فإن الراقص الفرنسي دوبور، منافس فستريس، لم يصل إلى روسيا إلّا سنة 1808، فنال فيها نجاحًا كبيرًا وحقق انتصارات عظيمة.

قال روستوف:

- اسمعوا هذا الكلام!

قالت ناتاشا:

- ذلك كله سخافات على كل حال. قل لي: أهو لطيف، صاحبك دينيسوف؟

- لطيف جِدًّا.

- طيب. إلى اللقاء. هلمَّ ارتدِ ثيابك. أليس رهيبًا جِدًّا، دينيسوف؟

- رهيب؟ فاسكا رهيب؟ بل هو فتى أخَّاذ رائع!

- تلقّبه فاسكا؟... شيء مضحك... إذًا هو لطيف جِدًّا.

- لطيف لطفًا لا لطف بعده!

- هيًّا أسرع. سنشرب الشاي معًا.

واجتازت ناتاشا الغرفة على رؤوس أصابع القدمين كما تفعل الراقصات، ولكن ابتسامتها كانت من الابتسامات التي لا تجيدها إلّا الصبايا الصغيرات في الخامسة عشرة من عمرهن حين تغمر قلوبهن السعادة.

وحين دخل روستوف ورأى صونيا احمرَّ وجهه واحتار كيف يجب أن يكون سلوكه. إنهما بالأمس، عند أول دفقات العواطف التي تفجّرها عودة الغائب قد تعانقا وقبَّل كل منهما الآخر. أما الآن فإنهما يدركان كلاهما أنهما أصبحا لا يستطيعان أن يفعلا ذلك. وأحس نيقولا بنظرات أمه وأخواته متجهة إليه ثابتة عليه تسأله: لقد كانوا جميعًا يتساءلون كيف عسى أن يكون سلوكه في معاملة صونيا. وها هو يقبّل يد صونيا ويخاطبها بصيغة الجمع. ولكن أعينهما حين تلاقت كانت تتخاطب بصيغة المفرد، وتتبادل قبلات مفعمة بالعاطفة. وكانت نظرة صونيا تستغفره عن أنها تجرأت بواسطة ناتاشا فذكَّرته بوعده، وتشكر له أنه لا يزال يحبها في الوقت نفسه. أما نظرة نيقولا فكانت تشكر لها أنها ردت إليه حريته، وتفهُّمها أنه سيظل يحبها في صورة أو في أخرى، لأنها من أولئك الفتيات اللواتي لا يملك المرء إلّا أن يحبهن.

قالت فيرا مختارة لحظة صمَتَ فيها الجميع: - ما أغرب هذا الأمر! إن صونيا ونيقولا يتخاطبان الآن بصيغة الجمع، فكأنهما غريبان.

لقد كانت ملاحظتها سليمة، على عادتها في إبداء الملاحظات. ولكنها، على عادتها أيضًا، جعلت الجميع في حرج من أمرهم، لا صونيا ونيقولا وناتاشا وحدهم، بل الكونتيسة أيضًا التي كانت تخشى من هذا الحب العابر أن يفوّت على ابنها زواجًا مرموقًا باهرًا. واحمرّت هي أيضًا كما تحمّر فتاة.

وقد دُهش روستوف حين رأى دينيسوف يدخل مرتديًا بزة رسمية جديدة متدهنًا متعطرًا أنيقًا كأناقته في المعركة. وازداد دهشةً حين رآه يسرع إلى السيدات ملاطفًا متودّدًا.

الفصل الثاني

استقبل أهل نيقولا روستوف ابنهم كما يُستقبل ابن عزيز، وكما يستقبل بطل من الأبطال، واستقبله أقرباؤه الآخرون كما يُستقبل شاب لطيف مهذّب؛ واستقبله أصدقاء الأسرة - أي موسكو كلها - كما يُستقبل ضابط جميل من سلاح الفرسان، وراقصٌ مبدع ممتاز، وشابٌّ من أحسن شباب العاصمة زوجًا.

وكان الكونت لا يعوزه المال حينها، وذلك بفضل تجديده رهن أملاكه. لهذا استطاع نيقولا أن يقتني فرسًا جوادًا، وأن يشتري سروالين من سراويل الفرسان على أحدث طراز. سروالان لما يلبس أحد في موسكو مثلهما بعد، وأن يشتري كذلك جزمتين هما آخر صيحة من صيحات الموضة، طرفاهما مدبَّبان جِدًّا، ولهما مهمازان صغيران من فضة، فكان يعيش حياة فيها كثير من المتعة والفرح والمرح. كان روستوف بعد تلك الغيبة الطويلة يريد أن يتلاءم من جديد مع الظروف السابقة التي كانت تجري فيها حياته. وكان يحسّ بأنه أكثر ذكورة، وأكثر إيغالًا في سن الرشد. وكانت مغامراته الغابرة كحزنه من رسوبه في امتحان التعليم الديني، واقتراضه مالًا من الحوذي جافريل، وقبلاته المختلَسة لصونيا - كان هذا كله يعود إلى ذاكرته في صورة أعمال صبيانية هو الآن بعيد عنها، جِدًّا. إنه الآن ليوتنانت في سلاح الفرسان، ويحمل وسام القديس جورج على «دولمانه» المزدان بشرائط من فضة، ويسير بحصانه إلى سباق الخيل بصحبة هواة مشهورين هم رجال كبار السن، ثقال الوزن. ولقد تعرّف إلى سيدة من السيدات كانت تقيم في الشارع الكبير، وكان يزورها في الغسق. وأصبح يقود رقصة المازوركا في

حفلات الرقص التي تقام عند آل آرخاروف، ويتحدّث في شؤون الحرب مع المارشال كامنسكي، ويختلف إلى «النادي الإنجليزي»[1]، ويخاطب بصيغة المفرد كولونيلًا في نحو الأربعين من عمره عرَّفه به دينيسوف.

ولم يبقَ إعجابه بالإمبراطور، الذي أصبح لا يتاح له أن يراه، ذلك الإعجاب الشديد كله. ومع ذلك كان إذا تكلّم عنه (وهذا كان يتفق له كثيرًا) يحرص على أن يُفهم السامع أنه لا يقول كل شيء، وأن في عواطفه جانبًا من سر لا يستطيع أن يدركه العاديون من البشر. ومن قرارة قلبه كان يشارك في الوله العام الذي كانت تحمله موسكو كلها للاسكندر الأول حينذاك، فكان الناس يخلعون عليه لقب «الملاك المجسَّد».

إن هذه الإقامة القصيرة في موسكو قد أبعدت نيقولا عن صونيا أكثر مما قرّبته منها. صحيح أن صونيا فتاة جميلة جدًّا، لطيفة جِدًّا، وجميع آل نيقولا يرى رؤية واضحة كل الوضوح ما يحمله قلبها له من حب، ولكنه كان في تلك السن التي يظن فيها المرء أن هناك أشياء كثيرة يجب عليه أن يعملها! فليس يتسع وقته لاهتمام بأمر الزواج وما إليه؛ وكان في تلك السن التي يتهيّب فيها الشاب أن يرتبط ويتقيّد، ويحبّ الحرية فوق كل شيء آخر. كان إذا فكر في صونيا قال لنفسه: «إيه... ما هي بالفتاة الوحيدة في هذا العالم، وسوف تعرِّفني الظروف بفتيات أخريات كثيرات. وإذا اعترتني نزوة الزواج في يوم من الأيام، ففي الوقت دائمًا متسعٌ للاهتمام بالحب. أما الآن، ففي رأسي مشاغل أخرى، وفي نفسي هموم أخرى».

وكان عدا ذلك منذ أن أحسّ بأنه رجل، يرى أن الدوران حول النساء شيء لا يتّفق وعلوَّ مكانته وعظمة شأنه. ومع ذلك كان يرتاد حفلات: الرقص ويشارك في السهرات، غير أنه يتظاهر أنه لا يرتاد تلك ولا يشارك في هذه إلّا على مضض. أما سباق الخيل، و«النادي الإنجليزي» والمحبون مع دينيسوف، وغدواته «هناك»، فذلك كله شأن آخر: إنه في طبيعة كل رجل من سلاح الفرسان.

---

(1) نادٍ للطبقة النبيلة العليا بموسكو، أنشئ سنة 1770.

في بداية شهر آذار (مارس) انصرف الكونت الشيخ روستوف انصرافًا تامًّا إلى الإعداد للوليمة التي يقيمها «النادي الإنجليزي» تكريمًا للأمير باغراتيون، وانشغل بهذا العمل انشغالًا أنساه كل ما عداه. إنه عضو في النادي وفي اللجنة الإدارية منذ إنشاء النادي؛ وقد عُهد إليه بهذه المهمة التي لا يعهد بها إلّا لمن كان أهلًا لها، بسبب ما أوتي من مواهب في الإعداد للمآدب لا يضارعه فيها أحد، وبسبب كرمه المعهود فيه والمشهود له به، فما أقل أولئك الذين يدفعون من جيوبهم إذا مسّت الحاجة، ويفعلون ذلك راضين مغتبطين مثله. كان الكونت يذهب ويجيء في الصالة الكبرى من منزله بثوب المنزل، يصدر إلى أمين صندوق النادي والى تيوكتيست الشهير، رئيس الطهاة، أوامره عن لحم العجل، والسمك، والهليون، والخيار والفراولة. فكان أمين الصندوق ورئيس الطهاة يصغيان إليه مسرورَين أعظم السرور، لعلمها بأنهما يستطيعان معه أكثر مما يستطيعان مع أي شخص آخر أن يجنيا أرباحًا كثيرة من المشتريات اللازمة لهذه الحفلة التي ستبلغ تكاليفها عدة آلاف من الروبلات.

- انتبه! حذار أن تنسى أعراف الديك في حساء السلحفاة، هه؟

- والتتبيلات ثلاث، أليس كذلك؟

فكّر الكونت للحظة ثم ردَ جازمًا:

- نعم، لا يمكننا أن نفعل أقل من هذا. مثلًا: مايونيز،..

فقاطعه المحاسب قائلًا:

- وأسماك الحفش نأخذ كبارها قطعًا.

- نعم خذ كبارها. لا بد لنا من هذا، ولسنا نعبأ بالسعر. آ.. عزيزي... كدت أنسى. نحن في حاجة أيضًا إلى طبق آخر لبداية الوجبة...

ثم تابع كلامه وهو يمسك رأسه بيديه:

- - آه... رباه... والأزهار؟... من ذا الذي سيأتيني بالأزهار؟

وهتف ينادي الوكيل:

- ميتنكا، يا ميتنكا!

فهرع إليه الوكيل ملبيًا نداءه، فقال الكونت روستوف:

- اذهب ركضًا إلى منزلي في الحقول، وقل لمكسيم، الحدائقي، أن ينفّذ الأوامر التالية: يحزم في صرر من لبَّاد كل نباتات الأحواض المغطاة بالزجاج، ويأتيني منها بمائتي أصيص يوم الجمعة.

حتى إذا فرغ الكونت من إصدار هذا الأمر وأوامر أخرى كثيرة، مضى يستريح عند كونتيسته العزيزة. ولكنه فيما كان في طريقه إلى غرفة الكونتيسة، تذكر أمرًا من أمور التفاصيل، فرجع أدراجه يذكّر به أمين الصندوق ورئيس الطهاة، واستأنف حديثه معهما ومحاورته لهما. وسمع في أثناء ذلك وقع أقدام خفيفة مع قرقعة مهمازين، ثم إذا بالكونت الفتى يظهر نضِر الهيئة متورد اللون يظلل شفتيه شاربان ما كادا ينبتان. إن الحياة الناعمة الرخوة في موسكو قد بلغت من تدليل هذا الفتى الجميل، أن كل أثر من آثار التعب قد اختفى من محياه.

قال الشيخ وهو يبتسم ابتسامة غامضة بعض الغموض:

- آ... صديقي... لقد أخذ رأسي يدور... تعال أنجدني. إننا في حاجة إلى مغنين. وعندي أوركسترا، ولكن ألا تعتقد بأن الإتيان بغجر سيكون أمرًا مستحسنًا مستحبًّا يرحب به المدعوون؟ إنكم معشر العسكريين تحبون هذا.

فأجاب الفتى وهو يبتسم أيضًا:

- إني أعتقد حقًّا يا بابا بأنك ترهق نفسك الآن بهموم أكثر من هموم باغراتيون قبل معركة شونغرابن.

قال الكونت وهو يصطنع:

- ضع نفسك في مكاني فترى هل الأمر سهلًا!

والتفت إلى رئيس الطهاة الذي كان يراقبهما كليهما، وبهيئة احترام، ولكن في نظرته مكر:

- أرأيت إلى الشبان يا تيوكتيست؟ إنه يسخر منا ويتهكّم علينا نحن الشيوخ المساكين.

- لا حيلة لنا يا صاحب السعادة. الشبان لا يحبون إلّا أن يكون طبقهم شهيًّا مليئًا بأطيب الطعام. أما كيف مُلِء الطبق بهذا الطعام الشهي، فأمر لا يهمهم كثيرًا.

فصاح الكونت الشيخ يقول:
- صحيح كل الصحة! صحيح كل الصحة!
وأردف يقول لابنه وقد أمسكه بيديه بحركة فرحة:
- ما دمت قد قبضت عليك، فلن أتركك من دون أن أطلب منك معونة تسرُّني. ثِبْ إلى الزلاجة ذات الحصانين، وامض عدوًا سريعًا إلى بيزوخوف، فقل له إن الكونت إيليا آندريتش يرسلك إليه طالبًا من أحواضك المغطاة بالزجاج بعض ثمار الفراولة والأناناس. يستحيل علينا أن نجد هاتين الفاكهتين عند غيره. فإذا لم يكن هناك، فاتجه بطلبي هذا إلى الأميرات. وقل للحوذي بعد فراغك من هذه المهمة عند بيزوخوف، أن يجري بكل سرعة إلى رازجولياي - إن هيبات الحوذي، يعرف الطريق - واقبض على الغجري إيليوشا؟ مهما كلَّف الأمر. هل تعرف الغجري إيليوشا؟ إنه ذلك الذي رقص بسترة فارس عند الكونت أورلوف. اقبض عليه، وائتني به إلى هنا.
سأله نيقولا ضاحكًا:
- وهل يجب أن أحضر مغنياته أيضًا؟
- هلاَّ سكتَّ!...
وفي تلك اللحظة دخلت إلى الصالة آنا ميخائيلوفنا بخطى صامتة وقد لاح في وجهها انشغال البال، والهم، مع ما عهد فيه دائمًا من ترضّن مسيحي. ما مرَّ قبل ذلك يوم لم تفاجئ فيه الكونت لابسًا ثوب المنزل، ولكن هذا كان لا يمنع الكونت من إظهار الخجل والتعبير عن اعتذاره.
قالت وهي تخفض عينيها في حياء وخفر:
- لا قيمة لهذا يا صديقي الطيب. أما الجري إلى بيزوخوف فأنا أتولاه وأقوم به. إن بطرس قد وصل منذ قليل، ولا شك في أنه سيضع جميع أحواض النباتات المغطاة بالزجاج تحت تصرّفنا نفعل بها ما نريد ونأخذ منها ما نشاء. وإنما أعرض عليك أن أتولّى هذا الأمر لأنني كنت سأمضي إليه من تلقاء نفسي لحاجتي إلى رؤيته. لقد بعث إليَّ برسالة وصلت من بوريس الذي ألحق بهيئة الأركان والحمد الله!

سُرّ الكونت سرورًا عظيمًا بما عرضته عليه آنا ميخائيلوفنا. وسرعان ما أمر بأن تهيأ لها العربة الصغيرة.

- وقولي لبيزوخوف إننا ننتظره. سوف أسجّل اسمه في قائمة المدعوين... هل تصحبه زوجته؟

فإذا بحزن عميق يرتسم على قسمات وجه آنا ميخائيلوفنا، ثم إذا هي ترفع عينيها إلى السماء.

قالت:

- آه يا صديقي... إنه شقيٌّ جِدًّا! إذا صدق ما يقال، فالأمر رهيب. ما كان أغبانا حين كنا نظنه سعيدًا، فنغتبط بسعادته! من ذا الذي كان يمكن أن يصدق هذا؟ إنها لنفس جميلة طيبة، نفس هذا الفتى بيزوخوف! إنني أرثي لحاله، وأشفق عليه من كل قلبي، وسوف أحاول أن أحمل إليه كل ما أقدر عليه من عزاء وسلوى.

فسأل الأب والابن بصوت واحد:

- ما الذي حدث؟

فأجابت آنا ميخائيلوفنا بلهجة السر:

- يقال إن دولوخوف، ابن ماري ايفانوفنا، قد لطّخ شرفها تلطيخًا كاملًا، إن بطرس قد أخرج هذا الفتى من ضيق وأنقذه من مأزق، ودعاه إلى منزله ببطرسبورغ، فانظر كيف كانت المكافأة... وما إن وصلت إلى هنا حتى هرع هذا الفتى المغامر في إثرها.

كانت آنا ميخائيلوفنا تريد أن ترثي لحال بطرس، ولكن كانت نبرات صوتها، وما ارتسم على شفتيها من ابتسامة هي نصف ابتسامة، كان هذا كله يدل على أنها تعطف على دولوخوف الذي وصفته بأنه مغامر. وختمت كلامها بقولها:

- ويُشاع أن بطرس يموت حزنًا وأسى..

- قولي له مع ذلك أن يأتي إلى النادي، فذلك سيسلّيه ويسرّي عنه. سوف تكون حفلتنا حفلة عملاقة لا شبيه لها...

وفي اليوم الثالث من شهر آذار (مارس)، في نحو الساعة الثانية بعد

الظهر، كان أعضاء النادي المائتان والخمسون، وخمسون مدعوًا، ينتظرون وصول ضيف الشرف، الأمير باغراتيون، بطل حملة النمسا. إن نبأ الهزيمة في أوسترلتز قد أذهل الناس في أول الأمر وشدهم شدهًا شديدًا. كان الروس قد بلغوا من اعتياد الانتصار أنهم حين علموا بنبأ الكارثة رفض بعضهم أن يصدّق النبأ، وأخذ بعضهم يتساءل عن السبب الخارق الذي يمكن أن يعزى إليه حدث غريب لا عهد بمثله من قبل. فكل عضو من أعضاء النادي حين وصلت الأخبار الأولى في شهر كانون الأول (ديسمبر) (والنادي هو ملتقى أرفع الناس مقامًا وأكثرهم إطلاعًا) كان كمن آلى على نفسه ألا يتكلم لا عن الحرب ولا عن المعركة الأخيرة. والناس الذين يسيطرون على المحادثات التي تجري في النادي ويوجهونها وينظمونها، مثل الكونت روستوبتشين[1]، والأمير يوري فلاديمير وفتش دولغوركي[2]، وفالييف، والكونت ماركوف، والأمير فيازمسكي[3]، كانوا قد هجروا النادي إلى حلقات أضيق تضم أصدقاء حميمين. لذلك فإن أولئك الذين لا يُعبِّرون من أهل موسكو إلّا عن آراء سمعوها من غيرهم، مثل إيليا آندريتش روستوف، أصبحوا محرومين من مرشديهم وموجِّهيهم، فبقوا ردحًا من الزمن لا يقطعون بأي رأي في مجرى الأمور. ولكن الشخصيات الكبيرة عادت تظهر في النادي بعد مدة، ظهور المحلفين ساعة خروجهم من قاعة المناقشات. لقد ظهر النور، وانحلت عقدة الألسن. وقد وجدوا الأسباب في هذا الحادث الذي لا عهد بمثله من قبل، هذا الحادث الذي لا يصدقه العقل: هزيمة الروس.

(1) فيرور فاسيلي روستوبتشين (1763 - 1826)، منحه بولس الأول لقب كونت، كان حاكمًا عامًّا لموسكو سنة 1812، وكان يباهي بأنه نظّم حريق موسكو. وابنته صوفيا، التي تزوجت الكونت دو سيجور هي مؤلفة كتب الأطفال المعروفه جدًا.

(2) ولد سنة 1740، جنرال، حامل وسام القديس أندريه الأكبر، أحيل على التقاعد سنة 1805، ومات في موسكو سنة 1830.

(3) أندريه إيفانوفتش فيازمسكي (1750 - 1807) رجل دولة، ووالد الشاعر بطرس فيازمسكي.

هذه الأسباب التي أخذ الناس يتنافسون في بيانها وشرحها في جميع أركان موسكو هي الأسباب التالية:

غدر النمسويين ومكرهم، وسوء تموين الجيوش، وخيانة برزبيسرفسكي البولندي، ولانجرون الفرنسي[1]، وعجز كوتوزوف. وكان المتكلمون يضيفون إلى تلك الأسباب بصوت خافت مهموس همسًا أن الإمبراطور شاب غر ليس بذي خبرة، مَحَضَ ثقته لرجالٍ مناحيس لا قيمة لهم. أما القطعات نفسها، القطعات الروسية، فقد قامت بأعمال هي مثار الإعجاب، وهو أمرٌ يشهد به الجميع ولا يجحده أحد. لقد حقّقت تلك القطعات خوارق لها في الحروب شأنها وقيمتها. لقد تصرّف الروس جميعًا تصرّف أبطال، جنودًا كانوا أو ضباطًا أو جنرالات. وكان باغراتيون بطل الأبطال من غير منازع، فصار اسمه، خالدًا إلى الأبد، سواء بما أبلاه من بلاء حسن في معركة شونغرابن أو بما أظهره من سعة الحيلة إذ عرف كيف يعود برتله بانتظام، وأن يقاوم طوال النهار عدوًا يفوقه مرتين عددًا. ثم إن ما حضَّ الناس خاصّةً في موسكو، على أن يعدّوا باغراتيون بطل الساعة أنه لم تكن له أيّ علاقات في مدينتهم الطيبة، وأنه كان مجهولًا فيها كل الجهل. فكانوا يمجّدون فيه العسكري الروسي الشجاع الذي ليس له صلة بالمراكز الحكومية، ولم يصل إلى ما وصل إليه بالوساطات والشفاعات. أضف إلى ذلك أن ذكريات حملة إيطاليا كانت تقرن اسمه باسم سوفوروف. كما أن هذه الأمجاد التي تُخلع عليه كانت أحسن طريقة لإظهار اللوم وتوجيه التقريع وإبداء التجهم لكوتوزف. حتى لقد قال شنشين صاحب اللسان السليط محاكيًا الكلمة المشهورة التي قالها فولتير:

---

(1) ألكسندر لانجرون (1763 - 1831)، خدم في الجيش الفرنسي، وقاتل في أميركا سنة 1783، وهاجر عند قيام الثورة إلى روسيا، ودخل في خدمة روسيا سنة 1790، جنرالًا منذ عام 1803. تميّز في الحروب ضد تركيا وفرنسا. في 30 آذار (مارس) من سنة 1813 قاد جيشًا في مونمارتر ودخل باريس. حاكم عام لروسيا الجديدة في (أوروبا) من 1816 إلى 1828، مؤلّف كتاب «مذكّرات شائعة».

- لو لم يكن باغراتيون موجودًا لوجب اختراعه اختراعًا[1].

وكان الناس لا يقولون عن كوتوزف كلمة واحدة. فإذا اتفق أن نطق بعضهم باسمه، فذلك ليصفه سرًّا وخفية بأنه شيخ عاجز أو رجل متقلب الرأي أمَّعة.

وكانت موسكو كلها تردّد الكلمة المأثورة عن دولجوروف «كثرة الإلصاق تورث الاندباق»، وهي كلمة كانت تعزّي عن الكارثة الراهنة بذكرى الانتصارات السابقة. وكانت موسكو كلها تردّد أقوال روستويتيشين «إن الجندي الفرنسي يجب أن يقاد إلى المعركة بكلمات فخمة. أما الجندي الألماني فإنه لا ينقاد إلّا لأوامر المنطق: فيجب أن تشرح له أن الفرار أشد خطرًا على حياته من الهجوم. وأما الجندي الروسي فهو على خلاف ذلك يحتاج إلى أن تصدَّه وتنهاه وتحمله على الهدوء». وكانوا يسجّلون لجنودنا وضباطنا في كل يوم مآثر جديدة، فلان أنقذ راية، وفلان قتل خمسة فرنسيين، وفلان خدم وحده خمسة مدافع. وكان أناس ممن لا يعرفون بيرج يؤكّدون أنه حين جرحت يده اليمنى، سار إلى الطعان حاملًا سيفه بيده اليسرى. ولم يقولوا شيئًا عن بولكونسكي. وكان أصدقاؤه الحميمون وحدهم يأسفون لموته قبل الأوان، ويرثون لحال زوجته التي ستضطر أن تلد في منزل حميّها الخرف.

(1) محاكاة لجملة فولتير الشهيرة: إذا لم يكن الله موجودًا، فيجب اختراع إله.

الفصل الثالث

في اليوم الثالث من شهر آذار (مارس) كان ضجيج من المحادثات يملأ جميع صالات النادي الإنجليزي. وكان أعضاء النادي الذين يرتدي بعضهم بزات عسكرية، ويرتدي بعضهم أردية فراك، بل يرتدي بعضهم أيضًا قفاطين وقد رشُّوا شعورهم بالذرور، يذهبون ويجيئون، ويبقون جالسين أو قائمين، ويتجمعون ويتفرجون، فإذا رأيتهم قلت إنهم سرب من النحل في الربيع. وكان الخدم متسمّرين عند كل باب بالثياب الرسمية وباروكات الشعر الحرير والأحذية الخفيفة، يرصدون أيسر الإشارات، التي قد تصدر عن حضور الحفلة ليخفُّوا إلى خدمتهم. وكان أكثر حضور الحفلة رجالًا كبار السن، ثقال الوزن، عراض الوجه، لهم هيئة تعبّر عن الثقة وأصابع ثخينة، وأصوات جازمة وإشارات حاسمة، يتربّعون في أماكنهم الأثيرة أو يتجمعون في حلقاتهم المعتادة. وكان الضيوف العابرون، وجميعهم تقريبًا شباب، ومن بينهم دينيسوف وروستوف ودولوخوف الذي رُدَّت إليه رتبته العسكرية وعاد ضابطًا في فوج سيسينوفسكي، كانوا فئة ضئيلة بالقياس إلى باقي الحضور. وكان يلم بوجوه هؤلاء الشبان، وفي وجوه العسكريين منهم خاصّةً، ذلك التعبير الطفيف عن الاحترام الساخر الذي يبدو كأنه يقول للشيوخ: «لسنا نمنع عنكم لا الاحترام ولا المراعاة والمداراة، ولكن لا تنسوا أن المستقبل لنا نحن».

وكان نزفتسكي أيضًا هناك، وهو عضو من أعضاء النادي يستهويه التّردُّد إليه. وكان بطرس قد ضحّى بنظارتيه امتثالًا لأوامر زوجته، ولكنه في مقابل ذلك أطال شعره وارتدى ثيابًا على الموضة، وكان يتجوّل في الصالونات

كابي الهيئة، عابس الأسارير، حزين الملامح. كان شأنه في ذلك المكان كشأنه في كل مكان، يحس بأن جوًا من العبودية يحيط به، ويخيّم عليه. لقد اعتاد أن يسيطر على هؤلاء الذي يتملّقونه ويتزلّفون إليه بفضل ثروته، فكان لا يعبأ بهم كثيرًا، ولا يوليهم إلّا انتباهًا ضئيلًا فيه دهشة وازدراء. لئن كانت سنه تضعه في عداد الشبان فإن ثراءه الطائل وعلاقاته العالية تضعه في حلقة الرجال المسنّين المحترمين. فكان يتنقّل بين هؤلاء وهؤلاء. وتشكّلت حول أهم الشخصيات منزلة وأعلاهم مقامًا جماعات كان ينضم إليها أشخاص مجهولون نهمون إلى التقاط ما يتفوّه به رجال عظام كهؤلاء الرجال من أقوال، وما يدور بينهم من أحاديث. وكان الزحام يشتد خاصّةً حول الكونت روستوبتشين وفالوييف وناريشكين[1].

كان روستوبتشين يؤكّد أن الروس، عندما أخذ النمسويون يهربون من المعركة فيدوسونهم دوسًا، اضطروا أن يشقّوا لأنفسهم طريقًا بين هؤلاء الفارين باستعمال الحراب. وكان فالوييف يقول من باب المسارّة إن أوفاروف أرسل من بطرسبورغ إلى موسكو ليعرف رأي أهل موسكو في معركة أوسترلتز. وكان ناريشكين يوقظ ذكرى اجتماع مجلس الحرب الذي رد فيه سوفوروف على الاقتراحات الخرقاء الحمقاء التي قدمها الجنرالات النمسويون بصيحة ديك. فأراد شنشين، الذي كان حاضرًا كذلك، أن يشارك في الحديث فيدس كلمة فقال: إن كوتوزوف لم يتعلم من سوفوروف حتى أن يصيح كما يصيح ديك، مع أن هذا فن ليس بالصعب العسير. ولكن الرجال المسنين المحترمين أفهموا المازح بنظرة قاسية صبّوها عليه أن لا المكان ولا اليوم يسمحان بالدعابة والفكاهة.

وكان الكونت إيليا آندريتش روستوف يجر حذاءيه الرخوين من قاعة الطعام إلى صالون الاستقبال، ومن صالون الاستقبال إلى قاعة الطعام معبرًا بهيئته عن الانشغال والانهماك موجِّهًا تحية سريعة، واحدة إلى الشخصيات المرموقة وإلى الشخصيات الأخرى التي تقل عنها خطورة شأن وعلوّ

(1) ألكسندر لفوفتش ناريشكين (1760 - 1826)، رجل من كبار السادة عُيِّن مديرًا للمسارح الإمبراطورية منذ سنة 1799.

المنزلة، لأنه يعرف هؤلاء وأولئك على السواء. وكانت عيناه الباحثتان المنقبتان تتوقفان من حين إلى حين عند ابنه الجميل الشجاع، فيطرف له بعينه طرفة تعبّر عن المحبة والمودّة والصداقة. وكان الفتى روستوف واقفًا عند كوة يتحدّث مع دولوخوف الذي عرفه منذ فترة قصيرة، وكان يبدو مشغوفًا به شغفًا عظيمًا.

أقبل عليهما الكونت الشيخ وصافح دولوخوف قائلًا له:

- أسعدني بزيارة منك في يوم من الأيام. فأنت صديق ابني الشجاع، وأنت بطل مثله...

ومر في تلك اللحظة رجل من الشيوخ، فهتف الكونت روستوف يقول له:

- آه... فاسيلي إغناتتش. يومك سعيد يا عزيزي.

ولكن تحياته ضاعت في جلبة تصاعدت في كل مكان؛ إذ إن أحد الخدم كان هرع ليعلن مشدوهًا عن وصول الأمير باغراتيون، قائلًا: «وصل!».

فإذا بأصوات أجراس صغيرة تدوّي، وإذا بأعضاء اللجنة يتصبّبون تصبب حبات قمح من مجرفة؛ وإذا بالمدعوين الذين كانوا مبعثرين حتى ذلك الحين في شتّى الردهات يحتشدون في الصالون ويتكوّمون على باب الصالة الكبرى.

وظهر باغراتيون في حجرة المدخل، بعد أن ترك للبواب السويسري قبعته وسيفه عملًا بتقاليد النادي. هو الآن لا يعتمر كسكيتته الجلد التي رآهـا روستوف على رأسه عشية معركة أوسترلتز، لا ولا يحمل سوطًا في نجاد كما كان في ذلك اليوم، وإنما هو يرتدي اليوم بزة جديدة كل الجدة تلتصق بجسمه التصاقًا، وتزدان بأوسمة روسية وأجنبية، وتحمل وسام سان جورج في جهتها اليسرى. وقد قص شعره والعارضَيْن، فكان هذا التغيير في سحنته لا يحسن إليها بل يسيء. وكان ما يصطنعه من مظهر الاحتفال الساذج يناقض قسماته التي تتّصف بالفحولة والقسوة مناقضة أدعى إلى الإضحاك. وقد وصل بكليشوف[1] وفيدور بتروفتش أوفاروف وقت

(1) ألكسندر آندريفتش بكليشوف (1743 - 1808)، رجل دولة، حاكم عام لروسيا الصغرى منذ 1798، نائب عام سنة 1802 وحاكم عام لموسكو سنة 1804، عرف بالصدق والاستقامة في خلقه وطبعه.

وصوله، فتوقفا عند الباب ليتقدمهما بطل الحفلة، فخجل باغراتيون من هذه الملاحظة، وأراد أن يعترض عليها، فحدث توقف دام لحظة لم يلبث باغراتيون بعدها أن أمتثل لإرادتهما. وسار على أرض صالة الاستقبال بخطوات خجولة خرقاء وهو يحس بوجود ذراعيه ولا يدري ماذا يفعل بهما: إنه لم يعتد السير في مثل هذه الصالة اعتياده السير في أراضٍ جرداء تحت وابلٍ من الرصاص، كما حدث له ذلك في شونغرابن حين سار في مقدّمة فوجٍ كورسك.

أعضاء اللجنة الذين كانوا ينتظرونه عند الباب الأول، عبُّروا له ببضع كلمات عن فرحهم باستقبال ضيف عزيز غالٍ مثله؛ ومن دون أن ينتظروا جوابه استولوا عليه استيلاء أن صحَّ التعبير، وقادوه إلى الصالون. وكان الوصول إلى الصالون يشبه أن يكون مستحيلًا من فرط تزاحم الناس على الأبواب هارسين بعضهم بعضًا، مصوّبين أبصارهم إلى باغراتيون من فوق الأكتاف، كما لو كان باغراتيون حيوانًا عجيبًا غريبًا. واستطاع الكونت إيليا آندريفتش، الذي كان ضحكه أعلى من ضحك سائر الناس، وكان لا ينفك يصيح «ممر، يا عزيزي، ممر!»، استطاع أن يشقَّ الحشد وأن يدخل الضيوف إلى الصالون، وأن يُجلسهم على كنبة الوسط. وأحاط أصحاب النفوذ من أعضاء النادي بالقادمين الجدد يحاصرونهم محاصرة، وخرج إيليا آندريتش روستوف من الصالون وهو يدفع الحشد من جديد، ثم سرعان ما رجع إلى الصالون يصحبه عضو آخر من أعضاء اللجنة. وكان يحمل في هذه المرة صينية من فضة عليها قصيدة من الشعر نُظِّمت وطُبعت تكريمًا لبطل اليوم؛ فتقدّم بالصينية إلى باغراتيون، فألقى باغراتيون على من حوله نظرة استغاثة كأنه يسألهم الحماية. ولكن جميع الأعين طلبت منه أن يذعن، فأحسّ بأنه خاضع لمشيئة هؤلاء الناس، فأمسك الصينية بيديه بحركة مباغتة تصحبها نظرة غضب على الكونت الذي يكرّمه بها. وتلطّف أحدهم فتناول من يديه هذا الشيء المربك - الذي كان يبدو عليه أنه لا ينوي التخلّص منه ولو للقيام إلى المائدة - ولفت انتباهه إلى قصيدة الشعر. فبدا على باغراتيون أنه يقول: «طيب! سوف أقرأ هذه الورقة!»، وحدَّق إلى الورقة متفرسًا فيها بعينيه

المكدودتين، وتهيأ للاطلاع على ما تتضمه. ولكن ناظم القصيدة انتزعها منه، وأخذ يقرأ بصوتٍ عالٍ، فكان باغراتيون يصغي إليه منحني الرأس:

كن إلى الأبد مجد عصر ألكسندر،

احرس لنا تيتوس على عرشه

كن القائد الرهيب والإنسان الخيّر في آن واحد.

ريفيه[1] في وطنك، وقيصر في المعارك.

حتى إذا عرف نابوليون السعيد ما باغراتيون...

ولم يكن الناظم قد انتهى من إنشاد هذه الأبيات حين دوَّى صوت رئيس الخدم دويّ الرعد قائلًا:

- مائدة صاحب السمو جاهزة.

فإذا بباب قاعة الطعام ينفتح على أنغام البولونيز:

دوّي يا صواعق النصر

افرحوا أيها الروس البواسل[2]

ونظر الكونت إيليا آندريتش روستوف نظرة مروّعة إلى الشاعر المزعج الذي كان يتابع إنشاد أبياته، وانحنى أمام باغراتيون، فنهض جميع الناس مؤثرين الطعام على الشعر ودخلوا قاعة الطعام الوراء باغراتيون.

أُجلس الجنرال في مكان الشرف بين اسكندرين هما بكليشوف وناريشكين، إشارة خفية إلى اسم الإمبراطور. وجلس المدعوون الثلاثمائة في أماكنهم وفقًا لرتبهم وعلو منزلتهم. فكان أرفعهم مقامًا أقربهم إلى بطل الحفلة مكانًا: أليس ينتشر الماء انتشارًا أعمق في المواضع المنخفضة من الأرض؟

---

(1) إن هذا النظام الذي يصطنع الأسلوب الكلاسيكي اصطناعًا، يعرف المؤلفين الذين يستشهد بآثارهم من المعرفة: إن ريفيه هو أليف إينيا، يظهر في الإلياذة، الجزء الثاني، ص 339، 394، 426.

(2) كانتاني دو درجافين: نشيد للاستيلاء على إسماعيل (1791). قد راج هذا النشيد بفضل بولونيز وضعها له جوزيف كوزلوفسكي، وبقيت زمنًا طويلًا، بمثابة نشيد وطني روسي.

وقبل بدء الوجبة بلحظة قصيرة قدم إيليا آرنديتش ابنه إلى باغراتيون، فتعرّف إليه باغراتيون، وقال له بضع كلمات مفكّكة غير مترابطة، كسائر ما قاله في ذلك اليوم على كل حال. ومع ذلك كان الكونت يُجيل على شهود هذا الحديث نظرة تفيض جذلًا وفرحًا وزهوًا.

نيقولا روستوف، ودينيسوف، وصديقهم الجديد دولوخوف، جلسوا إلى المائدة عند وسطها، وكان يجلس قبالتهم بطرس والأمير نزفتسكي. وجلس الكونت إيليا آندريتش هو وزملاؤه أعضاء اللجنة في مواجهة الأمير باغراتيون، وكان الكونت إيليا آندريتش يبلغ من إجادة القيام بدور المضيف أنه يمكن أن يُعدَّ تجسدًا لكرم الضيافة التي اشتهر بها أهل موسكو.

ومع أن عناءه لم يذهب سدًى، وأن قائمتي الطعام - قائمة الأطباق الخفيفة وقائمة الأطباق الدسمة - كانتا كلتاهما فخمتين، فقد ظل قلقًا طوال الحفلة. وكان يصدر أوامره إلى خازن الخمور بغمزات ويصدر أوامر أخرى إلى خدم المائدة بهمسات، وينتظر وصول كل صحفة من الصحاف التي كان قد رتبها، مضطربًا اضطرابًا ما ينفك يتجدّد. وجاء كل شيء سليمًا لا عيب فيه ولا مأخذ عليه. ومنذ أن جيء بالصحفة الأولى، حين ظهرت سمكة حفش ضخمة عملاقة واحمرّ الكونت إيليا آندريتش عند دخولها سرورًا وارتباكًا، نزع الخدم سدادات القناني مفرقعة وسكبوا الشمبانيا. وبعد السمك الذي نال الرضى والاستحسان، وكان لتقديمه أثر كبير في النفوس، تبادل الكونت وزملاؤه أعضاء اللجنة نظرة، وقال لهم الكونت بصوت خافت: «سيكون هناك أنخاب كثيرة، وقد آن أوان البدء بها»، ثم قام حاملًا كأسه بيده، فصمت الجميع مصغين إلى ما سيقوله.

هتف الكونت إيليا آندريتش روستوف وقد تخضّلت عيناه بدموع الحماسة:

- في صحة صاحب الجلالة الإمبراطور!

فدوَّت أصوات الأوركسترا مرة أخرى، وتعالت الأصوات تنشد: «دوِّي يا صواعق النصر». فهبَّ الجميع واقفين، وصاحوا يهتفون «هوررررا». وجاراهم باغراتيون في الهتاف بذلك الصوت نفسه الذي صدر عنه في ساحة معركة شوغرابن. وكان صوت بلغ غاية الحماسة يُسمع واضحًا

متميِّزًا بين الأصوات الثلاثمائة، هو صوت الكونت الشاب روستوف الذي لم يكد يستطيع أن يحبس دموعه، فكان يزأر زئيرًا بقوله: «في صحة صاحب الجلالة الإمبراطور، هوررررا». وأفرغ كأسه العالية في جوفه دفعة واحدة ورماها على الأرض. وانطلقت الهتافات أشد عنفًا وقوة. حتى إذا استرد الناس سكونهم وعاد الصمت، طفق الخدم يجمعون أقداح الكريستال المهشّمة من على أرض القاعة، وعاد الضيوف يجلسون على كراسيهم وقد أشرق الابتسام في وجوههم كلهم ابتهاجًا بحماستهم، واستأنفوا أحاديثهم المتصلة التي لا تنقطع. ولكن الكونت إيليا آندريتش روستوف لم يلبث أن نهض مرة أخرى، فألقى نظرة على ورقة موضوعة بجانب صحنه رافعًا كأسه، وهتف يقول: «نخب بطل حملتنا الأخيرة، بطرس إيفانوفيتش باغراتيون»، وقد عادت عيناه الزرقاوان تتخضّلان بالدموع مرة ثانية. وصاح الضيوف الثلاثمائة من جديد هاتفين: «هوررررا». ولكن لم تبادر الأوركسترا في هذه المرة إلى العزف، وإنما حل محلها مغنون ارتفعت أصواتهم صادحة بأغنية من وضع بافل إيفانوفيتش كوتوزوف:

الروس بالعقبات لا يعبأون
فشجاعتهم كفيلة بتحطميها
يكفي أن يكون عندنا أمثال باغراتيون
فنرى الأعداء تدوسهم أقدامنا.

وما إن انتهى المغنون من غنائهم حتى أخذت الأنخاب تتالى واحدًا بعد آخر. فكانت الأقداح التي تُرمى على أرض القاعة وتتهشم تزداد عددًا، وكانت رئات الصائحين تزداد تعبًا، وكان اهتياج الكونت إيليا آندريتش يزداد اشتدادًا. شُرب نخب بكليشوف، وناريشكين، وأفاروف، ودولغوروكوف، وآبراكسين، وفالوييف، وشُرب نخب أعضاء اللجنة، ونخب أعضاء النادي، ونخب ضيوفهم؛ وشرب أخيرًا نخب منظم الحفلة الكونت إيليا آندريتش روستوف. وكان من شأن هذا النخب الأخير أن مضى بانفعال الكونت إلى ذروته، فاضطر أن يمسح دموعه بمنديله.

الفصل الرابع

كان بطرس جالسًا أمام دولوخوف ونيقولا روستوف يلتهم طعامه التهامًا على عادته، ويفرغ في جوفه كأسًا بعد كأس. ولكن الذين يعرفونه حق معرفته لاحظوا أن تغييرًا كبيرًا طرأ عليه. لقد ظل صامتًا طوال مدة الوجبة، عابس الأسارير، يجيل على ما حوله نظرات عينيه الحسيرتين، أو يحك بأصبعه رأس أنفه جامد العين، شارد الذهن. كانت هيئته تعبّر عن حزن وكآبة. وكان طبيعيًا وهو غارق في فكرة مسيطرة عليه، وشكوك تقلقه وتملأ نفسه كربًا، ألا يبصر ما يجري ولا يسمع ما يقال من حوله.

إن الشبهات الرهيبة التي أيقظتها في نفسه، منذ وصوله إلى موسكو، تلميحة خبيثة ماكرة أطلقتها إحدى الأميرات، تحاصره الآن محاصرة عزَّزتها في هذا الصباح رسالة ينبّهه فيها كاتبها، بلهجة التهكم والسخرية المألوفة، إلى أنه لا يرى الأشياء رؤية واضحة رغم نظارتيه، وأن العلاقة القائمة بين زوجته وبين دولوخوف سر ذائع شائع. فكان بطرس، على احتقاره لهذه الإلماعات والتعريضات، يشعر بضيق شديد وحرج قوي من النظر إلى دولوخوف الجالس قبالته. فكلما وقع بصره على عينَيْ هذا الضابط، الجميلتين الوقحتين، أحس بالبلبلة الرهيبة تثب في نفسه، فأسرع يشيح عنه. إن كل ماضي هيلين، وكل أسلوبها في معاملة دولوخوف، يحضّه على أن يقدّر أن المزاعم التي تبلغ إليه من أشخاص لا يذكرون أسماءهم كان يمكن أن تكون صحيحة لولا أن المرأة التي تتناولها هذه المزاعم هي «زوجته» هو. كان يتذكّر عودة دولوخوف إلى بطرسبورغ وقد رُدّت إليه حقوقه جميعها بعد الحملة؛ ويراه وقد جاء إليه رأسًا قبل أن يذهب إلى أي

مكان آخر، فيأخذ يذكره بما اشتركا فيه من ألوان التهتك والعربدة، ويطلب منه أن ينزل في بيته ضيفًا عليه، فيلبّي هو هذا الطلب بكرم وسخاء، حتى ليمضي إلى حد إقراضه مالًا؛ ولا يزال يسمع صوت هيلين وهي تعاتبه مبتسمة على إدخاله هذا الضيف الثقيل إلى منزلها، ويسمع دولوخوف يفيض في الثناء على جمال امرأته بغير تحرّج ولا حياء؛ ويتذكّر أنه منذ ذلك الحين إلى أن وصلا موسكو لم يتركها لحظة واحدة.

قال بطرس محدِّثًا نفسه: «لا شك في أنه فتى جميل جِدًّا. ثم إنني أعرفه. وقد قمت بمساعٍ في سبيله. واستضفته. ومددت له يد المعونة. وتلك كلها أسباب تجعله يجد لذة خاصّةً في تلطيخ اسمي بالعار؛ وتحمله على أن تبدو له ضيافته أكثر لذة... لو صدق الزعم وصحت الإشاعة. ولكن الزعم كاذب، والإشاعة باطلة. إنني لا أصدق هذا الكذب؛ ليس من حقي أن أصدقه..». ولكن بطرس لا يزال يتذكّر ملامح وجه دولوخوف التي كانت تعبّر عن وحشية كاسرة حين كانت تعتريه نوبات قسوة. إنه يتذكّر مثلًا ذلك اليوم الذي ربط فيه دولوخوف رجل الشرطة بدب قبل أن يلقيه في الماء؛ ويتذكر ذلك اليوم الآخر الذي استفز فيه رجلًا ودعاه إلى المبارزة من دون أي سبب؛ ويتذكّر ذلك اليوم الثالث الذي أطلق فيه الرصاص على حصان حوذيّ فأرداه قتيلًا. وها هو ذا بطرس يتذكّر فجأة أن دولوخوف نظر إليه مرارًا وقد عبّرت قسمات وجهه عن تلك الوحشية الكاسرة المفترسة. قال بطرس لنفسه: «نعم، إنه إنسان يحب القتال. ليس لقتل إنسان في نظره أي شأن. إنه في حاجة إلى أن يتخيّل أن الناس جميعًا يخافونه ويرهبونه فإذا وثق بذلك فاضت نفسه لذة خبيثة شريرة. غالب الظن أنه يعتقد بأنني أنا أيضًا أخافه وأرهبه. وما هو في هذا بمخطئ على كل حال».

ومرة أخرى شبَّت في نفس بطرس زوبعة عنيفة جديدة.

وفي أثناء ذلك كان دولوخوف ودينيسوف وروستوف الجالسون أمامه يبدو عليهم أنهم جذلون مبتهجون كثيرًا. كان روستوف يمازح صديقه مرحًا فرحًا، معتزًا بأن أحدهما فارس مغوار، وبأن الثاني رجل يهوى القتال والطعان وإن يكن مبطنًا بإنسان حقير. وكان يلقي، من حين إلى حين، نظرة

ليس فيها كثير من اللطف، على بطرس الذي كانت ضخامة صدره العريض وعبوس هيئته المغلقة يلفتان النظر. وليست هذه العداوة التي يحسّها الفارس الشاب عسيرة التفسير والتعليل: كان هذا العسكري لا يرى في بطرس إلّا «مدنيًا» واسع الثراء، وزوجًا لامرأة مرموقة الجمال. أي رجلًا يشبه أن يكون أنثى. هذا إلى أن بطرس الذي كان غارقًا كل الغرق في مشاغل فكره وهموم نفسه لم يظهر عليه أنه تعرّفه، هو نيقولا روستوف، ولا ردَّ تحيّة بمثلها.

وحين شرب الناس نخب الإمبراطور كان بطرس غارقًا في خواطره وتأملاته، فلم يقم عن كرسيه، ولا أمسك كأسه بيده.

وقد صرخ روستوف عندئذ يقول له وهو يلقي عليه نظرة صاعقة مثقلة بغضب شديد وتعصّب قوي:

- ما بالك؟ ألم تسمع أننا نشرب نخب الإمبراطور؟

فتنهَّد بطرس، وقام من مكانه طائعًا منصاعًا، وشرب كأسه؛ وفيما كان ينتظر أن يفرغ الآخرون من ابتهاجهم ليعود إلى الجلوس نظر إلى روستوف وهو يبتسم له ابتسامته الطيبة. وقال له:

- ما كان أغباني! تصوَّر أنني لم أتعرفك!

ولكن روستوف المسترسل في هتافاته «هوررررا»، لم يول هذا الكلام أي اكتراث، ولم يلتفت إليه أي التفات.

سأله دينيسوف:

- لماذا لما تجدّد معرفتك به.

فأجاب روستوف:

- لا يهمني هذا الأبله كثيرًا ولا قليلًا!

فرد عليه دينيسوف قائلًا:

- بل يجب على المرء دائمًا أن يلاطف أزواج النساء الجميلات. وأدرك بطرس أن الحديث بينهما يدور عليه، رغم أنه لم يسمع ما يقولانه من كلام. فاحمر وجهه وأشاح وجهه.

وقال دولوخوف يقترح نخبًا جديدًا:

- والآن فلنشرب نخب النساء الجميلات.

ورفع كأسه، وأضاف متّجهًا بكلامه إلى بطرس معبّرًا بهيئته عن أكبر الجد ولكن مع ابتسامة في طرف الشفتين:

- بتروشا! نخب النساء الجميلات وعشّاقهن!

فأفرغ بطرس كأسه خافضًا عينيه، من دون أن يجيب دولوخوف، وحتى من دون أن يلقي عليه نظرة.

وكان خادم يوزع على المدعوّين المرموقين نسخًا من أغنية كوتوزوف، فأعطى بطرس نسخة. وفيما كان بطرس يتهيأ لتناول النسخة، إذا بدولوخوف يميل فوق المائدة، ويختطف النسخة من يد بطرس، ويأخذ يقرأها. فنظر إليه بطرس في هذه المرة، وانخفضت حدقتاه، وهبت العاصفة التي ظلت تعتمل في نفسه طوال مدة الوجبة، فانحنى بكل جسمه الثقيل من فوق المائدة، وصرخ يقول:

- أترك هذه الورقة!

فارتاع تروفتسكي وجار بطرس بيزوخوف الجالس إلى يمينه، ارتاعا من غضبته هذه، وأرادا أن يتوسطا في الأمر، فقالا له بصوت خافت جِدًّا:

- اهدأ! ماذا اعتراك؟

وحدَّق دولوخوف إلى بطرس بعينيه الزرقاوين الفرحتين القاسيتين، وابتسم ابتسامة كأنها تقول: «ها... هذا ما يعجبني!».

وأجاب بطرس يقول بصوت قاطعٍ جازمٍ:

- لا، لن أتركها!

فانتزع منه بطرس الورقة انتزاعًا، وقد امتقع وجهه واختلجت شفتاه غضبًا. وقال له:

- أنت... إنسان... حقير! هيئ نفسك للمبارزة.

ودفع كرسيه، وغادر المائدة.

وفي تلك اللحظة نفسها التي قام فيها بطرس بتلك الحركة، ونطق بتلك الأقوال، أحس بأن مسألة إدانة امرأته والحكم بأنها آثمة، هذه المسألة التي ظلّت تطرح نفسها عليه طرحًا فاجعًا منذ أربعٍ وعشرين ساعة، قد حُلَّت الآن، وبتَّ فيها بتًا قاطعًا لا ريب فيه ولا تراجعَ عنه، فهي آثمة ولا شك.

وامتلأت نفسه بالكراهية والبغض لامرأته، وأحس بأنه قد انفصل عنها إلى الأبد.

ورغم توبيخات دينيسوف، رضي روستوف أن يكون لدولوخوف شاهدًا في المبارزة؛ وبعد القيام عن المائدة اتفق مع نزفتسكي، الذي كلفه بطرس بيزوخوف بشؤونه، على شروط اللقاء.

رجع بطرس إلى منزله. أما روستوف فقد مدَّ سهرته في النادي مع دولوخوف ودينيسوف، يصغون إلى غناء الغجر وإنشاد المنشدين العسكريين.

وقال دولوخوف لروستوف وهو يودعه على درج مدخل النادي:

- إلى الغد، في غابة «مربّي الصقور».

فسأله روستوف:

- وهل أنت هادئ؟

فتوقّف دولوخوف وقال له:

- اسمع يا عزيزي، سأكشف لك بكلمتين عن سرّ المبارزة كله. إذا أنت في عشية المبارزة كتبت وصيتك، وكتبت رسائل عاطفية لأهلك وفكرت في احتمال أن تُقتل، كنت أحمق وكنت تسعى إلى حتفك. أما إذا مضيت إلى المبارزة عازمًا عزمًا قاطعًا على أن تقتل خصمك بأقصى سرعة قتلًا مؤكدًا كل التأكيد، فإن الأمور تجري على خير ما تحب. وفقًا للتعبير الذي يستعمله صاحبنا صياد الدببة الكوسترومي. كم من مرة قال لي: «حين تمضي إلى صيد الدب فإن الفزع يعتريك طبعًا. ولكن متى ظهر الدب: زال الفزع وأصبحت لا تطلب إلّا شيئًا واحدًا، هو ألا يفلت منك الدب». وذلك بعينه هو ما سأفعله. إلى الغد يا عزيزي.

وفي الساعة الثامنة من صباح الغد، وصل بطرس ونزفتسكي إلى غابة «مربِّي الصقور»، حيث كان ينتظرهما دولوخوف ودينيسوف وروستوف.

كان يبدو على بطرس أن همومًا لا علاقة لها بالمسألة الراهنة، بل هي غريبة عنها كل الغرابة، كانت تشغل باله وتملأ نفسه. إن المرء يدرك من استطالة وجهه واصفرار لونه وزيغ نظرته، ومن عينيه اللتين تطرفان كأن

ضوء شمس باهر يسقط عليهما، أنه لم يغمض له جفن في تلك الليلة. كان أمران لا ثالث لهما يشغلان باله: أن امرأته آثمة، وتلك نتيجة انتهت به إليها ساعات أرقه وبرهنت له عليها؛ وبراءة دولوخوف الذي ليس هناك أي سبب يدعوه إلى مراعاة شرف رجل ليس في نظره شيئًا ذا بال. كان بطرس يقول لنفسه: «لو كنت في مكانه، فلعلني كنت أفعل ما فعل. نعم، كنت أفعل ما فعل حتمًا. فلماذا هذه المبارزة، لماذا هذا القتل؟ إما أنني سأقتله، وإما أنه هو الذي سيصيبني في رأسي أو كوعي أو ركبتي. ماذا لو هربت من هذه المبارزة، ماذا لو مضيت أختفي في مكان من الأمكنة؟». ولكنه في تلك اللحظة نفسها التي كانت هذه الخواطر تراوده فيها، قال يسأل بلهجة باردة متجرّدة، مترفّعة فرضت مهابته على من حوله «أنحن مستعدون؟ أم أنتم تؤثرون التأخير قليلًا؟».

وأُلقيت المسدسات في أثناء ذلك، وأخذ الشهود يغرسون أسيافًا في الثلج لتعيين الحدِّ الذي لا ينبغي تجاوزه، حتى إذا انتهت هذه الاستعدادات كلها اقترب نزفتسكي من بطرس وقال له بصوت متعلثم:

- أعتقد أنني أخل بواجبي، يا كونت، وأكون غير جدير بالشرف الذي أوليتني إياه حين اخترتني لك شاهدًا، إذا أنا، في هذه الدقيقة الخطيرة، هذه الدقيقة الخطيرة جِدًّا، إذا أنا لم أقل لك الحقيقة كلّها. إنني لا أرى لهذه المبارزة أسبابًا ذات قيمة، والأمر لا يستحق أن يُسفح من أجله دم... إنك على خطأ، أو قل في أقل تقدير إنك لست على صواب تمامًا... لقد اندفعت اندفاعًا شديدًا... فأجابه بطرس موافقًا على رأيه:

- نعم هذا كله غباء!

- فإذا كان هذا هو رأيك، فدعني أنقل إلى خصومنا اعتذارك، وأظن أنهم سيقبلونه.

كذلك قال نزفتسكي. إنه كسائر الناس وكجميع الأشخاص الذين يقحمون في شؤون كهذه الشؤون، كان لا يستطيع أن يصدِّق أن الأمور ستسير إلى النهاية.

وأردف يقول معززًا رأيه:

- إنك لا تجهل هذه الحقيقة يا كونت: لئن يعترف المرء بأخطائه خير من أن يتمادى فيها فيصل إلى حيث يستحيل تدارك ما وقع وإصلاح ما فسد. اسمح لي أن أفاوض...

فقال بطرس جازمًا:

- لا. لماذا؟ ما الفائدة الآن؟... هل نحن مستعدون؟

وأضاف وهو يبتسم ابتسامة يجبر نفسه عليها بعض الإجبار:

- ولكن قل لي: ما هو الحد الذي يجب أن أتقدم إليه وأقف عنده، وفي أي اتجاه يبغي أن أطلق الرصاص؟

وتناول المسدس، وسأل كيف يُضغط الزناد، من دون أن يعترف مع ذلك بأنه لم يمسك بيده سلاحًا في يوم من الأيام.

- آ... نعم... عرفت. كنت قد نسيت.

وقال دولوخوف هو أيضًا لصاحبه دينيسوف الذي كان يحاول أن يقنعه بترك هذا الأمر:

- لا، لا اعتذار! أرفض الاعتذار رفضًا باتًا قاطعًا.

وتقدم هو أيضًا إلى الموضع المحدد له.

كان المكان الذي وقع عليه الاختيار فُرجة صغيرة من غابة الصنوبر تبعد ثمانين خطوة عن الطريق الذي تركوا فيه الزلاجات. وكان الذوبان قد بدأ منذ بضعة أيام، فهو يصهر الثلوج المتراكمة على الأرض.

وقف الخصمان على بعد أربعين خطوة، أحدهما من الآخر، عند طرفي الفُرجة.

وكانت خطوات الشهود حين قاسوا المسافة قد تركت آثارًا على الثلج الرخو تنتهي أمام سيفي نزفتسكي ودينيسوف، اللذين غُرسا وتدين يحدان الساحة على مسافة عشر خطوات. وكان الضباب لا يزال منتشرًا، والثلج لا يزال يذوب، فلا يرى المرء شيئًا على مسافة أربعين خطوة. ولقد هُيئ كل شيء منذ ثلاث دقائق، ولمَّا يخطر ببال أحد أن يبدأ إطلاق النار. وكانوا صامتين جميعًا لا ينطق أحد منهم بكلمة واحدة.

الفصل الخامس

قال دينيسوف:

- هيَّا بنا!

فأجابه بطرس وهو لا يزال يبتسم:

- هيَّا بنا!

كان واضحًا أن وقف هذه القضية التي حضَّ عليها الطيش أصبح مستحيلًا. شيء رهيب. ستجري في طريقها من دون نكوص، مستقلة عن كل إرادة إنسانية.

تقدم دينيسوف أول المتقدمين إلى الحد المعيَّن وصاح يقول:

- أما وقد رفض الخصمان أن يتصالحا، فإنني أدعوهما أن يتناول كل منهما مسدسه، وأن يسير متى وصلت بالعدِّ إلى «ثلاثة!»...

ثم صرخ بصوت حانق:

- واحد!... اثنان!... ثلاثة!

وتنحّى.

فسار الخصمان أحدهما إلى الآخر، متّبِعين ذلك النوع من الممر الذي شقّته خطوات شاهديهما في الثلج، وكان من حق كل منهما أن يطلق الرصاص قبل أن يصل إلى الحد المرسوم، فكانا كلما تقدّما يريان أحدهما الآخر من خلال الضباب بمزيد من الوضوح. كان دولوخوف يتقدّم بخطى بطيئة، منكّسًا مسدسه، محدّقًا إلى بطرس بعينيه الزرقاوين الفاتحتين الساطعتين. وكانت بسمة غامضة تتموج في شفتيه على عادته.

قال بطرس:

- أستطيع إذًا أن أطلق الرصاص حين أريد؟

فلما سمع صيحة دينيسوف «ثلاثة»، انطلق إلى الأمام بسرعة جعلته ينحرف عن الدرب ويغوص في الثلج. ومن خوفه في غالب الظن أن يُصاب بجرح من مسدسه هو نفسه، كان يحمل المسدس مادًا ذراعه اليمنى، وكان يحاول أن يجعل ذراعه اليسرى خلفه إذ كان يغريه أن يستعين بها في سند يمناه، رغم أنه كان لا يجهل أن ذلك محظور. فبعد أن سار خمس خطوات أو ست خطوات تائهًا في الثلج نظر إلى قدميه، وألقى نظرة سريعة على دولوخوف، وضغط زناد المسدس كما عُلّم كيف يضغطه. فكان من شأن الانفجار العنيف الذي لم يكن يتوقعه أن جعله يرتعش. ولكنه سرعان ما ابتسم ساخرًا من سذاجته وتوقف. كان الضباب والدخان يحجبان عنه خصمه تحت ستار كثيف. وبدلًا من أن يسمع الطلقة الثانية التي كان يتوقّعها، لم يسمع إلّا خطى تسرّع. واستشف قامة دولوخوف من خلال الضباب أخيرًا، ورأى امتقاع لونه، ورآه ضاغطًا جنبه الأيسر بإحدى يديه، قابضًا على مسدسه المنكّس باليد الآخرى، ورأى روستوف يهرع إليه ويقول له بضع كلمات.

ردَّ دولوخوف على كلمات روستوف بدمدمة متقطعة من بين أسنانه المكزوزة:

- لا... لا... لم... ينته... الأمر!

وسار بضع خطوات أخرى مترنحة، ثم هوى على الثلج من جهة السيف. وبعد أن مسح يسراه المدمّاة بجلبابه، حاول القيام متكئًا، وكان وجهه الشاحب المظلم يرتجف ويرتعش.

وقال ناطقًا أحرفه بكثير من العناء:

- اسمـ... اسمـ...

واستطاع أخيرًا أن يتمم كلمته بجهد كبير فقال:

- اسمح...

فأوشك بطرس أن ينفجر باكيًا ناشجًا منتحبًا، وهرع إليه غير عابئ بأنه يتجاوز الساحة المحظور تجاوزها، فإذا بدولوخوف يصرخ فجأة:

- التزم الحد... لا تتجاوزه!
فأدرك بطرس ماذا يريد، فعاد يقف بقرب السيف الذي ينبغي ألا يتجاوزه.
وأصبحت المسافة التي تفصل بينهما عشر خطوات لا أكثر.
أغطس دولوخوف رأسه في الثلج، وملأ فمه في نهم شديد، ثم نصب جذعه، محافظًا على توازنه بكثير من الجهد والعناء، فاستطاع أن يكون جالسًا. وكان لا يزال يمص الثلج الذي عبَّه وملأ به فمه. وكانت شفتاه تختلجان، ولكن عينيه اللتين لا تزالان مبتسمتين، كانتا تشعّان ببريق الكراهية التي أجَّجها هذا الجهد الشديد نفسه وزادها حدة وأوارًا. وأخيرًا رفع مسدسه وأخذ يصوب.
قال نزفتسكي ينصح بطرس:
- قف مواربًا، وغطِ نفسك بالمسدس.
ولم يملك دينيسوف أن يصرخ قائلًا رغم أنه شاهد الخصم:
- هلا غطيت نفسك.
ولكن بطرس ظل واقفًا على وضعه، مباعدًا ذراعيه وساقيه بغير حماية، عارضًا صدره العريض لدولوخوف، ناظرًا إليه وهو يبتسم له ابتسامة شاحبة عليها طابع الشفقة والندم. وأغمض دينيسوف وروستوف ونزفتسكي أعينهم. فلما سمعوا صوت إطلاق الرصاصة سمعوا في الوقت نفسه صرخة غضب حانق.
لقد زأر دولوخوف يقول:
- لم أصبه!
وسقط على الأرض خائر القوى، ممرغًا وجهه بالثلج.
فأمسك بطرس رأسه بيديه، ونكص على عقبيه هاربًا في الغابة. وكان أثناء خطوه خطوات واسعة على الثلج لا ينفك يقول بصوت تائه زائغ كلمات مفككة غير مترابطة:
- غباء!.. حماقة!.. الموت!.. باطل!.. كذب هذا كله!...
وأدركه نزفتسكي ورجع به إلى بيته.

وقام روستوف ودينيسوف بنقل الجريح. فكان دولوخوف، وهو راقدٌ في قاع الزلاجة مغمض العينين. لا يجيب عن الأسئلة التي تلقى عليه. حتى إذا دخلوا موسكو، صحا من إغمائه، وأمسك يد روستوف الجالس إلى جانبه. إن وجهه الآن يُعبِّر عن حنان قوي وعاطفة رقيقة، حتى لكأنه بُدِّل إنسانًا آخر. فسأله روستوف، وهو لا يصدق ما تراه عيناه:

- هيه! كيف حالك الآن؟

فأجابه دولوخوف بصوت متقطع:

- سيئة! ولكن ليس هذا هو الأمر يا عزيزي. أين نحن؟ في موسكو، أليس كذلك؟... إن ما قد يحدث لي لا يهمني البتة... ولكن هي... لقد قتلتها قتلًا... قتلتها... لن تحتمل هذا... لا... لن تقدر على احتماله في يوم من الأيام...

فسأله روستوف:

- من هي؟

- أمي، أمي، ملاكي المعبود...

قال دولوخوف ذلك وسالت الدموع غزيرة من عينيه، وقبض على يد روستوف بيدٍ متشنجة. حتى إذا هدأ قليلًا، ذكر لروستوف أنه يقيم مع أمه، وأنها إذا رأته على هذه الحال فلن تصمد للمحنة، وطلب منه أن يصل إليها قبله عسى أن يهيئها للأمر تهيئةً تخفّف وطأة المفاجأة.

قَبِل روستوف أن يلبّي طلبَ دولوخوف، فما كان أشد دهشته حين كشفت له هذه المهمة التي كلِّف بها عن أن هذا الشاب التافه الشغوف بالاقتتال كان يعيش في موسكو مع أمه العجوز، وأخته الحدباء، وأنه كان أكثر الأبناء حبًا لأمه وأكثر الأخوة حنانًا على أخته.

الفصل السادس

قَلَّ أن خلا بطرس وامرأته في الآونة الأخيرة أحدهما إلى الآخر، فلقد كان منزلهما يغص بالناس دائمًا، في موسكو وفي بطرسبورغ على السواء. وفي الليلة التي تلت المبارزة لم يذهب بطرس إلى غرفة النوم: وإنما بقي في حجرة أبيه الواسعة، كما كان يحدث له هذا كثيرًا، وهي تلك الحجرة نفسها التي توفي فيها الكونت.

اضطجع بطرس على الديوان آملًا أن ينسى بالنوم ما حدث، ولكنه لم يجد إلى النوم سبيلًا. إن عاصفة هائلة من الخواطر والعواطف والذكريات قد هبَّت في نفسه، فلا هو استطاع أن ينام، ولا استطاع أن يبقى في مكانه، فكان يثب عن الديوان، ويروح يذرع الغرف ذاهبًا آيبًا بخطى سريعة. كانت تتراءى له هيلين في اللحظات الأولى من زواجهما! وتتراءى له كتفاها العاريتان ونظراتها الناعسة، ثم سرعان ما ينبثق في خياله إلى جانب هذه الصورة وجه دولوخوف، الجميل المستهتر السافر، على نحو ما كان في المأدبة، ثم يتراءى له هذا الوجه نفسه شاحبًا متقلصًا متشنجًا متألمًا متعذبًا على نحو ما ظهر له حين هوى المسكين على الثلج.

كان يدور في نفسه هذا الحوار: «ماذا حدث؟» – قتلت «عشيق» زوجتي. – ولماذا قتلته؟ كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ فيجيبه صوت من أعماقه: – لأنك تزوجتها؟ – ما ذنبي إذا تزوجتها؟ – ذنبك أنك تزوجتها من دون حب، ذنبك أنك خدعتها إذ خدعت نفسك».

وسرعان ما انبجست في خياله ذكرى الدقيقة الحاسمة المشؤومة التي قال لها فيها بعد العشاء عند الأمير فاسيلي: «أحبك!». نعم هذا مصدر كل

شيء، هذه علّة كل ما حدث. لقد كنت أحسّ في تلك الليلة بأنني لا يحق لي أن أقول لها هذه الكلمة، وأنني ارتكب خطأ جسيمًا. ولم يخدعني إحساسي وكان إحساسًا صادقًا».

واحمرّ بطرس فجأة حين تذكر شهر العسل. إن هناك حادثًا طارئًا وقع في ذلك الشهر السعيد يُشعِره بخجل شديد: في ذات صباح، بعد الساعة الحادية عشرة، بينما كان ينتقل من غرفتها إلى مكتبه، وجد في المكتب وكيل أعماله. فلما رأى الوكيل وجه بطرس المشرق، ورأى ثوب النزل الذي يلبسه وهو من حرير ناعم الملمس زاهي اللون، حيَّاه باحترام، وأباح لنفسه أن يبتسم ابتسامة خفيفة إظهارًا منه لمشاركة مولاه في سعادته.

«ما كان أغباني! كانت محلَّ اعتزازي وافتخاري! كنت أكبر في نظر نفسي حين أراها جميلةً هذا الجمال كله، مهيبة تلك المهابة كلها، حصينة، منيعة، لا سبيل لأحد إليها. وكنت أعجب أعظم الإعجاب بحسن آدابها حين كانت تستقبل في منزلي بطرسبورغ كلها! كان في ذلك حقًّا ما يدعو إلى الازدهاء! وكنت أظن أنني لا أفهمها. كم من مرة أخذت على نفسي وأنا أدرس طبعها أنني أجهل هذا الهدوء المستمر، وهذه الهيئة الراضية دائمًا، وتنزّهها عن كل رغبة وكل هوى! وكان مفتاح السر كله هو في هذه الكلمة: إنها امرأة فاجرة!

«كان آناتول يأتي إليها ليقترض مالًا، ويقبِّل كتفيها العاريتين. فكانت تمنع عنه المال، ولكنها ترضى بالقبلات. وكان أبوها إذا مازحها فاستثار غيرتها تجيبه بابتسامة هادئة: «لست من الغباء بحيث أكون غيورًا. في وسعه أن يفعل ما يحلو له». كذلك كانت تقول عني. وحين سألتها ذات يوم ما إذا كانت تشعر بأعراض حَبَلٍ قالت لي وهي تضحك ضحكة احتقار: «إنها ليست من الحماقة بحيث تتمنى أن يكون لها أولاد، وإنها لن يكون لها أولاد مني على كل حال».

وتذكّر بعد ذلك ما كان في أفكارها من خطة واضحة، وما كان في تعابيرها من ابتذال مفضوح لا يتفق كثيرًا وتربيتها الأرستقراطية: «أتظنني معتوهة؟... حاول إن استطعت... اذهب فتنزه!». وحين كان يرى الناس

يدلّلونها شبانًا وشيوخًا، كان لا يفلح في أن يفهم: لماذا ينفرد من دون سائر الناس بأنه لا يحبها؟». لا، إنني لم أحبها في يوم من الأيام قطعًا. كنت أعلم أنها امرأة فاجرة فاسقة، ولكني كنت لا أجرؤ أن اعترف لنفسي بهذا... والآن، هذا دولوخوف يخر ساقطًا على الثلج، ويحاول أن يبتسم، ولعله ينازع أيضًا ولا يجيب على اندفاعة ندابتي إلّا بتبجح يتظاهر به تظاهرًا!».

إن بطرس واحد من أولئك الناس الذين لا يبوحون لأحد بما يعتمل في نفوسهم، رغم ما يزعم من أنه ضعيف الإرادة، وإنما يظلّون يجترون أحزانهم في داخلهم.

كان يحاور نفسه قائلًا: «إنها هي المذنبة، هي المذنبة. ولكن ما حيلتي؟ لماذا ارتبطت بها؟ لماذا قلت لها تلك الكلمة المشؤومة «أحبك»، وهي كلمة كذب، بل كلمة فيها ما هو أشر من الكذب؟... فأنا المذنب إذًا، ويجب علي أن أتحمل... أن أتحمل ماذا على وجه الدقة؟ تلطخ شرفي بالعار؟ تجلّلي بالخزي؟ ولكن لا... ما هذا الكلام الذي تقوله؟ الخزي والعار وتلطخ الشرف وكل ما إلى ذلك نسبي لا شأن له بشخصيتي، وليس يمسني أنا».

«لقد أعدموا لويس السادس عشر لأنهم «هم» عدُّوه مجرمًا لا شرف له، وكانوا من وجهة نظرهم على حق. ولكن ألم يكن على حق أيضًا أولئك الذين استشهدوا في سبيله، وجعلوه في عداد القديسين ثم أعدم روبسبيير، لأنه كان طاغية... فمن كان على حق، ومن كان على ضلال؟ لا أحد. انتفع بالحياة ما دمت حيًّا، وغدًا تموت كما كان يمكنني أن أموت منذ ساعة. هل يستحق الأمر أن تعذِّب نفسك هذا التعذيب مع أن ما بقي لك من عمر على هذه الأرض ليس إلّا دقيقة قصيرة بالقياس إلى الأبدية؟».

ولكنه في تلك اللحظة التي ظنّ فيها أن هذا التفكير قد هدّأه، تذكر فجأة تلك الدقائق من التظاهر بالاسترسال على السجية، والابتعاد عن التصنّع، التي أظهرت له فيها حبها الكاذب الزائف. فسرعان ما أحسّ بالدم يزدحم في قلبه: فإذا هو يقوم من جديد، ويسير، ويأخذ يهشّم كل ما يقع تحت يده. وكان يتساءل بغير انقطاع: «شيطان يأخذني! لماذا قلت لها: أحبك؟».

وفيما كان يلقي على نفسه هذا السؤال للمرة العاشرة، تحضره كلمة موليير: «ولكن ما عساه صانعًا في سجن الأشغال الشاقة هذا الذي زج فيه»، فأخذ يضحك ما نزل به هو نفسه من مصيبة، وما ناله من حظ عاثر.

وفي الليل دق الجرس مناديًا خادمه، وأمره بأن يهيئ له حقائبه. إن قيام حديث بينه وبين امرأته بعد اليوم يبدو له أمرًا لا يمكن تصوّره، فقرّر أن يسافر منذ الغد وأن يُعبِّر لها عن نية تركه إياها إلى الأبد في رسالة يبعثها إليها.

وحين جاءه خادمه في الصباح بقهوته وجده نائمًا على الأريكة العثمانية وفي يده كتاب مفتوح. فلما دخل عليه الخادم انتفض وظل مدة طويلة يجيل على ما حوله نظرة ذاهلة زائغة، ثم عرف أخيرًا أين هو.

قال الخادم يسأله:

- مولاتي تسأل هل يمكنها أن ترى سيدي صاحب السعادة؟

وقبل أن يقرر بطرس الإجابة عن هذا السؤال كانت الكونتيسة تدخل الحجرة رصينة المحيا مهيبة الطلعة، لابسة فستانًا للبيت من نسيج الساتان المقصَّب بالفضة، تتوّج رأسها الرائع ضفيرتان كبيرتان على صورة إكليل. ولكن ثنية غضب كانت تعكر هدوء جبينها المرمري المقبب قليلًا. لقد علمت بنبأ المبارزة، فهي تنشد من زوجها أيضَاحات. ومع ذلك أتاح لها هدوؤها الذي لا يستطيع شيء أن يهزه، أتاح لها أن تسيطر على نفسها مدة بقاء الخادم الذي كان يرتِّب عدة القهوة. وجازف بطرس فألقى عليها نظرة وجلة، ثم عاد يغوص في قراءته، مثله في ذلك كمثل أرنب أحدقت به الكلاب فأرخى أذنيه لاطيًا أمام أعدائه كالمختبئ. ولكنه لم يلبث أن أحس بأن هذا الوضع الذي يتّخذه وضع سخيف، فعاد يتجسس عليها بعين فزعة. كانت لا تزال واقفة تتفرّس فيه وهي تبتسم ابتسامة احتقار.

حتى إذا خرج الخادم قالت تسأله بلهجة قاسية:

- ما هذا الذي فعلته أيضًا؟ شيء جميل! ما معنى هذه الأفعال؟

فقال بطرس سائلًا:

- أنا؟ ماذا فعلت؟

- أراك أصبحت صاعقة من صواعق الحرب! ما معنى تلك المبارزة؟ على أي شيء أردت أن تبرهن بما فعلته؟ هلا أجبت وأنا أسألك؟

فاستدار بطرس على أريكته ثقيلًا، وفتح فمه، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة.

فواصلت هيلين كلامها تقول:

- ما دمت لا تجيب فسوف أتكلم أنا. إنك تصدق كل ما يقال لك، ولقد قيل لك... إن دولوخوف «عشيقي».

وانفجرت ضاحكة مقهقهة.

وكانت تتكلّم بالفرنسية، ولم تتحرّج أي تحرّج من النطق بتلك الكلمة الفجة، على المعهود في لغتها من استهتار.

وأردفت تقول مكملة كلامها:

- وصدقت أنت تلك الإشاعة. ولكن ما الذي برهنت عليه بتلك المبارزة؟ برهنت على أنك أحمق. والناس جميعًا يعرفون فيك الحماقة على كل حال!... والآن ستجعلني أضحوكة موسكو. سيقول كل فرد إنك كنت ثملًا لا تملك من أمر نفسك شيئًا، ولم تستطع أن تكبح جماحك فطلبت إلى المبارزة رجلًا كنت تغار منه بغير حق ومن دون سبب...

وأضافت تقول وهي تزيد قوة لهجتها:

- رجلًا يفضلك من جميع النواحي...

فزمجر بطرس طارفًا بعينيه من دون أن ينظر إليها ومن دون أن يقوم بحركة.

وواصلت هيلين كلامها فقالت تسأله:

- ما الذي جعلك تظن أنه عشيقي؟... ألأن صحبته تسرّني أكثر من صحبتك؟ لو كنت أنت أبهج وألطف لآثرت صحبتك حتمًا.

دمدم بطرس بصوت أبح:

- دعيني وشأني... أرجوك... أتوسّل إليك...

- لماذا؟ إن من حقي أن أتكلّم!.. وأريد أن أقول لك بصراحة: أين المرأة التي لها زوج مثلك ثم هي لا تتخذ لنفسها «عشاقًا»؟ ولكنني أنا لم أفعل.

أراد بطرس أن يقول كلمة، ولكنه اقتصر على أن ينظر إليها بنظرة لم تفهم ما تعبّر عنه من شيء غريب. وعاد يرتمي على الديوان وقد استبد به قلق شديد وغمٌّ رهيب: كان يحس باختناق في صدره، ويلهث لهاثًا قويًا. وقد كان يعرف الوسيلة التي يضع بها حدًّا لهذا العذاب، ولكن نكص عن هذا التطرّف.

وأخيرًا قال بصوت متقطع:

- الأفضل أن ننفصل!

- ننفصل؟ حبَّذا. ولكن بشرط أن تعطيني ما أعيش به!... أما ما عدا ذلك فلا يهمني.

فوثب بطرس عن ديوانه، وسار إليها بخطو مترنّح. وزأر يقول وهو يتناول لوح المرمر من على إحدى المناضد، ويشهره عليها:

- سوف أقتلك!

فتقبّض وجه هيلين رعبًا، وأطلقت صرخة حادة، واندفعت متراجعة إلى الالوراء. إن الدم الأبوي يتكلّم في بطرس: انتشى سكرًا بغضبه، ورمى لوح المرمر على الأرض فتكسر اللوح، وهجم عليها مهددًا بقبضته، وزمجر يقول بصوت بلغ من الهول أن المنزل كله اهتز جزعًا ورعبًا:

- انصرفي!

الله يعلم ما الذي كان يمكن أن يفعله بطرس لولا أن هيلين ولّت هاربة.

بعد ثمانية أيام، سافر بطرس وحيدًا إلى أراضيه في «روسيا الكبرى»، وهي أراضٍ تساوي أكثر من نصف ما يملكه من أطيان.

الفصل السابع

انقضى شهران على وصول أنباء معركة أوسترلتز واختفاء الأمير أندريه، إلى ليسييه جوري. لم يُعثر على جثمانه رغم جميع الرسائل التي بعثت إلى السفارة ورغم جميع التحرّيات التي تم القيام بها؛ ولا ورد اسمه في أي قائمة من قوائم أسماء الأسرى. ولكن ذلك لم يقض على الأمل في أن يكون بعض السكان قد حملوه من ساحة القتال. فكان هذا الاحتمال أسوأ الاحتمالات في نظر أسرته وأدعاها إلى القلق والكدر، إذ يكون الابن في هذه الحالة موجودًا في مكان ما، يُعالج أو يموت، وحيدًا بين غرباء، عاجزًا عن إرسال شيء من أنبائه.

إن الأمير العجوز قد عرف خبر الهزيمة من الصحف أولًا، إذ نشرت الصحف، على عادتها، بجمل قصيرة غامضة أن الروس بعد أن خاضوا معارك رائعة اضطروا إلى الانسحاب، وأن هذا الانسحاب قد تم بنظام كامل لم يتطرّق إليه شيء من فوضى. فحين قرأ الأمير الشيخ هذا الكلام، أدرك أننا هُزمنا. وبعد ثمانية أيام وصلته رسالة من كوتوزوف تخبره بمصير ابنه، فقد كتب إليه كوتوزوف يقول: «رأيت ابنك بعيني يسقط في أرض المعركة حاملًا الراية بيده في طليعة فوج من المقاتلين، بطلًا جديرًا بأبيه ووطنه. وما يؤسفني ويؤسف الجيش كله أننا لم نعرف بعد أهو ميت أم حي. ولكننا نستطيع أن نأمل أن يكون حيًا، وإلا لورد اسمه في قائمة أسماء الضباط الذين وُجدوا في ميدان القتال، وهي قائمة نقلها إليّ مفاوضون».

لقد جيء للأمير الشيخ بهذه الرسالة في ساعة متأخرة من المساء بينما كان ساهرًا في حجرته وحده.

حتى إذا كان الصباح قام بنزهته التي اعتاد أن يقوم بها في الصباح، كأن شيئًا لم يحدث، ولكنه كان شديد الصمت مع وكيله والحدائقي والمهندس المعماري! ولم يوجه إلى أحد لومًا رغم أن هيئته كانت تعبّر عن غضب شديد.

فلما جاءته الأميرة ماريا في الساعة المعتادة، كان جالسًا إلى منضدة عمله، ولم يدِر رأسه، ثم إذا هو يهتف فجأة بصوت أشوه:

- ها... ماريا!

ورمى منقره، وظلت العجلة تدور بتأثير الاندفاع. إن صرير العجلة الذي كان يخفت شيئًا فشيئًا والذي استمر مدة غير قصيرة، بقي مقترنًا في ذهن ماريا اقترانًا وثيقًا ومختلطًا اختلاطًا قويًا بذكريات ذلك الصباح.

دنت ماريا من أبيها، فلما قرأت في وجهه ما كان يُعبِّر عنه، زاغ بصرها واضطربت نفسها أشد الاضطراب. إن هذا الوجه الذي لم يكن حزينًا، ولم يكن منهوكًا مهدودًا، وإنما كان فيه شرّ، يدل على أن صاحبه يعاني صراعًا فوق الطبيعة. هذا الوجه اخبر الأميرة ماريا بأن نازلة رهيبة، نازلة كانت تهوم فوقها من قبل وتهم أن تسحقها سحقًا، قد نزلت الآن. وهي أفظع مصيبة مرت بها حتى ذلك الحين، مصيبة لا خلاص منها بعد وقوعها، ولا سبيل إلى تجنّبها قبل حدوثها: موت إنسان تحبه حبًا متقدًا مشبوبًا.

قالت الأميرة الخرقاء التي لا تحسن التصرف:

- أبي! أندريه!

ولكنها حين هتفت بهاتين الكلمتين قد بلغت من نسيان نفسها، وبلغ ألمها من الشدّة والحدّة أن أباها لم يستطع أن يثبت نظره عليها. فأشاح عنها وقد انفجر باكيًا منتحبًا.

ثم خرج يقول بصوت غاضب كأنه يريد أن يطرد ابنته:

- وصلتني أخبار. ليس بين الأسرى ولا بين القتلى. معنى ذلك أنه ميت.

لم تقع الأميرة مغشيًا عليها، ولا أصابها دوار. وكانت قبل أن تسمع كلام أبيها ممتقعة اللون، ولكنها حين سمعت النبأ، تبدّل وجهها، وبرق في عينيها الجميلتين المشعّتين وميض. فإذا رآها الرائي أحسّ بأن غبطة قصوى،

وأن نشوة لا علاقة لها لا بأفراح هذا العالم ولا بأحزانه، تسيطر على ألمها العميق سيطرة واضحة.

ونسيت الأميرة ماريا خوفها من أبيها، فجرؤت على أن تدنو منه، وتناولت يده، وأحاطت بذراعيها رقبة الشيخ اليابسة العجراء، وقالت له:

- أبي. لا تشح عني. لنبكه معًا.

فهتف الأمير الشيخ يقول وهو يخلّص نفسه من ابنته:

- الأوغاد! الأوباش! يضيّعون الجيش، يجعلون الرجال يموتون! لماذا؟ هيا اذهبي، واخبري ليزا.

تهالكت الأميرة على مقعدٍ، ولم تستطع أن تحبس دموعها. إنها الآن ترى أخاها وهو يودّعها هي وليزا معبِّرًا بوجهه عن الحب والتعالي في آن واحد؛ وتراه وهو يسخر سخرًا يمازجه حنان وحب حين علقت بعنقه الأيقونة الصغيرة. «هل مات مؤمنًا؟ هل تاب عن جحوده؟ أهو الآن في الآخرة يعيش حياة الراحة الأبدية والسعادة الخالدة؟». وقالت تسأل أباها من خلال الدموع:

- قل لي يا أبي: كيف حدث الأمر؟

- اذهبي اذهبي. قتل في معركة هلك فيها خيار الروس كما هلك فيها مجدنا. اذهبي يا أميرة ماريا أَخبري ليزا. سألحق بك.

حين رجعت الأميرة ماريا من عند أبيها، كانت الأميرة الصغيرة جالسة إلى نولها تطرّز، فنظرت إلى الأميرة ماريا تلك النظرة التي تفيض رضى وهدوءًا، نظرة النساء الحبالى. كانت عيناها لا تريان أخت زوجها، وإنما هما تغوصان في أعماقها تتأملان الحدث السعيد الذي يتم فيها محفوفًا بكل معاني السر.

قالت وهي تترك نولها وتنقلب إلى الوراء:

- ماري، هاتي يدك.

وأمسكت ليزا يد ماريا فوضعتها على بطنها. كانت عيناها تبتسمان ابتسامة الانتظار، وارتفعت شفتها المظللة بالزغب وبقيت على هذه الحال من الارتفاع، مضفية على وجهها هيئة طفل سعيد.

جثت ماريا على ركبتيها، ودفنت وجهها في ثنيات فستان زوجة أخيها.

وقالت ليزا وهي تنظر إلى ماريا بعينيها المشرقتين:

- هنا، هنا، هل تحسّين؟ ما أعظم ما سأحبه يا ماريا!

لم تستطع ماريا أن ترفع رأسها. وكانت تبكي.

سألت ليزا:

- ما بك يا ماريا!

- لا شيء. ولكنني أحس بحزن شديد.. حين أفكر في أندريه.

ومسحت ماريا دموعها بفستان زوجة أخيها.

حاولت في أثناء تلك الصبيحة مرارًا أن تهيئ ليزا لتلقّي النبأ، فكانت الدموع في كل مرة تحول بينها وبين ما تحاوله. ولكن هذه الدموع التي كانت ليزا لا تفهم سببها قد أقلقتها رغم ما تفتقده من حدة الذهن ونفاذ البصيرة فكانت لا تقول شيئًا، ولكنها تجيل بصرها في الغرفة قلقة مهمومة. ورأت الأمير الشيخ يدخل عليها قبل الغداء. إن الأمير الشيخ كان يخيفها دائمًا. ولكن وجهه في هذه المرة كان يُعبِّر عن عجرفة خاصّة وشر رهيب. وقد خرج من دون أن يقول لها كلمة واحدة. فحدقت إلى ماري لحظة، ثم أخذت تفكّر وقد لاح في وجهها ذلك الانتباه المعهود في النساء الحوامل، وهو انتباه متجه إلى داخلهن ثم إذا هي تنفجر باكية على حين فجأة. وقالت تسأل:

- هل وصلتكم أنباء عن أندريه؟

- لا. لم يحن وقت وصولها بعد. ولكن أبي قلق، وهذا يعذبني.

قالت ليزا:

- إذًا لم يُعرف شيء؟

فأجابتها ماري مؤكدة وهي تنظر إليها بعينيها الوضاءتين:

- لا. لم يُعرف شيء.

كانت قد قررت ألا تذكر لها شيئًا، وأقنعت أباها بأن يلتزم الصمت هو أيضًا إلى أن تنتهي الولادة. وأخذ الأب والبنت يخفيان حزنهما ويتغلبان عليه كل بالأسلوب الذي يجيده. وكان الأمير الشيخ يرفض أن يكون

هناك أي أمل، رغم أنه عهد إلى رجل يثق به أن يقوم بتحريات في النمسا. وكان يعلن مقتل ابنه لجميع الناس، حتى لقد طلب من موسكو نصبًا نوى أن يشيده له في حديقته تخليدًا لذكراه. ورغم أنه حاول ألا يغير شيئًا من طراز حياته، فقد صارت قواه تنهار: فقصرت نزهاته، وقلّت شهيته، ولازمه الأرق. كان يضعف ويهن يومًا بعد يوم. وفي مقابل ذلك لم تفقد الأميرة ماريا أملها، فكانت تصلّي لأخيها صلاتها لحَيٍّ، وتنتظر في كل لحظة أن تسمع نبأ عودته.

الفصل الثامن

في اليوم التاسع عشر من شهر آذار (مارس)، قالت الأميرة الصغيرة فجأة بعد إفطار الصباح:

- أخشى يا صديقتي أن يكون «الفروشتيك»[1]، كما يقول طباخنا فوكا، قد أضر بي هذا الصباح.

قالت الأميرة الصغيرة ذلك وتقوّست شفتها المظلّلة مبتسمة من تلقاء نفسها بغير إرادة منها. ولكن لما كان كل شيء في هذا المنزل أصبح مذ وصول النبأ المشؤوم يحمل طابع الحداد، سواء في ذلك ابتسامات الشفاه ونبرات الأصوات وحتى خطوات الأرجل، ولما كانت ليزا قد انقادت لهذا التيار العام من دون أن تفهم من الأمر شيئًا، فإن بسمتها لم يمكن لها إلّا أن تزيد شدة الحزن الذي لم يكن يخلو منه قلب أحد في هذا المنزل.

هتفت ماريا تسألها وهي تهرع إليها بخطاها الثقيلة الرخوة:

- ما الذي تحسّين به يا عزيزتي؟ ربّاه ما أشد شحوب وجهك واصفرار لونك!

وقالت إحدى الخادمات:

- صاحب السعادة، ربما علينا أن نستدعي ماريا بوغدانوفنا.

إن ماريا بوغدانوفنا هذه هي قابلة من المدينة الصغيرة المجاورة، تقيم في ليسيبه جوري منذ زهاء خمس عشرة سنة.

---

(1) تحريف للكلمة الألمانية «فروشتوك» ومعناها إفطار الصباح.

قالت ماري مؤيدة كلام الخادمة:

- فعلًا. ربما كان هذا لازمًا. أنا ذاهبة إليها. تشجّعي يا ملاكي!

وقبل أن تخرج قبَّلت ليزا.

كان وجه ليزا ممتقعًا متقبّضًا من شدة الألم، وكان يُعبِّر عن ذلك الخوف الطفولي من العذاب الذي لا مناص منه. وها هي ذي تهتف متوسلة، معترضة:

- لا، لا، لا، هي المعدة... قولي إنها المعدة يا ماري، قولي...

واعترتها نوبة بكاء، وأخذت تلوي ذراعيها كطفل ذي نزوات يحب أن يتظاهر بعض التظاهر.

خرجت ماري راكضة، تشيّعها من زوجة أخيها صيحات «أوه» و«آه»، وهتافات «يا إلهي»، و«يا رباه».

وفيما كانت ماريا في طريقها إلى القابلة اصطدمت بها قادمة نحو المنزل وهي تفرك يديها البيضاوين السمينتين، مصطنعة هيئة الجد والوقار والهدوء.

قالت ماريا وهي تنظر إلى القابلة نظرات بعينين محملقتَين رعبًا.

- ماريا بوغدانوفنا، يبدو لي أن المخاض قد بدأ.

فأجابت ماريا بوغدانوفنا من دون أن تستحث خطاها:

- الحمد لله يا أميرة ولكن هذه أشياء لا بد أن تجهلها الفتيات.

- ولكن لماذا لم يأتِ الطبيب من موسكو؟

كان قد طُلب من طبيب من موسكو، تنفيذًا لرغبة ليزا وأندريه، أن يجيء في الموعد وكان أهل المنزل ينتظرونه نافدي الصبر.

فردّت القابلة تقول:

- لا تقلقي يا أميرة. ما من حاجة إلى طبيب. ستجري الأمور أحسن مجرى.

مضت ماريا إلى غرفتها، فما هي إلّا خمس دقائق حتى سمعت ضجة نقل شيء ثقيل. شقّت الباب، فرأت الخدم يحملون إلى غرفة النوم الديوان

المنجَّد بالجلد، وهو الديوان الذي كان يزدان به مكتب أخيها وكانت هيئة الحمّالين تعبّر عن التفكير والاهتمام.

ولم تتحرّك ماريا بعد ذلك من غرفتها، ولكنها أصاخت بسمعها إلى الضجّات التي كانت تقوم في المنزل، وكانت تفتح بابها من حين إلى حين لتلاحظ الذهاب والإياب في الدهليز. فكانت نساء كثيرات تمررن ثم ترجعن هادئات الخطى، ولكنّ أيًّا منهن لا تلقي نظرة صوب الأميرة. وكانت الأميرة ماريا لا تجرؤ أن تسألهن عن شيء، فلا تلبث أن تُغلق باب غرفتها من جديد، وتعود تجلس في مقعدها أو تفتح الكتاب المقدس أو تركع أمام الأيقونات. فما كان آلم دهشتها حين لاحظت أن الصلاة لم تهدّئ روعها ولم تخفّف قلقها.

وفيما هي كذلك إذ فتح الباب فجأة برفق وهدوء، وظهرت في عتبته مرضعتها العجوز براسكوفيا سافيشنا، مغطية رأسها بمنديل.

وكانت هذه المرضعة لا تكاد تدخل غرفة الأميرة ماريا أبدًا، وذلك عملًا بأوامر الأمير الشيخ.

قالت المرضعة:

- جئت لأصطحبك يا عزيزتي ماريا.

ثم أضافت تقول وهي تتنهّد:

- ... وهذه شموع زواج أبيك وأمك، سأشعلها أمام صورة القديس الصالح:[1]

- آه... ما أعظم ما تسرينني يا مرضعتي.

- الرب رحيم يا حمامتي.

وأشعلت المرضعة أمام خزانة الأيقونات شموعًا ملفوفة بورق مذهّب، ثم جلست بقرب الباب مع حياكتها. وتناولت ماريا كتابًا، وراحت تقرأ. كانت المرأتان لا تنظر إحداهما إلى الآخرى إلّا حين تسمعان وقع أقدام أو لغط أصوات. فأما نظرة ماري فكانت قلقة، وأما نظرة المرضعة فكانت مطمئنة.

---

(1) تشير الخادمة إلى ساق نيقولا، وليّ الشيخ العجوز وشفيعه.

إن ذلك الشعور بالخوف والقلق، الذي اعترى ماريا واحتجزها في غرفتها، قد استولى هو نفسه على جميع سكان المنزل. وكان بين الاعتقادات القديمة الإشاعة أن المرأة التي تلد تكون آلامها أخف إذا كان عدد الذين يعرفون حالتها أقل. لذلك كان كل فرد من الأفراد يتظاهر بالجهل ولا يتكلم في الأمر.

غير أن ما عُهد في جميع سكان منزل الأمير من رصانة وأدب، كان يترقرق فيه الآن نوع من الهمّ الحنون، يضاف إلى اقتناع واضح كل الوضوح بأن حادثًا كبيرًا مغلّفًا بالسر هو الآن بسبيل الحدوث.

ما من ضحكة تنطلق من قاعة الخادمات؛ والخدم في حجرة الخدمة صامتون لا ينطقون بكلمة، ولكنهم متأهّبون لكل شيء. وفي جميع الغرف تُشعل شموع ولا ينام أحد.

وكان الأمير الشيخ يذرع الغرفة ذاهبًا آيبًا، فعزم أمره أخيرًا على أن يرسل تيخون إلى ماريا بوغدانوفنا لتزوّده بالأخبار. قال لتيخون:

- ليس عليك إلّا أن تقول لها إن الأمير يسأل كيف الحال، ثم تعود فتخبرني بجوابها.

قالت ماريا بوغدانوفنا وهي تلقي عليه نظرة مثقلة بالمعاني:

- أبلغ الأمير أن الولادة بدأت.

فرجع تيخون يبلغ الرسالة. فقال له الأمير وهو يغلق الباب الوراءه من جديد:

- طيّب.

ثم لم يسمع تيخون بعد ذلك أيّ ضجة صادرة عن حجرة الأمير.

وعاد إلى حجرة الأمير بعد قليل بحجة انه يريد أن يقص رؤوس الشموع، فلما رأى الأمير مستلقيًا على ديوانه، تأمل وجهه التالف لحظة، ثم دنا منه برفق فقبّل كتفه وخرج من دون أن يقصّ رؤوس الشموع ومن دون أن يقول لماذا دخل.

وكان السر الأجلُّ في هذه الحياة لا يزال بسبيل الحدوث، وانقضى المساء وجاء الليل. فكان الانتظار الزاخر بالعواطف، المترع بمشاعر

الحنان، تجاه الحدث الذي لا يتصوّره العقل، كان هذا الانتظار لا يضعف توتره بل تزداد حدّته وقوّته. ولم ينم أحد.

كانت ليلة من ليالي شهر آذار (مارس) التي يقفل فيها الشتاء راجعًا، فيطلق أواخر رياحه الشديدة، وأواخر عواصفه الثلجية حانقًا مسعورًا. وكان رجال يركبون خيلًا ويحملون مصابيح مرابطين عند مدخل طريق القرية ينتظرون الطبيب الألماني القادم من موسكو ليقودوه عبر أخاديد الأرض وغدران المياه، ويتوقّعون وصوله بين لحظة ولحظة بعد أن خفَّت إليه خيول تستقبله على الطريق الكبيرة.

ولقد تركت ماريا كتابها منذ مدة طويلة، فهي الآن لا تزيد على أن تتأمل بعينيها المضيئتين وجه مرضعتها المغضَّن من دون أن تقول كلمة واحدة، وهو وجه قد ألفت أميز تفاصيله: خصلات الشعر الشائبة التي تهرب من عصابة الرأس، جيب اللحم الناتئ تحت الذقن، إلخ.

وكانت المرضعة سافشنا، وهي تحمل بيدها الجورب الذي تحيكه تقص بصوت خافت، من دون أن تسمع ومن دون أن تفهم هي نفسها ماذا تقول، كانت تقص حكاية صغيرة سبق أن حكتها مائة مرة، وهي أن المرحومة الأميرة قد ولدت ماريا في كيشينيف من دون مساعدة أحد إلّا امرأة مورافية طاعنة في السن.

- الرب رحيم! ما حاجتنا إلى «الدكاتير»؟ وهبَّت على إحدى النوافذ بغتة ريح قوية وكان ترس النافذة الخارجية قد نُزع تنفيذًا لرغبة الأمير الشيخ الذي يصدر أمره بنزع التروس الخارجية منذ أن تصل طيور السنونو. فهزَّت الريح النافذة التي لم يكن قد أحكم إغلاقها فانفتحت النافذة وانزاحت ستائر الحرير وانطفأت الشمعة، فارتعشت ماريا من هبّة الريح هذه التي تحمل برد الصقيع، وتركت المرضعة حياكتها فقامت إلى النافذة تميل بجذعها إلى خارجها محاولة أن تقبض على الإطار الذي انفتح، فكانت الزوبعة تطيّر أطراف عصابة رأسها وترقّص خصلات شعرها كالمجنونة.

صاحت المرضعة تقول بعد أن قبضت على إطار النافذة من دون أن تغلقها:

- أميرة، هذا واحد يصل من الشارع الكبير. وهناك مصابيح أيضًا. لا شك أنه «الدكتير».

فهتفت ماريا قائلة:

- الحمد لله! يجب أن أهبَّ إلى استقباله. إنه لا يعرف اللغة الروسية.

قالت ذلك وألقت على كتفيها شالًا وركضت تستقبل القادمين. وفيما هي تجتاز حجرة المدخل، لمحت من النافذة عربة تصل إلى درج الباب فتقف أمامه في حراسة رجلين من حملة الفوانيس. وأخذت ماريا تهبط السلم. كانت شمعة دحرجتها تشتعل على عمود الدرابزين. وكان أحد الخدم، واسمه فيليب، يقف في الأسفل على فسحة السلم الأولى مرتاع الهيئة حاملًا بيده شمعة. وفي موضع أدنى من ذلك، عند أول عطفة من السلم كانت تُسمع ضجة وقع أقدام تنتعل أحذية ذات لباد. لقد كان أحد يصعد السلَّم.. وعلا صوت لم يبدُ لماريا أنها تجهله. كان الصوت يقول:

الحمد لله! وأبي؟

فأجابه رئيس الخدم داميان الذي هرع إلى تحت:

- رقد.

ونطق الصوت بكلمات أخرى كان داميان يجيب عنها، بينما كان وقع خطى اللباد على السلم يصعد العطفة الأولى المحجوبة عن بصر ماريا.

تساءلت ماريا:

- أهو أندريه؟ مستحيل لو كان هو أندريه لكان الأمر خارقًا يفوق ما يستطيع الخيال أن يتصوّره!

ولكن ماريا، في تلك اللحظة نفسها التي وافتها فيها هذه الفكرة، رأت على فسحة السلَّم التي يقف عندها الخادم حامل الشمعة، وجه الأمير أندريه، ثم رأت جذعه وقد رُشَّت ياقة فروته بالثلج رشًا. نعم، إنه هو، ولكنه شاحب اللون، هزيل الجسم، ولا يكاد يُعرف لأن رقة غريبة مقلقة قد حلَّت محل القسوة القديمة التي كانت تبدو في قسمات وجهه من قبل. فلما بلغ آخر السلم احتضن أخته بذراعيه، وقال يسألها:

- هل وصلتكم رسالتي؟

ومن دون أن ينتظر الجواب الذي ما كان له أن يجيء على كل حال، لأن ماري كانت عاجزة عن الكلام، رجع أدراجه هابطًا السلَّم ليأتي بالطبيب المولِّد الذي كان قد التقى به في آخر محطة، وعاد يصعد السلم من جديد مسرعًا وعانق أخته وقبَّلها مرة أخرى، وقال:

- مصادفة عجيبة يا ماري، هه!

نضا عنه فروته، وخلع جزمتيه، ومضى إلى شقة زوجته الشابة.

الفصل التاسع

كانت الأميرة الصغيرة مستلقية على وسائدها وقد هادنتها آلامها بعض المهادنة. وكانت خصلات سوداء من شعرها قد أفلتت من تحت قبعتها البيضاء وتهدَّلت على خدَّيْها المحمرَّتين من الحمّى المندّاتين بالعرق، وكان فمها الأخّاذ الوردي ذو الشفة المظللة مفترًا يبتسم ابتسامة فرحة.

فلما وقف أندريه عند الديوان الذي كانت مستلقية عليه، شخصت إليه بعينيها الملتمعتين اللتين كانتا تنظران نظرة مرتاعة كارتياع نظرة طفل ولكنهما لا تزالان تعبّران عن المعاني نفسها التي كانتا تعبران عنها. كانت عيناها تقولان: «إنني أحبكم جميعًا، ولم أسئ إلى أحد منكم، فلماذا ألقى إذًا هذا العذاب؟ رحماكم! خففوا عني هذا العذاب!». وقد تعرّفت زوجها، ولكنها لم تفهم كيف ظهر هذا الظهور المباغت.

ودار أندريه حول الديوان وقبَّل جبينها، وقال لها:

– روحي الغالية، الرب رحيم..

وكانت تلك أولى مرة يناديها فيها بهذا النداء: روحي الغالية.

وكانت نظرتها تقول: «كنت أتوقع منك أن تخفّف عني. ولكن لا. إنك كالآخرين!». لم تكن مدهوشة من رؤيته هنا، ولكنها لا تدرك لماذا جاء. ولم يكن لوصول زوجها أيّ صلة بتخفيف آلامها. فعاودتها الأوجاع، فاتجهت ماريا بوغدانوفنا إلى الأمير تتوسل إليه أن يخرج.

ودخل الطبيب المولِّد. والتقى أندريه بأخته مرة أخرى، فجرى بينهما

حديث خافت الصوت تقطعه فترات صمت. كانا كلاهما ينتظران بصبر نافد، وآذان متنصّتة.

قالت ماريا لأخيها:

- امض إليها يا صديقي.

فعاد أندريه إلى جناح ليزا، وأقام في الغرفة التي تجاور غرفة النوم. ولم تلبث أن خرجت من غرفة النوم امرأة مذعورة الهيئة اضطربت أشد الاضطراب حين رأت الأمير، فجعلت رأسها بين يديها ولبثت على هذه الحال بضع دقائق. وتسلّلت من خلال الباب أنات شاكية كشكوى حيوان يعوي ألمًا. فاقترب أندريه من الباب، وأراد أن يفتحه، ولكن كان أحد يدفع الباب من الداخل حتى لا يمكن فتحه.

وصاح صوت مذعور يقول:

- مستحيل! مستحيل!

أخذ أندريه يذرع الغرفة ذاهبًا آيبًا، مهتاج الأعصاب. وانقطعت أنات الشكوى. ولكن ما إن انقضت ثوانٍ قليلة حتى دوّى صراخ رهيب، صراخ لا يمكن أن يكون صادرًا عن ليزا، فلو أرادت ليزا أن تطلق هذا الصراخ لما استطاعت، لأنها لا تملك ما يحتاج إليه من قوة.

وفيما كان أندريه يهرع إلى باب شرفة النوم من جديد، انقطع الصراخ فجأة، وانطلقت صرخة طفل وُلد.

تساءل أندريه في اللحظة الأولى: «لماذا جيء إلى هنا بطفل؟ طفل؟ أي طفل هنا؟ ما مجيء طفل إلى هنا؟ أيكون طفل قد وُلد؟».

وأدرك فجأة أن هذه الصرخة تبشّره بفرحة كبيرة، فاختنق بدموعه، وتهالك على مسند النافذة، وأخذ يبكي ناشجًا كطفل. وظهر الطبيب مخلوع الردنجوت، مشمّر الكمّين، تهز وجهه الشاحب ارتعاشة عصبية. لم يجب عن أسئلة الأمير إلّا بنظرة تائهة زائغة، ومر أمامه لا يلوي على شيء. وهرعت امرأة تخرج من غرفة النوم، فما إن رأت أندريه حتى تجمدت في مكانها لا تتحرّك.

وقرر أندريه أن يدخل. كان جثمان ليزا الميتة راقدًا على ذلك الوضع نفسه الذي رآها عليه من قبل. ورغم أن نظرتها جامدة، وخدَّيْها صفراوين، فلا يزال وجهها اللطيف الصغير ذو الشفة المظلّلة بزغب أسود خفيف يُعبِّر في جموده وهموده عن ذلك المعنى نفسه الذي كان يُعبِّر عنه قبل أن تموت: «إنني أحبّكم جميعًا، ولم أسئ إلى أحد منكم فماذا صنعتم أنتم بي؟».

كذلك كان يقول هذا الوجه الأخّاذ المحزن، وجه المرأة الشابة الميتة.

وفي ركن من الغرفة كان شيء صغير أحمر بين يدي ماريا بوغدانوفنا البيضاوين المرتجتفين.

وبعد ساعتين دخل الأمير أندريه حجرة أبيه بخطى لا وقع لها على الأرض. كان الشيخ قد علم بكل شيء. وكان واقفًا بقرب الباب. فما إن فتح الباب حتى ضم ابنه بيديه الخشنتين العجوزتين كأنه يطوّقه بكماشتين، وطفق يبكي منتحبًا.

وفي الغداة أقيمت صلاة الجنازة للأميرة الصغيرة، ومن أجل أن يودّع أندريه زوجته صعد على منصة النعش. وكان وجه الميتة، رغم أن عينيها مغمضتان، لا يزال يُعبِّر عن ذلك المعنى نفسه، وكأنه لا يزال يقول: «ماذا صنعتم بي؟». وأحس أندريه بأن شيئًا كان يتمزّق فيه تمزقًا، وأنه ارتكب إثمًا لا سبيل إلى التكفير عنه. ولم يستطع أن يبكي. وجاء الشيخ العجوز أيضًا يقبِّل اليد الصغيرة التي تشبه أن تكون الآن من شمع والتي كانت ممدودة فوق اليد الآخرى هامدة. وبدا للشيخ أيضًا أن وجه الميتة كان يقول: «ماذا صنعتم بي؟ ولماذا؟». فلم يملك الأمير الشيخ إزاء هذا السؤال الآخرس إلّا أن يشيح برأسه غاضب الهيئة.

وانقضت خمسة أيام أخرى، فقاموا بتعميد الأمير الصغير نيقولا آندريفتش. كانت المرضعة تسند أقمطة الذقن، بينما كان الكاهن يمر بريشة إوزة على الراحتين الصغيرتين وباطنَيْ القدمين الصغيرتين الحمراوين المجعّدتين فيدهنهما بالزيت المقدس.

وكان الجد، وهو عرّاب الطفل، يرتعش خوفًا من أن يسقط الطفل من بين

يديه. فدار به حول جرن المعمودية، وهو طشت من حديد أبيض محدَّب، وسلمه إلى العرّابة، الأميرة ماري. وكان أندريه ينتظر نهاية الاحتفال في الغرفة المجاورة، وهو يكاد يموت جزعًا من أن يغرق ابنه. حتى إذا جاءته به المرضع أخذ يتأمله فرحًا، وهز رأسه معبِّرًا عن الرضى حين قيل له إن قطعة الشمع التي ألقيت في الطشت حاملة شعرات من رأس الطفل الوليد لم تغطس إلى القاع بل عامت على سطح الماء[1].

---

(1) من العادات الشعبية الرائجة أن هذا علامة على أن الطفل سيعيش.

الفصل العاشر

بذل الكونت الشيخ روستوف جهودًا كبيرة من أجل ألا يحاسَب ابنه على اشتراكه في مبارزة دولوخوف وبيزوخوف، وأن تُغض السلطات النظر عن هذا الأمر، فكان له ما أراد، فلم يجرَّد روستوف من رتبته العسكرية، كما كان يتوقّع، بل عُيّن ضابطًا مرافقًا لحاكم موسكو العام. وأجبرته هذه الوظيفة على أن يبقى في مقر الحاكم، فلم يستطع أن يصحب أسرته إلى الريف، وقضى الصيف كله في المدينة. وفي أثناء ذلك شُفي دولوخوف من جرحه بفضل عناية أمه التي كانت تحبّه حبًّا مشبوبًا. وتوثّقت عرى الصداقة بينه وبين روستوف أثناء نقاهته مزيدًا من التوثق. وتأثرت ماري إيفانوفنا العجوز، أم دولوخوف، بهذه الصداقة، فأحبت روستوف كثيرًا. وكانت تجري بينها وبينه أحاديث عن ابنها العزيز فيديا فتقول له:

– نعم، يا كونت، إن نفسه أعظم نبلًا وأنقى طهارة من أن ينتمي إلى هذا العصر الفاسد. لا أحد يحب الفضيلة. إن الفضيلة تسوء الناس جميعًا. انظر يا كونت، هل كان ما فعله بيزوخوف شيئًا عادلًا، شريفًا؟ لقد كان فيديا، بما له من قلب كبير، يحبه حبًّا صادقًا، وهو حتى هذه الساعة لا يقول عنه كلمة سوء واحدة في لحظة من اللحظات. ألم يكونا شريكين في المهازل التي قاما بها في بطرسبورغ، وفي قصة رمي الشرطي في النهر مربوطًا بدب، وفي ما لا أدري من أمور؟ ومع ذلك استطاع بيزوخوف أن يخلّص نفسه وأُلقيت التبعة كلها على ظهر ابني فيديا. والله يعلم كم تحمّل وكم قاسى! صحيح أنهم ردوا إليه رتبته العسكرية، ولكن هل كان يمكن حقًّا ألا يردّوها إليه؟ أظن الجيش لا يضم عددًا كبيرًا من شباب يضارعونه جسارة ووطنية!...

وتلك المبارزة؟... إنني أسالك يا كونت، هل لهؤلاء الناس قلب؟ هل لهم شرف؟ إنهم يعلمون أنه ابن وحيد، فكيف يدعونه إلى المبارزة، ويطلقون عليه النار من دون أن يقولوا له انتبه! من حسن الحظ أن الرب قد رحمنا. وماذا كان سبب هذه المبارزة؟ أي شاب في زماننا هذا لم يقم بمغامرة غرامية؟ فإذا كان الزوج غيورًا تلك الغيرة كلها، فلماذا لم ينبّهه من قبل، بدلًا من أن يتحمّل ملازمته للأسرة سنة كاملة؟ ولئن دعاه إلى المبارزة، فلأنه كان يظن أن فيديا لن يقاتله لكونه مدينًا له. خسّة! دناءة! أنا أعلم يا كونت أنك قد فهمت ابني الغالي فيديا، لذلك أحبك من كل قلبي. ما أقل الذين يفهمونه. إلّا أن نفسه لتبلغ غاية السمو والرفعة؛ إنها نفس سماوية!

و كان دولوخوف يقول لروستوف أمورًا ما كان للمرء أن يتوقّعها منه:

- أنا أعلم أن الناس يعدّونني رجلًا شريرًا. ولكن هذا لا يهمني. إنني لا أريد أن أعرف إلّا الذين أحبهم. وإذا أحببت أحدًا أحببته حبًّا يملأ نفسي ويجعلني قادرًا على أن أهب له حياتي. أما الآخرون فسوف أسحقهم جميعًا إذا هم خطر ببالهم أن يقفوا في طريقي. إن لي أمًّا أعبدها عبادة، أمًّا لا يمكن أن أفيها حقّها من التقدير مهما أُجزل الثناء عليها؛ ولي صديقان أو ثلاثة أصدقاء أنت أحدهم. أما الآخرون فلا يعنيني أمرهم إلّا بمقدار ما يمكن أن يجلبوا لي نفعًا أو يلحقوا بي ضررًا. وكلهم تقريبًا يضرّ ولا ينفع. ولا سيما النساء. نعم يا عزيزي، لئن رأيت في حياتي رجالًا لهم قلب طيب وعواطف نبيلة، فإنني لم أر بين النساء إلّا مخلوقات تُباع وتُشرى، يصدق هذا عليهن جميعًا، من الكونتيسات إلى الخادمات. لم أقع بعد على تلك الطهارة الإلهية، وذلك الإخلاص الصادق الذي أنشده في المرأة. أما هاته الـ...!

قال ذلك وهو يحرّك يده بإشارة احتقار. وتابع كلامه:

- ... وصدقني إذا قلت لك إنني إذا كنت لا أزال أحرص على الحياة، فلسبب واحد لا ثاني له، هو أن أعثر في ذات يوم على الطائر النادر، على الإنسان السماوي الذي يبعثني بعثًا جديدًا، ويطهّرني، ويسمو بي. ولكنك لا تفهم ما أقول...

- بلى! إنني أفهم، أفهم فهمًا واضحًا جِدًّا.

بذلك أجاب روستوف وقد افتتن افتتانًا كاملًا بصديقه الجديد.

جاء الخريف، وعاد آل روستوف إلى موسكو. وفي أول الشتاء رجع إليها دينيسوف أيضًا، ونزل ضيفًا عليهم. إن هذا الشتاء من عام 1806، وهو أول شتاء يقضيه نيقولا روستوف في موسكو، كان بين فصول الشتاء التي عاشتها هذه الأسرة، من أزخرها بالفرح والسعادة. وجود نيقولا اجتذب عددًا كبيرًا من الشبان. فيرا فتاة جميلة في العشرين من العمر. صونيا فتاة في السادسة عشرة يتفتّح حسنها أجمل ما يكون الحسن، وأرقّ ما تكون الرشاقة. ناتاشا ما هي بالبنية الصغيرة ولا هي بالآنسة،.تجمع بين السذاجة المضحكة في الطفلة وبين الإغراء الأخّاذ في الفتاة.

فكان منزل آل روستوف في ذلك الوقت مشبعًا بذلك الجو الغرامي الذي يملأ جوانب كل منزل يكثر فيه وجود صبايا جميلات جِدًّا. وكان جميع الشبان الذين يدخلون هذا المنزل ويرون هذه الوجوه الفتية، المتأهّبة لتلقّي كل تأثّر، المبتسمة فرحًا بسعادتها في غالب الظن، ويرون هذا الذهاب والإياب، وهذه الحركة النشطة، ويسمعون الأغاني والموسيقى وثرثرة الصبايا، وهي ثرثرة مفكّكة خالية من روح الانسجام المنطقي، ولكنها مفعَمة بالعاطفة، ملأى بالأمل، مترعة بسلامة النية وحسن الإرادة، أقول كان هؤلاء الشبان يشاركون في هذا الانتظار، انتظار الحب والسعادة، الذي كانت تحيا به شبيبة منزل آل روستوف.

وقد استطاع دولوخوف الذي أدخله نيقولا إلى هذا المنزل أول من أدخل من شبان أن يغزو قلوب الجميع، إلّا ناتاشا التي كادت في هذه المناسبة أن تُغضب أخاها. كانت ناتاشا تذهب إلى أن هذا الرجل الشرير كان وحده المذنب في مبارزته مع بطرس، فهو الذي ارتكب جميع الأخطاء، وعليه يجب أن تقع جميع التبعات، وأنه عدا ذلك مزعج متصنّع. وكانت تصرخ قائلة في عناد وإصرار:

– لا يهمني أن أفهمه. انظر مثلًا إلى صاحبك دينيسوف: تستطيع أن تقول عنه إنه ماجن عربيد، وتستطيع أن تقول عنه ما شئت، ولكن هذا لا يمنعني من أن أحبّه وأفهمه. لا أدري كيف السبيل إلى جعلك تحسّ بهذا...

إن كل شيء عند دولوخوف محسوب سلفًا؛ وذلك ما لا يعجبني. على حين أن دينيسوف...

قال نيقولا يقاطعها بلهجة يُفهم منها أن دينيسوف نفسه ليس بذي قيمة إذا قيس بدولوخوف:

- دينيسوف، شيء آخر... إن عليك أن تعرفي ما يملكه هذا الفتى من نفس كبيرة وقلب كبير، أن تعرفي كيف يعامل أمه...

- هذا أجهله. ولكنني أحس بضيق حين يحضر... هل تعرف أنه مولَّه بحب صونيا؟

- يا للسخافة!

- أنا مؤمنة بذلك! سوف ترى.

ولقد كان ظن ناتاشا في محله. كان ظنُّها صادقًا. إن دولوخوف الذي كان لا يحب صحبة السيدات، قد أصبح ضيفًا على هذا المنزل لا يكاد يبارحه. وأدرك الجميع أنه إنما يجيء من أجل صونيا، من دون أن يقول أحد كلمة واحدة في هذا الأمر. وكانت صونيا تعرف هذه الحقيقة حق معرفتها، رغم أنها ما كان لها أن تجسر على ذكرها يومًا، وكانت تحمر احمرارًا شديدًا كلما ظهر دولوخوف في الصالون.

وكان دولوخوف يتعشى في كثير من الأحيان عند آل روستوف، ولا يفوت على نفسه أن يذهب إلى أي مسرح يذهبون إليه، حتى لقد كان يتردَّد على حفلات رقص «المراهقين» التي كان يقيمها معلّم الرقص يوجيل، والتي كانت الفتيات لا تتخلّفن عن حضور حفلة واحدة منها. وكان دولوخوف في هذه الحفلات يبدو شديد الانتباه إلى صونيا، وكان يحتضنها بنظرة خاصّةً لا يقع عليها بصر الفتاة إلّا وتحمرّ، حتى إن الكونتيسة وناتاشا تشعران بالحمرة تصبغ وجهيهما. كان واضحًا أن هذا الرجل الذي يتصف بالقوة ولكنه غريب الأطوار، كانت قد سيطرت عليه هذه السمراء الصغيرة المأخوذة بحب رجل آخر، بسيطرة لا سبيل له إلى مقاومتها.

وأدرك نيقولا أن هناك شيئًا ما بين دولوخوف وصونيا، من دون أن يفهم الأمر على وجه الدّقّة. فكان يقول لنفسه وهو يفكر في أخته وفي قريبته:

«ها! لا بد لهاته الصبايا أن يكنّ مغرمات بأحد في أي وقت!». وفي أثناء ذلك أصبح مكوثه في المنزل يقل يومًا بعد يوم، لأنه أصبح لا يجد نفسه مرتاحًا في صحبة دولوخوف وصونيا.

ومنذ خريف عام 1806 عاد الناس يتحدّثون عن محاربة نابوليون، بل صاروا يتحدّثون عن هذه الحرب بحرارة لا تضارعها حرارة حديثهم عنها في السنة الماضية. وصدر قرار بتجنيد عشرة من ألف للجيش العامل، وتسعة من ألف للميليشيا. وراحت اللعنات تنصب على بونابرت من كل جهة. وأصبحت موسكو لا تتكلّم إلّا عن وشك استئناف القتال.. وكان يمكن ألا يهتم آل روستوف بهذه الاستعدادات كلها إلّا اهتمامًا يسيرًا لولا ابنهم الغالي نيقولا. إن الفتى يرفض رفضًا مطلقًا أن يبقى في موسكو، ولا ينتظر إلّا أن تنتهي إجازة دينيسوف ليلتحق معه بفوجه بعد عيد الميلاد. على أن هذا السفر القريب كان لا يمنعه من أن يعيش حياة مرحة فرحة. حتى إن السفر كان يحضّه على الاستزادة من هذه الحياة الفرحة المرحة. وشغلته حفلات العشاء والسهرات وحفلات الرقص حتى صار لا يُرى في البيت إلّا لمامًا.

الفصل الحادي عشر

في اليوم الثالث من عيد الميلاد تعشّى نيقولا في منزل أهله استثناء. وكان ذلك عشاء وداع، لأن السفر سيكون بعد عيد الغطاس فورًا. وكان المدعوون عشرة. وكان دولوخوف ودينيسوف بين المدعووين.

لم يكن الهواء في منزل آل روستوف متشبّعًا بالحب كتشبّعه به في ذلك اليوم. كان الجو في منزل آل روستوف كأنه يقول لكل قادم: «اختلس هذه اللحظات من السعادة» أُحبَّ وأُحبَّ! فالحب هو الشيء الوحيد الذي له قيمة، وهو الشيء الوحيد الذي يهمّنا، لأن كل ما عداه ليس إلّا هذرًا».

وقد وصل روستوف إلى المنزل في اللحظة التي كانوا يقومون فيها إلى المائدة، على عادته دائمًا، وذلك بعد أن أنهك عربتين من دون أن يستطيع القيام بجميع الزيارات الواجبة، ولا أن يستجيب لجميع الدعوات الموجَّهة إليه. فما إن وصل حتى لاحظ توتَر جو الحب، ولاحظ ضيق عدد من الضيوف. وكان أوضح الحضور انفعالًا واضطرابًا صونيا ودولوخوف والكونتيسة وناتاشا نفسها. فقدَّر أن شيئًا لا بد أن يكون قد حدث قبل العشاء بين صونيا ودولوخوف. واستطاع بما أُوتي من رهافة الشعور أن يحتفظ في معاملته لكليهما برصانة مفعمة عاطفة ومحبَّة. وكان ذلك المساء موعدًا لحفلة من حفلات الرقص التي يقيمها يوجيل لتلامذته من الجنسين.

قالت ناتاشا تسأله:

- نيقولا عزيزي، ستصحبنا إلى حفلة يوجيل، أليس كذلك؟ إنه يعوِّل على مجيئك. وقد وعد فاسيلي ديمتريتش (وهو دينيسوف) بأن يجيء.

فهتف دينيسوف، الذي كان يمثّل على سبيل المزاح دور الفارس الخادم لناتاشا:

- أي مكان لا أذهب إليه إذا صدر إليَّ الأمر من مولاتي بأن أذهب؟ إنني مستعد في سبيل مسرَّتها أن أرقص رقصة «خطوة الشال».

أجاب نيقولا:

- سأجيء أنا أيضًا إذا وجدت في وقتي دقيقة خالية. لقد وعدت آل آرخاروف بأن أشارك في سهرتهم.

وأضاف يقول ملتفتًا نحو دولوخوف:

- وأنتَ؟

ولكنه سرعان ما لاحظ أنه كان من الأفضل ألا يلقي على دولوخوف هذا السؤال.

أجاب دولوخوف يقول بغتة بعنف:

- نعم، ممكن.

وبعد أن ألقى على صونيا نظرة سريعة، التفت إلى نيقولا، فإذا بعينيه قد اكتستا ذلك التعبير نفسه الذي كان فيهما حين تفرس في وجه بطرس أثناء تلك الوليمة التي أقيمت في النادي الإنجليزي تكريمًا للأمير باغراتيون.

قال نيقولا لنفسه: «لا بد أن شيئًا قد حدث حتمًا»، وتعزّزت شبهاته مزيدًا من التعزز حين رأى دولوخوف ينصرف عن المائدة فورًا.

فنادى ناتاشا وسألها عما حدث.

قالت له ناتاشا وهي تهرع إليه:

- كنت أنا أبحث عنك...

وأضافت تقول بلهجة المنتصر:

- أخبرتك ولم تصدقني. لقد طلب من صونيا أن تقْبَلَه زوجًا.

فحين علم روستوف بهذا النبأ شعر بانقباض في صدره، رغم أن صونيا أصبحت منذ مدة طويلة لا تشغل باله كثيرًا!

والحق أن دولوخوف يجب أن يُعدَّ زوجًا مُناسبًا جِدًّا لفتاة يتيمة كصونيا. بل يجب أن يعد زوجًا مُمتازًا من بعض النواحي. لذلك كانت الكونتيسة، وكان الجميع يرون أن رفضه أمر غير معقول. ولذلك أيضًا همَّ نيقولا أن يقول منقادًا لغضب اعتراه في الوهلة الأولى: «ليكن! لتنسَ ارتباطات

الطفولة ولتقبله زوجًا!». ولكن الوقت لم يتّسع له. إذ استأنفت ناتاشا كلامها فقالت:

- تصوّر أنها رفضته، رفضته رفضًا قاطعًا. وأضافت ناتاشا تقول بعد وهلة صمت:

- حتى لقد قالت له إنها تحبّ رجلًا آخر.

فقال نيقولا لنفسه: «ما كنت أتوقّع من صونيا أقلَّ من هذا». وأردفت ناتاشا:

- وما أكثر ما توسّلت إليها ماما أن تقبل، فأصرت على الرفض إصرارًا لم تتزحزح عنه. وأنا أعلم أنها لن تتكلّم عما قالته بحال من الأحوال.

سألها نيقولا مُغتاظًا.

- ماما توسّلت إليها أن تقبل؟

- نعم... اسمع يا نيقولا. لا تزعل مني. أنا أعلم أنك لن تتزوجها. لا. لن تتزوجها. أنا واثقة بهذا ثقة تامة لا أدري لماذا. ولكنني واثقة.

فاعترض نيقولا قائلًا:

- هذا ما لا تستطيعين أن تعلّميه. ولكن يجب أن أكلمها...

ثم أضاف يقول مبتسمًا:

- إنها فتاة رائعة، صونيا هذه.

- نعم، أعتقد بأنها فتاة رائعة! سأرسلها إليك.

قالت ناتاشا ذلك ووثبت إلى عنق أخيها وأسرعت تركض ركضًا. فما هي إلّا ثوانٍ قليلة حتى دخلت صونيا مضطربة، خجلة، مرتاعة، تعبِّر هيئتها عن معنى ارتكاب ذنب.

فاقترب منها نيقولا. وقبّل يدها. وكانت تلك أول مرة يخلو فيها أحدهما إلى الآخر منذ عودته، ويتحدّثان فيها بصراحة.

بدأ روستوف يتكلّم بلهجة كانت خائفة في أول الأمر ثم ما انفكت تقوى وتقوى حتى أصبحت في النهاية جرأة وجسارة فقال:

- صوني! هل يعقل أن ترفضي هذا الشاب اللامع زوجًا لك؟... إنه فتى ممتاز ذو قلب نبيل... وهو فوق ذلك صديقي.

فأسرعت صونيا تقاطعه فتقول:

- رفضت وانتهى الأمر.

- إذا كنتِ رفضته من أجلي أنا، فإنني أخشى من جهتي...

فقاطعته صونيا مرة أخرى، قائلة له وهي تتوسّل إليه بنظرتها توسلًا:

- نيقولا! لا تقل لي هذا الكلام...

- بل عليَّ أن أقوله. قد يكون هذا مني صلفًا، ولكن يجب أن أتكلّم. ذلك أفضل. إذا كنت ترفضينه من أجلي فينبغي أن أقول لك الحقيقة. صحيح أنني أحبك، ولعلني أحبك أكثر مما أحب أي إنسان في العالم...

قالت صونيا وقد احمرّ وجهها:

- وهذا يكفيني.

- نعم، ولكنني أغرمت أكثر من مرة، وسوف يقع لي هذا مِرارًا أخرى، رغم أنه ما من امرأة أوحت إليَّ بالثقة التي توحين بها أنتِ لي، ولا أيقظت في نفسي من العاطفة والمحبّة ما توقظين. ثم إن ماما لا ترغب في هذا الزواج. الخلاصة أنني لا ارتبط بشيء، ولا ألتزم بشيء لذلك أرجوك أن تفكري في طلب دولوخوف.

بهذا ختم روستوف كلامه وهو ينطق اسم صديقه بجهد ومشقّة.

قالت صونيا.

- لماذا تقول لي هذا الكلام؟ إنني لا أطلب شيئًا، ولا أرغب في شيء. إنني أحبّك أخًا، وسأظل أحبّك دائمًا. ما حاجتي إلى أكثر من هذا؟

- أنت ملاك. وأنا لست جديرًا بك. كل ما أخشاه هو أن أخيِّب أملك، فلا أحقق ما تنتظرين.

وقبّل يدها مرة أخرى.

الفصل الثاني عشر

كانت حفلات الرقص التي يقيمها يوجيل من أحلى حفلات الرقص التي تقام في موسكو. ذلك ما كانت تقوله الأمهات حين تنظرن إلى «مراهقاتهن» وهن يحاولن رقص الخطوات التي تعلّمنها منذ برهة؛ وذلك ما كانت تقوله المراهقات أنفسهن؛ وذلك ما كان يقوله المراهقون الذين يُقبلون على تلك الحفلات فرحين، وذلك ما كان يقوله الشبان الذين يُدعون إليها تفضّلًا وتنازلًا، ويجدون فيها من المسرة والبهجة ما لا يجدونه في أي مكان آخر. وفي تلك السنة نفسها كان قد أُجري في هذه الحفلات زواجان اثنان: فبلغ صيت هذه الحفلات ذروة الذيوع إذ رقصت فيهما الأميرتان الجميلتان غورتشاكوف على زوجين لهما. وكانت تمتاز هذه الحفلات بأن المرء لا يرى فيها ربة منزل أو رب منزل: لقد كان يوجيل الطيِّب، يرفرف كريشة طائر، موزعًا تحيات الاحترام على أحسن صورة يجيدها من قواعد فنه، ويتقبّل الأوامر من كل مدعوّيه. أضف إلى ذلك أن حفلاته كانت لا يختلف إليها إلّا أفراد شرهون إلى بهجة الرقص، كشراهة الصبايا الصغيرات إليه حين تكون أعمارهن بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، وحين يرتدين فستانًا طويلًا لأول مرة. وكن كلهن جميلات. أو كن كلهن يظهرن جميلات، من شدة الحماسة في ابتسامتهن واتقاد البريق في أعينهن، باستثناء قلة قليلة لا تُذكر. وكان الممتازون من التلاميذ يجازفون أحيانًا فيرقصون رقصة خطوة للشمال، فما كان أحد منهم يبدو في هذه الرقصة رشيقًا كرشاقة ناتاشا. ولكن الحفلة هذه المرة ستقتصر على الرقصة الإيقوسية والرقصة الإنجليزية ورقصة المازوركا. وكان يوجيل قد استعار لإقامة هذه الحفلة

صالونًا من منزل بيزوخوف، فعُدَّ هذا له نجاحًا كاملًا وانتصارًا عظيمًا.

كانت الفتيات الجميلات في هذه الحفلة كثيرات، وكانت الآنستان روستوف، اللتان تتألقان كلتاهما سعادة، تُعدَّان من أجمل هؤلاء الفتيات. وكانت صونيا من فرط اعتزازها بأن دولوخوف طلبها زوجة له فرفضته رفضًا قاطعًا، ومن شدة فرحها بالمكاشفة التي تمّت بينها وبين نيقولا، تستدير حول نفسها، وتدور على قدم واحدة، وتتهزّز منذ أن كانت في منزلها، حتى إن ذلك أغضب الخادمة التي كانت تصفّف لها شعرها وملأ نفسها كمدًا وكربًا. إن فرحًا مسعورًا قد أحالها إنسانًا آخر. وكانت ناتاشا لا تقل اعتزازًا بارتدائها فستانًا طويلًا لأول مرة في حفلة رقص حقيقية، حتى لقد كان في اندفاعها وحماستها مزيد من الهذيان. وكانت الفتاتان كلتاهما ترتديان فستانين من موسلين أبيض تزيّنه أشرطة وردية.

ما إن دخلت ناتاشا الصالة حتى انقادت لميلها إلى الحب، فأخذت بجميع الشبان على السواء: ما إن يقع بصرها على واحد حتى تُغرم به... إلى أن تنتقل نظراتها إلى واحد آخر. وكلما وجدت نفسها قريبة من صونيا تقول لها:

- آه... ما أحلى هذا!

وكان نيقولا ودينيسوف يذهبان ويجيئان، متفضّلين على الراقصين بنظرات مودّة تحمل معنى الحماية.

قال دينيسوف:

- إنها أخاذة فتانة، لتكوننَّ آية من آيات الجمال!

- من هي؟

- الكونتيسة ناتاليا!

وأضاف يقول بعد لحظة:

- ما أبدع رقصها! ما أرشق حركتها!

سأله روستوف:

- عمن تتكلّم؟ من التي تعنيها؟

فأجابه دينيسوف متذمرًا:

- عن أختك طبعًا!

فابتسم روستوف.

وجاء يوجيل الضئيل إلى نيقولا، فقال له:

- عزيزي الكونت، إنك من خير تلامذتي، فيجب أن ترقص، انظر ما أكثر الآنسات الجميلات!

وتوجّه بهذا الرجاء نفسه إلى دينيسوف الذي كان هو أيضًا أحد تلامذته.

فأجابه دينيسوف:

لا يا عزيزي، أنا ألتصق بالجدار من دون حراك، إذ لم أحسن الاستفادة من دروسك. ألا تتذكّر؟

فأسرع يوجيل يقول بلهجة المواسي:

- لا، ليس الأمر كذلك. صحيح أنك كنت ذاهلًا بعض الذهول، ولكنك كنت تملك استعدادات طيبة، نعم، نعم، كنت تملك استعدادات طيّبة.

وبدأ العازفون يعزفون لحن رقصة المازوركا التي كانت آنذاك في بداية رواجها. وأول معرفة الناس بها.

واستجاب نيقولا لإلحاح يوجيل، فقام يراقص صونيا. ومضى دينيسوف يجلس بقرب سيدات عجائز، ويقرع بقدمه الأرض على إيقاع اللحن متكئًا بكوعه على سيفه، ويُجرى بينه وبين هؤلاء العجائز أحاديث فيها هزل ومزاح، مع استمراره في النظر إلى الشبيبة وهي ترقص. وكان يوجيل أول من راقص ناتاشا، تلميذته التي هي محل اعتزازه وافتخاره، والتي هي خير تلامذته طرًّا. انزلق انزلاقًا لينًا على حذاءيه الخفيفين، واندفع يطوف الصالة بمراقصته التي كانت وجلة ولكنها كانت تبرز خطواتها بكثير من الاجتهاد والدقة. فكان دينيسوف لا يحوِّل بصره عنها، وكانت طريقته في قرع الأرض بقدمه على إيقاع الوزن تعني أنه إذا كان قد امتنع عن الرقص، فليس مردُّ ذلك إلى أنه لا يستطيع، بل إلى أنه لا يريد. وفيما كان يوجيل في منتصف إحدى صور رقصته، مرّ روستوف بدينيسوف، فناداه دينيسوف وقال له:

- ليست هذه هي الرقصة... ليست هذه هي المازوركا البولندية، ولكنها تجيد الرقص إجادة مدهشة.

وكان نيقولا يعرف أن دينيسوف يُعدُّ من أكثر الناس إتقانًا لرقصة المازوركا حتى في بولندا نفسها، فأسرع إلى ناتاشا وقال لها:

- اذهبي إلى دينيسوف فراقصيه، فإنه في رقصة المازوركا فنان ماهر.

فلما جاء دور ناتاشا لترقص مرة أخرى، نهضت من مكانها، وانزلقت على حذاءيها الصغيرين اللذين تزينهما الشراشيب، واحمرّ وجهها حياء من النظرات التي انصبت عليها من كل جهة، وبَلغت الركن الذي كان يجلس فيه دينيسوف. وقد رآهما نيقولا يتناقشان مبتسِمَين: فكان يبدو أن دينيسوف يتمتّع بلطف ورقة، فسرعان ما هبَّ إلى النجدة.

كانت ناتاشا تقول لدينيسوف:

- أرجوك يا فاسيلي ديمتريتش. تعال. أرجوك.

فيجيبها دينيسوف:

- اعفيني يا كونتيسة!

فتدخّل نيقولا قائلًا:

- ما لكَ يا فاسيا[1] لا تمتثل؟

وردّ دينيسوف مازحًا:

- كأنهما يلاطفان قطهما.

قالت ناتاشا تعده:

- لأغنينَّ لك طوال السهرة.

فقال دينيسوف وهو يفك سيفه:

- يا للمخادِعة! إنها تفعل بي ما تشاء!

وخرج من صفِّ الكراسي، وأمسك يد مراقصته إمساكًا قويًّا، ونصب رأسه عاليًا، ومدّ ساقه ينتظر الإيقاع. إن ضآلة قامة دينيسوف تغيب عن الأنظار في مناسبتين لا ثالثة لهما: حين يكون على صهوة جواده، وحين يرقص المازوركا. ففي هاتين المناسبتين وحدهما لا يلمح المرء أن قامته ليست بالقامة الفارعة الجميلة.

---

(1) إن فاسيا هو تصغير اسم فاسيلي (واسم دينيسوف هو فاسيلي)، ولكن اسم فاسيا هو الاسم المألوف الذي تسمى به القطط أيضًا.

تغير دينيسوف تغيرًا تامًا فإذا هو ذلك الفتى الخشن الجميل الذي كان يود دائمًا لو يكونه.

ألقى على مراقصته نظرة فيها ملاطفة، وفيها معنى الانتصار في آن واحد، ثم قرع الأرض بقدمه قرعة النداء، ثم إذا هو ينط نطة كرة من المطاط جارًا ناتاشا إلى الرقص، وراح يثب على قدم واحدة فقطع نصف الصالة دون أن يحدث بوثوبه أي ضجة، من دون أن يبدو عليه أنه يرى الكراسي التي تعترض طريقه، فكان الناظرون إليه يعتقدون إنه سيصطدم بها لا محالة، فإذا هو يباعد ساقيه ويرُنّ مهمازيه فجأة، ويتوقف على كعبيه لحظة، مكثرًا من قرعات النداء، ثم يدور دورة سريعة، ويلتحق بسلسلة الراقصين، ضاربًا قدمه اليمنى بقدمه اليسرى بغير انقطاع. وكانت ناتاشا تحزر كل نية من نياته فتستجيب لها، وتنقاد لها بغير شعور. وكان هو يجعلها تدور على نفسها بيده اليمنى تارة، وبيدها تارة أخرى، ويتوقف أحيانًا على حين بغتة دون أن يتوقع أحد ذلك، فإذا هو يجري حركات صورة جديدة من صور رقصة المازوركا. وبعد انكفاءة عظيمة رائعة، جمَّد مراقصته أمام المكان الذي كانت فيه قبل أن تجيء إليه، وانحنى لها وهو يرُنّ مهمازيه آخر مرة، حتى إن ناتاشا لم تملك من حضور البديهة ما يجعلها تحييه منحنية حانية ساقها، وإنما حدَّقت إليه بعينيها المبتسمتين المدهوشتين، وكأنها لا تعرفه.

ودمدمت تقول:

– ما هذا؟

وزعم يوجيل مصرًّا على أن هذه لم تكن رقصة المازوركا الحقيقية، ولكن زعمه لم يمنع المشاهدين من الافتتان جميعًا بمهارة دينيسوف وحذقه. وأخذت البنات تتهافت على مراقصته متنافسات، بينما كان الشيوخ يستحضرون ذكرياتهم عن بولندا ويستعيدون صور العهد الماضي الجميل مبتسمين.

وجلس دينيسوف أخيرًا بقرب ناتاشا وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة وأخذ يجفف عرقه، ثم لم يفارقها طوال السهرة.

الفصل الثالث عشر

لا في غدٍ ولا في غداة غدٍ جاء دولوخوف إلى منزل روستوف. ولا كان نيقولا يذهب إليه أيضًا. ولكنه تلقى منه بعد ثلاثة أيام رسالة قصيرة هذا نصها:

«لما كنت لا أنوي بعد الآن أن أجيء إليكم، للأسباب التي تعرفها، ولما كنت، من جهة أخرى، عائدًا إلى الجيش: فإني أولم هذه الليلة عشاءً لوداع الأصدقاء. فتعال إلى فندق إنجلترا».

لما خرج روستوف من المسرح بعد أن صحب إليه أسرته ودينيسوف، ذهب إلى فندق إنجلترا في نحو الساعة العاشرة من المساء. فسرعان ما قادوه إلى أحسن حجرة في هذا الفندق، وهي الحجرة التي استأجرها دولوخوف ليشغلها هو وصحبه طوال الليل. كان زهاء عشرين مدعوًا متجمّعين حول مائدة تكدّست عليها، نقود ذهبية وأوراق مالية. وكان دولوخوف متصدِّرًا المائدة ببن شمعتين يوزع الورق.

إن نيقولا الذي لم يلقَ دولوخوف منذ رفض صونيا، كان يوجس شرًّا من هذا اللقاء. فما إن دخل باب الحجرة حتى وقع بصره على نظرة دولوخوف باردة مشعّة فكأن دولوخوف ينتظره منذ مدة طويلة.

قال له دولوخوف:

– لم نلتق منذ مدة. شكرًا لمجيئك. متى أنهيت توزيع ورق هذه الدورة يصل إيليوشا مع المغنين.

فأجابه روستوف وقد احمر وجهه:

– ذهبت إليك مرتين أو ثلاث مرات.

.. فقال له دولوخوف من دون أن يولي كلامه أي اهتمام:

- في إمكانك أن تشاركنا في اللعب فتضع مبلغًا.

فما إن سمع روستوف هذه الدعوة إلى المشاركة في المقامرة حتى تذكّر، على حين فجأة، حديثًا غريبًا جرى بينه وبين دولوخوف ذات يوم. لقد قال له دولوخوف في ذلك اليوم: «الحمقى وحدهم يقامرون عرضًا».

واستأنف دولوخوف كلامه فقال مبتسمًا وكأنه يقرأ ما خطر ببال روستوف:

- أتُراك خائفًا من المقامرة معي؟

رأى روستوف من خلال ابتسامة صديقه تلك الحالة النفسية التي تعتريه كلما سئم حياة رتيبة - كما حدث في المأدبة التي أقيمت للأمير باغراتيون - فشعر بالحاجة إلى الخروج من هذه الحياة الرتيبة بالقيام بعمل غريب شاذٍّ، قاسٍ في أكثر الأحيان.

تضايق نيقولا وفكّر في مزحة يرد بها على دولوخوف، فإذا بدولوخوف يحدِّق إلى بياض عينيه فجأة، ويقول له موقعًا كلماته توقيعًا يجعل الحضور جميعهم قادرين على أن يسمعوها:

- تذكّر «أننا قلنا ذات يوم الحمقى وحدهم يقامرون عرضًا». فإلى النهاية إنما ينبغي للمرء أن يقامر: وإني أريد أن أحاول...

تساءل روستوف: «أأجرّب حظي، أم أقامر إلى النهاية؟».

وواصل دولوخوف كلامه فقال وهو يخلط الأوراق:

- ... وربما كنت تحسن صنعًا كذلك إذا أنتَ لم تقامر.

وأضاف يخاطب اللاعبين:

- بنك يا سادة!

وبسط على المائدة ماله، وأخذ يوزّع الورق. وجلس روستوف إلى جانبه، ممتنعًا في البداية عن أن يستجيب لتحديه. فرشقه دولوخوف بنظرة شزراء. وقال له:

- ألا تريد إذًا أن تقامر؟

فشعر روستوف شعورًا غريبًا بأنه مجبر على أن يأخذ ورقة وأن يحط مبلغًا صغيرًا تافهًا. وقال:

- لست أحمل مالًا.

- أقرضك.

فحطَّ روستوف خمسة روبلات على ورقة فخسر. فحطَّ حطةً ثانية فخسر أيضًا. و«كسر» له دولوخوف عشر ورقات واحدة تلو الآخرى.

وقال بعد أن استلم البنك مدة من الوقت:

- يا سادة، يجب أن أرجوكم أن تضعوا مبالغكم على الأوراق، وإلا كان يمكن أن أخطئ في الحسابات.

فقال أحد المقامرين معترضًا:

- أظن أنني أهل للثقة!

. فانبرى دولوخوف يقول:

- طبعًا، ولكنني أخشى أن أخطئ. فأرجوكم أن تضعوا مبالغكم على الأوراق.

وأضاف مخاطبًا نيقولا:

- أما أنت فلا تزعج نفسك، فسوف نسوِّي الأمور بيننا دائمًا. واستمر اللعب. وكان الساقي لا ينفك يسكب شمبانيا.

«كُسرت» أوراق روستوف كلها تقريبًا، ولم يلبث أن بلغ حسابه ثمانمائة روبل. وهمَّ أن يسجل هذا الرقم على هذه الورقة، ولكنه عدّل عن هذا بينما كانت تُصَبُّ له الشمبانيا، ولم يسجِّل إلّا العشرين روبلًا التي كانت هي حطته العادية.

قال له دولوخوف متظاهرًا بأنه لا يراه:

- سجِّل كل المبلغ، فتتدارك الخسارة بسرعة أكبر. إنني أدفع لجميع الأوراق، و»أكسر» أوراقك أنت كلّها. أتُراك خائفًا مني؟

خضع روستوف. وتناول من الأرض ورقة كُبًّا مكسورة - سوف يحتفظ بذكراها زمنًا طويلًا، وسجل عليها العدد «800»، بخطوط مستقيمة، متقنة، وشرب كأس الشمبانيا جرعة واحدة، وكان كأس الشمبانيا الذي سُكب له في هذه المرة ساخنًا، وابتسم لما قاله دولوخوف، وأخذ قلبه يدق وهو لا ينظر إلى يدي صاحب البنك، وقد امتلأ قلبه أملًا في أن يراه يقلب «سبعة».

إن للربح أو الخسارة عنده في هذه المرة شأنًا كبيرًا وخطورة عظيمة. ففي يوم الأحد الماضي كان إيليا آندريتش، وهو ليس بالشحيح أو الضغين في العادة،. بل هو سخي كريم، قد أنبأه وهو يعطيه ألفي روبل بأنه لن يستطيع أن يعطيه مبلغًا آخر قبل شهر أيار (مايو)، فعليه في هذه المرة أن يعمد إلى شيء من الاقتصاد. بذلك أوصاه أبوه. وقد أجاب نيقولا أباه حينذاك بأن هذا المبلغ سيكفيه كفاية تامة حتى حلول الربيع، وحلف أيمانًا مغلظة أنه إلى أن يحل الربيع لن يطلب من أبيه شيئًا البتة. وقد أصبح لا يملك الآن إلّا ألفًا ومائتين روبلٍ. فهذه الورقة، ورقة السبعة الكبًّا، لا يتوقف عليها إذًا إمكان خسارة ألف وستمائة روبل. وإنما يتوقف عليها أيضًا خطر إخلافه الوعد الذي قطعه على نفسه. لذلك كان يرقب يدي دولوخوف قلِقًا أشد القلق، مهمومًا أكبر الهم.

وكان يقول لنفسه: «أعطني هذه الورقة التي أنشدها، فأمضي أتعشّى مع دينيسوف وناتاشا وصونيا، وأحلف ألّا ألمس ورقة لعب في حياتي بعد اليوم أبدًا!». وفي أثناء ذلك كانت الحوادث الصغيرة التي يعيشها في حياته بين أحضان أسرته، من فكاهاته مع بيتيا، إلى محادثاته مع صونيا، إلى غنائه مع ناتاشا، إلى لعبه بالورق مع أبيه، وحتى تكاسله على سريره الرخو. كان هذا كلّه، يخطر في ذاكرته قويًّا واضحًا فاتنًا. كسعادة انقضت منذ زمان طويل. وضاعت، ولم يعرف كيف يقدّرها حق قدرها. كان لا يستطيع أن يسلِّم بأن تأتي مصادفة بلهاء، فتجعل «سبعة كبًّا» على اليمين لا على الشمال، فإذا هي تحرمه من تلك الهناءة التي استردّها كاملة ملأى، وتغرقه في هوة من شرور وآلام لا يعرفها ولا عهد له بها. لا. ليس هذا ممكنًا... ومع ذلك كان يرصد كل حركة من حركات يدي دولوخوف، قلقًا مغمومًا مهمومًا. فإذا بهاتين اليدين المعروقتين، البارزة عظامهما، الأحمر لونهما، اللتين يُرى شعرهما تحت الكمَّين، تضعان كدسة أوراق اللعب فجأة، وتمسكان الغليون، وتتناولان كأس الشمبانيا، ويقول دولوخوف سائلًا روستوف:

- ما أنت بالخائف إذًا من المقامرة معي؟

وكأنما أراد أن يروي قصة فرحة من القصص، ارتد بجذعه إلى مسند كرسيه، وقال ببطء وهو يبتسم:

- نعم يا سادة، لقد أفلت مني قولي إنني كنت أُعدُّ في موسكو غشاشًا. فأنصحكم إذًا بأن تحذروني!

قال روستوف:

- وزِّع!

فعقَّب دولوخوف متراخيًا متوانيًا وهو يتناول أوراق اللعب ولا يزال يضحك:

- آه من ثرثارات موسكو العجائز!

وصاح روستوف وهو يرفع يديه إلى رأسه، ويشدّ بهما شعره:

- آ...!

ذلك أن السبعة التي كان يرجوها كانت الورقة الأولى من أوراق اللعب في التوزيع، فها هو ذا إذًا يخسر أكثر مما يستطيع أن يدفع.

قال له دولوخوف وهو ينظر إليه بطرف عينه:

- لا تفقد رصانتك!

وعاد يوزع الورق.

الفصل الرابع عشر

بعد ساعة ونصف ساعة أصبح أكثر اللاعبين لا يلعبون إلّا من باب التقيُّد بالشكل. وانصبّ الاهتمام باللعب كله على روستوف. وأصبح الدين المسجَّل عليه لا ألفًا وستمائة روبل، بل عمود من الأعداد كان قد جمعها فرأى أنها بلغت آلاف الروبلات، وقدَّر أن تكون الآن قد صارت زهاء خمسة عشر ألفًا، مع أنها تجاوزت في الواقع عشرين ألفًا. أصبح دولوخوف لا ينتبه إلى ما يقال، ولا يقصُّ حكايات. إنه يرصد كل حركة من حركات روستوف، ويلقي عليه نظرات خاطفة. كان قد قرر أن يستمر في اللعب إلى أن يبلغ المجموع ثلاثة وأربعين ألف روبل، لأن العدد «43» يساوي مجموع عمره وعمر صونيا. وكان روستوف واضعًا رأسه في يديه، متكئًا بكوعه إلى المائدة الملأى بالتسجيلات، مبلَّلًا بالخمرة، مرتبكًا بأوراق اللعب. وكان يعذّبه إحساس غالب مسيطر: هو أن هاتين اليدين المعروقتين، البارزة عظامهما، الأحمر لونهما، اللتين يحبهما ويكرههما في آن واحد. يقبضان عليه قبضًا، ويتحكّمان فيه تحكمًا، فلا يستطيع أن يفلت منهما بحال من الأحوال.

«ستمائة روبل، آص، ضِعْف، تسعة... لم يبق سبيل إلى استرداد الخسارة!... آه... ما كان أعظم تسليتي وبهجتي ومرحي لو كنت معكم!... ولكن ماذا؟ ما هذا الذي يفعله؟ لماذا يعاملني هذه المعاملة؟».

إذا أراد أن يجازف بمبلغ ضخم، تهرّب دولوخوف من الموافقة على المبلغ الضخم وتولّى بنفسه تحديد مقدار الحطة. فكان نيقولا يستسلم لمشيئته، ويدعو الله أن ينجده ويغيثه كما في ساحة معركة آمستتن. وكان

تارة يتخيّل أن هذه الورقة من أوراق اللعب، وهي الأولى في كدسة الأوراق المثنية التي تتبعثر تحت المائدة، قادرة على إنقاذه؛ وتارة يأخذ يعدّ الأزرار التي تزيّن سترته (الدولمان)، محاولًا باختيار الورقة التي تقابل مجموع عدد الأزرار، أن يسترد خسارته دفعة واحدة، وتارة يتضرع إلى اللاعبين الآخرين بنظرات عينيه؛ وتارة يتفرّس في وجه دولوخوف الذي أصبح كالجليد محاولًا أن يدرك نياته، وأن يحزر ما عقد العزم عليه.

«عجيب! إنه يعرف حق المعرفة ما لهذه الخسارة من شأن خطير عندي. هل يمكن أن يرغب في دماري وخرابي؟ لقد كان صديقي. وكنت أحبّه. ولكن ما هذا الذي أقوله؟ هل الذنب ذنبه إذا هو واتاه الحظ؟ إنني لم ارتكب أي عمل سيئ. لم اقتل أحدًا، ولا آذيت أحدًا، بل ما تمنيت أن يلحق بأي إنسان من الناس ضرر. فما هذا الحظ الرهيب الذي يدمّرني؟ ومتى بدأ هذا الحظ الرهيب؟ منذ بضع لحظات كنت أدنو من هذه المائدة آملًا أن أربح مائة روبل اشتري بها علبة الحلي التي كنت أود أن أهديها إلى ماما في عيدها، ثم أقفل راجعًا على الفور.

كنت عندئذ سعيدًا سعادة عظيمة، كنت حرًّا حرية كبيرة، كنت مبتهجًا ابتهاجًا كثيرًا! وكنت لا أدرك سعادتي!... متى حلّ محلّ تلك السعادة هذا الوضع الرهيب الذي أجدني فيه الآن؟ إنني لم أغادر هذا المكان، ولم أكفف عن تناول أوراق اللعب، ولم أنقطع عن المقامرة بها، ولم أتوقّف عن النظر إلى هاتين اليدين الحاذقتين البارزة عظامهما. فمتى تم هذا، وما هذا على وجه الدقة؟ إن صحتي حسنة وإني قوي الجسم، وما زلت أنا أنا، وما زلت في مكاني نفسه... فلا بد أن هذا كله ليس إلّا حلمًا سيئًا».

وكان احمر الوجه غارقًا في عرقه، رغم أن جو الغرفة لم يكن حارًّا وكانت هيئته تثير في نفس من يراها خوفًا وشفقة في آن واحد، ولا سيما بسبب ما كان يبذله من جهود شاقة في سبيل أن يظهر هادئ النفس رابط الجأش.

ووصل الحساب إلى الرقم المشؤوم: ثلاثة وأربعون ألف روبل. وكان روستوف يتأهّب لمضاعفة الحطة التي ربحها وهي ثلاثة آلاف روبل، فإذا بروستوف يرمي الورق على المائدة محدثًا ضجة، ويأخذ يحصي مجموع

ما على روستوف؛ ولما كان يضغط الطبشورة ضغطًا قويًا لرسم أرقام كبيرة تسهل رؤيتها، انكسرت الطبشورة بين أصابعه. فقال:

- آن أوان العشاء يا سادة. وها هم البوهيميون قد وصلوا!

وكان عدد من رجال ونساء سمر الوجوه يدخلون الغرفة فعلًا، حاملين إليها من الخارج بردًا، ويمازح بعضهم بعضًا بلهجة أهل بوهيميا. فأدرك نيقولا أن كل شيء قد انتهى. ولكن ذلك لم يمنعه أن يقول بلهجة المتظاهر بقلة الاكتراث، كأنما لا يحضّه على هذا السؤال إلّا تلذذه بالمقامرة لا أكثر:

- ماذا؟ أتكفّ عن التوزيع؟ ولكنني هيأت ورقة...

وقال محدِّثًا نفسه: «انتهى كل شيء. هلكت. لم يبق علي إلّا أن أطلق رصاصة في رأسي». ولكن هذا لم يمنعه كذلك من أن يستأنف كلامه قائلًا في مرح:

- نعم، هيأت ورقة... هل لنا بتوزيعة أخرى؟

كان دولوخوف قد نظر في حاصل الجمع فرأى أن صافي الحساب يزيد واحدًا وعشرين روبلًا على الرقم المدور الذي كان يريده (ثلاثة وأربعين ألف روبل) فأجاب يقول مطاوعًا وهو يبسط زاوية ورقته المثنية ويسجل عليها الرقم 21، مشيرًا إلى هذا الرقم على عمود الجمع:

- لك ما تشاء. واحد وعشرون روبلًا.

فقال روستوف:

- لا يهمني مقدار الحَطّة، وإنما يهمني أن أرى أتعطيني عشرة أم «تكسر» لي ورقتي.

وأخذ دولوخوف يوزّع بانتباه شديد. أوه! لشدة ما كان روستوف في تلك اللحظة يكره هاتين اليدين الأحمر لونهما، القصيرة أصابعهما، اللتين يرى المرء شعرهما تحت الكمين، الكمين تقبضان عليه قبضًا، فلا سبيل له إلى الإفلات منهما.

قال دولوخوف وهو ينهض عن المائدة متمطّيًا:

- إنك مدين لي بثلاثة وأربعين روبلًا يا كونت! ياه! إن المرء ليتعب تعبًا شديدًا من بقائه جالسًا هذه المدة. الطويلة كلها!

فعقب روستوف بقوله:

- أنا أيضًا تعبت!

ولا شك أن دولوخوف كان يحرص على أن يلمّح إلى أنه لا يحب أن يضيّع وقته في المزاح، فقال مخاطبًا روستوف:

- متى تستطيع أن ترد لي هذا الدين يا كونت؟

فأمسك روستوف ذراعه، وسار به إلى الغرفة المجاورة وقد احمرّ وجهه احمِرارًا شديدًا، واعترف له هناك قائلًا:

- لن استطيع أن أدفع لك المبلغ كله. سأحرر لك سندًا.

فأجابه دولوخوف وهو ينظر في عينيه ويبتسم ابتسامة باردة:

- اسمع يا روستوف. إنك تعرف المثل: «من كان سعيدًا في الحب، كان شقيًّا في القمار!». وقريبتك مجنونة حبًّا بك. فأنا أعرف هذا.

حدّث روستوف نفسه بقوله: «أوه! يا لهول العذاب الذي يعانيه المرء حين يحس بسلطان هذا الرجل عليه!». وكان يعرف الضربة القاسية التي سيحملها إلى أهله اعترافه بالخسارة التي خسرها. ما أعظم الفرح الذي يمكن أن يشعر به لو تخلّص من هذا الحلم الفظيع، من هذا الجاثوم الرهيب، من هذا الكابوس المخزي! وكان دولوخوف يستطيع أن ينقذه. إنه لا يجهل أن دولوخوف يستطيع أن ينقذه، ولكن دولوخوف يجد لذة كبيرة في أن يعبث به عبث قطة بفأرة!

قال دولوخوف ملحًا!

- إن قريبتك...

ولكن روستوف أسرع يقاطعه وقد اعترته نوبة حنق شديد، فقال صارخًا:

- لا شأن لقريبتي بهذا الأمر! لندع قريبتي وشأنها!

- متى تنوي إذًا أن تدفع لي ديني عليك؟

فقال روستوف وهو يولّي هاربًا:

- غدًا.

الفصل الخامس عشر

إنه لأمر سهل أن يقول المرء بلهجة سليمة: «غدًا». أما أن يرجع إلى منزله وحيدًا، ويرى أخواته وأخاه وأباه وأمه، ويعترف بخسارته ويطلب مالًا رغم العهد الذي قطعه على نفسه، فذلك شيء عظيم.

لم يكن أحد في المنزل قد نام. فبعد العودة من المسرح تحلّقت الشبيبة حول البيانو. وما إن وطئت قدما نيقولا أرض الصالة حتى أحس بجو الحب والشعر الذي ساد المنزل طوال الشتاء والذي تركز في الأيام الأخيرة على صونيا وناتاشا بعد تصريح دولوخوف وحفلة الرقص التي أقامها يوجيل، أقول ما إن وطئت قدماه أرض الصالة حتى أحسّ بهذا الجو يغمره كالهواء الثقيل الذي يسبق العاصفة. كانت الفتيات، بثيابهن الزرق التي لبسنها للمسرح، سعيدات، باسمات، عارفات بأنهن جميلات جِدًّا، وكن واقفات بقرب البيانو. وكانت فيرا تلعب بالشطرنج مع شنشين في الصالون. والكونتيسة تلعب بالورق لعبة «الصبر» مع سيدة عجوز نبيلة تقيم عندهم، وذلك تزجية للوقت بانتظار ابنها وزوجها. وكان دينيسوف جالسًا إلى البيانو، ملتمع النظرة، منفوش الشعر رادًّا إحدى ساقيه إلى الوراء، ينقر مفاتيح البيانو بأصابعه القصيرة، فيوقع أنغامًا، ويجيل عينين واسعتين وهو يغني بصوته الذي كان صوتًا أجش أبح لكنه سليم صحيح، يُغني قصيدة من نظمه عنوانها «الساحرة»، ويبحث عمن يصاحبه في غنائها:

أواه يا ساحرة!
أية قوة تدفعني إلى إيقاظ هذه الأوتار الناعمة
ما هذه النار التي تلهبين بها قلبي!

وما هذا الفرح الذي يجعل أصابعي تنبض!

وفيما كان دينيسوف يهدل بهذه الرومانسة، كانت عيناه اللتان تشبهان العقيق، ترسلان بروقًا إلى ناتاشا، فكانت ناتاشا مفتونة مسحورة، ولكنها كانت في الوقت نفسه خائفة خوفًا غامضًا.

هتفت تقول من دون أن تلاحظ أخاها:

- رائع! غنِّ لنا مقطعًا آخر!

قال نيقولا لنفسه وهو يلقي نظرة على الصالون حيث فيرى فيرا وأمه والسيدة العجوز: «كل شيء هنا يجري مجراه».

وصاحت ناتاشا تقول هارعة إليه:

- آ... هذا نيقولا!

سألها نيقولا:

- هل بابا هنا؟

فقالت ناتاشا من دون أن تجيبه عن سؤاله:

- ما أعظم سروري بمجيئك. إننا نتسلّى ونبتهج كثيرًا. هل تعلم أن فاسيلي ديمتريتش سيبقى يومًا آخر من أجلي أنا!

وقالت صونيا تجيب عن سؤاله الذي ألقاه على ناتاشا:

- لا، لما يرجع بابا بعد.

وهتفت الكونتيسة من الصالون تقول:

ها أنت ذا أخيرًا، يا كوكو. هلّا جئت إليَّ يا صديقي!

فأطاع نيقولا نداء أمه، فمضى إليها، وقبَّل يدها، وجلس بجانبها صامتًا لا ينطق بكلمة، واسترسل في تأمل أصابع الكونتيسة التي كانت تصفّ أوراق اللعب.

قال دينيسوف:

- لا، لا، لا أعذار. إنكِ مدينة لي بأغنية «باركارولا»، فغنِّها لي، أرجوك، أتوسل إليكِ...

قالت الكونتيسة تسأل بالنظرة ابنها الصامت الذي لا ينطق بكلمة.

- ما بك؟

فأجاب كالمتضايق من هذا السؤال الأبدي:

- لا شيء! هل يعود بابا بعد قليل؟

- غالب الظن.

قال نيقولا لنفسه: «كل شيء يجري في مجراه هنا. إلى أين يمكن أن ألجأ؟».

ورجع إلى الصالة الكبيرة.

كانت صونيا قد بدأت تعزف مقدمة «الباكارولا» التي يحبّها دينيسوف. وكان دينيسوف يلتهم بعينيه ناتاشا التي تتأهّب للغناء. وأخذ نيقولا يذرع الصالة ذاهبًا آيبًا.

«ما أسخفها من فكرة أن تدعى ناتاشا إلى الغناء! لكأنها تحسن الغناء!».

بذلك حدث نيقولا نفسه بينما كانت صونيا توقّع أنغام المقدمة. وتابع حديثه إلى نفسه يقول: «يا رب! يا رب! لقد هلكت، لقد تلطخ شرفي. رصاصة في رأسي. هذا نصيبي!... هم يغنّون فعلًا!... أأنصرف؟ ولكن إلى أين؟... فليغنّوا على كل حال، إذا كان هذا يحلو لهم!...».

وتابع طوافه في الصالة مكفهرّ الهيئة، وهو يلقي على البنات ودينيسوف نظرات خاطفة، ويتحاشى أن تلتقي نظراته بنظراتهم.

وكانت عينا صونيا، الثابتتان عليه، كأنهما تسألانه: «نيقولا، ماذا بك؟». لقد أدركت فورًا أن شيئًا وقع له. وتهرّب نيقولا من الإجابة عن هذا السؤال الآخرس.

وكانت ناتاشا، هذه النحلة الرقيقة، قد لاحظت هي أيضًا، منذ أول وهلة، حالة أخيها النفسية. ولكنها كانت قد بلغت من الفرح ومن البعد عن كل فكرة محزنة، إنها تعمّدت رفض الاهتمام بهذا الإحساس الكئيب الذي ساورها، وقالت لنفسها! «علام أفسد على نفسي فرصتها وانشراحها بالمشاركة في هموم غيري؟ ثم إنني لا بد أن أكون على خطأ فلا شك أنه لا يقل فرحًا عني!». كذلك يفكر الشبان في كثير من الأحيان.

وقالت تسأل صونيا وهي تسير إلى وسط القاعة بخطى قويه موقّعة، رافعة رأسها، متمايلة تمايل الراقصات:

- أأنت مستعدة يا صونيا؟

لقد سارت إلى وسط القاعة لأن الصوت في رأيها يترجع هناك ترجّعًا أحسن. حتى إذا وصلت إلى حيث كانت تريد أن تصل توقفت فجأة، وكأنها تقول مجيبة على النظرة الزاخرة بالحماسة، التي كان دينيسوف يرمقها بها: «انظر كيف أنا!».

تساءل نيقولا قائلًا: «ما اللذة التي تجنيها من هذا التصنّع؟ هلاّ كفَّت عن هذا الرياء؟ شيء مخز!».

وأطلقت ناتاشا نغمتها الأولى، واتسع حلقها، ونهد صدرها، واكتست نظرتها هيئة الجد. كانت في تلك اللحظة لا تفكّر في أي شيء خاص، ومن شفتيها اللتين قوَّستهما ابتسامة كانت تخرج أصوات يستطيع أي إنسان أن يصدرها على ذلك الوزن نفسه، أصوات تسمعها ألف مرة فلا تهزّك، ولكنها في المرة الأولى بعد الألف تجعلك ترتعش وتختلج وتذرف الدموع.

إن ناتاشا قد عكفت على الغناء جادةً كل الجد طوال هذا الشتاء، يحفّزها إلى ذلك ويحضّها عليه ما كان يكيله لها دينيسوف من ثناء مفعم بالحماسة، فتحرّر صوتها من طابع الاجتهاد الطفولي المضحك الذي كانَ يفسده من قبل، ولكنه لمَّا يصل بعد إلى الكمال. فكان العارفون يصفون صوتها بقولهم: «هو صوت جميل، ولكنه لمَّا يستقم كل الاستقامة بعد، فلا بد من تثقيفه مزيدًا من التثقيف». وكانوا من جهة أخرى لا يصدرون هذا الحكم إلّا بعد انقضاء مدة طويلة على انتهاء ناتاشا من الغناء. أما أثناء الغناء، حين يصدح صوتها هذا الذي لمَّا يُصقل بعد، والذي يتقطّع بتنفسها تقطعًا رديئًا، والذي لا يستطيع أن يغيّر طبقته إلّا بجهد شاقٍّ، فقد كان هؤلاء الحكّام القساة يكتفون بمتعة الإصغاء إلى هذا الصوت، ولا يرغبون إلّا في المزيد من سماعه. لقد كان في صوتها نضارة عذراء، وانطلاق على السجية لا يفسده الشعور بما يملك من قوى؛ كان مخمّلًا لمَّا يشذَّب بعد، وكان هذا كله يبلغ من كمال الانسجام والاتساق مع نقائص التكنيك أنه يبدو للمرء أن أي تبديل فيه لا بد أن يسيء إليه.

تساءل نيقولا وقد حملقت عيناه: «ما هذا؟ ماذا حدث لها؟ ما أجمل

غناءها اليوم!». ولم يلبث أن غرق جسمًا وروحًا في انتظار النغمة التالية، في انتظار الجملة التالية ذات الأزمان الثلاثة: Omiocyudele Affetto... «واحد، اثنان ثلاثة...» واحد، اثنان ثلاثة، Omiocyudele Affetto... واحد، اثنان، ثلاثة، واحد... أوه! وقال نيقولا محدِّثًا نفسه: «ما أسخف حياتنا! ذلك كله، الحظ العاثر، والمال، ودولوخوف، والغضب، والمجد، نعم ذلك كله ما هو إلّا ترّهات... هذه هي الحقيقة. تشجّعي ناتاشا، تشجعي صديقتي ناتاشا! أتراها تستطيع أن ترتقي إلى هذه الـ «سي». مرحى! لقد بلغتها!». ومن دون أن يحسّ بأنه أخذ يغني ليقوِّي هذه الـ«سي»، نقل النغمة العليا إلى الفاصلة الثلاثية، ثم إذا هو يقول لنفسه: «ما كان أحلاها! أأنا أطلقت هذه النغمة حقًّا؟ ما كان أعظم توفيقي في ذلك!».

آه ما كان أجمل رنين تلك النغمة على الفاصلة الثلاثية، وما كان أقوى الانفعال الذي هزَّ أجمل ما في نفس روستوف! إنه يحلِّق الآن عاليًا عاليًا، فلا يمكن أن يهتم بشيء ولا أن يحفل بشيء في هذا العالم!

قال يحدّث نفسه: «لا تهمني خسارات القمار ولا يهمّني أمثال دولوخوف، ولا يهمّني وعد بذلته أو عهد قطعته!... ذلك كله لغو!... قد يُسرق المرء أو يُقتل، ثم هو يذوق السعادة كاملة...».

الفصل السادس عشر

منذ زمن طويل لم يكن روستوف قد وجد في سماع الموسيقى متعة كهذه المتعة، وبهجة كهذه البهجة. ولكن ما إن أنهت ناتاشا أغنيتها حتى عاوده الشعور بالواقع.. فخرج من دون أن ينطق بكلمة واحدة، ونزل إلى غرفته. وبعد ربع ساعة رجع الكونت الشيخ من النادي منشرح المزاج رائق النفس. وسمع نيقولا وقع خطاه عائدًا، فسرعان ما مضى إليه.

قال إيليا آندرويتش روستوف يسأل ابنه مبتسمًا له معتزًا به اعتزازًا مترعًا بالفرح:

- هيه بنيَّ الشجاع، لا بد أنك أحسنت.. الاستمتاع بوقتك، أليس كذلك؟

فأراد نيقولا أن يجيبه بنعم، ولكنه لم يقوَ على ذلك: لقد كانت شهقات تخنقه خنقًا. وكان الكونت منصرفًا إلى إشعال غليونه، فلم يلحظ ما كان عليه ابنه من حال.

قال نيقولا لنفسه وقد عزم على أن يخطو الخطوة وثبًا: «هيَّا يجب أن أنتهي من هذا الأمر». وقال يخاطب أباه فجأة بلهجة طلقة أخجلته من نفسه، وهي اللهجة التي كان يمكن أن يستعملها في طلب عربة تقلُّه إلى المدينة:

- بالمناسبة يا بابا، لقد كدت أنسى أن أحدّثك في الأمر: إنني في حاجة إلى مال.

وكان الكونت الشيخ منشرح المزاج جِدًّا في ذلك المساء، فأجاب ابنه بقوله:

- ألم أتنبّأ لك بأنك ستنفق كل ما معك؟ أأنت في حاجة إلى مبلغ كبير؟

فأجابه نيقولا وقد احمرّ وجهه وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء مستهترة ظلّ زمنًا طويلًا يشعر بالخجل منها والندم عليها:

- نعم، إلى مبلغ كبير. لقد خسرت في القمار قليلًا... أعني.... خسرت مبلغًا غير ضئيل... بل خسرت مبلغًا ضخمًا: ثلاثة وأربعين ألف روبل...

- كيف؟ مع من؟ أأنت تمزح؟

كذلك هتف الشيخ يسأل ابنه وقد غشيت عنقه وقذاله، على حين فجأة، تلك الحمرة المباغتة المعهودة في الشيوخ.

وأضاف نيقولا قوله:

- وقد وعدت بأن أردّ الدّين غدًا!

فقال الكونت الشيخ وهو يتهالك على الديوان محركًا يده بإشارة تدل على الكرب واليأس:

- يا رب!

وتابع نيقولا كلامه قائلًا بلهجة طلقة:

- ما العمل؟ هذا أمر يحدث لجميع الناس...

ولكنه كان في قرارة نفسه يعد نفسه وغدًا حقيرًا لئيمًا، وأنه ارتكب جريمة كبرى لا يكفَّر عنها حتى بالانتحار. إنه بدل أن يقبِّل يدي أبيه وأن يستغفره راكعًا جاثيًا على ركبتيه، قال له بخفة تقارب الوقاحة أن هذا يحدث لجميع الناس!

خفض إيليا آندريتش روستوف عينيه حين سمع هذا الجواب وجمجم يقول متلعثمًا باحثًا عن كلماته:

- نعم... صحيح.. ولكن لن يكون جمع هذا المبلغ أمرًا سهلًا. إنني أخشى ألا يكون جمعه أمرًا سهلًا. طبعًا. حدث هذا لآخرين، حدث هذا لآخرين...

وألقى على ابنه نظرة مختلسة، واتجه نحو الباب.

كان نيقولا يتوقع شيئًا من المقاومة، ففوجئ بهذا الموقف من أبيه. فصاح يقول من خلال بكائه ناشجًا:

- بابا! بابا! اغفر لي! سامحني!

وأمسك يد أبيه، وأطبق عليها بشفتيه، وأخذت دموعه تنسكب من عينيه غزيرة أشد الغزارة.

وفيما كان الابن وأبوه يتكاشفان هذا التكاشف، كان حديث آخر لا يقل عن هذا الحديث شأنًا وخطرًا يدور بين الأم وابنتها. كانت ناتاشا قد جاءت إلى الكونتيسة راكضة مهتاجة أشد الاهتياج، وقالت لها:.

- ماما، ماما!... صارحني...

- ماذا تعنين؟

- صارحني... صارحني بحبّه!

لم تصدق الكونتيسة أذنيها. دينيسوف صارح بحبّه. ومَنْ صارح؟ صارح بحبّه هذه الصبية الصغيرة ناتاشا، التي كانت منذ عهد قريب كل القرب تلعب بعروسة وتتلقى دروسًا؟

أجابت الأم وهي لا تزال تأمل أن يكون كلام ابنتها مزاحًا:

- ما هذا الذي تقولينه يا ناتاشا؟ دعكِ من المزاح السخيف؟

فقالت الفتاة ملسوعة من كلام أمها:

- مزاح؟ أنا لا أمزح. أنا أتكلّم جادة كل الجد، وقد جئت أسالك رأيك، فكيف تصفين هذا بأنه مزاح سخيف؟

فرفعت الكونتيسة كتفيها وقالت:

- إذا كان مسيو دينيسوف قد صارحك بحبّه مع ذلك، فأجيبيه بأنه أحمق، فينتهي كل شيء.

فاغتاظت ناتاشا وقالت بلهجة جادة:

- ولكن لا، ما هو بأحمق...

فقالت الكونتيسة وهي تُكرِهُ نفسها على الضحك إكراهًا:

- فماذا تريدين إذًا؟ إن لكل واحدة منكن في هذا الزمان غرامًا طارئًا... فإذا كان هذا الفتى يحظى منك بهذا الإعجاب كله، فتزوجيه وليبارك الله هذا الزواج.

- لا يا ماما، ما أنا مغرمة بدينيسوف، أو أنا على الأقل لا أعتقد بأنني مغرمة به.

- فما عليك إذًا إلّا أن تعلني له هذا.
- أأنت غاضبة يا ماما؟ لا تزعلي، أرجوك... هل الذنب ذنبي؟
قالت الكونتيسة مبتسمة:
- لا... لست زعلانة. هل تريدين أن أذهب إليه أنا فأكلمه؟
- لا، سأكلمه بنفسي. ولكن قولي لي: كيف يجب أن أتصرف فأحسن التصرف...
وأضافت تقول ردًّا على ابتسامة أمها:
- كل شيء يسهل عليك أكبر السهولة. آه... ليتك رأيت كيف صارحني بحبّه. وإني لأعلم على كل حال أنه ما كان يريد أن يقول ما قاله، ولكن الكلام أفلت منه إفلاتًا.
- هذا لا ينفي أن عليك أن ترفضيه.
- لا، إن أمره يحزنني كثيرًا. إنه لطيف غاية اللطف، مهذّب أعظم التهذيب.
- فما عليك إذًا إلّا أن تقبليه!
بذلك أجابتها أمها ساخرة متهكّمة.
قالت الفتاة:
- آه يا ماما! إن أمره ليؤلمني كثيرًا! لست أدري بماذا أجيبه.
قالت الكونتيسة حانقة من أن تعامل صبية صغيرة معاملة فتاة كبيرة:
- ليس عليك أنت أن تكلّميه. أنا أتولى هذا الأمر!
- أوه! لا! سأكلمه بنفسي، وتتنصّتين أنت الوراء الباب.
وعادت ناتاشا إلى صالة الموسيقى.
كان دينيسوف لا يزال جالسًا هناك بقرب البيانو، جاعلًا رأسه بين يديه، فلما سمع وقع أقدامها راكضة إليه انتفض وهرع نحوها قائلًا لها:
- ناتاليا! قرري مصيري! إنه بين يديك.
- فاسيلي ديمتريتش، إن حالك تحزنني كثيرًا! أنت لطيف ومهذب جِدًّا. ولكن ما تطلبه لا يمكن أن يتم. حقًّا لا يمكن أن يتم غير أنني سأحبك دائمًا.
مال دينيسوف على يدها، وسمعته ناتاشا يصدر أصواتًا غريبة لا تُفهم.

فطبعت قبلة على شعره الجعد المتشابك. وسُمع في تلك اللحظة نفسها حفيف فستان دلَّ على أن الكونتيسة قد أقبلت.

قالت الكونتيسة بصوت متأثر بدا لدينيسوف مع ذلك قاسيًا:

- فاسيلي ديمتريتش، شكرًا على ما أوليتنا من شرف. ولكن ابنتي لا تزال صغيرة جِدًّا. وما كنت لأتصور، وأنت صديق ابني، أن تكلمها هي في هذا الأمر إذا بدا لك أن تتكلّم فيه، وإنما ترجع إليَّ أولًا. ولو رجعت إليَّ لما اضطررتني إلى أن أجيبك برفض.

تمتم دينيسوف يقول خافضًا عينيه معبّرًا بهيئة عن أنه آثم مذنب:

- كونتيسة...

وأراد أن يضيف شيئًا آخر، ولكنه صمت ولم ينطق بكلمة واحدة.

فلما رأته ناتاشا مضطربًا هذا الاضطراب الشديد كله، فقدت هدوءها وانفجرت تبكي بكاء صاخبًا.

واستطاع دينيسوف أخيرًا أن يتكلّم فقال بصوت متقطّع:

- كونتيسة! أنا مذنب في حقك. ولكن اعلمي أنني أعبد ابنتك... وأعبد أسرتكم كلها... عبادة تبلغ من الحرارة والصدق أنني مستعد لأن أموت في سبيلها...

وكان يريد أن يستمر في كلامه هذا لولا أن رأى الكونتيسة لا تزال متجهّمة الوجه قاسية النظرة، فسكت... ثم قال بغتة وهو يقبل يد الكونتيسة:

- وداعًا كونتيسة...

ومن دون أن ينظر إلى ناتاشا خرج بخطى سريعة حازمة.

وفي الغد ودّع نيقولا صديقه دينيسوف الذي لم يشأ أن يبقى في موسكو يومًا آخر. واحتفل جميع أصدقاء دينيسوف بسفره عند البوهيميين. ولم يستطع دينيسوف في يوم من الأيام بعد ذلك أن يتذكّر كيف دُسَّ في زلاجته، ولا كيف قطع المحطات الثلاث الأولى.

وبانتظار أن يجمع الكونت الشيخ ما طلبه ابنه من مال لسداد الدين الذي ترتّب على خسارته في القمار مع دولوخوف، اضطر نيقولا أن يقضي بموسكو خمسة عشر يومًا أخرى، حابسًا نفسه في المنزل وفي غرفة البنات

أكثر الأحيان، عاكفًا على ملء ألبوماتهن أشعارًا أو موسيقى.

وكانت صونيا أثناء ذلك أعظم رقة وحنانًا وإخلاصًا منها في أي وقت مضى. حتى لقد تظاهرت بأنها تعد خسارته في القمار مأثرة تجعله في نظرها محببًا إلى القلب أكثر مما كان.. ولكن نيقولا يعد نفسه الآن غير جدير بها.

ولما استطاع نيقولا أن يرسل إلى دولوخوف ثلاثة وأربعين ألف روبل وأن يتلقّى منه إيصالًا بتسلّم المبلغ، سافر في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من دون أن يودّع أحدًا من أصدقائه، ومضى يلتحق بفوجه الذي كانت معسكراته قد رابطت في بولندا.

الجزء الثاني

الفصل الأول

لم يلبث بطرس أن سافر إلى مدينة بطرسبورغ بعد المشاجرة التي قامت بينه وبين امرأته. وقد زعم له القيِّم على محطة الخيل في مربط تورجوك أن ليس عنده أفراس. فاضطر بطرس إلى الانتظار. واستلقى على ديوان من الجلد أمام طاولة مستديرة من دون أن يخلع من ثيابه شيئًا، ومدَّ على الطاولة ساقيه الطويلتين اللتين تنتعلان جزمتين مبطّنتين، واسترسل في تأملاته.

سأله خادمه:

- هل يجب الإتيان بالحقائب، وإعداد سرير؟ وتهيئة شيء من الشاي؟

لم يجب بطرس: فقد كان لا يسمع شيئًا ولا يبصر شيئًا. وكانت تأملاته منذ آخر محطة تدور على موضوع يبلغ من الخطورة أنه كان لا يولي ما يحدث من حوله أي انتباه. كان لا يهمه كثيرًا أن يصل إلى بطرسبورغ متقدّمًا ساعة أو متأخرًا ساعة. كان لا يهمه أن يجد في هذه المحطة سريرًا أو أن لا يجد سريرًا، بل كان لا يهمه كثيرًا، بالقياس إلى الأفكار التي تدور في رأسه، أن يقضي في هذا المكان بضع ساعات لا أكثر، أو أن يبقى فيه حياته كلها.

وقد جاءه القيِّم على المحطة، وامرأته والخادم، وبائعة جلود[1] يعرضون عليه خدماتهم واحدًا تلو الآخر. فكان بطرس يتأمّل هؤلاء وأولئك من

---

(1) إن مدابغ تورجوك ذائعة الصيت. وهناك إنما يصنع الجزء الأكبر من «جلد روسيا» الشهير.

خلال نظارتيه رافعًا ساقيه في الهواء، من دون أن يغيّر وضعه ومن دون أن يسأل ماذا يريدون ولا كيف استطاعوا أن يعيشوا من غير أن يحلّوا المسائل التي تلحّ عليه. وهي تلك المسائل عينها التي ألقاها على نفسه منذ عودته من مبارزة «غابة مربّي الصقور» أثناء ليلته الأولى القاسية التي قضاها مؤرقًا مسهدًا. تلك المسائل عينها لم تتغير ولم تتبدل، ولكن عزلة السفر جعلتها أشد إلحاحًا ولجاجة. كانت تلك المسائل تحاصره وتسد عليه المسالك مهما يحاول أن يهرب منها، ثم هو لا يستطيع أن يجد لها حلًّا، حتى لكأن البرغي الرئيسي الذي يضم حياته بعضها إلى بعض قد التوى في رأسه وانكسر، فلا هو ينفذ مزيدًا من النفاذ، ولا هو يخرج، وإنما هو يدور ثم يدور في مكانه لا يبرحه، من دون أن يمسك شيئًا، ومن دون أن يمكن وقفه عن الدوران.

جاء القيِّم على المحطة يرجو صاحب السعادة، بكثير من المذلّة، أن يتكرّم بالانتظار ساعتين اثنتين لا أكثر، ويعده بأن يهيئ له خيلًا من خيول البريد متحملًا تبعات ذلك ومخاطره. وكان هذا الكلام كله كذبًا واضحًا، فما كان الرجل يفكر في غير أن يبتز من المسافر أكبر قدر ممكن من المال.

تساءل بطرس: «أهو يفعل خيرًا أم شرًّا؟ بالنسبة إليَّ أنا، لا شرَّ في ما يفعله، ولكن فعله هذا يكون شرًّا إذا وصل مسافر آخر. وهو لا يستطيع أن يسلك غير هذا السلوك، إنه لا يملك ما يقيم به أوَده. وإذا صدق ما يقوله فإنه قد رفض أن يقدّم لأحد الضباط خيلًا، فإذا بالضابط يضربه. ذلك أن الضابط كان في حاجة إلى أن يصل بسرعة. وقد أطلقت أنا النار على دولوخوف لاعتقادي بأنه أهانني. ولويس السادس عشر، ألم يعدموه لأنهم عدّوه مجرمًا؟ وبعدها أُعدم بالمقصلة أولئك الذين أعدموه. لعل الطرفين كليهما على حق، لعل لكل من الطرفين أسبابًا تسوّغ عمله. ما الذي يجب أن يعدَّ شرًّا، وما الذي يجب أن يُعدَّ خيرًا؟ ماذا يجب أن نحب وماذا يجب أن نبغض؟ لماذا ينبغي للمرء أن يحيا وما هي الذات؟ ما الحياة وما الموت؟ وما القوة التي توجّه كل شيء؟

لم يجد بطرس لهذه الأسئلة كلها إلّا جوابًا واحدًا ليس بجواب، «السوف تموت ذات يوم، فينتهي كل شيء. سوف تموت فتعلم كل شيء أو تكفّ عن إلقاء أسئلة على نفسك». ولكن الموت أيضًا شيء رهيب.

كانت بائعة المصنوعات الجلدية تعرض عليه بضاعتها بصوتها الصارخ، وكانت تعرض عليه خُفيَّن من جلد الماعز خاصّةً. فقال بطرس محدِّثًا نفسه: «إنني أملك مئات من الروبلات لست في حاجة إليها، وهذه المرأة التي ترتدي فروة قصيرة ممزقة تتضرع إليَّ وتبتهل. ولكن أهي في حاجة حقًّا إلى مال؟ وهل يستطيع المال أن يهيئ لها شيئًا من السعادة ومن راحة النفس وهدوء البال والطمأنينة؟ لا، لا شيء في العالم يمكن أن يجعلها، أو يجعلني، أقل خضوعًا للشر وللموت، ذلك الموت الذي سينهي كل شيء، والذي سيأتي اليوم أو غدًا – سيَّان – فلا تكون الحياة إلّا لحظة بالقياس إلى الأبدية؟ كذلك اصطدم بطرس مرة أخرى بالبرغي الذي يدور دورانًا فارغًا، ويستمر في دورانه العقيم هذا بغير توقف.

وقدَّم إليه خادمه كتابًا فَصَلَ من صحائفه نصفها، إنه رواية من تأليف مدام دو سوزا كتبت على طريقة كتابة الروايات الرسائل، فأخذ بطرس يقرأ قصة ما عانته إميلي دو مانسفيلد[1] من آلام، وما خاضته من صراع في سبيل الفضيلة. فقال بطرس يسأل نفسه: «ولماذا تصارع الرجل الذي يغويها ما دامت تحبّه؟ إن الله لا يمكن أن يكون قد أودع نفسها رغبات تخالف إرادته. زوجتي أنا، أقصد المرأة التي كانت زوجتي، لم تصارع، ولعلها لم تكن على خطأ... لا شيء أمكن اكتشافه، لا شيء أمكن ابتداعه، كل ما نستطيع أن نعرفه هو أننا لا نعرف شيئًا، تلك هي أعلى درجة من درجات الحكمة الإنسانية».

كان كل شيء في نفس بطرس وفي ما حوله يبدو له سديمًا باطلًا منفرًا، ولكنه كان يجد في هذا النفور نفسه نوعًا من متعة وإثارة واهتياج.

---

(1) رواية آميلي دو مانسفيلد (1803) رواية من تأليف مدام كوتان وليست من تأليف مدام دو سوزا.

قال القيّم على المحطة وهو يدخل مسافرًا آخر يجبره نقص الخيل على أن يتلبّث في المحطة هو أيضًا:

- هل يتفضّل صاحب السعادة، إذا كان لا يضايقه ذلك، أن يفسح مكانًا صغيرًا لهذا السيد؟

إن هذا المسافر شيخ ضئيل ناتئ العظام، أصفر اللون، متغضّن الوجه، يبرز حاجباه الأبيضان فوق عينيه الملتمعتين اللتين لا تعرف لهما لونًا ولكنهما مرمَّدتان.

رفع بطرس ساقيه عن الطاولة، ومضى يضطجع على السرير الذي أُعِدَّ له، وأخذ يلقي من حين إلى حين نظرات على القادم الجديد الذي كان مكفهرّ الوجه مكدود الهيئة، وقد جعل ينضو عنه فروته في عناء يساعده خادمه، إن لباسه تحت الفروة لا يزيد على جلد من جلود الخراف، رثّ مغطى بقماش سميك من قطن، وكانت ساقاه النحيلتان الناتئة عظامهما تنتعلان جزمتين من لباد، وقد استقر على الديوان بهذا الجلد وهاتين الجزمتين. وردَّ رأسه الضخم العريض الصدغين المجزوز الشعر، إلى الوراء يسنده على ظهر الديوان. وبعد أن استقر على هذا الوضع إنما ألقى على جاره نظرة أدهشت بطرس بيزوخوف بما تحمله من قسوة ونفاذ. وأحب بطرس أن يقوم بينه وبين هذا المسافر حديث، وهمَّ أن يسأله عن حالة الطريق، ولكن الشيخ، بعد أن صالب يديه المتغضنتين اللتين تزين إحداهما حلقة كبيرة من معدن مسبوك تمثل رأس ميت[1]، كان قد أغمض عينيه وغرق في تفكير هادئ عميق، كما بدا لبطرس، وقام خادم الشيخ - وهو عجوز ضئيل الحجم خفيف الحركة أمرد الوجه لا يقل لونه صفرة عن لون مولاه ولا يقل جلده تجعدًا عن جلده، ولا شك في انه لم يحلق شعر رأسه يومًا، ولا كان له لحية أو شاربان في وقت من الأوقات - قام إلى الخرج فأخرج منه عدة الشاي، وجاء بسماور يغلي ماؤه. حتى إذا أصبح كل شيء مهيأ، فتح سيده عينيه، واقترب من المائدة، فصب لنفسه كأسًا من الشاي وقدم للعجوز الأمرد كأسًا.

---

(1) تمثيل رمزي لجمجمة آدم.

أحس بطرس بقلق غامض، وشعر بأنه يجب عليه أن يكلّم هذا المسافر.

ولم يلبث الخادم أن ردَّ كأسه فارغة مقلوبة على صحنها[1]، ومعها قطعة السكر التي كان قد قضم بعضها[2]، وسأل مولاه أهو في حاجة إلى شيء.

فأجابه مولاه بقوله:

- لا، لست في حاجة إلى شيء، أعطني كتابي.

فناوله الخادم كتابًا بدا لبطرس أنه كتاب ديني، وغرق الشيخ في القراءة، وقد أصبح لا يحوّل عنه الآن بصره، فإذا هو يراه يطوي الكتاب فجأة ويضعه، ثم يجمد على وضعه السابق مغمضًا عينيه مسندًا رأسه إلى ظهر الديوان. وهمَّ بطرس أن يشيح عنه وجهه، ولكن وقته لم يتّسع لذلك، فالشيخ فتح عينيه ثانية وأخذ يتفرّس فيه وقد لاحت في وجهه القسوة والصرامة.

شعر بطرس بضيق وحرج: إنه يود لو يستطيع الإفلات من هاتين العينين الساطعتين اللتين لا يستطيع المرء أن يقاوم ما فيهما من قوة الجذب.

---

(1) إشارة إلى أنه لا يرغب في كأس أخرى.

(2) لا يزال كثير من الروس يشربون الشاي ويقضمون السكر على حدة.

الفصل الثاني

إذا لم يخطئ ظني فإن الكونت بيزوخوف هو الذي أتشرّف بمخاطبته الآن.

فنظر إليه بطرس من خلال نظارتيه نظرة تحمل معنى السؤال من دون أن يقول كلمة واحدة، واستأنف المسافر كلامه فقال:

- لقد سمعت عنك يا سيدي، وعن المصيبة التي ألمّت بك، لذلك تراني حزينًا من أجلك أعمق الحزن.

وكانت لهجته تقول: «نعم، أيًّا كان الاسم الذي تسمي به هذا الأمر، فهو مصيبة. أنا أعلم أن ما حدث لك في موسكو مصيبة».

فاحمر وجه بطرس، وأسرع يضع قدميه على الأرض ومال على العجوز يبتسم ابتسامة خجلى يكره نفسه عليها إكراهًا.

وعاد المسافر الشيخ يتكلّم فقال:

- إنني لم أحدّثك في هذا الأمر يا سيدي بدافع حب الاطلاع السخيف، وإنما حدّثتك فيه لأسباب أخطر شأنًا.

وصمت من دون أن يحوّل بصره عن بطرس، وتحرَّك على الديوان داعيًا بطرس إلى أن يجلس بجانبه، فأحس بأنه مضطر إلى إطاعته رغم أنه لم يرغب في ذلك كثيرًا.

وأردف المسافر يقول:

- إنك شقي يا سيدي، وأنت شاب وأنا شيخ، فأحب أن أساعدك في حدود قدرتي على مساعدتك.

قال بطرس وهو يبتسم ابتسامة خجلى يكره عليها نفسها إكراهًا:

- نعم، نعم، أشكر لك هذا أكبر الشكر، من أين أنت؟

كانت هيئة المسافر كالحة، بل باردة وقاسية، ومع ذلك كان وجهه وحديثه يجذبان بطرس جذبًا لا سبيل إلى مقاومته.

قال المسافر:

- إذا كان حديثي يضايقك لسبب أو لآخر، فصارحني بذلك يا سيدي العزيز.

ابتسم ابتسامة أبوية على حين فجأة، ابتسامة ما كانت لتتوقّع منه.

أجابه بطرس وهو يتفرّس في خاتم صديقه الجديد عن كثب، وهو خاتم يحمل رأس ميت، وهذا شعار الماسونيين الأحرار:

- لا، أبدًا، بالعكس، أنا سعيد بمعرفتك، اسمح لي بسؤال: أأنت تنتمي إلى الماسونيين الأحرار؟

قال المسافر وهو يغرس نظرته في نظرة بطرس غرسًا أعمق:

- نعم، أنتمي إلى الماسونيين الأحرار، فباسمي وباسمهم أمدُّ إليك يد الأخوة.

أجابه بيزوخوف مبتسمًا، وهو موزَّع بين الثقة التي يوحي بها إليه الشيخ وبين ميله إلى السخرية من العقائد الماسونية:

- أخشى كثيرًا ألا أستطيع... كيف أعبِّر لك عن فكرتي؟ أخشى كثيرًا أن يكون تصوري للوجود بعيدًا عن تصورك أنت. ولا سبيل معه إلى تفاهم بيننا.

قال الماسوني:

أنا أعرف آراءك، وما هي بالآراء الشخصية كما تظن، وإنما هي ثمرة الزهو والجهل وكسل الفكر. إن أكثر الناس يدينون بهذه الآراء. معذرة يا سيدي العزيز، لولا أنني أعرف تفكيرك لما أجريت هذا الحديث بيني وبينك. إن آراءك ضلال محزن مؤسف.

فاعترض بطرس وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة وقال:

- يمكنني أن أقول هذا الكلام نفسه عن آرائك أنت.

قال الماسونيّ بلهجة قاطعة واضحة كانت تدهش بيزوخوف مزيدًا من الإدهاش:

- لن أجرؤ في يوم من الأيام أن أدّعي أنني عارف بالحقيقة قابض عليها، لا أحد يستطيع أن يبلغ الحقيقة بأنواره الخاصّة.

وأضاف يقول مغمضًا عينيه:

- حجرًا فوق حجر، بمساهمة جميع الناس، وبفضل جميع الأجيال، منذ جدنا آدم إلى أيامنا هذه، إنما يُبنى المعبد الذي سيكون المقر الجدير بالرب العظيم.

قال بطرس، منقادًا، على شيء من المضض، لحاجته إلى أن يخفي شيئًا:

- يجب أن أعترف لك بأنني... لا أؤمن... بالرب.

فتأمله الماسوني مبتسمًا تلك الابتسامة التي يبتسمها رجل واسع الثراء يملك الملايين لرجل مسكين فقير يتشكّى من أنه لا يستطيع أن يجد الروبلات الخمسة التي يمكن أن تحقّق سعادته، وقال له:

- هذا صحيح يا سيدي: أنت لا تعرف الرب، ولا تستطيع أن تعرفه. ولأنك لا تعرفه فأنت شقيّ.

- أنا شقيٌّ حقًّا. ولكن ما حيلتي؟

قال الماسوني بصوتٍ قاسٍ لكنه مختلج متهدّج:

- إنك لا تعرفه يا سيدي، وهذا هو السبب في أنك شقي جِدًّا. أنت لا تعرفه وهو هنا. هو في نفسي. هو في أقوالي. هو فيك أنت وحتى في أقوال الزندقة التي نطقت بها.

وصمت وتنهد. وكان واضحًا أنه يريد أن يسترد هدوءه. واستأنف كلامه فقال بلهجة أرفق وأرق:

- لو أن الرب غير موجود لما كان موضوع حديثنا الآن. عمَّ وعمَّن نتكلّم؟... من الذي تكفر به؟

كذلك صاح يسأل فجأة وقد عاد إلى لهجته الفخمة المتسلّطة، وتابع أسئلته فقال:

- من ابتدعه إن لم يكن موجودًا؟ من أين أتتك فكرة وجود كائن لا

سبيل إلى فهمه ولا سبيل إلى تصوّره؟ من أين استمد الكون كله واستمديت أنت فكرة موجود قادر على كل شيء، أبديٌّ أزليٌّ، لا نهاية له في جميع صفاته؟...

وتوقّف عن الكلام وصمت برهة طويلة. فلم يستطع بطرس ولا أراد أن يقطع هذا الصمت.

وعاد الماسوني يتكلّم، فقال وهو يحدّق ببصره لا إلى بطرس ولكن إلى نقطة في الفضاء أمامه، بينما كانت يداه العجراوان تقلّبان صفحات كتابه تقليبًا عصبيًا من شدّة غليان نفسه:

- هو موجود، ولكن فهمه ليس سهلًا، لو كان كفرك كفرًا بوجود إنسان موجود، لجئتك بهذا الإنسان فرأيته بعينيك وأنا ممسك يده. ولكن أين لي أنا الكائن أن أجعل رجلًا أعمى أو رجلًا يغمض عينيه حتى لا يرى الرب ولا يفهمه، وحتى لا يرى ولا يفهم ما بلغه هو من خسّة ودناءة وفساد وانحلال، أين لي أن أجعل مثل هذا الرجل يرى الرب العلي القدير، ويرى أبديته، ويرى رحمته التي لا نهاية لها؟

واستأنف يقول بعد برهة صمت أخرى، وهو يبتسم تبسّمًا ساخرًا:

- من أنت؟ نعم، من أنت؟ إنك تظن نفسك حكيمًا، وتظن أنك قادر على أن تنطق بأقوال الزندقة والكفر هذه. ولكنك في الواقع أشدّ حماقة وأبلغ طيشًا من ذلك الطفل الصغير الذي تسلّى فترة بجهاز ساعة صنعها صانع حاذق، ثم إذا هو، لأنه لم يفهم هدف هذه الساعة، يتجاسر فيكفر بوجود الصانع الذي صنع الساعة. نعم، إن معرفة الرب صعبة. إننا منذ قرون، منذ جدنا آدم إلى أيامنا هذه، قد جهدنا في هذه المعرفة، وما زلنا بعيدين بعدًا كبيرًا عن بلوغ هدفنا. ولكن هذا العجز لا يدل إلّا على جهلنا نحن وعظمته هو.

كان بطرس يحدّق إلى الماسوني بعينين ملتمعتين، وقد أوشك قلبه أن ينهار. كان يصغي إليه، لا يقاطعه ولا يسأله. كان يصدق أقوال هذا الإنسان المجهول بكل نفسه. أكان يخضع لقوة الحجة والمنطق؟ أكان ينقاد كالطفل للنبرات الحارة في كلام الخطيب وللانفعال الذي يهدّج صوت الخطيب

وقد يكسِّره؟ أكان يستسلم لسحر النظرة التي يسطع فيها لهيب إيمان صادق؟ أكان يهزّه هذا الصفاء وكانت تهزّه هذه الثقة التي يتّصف بهما الرسل، لا سيما وأنهما نقيض ما كان يحسه هو في قرارة نفسه من خراب، وما يعانيه من شعور بالدمار النفسي؟ مهما يكن من أمر، فقد كان يريد بكل نفسه أن يؤمن، وكان يؤمن، وكان يحسّ بشيء من التخفّف والتجدد والعودة إلى الحياة. وختم الماسوني كلامه بقوله:

- لا يستطيع العقل أن يتصور الرب. الحياة وحدها تَهدي إليه.

شعر بطرس بنوع من الشك يقوم في نفسه، وصاحب هذا الشعور شيء من القلق والخوف. إنه يخشى أن يمنعه غموض الحجج التي يسوقها محدّثه، وأن يمنعه ضعف هذه الحجج من أن يصدق أقواله ويؤمن بمزاعمه.

قال معترضًا:

- لست أفهم أن يعجز الفكر الإنساني عن الوصول إلى هذه.

فابتسم الشيخ ابتسامته الأبوية الطيبة، وقال:

- إن الحكمة، وإن الحقيقة العليا، أشبه بشراب رائق جِدًّا نريد أن نتجرّعه. فهل يمكنني أن أحكم على نقاء هذا الشراب إذا أنا سكبته في إناء متّسخ؟ إنني لا أستطيع أن أردَّ هذا الشراب الثمين إلى بعض نقائه إلّا بعد أن أطهِّر نفسي.

هتف بطرس يقول متعزيًا:

- نعم، نعم، هذه هي المسألة.

- إن الحكمة العليا لا تقوم على العقل ولا على العلوم الدنيوية كالفيزياء والكيمياء والتاريخ وسائر فروع المعرفة الإنسانية. الحكمة الإنسانية «واحدة». الحكمة العليا ليس لها إلّا علم واحد هو علم «الكل»، العلم الذي يفسّر «الخليقة» كلّها والمكان الذي يشغله الإنسان في هذه الخليقة. فمن أجل أن يجعل المرء في نفسه مكانًا لهذا العلم، يجب عليه أن يطهِّر وأن يجدد كيانه الروحي، وقبل أن يعرف، عليه إذًا أن يرقى بنفسه إلى الكمال. ولكي نستطيع أن نبلغ هذه الأهداف إنما أودع في نفوسنا هذا الضياء الإلهي الذي يسمى الشعور.

قال بطرس مؤيدًا:

- نعم، نعم!

- تأملٍ كيانك الداخلي بعيني روحك، وأسال نفسك أأنت راض عن نفسك حقًّا؟ إلى أين وصلت بمعونة العقل الإنساني وحده؟... إنك شاب، وغنيّ، وذكي، ومثقّف. فما الذي حققته بكل هذه الخبرات التي قُسمت لك؟ أأنت راض عن نفسك وعن طراز حياتك؟

أجاب بطرس قائلًا:

- لا. إنني أكره حياتي.

- إذا كنت تكرهها فبدِّلها. طهِّر نفسك. وعلى قدر تطهيرك نفسك ستعرف الحكمة. الق نظرة على حياتك يا سيدي. ماذا صنعت منها؟ سلسلة من العربدات والدعارات. لقد أخذت من المجتمع كل شيء، من دون أن تردَّ إليه أي شيء. هبطت عليك الثروة. فكيف استعملت هذه الثروة؟ ماذا صنعت لأخيك الإنسان؟ هل فكَّرت في عشرات الألوف من أقنانك؟ هل حملت إليهم شيئًا من العون المادي والروحي؟ لا. وإنما أنت استفدت من عملهم وكدِّهم، لتعيش حياة فاسدة. ذلك ما فعلته. هل التمست عملًا من الأعمال يتيح لك أن تكون نافعًا لأخيك الإنسان؟ لا. وإنما أنت قضيت حياتك في البطالة والفراغ ثم تزوّجت يا سيدي. فأصبحت تقع على عاتقك مسؤولية كبيرة: هي التوجيه الروحي لامرأة شابة. فماذا صنعت إنك بدلًا من أن ترشدها على طريق الحقيقة، أغرقتها في هوّة الكذب والحظ العاثر. وقد أهانك رجل، فقتلته. وتقول الآن إنك لا تعرف الرب وإنك تكره حياتك. لا عجب في هذا يا سيدي العزيز.

ولا شك في أن الماسوني قد أتعبه أن يقول هذا الكلام كله، فعاد يريح ظهره على مسند الديوان، وأغمض عينيه. فكان بطرس يتأمل هذا الوجه القاسي، الجامد، الذي يكاد يكون وجه جثة هامدة. وحرَّك شفتيه متأهبًا أن يقول: «نعم، عشت حياة كريهة مقيتة، ليس فيها إلّا الدعارة والفراغ». ولكنه لم يجرؤ أن يقطع الصمت.

وسعل الماسوني سعالًا مبحوحًا ضعيفًا ضعف الشيخوخة، ثم نادى خادمه، وقال يسأله:

- هيه، والخيل؟

- أعدوا لك خيلًا، ولكن ألا تريد أن تنال شيئًا من راحة؟

- لا، أقرن الخيل.

قال بطرس لنفسه: «أينصرف قبل أن يقول كل ما كان يريد أن يقوله، ومن دون وعد بأن يساعدني؟». سأل بطرس نفسه هذا السؤال وكان قد نهض وأخذ يذرع الغرفة، ويختلس النظر إلى الماسوني. وتابع حديثه لنفسه يقول:

«نعم، إنني لم أفكر في هذا يومًا. لقد عشت حياة فاسدة جديرة بالاحتقار: على غير ما أحب في واقع الأمر، فلقد كنت أكره تلك الحياة حقًّا... إن هذا الرجل يعرف الحقيقة، وفي وسعه أن يكشف لي عنها إذا شاء».

وكان بطرس يود لو يعترف للمسافر بهذا، ولكن أعوزته الشجاعة. وفي أثناء ذلك رتَّب الشيخ خرجه بيديه اللتين كانتا ضعيفتين ولكنهما كانتا ماهرتين، ثم أخذ يعقد أزرار فروته، حتى إذا فرغ من ذلك التفت إلى بيزوخوف وقال له بلهجة التأدب المألوف المبتذل:

- إلى أين تنوي أن تسافر يا سيدي؟

فأجابه بطرس بصوت متلجلج كصوت طفل:

- أنا؟... إلى بطرسبورغ. وإني لشاكر لك أكبر الشكر، ممتنّ منك أعظم الامتنان. إني موافق على آرائك كل الموافقة. ولكن لا تظن أنني بلغت من الفساد مبلغًا كبيرًا. فأنا أتوق بكل نفسي إلى أن أكون الرجل الذي تحب لي أن أكونه. ولكنْ لم يساعدني أحد... وهذا لا يخفّف بشاعة سلوكي على كل حال.. ساعدني، علّمني، فعسى أن..

وخنق الانفعال صوته، فلم يستطع أن يزيد شيئًا وأشاح وجهه.

فبدا على الماسوني أنه يفكر؛ ثم قال بعد برهة طويلة:

- المساعدة لا تأتي إلّا من الرب. ولكن جمعيتنا ستعاونك في حدود

ما تملك من وسائل المعاونة. ما دمت ذاهبًا إلى بطرسبورغ، فسلّم هذه إلى الكونت فيلارسكي من فضلك.

واستلّ من محفظة أوراقه ورقة كبيرة، فطواها أربع طيات، وكتب عليها بضع كلمات.

وأردف يقول:

- اسمح لي أن أسدي إليك بنصيحة. متى وصلت إلى العاصمة فقف الأيام الأولى على العزلة متأملًا في نفسك محاسبًا ضميرك، ولا تستأنف طراز حياتك السابق.

ثم قال يختتم كلامه وقد رأى خادمه داخلًا:

- والآن يا سيدي، أتمنى لك سفرًا ميمونًا... وحظًّا حسنًا...

كان هذا المسافر هو أوسيب ألكسيفتش بازدايف، كما علم بطرس ذلك من مراجعة سجل القيِّم على المحطة. ولقد كان بازدايف، منذ زمان نوفيكوف1، واحدًا من أشهر أتباع المارتينية والماسونية.

سافر بازدايف فظلّ بطرس يذرع صالة المحطة زمنًا طويلًا، لا يخطر بباله أن يضطجع على السرير، ولا أن يطلب خيلًا. كان يستعرض بخياله الحياة الفاسدة التي عاشها حتى ذلك الحين، ويتخيل بحماسة المنتصر الجديد المستقبل الجميل الذي ينتظره، وهو مستقبل كله فضيلة وسعادة، ويقدِّر أن هذا المستقبل سهل تحقيقه، لأن فساده الماضي لم يكن إلّا ثمرة مصادفة سيئة. فكل ما حدث له هو أنه فقد رؤية جمال الفضيلة. تبدّدت شكوكه تبددًا تامًّا: نعم، إن في وسع رجال أن يتّحدوا ليتعاونوا في البحث عن الحقيقة، ولا شك أن هذا هو شأن الماسونيين الأحرار.

الفصل الثالث

حين رجع بطرس إلى بطرسبورغ لم ينبئ أحدًا بعودته، وحبس نفسه في بيته. فكان يقضي أيامه في قراءة كتاب «الاقتداء» الذي حملته إليه يد لم يعرفها. فكان يجد في هذه القراءة متعة متجدّدة لا عهد له بمثلها من قبل، هي متعة الإيمان بإمكان الوصول إلى الكمال، وإمكان إقامة ذلك الحب الأخوي الفعَّال على هذه الأرض، أعني الحب الذي كشف له عنه أوسيب ألكسيفتش.

وفي ذات مساء، بعد انقضاء ثمانية أيام على وصوله دخل عليه في مكتبه الكونت البولندي الشاب فيلارسكي الذي كان بطرس قد لقيه في المجتمع البطرسبورغي الراقي من قبل، دخل عليه مصطنعًا تلك الهيئة الرضية الرسمية التي اصطنعها شاهد دولوخوف يوم جاء يقدّم نفسه إليه. فبعد أن أغلق فيلارسكي الباب الوراءه، وتأكد من أنهما وحيدان ليس معهما ثالث، قال بطرس، حتى من دون أن يجلس:

- إنني مكلّف بمهمة لديك يا كونت. إن شخصًا عالي المقام في جمعيتنا قد توسَّط لقبولك عضوًا في الجمعية قبل انقضاء المهلة المعتادة، وطلب مني أن أكون المسؤول عنك. وإني أعد بتنفيذ إرادته واجبًا مقدسًا. فهل تريد أن تنتسب إلى جمعية الماسونيين الأحرار بكفالتي؟

لم يسع بطرس إلّا أن يستغرب هذه اللهجة الباردة القاسية التي يتكلّم بها هذا الرجل الذي كان يلمحه بطرس في حفلات الرقص مبتسمًا لطيفًا ساعيًا إلى الحسناوات المتألقات متودّدًا إليهن، حائمًا حولهنّ.

أجابه بطرس:

- نعم، أريد.

فحبَّذ فيلارسكي جوابه بحركة من رأسه. وأضاف يقول له:

- سؤال آخر يا كونت أرجو أن تجيبني عنه لا جوابَ رجل سيصبح ماسونيًّا، بل جواب رجل مهذب، فتقول لي صادقًا كل الصدق: هل جحدت آراءك السابقة؟ هل أنت تؤمن بالله؟

فكر بطرس لحظة ثم قال:

- نعم.. نعم... أؤمن بالله.

فأراد فيلارسكي أن يتكلّم فقال:

- إذا كان الأمر كذلك...

ولكن بطرس قاطعه مكرِّرًا ما سبق أن قاله:

- نعم، أؤمن بالله.

فأتم فيلارسكي كلامه فقال:

- إذا كان الأمر كذلك، فيمكننا أن نذهب. إن عربتي في خدمتك.

لزم فيلارسكي الصمت طوال الطريق. فإذا سأله بطرس عمَّا يجب عليه أن يفعله وأن يقوله، لم يزد على أن يجيب بأن إخوة أجدر منه سوف يمتحنونه، ولن يكون عليه إلّا أن يقول الحقيقة.

حتى إذا نزلا من العربة تحت صيوان المنزل الذي كان مقر المحفل الماسوني، صعدا سلَّمًا مظلمًا، ودخلا حجرة صغيرة مضاءة خلعا فيها معطفيهما بمساعدة خدم. فإذا دخلا إلى الغرفة التالية ظهر على بابها الآخر رجل يرتدي زيًّا غريبًا مضحكًا، فاقبل عليه فيلارسكي وقال له بالفرنسية بضع كلمات بصوت خافت، ثم اقترب من خزانة صغيرة لمح فيها بطرس ثيابًا لم ير مثلها في حياته. وتناول فيلارسكي من الخزانة منديلًا، عصب به عيني بطرس، وعقد طرفيه خلف رأسه شابكًا بالعقدة خصلة من شعره خطأً، ثم جذبه إليه، وعانقه مقبِّلًا، وأمسك يده، وسار به. فكانت خصلة الشعر المشتبكة بالعقدة تؤلم بطرس، وكان بطرس يصعِّر وجهه من الألم، ويبتسم كالخجلان من نفسه. كان هذا الشاب الجبار، ذو الذراعين المتأرجحتين والوجه المتصعِّر المبتسم، يمشي الوراء فيلارسكي مشية وجله خجلة، متردّدة حائرة.

فلما سارا زهاء عشر خطوات توقّف فيلارسكي. وقال لبطرس:

- مهما يحدث لك من أمر فيجب عليك أن تتحمّل كل شيء بشجاعة، إذا كنت قد عزمت على أن تدخل في جمعيتنا.

فحرّك بطرس رأسه بحركة تشير إلى الموافقة.

وأضاف فيلارسكي قوله:

- إذا سمعت الباب يُقرع، فانزع العِصْبة عن عينيك. أتمنى لك شجاعة طيبة وحظًّا حسنًا.

ثم صافحه وانصرف.

أصبح بطرس وحيدًا في الغرفة، وظل يبتسم. ورفع منكبيه مرة أو مرتين، وحمل يده إلى العِصبة كأنه يريد أن ينزعها ويتحرّر منها، ولكنه لم يلبث أن أنزل يده. إن عينيه لم تعصبا إلّا منذ خمس دقائق، ولكن هذه الدقائق الخمس بدت له ساعة كاملة. وكانت يداه متخدّرتين، وساقاه تصطكان، وكان شعور بالتعب يرهقه إرهاقًا. وهزَّت نفسه عواطف متنوّعة أشد التنوع، معقدة أكبر التعقيد. كان خائفًا ممَّا سيقع له، وكان يخشى أكثر من ذلك أن لا يستطيع إخفاء هذا الخوف. وكان تواقًا إلى معرفة ما سيصنعونه به، وما سيكشفونه له. وكان يبهجه خاصّةً أن يتصوّر اقتراب اللحظة التي سيدخل فيها الطريق المؤدية إلى تجديد نفسه، وإلى شروعه في العمل من أجل الفضيلة، هذا العمل الذي أصبح يحلم به منذ أن لقي أوسيب ألكسيفتش.

وأخذ الباب يُقرع قرعًا شديدًا. فنزع بطرس العِصبة عن عينيه، وأجال بصره في ما حوله. فرأى من خلال الظلام العميق سراجًا مشتعلًا في شيء أبيض. فلما اقترب رأى السراج موضوعًا على طاولة سوداء أمام كتاب مفتوح، ورأى أن الكتاب إنجيل، وأن الشيء الأبيض جمجمة ميت. وقرأ هذه الكلمات: «في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت في الرب». ورأى الوراء الطاولة صندوقًا مستطيلًا مغطى كان يبدو أنه ممتلئ. وسرعان ما أدرك أن الصندوق تابوت ممتلئ عظامًا. لم يدهشه هذا كله. فهو من شدّة رغبته في بدء حياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن حياته القديمة كان يتوقع أمورًا خارقة، بل كان يتوقع أمورًا خارقة أكثر من كل ما رآه، واعتقد جازمًا أنه كان يتوقّع أن يرى الجمجمة والتابوت والإنجيل، وأشياء أخرى كثيرة. ومن أجل أن يستثير نفسه باثًّا فيها حرارة الحماسة والتقوى، جعل

يردِّد في دخيلته هذه الكلمات: «الرب، الموت، الحب، الأخوّة»، فما يلبث أن تتراءى له رؤى غامضة لكنها تشدّ الأزر وتقوّي العزيمة. وفُتح الباب، ودخل أحدهم.

وكانت عينا بطرس قد ألفت العتمة فرأى رجلًا قصير القامة، رآه يتُردَّد لحظة وهو يدخل من النور إلى الظلمة، ثم يسير إلى الطاولة بخطى محاذرة، إلى أن يضع عليها يديه الصغيرتين المغمودتين في قفازين من جلد. وكان صدار من جلد أيضًا يغطي صدره وجزءًا من ساقيه. وكان يطوّق عنقه نوعٌ من قلادة يتفرع عنها شريط أبيض يحفّ بوجهه المستطيل المضاء من أسفل.

قال هذا الرجل سائلًا، وهو يلتفت إلى الجهة التي يدله فيها شيء من حفيف على وجود بطرس:

- لماذا جئت إلى هنا؟ أنت يا من لا تؤمن بالنور الحق، ولا ترى هذا النور، لماذا جئت إلى هنا؟ ماذا تريد منا؟ هل تريد الحكمة، والفضيلة، والعلم؟

منذ اللحظة التي فُتح فيها الباب ودخل هذا الرجل المجهول استولى على بطرس شعورٌ بالاحترام يمازجه قلق وخوف، شبيهٌ بالشعور الذي كان يسيطر عليه عند الاعتراف في طفولته، إنه أمام رجل لم يكن في حياته الجارية شيئًا، ولكن الأخوّة الإنسانية تجعله قريبًا منه قربًا كبيرًا. تقدّم من «الخطيب»، (هكذا يسمّى في الماسونية الأخ المكلَّف بتعليم المريد الجديد)، تقدم خافقَ القلب متقطع الأنفاس، رجل من معارفه القدامى يسمى سموليانينوف، ولكنه طرد هذه الذكرى من نفسه طرد ذكرى مزعجة، فهذا الرجل يجب ألا يكون في نظره إلّا أخًا ومعلمًا صالحًا فاضلًا، ولبث مدة طويلة لا يهتدي إلى الكلمات التي يجيب بها الخطيب حتى لقد اضطر الخطيب أن يكرّر عليه السؤال. فتمتم بطرس أخيرًا بقوله:

- نعم... إنني... أنشد... تجديد نفسي...

فسرعان ما استأنف سمولیانینوف كلامه، فقال بلهجة قاطعة وسريعة:

- حسنًا. هل في ذهنك فكرة عن الوسائل التي تملكها جمعيتنا المقدسة لتمكّنك من بلوغ هدفك؟

فأجاب بطرس بصوت يهدِّجه الانفعال:

– أتوقع... إرشادي... وإغاثتي...
لم يكن بطرس قد اعتاد أن يُعبِّر باللغة الروسية عن المعاني المجرّدة، فكان لا يقع على الكلمات المناسبة.
– ما الفكرة التي في ذهنك عن الماسونية؟
أجاب بطرس وهو يشعر بخجل من استعماله كلمات لا تتناسب وجلال هذه اللحظة:
– أرى في الماسونية جمعية أخوّة ومساواة تعمل لتحقيق أهداف فاضلة، أرى فيها...
أسرع الخطيب يقول وقد بدا عليه أن هذه الإجابة أرضته إرضاءً تامًّا:
– حسنًا، هل حاولت أن تجد في الدين وسائل تحقيق هذه الاهداف؟
فقال بطرس بصوت بلغ من الخفوت أن الخطيب اضطر أن ينبِّهه إلى أنه لا يسمعه.
– لا، وإنما عددت الدين دَجَلًا وتضليلًا ولم أتقيّد بتعاليمه.
ثم أضاف يقول شارحًا:
– كنت ملحدًا.
واستأنف الخطيب كلامه بعد برهة صمت فقال:
– أنت تنشد الحقيقة من أجل أن تُخضِع حياتك لقوانينها، فأنت إذًا تسعى إلى الحكمة والفضيلة، أليس هذا حقًّا؟
فقال بطرس مؤيدًا:
– نعم.
فصالب الخطيب على صدره يديه المغمودتين في قفازين، ثم نطق بالكلام، التالي بعد أن تنحنح:
– يجب عليَّ الآن أن أكشف لك عن الغاية التي تسعى إليها جمعيتنا. فإذا كانت هذه الغاية متفقة وغايتك كان ينفعك أن تدخل في جمعيتنا. إن الهدف الأول الذي تنشده جمعيتنا، والأساس الذي عليه تقوم والذي لا تستطيع أية قوة إنسانية أن تزعزعه هو أن تحفظ وتنقل إلى الأعقاب سرًّا مهمًا جِدًا... وصل إلينا منذ قرون موغلة في البعد، بل منذ وُجد أول إنسان، سرًّا ربما كان مصير الإنسانية كله مرهونًا به متوقفًا عليه. ولكن لما كان من طبيعة هذا

السر أن أحدًا لا يستطيع أن يعرفه وأن ينتفع به إذا هو لم يتهيأ له عاكفًا على تطهير نفسه مدة طويلة، فيجب ألا نتوقع إلّا لأفراد قلائل أن يعلموا هذا السر بسرعة. لذلك كانت مهمتنا الثانية هي أن نهيئ إخوتنا لإصلاح قلوبهم ما أمكن إصلاحها، والى تنقية عقولهم وتنويرها بوسائلِ أورثنا إياها الرجال الذين جهدوا باحثين عن هذا السر، فبذلك نجعلهم أهلًا لأن يتعلموه، حتى إذا أتممنا تطهير أتباعنا وإصلاحهم كانت مهمتنا الثالثة أن نحاول إصلاح النوع الإنساني كله بجعلهم قدوة في التقى والفضيلة يقتدي بها الناس كافة. على هذا النحو إنما نبذل طاقتنا كلها في سبيل مكافحة الشر الذي يسود هذا العالم...

وختم الخطيب كلامه وهو ينصرف:

- فكِّر في هذا، وسأعود إليك بعد قليل.

وسرعان ما تصور بطرس أن عمله في المستقبل سيكون هذا العمل، فقال مردِّدًا عبارة الخطيب: «مكافحة الشر الذي يسود هذا العالم»؛ وتخيَّل نفسه منذ الآن يلقى أُناسًا تشبه حالتهم الحالة التي كان هو عليها قبل خمسة عشر يومًا، وتخيَّل نفسه واعظًا يخطب فيهم فيقنعهم ويردّهم إلى الصواب؛ وتخيّل نفسه يساعد الفاسقين والمنحلّين والأشقياء بأقواله وأفعاله، وينقذ الضحايا من الأشرار الذين يضطهدونهم.

ومن بين الأهداف الثلاثة التي ذكرها الطبيب، كان بطرس يقرر الهدف الأخير خاصّةً إصلاح النوع الإنساني. وكان السر الخطير الذي كلمه عنه هذا الرجل لا يبدو له أمرًا أساسيًا رغم أنه أثار فيه حب الاطلاع. وأما الهدف الثاني - وهو تطهير النفس - فلم يهمّه كثيرًا لأنه كان يحسّ، وقد امتلأ قلبه فرحًا، أنه بريء من عيوبه الماضية برءًا تامًّا، وإنه الآن محمول على الخير وحده.

وعاد الخطيب بعد نصف ساعة لينقل إلى النصير الجديد، الفضائل السبع التي تقابل الدرجات السبع في هيكل سليمان، والتي يجب على كل ماسوني أن ينمِّيها في نفسه. فكانت هي الفضائل التالية:

1 - الكتمان الذي يصون أسرار الجمعية.

2 - الطاعة لأصحاب الرتب العالية في الجمعية.

3 – العادات الحسنة.

4 – حب الإنسانية.

5 – الشجاعة.

6 – الكرم.

7 – حب الموت.

وقد قال له الخطيب في شرح الفضيلة الأخيرة:

– **سابعًا**[1]: حاول بتأملات كثيرة في أمر الموت أن تصل إلى الاقتناع بأنه ليس عدوًّا قاسيًا بل صديق يخلِّص النفس من شقاء الحياة هذه التي ترهق النفس بأعباء الكفاح الفاضل، ويدخلها في عالم الجزاء الحسن والراحة.

قال بطرس يحدّث نفسه بعد أن خرج الخطيب مرة أخرى، تاركًا بطرس لتأملاته في العزلة: «نعم، هكذا يجب أن يكون الأمر. هكذا يجب أن يكون الأمر. ولكنني ما أزال من الضعف بحيث أحب هذه الحياة التي بدأت باستشفاف معناها بدءًا». أما الفضائل الخمس الآخرى التي لخّصها بطرس وهو يحصيها على أصابعه، فقد أحس بأنها قائمة في نفسه حقًّا: الشجاعة، الكرم، العادات الحسنة، حب الإنسانية، ولا سيما الطاعة، حتى لقد كانت الطاعة لا تبدو له فضيلة بل تبدو له سعادة، فإلى هذا الحد كان بطرس سعيدًا بالتخلص من حرية إرادته، والخضوع للرجل أو الرجال الذين يعرفون الحقيقة التى لا سبيل إلى جحودها. وأما الفضيلة السابعة فقد نسيها بطرس ولم يفلح في تذكّرها.

وبعد غياب أقصر من الغياب السابق، عاد الخطيب وسأل بطرس ألا يزال ثابتًا على قراره، عازمًا عزمًا أكيدًا على الخضوع لكل ما يُطلب منه.

فقال بطرس:

– مستعد لكل شيء.

فقال الخطيب مستأنفًا حديثه:

«يجب أن أنبهك أيضًا إلى أن جمعيتنا لا تعلّم عقيدتها بالأقوال وحدها، بل بوسائل أخرى أيضًا، ربما كانت تؤثّر في من ينشد الحكمة والفضيلة

---

(1) باللاتينية.

حقًّا، تأثيرًا يفوق تأثير التعلّم بالكلام. ولا بد أن تكون الأشياء التي تزيِّن هذه الصالة قد أثّرت في قلبك منذ الآن إذا كان قلبك صادقًا، أكثر من تأثير كل كلام سمعته. وسوف ترى، كلما توغلت في تعلم عقيدتنا مزيدًا من التوغل، وسائل أخرى من وسائل التعليم تشابه هذه الوسيلة. إن جمعيتنا تسير في هذا على غرار الجمعيات القديمة التي كانت تكشف النقاب عن عقيدتها بواسطة الطلاسم».

وأضاف يقول شارحًا:

- والطلسم هو الرمز إلى شيء لا يقع تحت الحواس، ويملك صفات الشيء الذي يمثله.

كان بطرس يعرف ما هو الطلسم، ولكنه لم يجرؤ أن يقول إنه يعرفه. فكان يصغي صامتًا، ويوجس أن الامتحانات ستبدأ.

وعاد الخطيب يتكلم، فقال وهو يقترب:

- إذا كنت لا تزال عازمًا عزمًا ثابتًا، فيجب عليَّ أن أبدأ تعليمك. سلِّمني، من باب الكرم، كل ما معك من شيء ثمين.

فقال بطرس معترضًا، لأنه تخيّل أن المطلوب منه هو أن يسلِّمه كل ما يملك.

- ولكنني لم أنقل معي شيئًا.

- - سلِّمني ما معك: الساعة، المال، الخواتم...

فأسرع بطرس يستل كيسه، ويُخرِج ساعته، وقضى وقتًا طويلًا في انتزاع خاتم الزواج من أصبعه الثخينة، وقدَّم إلى الخطيب هذه الأشياء كلها.

قال له الماسوني:

- من باب الطاعة، اخلع ثيابك...

فخلع بطرس رداءه، وصدرته، وخلع بأمر الخطيب جزمته اليسرى. وتولى الخطيب إزاحة قميصه في الجهة اليسرى من صدره؛ ومال إلى تحت فشمَّر الساق اليسرى من بنطلونه إلى ما فوق الركبة. وأراد بطرس أن يخلع الجزمة اليمنى ليوفّر على هذا الرجل عناء القيام بهذا العمل، ولكن الماسوني قال له إن ذلك ليس لازمًا، وناوله خُفًّا لقدمه اليسرى. فإذا بابتسامة طفولية نصفها خجل ونصفها سخرية ترتسم جامدة على وجه بطرس؛ وظل

بطرس واقفًا على ذلك الوضع: يداه تتأرجحان، وساقاه متباعدتان، ينتظر أوامر جديدة من «الأخ الخطيب» الواقف أمامه.

فقال له الأخ الخطيب:

- وأخيرًا، من باب الصدق، اعترف لي بأكبر ضعف فيك.

- ما كان أكثر أنواع ضعفي!

بذلك أجاب بطرس، فقال له الخطيب:

- اذكر لي، من أنواع ضعفك، الضعف الذي جعلك تتعثر على طريق الفضيلة أكثر من كل ما عداه من ضعف.

فأخذ بطرس يفكّر، ويزن في ذهنه كل عيب من عيوبه: «الخمرة؟ الطعام الشهي؟ الفراغ؟ الكسل؟ الغضب؟ الخبث؟ النساء؟». كان لا يعرف أيًّا من هذه العيوب يجب أن يعده أكبر عيوبه؟ ثم إذا هو يعترف قائلًا بصوت لا يكاد يُسمع:

- النساء!

فلما حصل الماسوني على هذا الاعتراف، لبث مدة طويلة لا يتكلّم ولا يتحرّك. وتقدم أخيرًا من بطرس، فتناول المنديل من على الطاولة، وعصب عينيه من جديد.

- أقول لك آخر مرة: ادخل إلى نفسك، كبِّل حواسك، أنشد السعادة في قلبك لا في أهوائك. فليس ينبوع الغبطة في خارجنا بل هو فينا...

وكان بطرس منذ ذلك الوقت يحسّ بينبوع الغبطة هذا يتفجّر في قلبه ويغرقه بمشاعر الفرح والمحبة والحنان.

الفصل الرابع

بعد مدة قصيرة جاء شخصٌ يطلب بطرس. إن الذي جاء في هذه المرة ليس هو الخطيب، بل هو عرَّابه فيلارسكي، وقد عرفه بطرس من صوته. سأله فيلارسكي ألا يزال ثابتًا على قراره؟ فأجابه بطرس بقوله: «نعم، نعم، موافق». ثم تبعه مبتسمًا ابتسامة مشرقة كابتسامة طفل، سائرًا سيرًا أخرق خجلًا، وقد تعرّى صدره السمين، واحتذت إحدى قدميه جزمة وخُلعت جزمة القدم الآخرى؛ وكان فيلارسكي يحمل سيفًا موجَّه الحدِّ إلى صدر المريد الجديد؛ وساروا بالمريد الجديد في دهاليز وممرات، وداروا به دورات، واقتادوه أخيرًا إلى باب المحفل. وسعل فيلارسكي، فأجيب من الداخل بقرعات مطرقة، وفتح الباب. وتكلّم صوت جهير، فقال يسأل بطرس، ولا تزال عيناه معصوبتين: من هو؟ وأين وُلد؟ ومتى ولد؟ إلى آخر ما هنالك من أسئلة من هذا القبيل. ثم عادوا يسيرون به، متحدّثين إليه بالمجاز والاستعارة عن مشاقِّ رحلته، وعن الصداقة المقدَّسة، وعن المهندس الأبدي الذي خلق الكون، وعن الشجاعة التي يجب عليه أن يجابه بها المتاعب والمخاطر. ولاحظ بطرس أنهم يصفونه تارة بأنه «الإنسان الذي يبحث»، وتارة بأنه «الإنسان الذي يتألم»، وتارة بأنه «الإنسان الذي يسأل»، وكانوا يقرعون بالسيوف والمطارق في كل مرة قرعات مختلفة باختلاف الاسم الذي يسمّونه به، وفيما كانوا يقتادونه هذا الاقتياد نحو شيء من الأشياء، فوجئ بتُردُّدٍ يسود مرشديه. إذ سمعهم يتناقشون بصوت خافت، وسمع أحدهم يصر على أن يمروا به فوق سجادة.

ثم أمسك أحدهم يده اليمنى، فوضعها على شيء من الأشياء، ووُضع في يسراه بركار، وطُلب منه أن يضغط بالبركار ثديه الأيسر، وجُعل يردّد يمين الوفاء لأنظمة الجمعية وقواعدها جملة بعد جملة أو كلمة بعد كلمة. ثم أطفأوا الشموع، وأشعلوا خمرة مقطّرة عرفها بطرس من رائحتها، وقالوا له إنه سيبصر الآن الضياء الأصغر. فلما نزعوا العصبة عن عينيه رأى كما يرى النائم في الحلم، في ضوء شعلة الخمرة المقطّرة، رأى عدة أشخاص يلبس كل منهم صدارًا كالصدار الذي كان يلبسه الخطيب، ويحمل كل منهم سيفًا موجّهًا إلى صدره، وكان أحدهم يرتدي قميصًا مدمًّى، فلما بصر بطرس بهذا المشهد هجم على السيوف راغبًا في أن تخترقه. ولكن السيوف تنحَّت، وأسرعوا يعصبون عينيه من جديد، وارتفع صوت يقول له:

- رأيت الضياء الأصغر.

ثم أعادوا إشعال الشموع، ونبهوه إلى أنه سيرى الآن الضياء الأكبر، ونزعوا العصبة عن عينيه من جديد، فإذا بأصوات يبلغ عددها زهاء اثني عشر صوتًا، تقول على حين فجأة (Sic transit Gloria mnudi).

فلما أفاق بطرس من ذهوله واسترد صحوه شيئًا فشيئًا، أخذ يتفحّص الغرفة ومن فيها، فرأى اثني عشر رجلًا، جالسين حول طاولة طويلة يغطيها قماش أسود، مرتدين اللباس نفسه الذي رآه من قبل. فتعرّف من هؤلاء الرجال عددًا قليلًا، ولكنه لم يتعرّف رئيسهم وهو شاب كانت عنقه تزدان بوسام خاص؛ وعلى يمين الرئيس كان يجلس ذلك القس الإيطالي الذي رآه بطرس في السنة الماضية عند آنا بافلوفنا. وكان بين الجالسين أيضًا موظف من كبار موظفي الدولة، ومعلم سويسري هو من قدامى أصدقاء آل كوراجين. وكانوا جميعهم يلتزمون صمتًا جليلًا ووقورًا، وكانوا ينتبهون انتباهًا يقظًا إلى أقوال الرئيس الذي يحمل بيده مطرقة. وكانت نجمة تتوهّج على السور. وكان يمتد على طرف من الطاولة بساط تزيّنه شعارات رمزية، وكان على الطرف الآخر من الطاولة نوع من هيكل مع إنجيل وجمجمة. وكانت شمعدانات سبعة كالتي تُرى في الكنائس، تحيط بهذا كله. وتقدم

اثنان من الأخوة فقادوا بطرس إلى الهيكل، وأركعاه حتى صارت كل من ساقيه زاوية قائمة، وأمراه بأن يستلقي على الأرض قائلين له إنه يسجد على أبواب الهيكل.

قال أحدهم بصوت خافت:

- يجب أن يتلقى المِسْيَعة[1] قبل ذلك.

فأجابه الآخر:

- لا، لا داعي إلى ذلك.

لم يطع بطرس الأمر. وكان يجيل على ما حوله عينيه الحسيرتين الزائغتين. وراودته على حين فجأة شكوك، فأخذ يتساءل: «أين أنا؟ ماذا أصنع؟ ألا يستهزئون بي؟ ألا أشعر بالخزي والعار في المستقبل حين أتذكّر هذا كله؟». ولكن هذا التردُّد لم يدم إلّا لحظة. فقد تأمّل بطرس الوجوه الجادة التي كانت تحيط به، وتذكّر ما فعله حتى الآن، فأدرك أنه لا يستطيع أن يتوقف في منتصف الطريق، ونبذ شكوكه فَزِعًا، وتذكّر حماسته الأولى، فاستلقى على الأرض ساجِدًا أمام أبواب الهيكل، وعاودته حماسته فعلًا، بل عاودته أقوى وأشد حرارة مما كانت قبل ذلك؛ وبعد أن لبث مستلقيًا على الأرض بعض الوقت، طُلب إليه أن ينهض، فأُلبس ذلك الصدار نفسه من الجلد الأبيض الذي يلبسه الآخرون وأعطي مِسيْعَة وثلاثة أزواج من القفازات، ثم انبرى المعلم الكبير يخاطبه، فحضَّه على ألا يكدِّر بياض هذا الصدار بأي شيء من الأشياء، فهذا الصدار هو رمز الثبات والبراءة. وأما المِسْيعة اللغز فقال له عنها إنها تنفعه في تطهير قلبه من النقائص والرذائل، وتمهيد قلوب أقرانه البشر بغير شدة ولا قسوة. وأما القفازان الأولان فلا يمكن الكشف له عن دلالتهما، ولكن يجب أن يحتفظ بهما، وأن يلبس القفازين الثانيين في الاجتماعات. وكان القفازان الثالثان من قفازات النساء لا من قفازات الرجال، وعنهما قاله المعلم الكبير: «أيها الأخ العزيز، إن

---

(1) آلة مملسة يدلك بها الطين.

هذين القفازين النسويين هما لك أيضًا، تهديهما إلى المرأة التي ستحترمها أكثر من سائر النساء، فبهذه الهدية تبرهن على صفاء قلبك لتلك التي يقع عليها اختيارك بعدها أهلًا لأن تكون ماسونية». وأضاف المعلم الكبير يقول بعد لحظة صمت: «ولكن حذار، أيها الأخ العزيز، أن تزدان بهذين القفازين يدان غير طاهرتين!». وفيما كان المعلم الكبير يخاطب بطرس بهذه الكلمات أحسّ بطرس بأن الرئيس ليس مرتاحًا كل الارتياح، فاضطرب هو اضطرابًا أشد من اضطراب الرئيس، واحمرّ وجهه حتى بلغ الاحمرار بياض عينيه كالأطفال، وأخذ يلقي على ما حوله نظرات قلقة.

وتبع ذلك صمت مرتبك لم يلبث أن قطعه أحد الأخوة، إذ اقتاد بطرس إلى البساط، وأخذ يقرأ له، من دفتر بيده، معنى جميع الرموز التي كانت ممثلة على البساط: الشمس، القمر، المطرقة، سلك الرصاص، المِسيْعَة، الحجر المكعّب، العمود، النوافذ الثلاث، إلخ. ثم عيِّنت لبطرس منزلته، وذُكرت له علامات المحفل، وقيلت له كلمة السر، وسُمح له أخيرًا بأن يجلس. فلما جلس أخذ المعلم الكبير يقرأ له نص النظام، وهو نص طويل جِدًّا أصغى إليه بطرس إصغاء ذاهلًا وقد سيطر عليه الفرح والانفعال والحرج، ولم يستطع أن يعي منه إلّا الفقرات الأخيرة:

«نحن في معابدنا لا نعرف من الدرجات إلّا تلك التي تفصل بين الفضيلة والرذيلة. فحذار أن تقيم فروقًا يمكن أن تفسد المساواة. هُبَّ إلى نجدة أخيك أيًّا كان، إهدِ من يضل، أنهِض من يقع، لا تحمل لأخيك أي كره أو عداوة، أشعل لهب الفضيلة في جميع القلوب، أشرِك جارك في سعادتك، ولا يعكِّرن عليك هذه المتعة أيُّ حسد. أغفر لعدوك، لا تنتقم منه إلّا بالإحسان إليه. فإذا حقّقت القانون الأسمى على هذا النحو استعدت آثار عظمتك القديمة الضائعة».

عندما أنهى المعلم الكبير قراءة هذا النص نهض فعانق بطرس وقبَّله. وعجز بطرس عن الرد على التهنئات تنهال عليه، وعلى عواطف الصداقة تغمره من كل صوب، فكان لا يزيد على أن يجيل على ما حوله عينين مخضّلتين بالدموع؛ لقد نسي أولئك الذين كان يعرفهم، وأصبح لا يرى في

جميع هؤلاء الأفراد إلّا إخوة يحترق شوقًا إلى الشروع في العمل متعاونًا معهم.

وطرق المعلم الكبير بمطرقته طرقة، فرجع الجميع إلى أماكنهم، وأخذ أحد الأخوة يعرض ضرورة التواضع قارئًا أحد التعاليم.

وأمر المعلم الكبير بالقيام بالواجب الأخير، فقام الموظف الكبير، الذي يتولى القيام بأعمال الأخ المستعطي، وأخذ يطوف على الحفل، فود بطرس لو يكتتب على سجل الصدقات بكل ما كان معه من مال، ولكنه خشي أن يكون ذلك دليلًا على كبر وزهو، فسجل مبلغًا هو المبلغ الذي سجّله غيره.

هكذا اختتمت الجلسة. وحين كان بطرس عائدًا إلى منزله، كان يحس بأنه عائد من رحلة طويلة دامت عشرات السنين، وتبدل أثناءها تبدلًا كاملًا، وقطع في خلالها صلته بعاداته القديمة.

الفصل الخامس

كان بطرس، غداة قبوله في جمعية الماسونيين الأحرار، جالسًا في منزله يقرأ، محاولًا أن ينفذ إلى معنى المربّع الذي يمثل أحد أضلاعه الرب، ويمثل ضلعه الثاني العالم الروحي، ويمثل ضلعه الثالث العالم المادي، ويمثل ضلعه الرابع هذين العالمين مختلطين. وكان في بعض الفترات يترك الكتاب والمربع، ويطلق العنان لخياله، فيأخذ يضع نظامًا جديدًا لحياته. وكانوا قد نبّهوه في المحفل بالأمس إلى أن الإمبراطور علم بأمر مبارزته، فمن الحكمة أن يغادر بطرسبورغ، فكان ينوي إذًا أن يسافر إلى أراضيه في الجنوب، وان يهتمَّ فيها بفلاحيه؛ وكان يحلو له الاسترسال في أحلامه.

وفيما كان على هذه الحال من الاسترسال في الأحلام إذ رأى الأمير فاسيلي يدخل غرفته على حين فجأة.

سأل الأمير فاسيلي قبل كل شيء:

– ما هذا الذي فعلته في موسكو يا صديقي! لماذا تشاجرت مع ليوليا يا عزيزي؟ إنك على ضلال تام. أنا أعرف كل شيء، وأستطيع أن أؤكّد لك أن ليوليا ليست مذنبة في حقك أكثر مما كان المسيح مذنبًا في حق اليهود.

همَّ بطرس أن يجيبه، ولكن الأمير لم يترك له فسحة من الوقت، وتابع كلامه يقول:

– ولماذا لم تأتِ إليَّ رأسًا تسألني نصيحة صديق؟ أنا أعرف كل شيء. لقد تصرّفت أنت تصرّف رجل عزيز عليه شرفه، وربما كان في تصرفك شيء من تعجّل وتسرّع، ولكن دعنا من هذا الآن. وإنما أنا أريد منك أن تفكر في الوضع الذي صيَّرتنا إليه، أنا وهي، تجاه المجتمع...

وأضاف يقول خافضًا صوته:

- وحتى تجاه البلاط هي في موسكو، وها أنت في بطرسبورغ.

وأردف قائلًا وهو يمسك يد بطرس ويخفضها نحو الأرض:

- ما هذا كله إلّا سوء تفاهم يا عزيزي. وأظن أنك تدرك ذلك بنفسك. فلنكتب إليها رسالة، فتهرع إلينا فورًا، وتتضح الأمور، ويقوم التفاهم. وإلا فإن هذه القضية يمكن أن تكون عواقبها عليك وخيمة جِدًّا. إنني حريص على أن أنبّهك إلى هذا.

وختم كلامه قائلًا وهو ينظر إلى بطرس نظرة ذات دلالة:

- نعم، إنني أعلم من مصدر يوثق به أن الإمبراطورة الوالدة مهتمة بالأمر اهتمامًا شديدًا، وأنت تعرف العواطف الطيبة التي تحملها لابنتي هيلين.

أوشك بطرس أن يقاطع الأمير فاسيلي مِرارًا، ولكنه، عدا أن الأمير كان مسترسلًا في كلامه، كان يخشى أن يبلّغ حماه، بلهجة مسرفة في القسوة، الرفض القاطع الذي كان ينوي مع ذلك أن يبلغه إياه. وقد تذكّر من جهة أخرى أن فقرة من فقرات القواعد الماسونية تأمره بأن يكون «لطيفًا محبَّبًا»، فكان يقطّب حاجبيه، ويحمَرّ وجهه، وكان يقوم ثم يقعد، مصارعًا نفسه في أصعب ظرف واجهه حتى الآن. كيف يصدم إنسانًا بكلمات مزعجة، كيف يقول لهذا الإنسان، أيًّا كان، أقوالًا تختلف كل الاختلاف عن الأقوال التي يتوقّعها وينتظر أن يسمعها. وقد اعتاد بطرس أن يخفّض جناح الإذعان لما يتخذه الأمير فاسيلي من هيئة الأبهة التي تعبّر عن قلة اكتراثه وتعبر عن ثقته بنفسه، فكان حتى في هذه الساعة لا يشعر بالشجاعة اللازمة لمجابهة هذه المظاهر التي يصطنعها الأمير فاسيلي. ولكنه كان يدرك أن الأقوال التي سينطق بها ستحكم مستقبله كله، فهل يعود إلى ضلالته القديمة أم يسير في هذا الطريق الجديد الذي أشاد الماسونيون الأحرار بمفاتنه أيما إشادة. والذي لا شك أنه سيقوده إلى تجديد نفسه تجديدًا طالما تمناه؟

استأنف الأمير فاسيلي كلامه فقال بلهجة ملاطفة:

- هيا يا عزيزي. قل لي نعم، فأتولى أنا الكتابة إليها. ولن يكون علينا بعد ذلك أن نذبح العجل السمين.

فما كاد الأمير فاسيلي ينهي جملته حتى قال له بطرس بصوت خافت، وخد تقبّض وجهه من الغضب تقبضًا يذكّر بتقبض وجه أبيه:

- لا أظن أنني استدعيتك إلى منزلي يا أمير. فانصرف عني، أرجوك... انصرف عني!

وأسرع إلى الباب ففتحه، وأخذ يكرّر:

- هلّا انصرفت! هلّا انصرفت!

كان يقول ذلك، وهو لا يصدق أن هذه الكلمات تصدر عنه، وكان يسعده أن يرى قسمات وجه الأمير تفضح ما أحسّ به فجأة من اضطراب وخوف.

- ماذا أصابك؟ أأنت مريض؟

فصرخ بطرس يقول بصوت مرتعش:

- أقول لك انصرف عني!

فاضطر الأمير فاسيلي أن ينسحب من دون أن يحصل على أي أيضَاح آخر.

وبعد ثمانية أيام، كان بطرس قد ودّع أصدقاءه الجدد، وسلّمهم تبرعًا ضخمًا، وسافر إلى أراضيه. وأعطاه الأخوة رسائل إلى الماسونيين في مدينة كييف ومدينة أوديسا، ووعدوه بأن يكتبوا إليه، وأن يرشدوه ويوجّهوه في نشاطه الجديد.

الفصل السادس

رغم أن الإمبراطور كان في ذلك الزمان يقسو في حق المبارزات قسوةً شديدة، فإن المبارزة التي قامت بين بطرس ودولوخوف لم يكن لها أي عاقبة وخيمة لا على المتبارزَين ولا على الشهود. ولكن إشاعات كثيرة نتجت عن تلك المبارزة، لم تلبث أن أيّدتها القطيعة التي تمت بين بطرس وهيلين، فأطلقت ألسن المجتمع الراقي. إن بطرس الذي كان يعامَل معاملة تحمل معنى التنازل والتفضّل بالإشفاق عليه والحماية له، ثم صار يُغمَر بالثناء ويحاط بأنواع التدليل حين غدا خير مرشح للزواج في الإمبراطورية كلها، إن بطرس هذا كانت قد هبطت قيمته كثيرًا في نظر المجتمع الراقي بعد الزواج، إذ أصبحت لا تهتم به لا أمهات البنات المرشحات للزواج، ولا البنات أنفسهن، وكان من جهة أخرى لا يتقن فن الحظوة بمودّة الناس له ورضاهم عنه وإقبالهم عليه في الصالونات؛ لذلك عُدَّ مسؤولًا وحده عن كل ما حدث، وأصبح يوصف بأنه شخصٌ غيور غيرةً سخيفة لا محل لها، وبأنه تعتريه نوبات حنق مسعور شديد كالمرحوم أبيه. وحين عادت هيلين إلى الظهور في مجتمع بطرسبورغ بعد سفره، أحسن جميع معارفها استقبالها بسبب ما ألَمَّ بها من شقاء، وعاملوها معاملة فيها مودّة يمازجها احترام. فإذا حدث أن دار الحديث مرةً على زوجها، اصطنعت هيلين هيئة وقورًا يوحي بها إليها ما فطرت من حسن التصرّف من دون أن تدرك معناها على وجه الدقّة، فكانت هذه الهيئة تقول إنها قررت أن تتحمل شقاءها بغير شكوى، وإنها تعدّ زوجها صليبًا أرسلته إليها السماء. وكان الأمير فاسيلي يقول في حق صهره كلامًا فيه جزم أشد فيعلن وهو يضع أصبعه على صدغه:

- شاب طائش، لطالما قلت هذا.

وكانت آنا بافلوفنا تؤكّد من جهتها:

- قلت دائمًا، ومنذ البداية، قبل جميع الناس (وكانت تلح على هذا البعد) أن الأفكار الفاسدة السائدة في هذا القرن، ذهبت بعقل هذا الشاب. لقد عاد من الخارج فرفعه الناس إلى السُحب، أما أنا فحكمت عليه فورًا حين رأيته ذات مساء في منزلي يصطنع هيئة رجل مثل مارا، ألا تذكرون؟ وكيف انتهى الأمر؟ لقد أصبحت تلك اللحظة لا أريد هذا الزواج، وكنت أتنبّأ بما سيؤول إليه، وبما سينجم عنه.

وكانت آنا بافلوفنا لا تزال تقيم في أيام الفراغ سهراتٍ لا يحسن غيرها إقامة مثلها. سهرات تجمع فيها زبدة المجتمع الراقي حقًّا، وزهرة الصفوة المثقّفة في مجتمع بطرسبورغ. وكانت سهرات آنا بافلوفنا تمتاز، عدا هذا الاختيار الرفيع الرائع للمدعوين، بأمرين كلاهما جذاب، أولهما أنها في كل سهرة من سهراتها تدعو لضيوفها شخصية جديدة شائقة؛ والثانية أن المرء لا يستطيع في أي مكان آخر أن يرى الدرجة التي يشير إليها الترمومتر السياسي، في الأوساط المناصرة للسلالة الملكية الشرعية في البلاط والمدينة، رؤية تستحق الثقة بها والركون إليها مثلما يراها في سهرات آنا بافلوفنا.

وقد تم اجتماع من هذا النوع بمنزلها في نهاية عام 1806؛ وكان الناس في ذلك الحين قد علموا بجميع التفاصيل المحزنة للانتصار الساحق لنابوليون في يينا وآوستدت، وعلموا باستسلام جميع القلاع والحصون البروسية تقريبًا. وكانت جيوشنا قد دخلت بروسيا، وكانت حربنا الثانية على نابوليون وقد اندلعت نيرانها.

إن زبدة المجتمع الراقي حقًّا كانت تضم في ذلك المساء: هيلين الفتّانة التعيسة التي هجرها زوجها؛ ومورتمار؛ والأمير اللطيف هيبوليت، الذي وصل من فيينا منذ قليل؛ ودبلوماسيين اثنين؛ و«عمتي» وشابًا «عظيم الجدارة» لا أكثر؛ وآنسة شرف مُنحت هذا اللقب منذ برهة قصيرة، وأمَّ هذه الفتاة؛ وعددًا من الأشخاص أقل شأنًا. أما الثمرة الباكورة التي استضافتها آنا بافلوفنا لضيوفها فلم تكن إلّا بوريس دروبتسكوي الذي وصل من بروسيا رسولًا منذ مدة قصيرة. وأما الترمومتر السياسي فكان يشير إلى درجة الحرارة التالية: «للملوك والجنرالات أن يعقدوا الاتفاقات مع بونابرت

ما حلا لهم ذلك، دفعًا للإزعاجات والمضايقات التي قد يحدثها «لي» أو «لنا». ولكنْ رأينا في الأمر لن يتغيّر ولن يتبدّل. ولن نكفَّ عن الإفصاح عن رأينا بصراحة، ولن نستطيع إلّا أن نقول لملك بروسيا وللآخرين: هذا ما جنته أيديكم، أنت أردتها يا جورج داندن».

حين دخل بوريس إلى الصالون، كان الشمل كله تقريبًا قد اجتمع، وكان الحديث، الذي توجِّه دفَّته آنا بافلوفنا، يتناول علاقاتنا الدبلوماسية مع النمسا، والأمل المعقود على تحالف مع هذه الدولة.

كان بوريس يرتدي بزة رسمية أنيقة من بزات الضباط المرافقين، وكان نضر المحيا متورّد الوجه، وقد دخل الصالون طلق الهيئة، فناولته آنا بافلوفنا يدها الجافة يقبّلها، وقادته وفقًا للطقس المقرر إلى «عمتي» ينحني لها، حتى إذا أدخلته في الحلقة الكبيرة قدّمته لعدد من الأشخاص لا يعرفهم، واصفة له كلًا منهم بصوت خافت:

- الأمير هيبوليت كوراجين، شاب لطيف - السيد كروغ، القائم بالأعمال في كوبنهاغن، رجل عميق الفكر - السيد شيتوف، فتى عظيم الجدارة.

كان بوريس قد بلغ مركزًا مرموقًا جِدًّا بفضل مساعي آنا ميخائيلوفنا، وبفضل ما لها من مزايا خاصّةً، وبفضل ما يتصف به طبعها من تحفّظ. إنه الآن ضابط مرافق لشخصية عالية المقام جِدًّا، وقد عاد من القيام بمهمة خطيرة الشأن في بروسيا. وكان قد تبنّى ذلك النظام غير المكتوب الذي سرَّه اكتشافه في أولموتس أعظم السرور، وهو النظام الذي يتيح لملازم بسيط أن يحتل منزلة أعلى كثيرًا من منزلة جنرال، النظام الذي لا يمنح الترقية على أساس العمل والجهد والشجاعة والدأب، بل يمنحها لمن وُهب القدرة على أن يجعل مانحي هذه الترقية ينظرون إليه نظرة حسنة. ولقد كان هو أول من أدهشه ما حققه من نجاح بعد نجاح، وكان يتساءل لماذا لا يفعل الناس مثل الذي يفعله. وكان ذلك الاكتشاف قد بدل حياته تبديلًا تامًّا، وغيَّر علاقاته بمعارفه القدامى، وغيَّر جميع الخطط التي وضعها للمستقبل.

فكان على فقره ينفق آخر قرش يملكه في سبيل أن يكون ملبسه أفضل من ملبس الآخرين، كان يؤثر أن يحرم نفسه من ملذات كثيرة على أن يطوف في شوارع بطرسبورغ مرتديًا بزةً عتيقة أو راكبًا عربة رديئة. وكان لا يعقد صلات

إلّا بأناس أعلى منه منزلة، فيمكن أن ينفعوه. وكان يحبّ بطرسبورغ ويكره موسكو. وأصبحت تزعجه ذكرى آل روسترف وغرامياته الطفولية مع ناتاشا، فلم يطأ أرض منزلهم منذ أن سافر إلى الجيش. وكان يعد حضوره سهرة آنا بافلوفنا خطوة مهمة على طريق التقدم والصعود في حياته التي اختارها لنفسه. وسرعان ما أدرك الدور الذي يجب عليه أن يمثّله في هذه السهرة، فترك لربة الدار أن تستفيد من اهتمام الناس به، وأخذ يلاحظ هؤلاء وأولئك بانتباه يقظ، يزن المنافع التي يجنيها من عقد صلات بينه وبين كل واحد منهم، ويزن إمكان عقد هذه الصلات. وقد جلس بجانب هيلين في المكان الذي عُيِّن له، وراح يصيخ بسمعه إلى الحديث الذي يجري بين الحفل.

قال القائم بالأعمال في الدانمارك:

- إن فيينا ترى أن أسس المعاهدة المقترحة أبعد منالًا من أن يمكن الوصول إليها ولو بسلسلة متّصلة من النجاحات الباهرة، وهي تشكّ في جميع الوسائل التي يمكنها أن تهيئ لنا هذه النجاحات. هذه الكلمة التي قالها رئيس مجلس الوزراء في فيينا بنصِّها.

فقال الرجل، العميق الفكر وهو يبتسم ابتسامة ناعمة:

- الشك هو السبيل إلى المباهاة بالنفس.

وقال مورتمار:

- يجب أن نميّز بين مجلس الوزراء في فيينا، وبين إمبراطور النمسا. إن إمبراطور النمسا لا يمكن أن يكون قد فكَّر في شيء كهذا، ومجلس الوزراء وحده هو الذي يقوله.

فتدخّلت آنا بافلوفنا تقول متّجهة بكلامها إلى فرنسي، معتقدة أن في إمكانها، حين تخاطب فرنسيًا، أن تلجأ إلى هذا التأنق في النطق، الذي لا يدري إلّا الله ممن اقتبسته:

- عزيزي الفيكونت! إن «أوروبا» لن تكون حليفنا الصادق في يوم من الأيام أبدًا.

ومن أجل أن تهيئ لبوريس فرصة الدخول في الحديث والظهور على المسرح، حرفت الحديث عن مجراه، وطفقت تشيد بما يتّصف به ملك بروسيا من شجاعة وثبات وصلابة. وكان بوريس على انتظاره أن يجيء

دوره في الكلام، وعلى انتباهه الشديد إلى ما يقوله كل متحدّث من المتحدّثين، لا يهمل أن يلقي نظرات خاطفة على جارته الجميلة التي التقى بصرها عدة مرات ببصر الضابط الشاب الجميل وهي تبتسم.

وعلى نحو طبيعي لا أثر فيه للتكلّف، اتجهت آنا بافلوفنا إلى بوريس بمناسبة الكلام عن الوضع في بروسيا، فرجته أن يروي لهم رحلته إلى جلوجاو، وأن يصف لهم الحالة التي وجد عليها الجيش البروسي. فأخذ بوريس يتكلّم بلغة فرنسية صافية سليمة، فذكر تفصيلات كثيرة شائقة عن قطعات الجيش وبلاط الملك، ولكنه حرص بكثير من العناية على أن يتحاشى إعلان رأيه في الوقائع التي يذكرها. واحتكر انتباه الجميع مدة من الوقت، واستطاعت آنا بافلوفنا أن ترى أن جميع ضيوفها قد استطابوا واستساغوا هذه الفاكهة الباكورة التي أحضرتها لهم. وبدا على هيلين أنها أكثر الحضور اهتمامًا بما كان يقوله بوريس، حتى إنها ألقت عليه أسئلة عدة عن تفاصيل تتعلّق برحلته، وظهر عليها أن حالة الجيش البروسي تهمّها وتقلقها كثيرًا. فلما انتهى بوريس من حديثه، التفتت إليه بابتسامتها المألوفة وقالت:

– يجب أن تزورني حتمًا، يوم الثلاثاء بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة. سيسرني مجيئك كثيرًا.

وقد قالت له هيلين هذا الكلام بلهجة أوهمته أن مجيئه إليها أمر لا بد منه ولا غنى لأسباب يجهلها هو.

فوعدها بوريس بتلبية رغبتها، وهمَّ أن يُجري معها حديثًا على انفراد، لولا أن آنا بافلوفنا أسرعت تناديه بحجة أن «عمتي» تتحرق شوقًا إلى سماعه هي أيضًا. وقالت له وهي تفيض عينيها وتشير إلى هيلين بحركة تدل على الشفقة والحزن:

– أظن أنك تعرف زوجها؟ يا لها من امرأة فتّانة شقيّة! لا تأتِ على ذكره أمامها، أرجوك: فذلك يؤلمها إيلامًا شديدًا.

الفصل السابع

حين رجع بوريس وآنا بافلوفنا إلى الحلقة الكبيرة كان الأمير هيبوليت يتدخّل في الحديث فيقول مائلًا بجذعه إلى أمام:

- ملك بروسيا!

ثم ينفجر ضاحكًا، فيلتفت إليه جميع الحضور، فيكرّر قوله، ولكن بلهجة السؤال في هذه المرة:

- ملك بروسيا؟

وينفجر ضاحكًا مرة أخرى، ثم يعود ليغوص في مقعده رصينًا وقورًا.

انتظرت آنا بافلوفنا بضع لحظات. حتى إذا رأت أن هيبوليت لا يريد أن يضيف إلى ما قاله، أخذت تحكي كيف أن هذا الزنديق بونابرت قد سرق سيف فريدريك الكبير في بوتسدام. وبينما هي تقول: «إن سيف فريدريك الكبير هو الذي أ...»، قاطعها هيبوليت وعاد يكرّر قوله:

- ملك بروسيا...

ولكنه لم يلبث أن اعتذر ولاذ بالصمت من جديد حين رأى الجميع ينظرون إليه نظرة الاستفهام والسؤال.

وظهر الاستياء في وجه آنا بافلوفنا. وتدخّل مورتمار، صديق هيبوليت، ليحمله على أن يشرح ما بنفسه، فقال له:

- ما بالك؟ ما الذي يغيظك في ملك بروسيا؟

فضحك هيبوليت مرة أخرى، ولكن ضحكه في هذه المرة كان يشتمل على ضيق وبرم. ثم قال:

- لا، لا شيء، وإنما أردت أن أقول... أردت أن أقول إننا نخطئ خطأ كبيرًا إذا نحن حاربنا في سبيل ملك بروسيا.

وتلك مزحة كان قد سمعها في فيينا، وكان يرتقب منذ بداية السهرة أن تتاح له فرصة قولها ثم لا يظفر بذلك.

قالت آنا بافلوفنا وهي تلوِّح له بإبهامها الصغير المتغضِّن مهدِّدة:

- نكتتك هذه خبيثة جِدًّا، فكهة جدًّا، ولكنها ظالمة. نحن لا نحارب في سبيل ملك بروسيا، وإنما نحارب في سبيل المبادئ الصالحة. آه من هذا الأمير هيبوليت ما أخبثه!

لم ينضب معين الحديث طوال السهرة، وكان يتناول الشؤون السياسية في جميع الأحيان تقريبًا، وقد اشتدّت حرارته مزيدًا من الاشتداد حين دار الكلام على المكافآت التي منحها الإمبراطور.

قال الرجل العميق الفكر:

- لقد تلقى «ن. ن.» في السنة الماضية علبة تبغٍ عليها صورة الإمبراطور. فلماذا لا يحصل «س. س.» على علبة مماثلة؟

فردَّ عليه أحد الدبلوماسيين قائلًا:

- اسمح لي، إن علبة تبغٍ عليها صورة الإمبراطور هي مكافأة وليست وسامًا. قل إنها هدية.

- حدثت سوابق، أضرب لك على ذلك مثالًا بشفارتسنبرغ. فاعترض الآخر قائلًا:

- مستحيل.

- هل تراهن؟... الوسام الأكبر شأنه شأن آخر...

ولما حان وقت الانصراف، قطعت هيلين صمتها بعد أن لاذت بالصمت طوال الوقت تقريبًا، وكررت لبوريس دعوتها اللطيفة بلهجة الأمر. قالت له وهي تنظر إلى آنا بافلوفنا طالبة نجدتها:

- أنا في حاجة إلى أن أراك حتمًا.

فعززت آنا بافلوفنا طلب هيلين وهي تبتسم تلك الابتسامة الأسيانة نفسها، التي تصاحب كلامها حين تتكلّم عن حاميتها العالية المقام.

لكأن بعض الأشياء التي رواها بوريس هذا المساء عن الجيش البروسي قد كشفت لهيلين فجأة أن عليها أن تلقاه حتمًا لأسباب ملحّة؛ وكانت دعوتها إياه إلى زيارتها يوم الثلاثاء وعدًا منها بأن تكشف له عن هذه الأسباب. ولكن حين جاء بوريس في الوعد المضروب، ودخل صالون الكونتيسة المترف الباذخ، انتظر أن تقول له شيئًا من دون أن يظفر بطائل. كان في الصالون ناس، ولم تخاطبه هيلين إلّا بضع كلمات. وأخيرًا، حين كان يودِّعها مقبِّلًا يدها همست تقول له بصوت خافت، ومن دون ابتسام، وهذا شيء مستغرب:

- تعال إلى الغداء غدًا، يجب أن تجيء، تعال...

وأصبح بوريس أثناء إقامته ببطرسبورغ الصديق الحميم للكونتيسة بيزوخوف.

الفصل الثامن

اشتعلت نيران الحرب ثانية، واقتربت من الحدود الروسية، فلا يسمع المرء في كل مكان إلّا اللعنات تنصبُّ على بونابرت، عدو النوع الإنساني، والأفراد يجنّدون في جميع القرى للجيش والميليشيا، وأنباء العمليات الحربية تتوارد متناقضة، وهي أنباء زائفة، كما تكون دائمًا، فيفسّرها الناس تفسيرات شتى لا أول لها ولا آخر.

وكانت تبدلات كبرى قد طرأت على حياة الأمير الشيخ بولكونسكي وأولاده منذ سنة 1805، كانت الميليشيا على امتداد الامبراطورية الروسية كلها قد تجمّعت في ثمانية جيوش، وكان الأمير الشيخ قد تلقى أمرًا بأن يكون قائدًا لأحد هذه الجيوش الثمانية، فرأى أنه ليس بإمكانه أن يتملّص من نداء شخصي وجهه إليه الامبراطور، رغم ما نالته به الشيخوخة من ضروب الضعف التي تفاقمت تفاقمًا خاصّةً في الفترة التي ظنَّ فيها أن ابنه قد مات. ذلك عدا أن هذا النشاط الجديد الذي تشهده البلاد قد عاد يبث فيه قوة وشجاعة. فكان لا يبرح يفتش الأقاليم الثلاثة التابعة لقيادته، ويستعمل أقسى الشدّة تجاه مرؤوسيه، ويقوم بالواجبات الملقاة على عاتقه هو بكثير من العناية والجد، ويهتم بأيسر التفاصيل.

انقطعت دروس الرياضيات. وفي الصباح فحسب، حين يكون الشيخ في البيت، إنما كانت تدخل عليه ابنته ماريا في صحبة المرضعة والأمير الصغير نيقولا (هذا هو الاسم الذي سمَّى به الجد حفيده). وكان الأمير الصغير يشغل من المنزل مع مرضعته والخادمة العجوز سافشنا، الشقة التي كانت تشغلها جدته قبل وفاتها؛ وكانت ماريا تقضي بقربه كل نهاراتها

تقريبًا، وتبذل قصارى جهدها لتنوب عن أمه في الاهتمام بأمره، وكان يبدو على مادموازيل بوريين أنها تعبد الطفل عبادة، هي أيضًا، وكثيرًا ما كانت ماري تحرم نفسها من لذة تدليله، متنازلة عن هذه اللذة لمادوموازيل بوريين التي تأخذ تدلِّع «ملاكها الصغير» - على حدِّ تعبيرها - وتلعب معه.

وقد شيد في صدر كنيسة ليسييه جوري مصلًّى على قبر الأميرة الصغيرة الراحلة، ووضع في داخل المصلَّى نصب من مرمر أَوصيَ بصنعه في إيطاليا. وكان النصب يمثل ملاكًا باسطًا جناحيه يهم أن يطير. وكانت الشفة العليا من فم الملاك مشمورة قليلًا كأنه يريد أن يبتسم. وقد أجمع رأيا ماريا وأندريه، حين خرجا من المصلَّى ذات يوم، على أن وجه الملاك يذكِّرهما بوجه الأميرة الصغيرة الراحلة تذكيرًا غريبًا. وهناك شيء أشد غرابة أيضًا، شيء لم يحدّث أندريه أخته به، وهو أنه كان يقرأ في التعبير الذي أضفاه الفنان عرضًا ومصادفة على وجه الملاك نفس أقوال العتاب الرقيق الذي كان ينطق به وجه امرأته الميته: «لماذا صنعتم بي هذا؟».

وكان الأمير الشيخ قد استبق التوريث، فوهب لابنه أندريه، بعد عودته بمدة قصيرة، أطيان بوغاتشاروفو الواسعة، التي تبعد مسافة أربعين فرسخًا عن ليسييه جوري. ذلك لأن ليسييه جوري كانت تقترن في نفس أندريه بذكريات أليمة؛ ولأنه من جهة أخرى كان لا يشعر بأنه قادر على تحمّل طبع أبيه، الصعب المراس، ولأنه من جهة ثالثة كان في حاجة إلى العزلة، فقد أعجبته بوغاتشوروفو، وشرع في تشييد مبانٍ فيها، وقضى فيها أكثر وقته.

وكان الأمير أندريه قد قرر جازمًا بعد حملة أوسترلتز على أن لا يعود إلى الجيش. فلما استعرت نيران الحرب الثانية، وأصبح يجب على كل فرد أن يقوم بواجبه، قبل وظيفة تحت أمرة أبيه في تجنيد فرق الميليشيا، بغية إعفائه من الخدمة العاملة. وكان الأب والابن قد تبادلا موقفيهما الماضيين منذ حملة 1805، فالأمير الشيخ الذي أنعشه نشاطه كان يعقد آمالًا كبارًا على الحملة الراهنة، والأمير أندريه الذي لا يشارك في الحرب، ويأسف لهذا من أعماق قلبه. كان - على خلاف أبيه - لا ينتظر منها إلّا شرًّا.

وسافر الأمير الشيخ في جولة تفتيشية في الدائرة التي تتبع قيادته يوم 26

شباط (فبراير) من سنة 1807، وبقي الأمير أندريه في ليسييه جوري، كما كان يفعل في غالب الأحيان حين يغيب أبوه. وكان الأمير الصغير نيقولا مريضًا منذ ثلاثة أيام. وعاد الحوذيون الذين أقلُّوا الأمير الشيخ، عادوا يحملون إلى الأمير أندريه أوراقًا ورسائل.

أخذ الخادم الرسائل ومضى إلى الأمير أندريه في مكتبه، فلما لم يجده ذهب إلى الأميرة ماريا. ولكنه لم يجدها في غرفتها أيضًا. وقيل له إن الأمير في غرفة الطفل.

قالت إحدى الخادمات للأمير أندريه الذي كان جالسًا على كرسي صغير من كراسي الأطفال، مرتعش اليدين، مقطّب الحاجبين، يسكب من قارورة دواء في كأس مملوء نصفها ماء:

– تعال من فضلك يا صاحب السعادة! إن بتروشكا يحمل إليك أوراقًا.

سألها الأمير أندريه حانقًا:

– ماذا هنالك؟

وتحرّكت يده حركة خرقاء، فانسكبت في الكأس بضع قطرات من الدواء زائدة، فدلق دواء الكأس على الأرض وطلب ماء آخر، فجاءته الخادمة بماء.

كان أثاث الغرفة سريرًا صغيرًا من سرائر الأطفال، وصندوقين، ومقعدين، وطاولة، وطاولة أخرى صغيرة، وكرسيًّا صغيرًا من كراسي الأطفال هو ذلك الذي كان الأمير جالسًا عليه. وكانت الستائر مسدلة وشمعة تحترق على الطاولة يحجبها دفتر موسيقى لحماية السرير الصغير من الضوء.

قالت الأميرة ماريا التي كانت واقفة بقرب سرير الطفل المريض:

– الأفضل أن ننتظر يا صديقي... فأجابها الأمير أندريه قائلًا بدمدمة غاضبة، وكان واضحًا أنه يريد أن يخز اخته.

– آه... أرجوك... انك لا تبرحين تقولين سخافات... وها قد انتظرت طويلًا، فانظري ماذا كانت النتيجة!

فقالت الأميرة ملحّة بصوت ضارع:

- صديقي... الأفضل حقًّا ألا نوقظه؛ لقد نام.

فقام الأمير أندريه والكأس بيده، واقترب من السرير الصغير سائرًا على رؤوس الأصابع. وقال متردّدا حائرًا:

- ربما كان الأفضل حقًّا ألا نوقظه؟

قالت الأميرة ماريا خجلة من انتصار رأيها خجلًا واضحًا:

- افعل ما تراه مُناسبًا... أنا اعتقد حقًّا أن الأفضل أن... ولكن افعل ما تراه مُناسبًا.

ونبّهت أخيها إلى الخادمة التي كانت تناديه بصوت خافت.

هذه هي الليلة الثانية يقضيانها كلاهما بغير نوم قرب سرير الصبي الصغير الذي يحترق بالحمى احتراقًا. ولقلة ثقتهما بطبيب العائلة، وبانتظار الطبيب الذي أرسلا يستدعيانه من المدينة، كانا يعمدان تارة إلى دواء وتارة إلى دواء آخر. وكانا من شدة ما أضناهما الأرق والقلق يلقي كل منهما على الآخر ما يعانيه من حزن، ويتبادلان اللوم والتقريع، ويختصمان ويتشاجران.

دمدمت الخادمة تقول:

- جاء بتروشكا يحمل أوراقًا مرسلة من بابا. فخرج الأمير أندريه. وقال غاضبًا:

- جاءت في حينها!

وبعد أن أحاط علمًا بما أرسله إليه أبوه من تعليمات شفوية، وبعد أن أخذ الرسائل: رجع إلى غرفة الطفل وقال يسأل:

- هيه؟

فدمدمت الأميرة ماريا تقول متنهدة:

- لم يتغيّر شيء. انتظر أرجوك. إن كارل إينافتش يصف النوم دائمًا بأنه خير من كل شيء.

فاقترب الأمير أندريه من الطفل ولمسه، فرأى أنه يحترق بالحمى احتراقًا، فقال:

- اذهبي أنت وكارل إينافتش. ثم تناول كأس الدواء، وعاد به إلى الطفل.

فقالت الأميرة ماريا:

- أندريه... يجب ألا تفعل.

ولكن أندريه قطب حاجبيه غاضبًا معذَّبًا في آن واحد، ومال بالكأس على الطفل وهو يقول:

- أنا مصر على رأيي. خذي، أرجوك... جرّعيه الدواء.

فرفعت الأميرة ماريا كتفيها، ولكنها أطاعت أخاها فتناولت الكأس ونادت المرضعة، وحاولت أن تجرع الصغير الدواء. لكن الطفل أخذ يصرخ ويحشرج. فاكفهرّ وجه أندريه، وأمسك رأسه بيديه، ومضى يجلس على ديوان في الغرفة المجاورة.

كان قابضًا على الرسائل بيده، ففضّها على غير شعور وبغير إرادة وأخذ يقرأها. كان الأمير الشيخ قد كتب إلى ابنه على ورق أزرق، بخطّه الكبير المستطيل الذي تزينه أحرف كبرى مزخرفة هنا وهناك، ما يلي:

«جاءني رسول منذ قليل بنبأ سعيد جِدًّا، اللهم إلّا أن يكون النبأ كاذبًا. يقول الرسول أن بينغسن قد انتصر في إيلاد انتصارًا كاملًا على بونابرت، فالناس جميعًا في بطرسبورغ يهلّلون، وأصبحت الهدايا ترسل إلى الجيش وتنهمر عليه انهمارًا. إنني أهنئه وإن يكن ألمانيًا. لا أدري ماذا يفعل هذا الرجل الذي اسمه خاندريكوف والذي يقود الجيش في خورتشيفو: إنه لم يرسل حتى الآن لا تعزيزات ولا مؤنًا. فاركض إليه فورًا، وقل له إنني سأخلع رقبته خلعًا إذا لم يصل كل شيء في غضون ثمانية أيام. وعن معركة «برويش - إيلاو» وصلتني كذلك رسالة من بيتنكا. لقد شارك هو في هذه المعركة، فكل ما قيل عن هذه المعركة صادق. حين يكف أولئك الذين لا يخصّهم الأمر عن حشر أنفسهم فيه فإنه ليستطيع أن يغلب بونابرت حتى رجل ألماني. يقال إن بونابرت يفر في حالة فوضى تامة. فلا يفوتنك إذًا أن تسعى إلى كورتشيفد حالًا، وأن تفعل ما أقوله لك».

تنهّد الأمير أندريه، وفضّ الرسالة الثانية، فرأى إنها رسالة من بيليبين تتألف من ورقتين ملئتا كتابة مرصوصة، فطواها من دون أن يقرأها، وعاد يقرأ رسالة أبيه التي تختمها هذه الجملة «اسع إلى كوروتشينفو وافعل ما أقوله لك». فقال محدِّثًا نفسه: «لا، اسمح لي، لن أذهب ما ظلّ الصبي

مريضًا لم يبرأ». ثم مضى إلى الباب وألقى نظرة على الغرفة الآخرى. كانت الأميرة ماريا لا تزال بقرب السرير تهدهد الطفل في رفق.

تساءل الأمير أندريه وهو يستعيد ذكرياته: «ويا له من خبر مزعج هذا الذي ينبئني به! نعم... حققنا نصرًا على بونابرت وأنا بعيد عن الجيش. إن القدر يسخر مني. طيب. هنيئًا له». وأخذ يقرأ رسالة بيليبين المكتوبة بالفرنسية. كان يقرأ الرسالة من دون أن يفهم نصف ما يقرأ، يقرأ لا لشيء إلّا أن يهرب لحظة من الخواطر الأليمة التي تحاصره وتحتكر تفكيره منذ مدة طويلة.

الفصل التاسع

إن بيليبين هو الآن ملحق بالقيادة العامة ممثلًا دبلوماسيًا. ومع أنه كتب رسالته باللغة الفرنسية وضمّنها أمازيح فرنسية وصيغًا فرنسية، فقد وصف الحملة كلها في هذه الرسالة بشجاعة ينفرد بها الروس، وهي الشجاعة التي تجعلهم لا يحجمون عن نقد أنفسهم، والتهكّم على أنفسهم بغير رحمة. وهو يقول إنه قد ضاق ذرعًا «بالتكتّم» الذي تمليه عليه الدبلوماسية، وإنه يسعده أن يجد في الأمير أندريه رجلًا يستطيع أن يكاتبه واثقًا مطمئنًا، ويستطيع أن يفضي إليه بكل المرارة التي تراكمت في نفسه من رؤية ما يحدث في الجيش. وكانت هذه الرسالة سابقة على معركة «برويش - إيلاد»، فهي إذًا قديمة.

كتب بيليبين يقول: «إنني منذ انتصاراتنا الكبيرة في أوسترلتز، كما تعلم ذلك يا عزيزي الأمير، أصبحت لا أغادر القيادات العامة. فلا شك أنني استطبت الحرب وأصبحت أحبّها وإنني جنيت من ذلك خيرًا وانتفعت به انتفاعًا كبيرًا. إن ما رأيته خلال هذه الأشهر الثلاثة لا يستطيع المرء أن يصدّقه.

وأبدأ بالانتصار. إن عدو النوع الانساني، يهاجم البروسيين كما تعلم. والبروسيون هم حلفاؤنا الأوفياء الأمناء الذين لم يخدعونا إلّا ثلاث مرات منذ ثلاث سنين. ونحن نشيد بهم ونثني عليهم. ولكن الذي يحدث هو أن عدو النوع الإنساني لا يلتفت أي التفات إلى خطبنا الجميلة، وأقوالنا البديعة، ويهجم على البروسيين بطريقته التي تخلو من الأدب والتهذيب، وأسلوبه الوحشي الهمجي، من دون أن يتيح لهم إكمال الاستعراض

العسكري الذي يكونون قد بدأوه، فيثخنهم جراحًا ويجندلهم بضربتين من يده، ثم يمضي يستقر في قصر بوتسدام.

لقد كتب ملك بروسيا إلى بونابرت يقول له: إنني أرغب رغبة قوية في أن تُستقبل جلالتك في قصري وأن تُعامل فيه على النحو الذي يطيب لك؛ وقد سارعت إلى اتخاذ جميع الإجراءات التي تتيحها لي الظروف تحقيقًا لهذا الغرض. أتراني نجحت؟ إن الجنرالات البروسيين ليفخرون ويباهون بأدبهم في معاملة الفرنسيين، ويخفضون أسلحتهم متى بلغتهم أولى الإنذارات.

وإن قائد حامية جلوجاو الذي يرأس مائة ألف رجل قد سأل ملك بروسيا عمَّ يجب عليه أن يفعله إذا جاءه إنذار بالاستسلام... هذا كله إيجابي.

الخلاصة هي أننا أردنا أن نفرض مهابتنا باتخاذ الموقف العسكري لا غير. أصبحنا في حرب فعلًا، وأكثر من ذلك أننا أصبحنا في حرب على حدودنا مع ملك بروسيا وفي سبيله. وكل الأمور مهيأة أتم تهيئة، وليس يعوزنا إلّا شيء صغير، هو أن يكون لنا قائد عام. فإنهم لما اتضح لهم أن انتصاراتنا في أوسترلتز كان يمكن أن تكون حاسمة أكثر مما كانت حاسمة لو أن القائد العام كان أقل شبابًا، فقد استعرضوا القادة الذين بلغوا الثمانين، وكان عليهم ان يختاروا أحد اثنين هما بروزوروفسكي وكامنسكي[1]، فوقع اختيارهم على كامنسكي وقد وصل إلينا الجنرال مرتديًا «كيبيكًا» على طريقة سوفوروف، واستُقبل بهتافات الفرح والنصر.

وفي اليوم الرابع من الشهر وصل أول بريد من بطرسبورغ. وجيء بالحقائب إلى مكتب المارشال الذي يجب أن يعمل كل شيء بنفسه. واستُدعيت للمساعدة في فرز الرسائل، ولآخذ منها ما هو مرسل إلينا. وكان المارشال ينظر إلينا ونحن نعمل، وينتظر الرزم الموجهة إليه.

وبحثنا فلم نجد شيئًا. عيلَ صبر المارشال، فأخذ يبحث معنا. فوجد

---

(1) الامير ألكسندر بروزوروفسكي (1732 - 1809)، تميز أثناء حرب السنين السبع وحرب القرم. وقد أحيل على التقاعد سنة 1797، ثم استدعي سنة 1807، وقد استلم قيادة الجيش مدة في الحملة التي شُنت على تركيا فلم يحسن التصرف.

رسائل مبعوثة من الإمبراطور إلى الكونت «ت...»، وإلى الأمير «ف...» وغيرهما. فإذا هو يغضب غضبة من غضباته الزرق، ويأخذ يقذف جميع الناس بحممه، واستولى على الرسائل، ففضها وقرأ الرسائل الموجهة من الإمبراطور إلى غيره. وكان يصيح أثناء ذلك قائلًا: آ... هكذا يعاملونني. إنهم يتجسسون عليّ. حسنًا جِدًّا. إلى الشيطان! وكتب إلى الجنرال بينغسن، جدول الأعمال المشهور. كتب يقول:

«إنني جريح، لا أستطيع أن أركب حصانًا، ولا أستطيع إذًا أن أقود جيشًا. لقد أعدت فيلقك إلى بولتوسك مهزومًا: وهو فيها من دون حماية، ومن دون حطب، ولا علف، لذلك يجب تدارك الأمر، وكما أبلغت الكونت بوكسهوفن بنفسك أمس، يجب التفكير في الانسحاب نحو حدودنا، وذلك ما ينبغي أن تنفذه في هذا اليوم نفسه.

وكتب إلى الإمبراطور يقول: «إن تنقّلاتي الكثيرة قد أحدثت لي من الاحتكاك بالسرج كشطة تجعلني، هي ومتاعب جولاتي القديمة، عاجزًا عجزًا مطلقًا عن ركوب حصان وقيادة جيش يبلغ هذا المبلغ من الضخامة. لذلك سلمت القيادة إلى أقدم جنرال بعدي، وهو الكونت بوكسهوفدن، ونقلت إليه جميع وظائفي وكل ما يتّصل بها، ونصحته بأن يتقدّم في داخل الأراضي البروسية مزيدًا من التقدم إذا أعوزه الخبز، ذلك أنه لم يبق خبز إلّا ليوم واحد، ولم يبق خبز البتة في بعض الأفواج، كما أعلن لي ذلك قائد فرقة أوسترمان، وقائد فرقة سيد موريدسكي؛ إن كل ما عند الفلاحين قد أكل. أما أنا فأبقى في مستشفى أوسترولنكا[1] إلى أن يتم لي الشفاء. وإنني أضم إلى رسالتي هذه تقريرًا عن حالتي. ويشرّفني أن ابلغ جلالتكم أن الجيش، إذا بقي خمسة عشر يومًا أخرى في معسكره الحالي، لن يبقى منه في فصل الربيع رجل واحد سليمًا.

«اسمحوا لشيخ جلّله العار منذ الآن لأنه لم يستطع أن ينهض بالعبء الكبير المجيد الذي اختير له، اسمحوا له بأن يذهب إلى الريف وينزوي

---

(1) أوسترولنكا وبولتسون: قريتان صغيرتان في بولندا الشمالية كانتا تنتميان إلى بروسيا.

فيه. سوف انتظر هنا في المستشفى وصول الإذن الكريم الذي تتفضّل به جلالتكم عليَّ، وهو الإذن بألا يكون دوري في الجيش دور «كاتب» بدلًا من أن يكون دور «قائد». إن رحيلي عن الجيش لن يُحدث ضجة أكبر من الضجة التي قد يحدثها أن يتركه أعمى. إن في روسيا آلافًا من أمثالي».

غضب المارشال من الإمبراطور: فعاقبنا جميعًا. أليس هذا منطقيًا؟

هذا هو الفصل الأول. وفي الفصول التالية ما يشوّق ويضحك. فبعد سفر المارشال حدث أن كنا في مواجهة العدو، وكان علينا أن نخوض معركة. والجنرال بوكسهوفدن هو القائد العام بحكم الأقدمية. ولكن الجنرال بينغسن لا يوافق على هذا الرأي، لا سيما وأنه هو وفيلقه في مواجهة العدو. وإنه يريد أن يستغل فرصة معركة، كما يقول الألمان. فأتاح هذه الفرصة، وكانت معركة بولتوسك التي عُدَّت انتصارًا كبيرًا، ولكنها في رأيي ليست انتصارًا البتة. إن الذي ينسحب بعد المعركة يكون هو المهزوم. وعلى هذا الأساس نكون نحن المهزومين في معركة بولتوسك. الخلاصة أننا انسحبنا بعد المعركة، ولكن أرسلنا إلى بطرسبورغ بريدًا يحمل أنباء النصر، ولم يتنازل الجنرال عن القيادة العامة لبوكسهوفدن، آملًا بأن يتلقى من بطرسبورغ لقب القائد العام، اعترافًا بفضله في النصر الذي فاز به. وفي أثناء هذه الفترة بين قيادتين، بدأنا خطة مناورات شائقة وطريفة إلى أبعد حد. ولم يكن هدفنا أن نتجنب العدو أو أن نهاجمه، وإنما كان هدفنا الوحيد هو أن نتجنب الجنرال بوكسهوفدن الذي يجب أن يكون قائدنا بحكم الأقدمية. وقد لاحقنا تحقيق هذا الهدف بهمّة ونشاط، حتى كنا إذا قطعنا نهرًا لا يمكن عبوره، نحرق الجسور في سبيل أن ننفصل عن عدونا الذي لم يعد الآن بونابرت بل بوكسهوفدن. وقد أفلت الجنرال بوكسهوفدن من أن تهاجمه قوات العدو التي تتفوّق عليه، وأن تدمِّره، وذلك بفضل مناورة من مناوراتنا الجميلة التي كانت تنقذنا منه. واستطاع عدونا بوكسهوفدن أخيرًا أن يدركنا وأن يهاجمنا. وثار غضب الجنرالين، حتى إن بوكسهوفدن دعا إلى المبارزة، وحدث أن أصيب بينغسن بنوبة صرع. ولكنْ وصل من بطرسبورغ في اللحظة الحرجة، البريد الذي نقل نبأ الانتصار في بولتسوك، وصل حاملًا قرار تعيين قائدنا

العام، فخُلع عدونا الأول بوكسهوفدن، وأصبحنا نستطيع أن نفكر في عدونا الثاني، بونابرت. ولكن هذا عدو لا يلبث أن يقف في وجهنا، هو الجيش الأرثوذكسي الذي أخذ يصرخ صراخًا قويًا يطالب بخبز ولحم وسوخاري[1] وعلف، وما لا أدري. والمخازن فارغة، والطرق لا يمكن السير فيها. وأخذ الجيش الأرثوذكسي ينهب ويسلب، بطريقة لا يمكن أن تعطيك الحملة السابقة أية فكرة عنها. وأصبح نصف الأفواج يؤلف قطعات حرة تحرق كل شيء وتسفح الدم في كل مكان، فتدمّر السكان. وغصت المستشفيات بالمرضى، وعمَّت المجاعة. حتى لقد عمدت قطعات النهب والسلب إلى الهجوم على القيادة العامة مرتين، واضطر القائد العام نفسه إلى طلب كتيبة لطردهم. وفي أحد ذينك الهجومين نُهبت حقيبتي الفارغة ونُهب ثوب المنزل الذي كنت ألبسه. إن الإمبراطور يريد أن يجيز لجميع قادة الفرق أن يطلقوا الرصاص على الناهبين، ولكنني أخشى أن يضطر نصف الجيش إلى إطلاق الرصاص على نصفه الآخر.

كان الأمير أندريه لا يقرأ في أول الأمر إلّا بعينيه، ولكنه رغم إرادته (مع علمه بأن بيليبين لا ينبغي الركون إلى ما يقوله) أصبح ما يقرأه يشوّقه أكثر فأكثر. حتى إذا وصل إلى هذا الموضع من رسالة بيليبين، لم يكن ما قرأه هو الذي أحنقه، وإنما أحنقه أنه لاحظ أن ما يجري هناك من حوادث، وهي أمور لا شأن له بها، يمكن أن تهيِّجه وتثيره. وأغمض عينيه، وحك جبينه بيده كأنه يريد أن يطرد من ذهنه كل اهتمام بما قرأه، وأصاخ بسمعه إلى ما يجري في غرفة الطفل. فخيِّل إليه فجأة أنه يسمع الوراء الباب صوتًا غريبًا، فاعتراه خوف، وخشي أن يكون قد حدث للطفل مكروه أثناء انصرافه إلى قراءة الرسالة، فمضى إلى الباب سائرًا على رؤوس الأصابع وفتحه.

وبينما كان يدخل إذ رأى الخادمة العجوز تخفي عنه شيئًا وقد لاح في وجهها ارتياح شديد، ولاحظ أن الأميرة ماريا ليست الآن بقرب السرير الصغير.

---

(1) نوع من البسكويت لقطعات الجيش.

وسمع الأميرة ماريا تدمدم من ورائه قائلة بلهجة بدت له يائسة:

- صديقي...

فإذا برعب غريب لا تفسير له يستولي عليه فجأة، كما يحدث ذلك بعد مدة طويلة من الأرق والقلق: لقد هجس في خاطره أن الطفل مات. وبدا أن كل ما يراه ويسمعه يؤكد هذا الذي هجس في خاطره.

قال لنفسه: «انتهى كل شيء»، وغطَّت جبينه قطراتُ عرق بارد. واقترب من السرير الصغير طائش اللب، موقنًا أنه سيرى السرير خاليًا، وأن ما أخفته عنه الخادمة منذ قليل إنما هو أن الولد ميت. وأزاح ستائر السرير، وظلت عيناه المرتاعتان تتنقّلان من شيء إلى شيء مدة طويلة فلا تستطيعان أن تقعا على الطفل. وأخيرًا رآه: كان الصبي الصغير متورّد اللون، متباعد الذراعين، راقدًا على السرير الصغير بالعرض، رأسه أخفض من الوسادة، يرضع في منامه، ويتنفس تنفسًا منتظمًا.

فما كان أعظم فرحة الأمير أندريه حين رأى الطفل على هذه الحال بعد أن ظن أنه فقده! ومال عليه، ووضع شفتيه على جبهته ليرى أهو محموم، كما علّمته ذلك أخته؛ فكانت جبهة الطفل الطرية رطبة ندية، فجسَّ الأب الرأس بيده، فكان الشعر نفسه مبتلًا، فإلى هذا الحدِّ كان التعرّق غزيرًا. فالطفل لم يمت إذًا، بل إنه لمن الواضح الآن أن أزمة قد حدثت، وأنه شفي من المرض. ودَّ الأمير أندريه أن يمسك هذا الكائن الصغير الذي لا يملك عن نفسه دفاعًا، وأن يضمّه إلى صدره، وأن يضغطه على قلبه. ولكنه لم يجرؤ. فبقي في مكانه يتأمّل رأسه، ويديه الصغيرتين، وساقيه الصغيرتين اللتين ترتسمان تحت الغطاء. وسمع حفيفًا بقربه، وظهر له طيف تحت ستارة السرير. وكان هذا الطيف طيف الأميرة ماريا التي اقتربت بخطى لا يُسمع لها وقع، ورفعت الستارة ثم أسدلتها عليها. عرفها الأمير أندريه من دون أن يدير رأسه إليها، ومدَّ يده صوبها فصافحته.

قال الأمير أندريه:

- تعرّق.

- ذهبت إليك لأبشّرك بذلك.

وتحرّك الطفل حركة خفيفة في نومه، وابتسم، وحكَّ جبينه بالوسادة.

نظر الأمير آندرو إلى أخته. فكانت عيناها المشرقتان، وقد فاضتا بدموع الفرح، تسطعان في العتمة الخفيفة تحت الستارة مزيدًا من السطوع. ودنت من أخيها فقبَّلته فصدمت ستارة السرير الصغير صدمًا خفيفًا، وحرَّك كلٌّ من الأخ وأخته يده بإشارة تدعو إلى الصمت، وبقيا في هذه العتمة الخفيفة قليلًا، كأنهما يأسفان على أن يتركا هذا العالم المستقل الذي يجعلهم هم الثلاثة في عزلة عن الدنيا بأسرها. وبادر الأمير أندريه فابتعد قبل أخته وقد اشتبك شعره بستارة الموسلين، وقال متنهدًا: «نعم، هذا كل ما بقي لي بعد الآن».

الفصل العاشر

بعد قبوله في جمعية الماسونيين الأحرار بمدة قصيرة، سافر بطرس إلى إقليم كييف الذي يوجد فيه القسم الأكبر من فلاحيه، سافر مزوَّدًا بتعليمات مكتوبة كاملة عمَّ يقع على عاتقه أن يفعله في أراضيه.

وما إن وصل إلى كييف حتى استدعى جميع وكلاء أعماله إلى المكتب الرئيس وأوضح لهم نيَّاته ورغباته. وقال إن إجراءات مباشرة سوف تتخذ لعتق فلاحيه عتقًا تامًّا، فبانتظار إتمام هذه الإجراءات يجب ألا يُثقل الفلاحون بعمل فوق طاقتهم، وألا يُرسل النساء والأطفال إلى أشغال السخرة، ويجب أن يُساعَدَ الفلاحون، وأن تكون العقوبات التي تُنزل فيهم هي التأنيب والتقريع لا القصاص الجسدي، ويجب أن تُنشأ مستشفيات وملاجئ ومدارس. فكان بعض الوكلاء (ومنهم محاسبون لا يكادون يعرفون القراءة والكتابة) يصغون إلى كلام بطرس جزعين، مفترضين أن هذا الكلام يعني أن الكونت الشاب مستاء من إدارتهم واختلاساتهم. وشعر بعض آخر بشيء من الخوف في أول الأمر ثم لم يلبثوا أن أخذوا يتسلّون بالإنصات إلى لثغة مولاهم في النطق، والى الكلمات الجديدة التي يقولها ولم يسبق لهم أن سمعوها. ولم يزد بعض ثالث على الاستمتاع بلذة الاستماع إلى الكلام. أما أذكاهم، ومنهم الوكيل العام، فقد تعلّموا من هذا الحديث كيف يجب عليهم أن يتصرّفوا مع مولاهم للوصول إلى غاياتهم.

فعبَّر الوكيل العام عن استحسانه الحارّ لنيات مولاه، ولكنه أضاف إلى ذلك أن الأعمال جملة تعاني الآن من الارتباك والفوضى، فلا بد من الاهتمام بتنظيمها قبل الشروع في هذه الإصلاحات.

وكان بطرس - رغم أنه يملك الآن ثروة الكونت بيزوخوف الطائلة التي كان يقدِّر الناس أن دخلها السنوي يبلغ خمسمئة ألف روبل - يحس بأنه أفقر كثيرًا مما كان في العهد الذي كان فيه أبوه يخصّه بمصروف قدره عشرة آلاف روبل في السنة. وإليكم كيف كان يتصوّر ميزانيته على وجه الإجمال: كان يدفع إلى «مجلس الوصاية» عن مجموع أراضيه قرابة ثمانين ألف روبل. وكانت صيانة مبانيه في ضواحي موسكو وفي موسكو، تبلغ مع معاش الأميرات زهاء ثلاثين ألف روبل. وكانت معاشات مختلفة أخرى تكلفه نحو خمسة عشر ألف روبل، وكانت أعمال البر والإحسان تستنفد مثل هذا المبلغ. وكانت فوائد الديون تصل إلى حوالي سبعين ألف روبل. وكانت الكنيسة التي شُرع في بنائها قد كلّفته في السنتين الماضيتين قرابة عشرة آلاف روبل. أما الباقي - وهو نحو مائة ألف روبل - فلا يدري كيف كان ينفقه، وكان يضطر إلى الاقتراض في جميع السنين تقريبًا. وعدا ذلك كان الوكيل العام يبلغه كل سنة عن اندلاع حريق تارة، وعن سوء المحاصيل تارة أخرى، وعن ضرورة إصلاح الفبارك والورشات تارة ثالثة. فالشيء الوحيد الذي كان يجب على بطرس أن يوليه اهتمامه إنما هو مصالحه، وتلك بعينها هي المهمة التي يشعر بأنه غير مؤهّلٍ لها ولا يحس بميل إليها.

ومع ذلك أخذ بطرس يعمل مع الوكيل العام كل يوم. ولكنه أدرك أنه لا يتقدّم في سيره شبرًا واحدًا. لقد أحس بأن جهده يسير في طريق خطأ، وأنه لا يصل إلى ثمرة، ولا يُحسن تسيير أعماله. فمن جهة أولى كان الوكيل يصوِّر له الأمور في أحلك أشكالها، مبيِّنا ضرورة دفع الديون، والشروع في أعمال جديدة بمساعدة الأقنان، وذلك ما كان بطرس لا يوافق عليه؛ ومن جهة ثانية كان بطرس يطالب بالسير في طريق عتق الفلاحين، وذلك ما كان الوكيل يعارضه مشيرًا إلى ضرورة سداد الدين المستحق لـ«مجلس الوصاية» أولًا وقبل كل شيء، مبرهنًا بذلك على أن تحقيق هذا المشروع تحقيقًا سريعًا أمر مستحيل.

كان الوكيل لا يقول إن الأمر مستحيل استحالة مطلقة. وكان يقترح لتحقيق هذا الهدف أن تُباع غابات كوستروما، وأراضي الفولغا - الواطئة،

وأملاك القرية؛ ولكنه يضيف إلى ذلك أن هذه العمليات معقّدة غاية التعقيد، فهي تحتاج إلى دعاوى لدى القضاء، والى أوامر بإلغاء وضع اليد، والى تراخيص من الجهات المختصة، وإلى أشياء أخرى كثيرة، فكان بطرس يتوه حين سماع هذا الكلام، فلا يزيد على أن يجيبه بقوله: «نعم، نعم، افعل كل شيء!».

لم يكن بطرس يملك ذلك الفكر العملي وذلك الثبات العنيد اللذين كان يمكن أن يتيحا له أن يقبض على الأمور بيديه، وأن يتصرف في الأعمال بنفسه، فكان لذلك لا يحب هذا العمل، ولا يزيد على أن يتظاهر أمام الوكيل بأنه شديد الاهتمام به. وكان الوكيل، من جهته، يجهد أن يتظاهر أمام الكونت بأنه يعدُّ هذه المشاغل تنفع مولاه أكبر النفع، وترهقه هو أكبر الإرهاق.

ووقع بطرس في المدينة الكبيرة على أشخاص يعرفهم. والذين كانوا لا يعرفونه أسرعوا يسدّون هذه الثغرة ويستقبلون بالمودّة والترحيب هذا القادم الجديد الذي هو أغنى رجل وأكبر مالك في الإقليم. وكانت الإغراءات المتعلّقة بضعفه الأكبر، وهو الضعف الذي اعترف به بطرس يوم قبوله في المحفل الماسوني، كانت كذلك من القوة بحيث لم يستطع أن يقاومها. فعاد يقضي من حياته الأيام والأسابيع والأشهر الكاملة مشغولًا بالسهرات ومآدب العشاء وولائم الغداء، وحفلات الرقص، كما كان شأنه في بطرسبورغ، فلا يدع له هذا كله فسحة من الوقت تتيح له أن يرجع إلى نفسه ويسترد رشده. فبدلًا من أن يعيش الحياة الجديدة التي أمل بأن يبدأها، استمر في حياته القديمة، ولكن في مكان جديد.

وأدرك بطرس أنه من بين الواجبات الثلاثة التي تفرضها الماسونية لا يقوم إلّا بذلك الواجب الذي يأمر كل أخ بأن يكون قدوة في الأخلاق، وأدرك أن هناك فضيلتين من الفضائل السبع لا يتحلّى بهما البتة: العادات الحسنة وحب الموت. فكان يعزّي نفسه بأنه في مقابل ذلك يقوم بمهمة أخرى وينهض برسالة أخرى، هي إصلاح النوع الإنساني، وأنه يملك فضائل أخرى منها حب الإنسان، ومنها الكرم والسخاء خاصّة.

في ربيع عام 1807 قرّر بطرس أن يعود إلى بطرسبورغ. وكان ينوي أن يزور في طريق عودته جميع أراضيه، وأن يتأكد بنفسه من مدى تطبيق التعليمات التي أصدرها إلى وكلائه، وليرى بعينيه أيضًا حالة هذا الشعب الذي عهد به الرب إليه، والذي يتطلّع هو إلى إسعاده.

واضطر الوكيل العام، الذي كان يرى أن جميع مشاريع الكونت الشاب حماقات جنونية تلحق الضرر به وبمولاه وبالفلاحين على حد سواء، اضطر أن يتنازل عددًا من التنازلات. فإنه على استمراره في تصوير عتق الأقنان على أنه مستحيل، أمر بأن تبنى في جميع الأملاك مبانٍ كبيرة تكون مدارس ومستشفيات وملاجئ. ولعلمه، بعد أن درس طبع بطرس، بأن الاستقبالات الفخمة الساذجة تسوؤه، فقد استغنى عنها باستقبالات تُوزّع فيها عطايا خبز وملح، وتتم فيها أعمال بر وإحسان، وتُعرض فيها أيقونات، فمن شأن ذلك في رأي الوكيل العام أن يؤثّر في قلب الكونت، وأن يريحه.

وكان لربيع الجنوب وللسفر المريح في مركبة من طراز مركبات فيينا، وللوحدة والعزلة، أثر حسن في نفس بطرس. كانت جميع الأملاك التي لم يكن يعرفها رائعة يأخذ حسنها بمجامع القلب. وكان يبدو على السكان في كل مكان أنهم يعيشون في رخاء، وأنهم يشعرون بالشكر العميق لما نالوا من نعم وخيرات. كان بطرس يُستقبل في كل مكان استقبالًا يُشعره بالخجل، ولكنه يهيئ له في قرارة نفسه فرحًا طيبًا. وقد قدَّم إليه الفلاحون في أحد الأماكن خبزًا وملحًا وأيقونة تمثل القديس بطرس والقديس بولس، وسألوه أن يأذن لهم بأن يشيِّدوا على نفقتهم مصلّى جديدًا في الكنيسة يخصّون به القديسَيْن اللذين يرعيانه، وذلك عرفانًا منهم بفضله لما أسبغه عليهم من نِعم. وفي مكان آخر، استقبلته النساء حاملات أطفالهن الرضع، ليشكرنه على إعفائه إياهن من الأعمال الشاقة. وفي مكان ثالث كان الكاهن هو الذي جاء يستقبله حاملًا بيده الصليب، محاطًا بالأولاد الذين أصبح بفضل الكونت يعلمهم القراءة والكتابة ويلقّنهم تعاليم الدين. وفي جميع الأملاك كان بطرس يرى بعينيه مباني من حجر تُشاد، على نموذج واحد، لتكون مستشفيات ومدارس ومضافات يتم تدشينها في وقت قريب. وكان يرى في

كل مكان، وفقًا لما يقوله الوكلاء، أن السخرة قد خُفِّفت وكان يسمع الشكر الحار تعبِّر له عنه وفود من الفلاحين يلبسون القفاطين الزرق.

كان بطرس يجهل أن البلدة التي قدِّم إليه فيها الخبز والملح، والتي كان يُبنى في كنيستها مصلًّى للقديس بطرس وللقديس بولس إنما هي بلدة تجارية تقام فيها سوق موسمية تسمى باسم القديس بطرس، وأن المصلًّى قد بُدئ ببنائه منذ مدة طويلة على نفقة فلاحين أثرياء هم الذين جاءوا إليه، وأن تسعة أعشار الفلاحين الآخرين مدمَّرون تدميرًا كاملًا. وكان يجهل أن إعفاء النساء اللواتي لهن أولاد صغار من أعمال السخرة، قد شُفع بتحميل هؤلاء النساء أنفسهن أن يقوموا في مساكنهن بأعمال فيها مزيد من العناء والمشقّة. وكان يجهل أن الكاهن الذي يستقبله والصليب في يده كان يرهق الفلاحين بالعشور، وأن الفلاحين كانوا لا يعهدون إليه بأولادهم إلّا باكين، ولا يستطيعون أن يستردّوهم إلّا بدفع مبالغ ضخمة. وكان يجهل أن المباني الحجرية التي رآها إنما كان يبنيها الفلاحون أنفسهم سخرةً، وأن ذلك فاقم السخرة، وأن السخرة لم تُخفّف إلّا كتابة على الورق. وكان يجهل أن المكان الذي أطلعه فيه أحد الوكلاء على دفاتره، فرأى أن الأتاوة أُنقص ثُلثها تنفيذًا لأوامره، إنما زيدت فيه السخرة ضعفين. كان بطرس يجهل كل ذلك، فلا عجب أن سُرّ سرورًا عظيمًا بهذه الجولة في أراضيه، واستردّ ما كانت تجيش به نفسه من حماسة للأعمال الخيرية حين غادر بطرسبورغ. وأخذ يكتب رسائل تفيض حرارة إلى الأخ المعلم (هذا هو اللقب الذي كان يلقب به المعلم الكبير).

وصار يقول لنفسه: «ما أسهل أن يقوم المرء بأعمال الخير هذه كلها، وما أقلَّ الجهود التي يحتاج إلى بذلها من أجل إنجازها. ولكن ما أقلَّ ما نحاول بذل هذه الجهود الضئيلة!».

وكان يسعده ما يُعبِّرون له عنه من مشاعر الشكر، ولكن كان يحرجه كثيرًا أن يقبل هذا التعبير من الشكر، إذ كان يذكِّره بأنه قادر على أن يصنع لهؤلاء الناس البسطاء الطيبين أكثر كثيرًا مما صنع.

كان الوكيل العام رجلًا محدودًا لكنه ماكر، وقد نفذ نفاذًا تامًّا إلى نفس

الكونت الذي كان ذكيًّا ولكنه ساذج، فأصبح الكونت ألعوبة بين يديه. فلما رأى ما أحدثته الاستقبالات التي نظّمها من أثر في نفس الكونت، أعلن له جازمًا قاطعًا أن الفلاحين سعداء كل السعادة من دون تحرير، وأن تحريرهم مستحيل، وأنه خاصّةً لا فائدة منه ولا داعي إليه.

وكان بطرس في قرارة نفسه موافقًا وكيله العام على الاعتراف بأن من الصعب أن يتخيّل المرء وجود أناس يتمتّعون بسعادة أكبر من السعادة التي ينعم بها هؤلاء الفلاحون؛ وليس يعلم إلّا الله ما قد ينتظرهم من مصير إذا هم حُرِّروا! ولكنه أصرَّ مع ذلك، ولو بغير حماسة، على ضرورة تحريرهم، لأن هذا التحرير حق وعدل. فوعده الوكيل العام بأن يبذل قصاراه لإرضاء رغبته وتنفيذ أمره، مدركًا حق الإدراك أن الكونت لن يستطيع أن يتثبّت من أن الإجراءات اللازمة لبيع الغابات والأملاك وسداد الديون المستحقة لمجلس الوصاية قد اتخذت، وأنه لن يعلم بأن المباني التي شيّدت لا تزال خالية، وأن الفلاحين لا يزالون يبذلون من العمل والمال في أملاكه كل ما يبذلونه في أملاك غيره، أي كل ما يستطيعون أن يبذلوه.

الفصل الحادي عشر

في طريق عودته من الجنوب، وهو على أحسن حال من الابتهاج، حقّق بطرس مشروعًا قديمًا كان ينوي تحقيقه، هو أن يمضي يزور صديقه بولكونسكي الذي لم يره منذ سنتين.

تقع بوغوتشاروفو على أرض مسطحة ليس لها جمال يجذب إليها، تغطّيها حقول وغابات صنوبر وغابات سندر مهيأة لأن تقطع أشجارها. وتقع دار أصحابها في طرف قرية تمتد خطًا مستقيمًا على طول الطريق الكبير الوراء غدير حُفر في الآونة الأخيرة وملئ بالماء حتى ضفافه، ولما تزيَّن شواطئه بعد بالعشب، وسط غابة فتية ينتصب فيها عدد من أشجار الصنوبر عاليًا سامقًا.

وتتألف الدار من فناء وملحقات وزرائب وحمامات وجناح في الحوش، ومن منزل ضخم بني بالحجر، وزُيِّن بواجهة مزخرفة على شكل نصف دائرة لم يكتمل العمل فيها بعد. وتحيط بالدار حديقة فتية غرست منذ مدة قصيرة. إن الأسيجة والبوابة متينة وجديدة. وتحت طنف من الأطناف مضخّتان للحريق، وبرميل مدهون بلون أخضر. والطرق مستقيمة، والجسور قوية لها درابزين. وكل شيء يحمل طابع النظام وحسن الإدارة.

وصل بطرس وسأل الخدم الذين لقيهم أين يسكن الأمير، فأشاروا له إلى جناح صغير جديد يقع على ضفة الغدير. وقام أنطون، الخادم العجوز من خدم أندريه، بمساعدة بطرس على النزول من مركبته، وقال له إن الأمير في مسكنه، وقاده إلى غرفة انتظار صغيرة نظيفة جِدًّا.

دهش بطرس من تواضع هذا المسكن الصغير النظيف الذي يقيم فيه أندريه، بعد مظاهر الفخامة والبذخ في المنزل الذي لقي فيه صديقه آخر مرة

ببطرسبورغ، وأسرع يدخل صالونًا صغيرًا لم يجصَّص بعد، ولا تزال تفوح منه رائحة خشب الصنوبر، وأراد أن يمضي إلى أبعد من ذلك، وأن يوغل مزيدًا من الإيغال، ولكن أنطون أسرع يتقدمه سائرًا على رؤوس الأصابع، ونقر الباب.

فأجاب صوت قاطع فيه جفوة:

- ماذا؟

فقال أنطون:

- زائر.

فأجابه الصوت:

- فلينتظر.

وسُمعت ضجة كرسي يُدفع.

اقترب بطرس من الباب بخطى سريعة، فاصطدم على عتبته بالأمير أندريه الذي كان مقبلًا عليه كالح الهيئة، هرم الوجه، فاحتضنه بطرس بذراعيه، ونزع عن عينيه نظارتيه، وقبّله من الخدين، وأخذ يتفرس فيه عن قرب.

قال الأمير أندريه:

- غريب! لم أكن أتوقّع هذه الزيارة! ما أسعدني بك!

لم يقل بطرس شيئًا، وكان ينظر إلى صديقه مدهوشًا لا يحوِّل عنه بصره. لقد أذهله هذا التبدّل الذي طرأ على أندريه. صحيح أن كلماته كان فيها مودّة، وأن شفتيه كانتا هما ووجهه تبتسمان، ولكن نظرته كانت منطفئة، ميتة، وكان رغم رغبته الواضحة لا يفلح في أن يسبغ على نظرته شيئًا من بريق الفرح والمرح. لم يكترث بطرس بما أصاب صديقه بولكونسكي - هزال وشحوب وشيخوخة. ولكن هذه النظرة الميتة، وهذا الغضن في الجبين، وهما دليلان على أن فكر صاحبهما قد تركز زمنًا طويلًا على موضوع واحد بعينه، قد أذهلا بطرس وأشعراه بأنه بعيد عن صديقه، لأنه لم يعهدهما فيه من قبل قط.

وكما يحدث دائمًا بعد فراق طويل، لم يقم الحديث بين الصديقين إلّا في بطء. وكانت الأسئلة والأجوبة في أول الأمر لا تتناول إلّا في اقتضاب

شديد تلك المواضيع التي كانا يعلمان أن عليهما أن يتوقفا عندها. ثم أخذ حديثهما ينصبّ شيئًا فشيئًا على هذه المواضيع التي لم يمساها في البداية إلّا مسًّا خفيفًا، فأخذا يتكلّمان عن حياتهما الماضية، وعن مشاريعهما المستقبلية، وعن الرحلة التي قام بها بطرس، وعن مشاغله، وعن الحرب، وما إلى ذلك. وكان التركيز والانهيار اللذان لاحظهما بطرس في نظرة الأمير أندريه يظهران الآن واضحين مزيدًا من الوضوح في الابتسامة التي تصحب إصغاءه إليه ولا سيما حين تحدّث بحماسة فرحة عن الماضي والمستقبل. كان الأمير أندريه كمن يتمنّى أن يهتم بما يسمعه من صديقه بطرس، ولكنه لا يفلح في ذلك، وأخذ بطرس يشعر بأن الحديث عن حماسته وأحلامه وآماله في السعادة والفضيلة أمام أندريه أمر ليس في محله. وضايقه أنه أخذ يشرح جميع أفكاره الماسونية الجديدة، ولا سيما بعد أن أنعشتها وعززتها رحلته الأخيرة. فكان يصدّ نفسه عن الكلام، ويخشى أن يبدو ساذجًا، ولكنه كان في الوقت نفسه يتحرّق رغبة في أن يبيِّن لصديقه أنه الآن بطرس آخر تمامًا، يختلف كل الاختلاف عن بطرس بطرسبورغ، وقال:

- أنا عاجز عن أن أشرح لك كل ما طرأ على حياتي منذ أن تلاقينا آخر مرة. إنني لأنكر الآن نفسي ولا أعرفها.

فقال، الأمير أندريه:

- نعم، تغيرنا كثيرًا، كثيرًا.

فسأله بطرس:

وأنت، ما مشاريعك؟

فأجابه الأمير أندريه ساخرًا:

- مشاريعي؟

كرر يقول كمن يستغرب معنى هذه الكلمة:

- مشاريعي؟ مشاريعي كما ترى: إنني أعمل على أن أقيم في السنة المقبلة هنا إقامة دائمة...

تفرّس بطرس صامتًا في الأمير أندريه الذي شاخ وجهه. ثم قال:

- لا، إنما أردت أن أسألك...

ولكن الأمير أندريه قاطعه قائلًا:

- علام الكلام عني أنا؟ الأحرى أن تروي أنت... حدّثني عن رحلتك. عن كل ما فعلته في أراضيك.

فأخذ بطرس يحدّثه عما فعله، باذلًا قصارى جهده لإخفاء مشاركته في هذه الإصلاحات. وقد تولَّى الأمير أندريه عدة مرات إكمال ما كان يحكيه بطرس، كان كل ما فعله بطرس قصّة قديمة حفظها على ظهر القلب. وكان واضحًا أنه لا يولي كلام بطرس أيَّ اهتمام، بل كان كالخجلان من إصغائه إلى هذه السفاسف.

وشعر بطرس أخيرًا بضيق، فصمت لا يقول شيئًا. وغالب الظن آن أندريه شعر بهذا الضيق نفسه، فأصبح لا يهمه إلّا أن يشغل هذا الضيق ليس بين آرائه وآراء صديقه أي شيء مشترك. فقال له:

- إنني مخيِّم هنا تخييمًا يا عزيزي، ولم أجئ إلّا لإلقاء نظرة، ثم أعود اليوم إلى عند أختي. سوف أقدّمك إليهم وأعرِّفهم بك.

- ولكنك تعرفها في ما أظن. سنرحل إليها بعد الغداء. والآن هل تريد أن ترى أملاكي؟

وخرجا يتجولان حتى موعد الغداء، متحادثين تحادث أناس لا تجمعهم صداقة حميمة عن الحرب والسياسة وعن أصدقائهما. ولم ينتعش الأمير أندريه ولم يظهر عليه شيء من الاهتمام إلّا حين تكلّم عن أملاكه الجديدة التي شرع يرتب أمورها وينظّم شؤونها، وعن الأعمال التي بدأها، ولكنه أثناء هذا الحديث نفسه أيضًا أمسك فجأة عن الكلام بينما كان على السقالات يصف المكان الذي سيقيم فيه في المستقبل. وقال:

- لا قيمة لهذا كله على كل حال، هلمَّ بنا إلى الغداء ثم نسافر إلى أختي.

وفي أثناء الغداء دار الحديث على زواج بطرس. قال الأمير أندريه:

- دهشت حين علمت بزواجك.

احمرّ بطرس كما يحمرّ دائمًا كلما جاء على ذكر زواجه، وأسرع يقول:

- سأقصّ عليك في يوم من الأيام كيف حدث الأمر. ولكنك تعلم أن كل شيء قد انتهى، انتهى إلى الأبد.

فقال الأمير أندريه:

- إلى الأبد؟ لا شيء ينتهي إلى الأبد...

- ولكن هل تعرف الخاتمة التي اختتم بها هذا الأمر كله؟ هل سمعت عن المبارزة؟

أجاب أندريه قائلًا:

- نعم، أعرف أنك مررت بهذا أيضًا!

قال بطرس:

- شيء وحيد أحمد الله عليه، هو أنني لم أقتل هذا الرجل!

فقال الأمير أندريه معترضًا:

- لماذا؟ إن قتل كلب شرير لهو عمل محمود جِدًّا.

- لا، ليس خيرًا قتل إنسان. قتل الإنسان ظلم...

فعاد الأمير أندريه يعترض قائلًا:

- لماذا تقطع بأنه ظلم. إن البشر لم يؤتوا القدرة على الحكم بأن هذا عمل عادل وهذا عمل ظالم. لطالما أخطأ البشر في تقدير العدل والظلم، ولسوف يظلّون يخطئون، وهم لا يخطئون في شيء خطأهم في ما يعتقدون أنه عدل أو ظلم.

قال بطرس وقد سره أن يرى الأمير أندريه ينتعش ويتحمس وينطلق في الكلام، وكأنه يريد أن يبوح له بالأسباب التي أحالته هذه الإحالة وجعلته ما هو الآن:

- الظلم هو إيذاء شخص آخر.

فسأله أندريه:

- وكيف تعلم أن عملًا من أعمالك هو أذًى لشخص آخر.

قال بطرس:

- الأذى؟ الشر؟ نحن جميعًا نعرف ما هو أذى لنا وشر.

قال الأمير أندريه وهو يزداد انتعاشًا، ويزداد رغبة في أن يعرض على بطرس نظرته الجديدة إلى الأمور:

- نعم، نحن نعلم ما هو أذًى لنا وشر. غير أن ما أعرف أنه أذًى لي وشر، لا أصنعه لشخص آخر، لأنني أحب أن أجنّب نفسي الأذى والشر.

وأضاف يقول بالفرنسية:

- ليس هناك إلّا شران هما شران حقًّا: عذاب الضمير، واعتلال الجسم.

وليس هناك من خير إلّا غياب هذين الشرين. أن لا أعيش إلّا لنفسي متجنبًا هذين الشرّين، تلك هي الحكمة التي آخذ بها الآن.

قال، بطرس:

- وحب الإنسان لأخيه الإنسان؟ والتضحية بالنفس؟ لا، لا، إنني لا أستطيع أن أشاطرك رأيك. لأن يحيا الإنسان من دون أن يؤذي أحدًا بعينه ليتجنّب عذاب الضمير فهذا قليل. لقد عشت أنا هكذا، عشت لنفسي، فأفسدت حياتي. والآن إنما صرت أحيا، أو قل على الأقل صرت أحاول أن أحيا للآخرين (كذلك صحّح بطرس عبارته)، الآن إنما فهمت كل السعادة التي يمكن أن تهبها لنا الحياة. لا، أوافق على آرائك. وأنت نفسك لا تتقيّد بما تقوله.

وكان الأمير أندريه ينظر إلى بطرس صامتًا، ويبتسم ابتسامة سخرية. ثم قال:

- سوف ترى أختي الأميرة ماريا، وسوف تتفاهمان.

وتابع يقول بعد صمت:

- قد تكون مصيبًا في ما يتعلّق بك.. ولكن كل إنسان يحيا على طريقته. أنت عشت لنفسك فأوشكت كما تقول أن تفسد حياتك، ولم تعرف السعادة إلّا إذا أخذت تحيا في سبيل الآخرين. أما أنا فتجربتي نقيض هذه التجربة. أنا عشت في سبيل المجد (وما المجد؟ هو أيضًا حب الآخرين، والرغبة في صنع شيء لهم، الرغبة في أن يمتدحوه)، فأنا عشت إذًا في سبيل الآخرين فلم أوشك أن أفسد حياتي فحسب، بل أفسدتها فعلًا. ومنذ أصبحت أعيش لنفسي إنما هدأت بالًا واطمأننت نفسًا.

قال بطرس متحمسًا:

- ولكن كيف يحيا الإنسان لنفسه فحسب؟ وابنك؟ وأختك؟ وأبوك؟

قال أندريه:

- هؤلاء هم أنا وليسوا الآخرين. أما الآخرون الذين تسميانهم، أنت والأميرة ماريا، باسم «أخوتنا البشر»، فهم أكبر مصدر للضلال والشر. «أخوتنا البشر» هم فلاحو كييف أولئك الذين تريد أن تصنع لهم خيرًا، وأن تحسن إليهم.

قال بطرس وقد اشتدّت حماسته:

- أنت تمزح. أي ضلال وأي شر يمكن أن تتضمّنه الرغبة التي قامت في نفسي فدفعتني إلى فعل الخير (وأنا لم أفعل من الخير إلّا القليل ولم أحسن فعله)، وجعلتني أفعل الخير ولو قليلًا؟ أي شر يكمن في تعليم هؤلاء الناس البؤساء، فلاحينا الذين هم بشر مثلنا، والذين يشبّون ويموتون من دون أن يعرفوا عن الرب وعن الحقيقة إلّا طقوسًا وصلوات آلية؟ أي شر في تعليمهم الإيمان بالحياة الآخرة، الإيمان بأنهم سيُجزون خيرًا، فيشد هذا أزرهم ويعزّيهم ويواسيهم؟ أي شر وأي ضلال في إبعاد الموت والمرض من دون إغاثة عن الناس، مع أن إعانتهم بالمال وإمدادهم بطبيب ومستشفى وملجأ للشيوخ أمر سهل كل السهولة؟ أليس خيرًا محسوسًا ملموسًا لا يمكن جحوده أن تهب للفلاح وزوجه وابنه شيئًا من راحة، وأن تهيئ لهم شيئًا من فراغ، وهم لا يكفّون عن الكد في نهار أو ليل؟

كذلك كان يتكلم بطرس متعجلًا متلجلجًا. وأردف يضيف:

- ذلك ما فعلته أنا، ولعلّي لم أحسن فعله كاملًا، فجاء ناقصًا، ولكنني فعلت شيئًا في هذا السبيل على كل حال، ولن تستطيع أن تقنعني بأن ما فعلته ليس خيرًا، بل لن تستطيع أن تقنعني بأنك لا ترى أنت نفسك هذا الرأي.

وتابع كلامه قائلًا:

- المهم على كل حال، وذلك ما أعرفه وأوقن به، هو أن فعل الخير هو السعادة الحقيقية الوحيدة في الحياة.

قال الأمير أندريه:

- نعم، إذا طرحت المسألة على هذا النحو، اختلف الأمر. أنا أبني منزلًا وأزرع حديقة، وأنت تشيّد مستشفيات. وكلا الشيئين يمكن أن يكون تزجية للوقت. أما العدل وأما الخير فاترك الحكم في شأنهما لمن يعلمون، فما نحن بأهل لأن نقرر في أمرهما شيئًا.

ثم أضاف:

- ولكن إذا كنت تحب أن تناقش، فلنتناقش.. ونهض الاثنان عن المائدة، وجلسا على مصطبة الباب التي كانت بمثابة شرفة.

قال الأمير أندريه:

- هيَّا نتناقش!

وأضاف وهو يعدُّ على أصابعه:

- أنت تقول: المدارس، وتعليم الدين، إلى آخر ما هنالك. أي أنك تريد أن تنتشل هذا...

قال ذلك وهو يومئ إلى فلاح كان يمر أمامهما خالعًا قبعته.

وتابع كلامه:

- تريد أنت أن تنتشل هذا من حالته الحيوانية، وأن تهب له حاجات روحية. ولكن يبدو لي أنا أن سعادته الوحيدة الممكنة هي هذه السعادة الحيوانية، ومن هذه السعادة إنما تريد أنت أن تحرمه. أنا أحسده، وأنت تريد أن تجعله مثلي من دون أن تهب له الوسائل اللازمة. وتتكلّم بعد ذلك عن تخفيف عمله. ورأيي أنا أن العمل الجسدي هو له ضرورة، وهو شرط وجوده، كما أن العمل الفكري هو لنا ضرورة، وهو شرط لوجودنا أنا وأنت. أنت لا تستطيع إلّا أن تفكّر وأنا أرقد في فراشي في نحو الساعة الثالثة من الصباح فتأخذ الأفكار تهجس في نفسي فلا أستطيع أن أنام، وأظل على فراشي وأتقلّب، وأبقى يقظان حتى مطلع الصبح، لأنني أفكر، ولأنني لا أستطيع إلّا أن أفكر، كما لا يستطيع هو إلّا أن يحرث. ومثلما لا أطيق أنا أن أقوم بما يقوم به هو من عمل جسدي رهيب، فإذا قمت بهذا العمل متُّ بعد ثمانية أيام، كذلك لا يطيق هو أن يتحمّل ما أتحمّله أنا من قعود عن العمل الجسدي، فإذا هو يسمن ويموت. ثالثًا: ما الذي قلته أيضًا؟

كان الأمير أندريه لا يزال يعد على أصابعه، وهتف يجيب عن سؤاله قائلًا:

- آ... نعم... المستشفيات، والأدوية. هو يصاب بنوبة فيموت أو تقصد أنت أن تبقيه حيًّا، فيعيش عشر سنين عاجزًا معطوبًا، ويكون عالة على الآخرين. أليس موته أسهل عليه وأبسط له؟ لسوف يولد كثيرون، ولسوف يبقى من الأحياء ما فيه كفاية. لو كنت تأسف على فقدان عامل - وأنا انظر إلى الأمر هذه النظرة - لما كان لي اعتراض، ولكنك إنما تريد أن تشفيه بدافع المحبة له، وما هو في حاجة إلى ذلك. ثم من قال إن الطب شفى

أحدًا من المرض في يوم من الأيام؟ لو قلت لي إن الطب يميت، لأجبتك: نعم، الطب يميت.

قال أندريه ذلك وهو يقطب حاجبيه غضبًا ويشيح وجهه عن بطرس. وكان الأمير أندريه يبسط أفكاره بوضوح ودقة يدلان على أنه فكر في هذا كله مِرارًا، فكان يتحدث راضيًا، ولسانه يجري بالكلام سريعًا، كمن لم تتح له فرصة التعبير عما بنفسه منذ مدة طويلة. وكانت نظرته تزداد انتعاشًا كلما ازدادت آراؤه جهامة. وقال بطرس:

- شيء فظيع! شيء فظيع! إنني لا أفهم أن يستطيع أحد أن يعيش حاملًا مثل هذه الأفكار. أنا أيضًا مرت بي لحظات كهذه منذ مدة غير طويلة، في موسكو، وأثناء رحلتي، ولكنني كنت عندئذ أنهار انهيارًا فلا أحيا، وأغدو مشمئزًا من كل شيء، مشمئزًا من نفسي خاصّةً، فأنقطع عن الطعام، وأكف عن الاغتسال... كيف تقدر أنت أن...

قاطعه الأمير أندريه قائلًا:

- لِمَ لا أغتسل؟ إهمال الاغتسال قذارة. بالعكس. يجب على المرء أن يجهد لجعل حياته ممتعة أكبر الإمتاع. إنني أعيش. وليس هذا ذنبي، فيجب إذًا أن أعيش أحسن عيشة، من دون أن أضايق أحدًا، إلى أن يحين أجلي فأموت...

- ولكن ما الذي يجعلك متعلِّقًا بالحياة وهذه أفكارك؟ إن المرء في مثل هذا الحال يبقى ساكنًا لا يتحرّك، ولا يقوم بعمل...

- الحياة لا تدع راحة على كل حال. إني لأودّ أن لا أعمل شيئًا. ولكن الحياة لا تتيح لي هذا. فالطبقة النبيلة هنا مثلًا قد شرّفتني بتسميتي مارشالها. فما أكثر ما لقيت من تعب وعناء من أجل إقناع هؤلاء السادة بأنني لست الرجل الذي ينشدونه، فهذا المنصب يتطلّب من مزايا البساطة المرحة الجذلة والعامية المتحركة المضطربة، ما ليس في طبعي. وعدا ذلك كان لا بد لي من بناء هذا المنزل ليكون ركنًا آوي إليه، وأهدأ فيه. والآن جاءني هذا العمل في الميليشيا.

- لماذا لم تعد إلى الخدمة في الجيش؟

قال الأمير أندريه مربدَّ الوجه:

- أَبَعْدَ أوسترلتز؟ لا. شكرًا. لقد آليت على نفسي ألا أخدم في الجيش الروسي العامل. ولن أتراجع عما عقدت عليه نيتي. فلو وصل نابوليون إلى هنا قرب سمولنسك، وصار يهدد ليسييه جوري، لما هببت إلى الخدمة في الجيش الروسي. وأضاف بعد أن هدّأ نبرته: قلت لك إنهم يجندون رجالًا للميليشيا، وإن أبي سُمّي قائدًا عامًّا للمنطقة الثالثة، فكان سبيلي الوحيد إلى الإفلات من الخدمة العامة هو أن ألتحق به.

- فأنت إذًا تخدم؟

- نعم. وصمت أندريه لحظة. فسأله بطرس:

- ولماذا تخدم؟

- إليك السبب. إن أبي واحد من أبرز رجال عصره. ولكنه شاخ، ولست أقول إنه قاسٍ، ولكنْ له طبع مسرف في النشاط. فهو رهيب بما اعتاده من سلطة لا حدود لها، وهو الآن رهيب بالسلطة التي خوَّلها الإمبراطور لقادة الميليشيا. وأضاف وهو يبتسم: منذ خمسة عشر يومًا، لو حدث ووصلت متأخرًا ساعتين لكان أبي قد أخذ «كاتبًا» إلى يوخنوف. فانا أخدم في الجيش لأنه ليس لأحد تأثير في أبي غيري، فأستطيع من حين إلى حين أن أمنعه من ارتكاب أعمال يمكن أن يؤلمه أشد الإيلام بعد ذلك أن يكون قد ارتكبها.

- آ... أرأيت؟

فانبرى الأمير أندريه يقول:

- نعم، ولكنني لا أفهم الأمر على نحو ما تفهمه أنت. أنا لم أنشد، ولا أنشد، أي خير لذلك «الكاتب» الوغد الذي سرق أحذية رجالٍ من الميليشيا. ولو رأيته يُشنق لأسعدني ذلك كثيرًا. ولكنني أشفق على أبي، أي أشفق على نفسي كما سبق أن قلت.

وكان الأمير يزداد انتعاشًا وحرارة. وكانت عيناه تسطعان ببريق محموم حين كان يحاول أن يبرهن لبطرس على أن عمله لا يشتمل على أية رغبة في أن يحسن إلى «أخيه الإنسان». فأردف يقول:

- أنت تنوي تحرير أقنانك. هذه نية طيبة جدًّا. ولكن هذا لن يكون فيه خير لا لك أنت - وأظن أنك لم تجلد أحدًا منهم ولا نفيت أحدًا منهم إلى سيبيريا في يوم من الأيام - ولا للفلاحين. وإذا حدث أن ضُربوا وأن جُلدوا

وأن رُحّلوا فأنا أعتقد بأن هـذا لن يصيبهم بِشَرٍّ كبير. سيظلّون يعيشون في سيبيريا حياتهم البهيمية، وسوف تلتئم الجراح التي أحدثها الجلد في أجسامهم، وسيكونون سعداء مثلما كانوا سعداء قبل ذلك. ولكن تحرير الأقنان لازم مع ذلك، لازم لأولئك الذين يفقدون كل حسٍّ أخلاقي شيئًا بعد شيء، ويتراكم في نفوسهم عذاب الضمير. ثم هم يكبتون هذا العذاب ويخنقونه، وتزداد قسوتهم لفقدهم سلطة المعاقبة بحق وبغير حق، أولئك أرثي لحالهم وأشفق عليهم، وأتمنى لهم أن يحرّروا فلاحيهم. ربما كنت لا تعرف أحدًا من هذا النوع من الناس، أما أنا فقد رأيت رجالًا أخيارًا نشأوا على تقاليد السلطة التي لا تقيّدها حدود، ثم أصبحوا مع تقدّمهم في السن سريعين إلى الاهتياج، مسرفين في القسوة والوحشية، وهم يعرفون هذا في أنفسهم، ولكنهم يعجزون عن السيطرة على أعصابهم، فيزداد من ذلك شقاؤهم يومًا بعد يوم.

كان أندريه قد عاد يتكلّم بحرارة شديدة، فقدَّر بطرس، على غير إرادة منه، أن هذه الأفكار لا بد أن يكون أندريه قد استوحاها من حالة أبيه فلم يجب بشيء.

وختم أندريه كلامه فقال: ذلك ما يوقظ اهتمامي ويثير شفقتي: كرامة الإنسان، راحة البال، نقاء النفس. أما ظهور أولئك الناس ورؤوسهم، فمهما تجلدها ومهما تحلقها، تظل ظهورًا ورؤوسًا.

قال بطرس:

– لا، لا... ألف مرة لا... لن يكون رأيي هذا الرأي في يوم من الأيام أبدًا.

الفصل الثاني عشر

في المساء ركب أندريه وبطرس عربة وسافرا إلى ليسييه جوري. فكان الأمير أندريه ينظر إلى بطرس من حين إلى حين، ويقطع الصمت بكلمات تدلّ على أنه حسن المزاج. فحدَّثه وهو يريه الحقول عن التحسينات التي أدخلها على استثمار أراضيه.

كان بطرس يظل صامتًا صمتًا متجهّمًا: ولا يجيب إلّا بكلمات قصار قليلة، ويبدو غارقًا في أفكاره.

كان يرى أن أندريه إنسان شقيّ، وأنه مخدوع مغشوش، وأنه لا يرى النور الحق، وأن عليه، هو بطرس، أن يعينه فينيره ويقيله من هذه العثرة وينهض به. ولكنه ما إن يفكر في ما عسى أن يقول له، وفي الأسلوب الذي يجب أن يعمد إليه في مواجهة هذه المهمة، حتى يحس بأن الأمير أندريه يستطيع بكلمة واحدة أو حجة واحدة أن يهدم كل ما يقدمه هو من برهان، وكل ما قد يجريه من استدلال، فكان يمسك عن الكلام خوفًا من السخريات التي قد يوجّهها أندريه إلى ما يعدّه هو أقدس الأمور قاطبة.

وبدأ يتكلم فجأة، فقال وهو يخفض رأسه كثور المصارعة عند الهجوم:

- عجيب! من أين جاءتك هذه الآراء؟ ما ينبغي لك أن تفكر هذا التفكير.

فسأله الأمير أندريه مدهوشًا:

- أية آراء؟

- آراؤك في الحياة وفي مصير الإنسان. هذا مستحيل. لقد كنت أفكر مثل تفكيرك، فهل تعرف ما الذي أنقذني؟ الماسونية. لا تبتسم. ليست الماسونية فرقة دينية قوامُها طقوس كما كنت أظن، بل هي أجمل تعبير عما

هو في الإنسان خيرٌ وأبدى، وهي التعبير الوحيد عن ذلك.

وطفق بطرس يشرح للأمير أندريه ما هي الماسونية على نحو ما يفهمها. فقال إن الماسونية عقيدة مسيحية متحرّرة من عوائق الحكومات والدين، وإنها مذهب المساواة والأخوة والمحبة. قال:

- إن جمعيتنا المقدّسة هي الوحيدة التي تعرف المعنى الحقيقي للحياة، وكل ما عداها أحلام من أحلام اليقظة. اعلم يا صديقي أن كل ما عداها كذب وزيف، وإني لا أوافقك على أنه لم يبق لإنسان ذكي خيِّرٍ إلّا أن يختم حياته على نحو ما تفعل أنت، مكتفيًا بأن يحاول ألا يضايق الآخرين. ولكن خذ بمبادئنا الأساسية، ادخل في جمعيتنا، انْقَدْ لنا، أتِحْ لنا أن نوجّهك ونرشدك، فسرعان ما تحسّ كما أحسست أنا بأنك لست إلّا حلقة في سلسلة كبيرة لا تراها الأعين، تمتد إلى السماوات.

كان الأمير أندريه ينصت إليه صامتًا، محدّقًا ببصره إلى نقطة ثابتة في الفضاء أمامه. حتى لقد طلب منه مِرارًا أن يعيد بعض الأشياء التي حالت ضجة جريان العربة بينه وبين سماعها واضحة. ولاحظ بطرس من البريق الخاص الذي التمعت به عينا أندريه ومن الصمت الذي التزمه مصغيًا، أن كلامه لا يضيع سُدًى، ولاحظ أن أندريه لا يقاطعه، وأنه لن يستهزئ بما يقوله.

وصلا إلى نهر فائض اضطرا أن يَعبراه على عَبَّارَةٍ: فجلسا في مكان على العَبَّارَةِ بينما كانت العربة والخيول تُنقل إليها، وراح أندريه يتأمل صفحة الماء الساطع تحت أشعة الشمس الغاربة، متكئًا بكوعيه على الدرابزين.

سأله بطرس:

- هيه! ما رأيك؟ ما بالك تصمت ولا تجيب؟

- رأيي؟ لقد أصغيت إلى كلامك. وهو كله كلام جميل. ولكنك تقول: ادخل في جمعيتنا فندلك على غاية الحياة ومصير الإنسان والقوانين التي تحكم الوجود. ولكن ماذا نحن؟ بشر. وكيف تعلمون أنتم كل شيء، وأكون أنا الوحيد الذي لا يرى ما ترون. أنتم ترون على الأرض ملكوت الخير والحقيقة. ولكنني لا أرى أنا هذا الذي ترون...

فقاطعه بطرس قائلًا:

- هل تؤمن بالحياة الآخرة؟

فكرَّر الأمير أندريه:

- الحياة الآخرة؟

ولكن بطرس لم يدع له وقتًا للإجابة، وعدَّ تكراره للسؤال نفيًا، لا سيما وأنه كان يعرف إلحاد الأمير أندريه. فقال:

- تقول إنك لا ترى ملكوت الخير والحقيقة على الأرض. أنا أيضًا كنت لا أراه. ولا يستطيع الإنسان أن يراه إذا كان يعد حياتنا نهاية كل شيء. **فعلى الأرض**[1] **لا حقيقة** (قال بطرس ذلك وهو يشير إلى البرّية حوله)، وكل شيء على الأرض شر وكذب. أما في الكون، في مجموع الكون فالحقيقة هي التي لها المُلك، ونحن لسنا أبناء الأرض إلّا لحظة، ولكننا أبناء الكون كله في الأبدية. ألا أشعر في قرارة نفسي بأنني جزء من ذلك الكل الواسع المتّسق المنسجم؟ ألست أحسّ بأنني في هذا العدد الضخم الذي لا يحصى من الموجودات التي تتجلّى بها الألوهية، أو قل تتجلّى بها القوة العليا إذا شئت؟ ولست إلّا حلقة صغيرة، ولست إلّا درجة في السلم الذي يمضي من الكائنات الدنيا إلى الكائنات العليا؟ إذا كنت أرى، وأرى رؤية واضحة، صعود هذا السلَّم من النبات إلى الحيوان، فكيف يجوز لي أن أفترض أنه ينتهي عندي، ولا يمضي صاعدًا فيتجاوزني؟ أنا أحسّ بأنني لا يمكن أن أزول، كما لا يمكن أن يزول شيء في الكون، وإنما سأبقى موجودًا، وأنني وُجدت دائمًا. أنا أحسّ بأن هناك موجودات غيري، وموجودات فوقي، هي أرواح تحيا، وأن الحقيقة ليست في هذا الكون.

قال الأمير أندريه:

- نعم: هذا مذهب هردر، ولكن ليس هذا ما سوف يقنعني يا عزيزي؛ الحياة والموت، ذلك ما يقنعني. إن ما يقنع المرء هو أن يرى إنسانًا عزيزًا عليه، تربطه به صِلات، وكان قد أساء إليه، وكان يرجو أن يستغفره (هنا

---

(1) مبرزة في الأصل.

اختلج صوت الأمير أندريه وأشاح وجهه)، ثم إذا بهذا الإنسان يتألّم ويتحمّل سوء العذاب ويغيب عن الوجود... لماذا؟ لا يمكن أن لا يكون هناك جواب عن هذا السؤال. أنا مؤمن بأنها موجودة ذلك ما يقنع، ذلك ما أقنعني.

قال بطرس:

- نعم، نعم، هذا بعينه ما أقوله.

- لا. أنا أعني أن الحجج والبراهين ليست هي التي تقنع المرء بضرورة الحياة الآخرة، وإنما ما أعنيه أن يسير في هذه الحياة مع إنسان آخر يدًا بيدٍ، ثم إذا هو يرى هذا الإنسان الآخر يغيب فجأة هناك، في العدم، فيتوقّف عندئذ أمام تلك الهوة، ويغوص فيها ببصره. وقد غصت أنا ببصري في تلك الهوة...

- إذًا؟ رأيت ما نسميه هناك، ورأيت أن هناك **أحدًا**[1]؟ إن ما نسميه هناك هو الحياة الآخرة، وأن ذلك الأحد هو الرب.

لم يجب الأمير أندريه. وكانت العربة والخيل قد بلغت الشاطئ الآخر والخيول قد قرنت بالعربة، وكانت الشمس قد غاب نصفها، وكان تجلد الماء في المساء يغطي البرك الصغيرة بنجوم، ولكن بطرس وأندريه كانا لا يزالان يتكلّمان ولا يغادران العَبّارَة، فأثار ذلك دهشة الخدم والحوذيين والنوتيين.

قال بطرس:

- إذا كان الرب موجودًا، وإذا كانت الحياة الآخرة موجودة فالحقيقة والفضيلة موجودتان أيضًا، وسعادة الإنسان القصوى إنما تكون عندئذ في محاولة الوصول إليها. يجب على الإنسان أن يحيا، يجب عليه أن يحب، ويجب عليه أن يؤمن بأن حياتنا ليست الحياة التي نعيشها على هذه القطعة من الأرض فحسب، وإنما نحن عشنا هناك منذ الأزل، وسنعيش هناك إلى الأبد، في الكل...

---

(1) مبرزة في أصل.

قال ذلك وهو يشير إلى السماء. وسكت بطرس. وخيّم صمت مطلق.

وكان أندريه متكئًا على درابزين العَبَّارَة، يصغي إلى كلام بطرس من دون أن يحوّل بصره عن حمرة انعكاس أشعة الشمس على صفحة الماء الأزرق. وكانت العَبَّارَة قد رست على الضفة منذ مدة طويلة، فليس يُسمع إلّا ارتطام الأمواج بقاعها. فكان يبدو للأمير أندريه أن هدير الأمواج هذا إنما كان صدى لأقوال بطرس: «هذا حق، آمن به».

وتنهّد الأمير أندريه، وألقى على وجه بطرس نظرة مضيئة حنونًا كنظرة طفل. وكان وجه بطرس مصطبغًا بحمرة شديدة، يُعبِّر عن الحماسة والحميّا. ولكنه لا يزال يُعبِّر أيضًا عن خوفه من تفوّق صديقه.

وقال أندريه أخيرًا:

- أرجو أن يكون الأمر كذلك.

ثم أضاف: هلمَّ نركب العربة.

وحين غادر العَبَّارَة شخَصَ ببصره إلى السماء التي أشار إليها بطرس، فرأى لأول مرة بعد أوسترلتز، رأى تلك السماء العالية الأبدية التي تأمّلها راقدًا على الأرض في ساحة المعركة، فإذا بشيء كان قد غفا زمنًا طويلًا، شيء كان خير ما فيه، إذا بهذا الشيء يستيقظ في نفسه فرحًا فتيًا على حين فجأة. لقد غاب هذا الشيء عنه منذ عاد إلى ظروف حياته الطبيعية، ولكنه كان يعلم أن هذه العاطفة التي لا يستطيع أن يشرحها ما برحت قائمة في نفسه.

كأن حديث الأمير أندريه مع بطرس فجّر حياة روحية جديدة، رغم أنه لم يظهر منها إلى الخارج ما يدل عليها أو ينبئ بها.

الفصل الثالث عشر

كان ظلام الليل يخيّم حين وقفت عربة أندريه وبطرس أمام الباب الكبير من أبواب ليسيبه جوري. فلفت أندريه نظر صاحبه إلى الاضطراب الذي أحدثه وصولهما. عند باب الخدمة كانت امرأة مسنة مقوسة الظهر، ورجل قصير طويل الشعر، قد هربا صوب الباب حين رأيا العربة، فتبعتهما في الهرب امرأتان، وصعد الأربعة سلم الخدمة راكضين وهم يلقون على العربة نظرات ارتياع.

قال الأمير أندريه:

- هؤلاء من «أولياء الله الصالحين» في نظر ماشا. لقد ظنّوا أننا أبي. في هذا الأمر وحده تعصي أختي أباها: فهو يأمر بطردهم وهي تحسن استقبالهم.

سأله بطرس: ولكن ما أولياء الله الصالحين هؤلاء؟

ولم يتسع الوقت لأن يجيب الأمير أندريه عن سؤال بطرس. فقد أقبل عليهما الخدم. فسألهم أندريه عن الأمير الشيخ أين هو، وهل يُنتظر وصوله بعد قليل.

كان الأمير الشيخ لا يزال في المدينة، ومن المتوقّع أن يصل بين لحظة ولحظة. وقاد الأمير أندريه صاحبه بطرس إلى شقته التي ظلت معدة لاستقباله في منزل أبيه، ومضى هو إلى غرفة الطفل. ثم عاد بعد برهة ليصحب بطرس إلى أخته، وقال له:

- هلم بنا إلى أختي. لم أرَها. إنها متوارية مع «أوليائها الصالحين». سوف تخجل حين نباغتها معهم، ولكنك تكون قد رأيتهم. شيء عجيب، أقسم لك.

قال بطرس سائلًا:
- ولكن ما أولياء الله الصالحون؟
فأجابه أندريه:
- سوف ترى.
اضطربت الأميرة ماريا فعلًا واصطبغ وجهها ببقع حمر حين رأتهما داخلَيْن عليها. كان في الغرفة المريحة التي تشتعل فيها قناديل أمام خزانة الأيقونات، شاب طويل الأنف طويل الشعر يرتدي ثوب راهب، قد جلس بقربها على الديوان أمام السماور. وكانت امرأة نحيلة لها وجه وديع كوجه طفل قد جلست إلى جانبهما على مقعد.
قالت الأميرة ماريا عاتبة عتبًا رقيقًا وهي تقف أمام هؤلاء الجوَّابين وقفة الدجاجة تحمي أفراخها:
- أندريه، لماذا لم تخبرني؟
وأضافت مخاطبة بطرس.
- سعيدة بلقائك ومبتهجة برؤيتك كل الابتهاج.
فقبّل بطرس يدها.
كانت ماريا قد عرفت بطرس طفلًا، وهي تحمل له الآن عواطف طيبة بسبب الصداقة التي تربطه بأخيها أندريه، وبسبب المصائب التي نزلت بحياته الزوجية، وبسبب ما في وجهه من طيبة وبساطة قبل كل شيء. ونظرت إليه بعينيها الجميلتين المضيئتين فكانت كمن تقول:
«أحبك كثيرًا، ولكن لا تسخرنّ بأصحابي هؤلاء، أرجوك».
وجلس الجميع بعد تبادل الملاطفات المألوفة.
قال الأمير أندريه مشيرًا إلى الجوَّاب الشاب وهو يبتسم:
- آ... إيفانوشكا هنا أيضًا!
قالت الأميرة ماريا بلهجة الضراعة: أندريه!
فقال الأمير أندريه لبطرس:
- يجب أنْ تعلم أن هذه امرأة.
فكرّرت الأميرة ماريا توسّلها قائلة:

- أندريه! ناشدتك الله!

وكان واضحًا أن كلمات الأمير أندريه استهزاء بالجوّابين، وشفاعات الأميرة ماريا دفاعًا عنهم كانت قد غدت عادة بين الأخ وأخته.

قال الأمير أندريه:

- ولكن يجب عليك يا صديقتي الطيبة أن تشكري لي أنني أشرح لبطرس صداقتك الحميمة مع هذا الشاب، لا أن تغضبي من ذلك!

قال ذلك وهو يتفرّس في وجه إيفانوشكا بدهشة رضية لا استهزاء فيها (وذلك أمر أثار في نفس ماريا شعور الشاكر)، بينما كان إيفانوشكا يجيل على الجمع نظرته الماكرة مدركًا أن الحديث يدور حوله.

والحق أن الأميرة ماريا كانت مخطئة كل الخطأ في خوفها على أصحابها الذين لم يكن يبدو عليهم أنهم يشعرون بشيء من الحرج. كانت العجوز خافضة عينيها، ولكنها تطوف ببصرها على القادمَيْن الجديدَين، وكانت جالسة في مقعدها جلسة هادئة بغير حركة، وقد قلبت فنجانها على صحنه، ووضعت بجانبه قطعة السكر التي قضمت جزءًا منها، منتظرة أن يُسكب لها مزيد من الشاي، وكان إيفانوشكا مستمرًا في احتساء الشاي رشفات صغيرة، ولكنه لا يغفل عن اختلاس النظر إلى الشابين بعينيه الماكرتين اللتين تشبهان عينَي امرأة.

قال الأمير أندريه يسأل العجوز:

- إلى أين ذهبت؟ إلى كييف؟

فأجابت العجوز بلطف وكياسة، وقد سرّها كثيرًا أن تحل عقدة لسانها:

- نعم يا ولدي، وفي يوم عيد الميلاد إنما سعدت بتناول القربان المقدس عند ضريح «الأبرار»... أما الآن فأنا قادمة من كوليازين[1]. وقد تجلّت فيها آية عظيمة من آيات الله...

---

(1) إن كييف هي المكان الذي يحج إليه الجوّابون الروس أكثر ما يحجون، وهناك يزورون في دير الأقبية المشهور، قبور «الأبرار» الاثني عشر. - وكوليازين بلدة صغيرة في إقليم تفير، فيها أيضًا دير شهير فيه «الثالوث الأقدس»، والحجاج يكثرون هناك، ولا سيما في عاشر جمعة بعد عيد الفصح.

- وإيفانوشكا، هل صحبكِ؟

فانبرى إيفانوشكا يقول محاولًا أن يجعل صوته صوتًا جهيرًا:

- لا أنا أسير في دربي متّجهًا إلى حيث أريد. ولم نلتقِ، أنا وبيلاجيوشكا إلّا في يوخنوف.

فقاطعت بيلاجيوشكا رفيقها، وكان واضحًا أنها تحب أن تحكي عمّا شهدته في كوليازين، وقالت:

- حدثت في كوليازين نعمة كبيرة يا بني.

فسألها الأمير أندريه:

- ماذا كانت تلك الآية؟ أظهرت رفات قديسين آخرين؟

قالت الأميرة ماريا:

- دعها يا أندريه! لا تتكلّمي يا بيلاجيوشكا!

فقالت العجوز: لماذا يا ابنتي؟ ما هذا الرأي الذي ترينه؟ إنني أحب أخاك كثيرًا. لقد هداه الرب فأعطاني عشرة روبلات، أذكر هذا. إنه محسن إلي. نعم، حين كنت في كييف، قال لي كيريوشا المجذوب، وهو من الأولياء الصالحين حقًّا، رجل يمشي حافي القدمين صيفًا وشتاء على السواء، قال لي: ما مقامك هنا؟ ليس هذا مكانك! اذهبي إلى كوليازين، فهناك أيقونة معجزة تجلّت فيها أم الرب. فودّعت الأبرار، ورحلت إلى كوليازين...

كان الجميع صامتين، وكانت المرأة التقية وحدها تتكلّم بصوت موزون وتتنفس تنفسًا عميقًا. وأضافت:

- وصلت، وقال لي الناس: حدثت آية عظيمة، فالبلسم المقدس يسيل من خد أم الرب المقدسة...

قالت الأميرة ماريا وقد احمرّ وجهها:

- طيب، طيب، ستروين لنا هذا في مرة أخرى.

وقال بطرس:

- اسمحي لي أن ألقي عليها سؤالًا: هل رأيت هذا بعينيك؟ فأجابت المرأة التقية:

- أعتقد بأنني رأيته يا ولدي. شُرِّفت برؤيته. وكان في وجهها إشعاع نور

سماوي، وكان البلسم يسيل من خدها، يسيل، ويسيل...

قال بطرس بسذاجة وكان قد أصغى إلى كلام المرأة التقية منتبهًا انتباهًا شديدًا: - ولكن هذا غِشّ...

فصاحت بيلاجيوشا تقول مرتاعة وهي تنظر إلى الأميرة ماريا نظرة من يلتمس الحماية:

- آه... بني... ما هذا الذي تقوله؟

فكرّر بطرس يقول:

- بهذا الأسلوب إنما يخدعون الشعب.

فقالت المرأة التقيّة وهي ترسم إشارة الصليب:

- يا سيدنا يسوع المسيح! آه... لا تقل هذا الكلام يا بني. إن الكلام الذي تفوّهت به قد نطق بمثله جنرال لم يؤمن بالآية فقال: «هذا خداع من الرهبان!»، فما إن نبس بهذه الكلمات حتى عميت عيناه. ثم رأى في الحلم أن العذراء المقدسة التي تجلّت في الأيقونة جاءت إليه وقالت له: «متى آمنت بي شفيتك». فأخذ يضرع قائلًا: خذوني إليها، خذوني إليها. هذه هي الحقيقة الحقّة أقولها لك. رأيت ذلك بنفسي. فأُخذ الجنرال إليها أعمى وأُوقف أمامها منتصب القامة، فدنا وركع يقول: «اشفيني! لأهبنَّ لك كل ما أعطانيه القيصر». رأيت نجمته معلّقة على الأيقونة. رأيت ذلك بعيني. واستردّ بصره. إنه لإثم أن تقول هذا الكلام. سيعاقبك الرب.

بهذه العبارة الأخيرة ختمت المرأة التقيّة كلامها في وقار. فقال بطرس يسألها:

- ولكن كيف تعلّقت النجمة بالأيقونة؟

وقال الأمير أندريه مبتسمًا:

- وهل فازت أم الرب برتبة جنرال؟

فاصفرّ وجه بيلاجيوشكا فجأة ورفعت ذراعيها إلى السماء، وقالت:

- يا بني، يا بني هذا إثم. إن لك ولدًا.

وانقلبت صفرة وجهها إلى حمرة. وتابعت تقول وهي تضرب يدًا بأخرى:

- ما هذا الذي تقوله يا بني! غفر الله لك. اللهم اغفر له.

ورسمت إشارة الصليب. ثم اتجهت بالكلام إلى الأميرة ماريا قائلة:

- ما معنى هذا يا ابنتي؟

ونهضت، وحملت كيسها وهي تكاد تبكي.

كان واضحًا أنها تشعر بهول شديد، وتحس بالخجل والعار من أنها قبلت ضيافة منزل يُقال فيه كلام كهذا الكلام، مع إحساسها في الوقت نفسه بالأسف لاضطرارها إلى الكف عن زيارته بعد الآن.

قالت الأميرة ماريا لأخيها:

- ما تلذّذك بهذه المناكدة! كان في إمكانك ألا تجيء.

قال بطرس:

- أنا ما أردت إلّا المزاح يا بيلاجيوشكا.

وأضاف يخاطب الأميرة قائلًا:

- أقسم لك يا أميرة إنني لم أشأ الإساءة إليها، وقد كان كلامي خاليًا من المكر.

وأردف يقول مبتسمًا في خجل راغبًا في إصلاح خطأه:

- لا تظني بي الظنون، فإنما كنت أمزح لا أكثر. أنا الذي بدأت المزاح، ولم يقصد هو إلّا أن يمزح أيضًا.

فتوقفت بيلاجيوشكا غير مصدّقة، ولكن وجه بطرس كان يُعبِّر عن ندم صادق، وكان الأمير أندريه ينظر تارة إليها وتارة إلى بطرس بلطف يبلغ من الرقة، إنها لم تلبث أن أخذت تهدأ شيئًا فشيئًا.

الفصل الرابع عشر

هدأت المرأة التقيّة، وعادت تتكلّم في ذلك الموضوع نفسه، فتحدّثت طويلًا عن الأب أنفيلوك الذي يعيش حياة تبلغ من القداسة أن يديه الغاليتين تنتشر منهما رائحة بخور، ثم ذكرت أنها في حجتها الأخيرة إلى كييف قد أعطاها رهبان من معارفها مفاتيح الأقبية التي تضم قبور الأبرار، فتزوّدت ببسكويت، وقضت مع الأبرار ثماني وأربعين ساعة. قالت: «كنت أصلي أمام واحد ثم أقرأ قليلًا، ثم أمضي إلى آخر. وكانت تأخذني سنة من نوم خفيف قصير، ثم ما ألبث أن أستيقظ وآخذ أقبِّل الأضرحة. وكان يخيم يا ابنتي هدوء عظيم، وكنت أشعر بهناءة طافحة تغمر نفسي، حتى صرت لا أحب أن أعود إلى رؤية نور الله».

كان بطرس ينصت إلى كلامها بانتباه وجد. وخرج الأمير أندريه. وقامت الأميرة ماريا وقادت بطرس إلى الصالون، تاركة أولياء الله الصالحين يفرغون من ارتشاف شايهم.

قالت الأميرة ماريا لبطرس: «أنت طيب جِدًّا».

- حقًّا ما أردت أن أسيء إليها، وإني لأفهم عواطفها وأحترم هذه العواطف أسمى الاحترام.

فنظرت إليه الأميرة ماريا من دون أن تقول شيئًا، وابتسمت ابتسامة رقيقة. ثم قالت:

- إنني أعرفك منذ زمن طويل، وأحبك كما تحب الأخت أخاها.

ثم أضافت تسأله متعجلة من دون أن تترك له وقتًا للرد على كلماتها اللطيفة:

- ما رأيك في حال أندريه؟ إنه يقلقني كثيرًا. كانت صحته في الشتاء أحسن، ونُكِئ جرحه في الربيع، فقال الطبيب إن عليه أن يستشفي في الخارج. وحالته النفسية تقلقني قلقًا شديدًا كذلك. هو ليس قادرًا، مثلنا نحن النساء، على أن يستنفد حزنه بالدموع وأن يسفحه إلى الخارج بالتعبير عنه، وإنما هو يحمل حزنه في نفسه. إنه اليوم مرح منتعش. ولكن زيارتك هي التي أحدثت في نفسه هذا الأثر. ويندر أن يكون على هذه الحال في العادة. ليتك تستطيع إقناعه بالسفر إلى الخارج. إنه في حاجة إلى نشاط، وهذه الحياة الهادئة التي تجري على وتيرة واحدة تقتله قتلًا. الآخرون لا يلاحظون هذا، ولكنني أنا أراه رؤية واضحة.

في نحو الساعة العاشرة هرع الخدم إلى درج المدخل حين سمعوا رنين جلاجل مركبة الأمير الشيخ، وتبعهم أندريه وبطرس.

سأل الأمير الشيخ حين نزل من العربة وأبصر بطرس: «مَنْ هذا؟».

فلما علم من هذا الشاب الذي لا يعرفه، قال:

- آ.... سعيد بلقائك. قبِّلني!

كان الأمير الشيخ رائق المزاج، فهشّ بطرس وأحسن استقباله ورحب به أجمل ترحيب.

وحين مر الأمير أندريه بحجرة أبيه قبل العشاء، رأى الأمير الشيخ منهمكًا في مناقشة حامية مع بطرس. كان بطرس يذهب إلى أن الحروب ستزول في وقت من الأوقات، وكان الأمير الشيخ يؤكّد نقيض ذلك، ويستهزئ برأي بطرس، ولكن من دون أن يكون استهزاؤه لاذعًا. قال الأمير الشيخ لبطرس:

- أفرغ الأوردة من دمها، ثم املأها ماء، فتزول الحروب. آراؤك هذه أوهام نساء، أوهام نساء.

ولكن الأمير الشيخ ربّت مع ذلك على كتف بطرس بمودّة وصداقة، وأقبل على الطاولة التي كان الأمير أندريه جالسًا إليها يقلِّب الأوراق

التي حملها أبوه من المدينة، وكان واضحًا أن الأمير أندريه لا يرغب في المشاركة في المناقشة.

انضم الأمير الشيخ إلى ابنه، وأخذ يكلمه في شؤون العمل؛ وقال:

- إن الكونت روستوف، مارشال النبالة في الإقليم، لم يستطع أن يقدّم نصف العدد المطلوب من الرجال. ولم يستحِ أن يجيء إلى المدينة يدعوني إلى الغداء، تصوّر!... ولكنني عرفت كيف أصده، وكيف أصرفه هو وغداؤه. أمور عجيبة!

وتابع الأمير الشيخ حديثه إلى ابنه فقال وهو يربت على كتف بطرس ملاطفًا:

- يعجبني صديقك الجسور هذا. لقد أحببته. انه يبث في نفسي الحماسة. ربّ شاب غيره يقول أشياء معقولة ثم لا يحب المرء أن يسمعه، أما هو فيقول آراء سخيفة، فيبث في نفسي الحماسة رغم شيخوختي. ثم أضاف: طيب. اذهبا الآن. وقد ألحق بكما وأنضم إليكما في العشاء. وسوف نتناقش أيضًا.

وفيما كان بطرس يخرج هتف يقول له:

- أحبب عزيزتي الحمقاء، الأميرة ماريا...

في ذلك الوقت، أثناء إقامته في ليسييه جوري، إنما استطاع بطرس أن يقدّر ما تشتمل عليه الصداقة التي تربطه بأندريه من قوة وفتنة. وكانت تلك الفتنة لا تنبع من علاقاتهما الشخصية بقدر ما تنبع من الصلات التي انعقدت بينه وبين الأسرة كلها وسكان المنزل جميعًا؛ وأحس بطرس دفعة واحدة بأن صداقته للأسرة صداقة قديمة، رغم أنه لم يكد يعرف الأمير الشيخ القاسي والأميرة ماريا الرقيقة الخجول إلّا منذ مدة قصيرة.

وكان الجميع قد أحبوه. لقد استولى على قلب الأميرة ماريا بما أظهره من لطف في معاملة أصحابها الجوّابين، فكانت تنظر إليه بعينيها المضيئتين نظرة مودّة صادقة. وحتى الأمير الصغير نيقولا، كما يسميه جدُّه، كان يبتسم له، ويحلو له أن يرتمي على ذراعيه. وكان ميخائيل إيفاتش ومادوموازيل

بوريين ينظران إليه مبتسمَيْن ابتسامات فرحة حين يجري الحديث بينه وبين الأمير الشيخ.

وقد انضم الأمير إلى العشاء، وكان واضحًا أنه إنما انضم تكريمًا لبطرس. وظل الأمير الشيخ خلال إقامة بطرس في ليسييه جوري التي دامت يومين، يعامله معاملة تفيض مودّة ومحبة، وقد دعاه إلى تكرار الزيارة.

وحين سافر بطرس واجتمع أعضاء الأسرة، أبدى كل واحد منهم رأيه فيه، كما يحدث دائمًا بعد رحيل زائر جديد، فلم يقل أحد فيه إلّا خيرًا، كما لا يحدث ذلك إلّا في النادر القليل.

الفصل الخامس عشر

حين عاد روستوف من إجازته أحسَّ لأول مرة بقوة الصلة التي تربطه بدينيسوف، وبالفوج كله.

لقد شعر عند اقترابه من المعسكر بعاطفة تشبه العاطفة التي أحسّها عند اقترابه من منزل أهله في شارع بوفارسكايا. وحين أبصر أول رجل من فرسان فوجه مرتديًا دولمانه حالّا أزراره، وحين تعرَّف ديمنتيف الأحمر، ورأى أوتاد الأحصنة الشقراء، وسمع لافروشكا يصرخ لمولاه فرحًا: «وصل الكونت»، وبصر بدينيسوف الذي كان نائمًا فهرع إليه من مخيّمه مشعَّث الشعر ليعانقه وقد أحاط به الضباط الآخرون، شعر بذلك الانفعال نفسه الذي شعر به يوم أخذت أمه وأخواته وأبوه يقبّلونه، فغصَّ بدموع الفرح فلم يستطع الكلام. لقد كان الجيش له بمثابة منزل آخر، منزل حبيب إلى نفسه عزيز على قلبه كمنزل أهله سواء بسواء.

وحين قدَّم نفسه لقائد الفوج ألحقه بكتيبته نفسها. فاستأنف قيامه بدوره حراسة وخدمة، أحسَّ وقد غرق مرة أخرى في مشاغل الفوج الصغيرة كافة، وشعر بالحرمان من الحرية، وبأنه حبيس إطار ضيّق ثابت، أقول أحسَّ بتلك الطمأنينة نفسها التي غمرته تحت سقف أبيه، وأحس بذلك الشعور نفسه بأنه مسنود مدعوم، وبأنه هنا في بيته، في مكانه، كما كان في منزل أبيه سواء بسواء. زد على ذلك أنه تخلّص هنا من فوضى الحياة الحرّة التي كان لا يجد فيها مكانه، ولا يحسن فيها الاختيار، وتخلّص هنا من همّ صونيا التي كان لا يدري أيجب أن تقوم بينه وبينها مكاشفة أم لا؛ وتخلّص من حرية الذهاب إلى مكان من دون مكان آخر؛ وتخلّص من تلك الأيام التي طولها

أربع وعشرون ساعة يستطيع أن يقضيها على أشكال شتى وصور مختلفة؛ وتخلص من تلك الجمهرة من الناس الذين لا يحس بأن واحدًا منهم أقرب إليه من آخر، ولا يحس بأن واحدًا منهم غريب عنه غربة تامة؛ وتخلص من تلك العلاقات المالية التي قامت بينه وبين أبيه مضطربة مشوَّشة غير محدَّدةً؛ وتخلّص من تذكر تلك الخسارة الرهيبة في القمار. فكل شيء هنا في الفوج بسيط وواضح. العالم كله ينقسم هنا قسمين غير متساويَين: أولهما فوج بافلوغراد الذي نحن منه، والثاني كل ما عداه. وما عداه لا يهمنا كثيرًا. وفي الفوج كل شيء معروف: فنحن نعرف في الفوج من هو ليوتنانت، ومن هو كابتن، من هو شاب طيّب ومن هو غير ذلك، ونعرف خاصّةً من هو الرفيق حقًّا. والقوَّام على الكانتين يبيعك دينًا، وسداد الدين يتم كلَّ ثلاثة أشهر. ولا حاجة هنا إلى التفكير ولا إلى الاختيار، وإنما يكفيك أن تمتنع عمَّ يُعدُّ في فوج بافلوغراد عارًا. وإذا كُلِّفت بمهمة فما عليك إلّا أن تنفِّذ أوامر واضحة دقيقة، فيجري كل شيء أحسن مجرى.

لقد شعر روستوف، حين استأنف روتين الحياة في الفوج، بتلك السكينة وذلك الفرح اللذين يشعر بهما المرء إذا هو رقد ليرتاح بعد طول عناء. وما زاد ارتياحه إلى الحياة في الفوج ومتعته بها أثناء الحملة الثانية أنه منذ خسارته في القمار (وذلك أمر لم يستطع أن يغفره لنفسه رغم جميع ما بذل أهله من جهود لمواساته)، قرر أن يقوم بواجباته في الجيش لا كما كان يقوم بها من قبل، وإنما هو يريد أن يقوم بها الآن على نحو يصلح خطأه ويكفر عن ذنبه، ويريد أن يكون رفيقًا وضابطًا نموذجًا، أي إنسانًا مستقيمًا شريفًا كأحسن ما تكون الاستقامة ويكون الشرف، وذلك أمر يبدو له عسيرًا كل العسر في المجتمع، يسيرًا كل اليسر في الجيش.

ولقد قرّر منذ الخسارة التي مُني بها في القمار أن يرد إلى أهله ما أصبح لهم عليه من دين، أن يردَّه إليهم في خمس سنين. لقد خصّوه بمعاش قدره عشرة آلاف روبل في السنة. لكنه عزم أمره على أن يكتفي بألفين، وأن يقف الباقي على سداد الدين.

وكان جيشنا يتجمع في بارتنشاين بعد أن تقدّم إلى أمام، وتراجع إلى

الوراء عدة مرات، وبعد معركة بولتوسك ومعركة برويستتش - آيلاو. وكان يُنتظر أن يصل الإمبراطور لبدء العمليات الحربية.

وكان فوج بافلوغراد ينتمي إلى جزء من الجيش شارك في حملة 1805؛ ولاضطراره إلى أن يستكمل عدده في روسيا، كان قد وصل متأخرًا، فلم يشهد العمليات الأولى، ولم يكن لا في بولتوسك ولا في برويستتش - آيلاو. وهو الآن جزء من مفرزة بلاتوف.

وكانت مفرزة بلاتوف تعمل مستقلة عن الجيش. ففي عدة مرات شارك فرسان بافلوغراد في مناوشات مع العدو، وأسروا منه أسرى، حتى إنهم اختطفوا في إحدى المرات قوافل تموين المارشال أودينو. وكانوا في شهر نيسان (أبريل) يعسكرون منذ عدة أسابيع بقرب قرية ألمانية مهجورة مهدَّمة تهديمًا كاملًا.

وبدأ ذوبان الجليد، ففي كل مكان وحل، والبرد شديد، والأنهار تقصَّف جليدها، والطرق أصبحت لا يمكن سلوكها. وبقيت الرجال والخيول عدة أيام لا توزَّع عليها مؤن وأعلاف. وصار وصول قوافل التموين مستحيلًا، فالجنود ينتشرون في القرى المقفرة المهجورة بحثًا عن البطاطس التي أصبحت هي أيضًا نادرة.

لقد أُكل كل شيء، وفرَّ جميع السكان. والذين لم يفروا كانوا أفقر وأشد بؤسًا من المتسوّلين، لم يبق عندهم ما يمكن أن يؤخذ منهم، حتى لقد أصبح الجنود - والجنود لا تأخذهم شفقة في العادة - يقاسمونهم آخر ما بقي لهم من فتات، بدلًا من أن يبتزّوهم.

لم يكن القتال قد ألحق بفوج بافلوغراد ضررًا، عدا جرح رجلين من رجاله، ولكن الجوع والمرض ذهب بنصف عدده. وكان دخول المريض إلى المستشفى يفضي به إلى موت محقّق، فلذلك كان الجنود الذين يورثهم سوء التغذية، حمى واستسقاء يفضلون أن يتابعوا الخدمة جارّين أنفسهم في الصفوف جرًّا شاقًّا أليمًا، على أن يدخلوا المستشفيات. وقد اكتشفوا عند حلول الربيع نبتة تشبه الهليون تطلع من الأرض، سمُّوها «جذر ماشكا الحلو» (لا يدري إلّا الله لماذا سمُّوها بهذا الاسم)، فأخذوا ينتشرون في

المروج والحقول بحثًا عن هذا الجذر الحلو (الذي كان في الواقع مرًّا مرارة شديدة)، فيخرجونه من التراب بسيوفهم ويأكلونه رغم الحظر الذي صدر إليهم بتجنّب هذه النبتة الضارة السامة. وانتشر في الربيع مرض جديد هو وَذَمَاتٌ تصيب الأيدي والأرجل والوجه عزاها الأطباء إلى أكل تلك النبتة. ولكن فرسان كتيبة دينيسوف كانوا رغم الحظر يأكلون جذر ماشكا الحلو أكثر ما يأكلون، لأن توزيع البسكويت مقنَّن منذ خمسة عشر يومًا، فلا تزيد حصة الرجل منه على نصف حصّة، كما أن بطاطس آخر شحنة من الشحنات التي وصلت إلى الفوج كانت قد تجلّدت وخربت.

والخيول أيضًا لم تذق من العلف منذ خمسة عشر يومًا إلّا قشَّ السقوف، فكانت كالهياكل العظمية هزالًا، وكان الشعر الذي يكسو أبدانها في الشتاء لمَّا يسقط بعد، وإنما هو تعقد عليها لبدًا.

ورغم هذه المبائس كلها، فقد ظلّت حياة الجنود والضباط تجري في مجراها، فهؤلاء الفرسان الذين اصفرَّت وجوههم وتورّمت وتمزقت بزاتهم وبليت، لا يزالون يحضرون الاجتماع بالرؤساء لتلقّي الأوامر، ولا يزالون يذهبون إلى المراحيض للعناية بنظافتهم، ولا يزالون يمشّطون الخيول، ويلمّعون العدَّة، وينتزعون قش السقوف علفًا، ويذهبون إلى حيث يأخذون نصيبهم من الحساء ليعودوا ساغبين، متندّرين مع ذلك على هزال طعامهم متمازحين عن فراغ بطونهم وشدة جوعهم. وعلى عادتهم دائمًا حين يفرغون من الخدمة، يشعلون النار، ويستدفئون عراة، ويدخّنون، ويفرزون من البطاطس المتعفنة ما يمكنهم أن يشووه، ويروون أو يسمعون ما يُروى عن حملات بوتمكين وسوفوروف، ومغامرات أليوشا الماكر وميكولكا أجير الكاهن[1].

والضباط يقيمون اثنين اثنين أو ثلاثًا ثلاثًا في بيوت مفتوحة على الرياح، نصف مهدمة. والضباط الكبار يهتمون بالمؤن قشًّا وبطاطس، فإطعام جنودهم هو أكبر همومهم. والمرؤوسون ينصرفون على عادتهم

---

(1) حكايات شعبية.

إلى اللعب، فمنهم من يلعب بالورق قمارًا (وكان المال يكثر إذا نقصت الأغذية)، وبعضهم يلعب ألعابًا بريئة بغير قمار، كلعبة «السفايكا»[1] أو لعبة «الأوتاد». وقلما يدور الحديث على سير العمليات الحربية، أولًا لأن أحدًا لا يعلم عنه شيئًا علم اليقين، وثانيًا لأن الجميع يحسون إحساسًا غامضًا بأنها لا تسير سيرًا حسنًا.

وكان روستوف لا يزال يقيم مع دينيسوف، وقد توثقت عرى الصداقة بينهما منذ إجازتهما مزيدًا من التوثق. وكان دينيسوف لا يكلّم روستوف عن أسرته أبدًا، ولكن روستوف كان يحسّ من العاطفة الرقيقة التي يحملها قائد الكتيبة لصاحبه الضابط في هذه الكتيبة أن الحب الشقيّ الذي ولّه قلب الفارس القديم بناتاشا كان له أثره في توثيق عرى الصداقة بينهما. فكان دينيسوف يرعى روستوف، وكان واضحًا أنه يُجنِّبه التعرض للأخطار ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وكان يفرح فرحًا عظيمًا بعد كل اشتباك كلما رآه سليمًا لم يمسسه من القتال أذى.

وفيما كان روستوف يقوم بإحدى مهماته وقع في قرية مقفرة خالية مهدمة على شيخ بولندي هرم ومعه ابنته تُرضع طفلًا. وكان الجميع يرتدون خرقًا رثة وأسمالًا بالية، وكانوا جائعين ساغبين، عاجزين عن السير، ولا يملك الشيخ الهرم ما يكتري به عربة - فاقتادهم روستوف إلى معسكره، وأسكنهم في بيت إلى أن أبلّ الشيخ من مرضه واسترد بعض قوته. وكان أحد رفاق روستوف يتكلم عن النساء في يوم من الأيام، فأخذ يتهكّم على روستوف، ووصفه بأنه أمكر جميع الضباط، وأن في وسعه أن يعرِّف الآخرين بالبولندية الجميلة التي أنقذها. فأخذ روستوف هذه المزاحة مأخذًا سيئًا، وثارت ثائرته وأخذ يقذف الضابط بكلام يبلغ من الغلظة أن دينيسوف بذل جهدًا كبيرًا بعد ذلك ليحول دون قيام مبارزة بين هذا الضابط وبين روستوف. فلما انصرف الضابط حاول دينيسوف - الذي كان يجهل

---

(1) وتد مغروس في الأرض يجب على اللاعب أن يرميه بحلقة لتدخل الحلقة في الوتد.

هو نفسه طبيعة العلاقات بين روستوف والفتاة البولندية يلوم روستوف على غضبته، أجابه روستوف بقوله:

- ما حيلتي... إنها لي بمثابة أخت، ولا أستطيع أن أعبِّر لك عن مدى الإساءة التي أحسست أنها أُلحقت بي، وعن مدى الإهانة التي شعرت بأنها مسَّتني... لأن... لأن...

فربت دينيسوف على كتفه، وأخذ يذرع الغرفة بخطى سريعة من دون أن ينظر إليه، وهذا ما يحدث له حين تهيج نفسه. وقال أخيرًا:

- يا لكم من أسرة لا تضم إلّا مختلِّين يا آل روستوف!

ولاحظ روستوف أن في عيني صاحبه دينيسوف كانت تترقرق دموعٌ.

الفصل السادس عشر

في شهر نيسان (أبريل)، استردت قطعات الجيش شيئًا من النشاط والحمية حين علمت بوصول الإمبراطور إلى قطعات الجيش. ولم تتح لروستوف فرحة شهود الاستعراض العسكري الذي قام به الإمبراطور في بارتنشتاين، إذ كان فرسان بافلوغراد يعسكرون بعيدين في المخافر الأمامية.

وكان دينيسوف وروستوف في المعسكر يقيمون في كوخ بالأرض حفره الجنود وغُطِّي بأغصان أشجار وأعشاب. وكان الكوخ مبنيًّا بالطريقة التالية التي كانت رائجة في ذلك الوقت: كانوا يحفرون خندقًا عرضه متر، وعمقه متر ونصف المتر، وطوله متران ونصف، ويجعلون له في أحد طرفيه درجات، وذلك هو المدخل، والخندق نفسه هو الغرفة؛ وفي آخر الغرفة بالطرف الآخر، إذا كان ساكن الغرفة عالي المنزلة، كقائد الكتيبة، ينصبون لوحًا من الخشب على أوتاد تُدق في الأرض، فيكون اللوح بمثابة مائدة، وفي جهتي الخندق يجعلون التراب عاليًا ستين سنتمترًا، وتلك هي السُرُر والدواوين، والسقف عالٍ علوًا يتيح للمرء أن يقف في وسط الغرفة، ويتيح له أن يجلس على السُرُر إذا هو كان قريبًا من المائدة، وكان مسكن دينيسوف باذخًا، لأن جنود كتيبته يحبّونه، فكان فيه لوح من الخشب عند سقف المدخل، وكان لوح الخشب مزوَّدًا بزجاج مكسور لكنه مجبور. فإذا كان البرد شديدًا جيء إلى الدرجات (وهي التي كان يسمّيها دينيسوف باسم الصالون) بصفيحة من حديد عليها جمر متّقد يؤخذ من نيران المخيمات، فيشيع الدفء في الكوخ إلى حد أن اضطر الضباط الذين يجتمعون عند دينيسوف - وهم كثر - أن يخلعوا أرديتهم، فلا تكسو صدورهم إلّا القمصان.

في شهر نيسان (أبريل) عاد روستوف إلى البيت نحو الساعة الثامنة من الصباح، بعد ليلة قضاها في الحراسة ساهرًا، فأمر أن يؤتى بجمر، وبدّل ملابسه لأنها كانت مبتلة، وشرب شايًا، واستدفأ، ورتّب أمتعته في ركنه وعلى الطاولة، واستلقى على سريره عاريًا إلّا من قميصه، جاعلًا يديه تحت رأسه. وأخذ يحلم متلذذًا بأنه سيُرفَّع رتبة في القريب بعد الاستكشاف الأخير الذي قام به، وينتظر دينيسوف الذي كان قد خرج والذي كان يحب روستوف أن يثرثر معه.

وإنه كذلك إذ هو يسمع أصواتًا تعلو الوراء الكوخ، فعرف أنه دينيسوف وقد ثارت ثائرته، واشتد غضبه، فدنا من النافذة ليرى على من يصب دينيسوف غضبه، فلمح الرقيب توبشاينكو.

كان دينيسوف يصرخ قائلًا:

- أمرتك بأن لا تدعهم يأكلون جذر ماشكا هذا. ثم هأنذا أرى لازارتشوك آتيًا به من الحقول.

فأجابه الرقيب:

- أبلغت الأمر يا صاحب السعادة، ولكنهم لا يطيعون.

عاد روستوف يرقد على السرير، وقال لنفسه متلذذًا: «فليتعب هو أيضًا. لقد فرغت أنا من مهمتي واستلقيت على مضجعي، فحسبي!». وها هو ذا يسمع الآن صوتًا آخر يمتزج بصوت الرقيب. إنه صوت لافروشكا المحنَّك الماكر، خادم دينيسوف. كان لافروشكا يتكلّم عن شحنات من البسكويت والبقر زعم أنه رآها حين كان ذاهبًا إلى التموين. وها هوذا دينيسوف يعود يصرخ الوراء الكوخ قائلًا وهو يبتعد: «أسرجوا خيولكم يا جنود الفصيلة الثانية!». فتساءل روستوف: «أين عساهم يذهبون؟».

وبعد خمس دقائق، دخل دينيسوف الكوخ، وصعد إلى سريره بجزمتيه الوسختين، ودخن غليونًا وقد بدا في وجهه غضب شديد، وقلب أمتعته كلها حتى أخذ منها سوطه وسيفه، وتهيأ للخروج. فلما سأله روستوف إلى أين هو ذاهب أجابه بلهجة غامضة خشنة أن عليه عملًا يجب أن يؤدّيه. وقال وهو يخرج:

- ألا فليحكم عليَّ الرب والإمبراطور العظيم!

وسمع روستوف وقع حوافر خيول عدة تخوض في الوحل الوراء الكوخ. فلم يهمّه أن يعرف إلى أين يذهب دينيسوف. وأحسّ بالدفء في ركنه فنام، ولم يخرج إلّا في المساء. لم يكن دينيسوف قد عاد. وكان الجوّ قد تحسّن. وعلى مقربة من الكوخ المجاور كان ضابطان ومرشَّح يلعبون «اسقايكا» وهم يزرعون في الأرض الموحلة الرخوة لفتًا فانضم روستوف إليهم. وبينما هم يلعبون إذ رأوا عربات نقل مقبلة نحوهم، والوراءها زهاء خمسة عشر رجلًا من سلاح الفرسان يتبعونها ممتطين ظهور أحصنتهم. وأصبحت العربات وحرسها قريبة من الأوتاد، فأحاطت بها طائفة من الفرسان.

قال روستوف:

- هيه! ها هي ذي المؤن تصل، فما كان أغنى دينيسوف عن ذلك الزعل كله!

قال الضباط:

- فعلًا ما أعظم الفرح الذي سيشعر به الجنود!

وبعد وصول الفرسان بمدة قصيرة، أقبل دينيسوف ومعه ضابطان من ضباط سلاح المشاة يحادثونه ويحاورونه. فهب روستوف إلى لقائه.

كان أحد الضابطين وهو رجل قصير هزيل يقول لدينيسوف ظاهر الغضب:

- إنني أحذّرك يا كابتن!

فأجابه دينيسوف:

- قلت لك إني لن أردّ شيئًا.

- سوف تحاسَب على هذا يا كابتن. إن خطف شحنات من المؤن مرسلة إلى رفاق في السلاح لهو تمرّد وعصيان. إن رجالنا لم يطعموا شيئًا منذ يومين.

فأجابه دينيسوف:

- ورجالي لم يطعموا شيئًا منذ خمسة عشر يومًا.

فكرر ضابط سلاح الجو يقول رافعًا صوته:

- هذا عمل من أعمال قطاع الطرق يا سيد!

- هلا كففت عن إزعاجي؟ هه؟

كذلك صرخ دينيسوف وقد اهتاج فجأة، ثم أضاف يقول صائحًا:

- أنا الذي سأحاسَب لا أنت. اخرس، وإذا كنت حريصًا على سلامة جلدك! انصرف!

فهتف الضابط القصير يقول من دون اهتياج:

- حسنًا جِدًّا! هذا عمل من أعمال قطاع الطرق والسرقة. إنني...

- اذهب إلى الشيطان، وأسرع في الذهاب مزيدًا من الإسراع قبل أن يسقط رأسك عن كتفيك...

قال دينيسوف ذلك وهجم بحصانه على الضابط. فقال الضابط بلهجة التهديد وهو يلوي زمام حصانه ويفر خببًا، مرتجًّا على سرجه:

- طيب، طيب!

وصرخ دينيسوف الوراءه بالشتائم:

- كلب على سياج من قصب، ما أنت حقًّا إلّا كلب على سياج من قصب...

وتلك في الواقع أكبر سخرية يوجهها فارس إلى رجل من المشاة ركب حصانًا.

واقترب دينيسوف من روستوف، وانفجر ضاحكًا، وقال:

- خطفتها من سلاح المشاة. انتزعت منهم شحنات مؤنهم عنوة. لا يريد أحد على كل حال أن يفطس رجالنا جوعًا.

كانت قافلة المؤن التي وصلت إلى الفرسان مرسَلة إلى فوج من الأفواج المشاة، ولكن دينيسوف، وقد علم من لافروشكا أن القافلة ليس يحرسها حرس، مضى إليها هو ورجاله واستولى عليها بالقوة فوزع البسكويت على الجنود بغير حساب، حتى لقد أشركت فيه كتائب أخرى.

فلما كان الغد قام الكولونيل باستدعاء دينيسوف، وقال له حاجبًا عينيه بأصابعه المتباعدة:

- إليك رأيي. أنا لا أعرف شيئًا، ولا أريد أن أتدخّل في الأمر. ولكنني أنصحك بأن تذهب إلى الأركان العامة لتسوّي هذه القضية مع مدير التموين وأن توقّع له - إذا أمكن ذلك - إيصالًا تقر فيه بأنك استلمت كميات من المؤن هي كيت وكيت. وإلا حسبت الشحنة على فوج المشاة، فقامت مشكلة قد تكون لها عواقب سيئة.

خرج دينيسوف من عند الكولونيل، فمضى إلى الأركان العامة على الفور، راغبًا في إتباع نصيحته. حتى إذا كان المساء رجع إلى كوخه على حال لم يسبق لروستوف أن رأى صديقه على مثلها في يوم من الأيام قط. كان دينيسوف عاجزًا عن الكلام. كان يختنق. فلما سأله روستوف عمَّ به، لم يزد على أن أطلق من صدره شتائم وتهديدات بصوت أجش ضعيف.

فارتاع روستوف لمنظره، وحمله على أن يخلع ثيابه، وأن يشرب شيئًا من الماء، وأرسل يستدعي طبيبًا.

- يحكم علي بأنني قمت بعمل من أعمال قطع الطرق، والسلب والنهب. آه... أعطني مزيدًا من الماء. طيب!... فليحكموا علي... لن يمنعني ذلك من أن أهزم هؤلاء الأوغاد السفلة. سأحكي للإمبراطور كل شيء. أعطني ثلجًا.

أعلن الطبيب الميجر أنه يجب فصده فعمدوا إلى ذراع دينيسوف الغزير شعره، فحجموها فأنزفوا منها ملء صحن من دم أسود، وبعد ذلك إنما أصبح دينيسوف قادرًا على أن يروي ما حدث. قال:

- وصلت. وسألت: «أين رئيسكم إذًا؟». فدلّوني عليه، وقالوا لي: «انتظر من فضلك». قلت: «عليَّ أعمال يجب أن أقوم بها. قطعت ثلاثين فرسخًا لأجيء إلى هنا. لا يتّسع وقتي للانتظار. أبلغوا الرئيس عن وصولي. فماذا كان؟ كان أن دخل رئيس اللصوص هذا، وحشر نفسه في تلقيني درسًا. قال: «هذا عمل من أعمال قطاع الطرق والسلب والنهب». قلت: «قاطع الطرق ليس ذلك الذي يأخذ مؤنًا لإطعام رجاله، بل هو الذي يستولي على مؤن لملء جيوبه!»، فأمرني بأن اسكت. وقال: «هيا وقع إيصالًا لمفوض المؤن، وستجري قضيتك في مجراها». ذهبت إلى المفوض. دخلت عليه.

فهل تتصوّرون من هو مفوض المؤن هذا الذي يميتنا جوعًا؟ احزروا... احزروا...

قال دينيسوف ذلك صارخًا وهو يضرب الطاولة بيده المريضة الموجعة ضربة بلغت من القوة أن الطاولة أوشكت أن تنقلب، وان الأقداح تصادمت. وأضاف يقول:

- هو تليانين. قلت: «كيف؟ أأنت إذًا من يميتنا جوعًا؟». وأخذت أكيل له اللكمات على خطمه. لكمات في محلها! فطفق يصرخ شاتمًا: «آه... يا لك من...». وعدت أؤدّبه! أدّبته فرحًا كل الفرح!

صرخ دينيسوف يقول هذه الجملة الأخيرة كاشفًا عن أسنانه البيضاء تحت شاربيه السوداوين، فرحًا فرح وحش كاسر. وأضاف يقول:

- كان يمكن أن أجهز عليه لولا أن انتزعوه من بين يديَّ انتزاعًا.

قال له روستوف:

- ولكن لا تصرخ هذا الصراخ. انظر إلى الدم كيف عاد يسيل اهدأ قليلًا. يجب تجديد الضماد.

وأعيد تضميد ذراع دينيسوف، وأُرقد على السرير. وفي الغد استيقظ مرحًا هادئًا.

ولكن ضابط الأركان العامة جاء في الظهر إلى الكوخ المشترك الذي يقيم فيه دينيسوف وروستوف، جاء جاد الهيئة رصين الوجه، وسلّم إلى الميجر دينيسوف، على أسف ومضض، ورقة رسمية من الكولونيل يطلب فيها أيضًاحات عن حادث الأمس.

وذكر ضابط الأركان أن القضية قد تجري مجرى سيئًا كل السوء، وأن لجنة تحقيق قد تشكّلت، وأن الأمير يمكن أن ينتهي، في أحسن تقدير، إلى تجريد دينيسوف من رتبته العسكرية، بسبب صرامة الأنظمة المطبقة في حق مرتكبي أعمال السلب والنهب، وفي حق من لا يلتزمون واجبات الطاعة والانضباط في الجيش.

وذكر ضابطُ الأركان أن المشتكين يقولون إن الميجر دينيسوف، بعد أن استولى على قافلة المؤن. ذهب إلى المفوض العام للتموين من دون

استدعاء، وطفق يشتمه، ووصفه بأنه سارق. وهدد بضربه: فلما أخرجوه من عنده هرع إلى أحد المكاتب. وهجم على اثنين من الموظفين يضربهما ضربًا شديدًا وخلع ذراع أحدهما.

وحين القى روستوف على دينيسوف أسئلة جديدة: أجابه دينيسوف ضاحكًا بأنه يبدو له أن شخصًا آخر قد وقع بين يديه فعلًا، ولكن هذا كله لا قيمة له ولا شأن. وإأنه لن يخشى المحاكم. وأن هؤلاء الأشقياء الأوغاد إذا أرادوا أن يهاجموه فسيرد عليهم بما لن ينسوه طوال حياتهم.

كان دينيسوف يتكلّم عن هذه القضية كلها باستخفاف. ولكن من كان يعرفه حق معرفته، لم يفته أن يلاحظ أنه في قرارة نفسه (على محاولته كتمان ذلك) كان يخشى أن يواجه القضاء، وكانت هذه القضية تقلقه إقلاقًا شديدًا، وهي قضية كان واضحًا أنها ستكون لها عواقب وخيمة.

وأخذت تصل دينيسوف في كل يوم أسئلة عن أمور يجب أن يجيب عنها. وصار يُستدعى مرة بعد مرة، حتى إذا كان اليوم الأول من شهر أيار (مايو)، أُمر بأن يسلم قيادة الكتيبة إلى أقدم الضباط رتبة، وأن يمثل أمام هيئة أركان الغرفة ليحاسب عن أعمال العنف التي اقترفها في مفوضية المؤن. وكان بلاتوف، في عشية ذلك اليوم قد قام باستكشاف مع فوجين من القوزاق وكتيبة من الفرسان. وكان دينيسوف، الجسور المتهوّر على عادته، قد أوغل في التقدّم إلى أمام أثناء ذلك الاستكشاف فأصابته في فخذه رصاصة انطلقت من صفوف القنّاصة الفرنسيين.

لو كان دينيسوف في ظروف أخرى، لما ترك الفوج بسبب جرح طفيف كهذا الجرح في غالب الظن، ولكنه استغلّ الفرصة، ورفض أن يمثل أمام هيئة أركان الغرفة طالبًا نقله إلى المستشفى.

الفصل السابع عشر

وقعت معركة فريدلاند[1] في شهر حزيران (يونيو)، ولم يشترك فيها فرسان بافلوغراد. وأعقبتها هدنة. وكان روستوف، الذي لم يتلقَّ أية أنباء عن صديقه دينيسوف منذ رحيله، قلقًا عليه، فهو لا يعرف ما آلت إليه قضيته، ولا يعرف ما صار إليه جرحه، وكان يحسّ بغيابه إحساسًا قويًّا أليمًا، فانتهز فرصة الهدنة فطلب إذنًا بالذهاب إلى المستشفى ليعود دينيسوف.

وكان المستشفى يقع في ضيعة بروسية أتلفتها الجيوش الروسية والفرنسية مرتين. وكان منظر هذه الضيعة بسقوفها المنهارة، وأسجيتها المخربة، وشوارعها الملأى أقذارًا، وسكانها الذين يجوبونها لابسين أسمالًا بالية، والجنود الذين يتجوّلون فيها سكارى أو مرضى، منظرًا محزنًا مؤلمًا لا سيما وأنه فصل الصيف، وأن البرّية في فصل الصيف جميلة أكبر الجمال.

والمستشفى منزل من حجر، له نوافذ ذات زجاج مهشَّم بعضه، وله حوش تحيط به بقايا سياج. فكان عدد من الجنود الشاحبة وجوههم المتورّمة أبدانهم، المضمَّدة جراحهم، يطوفون في الحوش، أو يستدفئون بالشمس.

ما إن اجتاز روستوف العتبة حتى أخذت بخناقه رائحة لحم نتن ومستشفى. وفيما هو يصعد السلم لقي طبيبًا - ميجر روسيا، واضعًا بين شفتيه سيجارًا، ورأى الوراء الطبيب ممرضًا.

---

(1) وقعت هذه المعركة بقرب كونغسبرغ في بروسيا، يوم 13 حزيران (يونيو) من سنة 1807، وانتهت بانتصار نابوليون على بينغسن، وكانت خاتمة حملة سنة 1807.

كان الطبيب يقول:

- لا أستطيع أن أنشطر فأصير أربعة. تعال هذا المساء إلى عند ماكار ألكسيفتش، فسأكون أنا هناك.

فألقى عليه الممرض سؤالًا. فأجابه:

- افعل ما تراه مُناسبًا. ما عسى ينتج عن هذا!

ولمح روستوف صاعدًا السلم، فقال يسأله:

- ماذا تريد سيادتك؟ ما مجيئك إلى هنا؟ نجوتم من الرصاص، فتريدون أن تصابوا بمرض التيفوس؟ هنا يا عزيزي وكر أمراض حقًّا!

سأله روستوف.

- كيف هذا؟

- التيفوس يا عزيزي. كل من يدخلون إلى هنا فالموت نصيبهم. لم يبق منا إلّا نحن الاثنين، أنا وماكاييف (قال ذلك وهو يدله على الممرض). خمسة من زملائي فارقوا الحياة. وحين يصل زميل جديد لا يمهله الموت أكثر من ثمانية أيام.

قال الطبيب ذلك وهو يشعر باعتزاز. وأضاف:

- وطالما طلبنا أطباء بروسيين، ولكن حلفاءنا الطيبين لا يجيبون!...

ذكر له روستوف أنه يريد أن يعود ضابط سلاح الفرسان، الميجر دينيسوف، الذي يعالج في هذا المستشفى. فأجابه الطبيب بقوله:

- لا أعرفه يا عزيزي. تصوّر أنني أقوم وحدي على مرضى ثلاثة مستشفيات، يربو عددهم على أربعمائة، ومن حسن طالعنا على كل حال أن سيدات بروسيات محسنات يرسلن إلينا قهوة وخرقًا للتضميد، رطلين في الشهر. فلولا ذلك لهلكنا!

قال ذلك وانفجر يضحك. ثم تابع كلامه يقول:

- أربعمائة يا عزيزي، وفي كل يوم تُرسل إليَّ أعداد أخرى.

وقال يسأل الممرض:

- عددهم الآن أربعمائة، أليس كذلك؟

كان الممرض منهوكًا. وكان واضحًا لمن يراه أنه ينتظر متبرمًا متململًا أن ينصرف الطبيب الذي زادت ثرثرته وطال هذره.

عاد روستوف يقول مكرِّرًا:

- الميجر دينيسوف، جُرح في مولتين.

فقال الطبيب بغير اكتراث:

- أظن أنه مات. أليس كذلك يا ماكايف؟

ولكن الممرض لم يؤيّد أقوال الطبيب. وقال الطبيب سائلًا:

- كيف شكل صاحبك دينيسوف؟ أهو طويل القامة أحمر اللون؟

فوصف روستوف هيئة صاحبه دينيسوف. فقال الميجر كالمرح:

- كان هنا رجل بهذه الأوصاف. أظن أنه مات. سأتثبت من الأمر على كل حال. كان عندي قوائم. هل هي معك يا ماكايف؟

فأجاب الممرض.

- بل هي مع ماكار ألكسيفتش.

ثم أضاف مخاطبًا روستوف:

- ولكن الأفضل أن تذهب إلى صالة الضباط فتبحث بنفسك، فتتثبّت مما تريد التثبّت منه.

قال الميجر:

- هيه! خير لك ألا تذهب إلى تلك الصالة، فقد تبقى فيها ولا تخرج منها.

ولكن روستوف ودَّع الطبيب، وطلب من الممرض أن يقوده إلى صالة الضباط.

وصاح الطبيب يقول له من أسفل السلَّم:

- لا تلمني إذا حدث لك مكروه!

ودخل روستوف والممرض في دهليز. إن رائحة المستشفى التي تفوح في هذا الدهليز المظلم تبلغ من القوة أن روستوف سدَّ أنفه، واضطر أن يتوقف قليلًا ليسترد قدرته على استئناف السير. وبينما كانا يسيران في الدهليز إذ فُتح باب على اليمين، وظهر في عتبته رجل هزيل أصفر

القدمين، عارٍ إلّا من الألبسة الداخلية، متوكئ على عكازتين، مستند إلى كفاف الباب، فنظر إلى القادمين بعينين ملتمعتين تفيضان حسدًا. وألقى روستوف نظرة على الصالة فرأى المرضى والجرحى راقدين فيها على الأرض فوق قش ومعاطف.

قال يسأل:

- هل أستطيع أن أدخل فأرى؟

فقال له الممرض:

- ليس ثمة ما يُرى.

ولكن روستوف اجتاز عتبة هذه الصالة الموقوفة على الجنود، لا لشيء إلّا لأنه كان واضحًا أن الممرض لا يريد أن يدعه يدخل إليها. إن الرائحة التي كان روستوف قد انتهى إلى التعوّد عليها في الدهليز هي هنا أشد وأقوى، وإذا كانت تختلف عن رائحة الدهليز بعض الاختلاف، فإن المرء يحس بأن هذا هو المكان الذي تخرج منه الرائحة إلى الدهليز.

كان المرضى والجرحى في هذه الغرفة التي تدخلها الشمس من النوافذ فتنيرها إنارة ساطعة، يرقدون صفَّين بينهما ممر، ورؤوس المرضى في كلا الصفَّين تحاذي الجدار. وكان أكثر المرضى في غيبوبة، فلم ينتبهوا إلى الداخلين عليهم أي انتباه. أما الذين كانوا أصحاء فقد أنهضوا أجسامهم أو رفعوا وجوههم الهزيلة الصفراء معبِّرين جميعًا بقسماتهم عن معانٍ واحدة، هي الأمل في إغاثة، واللوم على الإهمال، وحسد الآخرين على ما ينعمون به من سلامة الصحة وحسن العافية. وكانوا كلهم ينظرون إلى روستوف ولا يحوِّلون أبصارهم عنه. تقدّم روستوف إلى وسط الصالة، وألقى نظرة من الباب المفتوح على الصالات المجاورة، فرأى في الجهتين ذلك المنظر نفسه، فوقف يجيل النظر حواليه صامتًا. لم يكن يتوقع أن يرى ما يراه. هذا مريض لا بد أنه قوزاقي (تدلّ على ذلك قصَّة شعره) مستلقٍ أمامه بالعرض على الأرض العارية، فيكاد يسد الممر. إنه راقد على ظهره مادًّا ذراعيه الضخمتين وساقيه الكبيرتين مدًّا كاملًا، وقد احمر وجهه احمِرارًا شديدًا حتى صار بلون القرمز، فلا يرى المرء إلّا بياض عينيه المنقلبتين انقلابًا تامًّا،

وعلى ساقيه وذراعيه العاريتَيْن، المحمرة احمِرارًا شديدًا كذلك انتفخت أوردته فكأنها حبال. وها هو ذا يلطم أرض الغرفة (بقذاله)، ويلفظ كلامًا بصوت أبحّ، ويكرر هذا الكلام مرة بمد مرة. فأصاخ روستوف بسمعه إليه فأدرك الكلام الذي كان يكرره، وهو: أريد أن أشرب، أريد أن أشرب. فأجال روستوف بصره باحثًا عمَّن يمكن أن يعيد المريض إلى مكانه وأن يعطيه ما يشربه. وقال يسأل الممرض:

- من المكلَّف بالعناية بالمرضى هنا؟

فإذا بخادم الصالة، وهو جندي من سلاح النقل، يخرج من الغرفة المجاورة بخطى موزونة، ويقف أمام روستوف وقفة التهيؤ، ويصيح محملقًا عينيه محدّقًا إلى روستوف:

- يومك سعيد يا صاحب السعادة!

كان واضحًا أنه ظن روستوف أحد رؤساء المستشفى. فقال له روستوف وهو يريه القوزاقي:

- انقله إلى مكانه، وأعطه ماء.

فأجاب الجندي مسرورًا وهو يحملق بعينيه، وينصب قامته بمزيد من النشاط والحمية:

- أمرك مطاع يا صاحب السعادة.

ولكنه لا يتحرّك من مكانه. فقال روستوف لنفسه: «لا عمل لي هنا قطعًا». وفيما كان يهم أن يخرج إذ هو يحسّ على يمينه بنظرة مسدّدة إليه، فالتفت إلى اليمين، فرأى في آخر الصف جنديًا عجوزًا قد جلس على معطفه.وجعل يحدّق إليه. إن وجه العجوز يشبه أن يكون وجه جثة، وهو إلى ذلك وجهٌ قاسٍ له لحية شائبة. كان أحد جيرانه يكلّمه مدمدمًا ويشير له إلى روستوف. فأدرك روستوف أن الشيخ العجوز يريد أن يطلب منه شيئًا. فأقبل عليه، فرأى أنه ليس له إلّا ساق واحدة قد ثناها تحته، وأن الساق الأخرى مبتورة من فوق الركبة. وكان يجاوره جندي آخر، بعيد عنه بعض البعد، مسجّى على الأرض لا يتحرّك، منكفئ الرأس إلى الوراء، منقلب العينين. إنه جندي شاب أفطس الأنف، لا يزال وجهه مغطى ببقع حمر.

ولكنه أصفر كصفرة الشمع. فأقبل روستوف يتفرَّس فيه، وشعر بقشعريرة باردة تسري في ظهره.

قال للممرض:

- أظن أنه...

فانبرى الجندي الشيخ يقول وقد أخذ فكه الأسفل يرتعش:

- لطالما توسّلنا وتضرعنا يا صاحب السعادة. لقد مات في هذا الصباح. نحن بشر لا كلاب على كل حال...

أسرع الممرض يقول:

- فورًا، فورًا، سوف ننقله، سوف ننقله. تعال يا صاحب السعادة.

قال روستوف متعجلًا:

- هلمَّ بنا، هلمَّ بنا.

وخرج خافضًا عينيه، مصغِّرًا جسمه، محاولًا أن يمرَّ من دون أن يلاحظ تحت نار هذه النظرات الشاخصة إليه، الزاخرة لومًا وحسدًا.

الفصل الثامن عشر

في آخر الدهليز، أدخل الممرض روستوف إلى صالة الضباط، وهي تتألف من حجرات ثلاث مفتوحة الأبواب. إن في هذه الصالة أسرةً كان الضباط الجرحى والمرضى مضطجعين عليها أو جالسين. وكان بعضهم يتجول في القاعة طولًا وعرضًا مرتدين معاطف المستشفى.

إن أول شخص وقع عليه بصر روستوف رجل قصير هزيل أكتع، يضع على رأسه طاقية من قطن، ويرتدي معطف المستشفى، ويذرع الغرفة وفي فمه غليون قصير. فلما تفرَّس روستوف في وجه هذا الرجل حاول أن يتذكر أين سبق أن رآه.

قال الرجل القصير:

- آ... انظر كيف نلتقي! أنا توشين، توشين، هل تتذكّرني؟ أنا الذي أخذتك إلى شونغرابن..

وأضاف يقول وهو يريه كمَّه الخالي، ويبتسم:

- لقد بتروا لي قطعة... انظر...

ثم أردف وقد عرف عمَّن يبحث روستوف:

- تبحث عن فاسيلي ديمتري دينيسوف؟ نحن رفيقا غرفة واحدة. هو هنا. هو هنا.

واقتاده توشين إلى الغرفة المجاورة، وكانت تصل منها ضحكات وقهقهات.

سأل روستوف نفسه: «كيف يستطيعون أن يعيشوا هنا، ناهيك عن أن يضحكوا؟».

ألقى روستوف على نفسه هذا السؤال وكانت لا تزال تلاحقه رائحة اللحم الميت التي امتلأ بها منخراه منذ كان في صالة الجنود، ولا تزال ترافقه تلك النظرات الحاسدة المسدَّدة إليه من صفين من الأعين، ولا يزال يطارده منظر ذلك الجندي الشاب المنكفئ رأسه إلى الالوراء، المنقلبة عيناه.

كان دينيسوف نائمًا في سريره، دافنًا رأسه في الغطاء، رغم أن الساعة تجاوزت الحادية عشرة.

هتف دينيسوف مرحّبًا بذلك الصوت نفسه المعهود فيه أيام كان في الجيش:

- هـا... روستوف! أهلًا.. أهلًا.

ولكن روستوف رأى بحزن شديد أن الوراء هذه الحرارة وهذه الطلاقة المألوفة، شعورًا جديدًا بحرارة مكظومة ومضض خبيء تدل عليهما قسمات وجه دينيسوف، وتدل عليهما نبراته وكلماته.

لم يكن جرحه قد التأم بعد، رغم أنه جرح طفيف، ورغم أن ستة أسابيع قد انقضت على إصابته بهذا الجرح الطفيف. وكان وجهه أصفر متورمًا كوجوه سائر نزلاء المستشفى. ولكن ليس هذا هو ما خطف بصر روستوف، وفاجأ شعوره. إن ما خطف بصره وفاجأ شعوره هو أن دينيسوف لا يبدو عليه أنه سُرَّ برؤيته، وأنه يبتسم له ابتسامة يكره نفسه عليها إكراهًا. ولم يسأله لا عن الفوج ولا عن سير العمليات، وحين تكلّم روستوف عن ذلك لم يصغِ دينيسوف إلى كلامه. حتى لقد لاحظ روستوف أن كل إشارة إلى الجيش، بل إلى حياة الحرية التي يحياها الناس خارج جدران المستشفى كان تضايقه. لكأنه يجهد أن ينسى تلك الحياة القديمة، ولا يعنيه شي إلّا القضية القائمة بينه وبين رجال إدارة التموين. فلما سأله روستوف عن المرحلة التي وصلت إليها هذه القضية، أسرع يستل من تحت مخدته ورقة تلقاها من المفوضية، ومسودَّة رده على ما ورد في تلك الورقة. وقد انتعش ونشط حين أخذ يقرأ لروستوف هذا الردَّ الذي أعدّه، ولفت نظره خاصّةً إلى الوخزات التي يطعن بها خصومه. وكان رفاق دينيسوف في المستشفى قد أحاطوا في أول الأمر بروستوف، هذا القادم من خارج المستشفى، فما إن

أخذ دينيسوف يقرأ ورقته حتى تفرّقوا بعضًا الوراء بعض. وأدرك روستوف من النظر في وجوههم أنهم كانوا جميعًا قد سمعوا مِرارًا هذه القضية التي صدعت رؤوسهم. ولم يبق أحد يصغي إلى قراءة الورقة إلّا جار دينيسوف في السرير، وهو «أوهلان» ضخم الجسم جلس على سريره يدخّن غليونه ويقطب حاجبيه مكفهرّ الهيئة مربدَّ الوجه، وكذلك الأكتع القصير توشين الذي كان يهز رأسه مستنكرًا.

قاطع «أوهلان» دينيسوف قائلًا لروستوف:

- أرى أن خير ما يفعل هو طلب الرأفة من الإمبراطور. يقال إن مكافآت كثيرة ستُوزّع، ولا شك أنه سيصدُر عفو...

فاعترض دينيسوف قائلًا بلهجة أراد أن يودعها كل ما كان له في الماضي من طاقة ومن حيوية، ولكنها لم تشتمل إلّا على حنق لا طائل تحته.

- أنا أطلب الرأفة من الإمبرإطور؟ لو كنت لصًّا قاطع طريق لطلبت العفو عني، ولكنهم لا يحكمون عليَّ إلّا لأنني كشفت النقاب عن وجوه اللصوص قطاع الطرق. فليحكموا عليَّ. إنني لا أخشى أحدًا. لقد خدمت القيصر والوطن بشرف واستقامةِ وأمانة. ما أنا لصٌّ! ويريدون أن يجرّدوني أنا من رتبتي! اسمع... إنني أقول لهم بصراحة قاطعة... إليك ما كتبته لهم: «لو كنت من مختلسي الأموال العامة...».

قال توشين:

- كلام محكم. ولكن ليست هذه هي المسألة، يا فاسيلي ديمتريتش...

وكان توشين يوجّه كلامه إلى روستوف أيضًا، فتابع يقول:

- يجب الخضوع، وفاسيلي ديمتريتش لا يريد أن يخضع. ولقد قال لك كاتب المحكمة مع ذلك أن قضيتك خطيرة، وأن عاقبتها سيئة..

قال دينيسوف:

- ليكن ما يكون! لست أكترث...

واصل توشين كلامه يقول:

- لقد حرَّر لك كاتب المحكمة استرحامًا، فعليك أن توقعه وتوصله بواسطة هذا السيد (أشار إلى روستوف). لا بد أن له من يدعمونه في هيئة

الأركان. لن تتاح لك فرصة أفضل من هذه الفرصة.

فقاطعه دينيسوف قائلًا:

- سبق أن قلت إنني لن أذلَّ نفسي...

واستأنف قراءة ورقته.

لم يجرؤ روستوف أن يحاول إقناع دينيسوف، رغم شعوره بأن الطريق الذي يُنصح توشين والضباط الآخرون بسلوكها هي الطريق الوحيد المضمونة، ورغم أنه يسعده كثيرًا أن يستطيع مساعدة صاحبه، لقد كان يعرف ما يتّصف به دينيسوف من صلابة لا تنثني، وكان يعرف أنه على حق في غضبه.

فلما انتهى دينيسوف من قراءة كلماته الملأى سمًّا (وقد دامت القراءة أكثر من ساعة) لم يقل روستوف شيئًا، واعتراه حزن ملك عليه نفسه كلِّها، وقضى بقية النهار في صحبة رفاق دينيسوف في المستشفى، الذين عادوا يحتشدون حوله، فكان يحكي لهم ما يعرفه، ويصغي إلى ما يروونه له. ولزم دينيسوف صمتًا قاتمًا طوال السهرة. وفي ساعة متأخرة من المساء تهيأ روستوف للانصراف فسأل دينيسوف هل يوصيه بشيء. فأجابه دينيسوف وهو يلقي نظرة على الضباط:

- نعم، انتظر.

وسحب أوراقه من تحت وسادته، ومضى إلى النافذة التي كان قد ترك عليها محبرته، وجلس يكتب.

وقال وهو يعود من النافذة ويسلِّم روستوف ظرفًا كبيرًا:

- لكل داء كبير دواء كبير.

كان الظرف يضم استرحامًا للإمبراطور حرَّره كاتب المحكمة، وفيه لا يشير دينيسوف إلى اختلاسات إدارة التموين أية إشارة، ولا يزيد على أن يطلب الرأفة به والعفو عنه. قال لروستوف:

- أوصل هذا... ما دام...

ولم يكمل جملته. وابتسم ابتسامة أليمة مقهورة.

الفصل التاسع عشر

عاد روستوف إلى الفوج، فحدّث الكولونيل عما آلت إليه حال دينيسوف، وعما صارت إليه قضيته، ثم ذهب إلى تيليست حاملًا الاسترحام الموجَّه إلى الإمبراطور.

كان إمبراطورا فرنسا وروسيا قد اجتمعا في تيليست يوم 13 حزيران (يونيو). وكان بوريس دروبتسكوي قد طلب من الشخصية الكبيرة التي كان يتبعها أن يلحق في هذه المناسبة بحاشية الإمبراطور، قائلًا بالفرنسية عن نابوليون الذي كان يسميه حتى ذلك الحين كسائر الناس على سبيل الاحتقار «بوونابرت»:

- أريد أن أرى الرجل العظيم.

فسأله الجنرال مبتسمًا:

- تعني بوونابرت؟

فنظر بوريس إلى الجنرال نظرة استفهام، فسرعان ما أدرك أنها مزحة يقصد بها الجنرال أن يمتحنه.

فأجاب يقول:

- أعني الإمبراطور نابوليون يا سيدي الأمير.

فربّت الجنرال على كتفه مبتسمًا، وقال له متنبئًا:

- ستبلغ شأوًا بعيدًا.

واصطحبه.

فكان بوريس واحدًا من تلك القلة القليلة التي حظيت بهذا الامتياز أعني

أن تكون على نهر نيمن يوم التقاء الإمبراطورين[1]. فشهد الأطواف مزدانة بأرقامها، ورأى نابوليون يمر على الضفة المقابلة أمام الحرس الفرنسي، ورأى وجه الإمبراطور ألكسندر واجمًا مفكرًا، وهو ينتظر صامتًا وصول نابوليون إلى نُزُل على ضفة نهر نيمن، ورأى الإمبراطورين يركبان قاربيهما، ورأى نابوليون الذي بلغ الطوف قبل ألكسندر يتقدم نحو ألكسندر بخطىً سريعة ويمد إليه يده، ثم رآهما كليهما يغيبان في الجناح الذي أعدّ لاجتماعهما. وكان بوريس، منذ أخذ يصعد إلى الدوائر العليا، ويتسلل بين كبار رجال السلطة، قد اعتاد أن يلاحظ بانتباه كلَّ ما يجري حوله، واعتاد أن يسجّله. ففي أثناء اللقاء الذي تم في تيليست، سأل عن أسماء جميع الذين كانوا يرافقون نابوليون، وحين دخل الإمبراطوران إلى الجناح نظر في ساعته، ولم ينسَ أن ينظر فيها مرة أخرى حين خرج ألكسندر من الجناح. ودام اللقاء ساعة وثلاثًا وخمسين دقيقة. فسجَّل بوريس هذا كله في ذلك المساء نفسه، كما سجل وقائع أخرى كان يعتقد أن لها قيمة تاريخية. ولم يكن عدد حاشية الإمبراطور كبيرًا، لذلك، كان وجود ضابط في تيليست أثناء ذلك اللقاء شأن كبير وخطر عظيم إذ كان ممن يريدون أن يشقوا لأنفسهم طريقًا، وأن يكون لهم مستقبل لامع. فكان بوريس، وقد ظفر بأن يكون أحد أفراد الحاشية، يحس بأن مركزه قد أصبح منذ ذلك الحين ثابتًا راسخًا، وصار، من كثرة ما يُرى، رجلًا معروفًا، بل رجلًا مرموقًا، تلتفت إليه الأنظار، وتألفه الأبصار. وقد كُلّف مرتين بمهمة لدى الإمبراطور، حتى غدا الإمبراطور يعرفه إذا رآه، وغدا رجال الإمبراطور لا يتحاشونه كما كانوا يتحاشونه من قبل حين كانوا يعدّونه وجهًا غريبًا، حتى لقد صاروا يستغربون ألا يروه.

كان بوريس يسكن مع ضابط مرافق هو الكونت زيلنسكي[2]. إن زيلنسكي بولندي واسع الثراء نشأ في باريس، مشغوف بالفرنسيين، فكان

(1) تم هذا اللقاء التاريخي يوم 25 حزيران (وفقًا للتقويم الجديد) على طوف في وسط نهر نيمن.

(2) اسم بولندي.

ضباط فرنسيون من الحرس ومن القيادة العامة يجيئون كل يوم تقريبًا من أيام إقامتهم في تيليست، إلى بيت زيلنسكي وبوريس، يتعشون أو يتغدون.

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر حزيران أقام الكونت زيلنسكي حفلة عشاء لأصدقائه الفرنسيين، فكانت الحفلة تضم ضيف شرف هو ضابط من مرافقي نابليون، وعددًا من ضباط الحرس الفرنسي، وفتى هو سليل أسرة أرستقراطية عريقة ألحقه نابوليون بخدمته غلامًا. وفي ذلك اليوم نفسه إنما استغل روستوف الظلام حتى لا يعرفه أحد، ووصل إلى تيليست بثياب مدنية، وقصد بيت زيلنسكي وبوريس.

وكان هذا التبدل المباغت في الموقف من نابوليون ومن الفرنسيين الذين كانوا أعداء فإذا هم الآن أصدقاء، وهو تبدّل حدث في القيادة العامة وفي ذهن بوريس، ولا يزال بعيدًا عن أن يقوم في ذهن روستوف وفي أذهان رجال الجيش الذي كان روستوف آتيًا منه. كان الجيش الروسي لا يزال يحمل لبونابرت وللفرنسيين تلك العاطفة نفسها المنسوجة من غضب واحتقار وخشية. حتى إن روستوف كان منذ مدة قصيرة يناقش ضابطًا من قوزاق بلاتوف فذهب إلى أن نابوليون، إذا تمَّ أسره، سوف يعامَل معاملة مجرم لا معاملة إمبراطور. ومنذ مدة قصيرة أيضًا لقي روستوف كولونيلًا فرنسيًا جريحًا فطفق يبرهن له متحمّسًا على أنه لا مجال لقيام صلح بين إمبراطور شرعي وبين هذا المجرم بونابرت. لذلك دهش روستوف دهشة أليمة حين رأى في بيت بوريس ضباطًا فرنسيين بتلك البزات العسكرية نفسها التي ألف أن يواجهها في المخافر الأمامية على غير هذه الحال وفي ظروف مختلفة كل الاختلاف. ومنذ أن أبصر روستوف واحدًا منهم ظهر له على الباب، اعتراه على الفور ذلك الشعور بالعداوة الحربية الذي كان يحسّه دائمًا حين يرى العدو. فوقف على العتبة، وسأل باللغة الروسية هل هنا يسكن دروبتسكوي. فلما سمع بوريس صوتًا أجنبيًا في الدهليز أقبل يلقاه، حتى إذا عرف فيه روستوف عبَّر وجهه في الوهلة الأولى عن شيء من الضيق والتبرّم. ولكنه قال مبتسمًا وهو يتقدّم منه.

- ها... هذا أنت! سعيد برؤيتك، سعيد جِدًّا برؤيتك.

ولكن روستوف كان قد لاحظ المعنى الأول الذي عبّرت عنه قسمات وجهه. فقال بلهجة فاترة:

- أظن أنني جئت في غير الوقت المناسب. وما كنت أحرص على المجيء، ولكن جاءت بي قضية...

- لا، أبدًا؛ ولكنني استغربت أنك استطعت أن تترك الفوج.

وناداه صوت، فقال يجيبه بالفرنسية:

- بعد لحظة أفرغ لك.

عاد روستوف يقول:

- واضح أن مجيئي يضايقك.

وكان التعبير عن الضيق والتبرّم قد زايل وجه بوريس. وغالب الظن أنه فكّر بما يجب عليه أن يعمله، واتخذ فيه قرارًا، فأمسك يد روستوف بلطف، وسار به إلى غرفة مجاورة، ونظر إليه الآن بهدوء وثبات، فخُيِّل إلى روستوف أن صاحبه قد وضع على عينيه نظارتين تحجب حقيقة ما تعبّران عنه في الواقع من شعور، وهما النظارتان اللتان يوجب التمدن على المرء أن يغطي بهما عينيه كياسة ولباقة. ذلك كان إحساس روستوف. قال بوريس:

- ما هذا الكلام الذي تقوله؟ كيف يمكن أن يضايقني مجيئك؟

وأدخله إلى الغرفة التي مُدت فيها المائدة للعشاء، وأخذ يعرِّف به الضيوف، وذكر أنه ليس مدنيًا بل ضابط من سلاح الفرسان، وإنه صديق له قديم وحميم. ثم أخذ يعرِّفه بالضيوف ذاكرًا أسماءهم: الكونت زيلنسكي، الكونت «ن... ن»، الكابتن «س... س»، إلخ. فكان روستوف ينظر إلى الفرنسيين مكفهرّ الوجه، ويحييهم على مضض ويصمت.

لم يسر زيلنسكي بأن يقبل في حلقته هذا الروسي الدخيل، ولم يقل له شيئًا. ولم يبدُ على بوريس أنه يلاحظ الضيق الذي أحدثه دخول روستوف في نفوس الحفل، كان يجهد أن ينعش الحديث محتفظًا بذلك الهدوء السهل نفسه، وتلك النظرة المحجبة ذاتها، أعني الهدوء والنظرة اللذين استقبل بهما روستوف. وهذا واحد من الفرنسيين تدفعه الكياسة التي يتّصف بها أهل وطنه، فيوجّه الكلام إلى روستوف الذي كان مصرًّا على

الصمت إصرارًا عنيدًا، فيقول له إنه قدم إلى تيليست لرؤية الإمبراطور في غالب الظن.

فأجابه روستوف بإيجاز:

- بل جئت لعمل.

لقد تعكّر مزاج روستوف منذ لاحظ ما عبّر عنه وجه بوريس من ضيق وتبرّم حين رآه؛ وكما يحدث دائمًا في مثل هذه الحالات، كان يتراءى له أن الجميع يضمرون له عداء، والواقع أنه ضايقهم جميعًا، وظل وحده لا يشارك في ما كان يدور بينهم من حديث، فكانت النظرات التي يرشقونه بها كأنها تقول: «لماذا تبقى هنا؟». فلم يلبث أن قام واقترب من بوريس وقال له بصوت خافت:

- واضح أنني أضايقك، فلأحدثك بالقضية التي جئت في أجلها ثم انصرف.

قال بوريس:

- لا، أبدًا، ولكنك متعب مكدود حتمًا، فلنذهب إلى غرفتي فتستريح.

- فعلًا.

ودخلا الغرفة الصغيرة التي ينام فيها بوريس، فلم يجلس روستوف وأسرع يعرض له قضية دينيسوف حانقًا، كأن بوريس قد ارتكب في حقه ذنوبًا، وسأله هل يريد أو يستطيع، بواسطة جنراله، أن يتدخّل لدى الإمبراطور، فيوصل إليه الرسالة عن هذا الطريق، كان روستوف يحسّ لأول مرة، منذ خلا إلى صاحبه بوريس، بأنه يزعجه أن ينظر إلى وجهه. وكان بوريس قد جلس ووضع ساقًا على ساق، وكان يحك بيده اليسرى الأصابع الناعمة من يده اليمنى، ويصغي إليه كما يصغي جنرال إلى تقرير أحد مرؤوسيه، موجِّهًا عينيه تارة إلى جانب، ومحدّقًا بهما إليه تارة أخرى بنظرة لا تزال محجّبة. كان روستوف يشعر عندئذ بحرج وضيق، فيخفض عينيه.

قال بوريس:

- سمعت عن قضايا من هذا النوع، وأنا أعلم أن الإمبراطور شديد كل

الشدَّة قاس كل القسوة في هذه الحالات. أحسب أن الأفضل ألا يرجع هذا الأمر إلى جلالته. وفي رأيي إن التوجّه رأسًا إلى قائد القطعة أصوب... لكنني أظن عامة أن...

فقال روستوف بما يشبه أن يكون صراخًا، متوجّهًا لبوريس من دون أن ينظر إليه:

- إذا كنت لا تريد أن تفعل شيئًا، فما عليك إلّا أن تقول لي ذلك صراحة....

فابتسم بوريس، وقال:

- بالعكس، سأفعل كل ما يمكنني أن أفعله ولكنني أقدّر أن...

وفي تلك اللحظة سمع صوت زيلنسكي ينادي بوريس الوراء الباب. فقال روستوف بعد أن رفض أن يشارك في العشاء:

- هيا، اذهب إليهم، اذهب إليهم.

وبقي في الغرفة الصغيرة وحيدًا، وظل يذرعها مدة طويلة، مصغيًا إلى انطلاقات الأصوات الفرحة الجذلى التي تتكلّم الفرنسية في الغرفة المجاورة.

الفصل العشرون

لقد وصل روستوف إلى تيليست في وقت لم يُحسن اختياره من أجل التشفع لدينيسوف. هو لا يستطيع أن يذهب بنفسه إلى جنرال الأركان لأنه كان لا يرتدي بزّته العسكرية، ولأنه تغيّب من دون أن يحصل على إذن من رؤسائه، كما أن بوريس ما كان له أن يستطيع تولّي هذا الأمر في الغد حتى لو أراده. ففي ذلك اليوم، يوم السابع والعشرين من شهر حزيران (يونيو)، تم التوقيع على مقدّمات الصلح، وتبادل الإمبراطوران الأوسمة، فتوشّح ألكسندر بوسام جوقة الشرف، وتوشح نابوليون بوسام القديس أندريه الأكبر، وفي ذلك اليوم نفسه ستقيم كتيبة من الحرس الفرنسي مأدبة لكتيبة من فوج بريوبراجنسكي، يحضرها الإمبراطوران.

كان روستوف قد بلغ من شدّة الضيق برؤية بوريس، أنه تظاهر بالندم حين جاء إليه بوريس بعد العشاء، وانصرف في الغداة مبكرًا من دون أن يراه. وأخذ روستوف يتجوّل في شوارع المدينة بلباسه المدني الرسمي وقبعته المستديرة، متفرّسًا في الفرنسيين وبزّاتهم الرسمية، مدققًا في الشوارع والمنازل التي يقيم فيها إمبراطور روسيا وإمبراطور فرنسا. ورأى في الساحة العامة موائد منصوبة، ورأى فيها إعدادات المأدبة، ورأى الشوارع مزدانة برايات تحمل الألوان الروسية والفرنسية، وأشرطة ضخمة كتب عليها الحرفان اللذان يبدأ بهما اسما ألكسندر ونابليون بخطوط كبيرة. N.A ورأى في النوافذ كذلك أعلامًا وأحرفًا.

كان روستوف يحدّث نفسه بقوله: «بوريس لا يريد أن يساعدني، وأنا من جهتي لا أحرص على أن أستعين به، فقد انتهى بيننا كل شيء، ولكنني لن

أذهب من هنا قبل أن أفعل كل ما أستطيع فعله من أجل دينيسوف، وقبل أن أسلّم الإمبراطور عريضة الاسترحام خاصّةً وأن الإمبراطور هنا، فهلمَّ بي إليه!»، وكان يرجع إلى المنزل الذي يقيم فيه ألكسندر، يرجع إليه على غير شعور ومن دون إرادة.

كانت أحصنة ركوب تنتظر على الباب، وكان ضباط الحاشية يتوافدون، وكان الإمبراطور يوشك أن يخرج حتمًا.

قال روستوف لنفسه: «قد أراه بعد لحظة. فليتني أستطيع أن أسلّمه هذه الرسالة بيده وأن أشرح له كل شيء. قد يوقفونني بسبب لباسي؟ لا، لا يمكن أن يوقفوني. ولسوف يعرف الإمبراطور من هو الظالم ومن هو المظلوم.. إنه يدرك كل شيء. إنه يعرف كل شيء. من ذا يمكن أن يكون أعدل منه وأكرم منه؟... وهبهم أوقفوني. لأنني هنا، فأي ضير في هذا؟».

ورأى ضابطًا يدخل منزل الإمبراطور، فتابع حديثه لنفسه بقوله: «أرى أن الدخول إلى منزل الإمبراطور سهل لا صعوبة فيه. فما لي لا أتشجّع فأدخل؟ سأسلم الرسالة إلى الإمبراطور بنفسي، وليخسأ دروبتسكوي الذي يجبرني على هذا إجبارًا!».

وبعزم قوي ما كان يتصور إنه قادر عليه، اتجه روستوف إلى الباب قُدمًا بعد أن تحسّسَ الرسالة في جيبه.

قال لنفسه وهو يتوقّع في كل لحظة أن يجد نفسه في حضرة الإمبراطور. ويشعر حين يتصور ذلك بالدم يزدحم في قلبه: «في هذه المرة لن أدع الفرصة تفلت مني كما حدث في أوسترلتز. سوف أرتمي على قدميه ضارعًا إليه. فينهضني، ويصغي إلى كلامي، بل سيشكر لي صنيعي أيضًا». «أكون سعيدًا حين أستطيع أن أفعل خيرًا، ولكن أكبر سعادة لي هي أن أرفع ظلمًا وقع». هذه هي الكلمات التي كان روستوف ينسبها في خياله إلى الإمبراطور. وصعد درجات الباب وقد اتجهت إليه أبصار الحضور مستطلعة مستغربة.

وعند المدخل كان سلَّم عريض يفضي إلى الطابق الأول رأسًا. وعلى اليمين باب مغلق، وفي أسفل السلم باب آخر يؤدي إلى الطابق الأرضي.

سأله واحد:

- ماذا تريد؟
- أريد أن أسلم صاحب الجلالة رسالة استرحام.
كذلك أجاب روستوف بصوت مختلج متهدّج. فأجابه الرجل بقوله:
- إنما يُسلَّم الاسترحام إلى ضابط الخدمة. من هنا، من فضلك!
وأشار إلى الباب الأسفل. ولكنه أضاف يقول له:
- غير أن ضابط الخدمة لن يستقبله.
فحين سمع روستوف هذا الصوت الخالي من الاكتراث روَّعه ما يفعله. صحيح أن لقاء الإمبراطور بين لحظة وأخرى شيء يغريه أعظم الإغراء، ولكنه بلغ من إخافته أنه تمنى أن يولِّي هاربًا. ولكن ضابط الصف الذي كان يحرس الغرفة فتح له باب ضابط الخدمة، فلم يكن له بد من الدخول.
كان يقف في وسط الغرفة رجل قصير بدين في نحو الثلاثين من العمر، يرتدي سروالًا أبيض وينتعل جزمتين عاليتين، وكان واضحًا أنه قد فرغ في تلك اللحظة من لبس قميصه المصنوع من قماش الباتيستا، وكان خادمه يعقد له من الخلف أزرار حمّالات للسروال جديدة رائعة مطرزة بحرير لا يدري روستوف لماذا لاحظه. وكان هذا الرجل يكلّم أحدًا في الغرفة المجاورة. كان يقول له بالفرنسية:
- قوام رائع، وجمال شيطانيّ!
ولكنه قطع حديثه وقطب حاجبيه منذ رأى روستوف، وقال يسأله:
- ماذا تريد؟ تقديم استرحام؟
وسأل أحد من الغرفة المجاورة:
- ماذا؟
فأجاب صاحب الحمّالات المطرزة بحرير:
- رجل آخر يحمل عريضة؟
- قل له أن يرجع بعد قليل. يهم الإمبراطور أن يخرج. يجب أن نركب أفراسنا.
فقال الرجل لروستوف:
- تعال في وقت آخر، في وقت آخر، غدًا. فات الأوان...

فاستدار روستوف على كعبيه وأراد أن ينسحب، ولكن الرجل صاحب الحمّالات المطرزة بالحرير استوقفه:

- من أرسلك؟ من أنت؟

- أرسلني الميجر دينيسوف.

- وأنت، من أنت؟ ضابط؟

- ليوتنانت، الكونت روستوف.

- يا لها من جرأة! العرائض تُقدَّم بالتسلسل. هيا انصرف، انصرف...

قال الرجل ذلك، وارتدى بزته العسكرية التي مدَّها إليه خادمه.

رجع روستوف إلى الدهليز، فرأى عددًا كبيرًا من الضباط والجنرالات بثياب الاحتفالات محتشدين عند درجات الباب وكان عليه أن يمرَّ أمامهم.

لعن روستوف جرأته وتهوُّره، وخارت قواه إذ تصوَّر أن من الممكن في أية لحظة أن يلقى الإمبراطور، وأن يُعتقل ويتجلّل بالعار أمامه، وأحسَّ بما يشتمل عليه سلوكه من خروج على قواعد الكياسة، وأسف لذلك أسفًا شديدًا، فخفض عينيه، وتسلل خارجًا من هذا المنزل الذي كانت تحيط به جمهرة الحاشية المتألقة المتلألئة، فإذا بصوت جهير غير مجهول له يناديه على حين فجأة، وإذا بيد توقفه، وإذا صاحب الصوت الجهير يقول له سائلًا:

- ما وجودك هنا برداء «الفراك» يا عزيزي؟

إنه جنرال من سلاح الفرسان كان قائد فرقته في الماضي، وحملت له مزاياه وكفاءاته أثناء الحملة حظوة خاصّةً لدى الإمبراطور.

ارتاع روستوف وأراد أن يبرّر للجنرال وجوده، ولكن لم يلبث أن اطمأن لما رآه في هيئة الجنرال الطيّب من بشاشة وابتهاج، فانتحى به جانبًا وشرح له القضية كلها بلهجة مفعمة بالتأثر والهيجان، ورجاه أن يتشفّع لدينيسوف الذي كان الجنرال يعرفه. فبعد أن أصغى الجنرال إلى ما رواه له روستوف هزَّ رأسه مهمومًا مغمومًا وقال:

- محزن، محزن أمر هذا الفتى الشهم. أعطني عريضة الاسترحام.

فما إن سلمه روستوف الرسالة حتى أخذت تدوِّي على درجات السلَّم خطوات سريعة تصحبها قرقعة مهاميز، فتركه الجنرال واقترب من الباب.

كانت شخصيات حاشية الأمير تهبط السلم راكضة، متّجهة إلى أفراسها. وجاء السائس إينوي (وهو ذلك السائس نفسه الذي كان في أوسترلتز) يقتاد حصان الإمبراطور؛ وسُمع وقع خطى خفيف على درجات السلم سرعان ما عرفه روستوف؛ وسرعان ما نسي روستوف خطر أن يُكتشف، فتقدم نحو الباب مع من تقدّموا من المستطلعين، فرأى مرة ثانية، بعد انقضاء سنتين على المرة الأولى، رأى تلك القسمات المعبودة نفسها، رأى ذلك الوجه نفسه، رأى تلك النظرة نفسها، رأى تلك المشية نفسها، رأى ذلك المزيج نفسه من الفخامة والرقة... فاشتعلت نار الحماسة والحب للإمبراطور في قلبه من جديد، متأججة قوية كقوتها في المرة الماضية. وظهر الإمبراطور مرتديًا بزة فوج بريوبراجنسكي، سروالًا من جلد الشاموا الأبيض وجزمتين عاليتين، مع وسام لا يعرفه روستوف (هو وسام جوقة الشرف)، ظهر على باب المنزل وهو يتأبط قبعته ويلبس قفّازية. ووقف يجيل نظرة دائرة، فيضيء بهذه النظرة كل ما حوله. ووجّه كلامًا إلى عدد من الجنرالات، وتعرَّف الجنرال الذي كان قائد فرقة روستوف في الماضي، فابتسم له، وأومأ له أن يتقدّم منه.

ابتعدت الحاشية كلها، ورأى روستوف ذلك الجنرال يكلّم الإمبراطور طويلًا.

فأجابه الإمبراطور ببضع كلمات، وتقدم خطوة من حصانه، فعادت الحاشية وجمهرة المتطلعين الذين كان روستوف أحدهم، عادت تقترب. ووقف الإمبراطور بقرب حصانه، ووضع يده على السرج، والتفت إلى جنرال الخيَّالة، فقال له بصوت عالٍ كان واضحًا أن الإمبراطور تعمد أن يكون عاليًا ليسمعه الجميع:

- لا أستطيع يا جنرال، وإذا كنت لا أستطيع فلأن القانون أعلى مني.

ووضع قدمه في الركاب. فانحنى الجنرال باحترام وإجلال، وامتطى الإمبراطور صهوة حصانه ومضى. وكان روستوف يهذي حماسة، فركض مع الجمهور الوراءه.

الفصل الحادي والعشرون

في الميدان الذي كان الإمبراطور ذاهبًا إليه كانت تصطف على اليمين كتيبة من فوج بريوبراجنسكي، وعلى الشمال كتيبة من الحرس الفرنسي بقلنسوات ذات وبر.

وفيما كان الإمبراطور ألكسندر يصل إلى أحد جانبي الكتيبتين اللتين تمثّلان مختلف الأسلحة، كانت كوكبة أخرى من الفرسان تسير إلى الجانب الآخر عدوًا سريعًا. ورأى روستوف في طليعة هذه الكوكبة فارسًا أدرك روستوف بغريزته أنه نابوليون. ما كان يمكن أن يكون هذا الفارس أحدًا غير نابوليون. كان بقبعته الصغيرة، ووسام القديس أندريه الذي يوشّح صدره، وبزته العسكرية الزرقاء القاتمة التي تكشف عن صديرة بيضاء، يعدو سريعًا على حصان عربي أصيل أشهب يغطي سرجه غطاء من قطيفة مطرَّزة بذهب. حتى إذا وصل إلى ألكسندر، رفع قبعته محييًا. وقد اضطر روستوف، وهو الذي يملك بصر فارس خبير، أن يلاحظ من خراقة هذه الحركة التي قام بها نابوليون أن نابوليون لم يكن ثابتًا على ظهر فرسه، ولم يكن راكنًا على سرجه. وصاحت الكتيبتان تهتفان: «هورررا! وعاش الإمبراطور!». وقال نابوليون شيئًا للاسكندر. ونزل الإمبراطوران عن حصانيهما، وتصافحا. وكانت ابتسامة متصنّعة كريهة تتموج على قسمات وجه نابوليون. وكلّمه ألكسندر بلهجة فيها مودّة ولطف.

ورغم أفراس رجال الدرك الفرنسيين الذين كانوا يصدّون الجمهور، فقد استطاع روستوف أن يتابع كل حركة من حركات ألكسندر ونابوليون، ولم يحوِّل بصره عنهما لحظة. فكان الشيء الذي أدهشه أكثر من كل ما عداه أن

ألكسندر عامل نابوليون معاملة الند للند، وأن نابوليون، من جهته، كان يعد رفع الكلفة بينه وبين ألكسندر أمرًا طبيعيًّا كأنه يرجع إلى عهد بعيد جِدًّا.

تقدم ألكسندر ونابوليون مع رتل الحاشية الطويل الذي يسير الوراء كل منهما، تقدما من الجنب الأيمن من فوج بريوبراجنسكي مقبلَيْن قُدُمًا على الجمهور الذي كان محتشدًا هناك، فإذا بالجمهور يجد نفسه على حين فجأة قريبًا من الإمبراطورَين قربًا شديدًا، حتى إن روستوف الذي كان في الصفوف الأولى خشي أن يُعرَف.

قال صوت قاطع واضح يبرز كل حرف من حروف كلامه:

- صاحب الجلالة، هل لي أن أستأذنكم في أن أهب وسام جوقة الشرف إلى رجل تجدونه أشجع جندكم؟

كان بونابرت القصير هو المتكلّم، وكان شاخصًا ببصره إلى عيني ألكسندر من تحت إلى فوق. وقد أنصت ألكسندر إلى ما قاله نابوليون، ووافق على اقتراحه بحركة من رأسه، وابتسم له ابتسامة فيها لطف ومودّة.

وأضاف نابوليون يقول مبرزًا كل مقطع من مقاطع كلامه:

- إلى ذلك الذي أبلى في هذه الحرب الأخيرة أحسن البلاء، وكان أجسر الجسورين.

وبهدوء وثقة أثارا ثائرة روستوف، وأخنقاه وأغاظاه. أجال نابوليون بصره على صفوف الجنود الروس الذين كانوا متجمدين لا يتحركون، وكانوا لا يزالون خافضين أسلحتهم، محدّقين بأبصارهم إلى وجه إمبراطورهم.

قال ألكسندر:

- هل تأذن لي جلالتكم بأن أسأل الكولونيل رأيه؟

وتقدم من الأمير كوزلوفسكي الذي كان يقود الكتيبة، بضع خطوات سريعة. وفي أثناء ذلك نضا بونابرت عن يده الصغيرة البيضاء قفازها، ومزق القفاز ورماه. فأسرع ضابط مرافق يرفع القفاز عن الأرض.

قال الإمبراطور ألكسندر يسأل كوزلوفسكي بصوت خافت وباللغة الروسية:

- لمن يوهب الوسام؟

- لمن تشاء يا صاحب الجلالة.
فقطب الإمبراطور حاجبيه مستاء، وقال وهو يلقي نظرة حواليه:
- لا بد من إجابته على كل حال.
فأجال كوزلوفسكي على الصفوف نظرة حازمة، وشمل بهذه النظرة روستوف.
قال روستوف محدِّثًا نفسه: «أيقع الاختيار عليَّ؟».
وصاح الكولونيل مقطّبًا حاجبيه مناديًا:
- لازاريف!
فتقدم أول جندي من جنود الصف الأول يسير بخطى عسكرية وهيئة جسور.
فهمست أصوات تقول للازاريف الذي كان لا يعرف أين يجب عليه أن يتّجه:
- إلى أين تذهب؟ ابقَ هنا!
فتوقف عن السير وهو ينظر إلى الكولونيل من جانب، خائفًا مضطربًا، وارتجف وجهه كما يحدث هذا للجنود حين يُنادَوْن أمام القطعات.
لفت نابوليون رأسه لفتًا يسيرًا لا يكاد يلاحَظ، ومدَّ الوراء ظهره يده الصغيرة السمينة كمن يريد أن يأخذ شيئًا، فسرعان ما أدرك ضباط حاشيته ماذا يريد، فدبَّت الحركة فيهم، وأخذوا يتهامسون ويتناقلون شيئًا من يد إلى يد، ثم إذا بفتى هو ذلك الفتى نفسه الذي رآه روستوف عند بوريس بالأمس، أعني الفتى الذي ألحقه نابوليون بخدمته غلامًا، يهرع إلى اليد الممدودة وينحني عليها باحترام، ويضع فيها الوسام ذا الشريط الأحمر، فيقبض نابوليون على الوسام بأصبعيه من دون أن ينظر إلى الوراء، ويُقبِل على لازاريف الذي كان محملقًا عينيه، وكان مصرًا على ألا ينظر إلّا إلى إمبراطوره، فألقى نابوليون نظرة على ألكسندر مشيرًا بهذه النظرة إلى أن ما يفعله إنما يفعله لحليفه. وامتدت اليد الصغيرة التي تقبض على الصليب فلامست عروة الجندي لازاريف ملامسة خفيفة. كان نابوليون يبدو واثقًا بأنه حسبه أن تلمس يده، هو نابوليون، صدر الجندي لمسًا حتى يُسعده إلى

الأبد، ويغمره بالعزة والفخار، ويميزه على سائر الناس. فاكتفى نابوليون بأن ضغط الصليب على صدر لازاريف، وسحب يده، والتفت إلى الإمبراطور ألكسندر، كالواثق بأن الصليب لا بد أن يكون قد التصق، بالصدر، وقد التصق الصليب بالصدر فعلًا.

ذلك أن أيادي مجاملة، روسية وفرنسية، هبَّت تثبِّت الوسام على صدر الجندي. وألقى لازاريف نظرة قاتمة على الرجل القصير ذي اليدين السمينتين الذي أنعم عليه بالوسام، ثم حوَّل بصره إلى ألكسندر وهو لا يزال مادًّا سلاحه، كأنما ليسأله أيجب عليه أن يبقى واقفًا هذه الوقفة على هذه الحال. أم يجب عليه أن يبتعد، أم ربما يجب عليه أن يفعل شيئًا آخر. ولكنه لم يؤمر بشيء، فلبث جامدًا على هذه الوقفة مدة طويلة.

وركب الإمبراطوران حصانيهما ومضيا. فخرج جنود فوج بريوبراجنسكي من صفوفهم، واختلطوا بجنود الحرس الفرنسي، وجلسوا إلى الموائد المعدَّة لهم.

وكان لازاريف يحتل مكان الشرف. وأخذ الضباط الروس والفرنسيون يقبِّلونه، ويهنئونه، ويصافحونه. وجعل العسكريون والمدنيون يقبلون عليه زرافات زرافات لا لشيء إلّا أن يروه. وقامت في الميدان جلبة ضحكات وأحاديث باللغة الروسية وباللغة الفرنسية.

ومرَّ أمام روستوف ضابطان مَرِحان سعيدان قد احمرَّ وجهاهما حتى صارا بلون الأرجوان. كان أحدهما يقول للآخر:

- يا لها من حفلة؟

- حقًا.

- يقال إن فوج بريوبراجنسكي سيدعوهم أيضًا.

- لا. ولكن ما أعظم هذا الحظ الذي هبط على لازاريف. معاش قدره ألف ومائتا فرنك مدى الحياة.

وصاح جندي من فوج بريوبراجنسكي وهو يضع على رأسه قلنسوة جندي فرنسي ذات وبر، صاح يقول:

- هذه قلنسوة يا شباب!

- ما أجملها! رائعة!

وقال ضابط من الحرس يسأل ضابطًا آخر:

- هل تعرف كلمة المرور؟ كانت أمس الأول، نابوليون، فرنسا، بسالة؛ وكانت أمس، ألكسندر، روسيا، عَظَمة. فيومًا يضعها إمبراطورنا ويومًا يضعها نابوليون. غدًا سيمنح الإمبراطور صليب القديس جاورجيوس لأشجع جندي من جنود الحرس الفرنسي. لا بد له من هذا. يجب أن يردَّ على اللباقة بمثلها.

وكان بوريس ورفيقه زيلنسكي يريان المأدبة. فلما انصرف لمح روستوف واقفًا عند زاوية أحد المنازل. فهتف يقول له:

- روستوف! يومك سعيد! إننا لم نكد نلتقي.

ولم يسعه إلّا أن يسأله عما حدث له من شدة ما رأى من اكفهرار وجهه وانقلاب سحنته.

أجابه روستوف بقوله:

- لا شيء، لا شيء!

- ألا تنوي أن تجيء إليَّ؟

- بلى. سأجيء.

لبث روستوف في ركنه مدة طويلة ينظر إلى الاحتفال من بعيد. كان عمل شاق يتم في ذهنه، ولا يستطيع هو أن يمضي به إلى نهايته. وكانت شكوك رهيبة تحاصره. كان تارة يتذكّر دينيسوف ووجهه الذي تبدّل تعبيره، ويتذكّر خصومه وإذعانه، ويتصوّر المستشفى وما رآه فيه من أيدٍ مقطوعة وسيقان منتزعة وقذارة وأمراض. وتلاحقه رائحة المستشفى، ورائحة اللحم الميت المتفسخ حتى ليلتفت إلى الوراء ليرى مصدر هذه الرائحة. وتارة يتصور بونابرت ذا اليد البيضاء الصغيرة، مزهوًا بنفسه وقد أصبح الآن إمبراطورًا يظهر له الإمبراطور ألكسندر مودّة واحترامًا، فيتساءل: علام إذًا تلك الأذرع المبتورة والسيقان المقطوعة وهؤلاء الموتى. أو يتصوّر لازاريف مكافأً ويتصوّر دينيسوف معاقَبًا لم يُعفَ عنه. وكان يستغرب أن يحرِّك في ذهنه هذه الأفكار الغريبة التي يخافها ويجزع منها.

وانتزعته رائحة الوليمة وانتزعه الجوع من هذه الحالة، كان عليه أن يصيب شيئًا من الطعام قبل أن يسافر عائدًا. فاتجه إلى فندق كان قد رآه في الصباح.

رأى الفندق يبلغ من الازدحام بالناس، وهم ضباط يرتدون مثله ثيابًا مدنية، إنه لم يستطع أن يطلب طعامًا وأن يُلبَّى طلبه إلّا بعد عناء كبير. وقد انضم إليه ضابطان من فرقته. ودار الحديث بطبيعة الحال على الصلح. كان هذان الضابطان، كسائر الناس في الجيش تقريبًا، مستاءَين من هذا الصلح الذي تمَّ بعد فريدلاند. كانا يذهبان إلى أننا كنا نستطيع أن نصمد، وأن نابوليون كان سيهلك لو صمدنا، لأن قطعاته لم يبق عندها لا بسكويت ولا ذخيرة. وكان روستوف يأكل صامتًا ويشرب فيكثر من الشراب. شرب وحده زجاجتين من النبيذ. إن العمل الشاق الذي يتم في ذهنه من دون أن يؤدّي إلى نتيجة، لا يزال يعذّبه ويرهقه من أمره عسرًّا. كان خائفًا من الاستسلام لهذه الأفكار، ولكنه كان في الوقت نفسه عاجزًا عن انتزاع نفسه منها. وبينما كان أحد الضابطين يقول إنه لأمر مزعج مثير أن يرى المرء هؤلاء الفرنسيين، إذ أخذ روستوف يصرخ على حين فجأة غاضبًا غضبًا ليس له ما يبرره، غضبًا أدهش الضابطين أشد الدهشة، فقال وقد صعد الدم إلى وجهه:

- ما يدريك أنت بما كان الأفضل أن يفعل؟ أنَّى لنا نحن أن نحكم على سلوك الإمبراطور؟ أي حق لنا في مناقشة سلوكه؟ إننا لا نستطيع أن نفهم لا أهدافه ولا أفعاله!

فقال الضابط معترضًا مبرّئًا نفسه:

- ولكنني لم أقل عن الإمبراطور كلمة واحدة.

ولم يستطع الضابط أن يعلّل غضب روستوف إلّا بتأثير السكر.

ولكن روستوف لم يكن يصغي إليه، وتابع كلامه يقول:

- نحن لسنا دبلوماسيين بل جنود لا أكثر. فإذا أُمرنا بأن نموت لم يكن علينا إلّا أن نموت. وإذا عوقبنا، فلأننا نكون قد أذنبنا. لسنا نحن من يقضي في الأمور. إذا رأى الإمبراطور أن يعترف بنابوليون إمبراطورًا وأن يعقد بيننا

وبينه تحالفًا، كان ذلك هو الصواب لأنه يكون ضرورة. وإذا نحن حشرنا أنفسنا نأخذ نحكم في الأمور، ونناقش، ونفكّر، لم يبق ثمة شيء مقدس، وربما وصلنا إلى القول بأن الله لا وجود له، وأن لا شيء موجودًا...

قال نيقولا روستوف هذا الكلام صارخًا وهو يضرب الطاولة بقبضة يده ضربة قوية رأى صحبه أنها لا محل لها، ولكنها كانت في حقيقة الأمر مقنعة وتسير مع مجرى الأفكار التي كانت تضطرب في ذهنه. وختم كلامه بقوله:

- دورنا نحن هو أن نقوم بواجبنا. أن نوافق لا أن نفكّر.

فقال أحد الضابطين تحاشيًا لنشوب مشاجرة:

- وأن نشرب أيضًا.

فقال نيقولا مؤيدًا هذا الرأي:

- نعم، وأن نشرب.

ونادى الخادم صارخًا:

- هيه! أنت! هات زجاجة أخرى.

الجزء الثالث

الفصل الأول

في سنة 1808، ذهب ألكسندر إلى أيرفورت ليلتقي نابوليون في لقاء جديد، وتحدث المجتمع العاليْ وبطرسبورغ عن هذا اللقاء حديثًا كثيرًا.

وفي سنة 1809 كان التفاهم بين سيّدَيْ العالم العظيمين، - كما كانا يلقَّبان في ذلك الوقت - قد بلغ من القوة أنه حين أعلن نابوليون الحرب على النمسا، عَبَر جيش روسي الحدود ليساعد عدوَّنا القديم بونابرت، على حليفنا القديم إمبراطور النمسا؛ وبلغ ذلك التفاهم من القوة أن الدوائر العليا من المجتمع أخذت تتكلّم عن زواج سوف يتم بين نابوليون وإحدى شقيقات الإمبراطور ألكسندر. ولكن المجتمع الروسي كان عدا اهتمامه بحوادث السياسة الخارجية هذه، مهتمًا اهتمامًا شديدًا بالإصلاحات الداخلية التي كانت تتم حينذاك في جميع أجزاء جهاز الدولة.

وكانت الحياة في أثناء ذلك، أعني حياة الناس الحقيقية، بما تشتمل عليه من اهتمامات أساسية، كالصحة والمرض والراحة، وما تشتمل عليه من اهتمامات أخرى، كالفكر والعلم والشعر والموسيقى والحب والصداقة والكره والأهواء؛ استمرت تجري كما كانت تجري في الماضي، مستقلة عن جميع الإصلاحات، خارجة عن حسن التفاهم أو سوء التفاهم مع بونابرت.

قضى الأمير أندريه في الريف سنتين كاملتين بلا انقطاع. فإذا بجميع المبادرات التي حاولها بطرس في أراضيه من دون أن تؤدي إلى أية ثمرة،

تتحقّق على يد الأمير أندريه في أراضيه واحدة بعد واحدة، من دون أن يتحدّث عنها مباهيًا لأول قادم، ومن دون أن يبدو عليه أنه يبذل جهدًا أو يتحمّل عناء.

كان الأمير أندريه يملك أقصى درجة من درجات ذلك الثبات العملي الذي يعوز بطرس، والذي كان يدفع مشروعات أندريه إلى الأمام من دون هزّات ومن دون جهد منه.

فالأقنان الثلاثمائة في إحدى أراضيه استحالوا مزارعين أحرارًا (كان أندريه أول قدوة لغيره في روسيا في هذا المضمار)؛ وفي الأراضي الآخرى حلّت الأجرة محل السخرة. وجاء أندريه إلى بوغوتشاروفو بقابلة تسكن فيها لتولّد النساء، ودفع أجرًا لكاهن من أجل أن يعلم أولاد الفلاحين والخدم القراءة والكتابة.

وكان الأمير أندريه يقضي نصف وقته في ليسييه جوري مع أبيه وابنه الذي لا يزال بين أيدي الخادمات، ويقضي نصفه الآخر في مسكنه ببوغوتشاروفو، على حد تعبير أبيه. ورغم ما تظاهر به أمام بطرس من عدم الاكتراث بالشؤون الخارجية في هذا العالم، فقد كان يواصل متابعة أنبائها مثابرًا مواظبًا، فيكلّف أُناسًا بإمداده بالكتب يرسلونها إليه، ويُدهشه حين يزور أباه أو يزوره هو زوار من بطرسبورغ - قطب الحياة ومحورها في البلاد - إنهم أقل اطلاعًا على مجرى الشؤون السياسية، الداخلية والخارجية، منه هو الذي لا يغادر الريف أبدًا. وكان الأمير أندريه، عدا إدارة شؤون أراضيه، وعدا انكبابه على القراءة، يهتم بأن يدرس حربينا الأخيرتين المشؤومتين دراسة نقدية، ويعمل على كتابة مشروع إصلاح لأنظمتنا العسكرية.

وذهب في ربيع 1809 إلى أراضي ريازان التي كانت ملكًا لابنه، وهو وصي عليه. فكان وهو في عربته، تحت الأشعة الدافئة التي ترسلها شمس الربيع، ينظر إلى أول العشب، وأولى أوراق أشجار البتول، وأولى غمامات الربيع البيض، المنتشرة على صفحة السماء اللازوردية. كان لا يفكر في شيء ولكنه يدع بصره يطوِّف حواليه فرحًا.

وقطع العَبَّارَة التي قطعها منذ سنة مع بطرس، وجرى بينهما ذلك

الحديث. واجتاز قرية قذرة، وبيادر، وحقولًا من قمح الشتاء، وهبط منحدرًا لا يزال عليه ثلج بقرب جسر، وصعد منحدرًا من صلصال، وحاذى حقل قصب تتخلله هنا وهناك شجيرات مخضوضرة، ودخل غابة سندر تحفّ بالطريق من جانبيه، وكان الجو في ظل الغابة شبه دافئ، فلا رياح تهب، وأشجار السندر، التي انتشرت على أغصانها أوراق خضراء لزجة، ساكنة لا تهتز. ومن بين بساط الأوراق اليابسة التي تغرس أرض الغابة من خريف السنة الماضية كانت تطلع بواكير العشب الأخضر والأزهار البنفسجية، مزيحة أوراق الشجر اليابسة. وكان عدد من أشجار الصنوبر المبعثرة في غابة السندر تذكّر خشونة خضرتها الدائمة بالشتاء تذكيرًا يقبض الصدر.

حمحمت الخيل وهي تدخل الغابة، وصارت عروقها أظهر وأبين.

وهذا بطرس، خادم الأمير أندريه، يقول شيئًا للحوذي، فيجيبه الحوذي مؤيدًا رأيه، ولكن تأييد الحوذي لرأيه لم يكفه في غالب الظن، فيستدير على مقعده متّجهًا إلى مولاه ويقول له مبتسمًا ابتسامة فيها الكثير من الاحترام:

- ما أحلى هذا يا صاحب السعادة!

فتساءل الأمير أندريه وهو ينظر حواليه: «ماذا يقول؟ غالب الظن أنه يتكلّم عن الربيع. إنه على حق. اخضوضر كل شيء منذ الآن... بهذه السرعة كلها، وأشجار البتول، وأشجار كرز الطير، وهذه أشجار المقن قد بدأت أيضًا... ولكن أين أشجار السنديان؟ ها... هذه سنديانة!».

كانت سنديانة تنتصب سامقة على حافة الطريق. لا شك أنها أكبر سنًّا من أشجار السندر عشر مرات، وأضخم منها عشر مرات، وأعلى منها مرتين. إنها سنديانة كبيرة لا يستطيع أن يحتضنها إلّا شخصان اثنان؛ أغصانها تكسرت منذ فترة طويلة؛ وقشرتها المكشوطة مغطّاة بندوب قديمة؛ أذرعها وأصابعها الضخمة العقفاء الخرقاء المدوّدة بغير تناظر تجعلها تنتصب بين أشجار البتول البسّامة الضاحكة أشبه بغول عجوز غاضب، مبغض، محتقر. كانت وحدها رافضة أن تستسلم لسحر الربيع وأن تنقاد لفتنته، ولا تريد أن ترى لا ربيعًا ولا شمسًا. كانت كأنها تقول: «الربيع، الحب، السعادة! كيف لم تسأموا من هذا الخداع المتكرّر الأبدي؟ ألا ترون أن ذلك كله ليس إلّا

غشًّا؟ لا ربيع ولا شمس ولا سعادة! انظروا إلى شجيرات الصنوبر هذه المختنقة الميتة التي لا تتغير لها حال! ولطالما حاولت أنا أيضًا أن أبسط أذرعي وأصابعي العقفاء القشراء تخرج من ظهري وتطلع من جنبيَّ وتنبت أنَّى تشأ أن تنبت، وأبقى على حالي حيث أنا لا أتغير ولا أتبدل، فلست أؤمن بآمالكم وأكاذيبكم!».

التفت الأمير أندريه عدة مرات إلى هذه السنديانة أثناء اجتيازه الغابة ليراها كأنه ينتظر من رؤيتها شيئًا. كان في ظلها أزهار ملوّنة وعشب أخضر، ولكن ذلك لا يمنعها هي أن تصر على تجهّمها وجمودها وفظاظتها وشراستها.

فقال الأمير أندريه محدِّثًا نفسه: «نعم، إنها على حق، هذه السنديانة! ألا فلتنطلي الخديعة على الشبان، أما نحن فقد بلونا الحياة وعرفناها، لقد انتهت حياتنا نحن!».

وتعاقب في ذهنه بصدد هذه السنديانة موكب متلاحق من المعاني التي تجرّد النفس من افتتانها، وتُحرِّرها من أوهامها، ولكن فيها كآبة حلوة. وطفق يستعرض أثناء رحلته حياته كلها، فانتهى مرة أخرى إلى النتيجة التي سبق أن انتهى إليها، وهي نتيجة تهدئ النفس وتبث فيها الطمأنينة والسكينة، ولكنها تجرِّدها من افتتانها، وهي أن عليه ألا ينخرط في عمل شيء من الأشياء، وأن يكتفي بإنهاء حياته من دون أن يصنع بأحد شرًّا، ومن دون أن يعذب نفسه بالقلق، من دون أن يشتهي شيئًا من الأشياء.

الفصل الثاني

لأسباب تتعلّق بوصاية الأمير أندريه على ابنه في أملاك ريازان، احتاج الأمير أندريه إلى لقاء مارشال النبالة في المنطقة. وكان مارشال النبالة هو الكونت ايليا آندريفتش روستوف، فذهب إليه في منتصف شهر أيار (مايو).

نحن الآن في الفترة الحارة من الربيع؛ والغابات قد كمل اكتساء أشجارها بالأوراق؛ وفي الطريق غبار؛ والجو يبلغ من الحر أن المرء يشتهي أن يستحم إذا مرَّ بأي ماء.

ها هي ذي عربة الأمير أندريه تسير في الممر المفضي إلى منزل آل روستوف بين صفين من الأشجار بحديقة منزلهم في أوترادنوي. إنه متجهم الوجه مشغول البال بما سيطلبه من مارشال النبالة.

وهذه أصوات نسوية فرحة تصل إلى مسمعه من بين الأشجار في اليمين، وها هوذا يرى عصبة من الفتيات تجري فتسد على عربته الطريق. إن في طليعتهن فتاة سمراء لها عينان سوداوان، وقامة هيفاء شديدة النحافة ترتدي فستانًا أصفر من نسيج الهند، وتعقد على رأسها منديلًا أبيض من المناديل التي توضع في الجيب، وتُفلت من تحت المنديل خصلات من شعرها مشعّثة. كانت الفتاة تصيح قائلة كلامًا، ولكنها ما إن رأت رجلًا غريبًا حتى ولّت هاربة من دون أن تنظر إليه.

فإذا بالأمير أندريه يحسّ فجأة بضيق في صدره، لا يدري لماذا كان الجو رائع الجمال، وكانت الشمس فاتنة التلألؤ، وكان كل شيء حواليه يشعّ فرحًا؛ وهذه الفتاة الهيفاء النحيفة لا تعرف حياته، ولا يهمها أن تعرفها. إنها راضية عن حياتها هي، مكتفية بها؛ وقد تكون غبية، لكنها فرحة سعيدة.

«ما الذي يجعلها سعيدة هذه السعادة كلها، في أي شيء تفكر؟ لا شك أنها لا تفكر لا في النظام العسكري، ولا في منح فلاحي ريازان حق استئجار الأرض. ما الذي تفكّر فيه؟ وما الذي يجعلها سعيدة؟». كذلك كان الأمير أندريه يتساءل باهتمام شديد.

كان الكونت إيليا آندريفتش روستوف يعيش سنة 1809، في أوترادنوي، الحياة نفسها التي كان يحياها في الماضي، أي كان يستقبل في منزله جميع أهل المقاطعة تقريبًا، ويهيئ رحلات صيد، وينظّم لهم حفلات تمثيل، ويولم لهم مآدب عشاء، ويدعوهم إلى سماع موسيقى. وكانت كل زيارة جديدة تسرُّه كثيرًا، فما كان أعظم سعادته برؤية الأمير أندريه، حتى لقد احتجزه للمبيت في منزله بما يشبه الإجبار.

قضى الأمير أندريه نهارًا مملًا مضجرًا في صحبة ضيوف الكونت روستوف الوجهاء المرموقين من مدعوّيه الذين كان المنزل يغص بهم بمناسبة عيد قريب، ولكنه نظر عدة مرات إلى ناتاشا التي كانت تضحك وتتسلّى مع الشبيبة، فكان يتساءل كل مرة: «في أي شيء تفكّر؟ ما الذي يجعلها سعيدة هذه السعادة كلّها؟».

حتى إذا كان المساء، وخلا إلى نفسه في غرفة لا يعرفها، لبث ساهرًا مدة طويلة لا يستطيع إلى النوم سبيلًا. لقد قرأ، ثم أطفأ الشمعة، ثم أشعلها من جديد. وكان الجو في الغرفة حارًّا لأن مصاريع النوافذ كانت مغلقة. فغضب من ذلك، الشيخ الغبي (كذلك كان يسمي روستوف) الذي احتجزه للمبيت زاعمًا أن الأوراق اللازمة لم يتم جلبها من المدينة، وغضب من نفسه لأنه رضي أن يبقى.

وها هوذا ينهض فيمضي إلى النافذة ليفتحها. فما إن شق مصراعيها حتى داهمت أشعة القمر الغرفة، كأنها كانت تتربّص الوراء النافذة منذ مدة طويلة، ولا تنتظر إلّا أن تُفتح النافذة حتى تقتحم الغرفة. كانت الليلة طرية مضيئة ساجية. وكان يمتدّ أمام النافذة تمامًا صفٌّ من أشجار مقلمة، سود من إحدى جهتيها، مضاءة بنور فضي من جهتها الآخرى. وكان تحت الأشجار نبت مترع بالنسغ، مخضَّل بالرطوبة، شديد الكثافة، وأوراق

وسيقان فضّية متناثرة هنا وهناك؛ والوراء الأشجار السود، يُرى سقف يتلألأ بقطرات الندى، وعلى اليمين شجرة ضخمة كثيفة جذعها وأغصانها باهرة البياض، والقمر يطل على هذا كلّه وقد أوشك أن يكتمل بدرًا في سماء مضيئة كما تكون السماء في الربيع، فلا تكاد تُرى فيها نجوم.

وضع الأمير أندريه كوعه على النافذة، وشخص ببصره إلى السماء.

إن غرفته تقع في الطابق الأول، وغرف الطابق الذي يعلوه مسكونة لمَّا ينم سكانها بعد. إذ أصوات نساء تصل إلى مسمعه من فوق.

قال صوت سرعان ما تعرّفه الأمير آندرو.

– مرة أخرى، مرة واحدة لا أكثر.

فأجاب الصوت الآخر:

– فمتى تنامين إذًا؟

– لن أنام. لا أريد أن أنام. ليس هذا ذنبي! هيا. مرة أخيرة!

فأخذت المرأتان تنشدان جملة موسيقية هي خاتمة قطعة.

– آه... ما أجملها! ما أروعها! والآن هيا نامي. انتهينا.

– نامي أنت، أما أنا فلا أستطيع.

بذلك أجاب الصوت الأول الذي كان أقرب إلى النافذة. وكان واضحًا أن المرأة التي أجابت بهذا الكلام كانت مائلة خارج النافذة كثيرًا، لأن حفيف فستانها كان يُسمع، بل كانت أنفاسها تُسمع أيضًا. وصمت كل شيء وجمد كل شيء، كالقمر وضيائه والظلال. وكان الأمير أندريه يخشى هو أيضًا أن يجري أية حركة مخافة أن يفتضح وجوده الذي كان بغير إرادة منه.

عاد الصوت الأول يقول:

– صونيا، صونيا. أين لنا أن ننام؟ ألا نظرت ما أروع هذا! آه... ما أروعه!

وأضافت والدموع تكاد تخالج صوتها:

– هلاَّ استيقظت يا صونيا! أؤكد لك أننا لم نشهد في حياتنا ليلة تبلغ هذا المبلغ من الروعة، أبدًا...

فأجابت صونيا ببعض الكلام على مضض.

– ألا نظرت إلى هذا القمر! آه... ما أروعه! تعالي هنا يا عزيزتي، يا

روحي، تعالي هنا! هيه... هل ترين؟ إن المرء ليشتهي أن يقرفص كهذه القرفصة، وأن يتحفّز بشد ركبتيه شدًّا قويًّا، قويًّا جِدًّا، قويًّا إلى أقصى حد يستطيعه ثم يثب، فإذا هو يطير... هكذا...

- انتبهي، تكادين أن تسقطي.

وسُمعت جلبة صراع، وسُمع صوت صونيا تقول مستاءة:

- الساعة تجاوزت الواحدة!

- آه... إنك تفسدين عليَّ كل شيء. هيا! هيا انصرفي!

وصمت كل شيء من جديد، ولكن الأمير أندريه عرف أنها لا تزال هناك، فهو تارة يسمع حفيفًا خفيفًا، وتارة يسمع تنهّدات.

وهتفت الفتاة على حين فجأة تقول:

- آه... رباه! رباه! ما هذا!

ثم أضافت: «لننم إذا كان لا بد من النوم!». وأغلقت النافذة.

كان الأمير أندريه يتوقّع أن تتكلم عنه، وكان يخشى أن تتكلّم عنه حين كان يصغي إلى كلامها، فلما لما تفعل، قال لنفسه: «لا شك أن وجودي لا يهمها في قليل ولا كثير!». لا يدري الأمير أندريه لماذا توقّع أن تتكلّم عنه. وتابع حديثه لنفسه قائلًا: «لماذا أقع عليها في طريقي مرة أخرى. مصادفة كأنها عمد!».

وهبَّ في أعماق نفسه إعصار من الأفكار وآمال الشباب، إعصار يناقض حياته كلها ويبلغ من العنف والقوة أنه أحسّ بعجزه عن تعطيل حالته فسرعان ما نام.

الفصل الثالث

عاد الأمير أندريه إلى منزله في الغداة، بعد أن ودَّع الكونت الشيخ وحده، ولم ينتظر أن يتمكّن من تحية السيدات.

وكان قد بدأ شهر حزيران (يونيو) حين دخل الأمير أندريه، في طريق عودته إلى ليسييه جوري، مرة أخرى غابة أشجار السندر تلك التي رأى فيها شجرة السنديان العقفاء، فأحدثت هذه الشجرة في نفسه أثرًا غريبًا لا يُنسى. وكانت أجراس عربته ترجّع الآن في الغابة صوتًا بهيمًا أكثر من الصوت الذي كانت ترجّعه فيها قبل ستة أسابيع. كان كل شيء قد تفتح وازدهر، وصار لكل شيء ظلّ، وغدا كل شيء كثًّا كثيفًا، وغدت شجيرات الصنوبر المبعثرة في الغابة لا تنتقص من جمال الغابة، وإنما هي الآن خاضعة للانسجام الشامل والاتساق العام تعرض على الأبصار طراوة خضرة براعمها الفتية الزغبة.

كان الحر قد اشتد طوال النهار، وكانت عاصفة توشك أن تهب في مكان من الأمكنة، ولكن غيمة صغيرة كانت قد انسكبت مطرًا على غبار الطريق وعلى أوراق الأشجار المثقلة بالنسغ. وكان الجانب الأيسر من الغابة غارقًا في الظل، وكان الجانب الأيمن يلتمع بقطرات المطر تحت أشعة الشمس ولا تكاد تهزّه ريح. كل شيء مزهر، والعنادل تطلق أنغامها وترسل زغرداتها، بعيدة تارة، وقريبة تارة أخرى كل القرب.

قال الأمير أندريه لنفسه وهو ينظر إلى شمال الطريق: «نعم، هنا، في هذه الغابة إنما كانت تقوم تلك السنديانة التي اتفقت معها في الرأي. ولكن أين هي؟». وكان يُعجَب بالسنديانة التي يبحث عنها من دون أن يراها، من دون أن يعرفها. كانت السنديانة العجوز التي استحالت استحالة كاملة تمتد

هرمًا من خضرة قاتمة غزيرة مبتهجة أعظم الابتهاج تحت أشعة الشمس الغاربة. لا أصابع عقفاء، ولا جراح، ولا ذلك الشك القديم والحزن الغابر. إن الناظر إلى السنديانة لا يرى شيئًا من ذلك كله. ومن قشرتها الخشنة التي عمرها مائة سنة كانت تنبجس رأسًا، بغير أغصان، أوراق تبلغ من الامتلاء بالنسغ، أن المرء يصعب عليه أن يصدِّق أن هذه السنديانة العجوز يمكن أن تهب لها الحياة. قال الأمير أندريه لنفسه: «ولكن هذه هي السنديانة نفسها»، واعتراه على حين فجأة شعور بالفرح لم يعرف له سببًا، وأحس بنفسه تتجدّد في هذا الربيع كما يتجدّد سائر ما في الطبيعة. وعادت إلى خياله أحسن لحظات حياته دفعة واحدة. وعرضت لخياله صورة أوسترلتز وسماؤها العالية، وتراءى له وجه زوجته ميتًا مثقلًا بالعتب، ومرَّ بخاطره بطرس في العَبَّارَة، وتمثّلت له الفتاة التي أهاجت روعة الطبيعة نفسها، وتصوّر تلك الليلة ذاتها والقمر الذي داهم غرفته. ذلك كله عرض لخياله متعاقبًا على حين فجأة.

قال لنفسه جازمًا على حين فجأة: «لا، لا تنتهي الحياة في السنة الحادية والثلاثين من العمر. ليس يكفي أن أعلم كل ما في نفسي، وإنما يجب أن يعلم ذلك جميع الناس. يجب أن يعلمه بطرس، وأن تعلمه تلك الفتاة التي أرادت أن تطير في السماء. يجب أن يعرفني الناس كافة، وألا تنقضي حياتي لنفسي وحدي، يجب ألا يعيش الناس حياة مستقلة هذا الاستقلال كله عن حياتي؛ يجب أن تنعكس حياتي في حياتهم، وأن يعيشوا جميعًا معي».

قرر الأمير أندريه بعد عودته من رحلته أن يسافر في الخريف إلى بطرسبورغ وافترض لهذا السفر أسبابًا شتى. فكانت سلسلة كبيرة من الحجج العقلية والمنطقية مهيأة في ذهنه للتدليل على ضرورة سفره إلى بطرسبورغ، بل على ضرورة دخوله في خدمة الدولة أيضًا. حتى لقد أصبح لا يفهم كيف أمكنه يومًا أن يشك في لزوم المشاركة في الحياة، بعد أن كان قبل شهر واحد لا يمكن أن تخطر بباله فكرة ترك الريف. وأصبح يعتقد أن كل تجربة الحياة التي حصّلها لا بد أن تضيع وأن تموت إذا هو لم يطبقها تطبيقًا عمليًّا، ولم يعد إلى المشاركة الفعَّالة في الحياة. حتى لقد أصبح لا يفهم كيف أمكنه أن يتصوّر في الماضي، بالاستناد إلى حجج ضعيفة وأدلة واهنة، أنه يخفض

قدره وينزل بقيمته إذا هو آمن من جديد، بعد دروس الحياة، بأن في وسعه أن يكون نافعًا، وبأن في وسعه أن يلقى السعادة وأن يجد الحب. إن المنطق يوحي إليه الآن بشيء مختلف عن هذا كل الاختلاف. فبعد تلك الرحلة لم يلبث أن سئم من الريف، وصارت مشاغله السابقة لا تشوّقه، وصار إذا خلا إلى نفسه في مكتبه يقوم كثيرًا إلى المرآة، وينظر في وجهه مليًّا، ثم ينقل بصره إلى صورة ليزا التي كانت تنظر إليه من إطارها نظرة حنان وحب وفرح، وقد رفعت خصل شعرها «على طريقة الإغريق».

لقد كفَّت الآن عن مخاطبة زوجها بتلك الكلمات الرهيبة التي كانت توجّهها إليه من قبل، وإنما هي تكتفي بالنظر إليه مرحة، فرحة، مستطلعة. وراح الأمير أندريه يذرع الغرفة مدة طويلة، جاعلًا يديه الوراء ظهره، فتارة يكون عابس الوجه، وتارة يكون مبتسمًا يحرِّك في ذهنه تلك الخواطر التي لا يسهل على المرء أن يعقلها، ولا يستطيع أن يُعبِّر عنها بألفاظ، وتظل مستترة متخفّية كالجريمة، وهي خواطر تتّصل ببطرس، وبالمجد، وبالفتاة التي مالت خارج النافذة، وبالسنديانة، وبجمال المرأة، وبالحب، وبغير ذلك مما كان قد بدَّل حياته. فإذا اتفق أن دخل عليه في تلك اللحظات أحد، ألفاه جافًا، قاسيًا، قاطعًا، باتًّا، ولا سيما مزعجًا بشدة اعتماده على المنطق، واكتفائه به.

وكانت الأميرة ماريا تدخل عليه أحيانًا فتقول له:

- عزيزي، إن الصغير نيقولا لا يمكن أن يتنزّه اليوم، فالجو بارد جِدًّا.

فإذا هو يجاوب أخته بلهجة جافة خشنة:

- لو كان الجو حارًا لخرج بقميص، أما وأن الجو بارد فيجب إلباسه ثيابًا تدفئه اختُرعت لهذا الغرض. هذا ما توجبه برودة الجو، ولا توجب برودة الجو أن يُحبَس الولد في البيت مع حاجته إلى الهواء...

بذلك كان الأمير أندريه يردُّ معتمدًا على منطق جامد جمودًا شديدًا، كأنما ليعاقب أحدًا على هذا الشيء الذي يحدث في أعماق نفسه مستترًا، لا منطق فيه. فكانت الأميرة تقول لنفسها في مثل تلك اللحظات إن عمل الدماغ يُيبِّس الإنسان.

الفصل الرابع

وصل الأمير أندريه إلى بطرسبورغ في شهر آب (أغسطس) سنة 1809، كان ذلك هو العهد الذي بلغ فيه الشاب سبيرانسكي[1] قمّة مجده، وكان في إصلاحاته يبرهن على طاقة كبيرة ومقدرة فائقة. وفي ذلك الشهر كان الإمبراطور قد انقلب وجُرحت رجله، فقضى ثلاثة أسابيع في بطرسبورغ كان في أثنائها يرى سبيرانسكي من دون سائر الناس كلَّ يوم تقريبًا. وفي ذلك الأوان كان يُهيَّأ القانونان اللذان أقلقا الناس كثيرًا، وهما القانون الخاص بإلغاء رتب البلاط[2]، والقانون الخاص بالامتحانات[3] التي تؤهّل للحصول على الدرجة الثامنة والدرجة الخامسة في الوظائف المدنية، بل كان يُهيَّأ كذلك دستور كامل من شأنه أن يقلب النظام القضائي والإداري والمالي القائم رأسًا على عقب، ابتداء بمجلس الدولة وانتهاء بالسلطات

(1) ميخائيل ميخائيلوفتش سبيرانسكي (1772 - 1839)، ابن كاهن، كان أستاذًا، ثم ظهر أنه رجل دولة فذ، عين سكرتير دولة سنة 1801 بفضل الكونت كوتشوباي، وأعد قوانين ليبرالية ومشروعًا واسعًا لدستور. وقد اتهم بأنه يدعم نابوليون فنفي سنة 1812، ثم عُيِّن حاكمًا لمقاطعة بنزا، فحاكمًا عامًّا لسيبريا الشرقية سنة 1819؛ وقد رجع إلى العاصمة سنة 1821، فرأس «لجنة التشريع»، ولكنه لم يسترد ما كان له على ألكسندر الأول من نفوذ.

(2) إن تولستوي لا يعبّر هنا تعبيرًا دقيقًا، فإن رتب البلاط لم تلغ إلغاء، وإنما أصبحت لا تفرض لحاملها مرتبًا أو مكافأة، فهي رتب شرفية أو فخرية.

(3) بمبادرة من سبيرانسكي، أصبح الانتقال إلى الدرجة الثامنة وإلى الدرجة الخامسة في الوظائف المدنية بالدولة إنما يكون بامتحان.

في المقاطعات[1]. في ذلك الأوان إنما كانت تتحقّق الأحلام الليبرالية الغامضة وتتجسّد، وهي الأحلام التي اعتلى الإمبراطور ألكسندر عرش روسيا حاملًا لها، والتي حاول أن يحقّقها بمساعدة معاونيه حينذاك، وهم كزارستوريسكي، ونوفوسيلتوف، وكوتشوباي، وستروغانوف، الذين كان يسميهم مديمتريتش باسم «لجنة السلامة العامة».

والآن حلَّ سبيرانسكي محلَّهم جميعًا في الشؤون المدنية، وآراكتشاييف في الشؤون العسكرية. ولم ينقضِ على وصول الأمير أندريه زمن قصير حتى ظهر في البلاط وفي اللقاءات العامة التي يقيمها ألكسندر من حيث إنه كان حاجبًا للإمبراطور. وقد صادفه الإمبراطور مرتين، فلم يشرِّفه بتوجيه كلمة واحدة إليه. وكان الأمير أندريه يحسّ منذ زمن بعيد بأن الإمبراطور لا يستلطفه وأنه لا يستحب وجهه، ويضيق بشخصه كلّه. فكان من شأن النظرة الجافّة المتحفّظة التي رمقه بها الإمبراطور أن عزَّزت إحساسه مزيدًا من التعزيز. وقد حاول رجال البلاط أن يعلّلوا له هذه البرودة بأن صاحب الجلالة قد ساءه أن يراه بعيدًا عن كل عمل منذ عام 1805.

فكان الأمير أندريه يقول لنفسه: «أنا أعلم أننا لسنا نتحكّم بما نشعر به من عواطف المودّة والنفور، فلا يجب أن أفكر إذًا في أن أتولّى بنفسي تقديم مذكرتي عن النظام العسكري إلى الإمبراطور، ولكن فكرتي ستجد سبيلها إليه من تلقاء ذاتها». وأرسل إلى صديق من أصدقاء أبيه هو شيخ برتبة فيلد مارشال، فحدَّد له الفيلد مارشال موعدًا، واستقبله باشًّا مرِّحبًا، ووعده بأن يعرض الأمر على الإمبراطور. فما انقضت بضعة أيام حتى أُبلغ الأمير أندريه بأن عليه أن يذهب إلى وزير الحرب، الكونت آراكتشاييف.

ففي الساعة التاسعة من الصباح، وهو الموعد المحدَّد، دخل الأمير أندريه إلى صالون الاستقبال الملحق بمكتب الكونت آراكتشاييف.

إن الأمير أندريه لا يعرف الكونت آراكتشاييف معرفة شخصية، ولا رآه

---

(1) لقد أعد سبيرانسكي خطة واسعة لنظام برلماني ذي مجلسين: مجلس الدولة الذي دشن في أول كانون الثاني (يناير) سنة 1810، ومجلس النواب الذي لم يكتب له أن يدعى إلى ما بعد قرن من الزمان، أي سنة 1909.

في يوم من الأيام، ولكن كل ما كان يعلمه عنه كان لا يجعله يحترم هذا الرجل كثيرًا.

قال محدِّثًا نفسه وهو ينتظر في الصالون مع عدد كبير من الأشخاص المتفاوتة أقدارهم: «إنه وزير الحرب، وهو يحظى بثقة صاحب الجلالة. فليس لأحد أن يشغل باله بمزاياه الشخصية، وقد عُهد إليه بدراسة مذكرتي، فهو إذًا الشخص الوحيد الذي يمكن أن يضعها موضع الاعتبار».

وكان الأمير أندريه، أثناء تقلّبه في وظائف شتى، ولا سيما أثناء عمله ضابطًا مرافقًا، قد رأى عددًا كبيرًا من غرف الانتظار الملحقة بمكاتبِ شخصيات كبيرة، وكان يعرف السمات التي تتميز بها هذه الغرف كلَّ المعرفة. ولكن صالون الاستقبال الملحق بمكتب الكونت آراكتشاييف كان له طابع خاص جِدًّا.

إن الأشخاص الذين ليسوا من أصحاب الشأن الخطير ممن كانوا ينتظرون أن يجيء دورهم لمقابلة الكونت كانت رؤوسهم مخفوضة وهيئاتهم مضطربة. والذين يفوقونهم رتبة كانوا يخفون هذا الارتباك نفسه تحت ستار من الانطلاق المصنوع، والتندّر على أنفسهم وعلى مراكزهم، وعلى الرجل الذي ينتظرون أن يستقبلهم. وكان بعضهم يتمشّى في الصالون واجمًا مفكّرًا، وكان بعضهم يتهامس حتى لقد سمع الأمير أندريه لقب «سيلا آندريتش»[1]، وسمع قول أحدهم لصاحبه «سيكسر الرجل رأسك كسرًا، ويريك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت!»، قاصدًا بذلك الكونت آراكتشاييف. وكان في الصالون جنرال (عالي المقام) قد أزعجه إزعاجًا واضحًا أن يضطر إلى الانتظار مدة طويلة، فكان يضع إحدى ساقيه على الآخرى ثم ينزلها وهو يبتسم ابتسامة فيها احتقار.

ولكن هذه الوجوه كلها كانت متى فُتح الباب لا تعبِّر إلّا عن شيء واحد، هو الخشية. وطلب الأمير أندريه من ضابط الخدمة أن يبلغ عنه مرة ثانية،

---

(1) سماه «سيلا آندريتش» بدلاً من أن يسميه باسمه وهو ألكسي آندريتش. وتلك فكاهة قائمة على جناس لفظي فاسم سيلا، وهو اسم نادر، معناه «صامت»، وكلمة «سيلا» معناها القوة.

ولكن ضابط الخدمة نظر إليه نظرة ساخرة وأجابه بأن دوره سيجيء. وبعد أن أدخل الضابط المرافق إلى مكتب الوزير عدة أشخاص ثم أرجعهم، أومأ إلى ضابط تعبّر هيئته عن الذل والرعب، وأدخله الباب الرهيب. لم تطل مقابلة الضابط، فما هي إلّا برهة حتى سمعت من الوراء الباب انفجارات صوت مزعج، ثم إذا بالضابط يخرج شاحب اللون، مختلج الشفتين، ويجتاز صالون الانتظار واضعًا رأسه في يديه.

وجاء بعده دور الأمير أندريه. فدمدم ضابط الخدمة قائلًا له: «على اليمين، بقرب النافذة».

فدخل الأمير أندريه، فإذا هو يجد نفسه في غرفة بسيطة نظيفة، قد جلس إلى مكتبها رجل في نحو الأربعين من عمره، طويل الجذع، طويل الرأس، قُص شعره قصيرًا، وتخدّد وجهه بغضون كبيرة، وتقطب حاجباه فوق عينين لا تعبّران عن شيء، تضرب سمرتهما إلى اخضرار، وله أنف أحمر متهدّل.

قال يسأل:

– ماذا تطلب؟

فأجابه الأمير أندريه برصانة ووقار:

– لا... لا أطلب شيئًا يا صاحب السعادة.

فالتفت آراكتشاييف بعينيه إليه، وقال:

– اجلس يا أمير بولكونسكي.

قال أندريه بولكونسكي:

– أنا لا أطلب شيئًا، ولكن الإمبراطور تفضّل فأحال إلى سعادتك مذكّرة قدّمتها...

فقاطعه آراكتشاييف بلهجة لم تكن لطيفة إلّا في الكلمات الأولى التي قالها:

– اسمع أيها العزيزجِدًّا، لقد قرأت مذكِّرتك....

وعاد يتكلّم بطريقة لا ينفك يزداد فيها معنى التأنيب والاحتقار، فقال وهو لا ينظر إليه:

– إنك تقترح قوانين عسكرية جديدة، أليس كذلك؟ فاعلم أن القوانين

القديمة كثيرة جِدًّا، وهي أكثر من أن يمكن تطبيقها. جميع الناس في هذا الزمان يكتبون مشاريع قوانين. ما أسهل الكتابة وما أصعب العمل!

قال الأمير أندريه بلهجة مهذَّبة:

- جئت تلبية لأمر من صاحب الجلالة لأعرف ما الذي تنوي أن تفعله بصدد مذكرتي.

فقال آراكتشاييف وهو ينهض ويتناول من على مكتبه ورقة:

- أبديت رأيي في مذكرتك، وكتبته عليها، وأحلتها إلى اللجنة. التي لا أؤيدها. خذ.

ومدَّ إليه الورقة.

كانت الورقة تحمل الكلمات التالية مكتوبة بالعرض، بالقلم الرصاص، من غير أحرف كبيرة تُستهل بها الجملة، ومن غير تقيّد بقواعد الإملاء، ومن غير استعمال للنقاط والفواصل: «لا تقوم على أسس منقولة عن النظام العسكري الفرنسي تنأى عن النظام المطبق من دون فائدة».

سأله الأمير أندريه:

- إلى أي لجنة أحيلت هذه المذكرة؟

- إلى لجنة النظام العسكري، وقد اقترحت أن تكون سيادتك عضوًا فيها، ولكن من غير مرتَّب.

فابتسم الأمير أندريه، وقال:

- لا أريد مرتّبًا.

فكرر آراكتشاييف قوله:

- من دون مرتب. تشرّفت. هيه. الذي بعده! من هناك أيضًا؟ كذلك صاح وهو يحيي الأمير أندريه.

الفصل الخامس

انتظر الأمير أندريه أن يبلَّغ بتعيينه عضوًا في اللجنة. وفي أثناء ذلك جدّد صلات قديمة، ولا سيما بأشخاص يعلم أن لهم سلطة ونفوذًا، وأنه قد يحتاج إليهم وينتفع بهم. إنه الآن في بطرسبورغ يشعر بما يشبه الشعور الذي كان يملأ نفسه عشية المعارك، حين كان يستبد بنفسه حب الاطلاع قلقًا أشد القلق، وحين كانت الدوائر العليا تجتذبه اجتذابًا لا يملك أن يقاومه، أعني الدوائر التي يتهيأ فيها المستقبل الذي يتوقّف عليه مصير ملايين البشر. وكان يحسّ من ملاحظة حنق الشيوخ، وفضول غير المطلعين، وتحفّظ المطّلعين، واستعجال الناس كافة، وإشغال بال الجميع، وتكاثر اللجان والمجالس التي يعلم بتشكيلها كل يوم، معركة مدنية واسعة تتهيأ في سنة 1809 هذه. وتدور هنا في بطرسبورغ، وهي معركة قائدها العام شخص لا يعرفه هو، شخص محفوف بالسر يبدو له أنه شخصٌ عبقريّ. إن هذا الرجل هو سبيرانسكي. وقد بلغ الأمير أندريه من شدة الشغف بقضية الإصلاحات التي كان لا يعرفها إلّا معرفة ناقصة، وبلغ من فرط الولوع بأمر سبيرانسكي صاحب هذه الإصلاحات. إن مسألة النظام العسكري سرعان ما صارت في المقام الثاني من اهتماماته.

وكانت ظروف الأمير أندريه تهيئه أحسن تهيئة لأن تستقبله شتى الحلقات وأرفع الحلقات في المجتمع البطرسبورغي العالي. فكان حزب الإصلاحات يستقبله استقبالًا مفعمًا بالمودّة، ويتقرب إليه، أولًا لأنه اشتهر بأنه رجل ذكي واسع الثقافة، وثانيًا لأنه بتحريره لفلاحيه قد ذاع صيته وعُرف بأنه ليبرالي. وكان حزب الشيوخ المستائين يحاولون أن يجدوا فيه

حليفًا لهم بحكم انه ابن أبيه، حليفًا يشاطرهم استنكارهم للإصلاحات. وكانت النساء، أي المجتمع الراقي، تفتح له أبوابها على مصاريعها، أولًا لأنه شاب مرشّح للزواج يملك ثروة طائلة ويحمل لقبًا مُمتازًا، ولأنه وجه شبه جديد تحفّ به هالة المغامرات التي وقعت له والتي تشبه أن تكون حوادث رواية من الروايات، كشيوع نبأ موته قتيلًا في الحرب، وكالنهاية الحزينة التي خُتمت بها حياة زوجته. زد على ذلك أن جميع الذين عرفوه من قبل كانوا مجمعين على الاعتراف بأنه في خلال هذه السنوات الخمس قد تبدل تبدلًا طيبًا، فرقّ طبعه ولانت عريكته ونضج فكره، وإن ما كان يتصف به في الماضي من تصنّع وزهو وميل إلى السخرية قد زال وحل محله هذا الهدوء الذي يكتسبه الإنسان حين يتقدّم في السن. كان الناس يتكلّمون عنه، ويهتمّون به، وكان جميع الناس يريدون أن يروه.

في غداة زيارته للكونت آراكتشاييف، ذهب الأمير أندريه إلى الكونت كوتشوباي[1] يقضي السهرة في بيته. وقص على الكونت ما جرى بينه وبين «سيلا آندريتش» (بهذا الاسم كان كوتشوباتي يسمي صاحبنا آراكتشاييف، تسمية مشوبة بتلك السخرية الغامضة نفسها التي لاحظها الأمير أندريه في قاعة الانتظار الملحقة بمكتب وزير الحرب).

قال كوتشوباي للأمير أندريه:

- يا عزيزي، حتى في هذه القضية لا تستطيع الاستغناء عن ميخائيل ميخائيلوفتش. هو الصانع الكبير. سأكلمه في الأمر وقد وعد بأن يجيء هذا المساء...

سأل الأمير أندريه الكونت كوتشوباي:

- كيف تكون الأنظمة العسكرية أمرًا يخص سبيرانسكي، فيُحال هذا الأمر إليه؟

فهز كوتشوباي رأسه مبتسمًا، كالمندهش من سذاجة بولكونسكي وتابع كلامه يقول:

---

(1) فيكتور كوتشوباي (1768 –)، صديق شباب ألكسندر الأول، وزير للداخلية من سنة 1802 إلى سنة 1807. من أصحاب الأملاك الليبراليين.

- تكلّمنا عنك في هذه الأيام، وتكلمنا عن مزارعيك الأحرار...

فانبرى شيخ من عهد كاترين يسأل بولكونسكي ملتفتًا إليه بهيئة تدل على الاحتقار:

- ها... إذًا أنت الذي حرّرت فلاحيك يا أمير؟

فأجاب بولكونسكي حتى لا يغيظ الشيخ بغير فائدة، وحتى يخفّف في نظره فداحة عمله:

- هي أرض صغيرة كانت لا تدرّ ربحًا!

قال الشيخ وهو ينظر إلى كوتشوباي:

- تخشى أن تُعَدّ متخلفًا.

وتابع كلامه يقول:

- هناك شيء لا أفهمه. من عسى يفلح الأرض إذا نحن حرّرناهم! إن وضع القوانين سهل، والحكم هو الصعب. قل لي مثلًا يا كونت: «من أين يؤخذ رؤساء المكاتب إذا كان على جميع الناس أن يتقدّموا إلى امتحانات؟».

أجاب كوتشوباي وهو يضع ساقًا على ساق، ويلقي بصره حواليه:

- يؤخذون من بين الناجحين في الامتحانات على ما أتخيّل.

- إليك هذا المثال: إن في مكاتبي رجلًا يقال له بريانتشنيكوف. هو رجل شهم، بل هو كنز حقًا. ولكنّ عمره ستون سنة، فهل عليه إذًا أن يتقدّم إلى امتحانات ينجح فيها؟

أجاب الكونت كوتشوباي:

- هذه صعوبة طبعًا، ولا سيما أن التعليم قليل الانتشار جِدًّا، ولكن...

لم يكمل الكونت كوتشوباي جملته، بل قام وأمسك ذراع الأمير أندريه ومضى يستقبل قادمًا جديدًا فارع الطول، أشقر، أصلع الرأس، طويل الوجه، أبيض بياضًا عجيبًا خارقًا، يرتدي فراكًا أزرق، ويتوشّح عنقه بوسام، ويزدان صدره برصيعة. إنه سبيرانسكي.. وسرعان ما حزر الأمير أندريه أنه سبيرانسكي فأحسّ باهتياج في نفسه، كما يحدث ذلك للمرء في اللحظات الخطيرة من حياته. إن لشخص سبيرانسكي كله طابعًا خاصًا أصيلًا سرعان

ما يتعرفه الإنسان به. لم يكن الأمير أندريه قد عرف في أحد من أبناء البيئة التي عاش فيها، رجلًا اجتمع له هذا الهدوء كله وهذه الثقة كلها، وهذه الخراقة كلها في الحركات والإشارات معًا. ولم يكن قد رأى في أحد نظرة اجتمع لها كل هذا الثبات وكل هذه الرقة في عينين نصف مغمضتين، مخضّلتين قليلًا، ولم يكن قد رأى في أحد صلابة كهذه الصلابة في ابتسامة لا تعبّر عن شيء، وصوتًا يبلغ هذا المبلغ من النحول والتساوي والهدوء، ولم يكن قد رأى في أحد بياضًا لطيفًا هذا اللطف كله في الوجه ولا سيما في اليدين، وهما يدان عريضتان لكنهما تبلغان من الرقة والامتلاء والبياض شيئًا خارقًا. لم يكن قد رأى هذا البياض وهذه الرقة في الوجه إلّا لدى جنود أقاموا إقامة طويلة في المستشفى. ذلك كان سبيرانسكي، سكرتير الدولة ومستشار الإمبراطور ومرافقه في أيرفورت حيث كلّم نابوليون غير مرة.

لم تنتقل عينا سبيرانسكي من شخص إلى آخر، كما يفعل المرء بغير إرادة منه حين يدخل على جماعة كبيرة العدد، ولم يتعجّل المبادرة إلى الكلام. وكان يتحدّث بصوت خافت، واثقًا أن الآذان تصغي إليه، وكان لا ينظر إلّا إلى الشخص الذي يتّجه إليه بالمخاطبة.

انتبه الأمير أندريه انتباهًا شديدًا إلى كل كلمة قالها سبيرانسكي وإلى كل حركة صدرت عنه. وكما يحدث خاصّةً عند أولئك الذين اعتادوا أن يصدروا في حق غيرهم حكمًا قاسيًا إذا هم التقوا رجلًا جديدًا، مثل سبيرانسكي خاصّةً، لا يعرفونه إلّا من سمعته وشهرته، فقد كان الأمير أندريه يتوقع أن يجد في سبيرانسكي جميع الفضائل الإنسانية وهي في ذروة كمالها.

قال سبيرانسكي للكونت كوتشوباي إنه يؤسفه أنه وصل متأخرًا بعض التأخر لأنه احتجز في القصر. لم يقل أن الإمبراطور هو الذي احتجزه. فلاحظ الأمير أندريه كذلك اصطناع التواضع هذا. وحين عرفه كوتشوباي بالأمير أندريه، رفع سبيرانسكي عينيه إليه ببطء مبتسمًا ابتسامته نفسها، ونظر إليه صامتًا. ثم قال:

- يسعدني أن أعرفك، فقد سمعت عنك كما سمع عنك جميع الناس.

وأشار كوتشوباي بضع كلمات إلى الاستقبال الذي استقبل به

آراكتشاييف الأمير بولكونسكي، فازداد تبسّم سبيرانسكي، وقال مبرزًا كل مقطع وكل كلمة من جملته إبرازًا واضحًا:

- إن مدير «لجنة الأنظمة العسكرية»، ماجنتسكي[1]، وآمل أن تجد لديه التعاطف وحب المعاونة في تحقيق كل ما هو معقول.

واحتشدت حول سبيرانسكي حلقة، وألقى عليه الشيخ الذي سبق أن تكلّم عن مرؤوسيه بريانتشيكوف، ألقى عليه سؤالًا أيضًا.

كان الأمير أندريه لا يشارك في الحديث، وإنما هو يلاحظ جميع ما يصدر عن حركات عن سبيرانسكي، هذا الرجل الذي كان منذ وقت قصير طالبًا في مدرسة كهنوتية، فإذا هو الآن يقبض بيديه البيضاوين السمينتين على مصير روسيا. وقد خطف بصر الأمير أندريه ما رآه من هدوئه الخارق المزدري الذي ظهر في جوابه عن سؤال الشيخ. كان كمن يساقط كلامه من علٍ متنازلًا أكبر التنازل. فلما رفع الشيخ صوته كثيرًا، ابتسم سبيرانسكي وقال إنه ليس بالقاضي يحكم على مزايا وعيوب ما يقرّره الإمبراطور.

وبعد أن شارك سبيرانسكي زمنًا في الحدث العام قام من مكانه وأقبل على الأمير أندريه، فأمسك يده واقتاده إلى الطرف الآخر من الغرفة. كان واضحًا أنه يعتقد بضرورة الاهتمام بالأمير بولكونسكي.

- لم أتمكّن من أن أكلّمك، يا أمير، في وسط تلك المناقشة الحامية التي جرَّني إليها ذلك الشيخ المحترم...

قال سبيرانسكي ذلك للأمير أندريه وهو يبتسم ابتسامة تحمل معنى التسامح والازدراء، فكأنه بهذه الابتسامة يعترف بأنه والأمير أندريه يدركان تفاهة هؤلاء الناس الذين كان يحادثهم. فكان من شأن هذا أن أرضى الأمير أندريه عن نفسه. وتابع سبيرانسكي كلامه فقال:

- أعرفك منذ مدة طويلة، أعرفك أولًا بما صنعت لفلاحيك. لقد

(1) ميخائيل ليونتيفتش ماجنتسكي (1778 - 1855)، ابن كاهن، كان في بداية بزوغ نجمه معاونًا لسبيرانسكي، ثم نفي هو أيضًا سنة 1812 (نُفي إلى فولوغدا)، ورجع من المنفى سنة 1816، وانتقل إلى صفوف الرجعية وعُيِّن سنة 1819 قيّمًا على جامعة قازان، فخنق فيها كل فكر ليبرالي.

ضربت أول مثل يتمنّى المرء أن يقتدي به آخرون كثيرون. وأعرفك ثانيًا أحد قلة قليلة من حجّاب الإمبراطور الذين لم يسوءْهم القانون الجديد الخاص بوجهاء البلاط، وهو قانون أثار كثيرًا من المناقشات والتعليقات.

قال الأمير أندريه:

– نعم، لم يشأ أبي أن أستفيد من ذلك الحق، فتابعت الإجراءات القانونية.

– أشك بأن السيد أباك، وهو من رجال الزمان القديم، يفوق معاصرينا هؤلاء الذين ينتقدون هذا الإجراء، وهو إجراء لا يزيد على إعادة قيام العدالة الطبيعية.

قال الأمير أندريه وكان يحاول أن يقاوم ما أخذ يحسّ به من تأثير سبيرانسكي فيه ونفوذه عليه:

– أظنّ مع ذلك أن هذه الانتقادات لا تخلو من أساس تقوم عليه.

كان يسوء الأمير أندريه أن يوافق سبيرانسكي في كل أمر، فأراد أن يعارض رأيه. لكنه وهو المعروف بسهولة الكلام وطلاقة اللسان، يشعر الآن بشيء من الصعوبة في التعبير. ذلك أنه كان منصرفًا بكل نفسه إلى ما يرصده ويلاحظه في شخص هذا الرجل الشهير.

أجابه سبيرانسكي قائلًا برقة ولطف:

– ربما كان الأساس الذي تقوم عليه هذه الانتقادات هو إرضاء الطمع الشخصي...

فقال الأمير أندريه:

– وربما كان الرغبة في تحقيق مصلحة الدولة أيضًا.

فسأله سبيرانسكي برفق وهو يخفض عينيه: كيف تتصوّر الأمر؟

فأجاب الأمير أندريه قائلًا:

– أنا معجب بمونتسكيو. والفكرة التي يذهب إليها مونتسيكو، وهي أن مبدأ الملكيات الشرف، تبدو لي صحيحة لا يمكن جحودها. وهناك حقوق وامتيازات تتمتع بها الطبقة النبيلة يبدو لي أنها وسائل تعزّز عاطفة الشرف هذه.

زايلت الابتسامة وجه سبيرانسكي الأبيض، واكتسب محيّاه من ذلك جمالًا كثيرًا. لا بد أن فكرة الأمير أندريه قد بدت له مهمّة شائقة.

وبدأ يتكلم فقال بهدوء شديد، رغم أنه تكلم بالفرنسية مبديًا بذلك ضيقًا واضحًا. بطيئًا في النطق بطئًا يزيد على بطء نطقه حين يتكلّم بالروسية:

- إذا كنت تنظر إلى الأمر من هذا الجانب... ومضى يشرح بحجج بسيطة موجزة واضحة أن الشرف لا يمكن أن تعززه امتيازات تضر بحسن سير الأمور. وأوضح أن الشرف ليس إلّا التعبير السلبي عن فكرة الامتناع عن أعمال توجب العقاب أو هو أيضًا محرّض يدعونا إلى اكتساب الرضى عنا أو جني المكافآت التي تعبر عن هذا الرضى. ثم أضاف: إن خير نظام يحقّق هذا الهدف هو النظام الذي أنشأه الإمبراطور العظيم نابوليون، أعني وسام جوقة الشرف. فهذا النظام لا يسيء إلى حسن سير العمل، بل يحسن إليه من دون أن يكون امتيازًا لطبقة أو امتيازًا لرجال البلاط.

- قال الأمير أندريه:

- لا أمجّد هذا ولا أماري فيه، ولكن المرء لا يستطيع أن ينكر أن امتيازات البلاط تبلغ هذا الهدف نفسه، فكل رجل من رجال البلاط يعدّ نفسه مضطرًّا إلى مراعاة مكانته مراعاةً كريمة.

فقال سبيرانسكي وهو يبتسم ابتسامة يشير بها إلى رغبة في إنهاء المناقشة بهذه الجملة الودودة اللطيفة، وهي مناقشة بدأت تربك محدثه:

- ومع ذلك لم تشأ أنت أن تستفيد من هذه الامتيازات. وأضاف: شرفني بزيارة يوم الأربعاء. وسأكون في أثناء هذه المدة قد رأيت ماجنتسكي، وتحدّثت معه، فأستطيع أن أقول لك أشياء تهمك. هذا عدا أنه سيسرني أن أتحدث معك مدة أطول.

ثم حيّاه مغمضًا عينيه، وتسلّل يخرج على الطريقة الفرنسية من دون أن يودّع، محاولًا أن يمر من غير أن يراه أحد.

الفصل السادس

أحس الأمير أندريه في الأوقات الأولى من إقامته في بطرسبورغ بأن جملة الأفكار التي تهيأت في نفسه أثناء حياته معتزلًا بالريف قد طغى عليها وألقاها إلى الظل ألف هَمّ من الهموم الصغيرة التي استولت عليه منذ وصوله.

كان في المساء حين يرجع إلى بيته يسجّل أربع زيارات أو خمسًا من الزيارات التي لا غنى له عن القيام بها، والمواعيد التي حدّدها من قبل. وكان ترتيب حياته وتنظيم وقته على النحو الذي يجعله حاضرًا بأمكنة شتى في أزمنة محددة، يستنفد الجزء الأكبر من طاقته وحيويته فكان لا يفعل شيئًا، ولا يفكّر في شيء أيضًا، فليس في وقته متّسع لهذا، ولا يزيد على أن يتكلّم عمَّ أمكنه أن يفكّر فيه من قبل في الريف، فيجيد الكلام، ويبرع فيه.

كان في بعض الأحيان يلاحظ مستاءً ممتعضًا أنه يحدث له في يوم واحد أن يكرر شيئًا واحدًا في بيئات مختلفة. ولكن أيامه كانت تبلغ من الامتلاء أن وقته لا يتّسع لأن يقول لنفسه إنه كان لا يفكّر في شيء.

وكما وقع له حين التقى سبيرانسكي أول مرة عند كوتشوباي، فإن سبيرانسكي يوم زاره يوم الأربعاء التالي وجرى بينهما حديث على انفراد، أحدث في نفسه أثرًا قويًا كل القوة.

كان الأمير أندريه يحكم على كثير من الناس بأنهم تافهون يستحقّون الاحتقار وأنهم صغار لا قيمة لهم، وكان يتحرّق شوقًا إلى أن يجد في رجل آخر، المثال الأعلى الحيّ لذلك الكمال الذي كان يتوق إليه، فلم يصعب عليه أن يجد سبيرانسكي ذلك المثال الأعلى للإنسان الذي يتمتّع بكمال العقل والفضيلة. ولو كان سبيرانسكي ينتمي إلى العالم نفسه الذي ينتمي إليه بولكونسكي، وكان قد نشأ النشأة نفسها وتلقّى الثقافة والتربية الأخلاقية

نفسيهما، لسرعان ما أمكنه أن يكتشف جوانبه الضعيفة الإنسانية غير البطولية. ولكن هذا الفكر المنطقي العجيب الذي يتمتّع به سبيرانسكي، كان يوقظ في نفس الأمير أندريه احترامًا عظيمًا على قدر عجزه عن فهمه فهمًا كاملًا. أما سبيرانسكي، لأنه قدّر كفاءات الأمير أندريه، أو لأنه ارتأى أن يجذبه إليه ويربطه به، فقد كان يبدي في حضوره كل ما ينعم به من ميزات التفكير الهادئ الخالي من التحيّز. وكان يتملّقه ذلك التملّق البارع الذى يمازجه غرور، وهو الاعتراف ضمنًا بأن محدّثه هو الرجل الوحيد القادر على أن يدرك غباء الآخرين جميعًا، ويدرك ما تتصف به أفكارهما، هما الاثنين، من حكمة وعمق.

في أثناء الحديث الطويل الذي جرى بينهما مساء الأربعاء، قال سبيرانسكي غير مرة:

«الناس في بلادنا يعدّون كل ما يتجاوز مستوى المادة الراسخة ويعلو عليه....»، أو قال وهو يبتسم: «ولكننا نحن نريد ألا تجوع الذئاب، بشرط أن تبقى الخراف سليمة لم يمسسها سوء»، أو قال: «هم لا يستطيعون أن يدركوا هذا...». وكان سبيرانسكي يقول هذا الكلام بلهجة تريد أن تعني: «نحن، أي أنا وأنت، نعرف من هم ومن نحن».

فكان من شأن هذا الحديث الطويل أن عزز في نفس الأمير أندريه ذلك الإحساس الذي تركه سبيرانسكي في نفسه أول مرة. فرأى فيه رجلًا يملك عقلًا منطقيًّا رحبًا، ودِقّة صارمة في التفكير، وأنه ما وصل إلى السلطة إلّا بفضل قوة طاقته وشدة دأبه، وأنه لا يستعمل هذه المقدرات إلّا في خدمة روسيا ومن أجل تحقيق الخير لها. ورأى فيه الرجل الذي كان يتمنى هو أن يكونه، الرجل الذي يُخضِع لمحكّ العقل جميع ظواهر الحياة. الرجل الذي لا قيمة في نظره إلّا لما هو مطابق للعقل، والذي يعرف كيف يزن بميزان العقل كل شيء.

بدت جميع الآراء التي عرضها سبيرانسكي بسيطة كل البساطة واضحة كل الوضوح. فلم يملك، رغم إرادته، إلّا أن يوافقه على كل شيء. فإذا اعترض عليه أو ناقشه، فهو لا يعترض ولا يناقش إلّا ليبرهن على استقلاله، ومن أجل ألا يخضع بغير شيء من المقاومة.

شيء واحد كان يبث الاضطراب في نفس الأمير أندريه، هو هذه النظرة الباردة برودة المرآة فلا تحسّ ولا تتيح للمرء أن ينفذ إلى نفس صاحبها، وهذه اليد البيضاء السمينة التي كان الأمير أندريه ينظر إليها رغم إرادته كما ينظر في العادة إلى أيدي أولئك الذين في أيديهم زمام السلطة. إن هذه النظرة الباردة برودة مرآة، وهذه اليد الناعمة تسببان حنق الأمير أندريه من دون أن يعرف لماذا! وقد صدمه أيضًا هذا الإفراط في شدة احتقار الناس لدى سبيرانسكي، وهذا التنوع في الأدلة التي يبديها والحجج التي يسوقها في تأمين أقواله ودعم آرائه. كان سبيرانسكي يستعمل جميع أساليب الاستدلال والبرهان، باستثناء المقارنة. وكان يبدو للأمير أندريه أنه ينتقل من أسلوب إلى أسلوب مسرفًا في الجرأة لا يتهيّب. فهو تارة يقف على أرض الواقع العملي معرّضًا بالحالمين، لائمًا لهم، وتارة أخرى يلجأ إلى هجاء خصومه والتهكم عليهم، والاستهزاء بهم. وهو تارة يلتزم المنطق الصارم، وتارة يرتفع فجأة إلى أفق الميتافيزيقا. وكان يحب هذه الصورة الأخيرة من صور الاستدلال والبرهان حبًّا خاصًّا، فيرتفع بالمسألة إلى ذرى ميتافيزيقية منتقلًا إلى الكلام على تعريفات المكان والزمان والفكر يستمد منها دحضًا لرأي من الآراء ثم يعود فيهبط إلى أرض المناقشة. الخلاصة أن السمة الأساسية التي خطفت بصر الأمير أندريه في عقل سبيرانسكي أكثر ممّا عداها، هي هذا الإيمان المطلق الذي لا يتزعزع بما للعقل من قدرة وحقوق. وكان واضحًا أن جميع الشكوك التي خامرت نفس الأمير أندريه لا يمكن أن يكون سبيرانسكي قد ساوره منها شيء البتة. فهو لم يتساءل يومًا هل يَحسُن بالمرء ألا يفصح عن كل ما يفكر فيه، وهو لم يخطر بباله يومًا أن يرتاب في صحة ما يفكر فيه ويؤمن به. وكانت هذه السمة الخاصّةً التي يمتاز بها فكره هي ما فتن الأمير أندريه أكثر من أي شيء آخر.

في بداية علاقة الأمير أندريه بسبيرانسكي، محضه إعجابًا مشبوبًا شبيهًا بالإعجاب الذي حمله في الماضي لنابوليون بونابرت. ولئن كان الحمقى من الناس قد اتخذوا من كون سبيرانسكي سليل أسرة كهنوتية حجة للتهوين من شأنه ولتحقيره، فنعته كثير منهم بأنه «فأر كنيسة»، وبأنه «بذرة قس»، فإن ذلك كان يدعو الأمير أندريه إلى المحافظة على العواطف التي يحملها له

سليمة لم يمسسْها سوء، بل كان يزيد هذه العواطف حرارة وحماسة.

وفي أثناء تلك السهرة الأولى التي قضاها معه، جاء ذكر «لجنة التشريع»، فقال له سبيرانسكي ساخرًا: إن هذه اللجنة موجودة منذ خمسين عامًا، وأنها كلّفت الملايين ولم تفعل شيئًا، وأن روزنكايف لم يزد على أن وضع لجميع مقالات التشريع المقارن بطاقات ألصقها بها. وختم سبيرانسكي كلامه بقوله:

- تلك هي الثمرة التي أنفقت الدولة من أجلها ملايين. إننا نريد أن نهب لمجلس الشيوخ سلطة قضائية جديدة وليس عندنا قوانين. لذلك أقول لك يا أمير إنها لجريمة في الوقت الراهن أن يتنحّى عن العمل رجال مثلك!

فقال الأمير أندريه إن هذا العمل يتطلب ثقافة حقوقية وتخصّصًا في القانون لا يملكها.

فأجابه سبيرانسكي بقوله:

- ولكن أحدًا لا يملك هذه الثقافة الحقوقية وهذا التخصّص في القانون. فماذا تريد؟ إن علينا أن نكسر هذه الحلقة بجهد نبذله.

وبعد ثمانية أيام سُمّي الأمير عضوًا في «لجنة النظام العسكري»، ونُدب كذلك لأمر ما كان ليتوقّعه قط، هو رئاسة شعبة في لجنة التشريع[1]. وقد تولّى بطلب من سبيرانسكي إعداد الجزء الأول من القانون المدني مستعينًا بقانون نابوليون وقانون جوستنيان، وقد عمل في كتابة الفصل الخاص بحقوق الأفراد.

---

(1) كانت روسيا طوال القرن الثامن عشر يحكمها القانون المدنى المسمى باسم قانون ألكسي، يرجع عهده إلى سنة 1649، وتحكمها آلاف من القرارات الإمبراطورية المتناقضة في كثير من الأحيان. وقد أخفقت المحاولة التي قامت بها كاترين الثانية سنة 1769 لوضع قانون مدني جديد، فحاول سبيرانسكي أن يزوّد روسيا بقوانين حديثة مستلهَمة من التشريع النابوليوني خاصة. وقد أجهضت هذه المحاولة سنة 1812، ثم لم يشرع سبيرانسكي في تحرير مجموعة قوانين الإمبراطورية الروسية إلّا سنة 1826، وهي القوانين التي نُشرت سنة 1835، وكانت أميل كثيرًا إلى نزعة المحافظة التي فرضها نيقولا الأول.

الفصل السابع

في سنة 1808، أي قبل سنتين، حين رجع بطرس من رحلته إلى أراضيه، وجد نفسه رئيسًا للماسونية البطرسبورغية من دون أن يتوقّع هذا. فكان ينشئ محافل للكهنة، ومحافل للجنائز، ويدخل أعضاء جددًا، ويعنى بتوحيد محافل مختلفة، وإمدادها بصكوك شرعية. وكان بماله يساهم في بناء الكنائس، ويكمل في حدود طاقته حصيلة التبرّعات التي كان أكثر الأعضاء يضنّون بها، ولا يدفعونها في مواعيدها. وكان يموِّل وحده تقريبًا منزل الفقراء الذي أنشأته الجمعية في بطرسبورغ.

ولم تتغيّر حياته في أثناء ذلك، فلا تزال فوضى كما كانت من قبل، ولا تزال تشتمل على انجراف وانحلال. انه يحب الطعام والشراب، ولا يستطيع أن يمنع نفسه من المشاركة في ملذات بيئات العازبين الذين كان يختلف إليهم، رغم اعتقاده بأن هذه الملذات تنافي الأخلاق، وتحطّ القَدْر.

ومع ذلك ما إن انقضت سنة واحدة حتى أخذ بطرس، وهو في زوبعة مشاغله وملذّاته، يحسّ بأن أرض الماسونية التي وضع نفسه عليها، تنزلق من تحت قدميه على قدر محاولته تثبيت نفسه فوقها. وكان يحسّ في الوقت نفسه بأنه كلما انزلقت هذه الأرض من تحت قدميه ازداد هو تشبثًا بها، واستحال عليه أن ينفصل عنها. فحين دخل الماسونية أحس إحساس إنسان يضع على صفحة سبخة مستوية، فغاصت قدمه فيها منذ أن وضعها. ومن أجل أن يشعر شعورًا قويًا بمتانة الأرض، وضع قدمه الآخرى فغاص مزيدًا من الغوص، فهو الآن يتخبط في الوحل إلى الركبتين.

ولم يكن أوسيب ألكسيفتش في بطرسبورغ (لقد انزوى عن محافل بطرسبورغ منذ بعض الوقت، وأصبح لا يغادر موسكو). وكان جميع

الأخوة، أعضاء المحافل، أناسًا عرفهم بطرس في المجتمع وكان يصعب عليه ألا يرى فيهم إلّا أخوة في الماسونية، متناسيًا أن هذا هو الأمير ب، وهذا هو إيفان فاسيليفتش د، وهؤلاء غيرهما ممن يعرف، أناس ضعاف ورجال تافهون لا قيمة لهم. وكان يصعب عليه ألا يتصوّر تحت وزراتهم وشاراتهم الماسونية البزات الرسمية والأوسمة التي كانت هدف حياتهم. وحين يقوم بجمع التبرعات، فيسجل على قوائم التبرّع مبالغ تتراوح بين عشرين روبلًا وثلاثين روبلًا في عمود «له» وفي عمود «عليه» في أكثر الأحيان، وهي تبرّعات من عشرة أشخاص نصفهم لا يقلّون عنه غنى، كان يتذكّر اليمين الماسوني الذي يحلفه الأخ الماسوني متعهّدًا بأن يهب ثروته كلها لإخوته البشر، فتقوم عندئذ في نفسه شكوك يحاول ألا يتوقف عندها.

كان الإخوة الذين يعرفهم ينقسمون في نظره أربع فئات. فأما الفئة الأولى فتضمّ أولئك الذين لا يشاركون مشاركة فعّالة لا في أمور المحافل ولا في الشؤون الإنسانية، ولا يهمهم إلّا أن يتعمّقوا أسرار «الجمعية»، ومسائل التسمية الثلاثية للإله، والمبادئ الثلاثة للأشياء، وهي الكبريت والزئبق والملح، ومعنى المربّع والصور المرسومة في هيكل سليمان، فكان بطرس يحترم هذه الفئة من الإخوّة التي ينتمي إليها الأقدمون خاصّةً، وأوسيب ألكسفيتش نفسه في ما يعتقد بطرس، ولكن بطرس كان لا يقاسم هذه الفئة همومها ومشاغلها.

وأما الفئة الثانية فكان بطرس يدرج نفسه وأشباهه فيها، وهي الفئة التي تضمّ أولئك الذين يبحثون ويتَردَّدون، ولمّا يهتدوا بعد إلى طريقهم في الماسونية، ولكنهم يأملون بأن يهتدوا إليها.

وأما الفئة الثالثة وهي تضم الإخوة (وهؤلاء أكثر عددًا من سائر الفئات)، الذين لا يرون في الماسونية إلّا صورتها الخارجية التي تشتمل على الطقوس، ويتقيّدون بهذه الصورة الخارجية تقيدًا دقيقًا وصارمًا، من دون أن يهتموا بمضمونها ومعناها الحقيقي. ومن هؤلاء فيلارسكي، وحتى المعلم الكبير في المحفل الرئيسي.

وأما الفئة الرابعة فهي تضمّ عددًا كبيرًا من الإخوة أيضًا، ولا سيما الأعضاء الجدد في الجمعية، وكان هؤلاء في نظر بطرس أناسًا لا يؤمنون

بشيء، ولا يريدون شيئًا، ولا يدخلون الماسونية إلّا ليلتقوا فيها أخوة شبابًا أغنياء يملكون سلطة ونفوذًا بما لهم من علاقات، وبحكم محتدّهم وما أكثر هؤلاء في المحفل!

وأخذ يشعر بطرس بأن نشاطه لا يرضي نفسه، فالماسونية، أو الماسونية التي عرفها هنا على الأقل، أصبحت تبدو له في بعض الأحيان شكليّة محضة. لم يخطر بباله أن يشك في قيمة الجمعية ذاتها، ولكنه صار يتراءى له أن الماسونية الروسية قد ضلت الطريق وانحرفت عن النبع. لذلك سافر في نهاية السنة إلى الخارج بغية الاطلاع على الأسرار العليا للجمعية.

حتى إذا كان صيف سنة 1809 رجع بطرس إلى بطرسبورغ. وقد علم الماسونيون عندنا من مراسلاتهم مع الماسونيين في الخارج، أن بطرس حظي بثقة عدد كبير من وجوه الماسونية، وأنه اطّلع على أسرار كثيرة، وأنه رُقّيَ إلى أعلى رتبة، وأنه يحمل مشاريع كثيرة تنفع العمل الماسوني في روسيا. فتوافد عليه الماسونيون في بطرسبورغ يزورونه، ويلتمسون حظوته، وشعروا جميعًا بأنه يضمر ويهيئ شيئًا ما.

وتقرّر أن يعقد اجتماع فخم لمحفل من الدرجة الثانية وعد بطرس أن يلقي فيه على الإخوة ببطرسبورغ رسالة كلّفه القادة الأعلون بنقلها إليهم، فلم يتخلّف عن تلبية النداء وحضور الاجتماع أحد. ولما انتهت الطقوس المألوفة، قام بطرس يلقي خطابه. وقال محمرّ الوجه متلعثم اللسان، حاملًا خطابه المكتوب بيده:

- أيها الإخوة الأعزاء، ليس يكفي أن نطبق أسرارنا في داخل المحفل، وإنما يجب علينا أن نعمل.. أن نعمل. إننا نائمون بينما يجب علينا أن نعمل.

وفتح بطرس دفتره وأخذ يقرأ:

«من أجل أن ننشر الحقيقة الصافية، ومن أجل أن نكفل النصر للفضيلة، يجب علينا أن نخلّص الناس من الأوهام الراسخة في أذهانهم، وأن نذيع فيهم القواعد التي تطابق روح العصر، وأن نتولّى تربية الشبيبة، وأن نوحّدنا روابط متينة بالعقول الكبرى، وأن نتغلّب على الخرافات والجحود والحماقة بجسارة ولكن بتأنٍ وروية وحذر، وأن ننشئ من المخلصين لنا رجالًا تربط بينهم وحدة الهدف، ويملكون المقدرة والقوة.

«ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف يجب أن نغلِّب الفضيلة على الرذيلة، وأن نحاول أن يحصل الإنسان الشريف في هذه الحياة الدنيا نفسها على ما تستحقه فضائله من مكافأة أبدية. ولكن العائق الكبير الذي يقف في طريقنا لتحقيق هذه الأهداف إنما هو المؤسسات الحالية. فما عسانا نفعل والأمور على هذا النحو، هل يجب أن نشجّع الثورات، أن نقلب كل شيء رأسًا على عقب، أن نلجأ إلى القوة في محاربة القوة؟... لا، نحن أبعد ما نكون عن هذا. إن كل إصلاح بالعنف يستحقّ أن يُشجب، لأنه لن يصلح الشرّ ما ظل البشر كما هم، ولأن الحكمة لا حاجة بها إلى العنف.

«إن كل العمل الذي يجب أن تقوم به الجمعية هو أن تحاول إنشاء رجال صلاب العود، يتمتّعون بالثبات ويتمسّكون بالفضيلة، وتربطهم وحدة الاقتناع، أي تربطهم وحدة الرغبة في أن نطارد الرذيلة والحماقة في كل مكان بكل ما أوتينا من قوة. وأن نحمي الموهبة والفضيلة، وأن ننتشل من التراب أولئك الذين هم أهل لذلك فنلحقهم بجمعيتنا، ونضمّهم إلينا. وعندئذ إنما يصبح في وسعنا أن نكبِّل أيدي صانعي الفوضى شيئًا بعد شيء، وأن نوجّههم حتى من دون أن يشعروا هم بذلك. الخلاصة أن علينا أن ننشئ نوعًا من سلطة عالمية تشمل العالم كله من دون أن تقطع الروابط المدنية، وتدع لجميع الحكومات الآخرى أن تستمر في ممارسة وظائفها الخاصّة بها، وأن نفعل كل شيء إلّا ما يعيق الغاية العليا التي تسعى إليها جمعيتنا، أعني ضمان انتصار الفضيلة على الرذيلة. ولقد كان هذا الهدف هو هدف المسيحية نفسها. فالمسيحية أوصت البشر أن يكونوا حكماء عقلاء أخيارًا، وأن يقتدوا في سبيل مصلحتهم نفسها بأفضل الرجال وأرجحهم عقلًا وأوسعهم حكمة، وأن يتبعوا تعاليمهم.

«لقد كان الوعظ كافيًا حين كان كل شيء غارقًا في الظلمات، ذلك أن جدة الحقيقة كانت تهب لها قوة خاصّةً. أما اليوم فنحن في حاجة إلى وسائل أقوى كثيرًا من الوعظ والإرشاد والتبشير. اليوم يجب للإنسان الذي تحكمه حواسه أن يجد في الفضيلة نفسها فتنة للحواس. إن الأهواء لا

يمكن استئصالها، وإنما يحسن توجيهها إلى هدف نبيل. ومن أجل ذلك يجب أن يستطيع كل فرد إرضاءها في حدود الفضيلة، وعلى جمعيتنا أن تهيئ وسائل ذلك.

«متى صار لنا في كل بلد من البلدان عدد من الرجال أهل لتحقيق هذه المهمة، علَّم كل واحد منهما اثنين آخرين، ثم اتّحدوا جميعًا اتحادًا وثيقًا، وعندئذ تصبح جمعيتنا، التي استطاعت منذ الآن أن تفعل للإنسانية في السر خيرًا كثيرًا، تصبح قادرة على كل شيء».

إن هذا الخطاب الذي ألقاه بطرس لم يُحدِث في المحفل تأثيرًا قويًا فحسب، بل أثار فيه كذلك هيجانًا شديدًا. أكثر الإخوة الذين رأوا في هذا الخطاب مشاريع خطرة من المشاريع التي يتصورها أناس من أتباع المذاهب الإشراقية الخيالية، استقبلوا الخطاب ببرود أدهش بطرس. والمعلم الكبير وجَّه إليه اعتراضات. فأخذ بطرس يشرح آراءه بحماسة ما تنفك تشتد. منذ زمن طويل لم يُعقد محفل عاصف إلى هذا الحد. وتكوّنت أحزاب، فبعضهم يهاجم بطرس وينعته بأنه إنسان خيالي من أتباع المذهب الإشراقي. وبعضهم يؤيده ويدعمه. فكانت تلك أول جلسة يُدهش فيها بطرس من تنوّع العقول الإنسانية تنوعًا لا حد له، تنوعًا يجعل أية حقيقة من الحقائق لا تعرض لاثنين في صورة واحدة، ولا يراها اثنان رؤية واحدة. حتى الذين كانوا بين الأعضاء يؤيدونه، كان كل منهم يفهم آراءه فهمًا خاصًا، فيقيّدها بقيود ويحوّرها تحويرات لا يستطيع بطرس أن يوافق عليها، لأن ما كان يهمه أكثر من أي شيء آخر هو أن ينقل فكرته إلى الآخرين على نحو ما يفهمها هو نفسه كاملة دقيقة لم يطرأ عليها أي تبديل.

وفي نهاية الجلسة لفت المعلم الكبير نظر بيزوخوف بشيء من الخبث والسخرية إلى أنه خسر بعض التحمس، والى أن حب الصراع قد وجَّهه في المناقشة أكثر مما وجّهه حبّ الفضيلة. فلم يجاوب بطرس بشيء وسأل بإيجاز هل قُبل اقتراحه. فكان الجواب نفيًا، فخرج من دون أن ينتظر إجراء الطقوس المألوفة، ورجع إلى بيته.

الفصل الثامن

مرة أخرى استولى على بطرس ذلك الحزن الكالح الذي كان يخشاه كثيرًا. فقضى الأيام الثلاثة الأولى التي تلت إلقاءه خطابه في المحفل، مستلقيًا على ديوانه لا يستقبل أحدًا ولا يخرج.

وفي ذلك الوقت إنما وصلته رسالة من امرأته تضرع إليه فيها أن يتكرّم عليها بلقاء، وتتحدّث عن الحزن الذي تشعر به حين تفكر فيه، وعن رغبتها في أن تقف عليه حياتها كلها. وفي نهاية الرسالة تبلغه أنها عائدة إلى بطرسبورغ في غضون عدة أيام بعد إقامة في الخارج.

وبعد وصول الرسالة إليه ببرهة قصيرة اقتحم بابه واحد من الإخوة الماسونيين كان بطرس يعدُّه أقلهم جدارة بالتقدير، وأخذ يتكلّ عن الحياة الزوجية، فقال لبطرس على سبيل النصح إن الشدة التي أخذ بها زوجته ظلم، وإنه برفضه العفو عن النادمة التائبة يخالف القواعد الأساسية التي يجب أن يلتزمها الماسوني.

وفي الوقت نفسه بعثت إليه حماته، أي زوجة الأمير فاسيلي، مَنْ يقول له إنها تبتهل إليه أن يجيء إليها ولو بضع لحظات ليتكلما في أمر يبلغ غاية الخطورة. فرأى بطرس أن هناك تواطؤًا عليه، وإنهم يريدون أن يصلحوا بينه وبين زوجته، فلم يسوءْه هذا التواطؤ، وهو على ما هو عليه من حالة نفسية خاصّة، إذ كان قد فقد اكتراثه، وصار يرى أن لا شيء في هذه الحياة له شأن أو قيمة، وصار بتأثير التشاؤم الذي استولى عليه لا يحرص على حريته، ولا يصرُّ على معاقبة زوجته.

كان يقول لنفسه: «لا أحد على حق، ولا أحد على خطأ، وهي أيضًا

ليست إذًا على خطأ». ولئن لم يوافق فورًا على استئناف الحياة الزوجية؛ فإنما كان مردُّ ذلك إلى أن حالة الاكتئاب التي استبدّت به جعلته عاجزًا عن اتخاذ أي قرار، والشروع في أي شيء. ولو أن امرأته جاءت إليه الآن لما طردها. ألم يكن يستوي عنده أن يعيش معها وألا يعيش معها بالقياس إلى ما يشغل باله ويملأ نفسه في هذه الأيام؟

لم يجب بطرس على امرأته ولا حماته، وسافر في ذات مساء إلى موسكو ليرى أوسيب ألكسيفتش. وإليكم ما سجله في يومياته:

موسكو في 17 تشرين الثاني (نوفمبر).

خرجت من عند «المحسن»، وهأنذا أسارع فأودع هذه الأوراق كل ما شعرت به. إن أوسيب ألكسيفتش يعيش في فقر وعذاب منذ أكثر من سنتين، ويقاسي من مرض أليم في المثانة. وهو منذ الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل، باستثناء الساعات التي يتناول فيها وجبات بسيطة أكبر البساطة، عاكف على الدراسة لا ينقطع عنها. استقبلني باشًّا مرحبًا، وأجلسني على السرير الذي كان مضطجعًا عليه. حرّكت يدي بإشارة فرسان «الشرق والقدس»، فردَّ على الإشارة بمثلها، وسألني مبتسمًا عمَّ تعلمته في بروسيا وإيقوسيا. فعرضت عليه الآراء التي تضمّنها خطابي في محفلنا ببطرسبورغ، وذكرت له أن كلامي استُقبل استقبالًا سيئًا. وذكرت له أن هذا أدى إلى قطيعة بيني وبين الإخوة. فبعد أن فكر أوسيب ألكسيفتش لحظة، عرض لي رأيه الذي أنار لي على الفور كل الماضي الذي عشته، وكل الطريق الذي ينفتح أمامي الآن. وقد أدهشني حين سألني هل أذكر الأهداف الثلاثة التي ترمي إليها الجمعية، وهي أولًا: المحافظة على السرّ وتعمّقه، وثانيًا: تطهير النفس وإصلاحها بغية أن تصبح أهلًا للتعلّم، وثالثًا: إصلاح النوع البشري بالسعي إلى هذا التطهير. وقد تساءل: أي هذه الأهداف الثلاثة أخطرها شأنًا وأولها في الميزان؟ وأجاب: هو إصلاح النفس وتطهيرها. فذلك هو الهدف الذي نستطيع دائمًا أن نحاول بلوغه أيًا كانت الظروف. ولكنه في الوقت نفسه الهدف الذي يطلب منا أكبر قدر من الجهود، ولذلك ترانا وقد أضلّنا الزهو والعجب نهمل هذا الهدف ونتشبّث إما بمعرفة الأسرار التي لا نستحقّ أن

نفذ إليها قبل أن نطهّر نفوسنا، وإما إصلاح النوع البشري بينما نحن مثال الحطّة والفساد. فالمذهب الإشراقي الذي يشوبه الزهد والغرور، ويطمع طمعًا شرها في أن يلعب دورًا اجتماعيًا، هو إذًا مذهب سيئ. ومن هذه الناحية أخذ عليَّ أوسيب ألكسيفتش خطابي، ولامني على كل نشاطي. وقد وافقته في قرارة نفسي على ما ساق من آراء. أما بصدد شؤوني الزوجية فقد قال لي: «إن الواجب الأساسي الذي يقع على عاتق ماسوني هو تحسين نفسه كما قلت لك. ولكننا كثيرًا ما نظن أننا بإبعادنا جميع مصاعب الحياة عن أنفسنا نستطيع أن نبلغ هذا الهدف بسرعة أكبر، والصواب عكس هذا أيها السيد العزيز، ففي وسط الاضطراب الذي يملأ العالم إنما نستطيع أن نحقق الأهداف الرئيسية الثلاثة، وهي أولًا: معرفة النفس: لأن المرء لا يستطيع أن يعرف نفسه إلّا بالمقارنة؛ وثانيًا: تحسين النفس وهذا لا يتم إلّا بكفاح، وثالثًا: الفضيلة القصوى أعني حب الموت، وما من شيء إلّا ظروف الحياة يمكن أن تبرهن لنا على أن الحياة باطل، وأن تنمّي في أنفسنا حبّ الموت، أي الانبعاث في حياة جديدة». وكان مما يزيد في قيمة هذه الأقوال التي نطق بها أوسيب ألكسيفتش أنه رغم آلامه الجسيمة المبرِّحة الخطيرة لا يشكو أبدًا من عبء الحياة، وأنه يحبّ الموت ولكنه لا يحسّ بأنه أعدَّ نفسه إعدادًا كافيًا على ما تتصف به روحه من نقاء وطهارة وسموّ. شرح لي «المحسن» المعنى العميق لمربَّع الخلق الكبير، وأشار إلى أن رقمَيْ ثلاثة وسبعة هما أساس كل شيء. ونصحني بألا أقطع صلتي بالأخوة في بطرسبورغ قطعًا تامًّا، وأنه عليَ - وإن لم أشغل في المحفل إلّا وظائف من الدرجة الثانية - أن أحاول بتحذيرهم من الانجراف في مهاوي الزهو والصلف، ردَّهم إلى الطريق الذي يؤدي إلى المعرفة الصادقة، والى إصلاح النفس والسير بها في معارج الكمال. وعدا ذلك طالبني بأن ألاحظ نفسي وأعطاني هذا الدفتر الذي أكتب عليه، والذي سأسجل فيه بعد اليوم كل ما أقوم به من أفعال».

بطرسبورغ في 23 تشرين الثاني (نوفمبر)

صالحت زوجتي، واستأنفنا حياتنا المشتركة. لقد جاءت إليَّ حماتي

باكية تقول إن هيلين هنا، وإنها تضرع إليَّ أن اسمع لها. وأنها بريئة، وأن هجري إياها قد أشقاها، وقالت أشياء أخرى كثيرة أيضًا. وكنت أعلم أنني إذا قبلت أن أستقبلها، فسوف أعجز عن رفض طلبها.

وكان الشك يملأ نفسي، وكنت لا أعرف من عسى أستعين به وأسأله النصح، فلو كان «المحسن» هنا لأرشدني وهداني إلى الطريق القويم. لذاك انزويت في بيتي، وأعدت قراءة رسائل أوسيب ألكسيفتش، واستعرضت بذاكرتي ما جرى بيني وبينه من أحاديث، فخلصت من ذلك كله إلى أنني ما ينبغي أن أمنع عن سائل شيئًا، وأن عليَّ أن أمد إلى كل إنسان يد الغوث والنجدة، فكيف والسائل إنسانة تربطني بها أقوى الروابط، فلا بد لي إذًا من أن أحمل صليبي. ولكن إذا غفرت لها بدافع حب الفضيلة، فمعنى ذلك أنني أرى أن ارتباطي بها الآن لم يبق له إلّا هدف روحي. وذلك ما عقدت عليه عزمي، وكتبت فيه إلى أوسيب ألكسيفتش. وقلت لزوجتي إنني أرجوها أن تنسى الماضي كله، وأن تغفر لي ما لعلني ارتكبته في حقّها من أخطاء، وما نلتها به من إيذاء. وإنني من جهتي لا آخذ عليها ما يجب أن أغفره لها، وقد أسعدني أنني استطعت أن أقول لها هذا الكلام، ولتجهل هي مبلغ ما عانيته من ألم وما قاسيته من عذاب حين استقبلتها! إنني أقيم الآن في الطابق الأعلى من المنزل الكبير، وأذوق فرحة الشعور بأنني خلقت خلقًا جديدًا».

الفصل التاسع

في ذلك الوقت، كما في كل وقت، كان المجتمع الراقي الذي يلتقي في البلاط ويلتقي في حفلات الرقص الكبرى ينقسم حلقات لكلٍ منها لونها الخاص. وكانت كبرى هذه الحلقات عددًا هي الحلقة الفرنسية التي تضم الكونت رومیانتسیف[1] وكولانكور[2] وهما من أنصار التحالف مع نابليون. وقد أخذت هيلين تحتل مكانًا مرموقًا منذ أقامت هي وزوجها في بطرسبورغ، وكان نجمها لا ينفك يزداد سطوعًا. وكان أولئك السادة من أعضاء سفارة فرنسا وعدد كبير من هذا الجانب نفسه، وهم رجال اشتهروا بالفكر القوي والذوق اللطيف، يختلفون إلى صالونها.

لقد كانت هيلين في أيرفورت أثناء اللقاء الشهير الذي تمَّ بين الإمبراطورين، فانعقدت صلات بينها وبين جميع الوجهاء من أنصار نابليون الأوروبيين. حتى إن نابوليون نفسه، وقد لاحظها في المسرح، سأل مَنْ هي، وقد وصفها: «هذا حيوان رائع».

لم يُدهش بطرس من النجاح الذي أصابته هيلين كامرأة جميلة، رشيقة،

---

(1) الكونت نيقولا رومیانتسیف (1754 – 1826)، وزير التجارة من سنة 1802 إلى سنة 1808؛ ووزير الشؤون الخارجية منذ 1808؛ وبعد ذلك مستشار الإمبراطورية. شخص قوي النفوذ، كان نصيرًا للآداب، أنشأ المكتبة العامة بموسكو، وكانت تسمى باسمه، هي المكتبة التي سُمّيت لاحقًا باسم لينين.

(2) المركيز لويس كولانكور (1772 – 1827): ارستقراطي انضم إلى نابليون، وعُيّن سفيرًا في روسيا من عام 1808 إلى عام 1811، وكان نصيرًا صادقًا للتحالف الفرنسي – الروسي، وقد نشر كتابًا ثمينًا بعنوان «مذكرات».

أنيقة، فإن جمالها قد زادته السنون فتنة. ولكن الشيء الذي أدهشه هو أن امرأته استطاعت في خلال هاتين السنتين أن تشتهر بأنها امرأة أخّاذة، ذكية جميلة في آن واحد. وكان الأمير دو ليني الشهير[1] يكتب إليها رسائل من ثماني صفحات. وكان بيليبين يخبئ كلماته ليقدّمها بواكير إلى الكونتيسة بيزوخوف. وكان استقبالها أحدًا في صالونها شهادة له بأنه صاحب فكر. وكان الشبان يقرأون كتبًا قبل أن يذهبوا إلى سهراتها ليتزوَّدوا بموضوع يتحدّثون فيه.

وكان سكرتيرو السفارات، وحتى السفراء، يفضون إليها بأسرار دبلوماسية، حتى ليمكن أن يقال بمعنيٍ من المعاني إن هيلين أصبحت قوَّة. وكان بطرس الذي يعرف أنها غبية جِدًّا يحضر في بعض الأحيان سهراتها وحفلات العشاء التي تقيمها والتي يتحدّث فيها الحضور عن السياسة، ويتكلّمون في الشعر والفلسفة، فيشعر بمزيج عجيب من الحيرة والخشية. كان يحسّ في تلك الأوقات بما يحسّه «حاوٍ» يتوقّع في كل لحظة أن يكتشف المشاهدون خِدعته. ولكن الخدعة لا تُكشف، إما لأن الغباء هو ما تحتاج إليه إدارة صالون، وإما لأن المخدوعين أنفسهم يجدون لذة في أن يُخدعوا. وكانت شهرة هيلين فاسيليفنا بيزوخوف بأنها امرأة أخّاذة ذكية قد بلغت من الرسوخ حد أن هيلين قد تقول أتفه السخافات وأكبر الحماقات فإذا بالجميع لا يزيدهم ذلك إلّا افتتانًا بكل كلمة من كلماتها. وإذا هم يبحثون في أقوالها عن معنى عميق لم يخطر لها هي نفسها على بال.

وكان بطرس هو الزوج اللازم لهذه المرأة المتألّقة من نساء المجتمع، فهو «سيد من كبار السادة»، ذاهل، متفرِّد، لا يضايق أحدًا، ولا يُحدث نشازًا في لهجة الصالون الرفيعة السامية، حتى إن ما بينه وبين امرأته، من تناقض في أناقة الهندام وحسن الكياسة، يساهم في إبراز قيمة امرأته مزيدًا من الإبراز. إن ما ألفه خلال هاتين السنتين من انصراف فكره إلى مسائل

---

(1) شارل - جوزيف دو ليني (1725– 1814)، ولد في بلجيكا، وخدم في الجيش النمسوي، ثم عمل في روسيا في عهد كاترين الثانية، وكان صديقًا لجوزيف الثاني. كاتب، ومن رجال الصالونات، يفيض فكرًا وظرفًا، وقد مات في بروكسل.

مجرَّدة، وما يحمله في نفسه من ازدراء لكل ما عدا ذلك، قد أتاحا له في هذا المجتمع الذي يحيط بزوجته - والذي لا يعنيه أمره - أن يتخذ لهجة فيها قلة الاكتراث. وفيها أخذ جميع الناس بالرفق والحسنى، وهي لهجة لا تُكتسب اصطناعًا وافتعالًا، ولكنها بسبب ذلك تفرض على الناس احترام صاحبها شاؤوا أم أبوا.

كان بطرس يدخل صالون زوجته كمن يدخل مسرحًا يعرف جميع من فيه، فيبشُّ لهم جميعًا على السواء، ويظلّ غير مكترث بهم جميعًا على السواء. وربما شارك أحيانًا في حديث يهمه، فإذا هو، من دون أن يعنيه أن يعلم أن سادة السفارة هؤلاء حاضرون أو غائبون، يعرض آراءهم مدمدمًا، وكل آراء قد لا تكون مطابقة للتيار السائد في تلك اللحظة. ولكن الرأي الشائع عن هذا الرجل المتفرّد الشاذ، زوج أرقى امرأة في بطرسبورغ، كان يبلغ من الرسوخ أن أحدًا لا يأخذ فوراته مأخذ الجد.

وبين الشبان الكثيرين الذين كانوا يتوافدون في جميع الأيام على صالونات الكونتيسة بيزوخوف، بعد العودة من أيرفورت، لم يبلغ أحد من وثوق الصداقة وارتفاع الكلفة ما بلغه بوريس دوربتسكوي الذي كان قد لمع نجمه في عمله أثناء ذلك كثيرًا، وكانت هيلين تنعته بأنه غلامها، وتعامله معاملة طفل؛ وكانت البسمة التي توجّهها إليه هي البسمة نفسها التي توجّهها إلى سائر الضيوف، ولكن بطرس كان يضيق برؤية هذه البسمة في بعض الأحيان، وكان بوريس يراعي بطرس مراعاة خاصّةً، ويبدي له احترامًا خاصًّا فيه رصانة وفيه حزن. فكان بطرس يضيق بهذا أيضًا، ويشعر منه بقلق، ذلك أن الألم الذي عاناه قبل ثلاث سنين بسبب الإساءة التي ألحقتها زوجته به قد بلغ من القسوة أن بطرس يضع نفسه الآن في منجى من إساءة مثلها، أولًا إنه ليس زوج امرأته، وثانيًا لأنه لا يسمح لنفسه بالاشتباه فيها.

كان يقول لنفسه: «إنها، وقد أصبحت امرأة متعالمة، قد عدّلت عمَّ كانت تنجرف فيه من قبل. فلم يعرف عن امرأة متعالمة أنها انقادت للغوايات والأهواء ونزوات القلب». هذا ما كان يكرّره بطرس لنفسه، ويؤمن به إيمانًا مطلقًا لا يدري المرء من أين جاء به!

ومع ذلك كان وجود بوريس في صالون امرأته (وهو لا يكاد يغيب عنه) يحدث فيه تأثيرًا جسميًّا، فهو يكبّل جميع أعضائه، ويذهب بطلاقة حركاته وحريتها. فكان بطرس يقول لنفسه: «ما أعجب نفوري هذا منه! لقد كان يعجبني في الماضي كثيرًا مع ذلك».

وفي نظر الناس، كان بطرس «سيّدًا من كبار أصحاب الأملاك، وكان زوج امرأة ذائعة الصيت (زوجًا أعمى بعض العمى، غريب الأطوار قليلًا). وكان رجلًا اشاذًّا ولكنه ليس غبيًّا. وكان إنسانًا عاطلًا عن العمل ولكنه لا ينال أحدًا بأذى، أي كان فتى طيبًا، شهمًا على وجه الإجمال.

وحقيقة الأمر أنه كان يتحقّق في نفس بطرس، في أثناء ذلك الوقت، تطوّر نفسي معقّد شاقّ، يفتح له آفاقًا كثيرة، ويُسلّمه إلى شكوك كبيرة، ولكنه يشدّه أيضًا بأفراح روحية جمّة.

الفصل العاشر

ثابر بطرس على الكتابة في دفتر يومياته، وإليكم ما كتبه في ذلك الوقت:

24 تشرين الثاني (نوفمبر)

قمت من سريري في الساعة الثامنة. قرأت في الكتاب المقدس، ثم ذهبت إلى اللجنة (كان بطرس قد عمل بنصيحة «المحسن»، فصار عضوًا في إحدى اللجان). عدت إلى الغداء، وتغديت وحدي (كان عند الأميرة ضيوف كثيرون من أضيق بهم وأكره صحبتهم). اعتدلت في الطعام والشراب. وبعد الغداء نسخت وثائق للأخوة. ونزلت في المساء إلى الكونتيسة فقصصت هنالك قصة مضحكة عن «ب»، ولم أفطن إلى أنني ما كان يجب عليَّ أن أقصَّها إلّا حين رأيت جميع الحضور يضحكون ضحكًا صاخبًا مجلجلًا.

«نمت سعيد النفس هادئ البال. يا رب يا من تقدر على كل شيء، كن في عوني لأسير في طرقك: 1 - أن انتصر على ميلي إلى الغضب باللين والرفق والصبر؛ 2 - أن انتصر على الشبق بالعفّة والتقزز؛ 3 - أن أنأى عن أباطيل هذا العالم، ولكنْ من دون أن أتخلى عن: أ - شؤون الدولة؛ ب - أمور الأسرة؛ ج - روابط الصداقة، د - المشاغل الاقتصادية.

27 تشرين الثاني (نوفمبر)

صحوت من نومي ضحًى. بقيت في سريري زمنًا طويلًا، مستسلمًا للكسل. اللهم كن في عوني وهب لي من القوة ما يتيح لي أن أسير في طرقك. قرأت في الكتاب القدس بخشوع.

جاءني الأخ أورسوف، وتكلّمنا عن أباطيل هذا العالم، وتكلّم عن

المشاريع الجديدة التي يمضي فيها الإمبراطور. هممت أن أنتقدها، لكنني تذكرت القواعد التي ذكرها لي «المحسن» والأقوال التي قالها. لقد قال إن الماسوني يجب أن يكون خادمًا متحمسًا للدولة حين يُطلب منه أن يشارك في خدمتها وأن يكون مشاهدًا سلبيًا حين لا يطلب منه ذلك. إن لساني عدوّي، وجاء الأخوة «ج» و«ف»، و«أو». تحدّثنا في أول الأمر عن القيام بمراسم قبول أخ جديد. وعهدوا إليّ بأن أكون «الخطيب». أنا أحسّ بأنني عاجز عن هذا، غير جدير به. ثم انتقلنا إلى الكلام عن تأويل معنى الأعمدة والدرجات السبع في الهيكل، والعلوم السبعة، والفضائل السبع، والرذائل السبع، وهبات «الروح القدس» السبع، كان الأخ «أو» فصيحًا وبليغًا جِدًّا. تم استقبال الأخ الجديد في المساء، وأسهم التنظيم الجديد الذي أدخل على المحفل في جلالة المشهد. إن بوريس دروبتسكوي هو العضو الجديد الذي قمنا بمراسم قبوله. وقد جُعلت عرَّابه، وكنت الخطيب أيضًا. هزّتني عاطفة غريبة طوال مدة بقائي معه في المعبد المظلم. اكتشفت في نفسي أنني أكرهه كرهًا لم أستطع أن أتغلّب عليه. وددت صادقًا لو أنقذه من الشر وأهديه إلى طريق الحقيقة، ولكن الأفكار السيئة التي قامت في ذهني عنه لم تفارقني. قدّرت أن الهدف الوحيد الذي يرمي إليه من الانتساب إلى الجمعية هو الاقتراب من أشخاص هم أعضاء في محفلنا، واكتساب الحظوة لديهم، ألم يسألني مِرارًا هل «ن» أو «س» ينتميان حقًّا إلى محفلنا (وذلك أمر لم يكن من حقي أن أكشف له عنه؟)، يضاف إلى ذلك إحساسي بأنه غير مؤهّل لأن يشعر نحو جمعيتنا المقدسة بما يجب لها من الاحترام، وأنه أكثر انشغالًا واهتمامًا بظاهر شخصه من أن يرغب في إصلاح ذات نفسه والعروج بها إلى الكمال. لم يكن لي فيه عدا هذا أسباب تدعو إلى الشك فيه. لكنني أحسست بأنه يعوزه الصدق، وأحسست طوال مدة خلوتي به أنه كان يبتسم محتقرًا أقوالي، فوددت لو أطعن صدره العاري بالسيف الذي كنت أسدده إليه. لم أستطع أن أكون في كلامي بليغًا. ولم أستطع أن أصارح الأخوة والمعلم الكبير بشكوكي. اللهم يا مهندس

الكون الأعظم، كن في عوني لأهتدي إلى الطرق الصحيحة التي تخرجني من متاهة الكذب».

وبعد هذه الأسطر ترك ثلاث صفحات بيضاء، ثم سجَّل ما يلي:

«جرى حديث طويل مفيد في خلوة بيني وبين الأخ «ق» الذي نصحني بأن أعقد صلة بالأخ «آ»... لقد انكشفت لي أمور كثيرة لست جديرًا بها. أن آدوناي هو اسم خالق العالم. وأوليئيم هو اسم من يحكم كل شيء. والاسم الثالث، هو اسم لا يُنطق، معناه الكل. إن أحاديثي مع الأخ «ف» تشد أزري وتقوّي عزيمتي وتنعش روحي، وتثبت قدميَّ على طريق الفضيلة. متى كنت معه لم يبق مجال للشك. فأرى بوضوح شديد، الفرق بين تعليم علوم هذا العالم، وهو تعليم فقير، وبين مذهبنا المقدس الذي يشمل كل شيء. العلوم الإنسانية تجزّئ كل شي من أجل أن تُفهم، وتُقتل من أجل أن تُدرس دراسة مدقّقة. أما في علم جمعيتنا المقدس فالكل واحد وكل شيء يعرف في كماله في حياته. والثالوث، أعني المبادئ الثلاثة للأشياء هي الكبريت والزئبق والملح. وللكبريت خصائص الزيت والنار. وباتحاده بالملح تحدث النار التي فيها ظمأ به يجذب الزئبق ويقبض عليه ويولّد بالانضمام إليه أجسامًا متميّزة. والزئبق هو الجوهر الروحي سائلًا متبخرًا - المسيح الروح القدس، الموجود».

3 كانون الأول (ديسمبر)

صحوت متأخرًا. قرأت في الكتاب المقدس، ولكنني قرأت بغير تأثر. ثم خرجت من غرفتي وتجولت في الصالون. كنت أريد أن أتأمّل. ولكني بدلًا من ان أتأمّل استيقظ في خيالي حادث وقع منذ أربع سنين. إن السيد دولوخوف، حين لقيني بموسكو بعد المبارزة، قال لي إنه يأمل أن أنعم الآن بهدوء البال كاملًا، رغم غياب زوجتي. ولم أردَّ عليه حينئذ بشيء. ثم إذا أنا في هذا الصباح أتذكّر جميع تفاصيل ذلك اللقاء فآخذ أكيل له في خيالي أقسى الكلمات، وأجيبه بألذع الإجابات، ولم أثب إلى رشدي وأسيطر على نفسي وأطرد من خيالي هذه الصورة إلّا بعد أن رأيتني أشتعل غضبًا. ولكني لم أندم على ما فعلت ندمًا كافيًا. ثم جاء بوريس دروبتسكوي، وسرعان

ما أخذ يقصّ عليَّ حوادث ومغامرات شتى. وقد ساءتني زيارته، استقبلته استقبالًا جافًّا خشنًا، فردّ عليَّ، فثار حنقي، ووجّهت إليه كلمات مزعجة بل قلت له أقوالًا فظّة. فسكت، ولم أرجع إلى هدوئي إلّا بعد فوات الأوان. إنني لا أعرف كيف أتصرّف معه. والذنب في ذلك ذنب أنانيتي. فأنا أضع نفسي في منزلة فوقه، وهذا يجعلني أسوأ منه، لأنه من جهته متسامح يغفر لي فظاظتي، بينما أنا لا أحمل له إلّا شعور الاحتقار. اللهم هب لي أن أرى حقارتي بحضوره رؤية أسلم. وقد نمت بعد الغداء، وأنا نائم سمعت صوتًا واضحًا يقول لي في أذني اليسرى: «جاء يومك».

حلمت أنني أسير في الظلام، فإذا بكلاب تحيط بي. ولكني ظللت أسير بلا خوف. ثم إذا بكلب صغير يعض ساقي بأنيابه ولا يتركني فأخذت أخنقه بيدي. فما إن استطعت أن أبعده عني، حتى أخذ يعضني كلب أكبر منه. فأنهضت الكلب، فإذا هو يضخم مزيدًا من الضخامة ويثقل مزيدًا من الثقل كلما أنهضته. وفجأة وصل الأخ «آ»، فتأبط ذراعي، وقادني إلى مبنى لا يستطيع المرء أن يدخله إلّا إذا سار على لوح ضيق. وضعت قدمي على اللوح. فإذا هو يترنح ويسقط. فتشبّث بسياج القصب المحبوك الذي كانت يداي لا تكادان تستطيعان بلوغه. فأمكنني بعد جهود كبيرة أن أرتفع بنفسي عليه، حيث صارت ساقاي متدليتين في أحد جانبيه وصار جذعي متدليًا في جانبه الآخر. والتفت فرأيت الأخ «آ» واقفًا على السور يريني صفين من الأشجار بينهما ممر ويريني حديقة، ويريني في الحديقة بناءً واسعًا شامخًا. استيقظت من نومي. اللهم يا مهندس الكون الأعظم، كن في عوني لأتخلص من كلاب أهوائي، ومن الكلب الأخير الذي تجتمع فيه قوة سائر الكلاب. كن في عوني لأدخل في معبد الفضيلة هذا الذي أتيح لي أن أتأمله في الحلم».

7 كانون الأول (ديسمبر)

حلمت بأن أوسيب ألكسيفتش كان عندي، وأنني كنت سعيدًا بذلك، وأنني أردت أن أحسن معاملته. وفيما أنا أثرثر مع آخرين أدركت فجأة أن هذا قد لا يسرّه، فأردت أن أدنو منه وأن أحتضنه بذراعيَّ. ولكن ما إن اقتربت

حتى رأيت وجهه يتبدّل تبدلًا كاملًا فإذا هو وجه شاب، وقال لي بصوت خافت جِدًّا بضع كلمات عن مذهب جمعيتنا، وقد بلغ صوته من الخفوت أنني لم أسمعه. ثم خرجنا جميعًا من الغرفة، فحدث عندئذ أمر غريب. كنا جالسين على الأرض أو مضطجعين. وكان يكلّمني. وأردت أنا أن أكشف له عن حساسيتي، فلم أصغ إلى كلامه، ورحت أصوّر كياني الداخلي وقد زارتني النعمة الإلهية. وترقرقت في عينيَّ دموع سرني أنه لاحظها. ولكنه رشقني بنظرة متجهّمة كالحة، ونهض يبتعد عني بحركة سريعة قوية قاطعًا حديثي دفعة واحدة، فخجلت ووجلت وسألته هل عنّي أنا كان يريد أن يتكلّم. غير أنه لم يجب بشيء، ولاطفني وأظهر لي المودّة، ثم إذا نحن في غرفة نومي التي تضمّ سريرًا يتّسع لشخصين. فاضطجع على حافة السرير، وكنت أتحرق رغبة في أن أظهر له عاطفتي وأن أستلقي إلى جانبه. سألني: «قل بالصراحة كلها: ما عيبك الرئيسي؟ هل تعرفه؟ أظن أنك لا بد قد عرفته الآن». فبثّ هذا السؤال اضطرابًا في نفسي ثم أجبته: الكسل هو آفتي الكبرى. فهز رأسه غير مصدق. وقلت له وقد ازداد اضطرابي: صحيح أنني أعيش مع زوجتي، عملًا بنصيحته، ولكنني لا أعيش معها كما يعيش زوج مع زوجته. فكان ردّه على هذا أنه ما ينبغي للمرء أن يحرم زوجته من الملاطفات، وقال ما يُفهم منه أن هذا واجب يقع على عاتقي ولا يمكن أن أعفي نفسي منه. لكنني أجبته بأن ذلك يشعرني بخزي. وغاب فجأة كل شيء. لقد استيقظت فوجدت في ذهني هذا النص من الكتاب المقدس: «وكانت الحياة ضياء البشر. وكان الضياء يتلألأ في الظلمات، والظلمات لم تستقبله[1]. كان وجه أوسيب ألكسيفتش شابًّا مضيئًا. وفي ذلك اليوم نفسه وصلتني رسالة من «المحسن» يحدّثني فيها عن واجباتي الزوجية».

9 كانون الأول (ديسمبر)

حلمت حلمًا جديدًا ترك قلبي بعد اليقظة خافقًا خفقًا شديدًا. حلمت بأنني في منزلي في موسكو، أجلس في غرفة مكتبي الكبيرة، وأن أوسيب

---

(1) إنجيل يوحنا (الإصحاح الأول، 4 – 5).

ألكسيفتش مقبل عليَّ من الصالون. وسرعان ما رأيت أنه قد بُعث بعثًا جديدًا، وهرعت ألقاه. وقبّلت وجهه ويديه، وقال لي: «هل لاحظت أن وجهي ليس وجهي الذي عهدته؟»، فأمعنت النظر إليه بانتباه شديد وأنا ما أزال احتضنه بذراعيّ، كان وجهه أصفر، وقد تغيرت قسماته تغيرًا كاملًا، وليس له الآن شعر. قلت له: «لو أنني رأيتك مصادفة لعرفتك مع ذلك». ولكني تساءلت بيني وبين نفسي: «أأنا قلت الحقيقة حقًا». ثم إذ أنا أراه أمامي راقدًا رقود جثمان. ثم صحا شيئًا فشيئًا، ودخل معي إلى غرفة مكتبي الكبيرة. ممسكًا بيديه كتابًا كبيرًا مخطوطًا على أوراق من البابيروس. قلت له: «أنا كاتب هذه المخطوطة». فأجابني بهز رأسه. فتحت الكتاب وكانت جميع صفحاته مزدانة بصور جميلة. وكنت أعرف أن في هذه الرسوم تمثّل مغامرات النفس العاشقة مع حبيبها. وكانت إحدى الصور تمثّل عذراء بغلالات شفافة، وجسم شفاف وهي تطير إلى السحاب. وكنت أعلم أن هذه «العذراء إنما تمثّل نشيد إنشاد». أحسست وأنا أنظر في هذه الصور أنني أسيء، ولكنني لم أستطع أن أنتزع بصري منها. يا رب كن في عوني! اللهم إن كان ما أنا فيه من إهمال هو من صنعك، فلتكن مشيئتك! ولكن إذا كنت أنا سببه فأرشدني إلى ما يجب أن أفعله. إن فسادي سيهلكني إذا أنت هجرتني هجرًا تامًّا.

الفصل الحادي عشر

رغم أن آل روستوف قد دفنوا أنفسهم في الريف سنتين، فإن أحوالهم المالية لم تتحسّن. وقد وفى نيقولا بالعهد الذي قطعه على نفسه فعاش حياة غير متألقة في فوج نكرة، وكانت نفقاته قليلة. ولكن طراز المعيشة الذي عاشه أهله في أوترانويا، ولا سيما سوء إدارة متينكا، قد جعلا الديون تزداد عليهم سنة بعد سنة لا محالة. وكان الدواء الوحيد الذي يخطر ببال الكونت الشيخ بداهة هو أن يدخل في خدمة الدولة، فذهب إلى بطرسبورغ يبحث عن منصب. راح يبحث عن منصب، ويسرِّي عن البنيات في الوقت نفسه، مرة أخيرة، على حد قوله.

وما إن انقضى على وصول آل روستوف إلى بطرسبورغ وقت قصير حتى تقدم بيرج يخطب فيرا، وقُبل.

إن آل روستوف ينتمون في موسكو إلى المجتمع العالي، من دون أن يهمهم مع ذلك أن يعرفوا إلى أي مجتمع هم ينتمون. ولا كذلك في بطرسبورغ، فقد اختلطوا ببيئة تضم أشتاتًا من الناس ليس لها انتماء محدّد. إن كثيرًا من الناس كان آل روستوف يعاملونهم في موسكو معاملة الأنداد من دون أن يتساءلوا عن محتدّهم، ولا يحبون الآن أن يتنازلوا فيكون لهم بهؤلاء الريفيين علاقات.

وظل آل روستوف يعيشون في بطرسبورغ عيشة مضيافة كما كانوا في موسكو، فكانت مآدب العشاء التي يولمونها تجمع أشخاصًا أشتاتًا، منهم جيران لهم في أوترادنويا، ومنهم شيوخ من نبلاء الريف مع بناتهم، ومنهم وصيفة الشرف بيرونسكي، ومنهم بطرس بيزوخوف، ومنهم ابن ناظر

المحطة في مقاطعتهم وهو موظف في بطرسبورغ. وسرعان ما غدا بوريس وبطرس في عداد أقرب الناس مودّة إليهم، (كان الكونت الشيخ قد لقيهما في الشارع فاقتادهما إلى بيته)، وكذلك بيرج الذي أصبح يقضي عندهم أيامًا كاملة، ويبدي لكبرى البنات، الكونتيسة فيرا اهتمامًا عظيمًا بها، هو اهتمام شاب ينوي أن يخطب.

لم يكن عبثًا ولهوًا أن بيرج كان يُظهر كل من يلقاه على يده الجريحة التي أصيبت في أوسترلتز، وليس عبثًا ولا لهوًا أنه ظل يحمل بيده اليسرى سيفًا لا فائدة له منه البتة. لقد كان يروي الحادث لكل إنسان بإصرار يبلغ من العناد، وجدّ يبلغ من القوّة، أن الجميع انتهوا إلى تصديقه والإيمان بمأثرته. كما أنه مُنح وسامين مكافأة له على بلائه الحسن في أوسترلتز.

كان قد أتيح له أن يجلّي أيضًا في حرب فنلندا[1]، فإنه حمل من الأرض شظيةٍ قنبلة يدوية كانت قد قتلت ضابطًا مرافقًا إلى جانب الجنرال الأعظم، وسلّمها إليه. وكما فعل بعد حرب أوسترلتز، ظل يروي هذه الحادثة للناس زمنًا طويلًا، صدَّق الجميع مرة أخرى أن عمله كان أمرًا لازمًا لا غنى عنه وقد مُنح وسامين آخرين مكافأة له على مأثرته في حرب فنلندا. وفي سنة 1808 كان ضابطًا برتبة كابتن في الحرس الذي يحمل أوسمة، وكان يشغل في بطرسبورغ منصبًا خاصًّا مجزيًا جِدًّا.

ورغم أن بعض الشكّاكين الريّابين كانوا يبتسمون حين يكلّمهم أحد عن مزايا بيرج، فقد كانوا لا يملكون إلّا أن يعترفوا بأنه ضابط يتقيّد بالمواعيد ويتّصف بالشجاعة، ويقدره رؤساؤه قدرًا حسنًا، وأنه شاب محمود السيرة يُنتظر له مستقبل لامع، بل هو يحتل منذ الآن مركزًا راسخًا في المجتمع.

كان بيرج منذ أربع سنين قد لقي في ردهة مسرح بموسكو أحد رفاقه الألمان، فأراه فيرا وقال له بالألمانية: «هذه هي التي ستكون زوجتي»، وقرّر منذ ذلك الحين أن يتزوّجها.

وقد علم الآن بمركز آل روستوف في بطرسبورغ وقارن بين حالهم

---

(1) انتهت هذه الحرب (1808 – 1809) بالإستيلاء على فنلندا كلها. وقد مهر ألكسندر الأول فنلندا بدستور ليبرالي، وعدّها – دوقة كبرى متّحدة بالإمبراطورية.

وحاله، فخلص من ذلك إلى أنه آن الأوان، وتقدّم إلى الأسرة يخطب الكونتيسة فيرا.

وقد استُقبل طلبه في أول الأمر بدهشة لا ترضي عزته كثيرًا. لقد استغربوا أن يخطب شاب هو ابن رجل نكرة من لتوانيا كونتيسة من آل روستوف. ولكن السمة الأساسية في طبع بيرج هي أنانية تبلغ حدَّ السذاجة والطيبة. وقد لاحظ آل روستوف إصراره، وبالتالي، رغم إرادتهم، كان عليهم أن يفكّروا بالموافقة، ما دام هو مقتنعًا بالأمر هذا الاقتناع القوي كله. زد على ذلك أن أحوالهم المالية كانت مضعضعة، وذلك أمر لا بد أن بيرج يعرفه. وأن فيرا كانت في الرابعة والعشرين من العمر وكانت تختلف إلى المجتمع كثيرًا. وأنها على ما تتّصف به من جمال ورجاحة عقل لا يمكن جحودهما، لمَّا يطلب يدها أحد إلى الآن. فتمت موافقة الأسرة على طلب بيرج.

قال بيرج لرفيقه الذي كان لا يسميه صديقه إلّا لعلمه بأن لكل امرئ صديقًا: «اسمع، لقد وزنت كل شيء، ووضعت كل شيء في الاعتبار فما كنت لأتزوج لو وجدت في هذا الزواج أي ضرر. إن أبي وأمي أصبحا في منجى من العوز منذ أن جعلتهما يملكان أراضي في أقاليم البلطيق.

وأنا أستطيع بما أتّصف به من روح الاقتصاد والتوفير أن أعيش في بطرسبورغ بمرتّبي. ومع ثروتها هي يمكننا أن نعيش عيشة حسنة. لست أتزوج من أجل المال، فالزواج في سبيل المال خالٍ في نظري من النبل. ولكن يجب أن تساهم المرأة بنصيب وأن يساهم الرجل بنصيب. أنا لي مركزي، وهي لها علاقات ولها ثروة صغيرة. وذلك أمر له قيمته التي يجب ألا يهملها المرء في هذا الزمان، أليس كذلك؟ على أن أهم شيء هو أنها فتاة حلوة ومستقيمة، وأنها تحبّني».

قال بيرج ذلك وهو يبتسم ويحمرّ وجهه. ثم تابع يقول: «وأنا أيضًا أحبها، لأن طبعها يتّصف بالجد. وليست كذلك الأخت الآخرى. الأسرة واحدة. ولكن شتان بين الأختين. فالثانية طبعها مزعج، وهي لا تملك ما تملكه هذه من ذكاء. ثم لا أدري.. إن فيها شيئًا يبعث على النفور. أما خطيبتي فشأنها شأن آخر...».

وأراد بيرج أن يخبره أنها سوف تأتي إلينا فتتعشّى معنا، ولكنه عدّل عن رأيه وقال: «سوف تأتي فتشرب الشاي معنا». وبحركة خاصّة من لسانه، أطلق دائرة من الدخان تعبر أكمل تعبير عن أحلام سعادته.

إن الحيرة الأولى تجاه طلب بيرج قد حلَّ محلها في الأسرة جو عيد وفرح لا بد منه في مثل هذه الأحوال، ولكن الفرح كان يعوزه الصدق، وكان ظاهريًا. فقد كان يمازج موقف الأبوين من هذا الزواج شعور بالحرج والخجل والخزي. لكأنهما الآن يشعران بالعار من أنهما لم يحبّا فيرا الحب الذي تستحقه، وأنهما يتخلّصان منها بمثل هذه السرعة. وكان الكونت الشيخ أكثر أفراد الأسرة شعورًا بالضيق والحرج. وغالب الظن أنك لو سألته عن سبب هذا الضيق وهذا الحرج لما استطاع أن يحدّد لك السبب، ولكن مسألة المال كانت تصدع رأسه وتقضّ مضجعه. إنه يجهل كل الجهل ماذا يملك، وماذا عليه من ديون، وما المهر الذي يستطيع أن يهبه لابنته فيرا. كان حين ولادة بناته خصّ كل واحدة منهن بمهر قدره ثلاثمائة نفس. ولكن قرية من قراه بيعت، وقرية أخرى رُهنت، وبلغ من التأخر في دفع الفوائد المترتبة على رهنها أن بيعها أصبح أمرًا لا مفر منه، لذلك كان يستحيل عليه أن يهب لابنته مهرًا من أطيان، وأما المال فلا مال لديه.

ها قد انقضى أكثر من شهر على قبول بيرج خطيبًا للكونتيسة فيرا، ولم يبق إلّا ثمانية أيام لحلول موعد الزواج. ولكنَّ الوقت لمَّا يسمح له أن يحلّ مشكلة المهر إلى الآن، ولا حدَّث امرأته بذلك. كان تارة يهب ابنته فيرا أرض ريازان، وتارة يريد أن يبيع غابة، وتارة يريد أن يقترض مالًا بسند. وقبل الاحتفال ببضعة أيام دخل بيرج في ساعة مبكرة من الصباح غرفة مكتب الأمير، وسأل حماه المقبل، مع ابتسامة رقيقة واحترام كبير، أن يمده بأيضّاحات دقيقة عن المهر الذي ينوي ان يخصَّ به فيرا. فكان من شأن هذا السؤال الذي كان يتوقّعه منذ مدة طويلة أن بثّ في نفس الكونت اضطرابًا بلغ من الشدة والضعف أنه أسرع يقول على غير هدى أول شيء خطر بباله. قال:

– يسرني اهتمامك بهذا الأمر، يسرني كثيرًا، سوف تكون راضيًا، وربّت

على كتف بيرج، ونهض راغبًا في إنهاء هذا الحديث. ولكن بيرج قال له وهو يبتسم ابتسامة لطيفة أنه سيكون مضطرًا إلى العدول عن خطبة فيرا إذا هو لم يعرف مقدار مهر فيرا معرفة دقيقة ولم يقبض جزءًا منه على الأقل. وأضاف: أرجو أن تفهم الأمر على حقيقته يا كونت. إذا أنا سمحت لنفسي بأن أتزوج قبل أن أضمن أنني سكون قادرًا على الوفاء بواجباتي تجاه زوجتي، وسد احتياجاتها، فلن يكون سلوكي سلوك رجل شريف..

وكانت النتيجة أن الكونت، من أجل أن يبدو كريمًا، ومن أجل أن يقطع الطريق على أية مطالب جديدة، وعده بأن يحرّر له سندًا بمبلغ ثمانين ألف روبل. فابتسم بيرج ابتسامة عذبة، وقبّل كتف الكونت، وقال إنه شاكر جزيل الشكر، ولكنه لا يستطيع أن ينظّم حياته الزوجية قبل أن يقبض ثلاثين ألف روبل عدًّا ونقدًا. وأضاف يستدرك:

– أو عشرين ألف روبل على الأقل، وسيكون السند عندئذ بمبلغ ستين ألف روبل.

فانبرى الكونت يقول:

– نعم، نعم، تمامًا. ومعذرة يا صديقي. سأدفع لك العشرين ألف روبل عدًّا ونقدًا، ولكن السند سيبقى بمبلغ ثمانين ألفًا، هيا قبّلني.

الفصل الثاني عشر

لقد بلغت ناتاشا السادسة عشرة من عمرها. ونحن الآن في سنة 1809، أي السنة التي حدّدتها لبوريس، وهي تعدّ على أصابعها، يوم تبادلا قبلة قبل أربع سنين، ثم لم تره بعد ذلك مرة واحدة. وكانت أمام صونيا وأمام أمها، إذا جاء ذكر بوريس، تقول بحرية كاملة إن تلك القصص القديمة كلها لم تكن إلّا صبيانيات نسيتها منذ مدة طويلة، ولا تستحقّ حتى أن يجري فيها حديث، ولا أن يدور عليها كلام. ولكنها في أعماق قلبها كانت تتساءل عمَّ إذا ارتباطها ببوريس مزاحًا أم كان وعدًا جدّيًّا بربطها. وكان هذا التساؤل يعذبها تعذيبًا.

إن بوريس، منذ أن ترك موسكو إلى الجيش سنة 1805 لم يلق آل روستوف مرة واحدة. وقد جاء إلى موسكو مِرارًا، ومر بأمكنة لا تبعد عن أوترادنويا، ولكنه لم يطأ أرض منزلهم في يوم من الأيام.

فكانت ناتاشا تقول لنفسها في بعض الأحيان إنه لا يريد أن يراها، وكانت اللهجة الحزينة التي يتكلم بها الكبار في الأسرة حين يجيئون على ذكره تعزّز في ذهنها هذا الافتراض.

كانت الكونتيسة تقول حين يشير أحد إلى بوريس:

- الناس في هذا الزمان ينسون أصدقاءهم القدامى، وكانت آنا بافلوفنا التي قلّت زياراتها في الآونة الأخيرة قد اتخذت هي أيضًا وضعًا فيه كثير من الوقار، وكانت في كل مرة تتكلّم بحماسة شديدة عن مزايا ابنها بوريس وعن أنواع النجاح الباهر التي أصابها، وعن المستقبل اللامع الذي يشقّ طريقه إليه.

وحين وصل آل روستوف إلى بطرسبورغ جاء بوريس يزورهم. لقد ذهب إليهم مهتاج النفس بعضِ الاهتياج. إن ذكرى ناتاشا هي بين ذكرياته الأكثر شعرية. ولكنه كان قد عقد نيّة جازمة قاطعة على أن يفهمها ويُفهم أهلها أن ما كان بينهما من علاقات في الطفولة لا يمكن أن يكون ارتباطًا منه بها، ولا ارتباطًا منها به. وبالتالي ليس بينهما أي التزام. إن له الآن مركزًا متألقًا في المجتمع بفضل صلته الحميمة بالكونتيسة بيزوخوف، وله مكانة مرموقة في عمله بفضل حماية الشخصية الخطيرة الشأن التي تمحضه ثقة مطلقة، فهو يتصوّر مشاريع زواج بفتاة من أغنى الوارثات ببطرسبورغ، وهي مشاريع يمكن جِدًّا أن تتحقّق.

حين دخل بوريس صالون آل روستوف، كانت ناتاشا في غرفتها. فلما علمت بوصوله هرعت مخضَّبة الوجه بحمرة شديدة، متألقة المحيا بابتسامة مفعمة لطفًا ومودّة.

كان بوريس يتذكر ناتاشا بفستانها القصير وعينيها السوداوين اللامعتين تحت خصلات شعرها، وضحكتها المجنونة التي يضحكها الأطفال. أي كانت ذكراها في خياله هي صورتها قبل أربع سنين. لذلك اضطرب حين رأى دخول ناتاشا أخرى مختلفة عن تلك الصورة كل الاختلاف، وعبَّر وجهه عن دهشة مترعة بالإعجاب، فسُرَّت ناتاشا بما عبر عنه وجه بوريس.

قالت الكونتيسة:

– هيه! هل تعرّفت صديقتك الصغيرة العفريتة؟

قبَّل بوريس يد ناتاشا وأعرب عن دهشته من التبدل الذي طرأ عليها، وقال:

– ما أكثر ما جملت!

فأجابت عينا ناتاشا الضاحكتان تقولان: «صحيح». وقالت تسأله:

– وهل شاخ بابا؟

وجلست ناتاشا. وأخذت تتفرّس في خطيب طفولتها صامتة لا تشارك في الحديث بينه وبين الكونتيسة. إنما راحت تنعم النظر فيه لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلّا وتدقّق فيها. فكان بوريس يشعر بوطأة هذه النظرة العنيدة

الملأى عاطفة، وكان ينظر إليها هو أيضًا من حين إلى حين.

كانت بزة بوريس العسكرية، ومهاميزه، وربطة عنقه، وتسريحة شعره، على آخر موضة، وكان «كما يجب». وقد جلس على مقعد بقرب الكونتيسة مواربًا بعض المواربة، يعدل بيده اليمنى قفازه الناصع الذي يلف يده اليسرى، ويتكلّم عن مباهج المجتمع الراقي ببطرسبورغ زامًّا شفتيه زمًّا أنيقًا، ويستعرض الزمان الماضي ومعارفه في موسكو ساخرًا سخرية ناعمة. ولم يكن من قبيل المصادفة (وقد أحسّت ناتاشا بذلك) أنه حين تكلم عن المجتمع الراقي دسَّ في حديثه كلمة عن حفلة الرقص التي أقامتها السفارة ودعته إليها، وعن الدعوات التي تلقاها من «ن ن» و»س س».

لبثت ناتاشا صامتة تختلس النظر إليه اختلاسًا. فكانت نظرتها هذه إليه تقلقه مزيدًا من الإقلاق وتبث في نفسه مزيدًا من الاضطراب شيئًا بعد شيء. وأصبح يلقي عليها نظرات أكثر عددًا، وينقطع عن المضيّ في كلامه من حين إلى حين. وما انقضت عشر دقائق حتى قام يستأذن بالانصراف. فكانت العينان الثاقبتان المستطلعتان اللتان تعبّران عن الاستفزاز والسخرية في آن واحد لا تزالان مصوَّبتين إليه.

قال بوريس لنفسه بعد زيارته الأولى إن ناتاشا ما برحت تجذبه كما كانت تجذبه في الماضي، ولكن عليه ألا يخضع لهذه العاطفة، لأن زواجًا بها، وهي الفتاة التي لا تكاد تملك ثروة، سيدمِّر مستقبله، وأن تجديد علاقاته القديمة بها من غير أن ينوي الزواج بها ليس بالسلوك الشريف. فقرّر بينه وبين نفسه أن يتحاشى لقاءها، ولكنه رغم هذا القرار عاد يزور آل روستوف بعد بضعة أيام، ثم اعتاد أن يزورهم كثيرًا، حتى لقد صار يقضي عندهم أيامًا كاملة. كان يقول لنفسه إن عليه حتمًا أن يكاشف ناتاشا، فيعلن لها أن عليهما أن ينسيا الماضي، وأنها رغم كل شيء.. لا يمكن أن تكون زوجته، وأنه لا يملك ثروة، فلا يمكن أن يُقبَلَ زوجًا لها. ولكن لم يفلح في اقتحام هذه المكاشفة، ولم يعرف كيف يتصرف إزاء الأمر. فكان يغوص كل يوم مزيدًا من الغَوْص. وكانت ناتاشا، كما لاحظت ذلك أمها وصونيا، تعود إلى حبِّها القديم، وتزداد تولّهًا ببوريس. فهي تغنّي له الأغنيات التي يحبها،

وتريه ألبوم الصور، وتطلب منه أن يكتب فيه بعض الكلمات، وتحظر عليه أن يعود إلى ذكر الماضي لتفهمه أن الحاضر أجمل. وكان هو ينصرف في كل يوم طائش اللب من دون أن يكون قد استطاع قول ما كان ينوي أن يقوله، من دون أن يعرف هو نفسه ماذا كان يفعل، ولماذا كان يجيء، وإلى ماذا سينتهي هذا الأمر. وأصبح لا يذهب إلى هيلين، وصارت هيلين ترسل إليه بطاقات ملأى بالملامات، وظل هو يقضي عند آل روستوف أيامًا كاملة.

الفصل الثالث عشر

ذات مساء، بينما كانت الكونتيسة العجوز تسجد سجدات صلاة المساء على سجّادتها متأوّهة آنَّة، وهي لابسة قميص النوم، نازعة شعرها المستعار فلا تخرج من تحت طاقيتها المصنوعة من قماش قطني خشن إلّا خصلة شعر هزيلة، إذ صرَّ الباب، وهرعت ناتاشا تدخل عليها، لابسة قميص النوم هي أيضًا، تلفّ شعرها بشرائط لتجعيده، حافية القدمين في بابوجين. فالتفتت الكونتيسة وقطبت حاجبيها. كانت تختتم صلاتها بقولها: «أحقًا سريري هذا سيكون نعشي؟».

تبدَّد، خشوع الكونتيسة. أما ناتاشا التى كانت محمرّة الوجه منتعشة الهيئة، فإنها أسرعت تتوقّف حين رأت أن أمّها تصلّي، وجثت على ركبتيها، وأخرجت طرف لسانها كما يفعل من يفاجأ وهو يرتكب ذنبًا من الذنوب.

واستمرت أمها في صلاتها، فركضت ناتاشا سائرة على رؤوس الأصابع نحو السرير، وخلعت بابوجيها وأخذت تحك إحدى قدميها الصغيرتين بالقدم الآخرى حكًّا شديدًا، ثم وثبت إلى السرير الذي كانت الكونتيسة تخشى أن تسمّيه نعشها، إنه سريرٌ عالٍ فراشه من ريش، وله خمس وسائد نُضِّدت هابطة من فوق إلى تحت. وثبت ناتاشا إلى السرير، ودفنت نفسها في اللحاف، وتدحرجت حتى بلغت الحائط والتصقت به، وأخذت تتحرّك تحت الغطاء جاعلة ركبتيها تحت ذقنها، خابطة بقدميها، ضاحكة ضحكًا مخنوقًا، مخبئة رأسها تارة، ناظرة إلى أمها تارة أخرى. فلما انتهت الكونتيسة من صلاتها، أقبلت على السرير عابسة، ولكنها ما إن رأت ناتاشا مخبئة رأسها في الغطاء حتى ابتسمت ابتسامتها الطيّبة الضعيفة.

قالت الأم: «هيا، هيا، ما هذا؟».
فأجابت ناتاشا:
- ماما، هل يمكننا أن نتحدّث معًا؟ خذي هذه قبلة في العنق، وهذه قبلة أخرى إذا كنت تقبلين.
قالت ناتاشا ذلك وأحاطت عنق أمها بذراعيها، وقبّلتها تحت الذقن. صحيح أن ناتاشا كانت تباغت أمها بحركات مفاجئة، ولكن ناتاشا تبلغ من رهافة الحسّ وحذق الحركة، أنها كانت، إذا طوقت أمها، تعرف دائمًا كيف تحتال على الأمر بحيث لا تحدث لأمها ألمًا، ولا انزعاجًا، ولا ضيقًا أو بَرَمًا.
استندت الكونتيسة إلى وسائدها، فتدحرجت ناتاشا على نفسها مرتين، حتى اضجعت بجانب أمها تحت غطاء واحد مخرجة يديها من تحت اللحاف، مصطنعة هيئة الجد.
فسألتها الأم: «هيه، ما الأمر اليوم؟».
إن هذه الزيارات الليلية التي تجمع الأم وابنتها قبل أن يعود الكونت من النادي لهي من أكبر مسرّات الأم وابنتها كلتيهما.
عادت الكونتيسة تسأل ناتاشا:
- هيا اخبريني، ما الأمر اليوم؟ أنا أيضًا أريد أن أكلمك في شيء...
فوضعت ناتاشا يدها على فم أمها، وقالت بلهجة جادة:
- أعرف. تريدين أن تكلميني عن بوريس... ومن أجل هذا إنما جئتِ. لا تقولي شيئًا. أنا أعرف. بل قولي ما تريدين أن تقوليه.
ونزعت يدها عن فم أمها، وأردفت تسألها:
- قولي يا ماما. أهو لطيف محبّب؟
فأجابت الأم:
- ناتاشا. أنت في السادسة عشرة من عمرك. حين كنت أنا في سنك كنت قد تزوجت. نعم، إنه لطيف، وإني لأحبه كما تحب أم ابنها، ولكن ما الذي تريدين أن تصلي إليه؟ ماذا تضمرين من نيات؟ لقد سلبتِهِ عقله، أنا أرى هذا رؤية واضحة...

قالت الكونتيسة هذا الكلام، وألقت نظرة على ابنتها. كانت ناتاشا جامدة لا تتحرّك، وكانت تحدِّق بعينيها إلى أمام، ناظرة في أحد تماثيل أبي الهول المنحوتة من خشب الآكاجو في أطراف السرير، بحيث كانت الكونتيسة لا تستطيع أن ترى من وجه ابنتها إلّا جانبه.. ففجأها ما كان يُعبِّر عنه هذا الوجه من جد واستغراق. وكانت ناتاشا تصغي إلى كلام أمها وتفكر.

فقالت:

- ثم ماذا؟

- أقول إنك سلبت عقله، فعلام هذا؟ ما الذي تريدينه منه؟ أنت تعلمين حق العلم أنك لا يمكن أن تتزوّجي منه.

فسألتها ناتاشا من دون أن تغير وضعها:

- لماذا لا يمكن أن أتزوّج منه؟

- لأنه صغير السن، ولأنه فقير، ولأنه قريبك... ولأنك لا تحبينه.

- ما يدريك؟

- أعرف.

- وإذا أردت؟

- لا تقولي سخافات؟

- ولكن إذا أردت؟

- ناتاشا، إنني أتكلم جادّة لا هازلة...

لم تدع ناتاشا أمها تكمل كلامها، بل جذبت يدها الكبيرة، فقبّلت وجه اليد ثم قبلت راحتها، ثم أدارتها مرة أخرى، فطبعت قبلة على مفصل إحدى الأصابع، فقبلة ثانية على الفرجة بين هذه الأصابع وجارتها، فقبلة ثالثة على المفصل الذي يليه، وهي تعد الأشهر: «كانون الثاني، شباط، آذار، نيسان، أيار».

وقالت وهي تلقي نظرة على أمها التي كانت تتأمل ابنتها بعينين ممتلئتين حنانًا. وقد نسيت في هذا التأمّل ما كانت تريد أن تقوله. فسألتها ناتاشا:

- تكلّمي يا ماما، لماذا تسكتين؟

قالت الكونتيسة:

- ليس هذا لائقًا يا عزيزتي. ثمة أناس لن يفهموا ما كان بينكما من صداقة في الطفولة. فإذا رأوا ما بينكما الآن من مودّة حميمة كان ذلك يسيء إليك في نظر الشباب الآخرين الذين يتردَّدون علينا. ثم إن هذا يجعله يتعذّب في غير طائل. لعله عثر على فتاة يناسبه أن يتزوجها، فتاة غنية. ثم ها هو ذا الآن يُسلب عقله...

ردّدت ناتاشا قولة أمها:

- يُسلبَ عقله.

- إنني أصدر في كلامي عن تجربة. لقد كان لي قريب...

- أعرف. كيريل ماتفيتش، ولكنه عجوز...

- لم يكن عجوزًا طوال حياته. اسمعي يا ناتاشا، سأكلم بوريس. لا يحسن أن يكثر من هذا المجيء هذا الإكثار كله.

- ولماذا لا يجيء إذا كان يحب أن يجيء؟

- لأنني أعرف أن ذلك لن يؤدي إلى شيء.

- ما يدريك؟ لا يا ماما. لا تقولي له ألا يكثر من المجيء. هذه سخافات.

قالت ناتاشا هذا الكلام بلهجة من يُراد أن يُنتزع منه ماله. وأردفت:

- لن أتزوّجه. ولكنْ فليستمر في المجيء ما دام ذلك يسلّيه، ويسلّيني أنا أيضًا.

ونظرت ناتاشا إلى أمها مبتسمة. وعادت تضيف:

- لن أتزوجه، وإنما يحبني وأحبه «هكذا».

- كيف «هكذا»؟

- «هكذا»... الزواج لا يهمّني. يستوي عندي أن أتزوّج وألا أتزوّج. ويكون الحب بيننا «هكذا».

فقالت الكونتيسة مردّدة وقد أخذ جسمها كله يهتز بضحكة كبيرة مجلجلة تضحكها امرأة عجوز على حين فجأة:

- هكذا، هكذا...

فهتفت ناتاشا تقول:

– لا تضحكي هذا الضحك الشديد يا ماما. إنك ترجِّين السرير كلّه... ما أعجب الشبه بيني وبينك، إنك ضحَّاكة كبيرة، لا تقلّين عني في هذا.

وتناولت ناتاشا يدي أمها، واستأنفت العد وهي تقبِّل مفصل الأصبع الصغيرة، حزيران، ثم تواصل التقبيل تموز وآب إلى نهاية اليد، وقالت:

– ماما، أهو مولَّه بحبي كثيرًا؟ ما إحساسك؟ هل أحببت أنت بهذا القدر؟ نعم، إنه لطيف، لطيف جِدًّا، لطيف جِدًّا جِدًّا... ولكنه لا يعجبني كثيرًا. لكأنه نواس ساعة الحائط في قاعة الطعام... هل تفهمين ما أقصد؟ نحيل، أشهب، فاتح...

قالت الكونتيسة:

– ما هذا الهزر الذي تقولين؟

وتابعت ناتاشا كلامها تقول:

– أأنت حقًّا لا تفهمين ما أقصده؟ نيقولا يستطيع أن يفهم ذلك. بيزوخوف، مثلًا، أزرق، أزرق قاتم تخالطه حمرة، وهو مربع.

قالت الكونتيسة ضاحكة:

– له أيضًا تتغنجين!

– لا، هو ماسوني. قيل لي هذا. إنه لطيف، أزرق قاتم تمازج زرقته حمرة. كيف أشرح لك ما أريد أن أقوله...

وهما ماضيتان في الحديث علا صوت الكونت الشيخ الوراء الباب:

– ألست نائمة يا عزيزتي الكونتيسة؟

فوثبت ناتاشا عن السرير إلى الأرض، وحملت بابوجيها، وولَّت هاربة إلى غرفتها حافية القدمين.

وبقيت مؤرقة مدة طويلة. وكانت تقول لنفسها إن أحدًا لا يستطيع أن يفهم كلَّ ما تفهمه وكلَّ ما يعتمل في نفسها. وتساءلت وهي تنظر إلى القطة الصغيرة النائمة متكوّرة مع ضفيرتها الكبيرة: «صونيا؟ لا! أين لها أن تفهم؟ إنها متمسكة بأهداب الفضيلة أكبر التمسك. وهي تحبّ نيقولا ولا تريد أن تعرف شيئًا آخر. وأمي لا تفهمني أيضًا. ألا ما أذكاني...

وتابعت تتكلّم عن نفسها كمن يتكلّم عن غائب، وتتصور أن رجلًا ذكيًا

هو الذي يثني عليها هذا الثناء، رجلًا لا يضارعه في ذكائه رجل، رجلًا هو خير الرجال قاطبة، يقول:

- ما أفتنها!

ويتابع الرجل الذكي كلامه عنها فيضيف:

- إنها تملك جميع المزايا، جميعها... هي خارقة في ذكائها، خارقة في لطفها... ثم هي جميلة، جميلة جمالًا خارقًا، وحاذقة حذقًا خارقًا. وهي تجيد السباحة، وتتقن ركوب الخيل... وما أروع صوتها في الغناء! نعم، نستطيع أن نقول إن لها صوتًا مدهشًا مذهلًا!.

ودندنت جملتها الموسيقية الأثيرة عندها، المستمَدة من أوبرا ألّفها شيروبيني. وارتمت على سريرها، وأفرحها أعظم الفرح أنها ستنام، فضحكت سعيدة كل السعادة، ونادت دونياشا لتطفئ الشمعة، فما كادت دونياشا تخرج حتى كانت ناتاشا قد انتقلت إلى عالم آخر، عالم زاخر بمزيد من السعادة، هو عالم الأحلام. هو العالم الذي يكون كل شيء فيه سهلًا سهولته في الواقع، جميلًا جماله في الواقع، ولكنه خير من عالم الواقع لأنه مختلف عنه.

وفي الغد استدعت الكونتيسة بوريس، وتحدّثت إليه، فانقطع عن المجيء إلى منزل آل روستوف منذ ذلك اليوم.

الفصل الرابع عشر

في اليوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول (ديسمبر)، عشية رأس سنة ألف وثمانمائة وعشر، أقيمت حفلة رقص في منزل سيد من كبار أصحاب الأملاك من عهد كاترين الثانية، وكان أعضاء السلك الدبلوماسي والإمبراطور سيحضرون هذه الحفلة.

فعلى الرصيف الإنجليزي[1] كانت تتلألأ الأنوار آلافًا في المنزل الفخم الذي يملكه هذا السيد الكبير من أصحاب الأملاك، وأمام درجات الباب المضاءة، المفروشة بسجّادة حمراء، كانت الشرطة تصطف سياجًا بإشراف مدير الشرطة نفسه مع عشرات من الضباط. وكانت مركبات يحرسها خدم بملابسهم الحمراء، وخدم بقبّعات ذات ريشة، ما تنفك تصل ثم تمضي. إنها تقلّ سادة يرتدون بزّات عسكرية تزوّقها رصائع وأوشحة؛ وكانت سيدات ترتدين الساتان وفراء السمور ينزلن في حذر على مواطئ العربات، التي تنخفض مقرقعة، ثم يرقين الدرجات المفروشة بالسجادة الحمراء مسرعات صامتات.

وكانت دمدمة تسري في الجمهور، والقبّعات تُرفع عن الرؤوس عند وصول كل عربة تقريبًا.

- أهو الإمبراطور؟.. لا.. هذا وزير.. هذا أمير.. هذا سفير...

كذلك كان يقول الناس. وكان أحد المستطلعين، وهو أحسنهم هندامًا،

---

(1) رصيف جميل على نهر نيفا في وسط العاصمة.

يبدو كأنه يعرف جميع القادمين، فكان يسمّي أشهر رجال ذلك العصر بأسمائهم.

وبينما كان ثلث المدعوّين قد وصلوا ودخلوا، كان آل روستوف، المدعوون أيضًا، لا يزالون منهمكين في إتمام تزيّنهم بسرعة.

كانت هذه الحفلة قد أثارت في أذهان آل روستوف تعليقات كثيرة، وحضّتهم على استعدادات جمة، وأيقظت في نفوسهم مخاوف عدة، هل توجَّه إليهم دعوة؟ هل تكون زينتهم مهيأة في الموعد؟ هل يتم كل شيء على ما يحبون أن يتم؟

وكانت ماريا إغناتيفنا بيرونسكي، صديقة الكونتيسة وقريبتها، وهي امرأة نحيلة الجسم صفراء الوجه من آنسات الشرف في البلاط السابق، قد وعدت بأن تصحب هؤلاء الريفيين إلى الحفلة، وكانت لهم بمثابة مرشد وموجّه في المجتمع البطرسبورغي الراقي.

وكان على آل روستوف أن يمروا في الساعة العاشرة من المساء بآنسة الشرف ماريا إغناتيفنا ليصطحبوها من منزلها بقرب حديقة «توريد»[1]. وها هي ذي عقارب الساعة تبلغ العاشرة إلّا خمس دقائق والبنات لمّا يتهيّأن بعد.

إن هذه أول حفلة رقص تحضرها ناتاشا في حياتها. وقد قامت من فراشها منذ الساعة الثامنة من الصباح، وقضت النهار كله في سعي محموم واضطراب مسعور. كانت جهودها كلها ترمي، منذ الصباح، إلى أن يكنَّ هنَّ الثلاثة. هي وماما وصونيا، في أبهى حلّة من الثياب. وقد اعتمدت الكونتيسة وصونيا عليها كل الاعتماد، فسلّمنها أمرهما بلا جدال.

كان على الكونتيسة أن ترتدي ثوبًا من مخمل ماساكا، وكان على الفتاتين أن تلبسا ثوبين أبيضين من شفوف فوق فستانَيْن ضيّقَيْن من حرير ورديّ اللون مع ورود في الصدار. وكان عليهن أن يصففن شعرهن على الطريقة الإغريقية.

---

(1) حديقة تحيط بالقصر المسمّى بهذا الاسم، وكان يملكها غريغوار بوتومكين، أمير «توريد» (القرم)، وكانت في ذلك الأوان مقر الإمبراطورة – الوالدة ماري.

لقد فرغن من الأمور الأساسية في تزيّنهن؛ فالأقدام والأذرع والأعناق والآذان غُسلت وعُطّرت ومُسحت بالبودرة في كثير من العناية على ما يجب أن يُفعل لحفلة رقص. وجوارب الحرير المخرَّمة، وأحذية الساتان الأبيض ذات الأشرطة، قد انتُعلت؛ وتصفيف الشعر قد انتهى أو شارف على الانتهاء. وصونيا تفرغ من ارتداء ثيابها وكذلك الكونتيسة. ولكن ناتاشا، من شدة اهتمامها بأمها وبصونيا، ومن كثرة عنايتها بهما، قد تأخّرت. فهي لا تزال جالسة أمام المرآة بمئزر ملقى على كتفيها. وانتهت صونيا من ارتداء ملابسها، فوقفت في وسط الغرفة تغرز بأصبعها الصغيرة دبوسًا. يؤلم غرزُه إصبعها من شدة ضغطها عليه، لتثبت به آخر شريط كان يصرُّ تحت الدبوس صريرًا.

قالت لها ناتاشا وقد انصرفت عن تسريح شعرها، وأمسكت شعرها بكلتا يديها قبل أن تستطيع الخادمة تركه:

– ما هكذا يا صونيا، ما هكذا يا صونيا. وما هكذا تعقد العقدة. تعالي إلى هنا.

فجلست صونيا، وثبتت لها ناتاشا الشريط بطريقة أخرى.

قالت خادمة ناتاشا وهي لا تزال ممسكة شعرها:

– معذرة يا آنسة... حقًّا لا يمكن...

فأجابت ناتاشا قائلة:

– آه... يا إلهي! انتظري قليلًا...

وأردفت تقول لصونيا:

– هكذا يا صونيا.

قالت الكونتيسة:

– هل انتهيتما!

– حالًا، حالًا، وهل انتهيت أنت يا ماما؟

– لم يبق عليَّ إلّا أن أضع قبعتي؟

فصرخت ناتاشا تقول لها:

– لا تضعيها، لا تضعيها بغير مساعدتي. لن تحسني وضعها وحدك!

- ولكن الساعة بلغت العاشرة.

كانوا قد قرروا أن يصلوا إلى الحفلة في العاشرة والنصف، وملا تزال ناتاشا تتهيأ. ثم إن عليهم أن يمرّوا بحديقة توريد لاصطحاب ماريا إغناتيفنا بيرونسكي إلى الحفلة.

فلما انتهت ناتاشا من تسريح شعرها، هرعت بقميص أمها وبتنورة قصيرة تكشف عن حذاءيها الصغيرين الخاصَّين بحفلة الرقص، هرعت إلى صونيا تفحص زينتها مدقّقة، ثم انطلقت مسرعة إلى أمّها، فأدارت رأسها. وثبّتت لها قبعتها بدبابيس، وطبعت قبلة على شعرها الشائب خطفًا ثم ركضت عائدة إلى الخادمات اللواتي كنَّ يعدّلن كفَّ حاشية تنورتها.

لم يكن قد بقي إلّا همٌّ واحد، هو تنورة ناتاشا التي كانت مسرفة في الطول. فكانت خادمتان عاكفتين على تقصيرها، وكانتا تقطعان الخيوط بأسنانهما مستعجلتَيْن، وكانت خادمة ثالثة تركض بين الكونتيسة وصونيا والدبابيس بين شفتيها؛ وكانت خادمة رابعة ترفع الثوب الشفاف بكلتا ذراعيها.

- مافروشكا! مزيدًا من السرعة يا عزيزتي!

- أعطني الكشتبان يا آنسة.

وسأل الكونت من الوراء الباب:

- هل تفرغن بعد قليل؟

هذا عطر لَكُنَّ، لا بد أن الآنسة بيرونسكي قد نفد صبرها.

قالت الخادمة وهي ترفع الثوب الشفاف بأصبعيها بعد أن قصَّرته، وتنفخ عليه وتهزه لتظهر بهذه الحركة أنها عارفة بما تحمله وبنصاعة بياضه.

وأخذت ناتاشا تلبس الفستان، وهي تصرخ قائلة لأبيها الذي فتح الباب: لحظة، لحظة! لا تدخل يا بابا. كان الثوب يشبه أن يكون غمامة بيضاء يغطي كل وجهها. وأعادت صونيا إغلاق الباب. وسُمح للكونت بعد لحظة أن يدخل.

كان الكونت معطّرًا مدهّنًا، وكان يرتدي فراكًا أزرق، وجوربين وحذاءين خفيفين.

قالت ناتاشا وهي واقفة في وسط الغرفة تعدّل ثنيات ثوبها:

- آ... بابا! ما أجملك! أنت آية من آيات الجمال!

قالت لإحدى الخادمات وكانت تشد الثوب راكعة على ركبتيها، منقِّلة الدبابيس من أحد طرفي فمها إلى طرفه الآخر:

- من فضلك يا آنسة، من فضلك...

وصاحت صونيا تقول وفي صوتها يأس حين أنعمت النظر في ثوب ناتاشا:

- قولي ما تشائين، ولكن الثوب لا يزال طوله زائدًا.

فتراجعت ناتاشا لترى نفسها في مرآة الحائط، فوجدت الثوب زائد الطول فعلًا.

قالت مافروشكا وكانت تتبع مولاتها على أربع:

- أحلف لك يا آنسة أنه ليس زائد الطول البتة.

وعقّبت دونياشا تقول جازمة وهي تسلُّ إبرة من خمارها، وتستأنف العمل حالًا:

- إذا كان زائد الطول نقصّره.

وفي تلك اللحظة دخلت الكونتيسة بثوبها المصنوع من المخمل وقبعتها، وكانت تخطو خطوًا وجلًا، لا صوت له. فصرخ الكونت يقول:

- أوه! أوه! ما أجملها! إنها أجملكنّ جميعًا.

وأراد أن يضمها بذراعيه ولكنه تنحّى محمرّ الوجه خشية أن يجعِّد لها ثوبها.

وقالت ناتاشا:

- اعطفي القبعة قليلًا إلى جانب يا ماما. انتظري. سأعدلها لك.

وهبَّت تندفع إلى الأمام مسرعة فلم تستطع الخادمات أن يتبعنها في جريها فإذا بقطعة من الثوب الذي يشبه أن يكون غمامة بيضاء تبقى في أيديهن.

- يا إلهي! ما هذا أيضًا! يمينًا ما أنا بمسؤولة...

فقالت دونياشا مؤكدة:

- سأرقِّع القطعة فلا يظهر شيء.

ودخلت المرضعة فهتفت تقول:

- ملكتي الجميلة! ملكتي العزيزة! وصونيا أيضًا! آه... ما أجملكما!

وفي الساعة العاشرة والربع استطاع آل روستوف أخيرًا أن يركبوا العربة وينصرفوا. ولكن لا يزال عليهم أن يمرّوا بحديقة توريد.

كانت الآنسة بيرونسكي متأهّبة. ورغم تقدمها في السن، ورغم دمامة وجهها، كانت الاحتفالات التي أُجريت في منزل آل روستوف قد جرى مثلها عندها أيضًا، ولكن بتعجّل أقل، ومردُّ ذلك إلى ما تملكه من خبرة واسعة. كانت قد عطّرت جسمها كله، حتى لقد مسحته بالبودرة، وعُنيت بغسل وجهها إلى ما الوراء الأذنين، بل وحدث عندها، كما حدث عند آل روستوف، أن خادمتها العجوز صاحت متحمّسة معجبة حين رأت مولاتها تدخل الصالون بثوب أصفر يزيّنه الحرف الأول من اسم الإمبراطور.

ومدحت الآنسة بيرونسكي زينة آل روستوف. وأثنى آل روستوف من جهتهم على ذوقها ومدحوا زينتها. حتى إذا كانت الساعة قرابة الحادية عشرة ركبوا العربات بكثير من الحذر خشية على القبعات والفساتين وانطلقت العربات تقلّهن إلى الحفلة.

الفصل الخامس عشر

امتلأ نهار ناتاشا كله بالعمل، فلم يتح لها أن تفكّر لحظة في ما كان ينتظرها.

وفي هواء الليل الرطب البارد، في العربة الضيّقة المظلمة التي كانت تهتز وتتأرجح إنما استطاعت لأول مرة، أن تتصوّر تصورًا واضحًا ما ينتظرها هناك في الصالات المضاءة اللألاءة، فكانت كأنها تسمع الموسيقى، وترى الأزهار، وتشترك في الرقصات، وتراءى لها الإمبراطور، وتخيَّلت جميع شبيبة بطرسبورغ اللامعة المتألقة. إن ما كان ينتظرها يبلغ من شدة الروعة ومن فرط التضاد بينه وبين ما تحسه في العربة من برد وضيق وظلام أنها لا تستطيع تصديق ما يتصوّره خيالها. ولم تستطع أن تدركه إدراكًا تامًّا وأن تفهمه فهمًا كاملًا إلّا حين دخلت الدهليز بعد أن تجاوزت السجادة الحمراء على درجات الباب، فنزعت فروتها، ومشت بين الأزهار تصعد السلم الكبير المضاء بجانب صونيا، متقدمة الكونتيسة. وفي تلك اللحظة إنما تذكّرت ما عقدت نيتها عليه من التزام وضع الأبهة الذي كانت ترى أن على كل فتاة أن تلتزمه في مثل هذا الظرف، فسرعان ما أخذت تصطنع هذا الوضع. ولكن كان من حسن حظها أنها أحسّت ببصرها يتزغلل، فلا ترى شيئًا من الأشياء رؤية واضحة، وأحسّت بنبضها يشتد اشتدادًا عنيفًا، وأحسّت بقلبها يخفق خفقانًا قويًّا. فلم تستطع أن تصطنع تلك الهيئة الرضية الوقور التي كان يمكن أن تجعلها مضحكة، وتقدّمت خائرة العزم من شدة الاهتياج، محاولة إخفاء اضطرابها بكثير من المشقّة والعناء. وكان ذلك هو الوضع الذي يناسبها أكثر من أي وضع سواه. ومن حول آل روستوف،

كان المدعوون يصعدون مثلهم بزينة الحفلات، ويتكلّمون مثلهم بصوت خافت. وكانت مرايا السلَّم تعكس أخيلة السيدات بأثوابهن البيضاء والزرقاء والوردية مع جواهر الماس واللؤلؤ تزين أذرعهن وأعناقهنّ العارية.

كانت ناتاشا تنظر في المرايا فلا تستطيع أن تميز في الأخيلة التي تعكسها بين صورتها وصور غيرها من السيدات، فالصور كلها يختلط بعضها ببعض موكبًا واحدًا لامعًا متلألئا. وحين نفذت إلى الصالون الأول أصمَّت أذنيها ما سمعته من جلبة الأصوات، ووقع الأقدام، وكلمات المجاملة التي يتبادلها الحضور، كما أعمى بصرها سطوع الأضواء، وبهاء الأثاث. وكان أصحاب المنزل واقفين على الباب منذ نصف ساعة يردّدون لكل قادم جملة الترحيب الأبدية «سعيد برؤيتك أعظم السعادة»، وقد استقبلوا آل روستوف والآنسة بيرونسكي هذا الاستقبال نفسه مكرّرين لهم تلك الجملة ذاتها.

وقد انحنت الابنَتان اللتان تلبسان كلتاهما ثوبًا أبيض، ويزدان شعر كلتيهما الأسود بورود متماثلة، انحناءة واحدة. ولكن ربة المنزل تلبثت نظرتها على النحيلة ناتاشا أكثر مما تلبثت على الآخرى، وابتسمت لهذه الطفلة ابتسامة خاصّةً مختلفة عن ابتسامة الترحيب وكأنها تذكّرت أيامها الذهبية في صباها، وهي أيام مضت إلى غير رجعة، وتذكّرت أول حفل رقص شهدته. ورب المنزل تابع ناتاشا بنظرة أيضًا، وسأل الكونت أي الفتاتين ابنته، وقال وهو يلثم أطراف أصابعه إعجابًا:

- فتاة!

وكان الضيوف في صالة حفلة الرقص يزدحمون على باب الدخول منتظرين الإمبراطور. واندست الكونتيسة في الصفوف الأولى من هذا الجمهور المحتشد. وسمعت ناتاشا وأحسّت بأن أصواتًا كثيرة تستعلم عنها، وأن عيونًا كثيرة تنظر إليها. وأدركت أنها حظيت بإعجاب أولئك الذين لاحظوها، فكان من شأن ذلك أن هدّأ روعها وطمأن بالها قليلًا. وقالت لنفسها: «بين الناس من هم مثلنا، وبينهم من هم أسوأ حالًا منّا!».

وفي أثناء ذلك كانت الآنسة بيرونسكي تسمِّي الكونتيسة أبرز الشخصيات في الحفل.

قالت لها وهي تشير إلى شيخ قصير ذي شعر فضي اللون غزير الخصل، واقف في طائفة من السيدات يضحكهن:
- هذا وزير هولاندا، هناك، ذو الشعر الأشيب...
وأضافت تقول مشيرة إلى هيلين وهي تدخل:
- وهذه ملكة بطرسبورغ، الكونتيسة بيزوخوف.
- ما أجملها! إنها لا تقل عن ماريا آنطونوفنا، انظري كيف يزدحم الناس حولها شيوخًا وشبابًا. إنها جميلة، وذكية. يقال إن الأمير «...» مجنون بهواها جنونًا. وانظري إلى هاتين الآخريين. إن الذين يتزاحمون عليهما أكثر من الذين يتزاحمون على الكونتيسة بيزوخوف، مع أنهما ليستا من الجمال في شيء.
قالت الآنسة بيرونسكي ذلك وهي تومئ إلى سيدة تجتاز القاعة ومعها ابنتها الدميمة دمامة واضحة. وأردفت الآنسة بيرونسكي تقول معقِّبة:
- هي فتاة مرشّحة للزواج تملك الملايين، وهؤلاء شباب يطمعون في الفوز بالزواج منها.
وأضافت تقول مشيرة إلى فارس جميل الطلعة من فرسان الحرس مرَّ أمامهما رافعًا رأسه ناظرًا إلى بعيد:
- هذا أخو الكونتيسة بيزوخوف. إنه آناتول كوراجين. ما أجمله! أليس كذلك؟ يقال إنهم سيزوّجونه هذه الوارثة الغنية. وقريبكم دوربتسكوي يحوم حولها كثيرًا أيضًا. يقال إنها تملك ملايين.
وأجابت عن سؤال ألقته عليها الكونتيسة عن كولانكور.
- نعم، هذا سفير فرنسا بنفسه. انظري إليه. لكأنه ملك. إنهم لطاف، لطاف جِدًّا، هؤلاء الفرنسيين، رغم كل شيء، لا أحد يضارعهم لطفًا وظرفًا في المجتمع. وها هي ذي أخيرًا لا شك في أنها أجملهن جميعًا، صاحبتنا ماريا آنطونوفنا! وما أبسط أناقتها! رائعة! تُعبد عبادة!
وقالت وهي تدلّها على بيزوخوف:
- انظري إلى هذا الشاب السمين الذي يضع على عينيه نظارتين. إنه الماسوني العام، هو بجانب امرأته أشبه بالدمية حقًّا!

كان بطرس يسير مؤرجحًا جسمه الضخم، مخترقًا الجمهور اختراقًا يحني رأسه محييًا ذات اليمين وذات الشمال، وكأنه بقلّة احتفالية وطيبة قلب وسذاجة حركاته يسير بين جمهور من الناس في السوق. كان يشقّ لنفسه طريقًا كمن يبحث عن أحد.

نظرت ناتاشا فرحة إلى وجه الشاب الذي وصفته الآنسة بيرونسكي بأنه دمية، فعرفت أنه عنهم وعنها خاصّةً إنما يبحث. كان قد وعدها بأن يجيء إلى الحفلة وأن يعرّفها براقصين.

ولكن بيزوخوف قبل أن يصل إليهم، وقف بقرب رجل أسمر بارع الجمال متوسط القامة يرتدي بزة عسكرية بيضاء[1]، كان واقفًا عند كوة نافذة يتحدث مع شخص طويل القامة يزدان بالأوسمة، ويتوشّح بوشاح. وسرعان ما تعرفت ناتاشا إلى ذلك الشاب الذي يرتدي البزة العسكرية البيضاء. إنه الأمير أندريه بولكونسكي. وقد بدا لها أنه صار أصغر سنًا، وأنضر عودًا، وأجمل طلعة، وأكثر مرحًا وفرحًا.

فقالت لأمها وهي تدلّها على الأمير أندريه:

– هذا شخص آخر نعرفه يا ماما. إنه بولكونسكي. هل ترينه؟ لقد بات عندنا ليلة، ألا تذكرين؟

قالت الآنسة بيرونسكي:

– آ... تعرفينه؟ إنني لا أطيقه! هو الآن يُسقط المطر، ويُطلع الشمس! ما أشد غروره! ليس لغروره حدوده، ابن أبيه، لقد توطدت الصلة بينه وبين سبيرانسكي، فهما يهيئان الآن مشاريع لا أدري ما هي! انظري كيف يعامل السيدات! هذه سيّدة تكلّمه فيشيح عنها بوجهه. لو عاملني كما يعامل أولئك السيدات لعرفت كيف أقول له رأيي فيه.

---

(1) هي بزة لابسي الدروع وفرسان الحرس.

الفصل السادس عشر

وفجأة حدثت حركة شاملة، وتهامس الجمهور وعاد يتنحّى، ودخل الإمبراطور في وسط سياج من المشاهدين وعلى أنغام أوركسترا أخذت تعزف. كان ربُّ المنزل وربته يتبعانه. وكان هو يسير مسرعًا يحيّي يمنة ويسرة، كأنه يستعجل الانتهاء من هذا الاحتفاء باستقباله. إن الأوركسترا تعزف موسيقى رقصة بولندية كانت رائجة في ذلك الأوان وكانت مهداة إلى الإمبراطور: «ألكسندر، اليزابت، إنكما تأسران قلوبنا!». ومضى الإمبراطور إلى الصالون، واحتشد الناس على الباب، ودخل إلى الصالون عدد من الأشخاص اصطنعوا الهيئة المناسبة للظرف، ثم خرجوا مسرعين. فعاد الناس ينفضّون عن باب الصالون، وعاد الإمبراطور يظهر في الباب متحدثًا مع ربّة المنزل. وهجم شاب مضطرب الهيئة على السيدات يرجوهنّ أن يفسحن مكانًا. ولكنّ عددًا منهنّ كانت وجوههنّ تدلُّ على أنهنّ نسين مواصفات المجتمع الراقي كل النسيان، فاندفعن إلى الأمام متزاحمات متشاجرات على احتلال الصف الأول، مجازفات بزينتهنّ. وأقبل الرجال على السيدات وتألفوا زوجين زوجين استعدادًا للرقصة البولندية.

وخرج الإمبراطور من الصالون مبتسمًا ممسكًا يد ربّة المنزل، سائرًا بخطوات لا تلتزم إيقاع الموسيقى، والوراءهما كان يسير ربُّ المنزل مع ماري آنطونوفنا، يتبعهما سفراء ووزراء وجنرالات كانت الآنسة بيرونسكي لا تكفّ عن تسميتهم واحدًا واحدًا. وكان لأكثر من نصف عدد السيدات مراقبون تهيأوا للرقصة البولندية معهنّ، واتخذوا أماكنهم أمامهنّ. ولاحظت ناتاشا عندئذ أنهنّ، هي وأمها وصونيا، من القلة القليلة المبتعدة إلى الجدار

والملتصقة به. فكانت وقد تهدّلت ذراعاها النحيفتان، وأخذ جيدها الغض ينبض نبضًا قويًا من شدة التأثر، وانحبست أنفاسها، تنظر إلى الأمام بعينين ساطعتين قلقتين تبدوان متأهبتين لأعظم الفرح ولأشد الحزن في آن واحد. لم يكن يعنيها لا الإمبراطور ولا أحدًا من الشخصيات الكبيرة التي كانت تسمِّيها الآنسة بيرونسكي وتشير إليها، وإنما كان يمتلئ فكرها كله بتساؤل واحد: «هل يمكن ألا يدعوني أحد إلى مراقصته؟ هل يمكن أن لا أكون من أوائل الراقصات الدعوّات إلى الحلبة؟ هل يمكن ألا يلاحظني أحد من هؤلاء الرجال جميعًا، الذين يبدو عليهم أنهم لا يلاحظونني الآن أو يبدو عليهم إذا هم نظروا إليَّ يقولون: «لا، ليست هي، فلا فائدة من النظر إليها؟»». وكانت تجيب عن هذا التساؤل بقولها: «لا، مستحيل، يجب أن يعرفوا مدى رغبتي في الرقص، وأن يعرفوا أنني أرقص رقصًا يفتن الأبصار، وأنهم إذا راقصوني فسيجدون في مراقصتي بهجة عظيمة».

إن نبرات المعزوفة البولندية التي استمرّت مدة طويلة تترجّع الآن في أذني ناتاشا ترجّعًا حزينًا، حتى تكاد تطفر من عينيها الدموع. وكانت الآنسة بيرونسكي قد تركتهن. وكان الكونت في الطرف الآخر من الصالة. فالكونتيسة وصونيا وناتاشا وحيدات في وسط هذا الجمهور الغريب عنهن. كأنهن في وسط غابة. لا يهتم بهنّ أحد، ولا يخطر ببال أحد أن يكترث بهن. ومرَّ أمامهنّ الأمير أندريه متأبطًا ذراع سيدة، وكان واضحًا أنه لم يتعرّفهنّ. وكان آناتول الجميل يكلّم مراقصته مبتسمًا ونظر إلى ناتاشا كمن ينظر إلى جدار. ومر بوريس مرّتين فأشاح وجهه في كلتا المرتين. وكان بيرج وامرأته لا يرقصان فجاءا ينضمان إليهن.

فكان هذا الاجتماع العائلي هنا في حفلة الرقص يثير حنق ناتاشا. أليس ثمة مكان غير هذا المكان لمثل هذا النوع من الأحاديث؟ لذلك لم تصغ إلى فيرا التي جعلت تحدّثها عن فستانها الأخضر.

وأخيرًا وقف الإمبراطور أمام مراقصته الأخيرة (وكان قد راقص ثلاث سيدات). وصمتت الموسيقى. وهرع ضابط مرافق إلى آل روستوف منهمكًا، يطلب إليهم أن يحسنوا الاصطفاف، مع أنهم كانوا ملتصقين

بالجدار التصاقًا. ومن الرواق بدأت تصل إلى الأسماع نغمات الفالس البطيئة الموزونة المحكم إيقاعها التي تجرف إلى الرقص جرفًا. فأجال الإمبراطور بصره في القاعة مبتسمًا، وأقبل الضابط المرافق الذي يتولّى أمر التنظيم، أقبل على الكونتيسة بيزوخوف يدعوها إلى مراقصته، فرفعت يدها مبتسمة، ووضعتها على كتفه من دون أن تنظر إليه. وكان الضابط المرافق راقصًا حاذقًا محنّكًا واثقًا بنفسه. فطوّق مراقصته بحزم وثبات وقوة. ولكن بهدوء وغير تعجّل، فقادها إلى آخر الحلقة منزلقًا بها انزلاقًا، ثم أمسك يدها اليسرى وأخذ يدور بها؛ وعلى إيقاع الموسيقى الذي ما انفكّ يتسارع ويتسارع أصبح الحضور لا يسمعون إلّا رنين مهمازيه في قدميه الخفيفتين الرشيقتين موزونًا محكمًا، وأخذ فستان المخمل الذي ترتديه مراقصته ينتفخ عند كل زمن ثالث من أزمان الإيقاع، فإذا هو كأنه يرسل شررًا ويطلق لهبًا. فكانت ناتاشا تنظر إليهما، وتكاد تبكي لأنها ليست هي التي ترقص هذه الدورة الأولى من رقصة الفالس.

وكان الأمير أندريه ببزته العسكرية البيضاء التي تحمل شارات رتبة كولونيل في سلاح الفرسان، وبجوربيه وحذاءيه الخفيفين، يقف في الصفوف الأولى طلق المحيا، متهلّل الأسارير، فرح الهيئة، غير بعيد عن آل روستوف. وكان البارون فيرهوف[1] يكلّمه عن الجلسة الأولى التي سيعقدها مجلس الإمبراطورية في الغد[2]. إن الأمير أندريه يستطيع بحكم أنه من خلصاء سبيرانسكي، وبحكم أنه عضو في لجنة التشريع، يستطيع أن يمدّ محدّثه بمعلومات أكيدة عن هذه الجلسة التي كان الناس يعلّقون عليها تعليقات شتّى يختلف بعضها عن بعض كثيرًا. ولكنه كان لا يصغي إلى ما يقوله له فيرهوف، وإنما هو ينظر تارة إلى الإمبراطور وتارة إلى الراقصين الذين يشتهون أن يرقصوا ولكنهم لا يجسرون أن ينطلقوا.

كان الأمير أندريه يلاحظ أولئك المراقصين الوجلين المتهيّبين وجود

---

(1) شخصية خياليه لا وجود لها في الواقع، صاغ لها المؤلف اسمًا على غرار اسم البارونات فيتنغوف.

(2) عقدت هذه الجلسة في أول كانون الثاني (يناير) من سنة 1910.

الإمبراطور، ويلاحظ أولئك الراقصات اللواتي يحترقن رغبة في أن يُدعَونَ إلى الرقص.

واقترب منه بطرس وأمسك يده، وقال له:

- أنت يا من ترقص دائمًا. ههنا الكونتيسة روستوف الشابة التي أحميها، فادعها إلى الرقص.

فسأله بولكونسكي.

- أين هي؟

وقال للبارون:

- معذرة سننهي هذا الحديث في مكان آخر. أما في حفلة الرقص فيجب الرقص.

وتقدّم في الاتجاه الذي دلّه عليه بطرس. وخطف بصره وجه ناتاشا الزاخر بالتعبير عن انتظار يائس. وتعرَّفها، وحزر ما يعتمل في نفسها من عواطف ومشاعر، وأدرك أنها مبتدئة، وتذكّر حديث النافذة فأقبل على الكونتيسة روستوف متهلل الأسارير.

قالت له الكونتيسة وقد احمرّ وجهها:

- اسمح لي أن أعرفك بابنتي.

فأجاب وهو يحيي بانحناءة كبيرة يناقض أدبها ولطفها ما نسبته الآنسة بيرونسكي إلى الأمير من خشونة، قائلًا:

- سبق أن سعدت بمعرفتها، إذا كانت الكونتيسة تتذكّرني.

قال ذلك وهو يدنو من ناتاشا ويمد إليها يده، ثم يطوّقها بذراعيه حتى قبل أن يكمل دعوته إياها إلى مراقصته. فإذا بوجه ناتاشا المغموم، المتأهب للتعبير عن اليأس بقدر تأهبه للتعبير عن الحماسة، يشرق فجأة بابتسامة سعيدة فيها من الشكر والامتنان ما يُرى مثله في الأطفال. وكانت هذه الابتسامة التي ظهرت من خلال دموع متهيّئة للانسكاب في كل لحظة من عيني هذه البنية المروعة السعيدة بينما هي تضع يدها على كتف الأمير أندريه، كانت كأنها تقول: «كنت أنتظرك منذ مدة طويلة».

كان الأمير أندريه يعدُّ من أحسن راقصي زمانه. وكانت ناتاشا تجيد

الرقص إجادة ليس بعدها إجادة. فكانت قدماها الصغيرتان، بحذاءيها المضمومين من ساتان أبيض تفعلان ما يراد منهما أن تفعلاه، وتتحركان مطواعتين بسرعة وسهولة لا إرادة لها فيهما، بينما يتألّق وجهها بهجة وغبطة وسعادة. ليس في كتفها العاري وذراعيها العاريتين جمال إذا هي قورنت بهيلين، فكتفاها هزيلتان وعنقها نحيل، ويداها نحيفتان. ولكن هيلين كانت قد ألفت آلاف النظرات التي انزلقت على جسدها، في حين أن من يرى ناتاشا يحس بأنه إزاء بنية صغيرة عرّوا جيدها ونحرها لأول مرة، وأنها كانت ستشعر بخجل شديد وخزي كبير لولا أنهم أقنعوها بأن هذه التعرية لا بد منها ولا غنى عنها.

وكان الأمير أندريه يحب أن يرقص. وكان كذلك يرغب في الإفلات بأقصى سرعة من أحاديث السياسة الجدّيّة التي يريد جميع الناس أن يفرضوها عليه، وأن يبدد أيضًا جو الكبت الذي خلقه وجود الإمبراطور، فقرّر أن يرقص، واختار ناتاشا لأن بطرس أوصاه بمراقصتها، ولأنها أول فتاة جميلة يمكن أن تلفت انتباهه وتخطف بصره. ولكنه ما إن طوّق هذه القامة النحيلة المرنة. وما إن أخذت ناتاشا تتحرّك قريبة منه هذا القرب كله، وتبتسم له قريبة منه هذا القرب كله أيضًا، حتى سكر بفتنة الفتاة سكرًا، وشعر بعودة الحياة إليه، وأحس بتجدّد شبابه. فلما استرد أنفاسه بعد أن أرجعها إلى مكانها، توقف ينظر إلى الراقصين.

الفصل السابع عشر

بعد الأمير أندريه، جاء بوريس يدعو ناتاشا إلى الرقص، ثم جاء الضابط المرافق الذي كان قد افتتح الحفلة، وتلاه ضباط آخرون، فكانت ناتاشا وقد تورّد وجهها ولاحت فيه علائم السعادة، تحيل إلى صونيا الشباب الكثر الذي يتقدّمون إليها، وظلّت ترقص طوال السهرة لا تلاحظ شيئًا ولا ترى شيئًا مما كان يلفت الانتباه العام في تلك الحفلة.

لم ترَ الإمبراطور يتحدّث مدة طويلة مع سفير فرنسا، ولا وهو يخاطب فلانة من السيدات بلطفٍ خاصٍّ. ولم تنتبه إلى أن الأمير فلانًا أو فلانًا قال كيت أو كيت. ولم تلاحظ أن هيلين أصابت نجاحًا كبيرًا، أو أنها شرّفت باهتمام خاص حظيت به من فلان؛ حتى إنها لم ترَ الإمبراطور، ولا أدركت أنه انصرف إلّا حين اشتد نشاط الحفلة بعد انصرافه مزيدًا من الاشتداد وقد رقص الأمير أندريه معها مرة أخرى قبل العشاء، رقصة من رقصات «الكوتيون» المرحة، وذكّرها بلقائهما الأول في الممر الذي يحف به صفان من الأشجار في أوترادنويا، وبتلك الليلة المقمرة التي لم تستطع فيها أن تنام، وبالحديث الذي سمعه على غير إرادة منه. فاحمرّت ناتاشا، وأرادت أن تبرّر ما فعلته. كأن العاطفة التي باغتتها فيها بغير إرادة منه تشتمل على ما يدعو إلى الخجل وتبعث على الشعور بالخزي.

وكسائر الذين شبّوا في المجتمع الراقي، كان الأمير يحب أن يصادف في هذا المجتمع أُناسًا لا يدفعهم ذلك الطابع المألوف المبذول، طابع المجتمع الراقي. وتلك كانت حالة ناتاشا بدهشاتها وفرحها وخجلها، وحتى بأخطائها في اللغة الفرنسية. فكان يعاملها ويكلمها بلطف خاص

وبرقّة وعاطفة. وكان إذا جلس إلى جانبها يحادثها في أيسر الأمور شأنًا وأكثرها ابتذالًا، فكان يعجب ببريق عينيها، وبابتسامتها التي لا شأن لها بما كانا يقولانه، وإنما هي تفصح عما في نفسها من فرح. وكان إذا هي دُعيت إلى الرقص فقامت ترقص مبتسمة، يعجب خاصّةً برشاقتها الخجلى. وفي منتصف رقصة «الكوتيون»، بعد الانتهاء من إحدى حركات هذه الرقصة، عادت ناتاشا إلى مكانها لاهثة، فإذا بمراقص جديد جاء يدعوها إلى الرقص، فهمّت أن ترفض من شدة تعبها ولهاثها وتقطع أنفاسها، ولكنها سرعان ما وضعت يدها على كتف الراقص الجديد فرحة مرحة، وابتسمت للأمير أندريه. فكانت ابتسامتها كأنها تقول: «كان يسعدني أن أرتاح قليلًا وأن أبقى بجانبك فأنا متعبة، ولكنك ترى مدى رغبة الشباب في مراقصتي، وأنا بهذا مبتهجة، وسعيدة. إنني أحب الناس كافّة، وإنّا لندرك هذا كله، أنا وأنت». كذلك كانت تقول ابتسامتها، وتقول أشياء أخرى كثيرة أيضًا. وحين عاد بها مراقصها إلى مكانها، راحت تجتاز الصالة ركضًا لتدعو سيدتين إلى رقص الحركة التالية من الرقصة. فإذا بالأمير أندريه يقول لنفسه وهو ينظر إليها، من دون أن يتوقّع إطلاقًا أن يقول لنفسه هذا الكلام، أو أن يدور بخلده هذا الخاطر: «إذا ذهبت إلى قريبتها أولًا، ثم إلى السيدة الآخرى، فلتكونن زوجتي». واتجهت ناتاشا إلى صونيا أولًا.

قال الأمير أندريه مخاطبًا نفسه: «ما أسخف السخافات التي تخطر ببال المرء أحيانًا، ولكن مما لا شك فيه أن هذه الفتاة تبلغ من الروعة ومن الاختلاف عن غيرها، أنها لن ترقص شهرًا واحدًا إلّا وتتزوج، هي هنا إنسانة نادرة. هي هنا استثناء!». بذلك حدّث الأمير أندريه نفسه بينما كانت ناتاشا تعود فتجلس بقربه وهي تعدل وردة صدرها.

وفي نهاية رقصة «الكوتيون»، أقبل الكونت الشيخ على الراقصين بردائه الأزرق فدعا الأمير أندريه أن يزورهم في منزلهم، وسأل ابنته إن كانت مسرورة. فلم تجب ناتاشا بكلام، ولكنها ابتسمت ابتسامة كأنها تقول معاتبة: «أهذا سؤال يُسأل؟»، ثم قالت أخيرًا:

- إنني مسرورة سرورًا لم أشعر بمثله في حياتي كلها.

ورأى الأمير أندريه ذراعيها النحيلتين ترتفعان بغير إرادة منها لتعانقا أباها ثم لا تلبثان أن تنزلا. كانت ناتاشا في تلك الذروة من السعادة التي يصبح فيها المرء طيبًا كل الطيبة، كاملًا، كل الكمال، لا يؤمن بالشر ولا بالشقاء ولا بالحزن.

لأول مرة، في تلك الحفلة، شعر بطرس بالخزي من المركز الذي تحتله امرأته في المجتمع العالي. فكان مربدّ الوجه شارد اللب، وكان غضن عريض يخدد جبينه، وقد وقف بقرب النافذة ينظر من خلال نظارتيه فلا يرى أحدًا.

وقد مرت ناتاشا على مقربة منه وهي ذاهبة إلى العشاء. ففاجأها ما رأته في وجهه من اكفهرار وشتاء فوقفت أمامه، وودت لو تساعده، وتمنت لو تنقل إليه شيئًا من فيض سعادتها الطافحة، وقالت له:

- ما أكثر ما يتسلى الإنسان هنا يا كونت، أليس كذلك؟

فابتسم بطرس ابتسامة ذاهلة، وكان واضحًا انه ابتسم من دون أن يفهم ما كان يقال له. وأجاب:

- نعم، أنا مغتبط جِدًّا.

تساءلت ناتاشا: «كيف يستطيع إنسان أن يكون مستاء غير مسرور، ولا سيما إنسان يبلغ ما يبلغه بيزوخوف هذا من لطف؟».

في نظر ناتاشا، كان جميع أولئك الذين شهدوا الحفلة أُناسًا طيبين لطافًا كاملين لا يختلف أحد منهم في هذا عن أحد، وكانوا جميعًا متحابّين، فلا أحد يمكن أن يسيء إلى أحد، فلا بد أن يكونوا كلهم سعداء.

الفصل الثامن عشر

في الغد تذكّر الأمير أندريه حفلة ليلة البارحة، ولكن خواطره لم تتلبّث عليها. نعم، كانت حفلة متألّقة جِدًّا. ثم... نعم، تلك الصغيرة روستوف أخّاذة... إن فيها نضارة، وفيها شيئًا خاصًّا، ليس من بطرسبورغ، يميّزها عن غيرها. ذلك كل ما قاله لنفسه عن حفلة الرقص. ثم احتسى الشاي، وأخذ يعمل.

لكن ذلك النهار لم يكن مواتيًا للعمل، لا ندري أكان ذلك بسبب التعب أم بسبب قلّة النوم. المهم أن الأمير أندريه لم يستطع أن يجبر نفسه على العمل، وكان لا ينفك ينتقد هو نفسه ما كان يعمله، كما يحدث له هذا كثيرًا، وسرّه أن أُبلغ أن زائرًا يريد أن يدخل عليه.

كان الزائر رجلًا يقال له بتسكي: هو عضو في لجان شتى يتردّد على جميع حلقات بطرسبورغ، وهو رجل شديد الإعجاب بالأفكار الجديدة، قوي الحماسة لسبيرانسكي، ينشر أنباء العاصمة بنشاط لا يفتر وهمّة لا تتعب. إنه واحد من أولئك الذين يختارون آراءهم كما يختارون ثيابهم مسايرين الموضة، ولكنهم لهذا السبب نفسه يظهرون بمظهر أكثر أنصار الآراء الجديدة حرارة واندفاعًا.

ما إن خلع بتسكي قبعته حتى هرع إلى الأمير أندريه مهموم الهيئة، وسرعان ما طفق يتكلّم، لقد اطلع منذ قليل على معلومات مفصلة عن اجتماع «مجلس الإمبراطورية» الذي افتتحه الإمبراطور في ذلك الصباح بخطاب رائع، تكلّم فيه الإمبراطور كما لا يتكلّم إلّا ملوك دستوريون. «لقد قال الإمبراطور صراحة أن مجلس الإمبراطورية ومجلس الشيوخ هما من «هيئات» الدولة، وأن الحكومة يجب ألا تقوم على الاستبداد، بل

على «مبادئ راسخة». وقال إن أموال الدولة يجب أن يُعاد تنظيمها، وإن الحسابات يجب أن تنشر على الناس».

ذلك ما قاله بتسكي، محملقًا بعينيه حملقات بليغة. وختم كلامه بقوله:

- نعم! هذه بداية عصر جديد هو أمجد عصور تاريخنا.

أصغى الأمير إلى ما رواه بتسكي عن تدشين «مجلس الإمبراطورية هذا الذي طالما انتظره نافد الصبر، والذي طالما أضفى عليه شأنًا خطيرًا، وعقد عليه آمالًا كبارًا، فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن هذا الحادث - وقد تم الآن - لم يهزّ نفسه، بل بدا له تافهًا بل أقل من تافه. فكان يسمع لحديث بتسكي المتحمّس، ساخرًا في قرارة نفسه سخرية لا يظهرها. حتى لقد خطرت بباله هذه الفكرة البسيطة جِدًّا: «فيمَ يهمّ بتسكي ويهمني ويهمنا جميعًا أن الإمبراطور قد حلا له أن يقول هذا الكلام في المجلس»، هل في إمكان هذا كلّه أن يجعلني أحسن وأسعد؟

وكان من شأن هذه الفكرة البسيطة أن جرّدت الإصلاحات التي يجري إنجازها من كل قيمة في نظره. وكان عليه أن يتعشّى في ذلك اليوم نفسه عند سبيرانسكي «في اجتماع يضم عددًا صغيرًا من الأصدقاء»، على حد تعبير سبيرانسكي حين دعاه إلى هذا العشاء.

كان الأمير أندريه، حتى ذلك الحين، يفتتن افتتانًا حين يتصور أنه سيتعشّى مع هذا الرجل الذي يعجب به ذلك الإعجاب العظيم كلّه. وأن يقتصر العشاء على أسرة الرجل وعدد صغير من الأصدقاء، لا سيما وأنه لم يسبق له أن رأى سبيرانسكي في حياته الخاصّة قبل ذلك. ولكن ها هوذا الآن لا يحسّ برغبة في الذهاب إلى هذا العشاء.

ومع ذلك وصل الأمير أندريه في الساعة المحدّدة إلى منزل سبيرانسكي بقرب حديقة «توريد». ودخل صالة الطعام المبلّطة بالخشب في هذا المنزل المتواضع الذي يتميز بنظافة شديدة، فوجد أن جميع أفراد هذا «الاجتماع الذي يضم عددًا صغيرًا من الأصدقاء» كانوا قد سبقوه إلى الوصول والتأم شملهم، وهم أصدقاء سبيرانسكي الخلصاء الحميمين. لم يكن في الاجتماع سيدات، إلّا بنت سبيرانسكي (وهي ذات وجه طويل كوجه

أبيها). وكان المجتمعون هم: جرفيه وماجنتسكي وستوليبين[1]. ما إن ولج الأمير أندريه حجرة المدخل حتى سمع أصواتًا تنطلق، وضحكًا رنّانًا واضحًا كذلك الضحك الذي يسمعه المرء صادرًا عن ممثل على خشبة المسرح. وكان أحدهم يقطع قهقهته تقطيعًا بيِّنًا: قه.. قه.. قه.. بصوت يشبه صوت سبيرانسكي. لم يكن الأمير أندريه قد سمع سبيرانسكي ضاحكًا قبل هذه المرة، فكان لهذا الضحك الرنّان الصادر عن رجل الدولة أثر غريب في نفسه.

دخل الأمير أندريه غرفة الطعام. فرأى الصحب كلهم مجتمعين بين نافذتين أمام مائدة صغيرة ملأى بالمقبّلات، ورأى سبيرانسكي مستقرًا بقرب المائدة متهلّل الأسارير، يزدان رداؤه الفراك برصيعة وسام، ولا يزال لابسًا الصديرة البيضاء والكرافتة العالية اللتين كان يلبسهما في اجتماع «مجلس الامبراطورية» ذاك، وقد أحاط به المدعوون. كان ماجنتسكي يروي نكتة متّجهًا بحديثه إلى ميخائيل ميخاميكوفتش، وكان سبيرانسكي يصغي إليه ضاحكًا مما سيقوله قبل أن يقوله. ولما دخل الأمير أندريه غطّت الضحكات كلمات ماجنتسكي من جديد، فكان ستوليبين يضحك ضحكًا متفجرًا بصوت ضخم جهير وهو يمضغ لقمة من خبز مع جبن، وكان جرفيه يضحك ضحكًا نحيلًا صافرًا، وكان سبيرانسكي يضحك ضحكًا حادًّا موقّعًا.

وقد مد سبيرانسكي يده البيضاء الناعمة إلى الأمير أندريه من دون أن ينظر إليه، قائلًا له:

- سعيد برؤيتك يا أمير.

وأضاف يقول لماجنتسكي مقاطعًا قصته:

- لحظة...

---

(1) جرفيه موظف من أصل فرنسي. أما ماجنتسكي فراجع حاشية الصفحة...، وأما ديمتري ستوليبين فقد أصبح جنرالًا (1785 - 1827)، وكان ابنه أركاي صديق تولستوي إبان الدفاع عن سيباستوبول، وقد تزوّج الأميرة ناتاليا غورتشاكوف وهي تمت بقرابة بعيدة إلى تولستوي، وأنجب الزوجان بطرس آركاديفتش (1862 - 1911) الذي صار رئيسًا للوزارة في عهد نيقولا الثاني.

وأردف يكمل كلامه للأمير أندريه:

- المتفق عليه بيننا أن عشاء هذا اليوم عشاء بهجة ومتعة ومَسَرّة، فلا كلمة واحدة عن الأعمال.

والتفت ثانية إلى ماجنتسكي، واستأنف ضحكه.

كان الأمير أندريه وهو يصغي إلى سبيرانسكي ويسمع ضحكه، يشعر بما يشعر به المرء من اندهاش وحزن حين يخيب ظنّه. كان كمن يبدو له أن هذا ليس سبيرانسكي بل رجل آخر. وتبدّد كل ما كان خياله يضفيه على سبيرانسكي من سر وفتنة، فإذا سبيرانسكي يصبح في نظره واضحًا متعرّيًا على حين فجأة، فاقدًا ما كان له من قوة الأسر، فلم يبق في هذا الرجل شيء يجذب الأمير أندريه إليه.

ولم ينضب معين الحديث على المائدة لحظة، وكان كله سلسلة من نكات مسلية مضحكة. فما إن انتهى ماجنتسكي من رواية نكتته حتى انبرى آخر يروي نكتة أبعث على الضحك أيضًا. وكانت النكات ينصب أكثرها على رجال الإدارة، إن لم تنصب على الإدارة نفسها. فكأن تفاهة هؤلاء الأشخاص الذين يتندّر عليهم المجتمعون في هذه الحلقة أمر ثابت لا مراء فيه، وكأن الأمر الوحيد الذي يمكن أن تفيده منهم هو أن التندّر عليهم بروح التسامح الساخر. وقد روى سبيرانسكي أن رجلًا أطرش من كبار القوم سئل رأيه هذا الصباح في اجتماع «مجلس الإمبراطورية» فلم يزد على أن أجاب بأنه موافق على هذا الرأي. وروى جرفيه بالتفصيل قضية تفتيش أبرز فيها غباء جميع الأطراف المشاركة فيها. وحشر ستوليبين نفسه في الحديث متأتئًا فأخذ يشهّر بأسواء العهد الماضي، فكان ذلك فيه تهديد بإضفاء طابع الجد على الحديث، فسخر ماجنتسكي من حماسته، وقذف جرفيه بمزحة، فعاد الحديث إلى مجراه المَرِح.

واضح أن سبيرانسكي كان يحب أن يرتاح من أعباء أعماله في جو حلقة صغيرة من الأصدقاء، وكان المدعوون كلهم يدركون رغبته، فيحاولون أن يسلّوه وأن يتسلّوا هم أنفسهم أيضًا. ولكن هذا المرح شقّ على الأمير أندريه، وبدا له مصطنعًا، وآذى إحساسه هذا الضحك المستمر الذي ينطلق زائفًا. فكان لا يشارك في الضحك، وكان يخشى أن يضايق حضوره أحدًا،

ولكن ما من أحد انتبه إلى أنه لم يندمج في هذا الجو وإلى أنه ممتعض. فكان الجميع يبدون في قمة الفرح.

وقد أراد مِرارًا أن يشارك في الحديث، ولكن ما كان يقوله كان ينبذه الحديث نبذ الماء سدادة من الفلين. وكان لا يستطيع أن يفرح مع هؤلاء المازحين.

لم يكن في ما يقولونه شيء مصيب أو له محلٌّ في الجلسة، بل كان كلامهم كله فكهًا، وكان يمكن أن يبعث على الضحك، وإنما كانت تعوزه تلك النكهة التي هي من المرح بمثابة الملح للطعام، وكانوا هم لا يخطر ببالهم ذلك.

ولما فرغوا من الوجبة، قامت بنت سبيرانسكي ومربّيتها. ولاعَبَ سبيرانسكي ابنته وقبّلها، فكانت هذه الحركة من سبيرانسكي في نظر الأمير أندريه مصطنعة أيضًا.

وبقي الرجال جالسين إلى المائدة لاحتساء خمرة ألبرتو، على الطريقة الإنجليزية. وجرى الحديث عن الحرب في إسبانيا، فكان الجميع يؤيدون موقف نابوليون. فأباح الأمير أندريه لنفسه أن يعارضهم في الرأي، فابتسم سبيرانسكي، ومن أجل أن يحرف الحديث عن هذا الموضوع الشائك، أخذ يروي نكتة لا علاقة لها بهذا الموضوع، وخيَّم بعد ذلك صمت.

وسدَّ سبيرانسكي الزجاجة بعد برهة قائلًا: «الخمرة الطيبة ليست متوافرة في هذه الأيام»، وناول الخادم الزجاجة ونهض، فنهض الجميع في إثره، وانتقلوا الوراءه إلى الصالون متمازحين في صخب. وجيء لسبيرانسكي بظرفين حملهما ساع، فتناول الظرفين، ومضى إلى مكتبه. فما إن خرج من الصالون حتى زال المرح العام، وأخذ الضيوف يتحادثون بكلام معقول وصوت خافت. ولكن سبيرانسكي لم يلبث أن رجع، وقال:

- والآن فلننتقل إلى الإنشاد.

وأضاف يقول مخاطبًا الأمير أندريه:

- إن له موهبة رائعة.

فأسرع ماجنتسكي يتّخذ وضع المنشد، وجعل ينشد أبياتًا فكاهية باللغة الفرنسية كانت تقاطَع بالتصفيق، وهي أبيات نظَمَها ماجنتسكي عن

أشخاص معروفين ببطرسبورغ. حتى إذا انتهى الإنشاد تقدّم الأمير أندريه من سبيرانسكي ليستأذنه بالانصراف. فقال له سبيرانسكي:

- أتنصرف منذ الآن؟

فأجابه الأمير أندريه:

- وعدت بحضور سهرة...

وصمت الحضور. ونظر الأمير أندريه عن قرب إلى هاتين العينين الباردتين برودة مرآة، اللتين لا تسمحان للمرء بأن ينفذ إلى ما الوراءها، فأدهشه أن يكون قد انتظر من سبيرانسكي، كما أدهشه أن يكون قد انتظر من نشاطه هو نفسه، شيئًا. وأدهشه أن يكون قد أضفى على ما يعمله قيمة، وأسبغ عليه شأنًا خطيرًا. وظلّت تلك الضحكة المصطنعة، الخالية من الفرح، يترددّ صداها في أذنيه زمنًا طويلًا بعد انصرافه.

عاد الأمير أندريه إلى بيته، وأخذ يستعرض الحياة التي عاشها في بطرسبورغ خلال هذه الأشهر الأربعة الأخيرة، وكأنها شيء جديد عليه، فتذكّر الجهود التي بذلها والمساعي التي قام بها، وتذكّر مشروع النظام العسكري الذي أعدّه والذي قبلوا أن ينظروا فيه، ويحاولون الآن أن يصمتوا عنه، لا لشيء إلّا لأن مشروعًا آخر سيئًا كل السوء، كان قد وُضع وقدِّم إلى الإمبراطور، وتذكّر جلسات اللجنة التي كان بيرج أحد أعضائها، وتذكّر كيف كان أعضاء اللجنة في تلك الجلسات يحرصون على تحاشي مواجهة جوهر المشكلة، ويطيلون المناقشة حول الشكل الذي يجب التزامه في تدوين القوانين، ويولون عناية شديدة لترجمة بنود القانون الروماني والقانون المدني الفرنسي إلى اللغة الروسية ترجمة دقيقة، فخجل من نفسه. ثم تراءت له بوغو تشاروفو ومشاغله في الريف، ورحلته إلى ريازان، وتذكّر فلاحيه، و«الستراروست» ومرون، فلما طبَّق عليهم مبادئ حقوق البشر التي عنيَ بتقسيمها إلى فقرات، أدهشه أن يكون قد أضاع هذا الوقت الطويل كله في عمل لا طائل تحته.

الفصل التاسع عشر

في الغد مضى الأمير أندريه يقوم بزيارات إلى أشخاص لم يزرهم بعد، ومنهم آل روستوف الذين جدّد معرفته بهم في حفلة الرقص الأخيرة، وكانت هذه الزيارة لا تمليها عليه قواعد الآداب الاجتماعية فحسب، وإنما تحضّه عليها كذلك رغبة في أن يرى تلك الفتاة التي تختلف عن غيرها كل الاختلاف، تلك الفتاة المفردة الأصيلة التي تفيض حياة والتي تركت في نفسه أجمل الأثر.

كانت ناتاشا إحدى الأوائل اللاتي استقبلنه. كانت ترتدي فستانًا أزرق مما ترتديه فتاة في منزلها، فبدت له وهي بهذا الفستان أشد فتنة وأعظم سحرًا مما بدت له بزينة السهرة في حفلة الرقص. واستقبلته أسرة روستوف كلها كما يُستقبل صديق قديم ببساطة ومودّة وترحيب. إن هذه الأسرة التي كان في الماضي قد قسا في الحكم عليها، بدت له مؤلفة من أناس طيبين بسطاء أخيارًا. فلم يستطع أن يقاوم روح الضيافة عند الكونت الشيخ، وهي تناقض ببساطتها وصراحتها روح الاحتفال وطابع التكلّف في أسلوب الضيافة في بطرسبورغ، فرضيَ أن يبقى إلى العشاء. قال لنفسه: «نعم، هؤلاء أناس ذوو شهامة وأريحية، وليس يدور في خلدهم طبعًا أنهم يملكون كنزًا عظيمًا هو ناتاشا، وذلك بعينه أحسن ظرف يبرز قيمة هذه الفتاة اللذيذة التي تفيض شعرًا وحياة».

كان الأمير أندريه يحس تجاه هذه الفتاة بأنه أمام عالم مجهول، عالم مفرد، على حدة، مليء بأفراح لا تخطر بالبال، هو ذلك العالم نفسه الذي سبق أن اجتذبه كثيرًا وحيَّره كثيرًا في ذاك الممر الذي يحف به صفّان من

الأشجار في أوترادنويا، وفي النافذة التي كان يغمرها ضوء القمر. إن هذا العالم لم يبق غريبًا عنه الآن، فهو لا يحيِّره، وكلما أوغل فيه أحسَّ بمباهج جديدة.

وبعد العشاء قامت ناتاشا إلى البيانو، تلبية لطلب من الأمير أندريه وأخذت تعزف وتغني، فكان الأمير أندريه يصغي إلى عزفها وغنائها مع استمراره في التحدث مع السيدات عند كوّة نافذة. ولكنه صمت فجأة في منتصف جملة كان يقولها، وأحسّ بشهقات بكاء تصعد إلى حلقه، وذلك أمر ما كان يظن أنه يمكن أن يحدث له. وحدّق بعينيه إلى المغنية وأحسّ بتأثّر لا عهد له بمثله، وشعر بسعادة يمازجها حزن كان يوشك أن يذرف دموعًا من دون أن يكون هناك ما يدعو إلى البكاء. على ماذا يذرف الدموع؟ على حبّه الأول؟ على الأميرة الصغيرة الراحلة؟ على تبدّد أحلامه؟ على ضياع آماله؟ نعم ولا. كانت تلك الرغبة في البكاء تصدر خاصّةً عن انكشاف تمّ له: إن التناقض الرهيب المرعب بين ما يحسّه في أعماق نفسه من عظمة لا نهاية لها ولا حد، وبين الكائن الضيق الجسمي الذي كانه - وكانته هي أيضًا - وظهر له في تلك اللحظة على حين فجأة. ذلك كان سبب عذابه وفرحه في آن واحد أثناء غناء ناتاشا.

وحين انتهت ناتاشا من الغناء جاءت تسأله هل أعجبه صوتها. ولكنها ما إن ألقت هذا السؤال حتى أدركت أنه لا يليق، فاضطربت، فنظر إليها مبتسمًا، وقال لها إن غناءها أعجبه مثلما أعجبه كل ما فعلته.

وعاد الأمير أندريه إلى بيته في ساعة متأخرة من السهرة، فاضطجع على فراشه بحكم العادة، ولكنه لم يلبث أن أدرك أنه لن يستطيع أن ينام في هذه الليلة. فأشعل الشمعة وقام، ثم عاد يضطجع. كان أرِقًا من دون أن يضيق ذرعًا بهذا الأرق، فإلى هذا الحد كانت موجة الإحساسات الجديدة التي تجتاح نفسه عذبة حلوة. كان يشعر شعور من يخرج من غرفة موصدة خانقة فيستنشق هواءً نقيًا ملء رئتيه. ولم يدر في خلده أنه يمكن أن يحب الآنسة روستوف. وكان لا يفكر فيها، ولكن صورتها كانت ماثلة أمامه، فكانت حياته كلها تلوح له في ضوء جديد، ويراها رؤية جديدة. فيقول لنفسه:

«لماذا أحمّل نفسي هذا العناء كله، لماذا أبذل هذه الجهود المضنية كلها في هذا الإطار الضيق المغلق، على حين أن الحياة، كل الحياة، بكل أفراحها، تتكشّف لي وتتفتّح أمامي؟». ولأول مرة منذ زمن طويل، تصوّر للمستقبل مشاريع سعيدة. فعقد عزمه بينه وبين نفسه على أن يعنى بتربية ابنه فيجد له مربيًا يعهد به إليه، وقرر أن عليه أن يستقيل ويسافر إلى الخارج فيزور إنجلترا وسويسرا وإيطاليا. قال لنفسه: «يجب أن أستفيد من حرّيتي ما أحسست في نفسي هذه القوة كلها وهذا الشباب كله. لقد كان بطرس على حق حين قال إن الإنسان لا يسعد إذا لم يؤمن بإمكان السعادة. وإني لأؤمن الآن بإمكان السعادة. لندع الموتى يدفنون موتاهم. فما ظل المرء حيًّا يجب أن يعيش وأن يسعد».

الفصل العشرون

في ذات صباح جاء الكولونيل بيرج، الذي يعرفه بطرس كما يعرف جميع الناس في موسكو وبطرسبورغ، جاء إلى بطرس متأنق الهندام أشد التأنق، داهنًا شعره، نازلًا به إلى الصدغين على غرار الإمبراطور ألكسندر. وقال له مبتسمًا:

- إنني خارج من عند الكونتيسة زوجتك، ويحزنني أنها لم تقبل رجائي. ولكنني آمل يا كونت، أن يكون حظّي منك أكبر.

- ما الذي تريده يا كولونيل؟ أنا رهن إشارتك.

قال بيرج، وكان واضحًا أنه يعلم أن هذا النبأ الذي يقوله لا يمكن أن يكون سارًّا:

- لقد استقررت الآن استقرارًا تامًّا، فأريد أن أقيم لأصحابي وأصحاب زوجتي سهرة.

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة فيها مزيد من اللطف، وتابع كلامه قائلًا:

- وددت أن أرجوك والكونتيسة أن تشرفا بيتنا بحضوركما لتناول الشاي و... العشاء.

إن الكونتيسة هيلين فاسيليفنا تملك وحدها من القوّة ما يتيح لها أن ترفض دعوة كهذه الدعوة، لأنها ترى مجتمع أسرة بيرج غير جدير بها ولا يرقى إلى مستواها.

وقد بلغ بيرج من الوضوح في شرح الأسباب التي تحضّه على أن يجمع في بيته ضيوفًا عددهم قليل ولكنهم صفوة مختارة، وبلغ من الوضوح في وصف ابتهاجه بدعوة هذه الصفوة المختارة، وبلغ من الوضوح في قوله إنه

إذا كان لا يجب أن يتلف مالًا في قمار وفي أمور تستحق اللوم، فهو مستعد لأن ينفق ما يجب إنفاقه لإقامة سهرة تضمّ صفوة مختارة. لكل ذلك لم يملك بطرس أن يرفض دعوته، فوعده بالمجيء.

قال بيرج:

- لكنني أرجو ألا تتأخّروا يا كونت، إذا كان يجوز لي أن أتجاسر فأتقدّم بهذا الرجاء. آمل بأن تصلوا في نحو الساعة الثامنة إلّا عشر دقائق، إذا تكرّمتم. سوف نلعب بالورق قليلًا. وسوف يجيء الجنرال. إنه رجل طيب جِدًّا في معاملتي. وسوف نتعشّى. اتفقنا إذًا.

وصل بطرس في ذلك المساء إلى بيت بيرج في الساعة الثامنة إلّا خمس عشرة دقيقة، بدلًا من الساعة الثامنة إلّا عشر دقائق على خلاف عادته في التأخر. وكانت أسرة بيرج قد فرغت من استعداداتها، فهي متأهّبة لاستقبال الضيوف.

كان الزوجان ينتظران في غرفة المكتب الأنيقة، النيِّرة، المزدانة بتماثيل ولوحات صغيرة وأثاث جديد. وكان بيرج، وقد ارتدى بزة عسكرية جديدة أحكم عقد إزرارها، جالسًا بقرب امرأته يشرح لها أن المرء يستطيع دائمًا، ويجب عليه دائمًا، أن تكون له علاقات بأناس يعلونه مقامًا، لأن هذه العلاقات لا يمكن إلّا أن تحمل بهجة ومسرة. فالمرء لا بد أن يجني من أمثال هؤلاء الناس شيئًا. إن في وسعه دائمًا أن يستمد منهم قَدَمًا تسعى أو جناحًا يطير. انظري مثلًا إلى حياتي العسكرية منذ حصولي على رتبتي الأولى (كان بيرج لا يحسب حياته بعدد السنين بل بعدد الترقيات). إن رفاقي لا يزالون إلى الآن لا قيمة لهم، أما أنا فعلى أهبة أن أصبح قائد فوج، وقد سعدت بأن أكون زوجك.

قال ذلك ونهض ليقبّل يدي فيرا، وكان طرف من أطراف السجادة مثنيًا، فانتهز الفرصة ليبسطه وتابع كلامه يقول:

- وما الفضل في هذا كلّه؟ إن الفضل في هذا كله إنما يرجع إلى حسن اختيار العلاقات ومن الواضح طبعًا أنه على المرء - عدا هذا - أن يتمسّك بأهداب الفضيلة، وأن يتقيّد بدقة المواعيد.

وابتسم بيرج شاعرًا بتفوّقه على امرأة ضعيفة. وقد صمت قائلًا لنفسه إن امرأته العزيزة تشبه سائر النساء على كل حال في أنها لا تستطيع أن تفهم «قيمة أن يكون الإنسان رجلًا» (بالألمانية). وابتسمت فيرا في الوقت نفسه هي أيضًا، شاعرة بتفوقها على زوجها الممتاز الفاضل الذي يشبه سائر الرجال في نظرها من حيث إن لهم رأيًا في الحياة خطأ. كان بيرج يحكم على جميع النساء بمقياس امرأته، فيعدّهن ضعيفات غبيّات. وكانت فيرا تحكم بمقياس زوجها وتعمّم حُكمها، فتفترض أن جميع الرجال يظنون أن العقل وقف عليهم، على حين أنهم لا يفهمون شيئًا وأنهم مزهوون بأنفسهم وأنانيون.

ضمّ بيرج امرأته بذراعيه محاذرًا، حتى لا يدعك وشاحها المخرَّم الذي دفع ثمنه غاليًا، وقبّلها على شفتيها. وقال وقد تنادت في ذهنه الخواطر على غير شعور منه:

- أهم شيء هو ألا نسرّع في إنجاب الأولاد.

فأجابته فيرا قائلة:

- نعم، لست أحرص على هذا البتة. فإنما يجب على المرء أن يعيش للمجتمع.

قال بيرج وهو يشير إلى وشاح امرأته مبتسمًا ابتسامة طيبة سعيدة:

- كان للأميرة يوسوبوف وشاح مثله تمامًا.

وفي تلك اللحظة أعلن الخادم وصول الكونت بيزوخوف. فتبادل الزوجّان نظرة رضى، وكان كل منهما ينسب شرف هذه الزيارة إلى نفسه.

قال بيرج محدِّثًا نفسه: «هكذا تكون المهارة في عقد صلات. هكذا يكون الحذق في احتلال مكانة!».

قالت فيرا:

- لي رجاء واحد ألا تقاطعني حين أهتم بالضيوف، فأنا أعرف ما يهم هذا أو ذاك، وأعرف ما يجب التحدّث به مع هؤلاء أو أولئك.

فابتسم بيرج وقال:

- ولكن يجب أن يكون الحديث مع الرجال أحيانًا حديثًا بين رجال.

استُقبل بطرس في الصالون الجديد كل الجِدّة، الذي لا يستطيع المرء أن يجلس في أي مكان منه من دون أن يخلّ بالتناظر والنظام فيه. فكان أمرًا طبيعيًّا لا غرابة فيه أن تسخو نفس بيرج فيبادر إلى الإخلال بترتب المقاعد أو الديوان، تكريمًا لهذا الضيف العزيز، ولكنْ كان واضحًا أنه متردّد في هذا الأمر تردُّدًا قاسيًا، فترك للضيف نفسه أن يحلّ المسألة، ويتولّى بطرس الإخلال بالتناظر في ترتيب المقاعد، فقرّب كرسيًّا جلس عليه. وسرعان ما افتتح بيرج وفيرا السهرة، وأخذ كل منهما يقاطع الآخر في الحديث تنافسًا على تسلية الضيف.

كانت فيرا قد قرّرت بينها وبين نفسها أن عليها أن تكلّم بطرس عن سفارة فرنسا، فلم تلبث أن شرعت في الحديث عن هذا الموضوع. وكان بيرج قد قرّر بينه وبين نفسه أن حديث الرجال ضرورة أيضًا، فقاطع امرأته مثيرًا مسألة محاربة النمسا، وانتقل من أمور عامة إلى أمور شخصية، على غير إرادة منه، فتكلّم عن العروض التي عُرضت عليه للمشاركة في هذه الحملة، وعن الأسباب التي دفعته إلى الرفض. وكان من شأن ذلك أن جعل الحديث مفككًا، فساء فيرا أن يُقحم في الحديث هذا العنصر الذي يهمّ الرجال وحدهم؛ ومع ذلك أحسّ الزوجان كلاهما، رغم أن سهرتهما اقتصرت حتى الآن على ضيف واحد، قد بدأت بداية حسنة جِدًّا، وأنها تشابه أية سهرة أخرى تشابه قطرتَيْ ماء، فالحديث يُجرى، والشاي يُحتسى والشموع تشتعل.

ولم يلبث أن وصل بوريس، وهو رفيق قديم لصاحبنا بيرج، فكان يعامل بيرج وفيرا بشيء من الشعور بالتفوّق عليهما وبأنه يرعاهما ويحميهما. وبعد بوريس وصلت سيدة يصحبها كولونيل، ثم وصل الجنرال نفسه، ثم وصل آل روستوف، فصارت السهرة منذ تلك اللحظة تشبه سائر السهرات شبهًا تامًّا لا جدال فيه، فكان بيرج وفيرا لا يملكان إلّا أن يبتسما فرحًا وهما يريان هذه الحركة النشطة تسود الصالون، ويسمعان الأحاديث المفكَّكة وحفيف الأثواب وتبادل التحيات. كان كل شيء يجري كما يجري في كل حفلة أخرى. وكان الجنرال خاصّةً يشبه سائر الجنرالات. وقد مدح البيت، وربّت

على كتف بيرج، ونظّم طاولة لعبة «البوستون» بسلطة كسلطة أب، وجلس إلى جانب الكونت إيليا آندريتش الذي كان يعده أهم المدعوين شأنًا بعده.

الشيوخ مع الشيوخ، والشبان مع الشبان، وربة البيت بقرب مائدة الشاي - وقد وضعت عليها سلة من فضة ملأى بأقراص من الحلوى التي قُدمت للضيوف في سهرة آل يانين - فلا فرق إطلاقًا بين هذه السهرة وبين سائر السهرات في أي أمر من الأمور.

الفصل الحادي والعشرون

كان على بطرس، من حيث هو ضيف مرموق، أن يلعب «البوستون» مع إيليا آندريتش والجنرال والكولونيل. فكان وهو جالس إلى مائدة اللعب يقابل ناتاشا، فخطف بصره ما طرأ عليها من تغير غريب منذ حفلة الرقص. كانت ناتاشا صامتة. ولولا ما كان في هيئتها من عذوبة ورقّة، ومن قلة الاكتراث بأي شيء، لكانت دميمة، فضلًا عن أن تكون جميلة كل ذلك الجمال الذي تألّقت به في تلك الحفلة.

تساءل بطرس وهو يرقبها: «ماذا بها؟». كانت جالسة إلى المائدة بقرب أختها تجيب بأطراف شفتيها، على مضض، عن أسئلة بوريس الذي جلس إلى جانبها. ونظر بطرس إليها مرة أخرى بعد أن أخذ «بوستونا» ولمَّ أرباحًا خمس مرات فرح بها شريكه، فتساءل بمزيد من الدهشة: «ماذا حدث لها؟».

كان الأمير أندريه واقفًا أمام ناتاشا يكلمها بانتباه ورقّة ولطف. وكانت هي رافعة رأسها، مخضَّبة الوجه بحمرة شديدة، تنظر إليه محاولة أن تهدّئ تنفسها المتقطّع. كان ذلك واضحًا. إن نار نفسها، التي كانت منطفئة منذ برهة، قد عادت تلتهب متأجّجة. وتبدّلت حالها تبدلًا كاملًا، فإذا هي تسترد جمالها الذي تألّقت به في الحفلة، بعد أن كانت دميمة.

وجاء الأمير أندريه إلى بطرس يحييه، فلاحظ بطرس في وجه صديقه تعبيرًا جديدًا، وعودة إلى الشباب.

وقد بدَّل بطرس مكانه عدة مرات أثناء اللعبة، فكان تارة يدير لها ظهره، وتارة يقابلها بوجهه، وظل طوال الجولات الست لا يكف عن ملاحقة صديقه والفتاة. قال لنفسه: «إن أمرًا خطير الشأن يحدث بينهما»، وكانت

عاطفة هي مزيج من فرح ومرارة في آن واحد تهزّ نفسه وتنسيه اللعب.

نهض الجنرال بعد الجولات الست معلنًا أن اللعب مستحيل في هذه الظروف، فرُدَّت إلى بطرس حريته. كانت ناتاشا تكلم صونيا وبوريس. وكانت تحادث الأمير أندريه وعلى شفتيها ابتسامة ناعمة. فأقبل بطرس على صديقه وجلس بقربها بعد أن سأل هل يشتمل حديثهما على سر. كانت فيرا قد لاحظت انتباه الأمير إلى ناتاشا، واهتمامه بها، فرأت أن تلميحات عاطفية خفيفة يجب ألا تخلو منها سهرة تستحق أن تسمّى سهرة، فانتهزت فرصة خلود الأمير أندريه إلى نفسه وحيدًا، وأخذت تكلّمه في العواطف عامة، وتكلّمه عن أختها خاصّةً. وكانت ترى أن عليها حين تحادث ضيفًا ذكيًا كالأمير أندريه الذي تراه ذكيًّا جِدًّا، أن تستعمل كل ما تملك من دبلوماسية.

فلما انضم إليهما بطرس رأى فيرا راضية عن نفسها، منهمكة في الحديث بكل نفسها، متحمسة له، ورأى الأمير مضطربًا، وذلك أمر قلَّ أن يحدث له.

قالت فيرا وهي تبتسم ابتسامة ناعمة:

- ما رأيك يا أمير؟ إن لك ذكاء حادًّا وبصيرة نافذة، فتفهّم طباع الناس من أول وهلة. ما رأيك في ناتاليا؟ هل يمكنها أن تكون ثابتة في عواطفها كنساء أخريات (وهي هنا تعني نفسها)، هل تستطيع أن تحب رجلًا إلى الأبد، وأن تبقى وفيةً له حياتها كلها؟ إن الحب الحق في نظري هو هذا. فما رأيك يا أمير؟

أجاب الأمير أندريه وهو يبتسم ابتسامة سخرية يريد أن يخفي بها اضطرابه:

- إن معرفتي بأختك أضعف من أن تتيح لي الإجابة عن هذا السؤال الحرج. وأضاف يقول وهو ينظر إلى بطرس:

- ثم إنني لاحظت أن المرأة يكون ثباتها أكبر كلما كان الإعجاب بها أقل.

فقالت فيرا:

- نعم يا أمير. هذا حق.

وتابعت كلامها تقول متحدّثة عن خصائص العصر كما تحب أن تتحدّث

عن خصائص العصر جميع العقول المحدودة التي تظن أنها اكتشفت خصائص زمانها، وعرفتها حق معرفتها، ووزنتها بالميزان الصحيح، ظانة أن البشر يختلفون باختلاف العصور، فقالت:

- في عصرنا هذا تتمتع البنات بحرية تبلغ من السعة أن «متعة التغزل بهن» تخنق فيهنّ العاطفة الحقّة. ويجب أن نعترف بأن ناتاليا «تتأثر بالتغزل كثيرًا».

فكان من شأن هذه العودة إلى الكلام على ناتاشا أن جعلت الأمير أندريه يقطّب حاجبيه مرة أخرى، وأراد أن يقوم، ولكن فيرا واصلت كلامها وهي تبتسم ابتسامة فيها مزيد من النعومة:

- أعتقد أنه ما من فتاة غوزلت كما غوزلت ناتاليا، ولكن أحدًا لم يعجبها حتى الآن إعجابًا فيه جدّ. ثم وجّهت كلامها إلى بطرس، وأضافت:

- حتى «قريبنا» بوريس، كما تعلم يا كونت، الذي يجب أن نعترف «بيننا» أنه أوغل بعيدًا في مجال العاطفة...

زاد الأمير أندريه من تقطيب حاجبيه ولم ينبس بكلمة.

قالت له فيرا:

- أنت صديق بوريس، أليس كذلك؟

- نعم، أعرفه.

- لا بد أنه حدثك عن حب الطفولة الذي كان بينه وبين ناتاشا.

فسألها الأمير أندريه وهو يحمرّ فجأة:

- كان بينهم حب طفولة؟

- نعم. «إنك لتعلم أن الصلة الحميمة بين قريب وقريبته تؤدي أحيانًا إلى الحب. فالقرابة مجاورة خطرة. أليس كذلك؟».

قال الأمير أندريه:

- آ... طبعًا.

والتفت فجأة إلى بطرس ونصحه في مزاح أكره عليه نفسه إكراهًا بأن يحذر من قريباته المقيمات في موسكو، اللواتي يبلغن الخمسين من العمر، ثم تأبط ذراعه، ومضى ينتحي به جانبًا.

سأله بطرس وقد أدهشه ما رآه في صديقه من اضطراب، ولاحظ النظرة التي ألقاها على ناتاشا حين قام:

- هيه؟ ما الوراءك؟

فقال له الأمير أندريه:

- يجب... يجب أن أكلّمك. أتذكر قفازَيْ المرأة؟

(كان يقصد القفازين اللذين يُعطاهما الماسوني حين دخوله ملّة الماسونيين الأحرار ليعطيهما المرأة التي يحبّها).

وتابع كلامه قائلًا:

- فاعلم أنني.. أنني.. ولكن لا.. سأكلمك في هذا الأمر في وقت آخر.

وبلهيب غريب في عينيه، وبحركات عجيبة دنا الأمير أندريه من ناتاشا، وجلس إلى جانبها.

ورأى بطرس أنه سألها سؤالًا، ورأى أنها احمرَّت احمِرارًا شديدًا.

ولكن بيرج جاء في تلك اللحظة إلى بطرس يلحّ عليه أن يشارك في المناقشة القائمة بين الجنرال والكولونيل حول شؤون إسبانيا.

كان بيرج راضيًا وسعيدًا. وكانت الابتسامة الفرحة لا تغادر وجهه. لقد نجحت السهرة نجاحًا كبيرًا، فهي تشبه جميع السهرات الآخرى التي حضرها، تشبهها في كل أمر من الأمور شبهًا تامًّا. في ما قام بين السيدات من أحاديث رقيقة، وفي لعب الورق، وفي علو صوت الجنرال أثناء اللعب، وفي السماور، وفي أقراص الحلوى. غير أن الحفلة لا يزال ينقصها شيء لاحظه دائمًا في جميع السهرات التي حضرها والتي يريد أن يقلّدها، هو نشوب مناقشة حادّة بين الرجال حول موضوع مهمٍّ وخطِرٍ وله شأن. وقد بدأ الجنرال مناقشة من هذا النوع، فأسرع بيرج يدعو بطرس بهدف إقحامه فيها.

الفصل الثاني والعشرون

في الغداة ذهب الأمير أندريه يتعشّى عند آل روستوف تلبية لدعوة إيليا آندريتش، وقضى النهار كله عندهم.

كان كل فرد من أفراد الأسرة يعرف لمن يجيء الأمير أندريه، وقد حرص الأمير أندريه على أن يبقى طوال النهار بقرب ناتاشا، لا يخفي ذلك. وكانت ناتاشا، سعيدة ومرتاعة في آن، وكانت الأسرة كلّها تشعر بذلك القلق الذي يسبق وقوع حدث له شأن خطير. كانت الكونتيسة إذ ترسل إلى الأمير أندريه نظرات فيها حزن وجدّ حين كان يحادث ابنتها، ولكنها ما إن ينقل بصره إليها حتى تخفي اضطرابها الوراء ستار من أحاديث تافهة. وكانت صونيا تخشى أن تترك ناتاشا، وتخشى في الوقت نفسه أن تبقى، حتى لا يكون بقاؤها مضايقًا. وكان وجه ناتاشا يشحب ويصفرّ قلقًا وانتظارًا وتوقعًا حين تخلو إلى الأمير أندريه لحظة. وكان خجل الأمير أندريه يدهشها. كانت تحس بأنه يريد أن يقول لها شيئًا، ولكنه لا يفلح في أن يعزم أمره على أن يقوله.

فلما انصرف الأمير أندريه من السهرة بعد العشاء، جاءت الكونتيسة إلى ناتاشا، وقالت لها مدمدمة:

- هيه؟

فأجابتها ناتاشا قائلة:

- ماما، ناشدتك الله لا تسأليني الآن عن شيء. لا يمكن الكلام في مثل هذه الأمور.

ومع ذلك ظلّت ناتاشا مضطجعة زمنًا طويلًا في ذلك المساء بجانب أمّها

على السرير، مضطربة تارة، مروَّعة تارة أخرى، جامدة العينين في الحالين، تحكي لها تارة أنه مدحها، وتارة أنه سيسافر إلى الخارج. وتقول لها تارة أخرى إنه سألها أين سيقضون الصيف، وإنه سألها أيضًا عن بوريس.

وقالت تعترف:

- لم أشعر في حياتي بشيء كالذي أشعر به الآن. ولكنني أظل خائفة حين أكون معه، فما معنى هذا يا ماما؟ معناه أن الأمر خطير، أليس كذلك؟ هل أنت نائمة يا ماما!

فأجابت الأم:

- لا يا حبيبتي. أنا نفسي خائفة أيضًا. اذهبي إلى سريرك فنامي.

- لن أستطيع أن أنام على كل حال. من أين لي النوم؟ ما أغبى أن أنام. ماما، ماما الحبيبة، لم أشعر في حياتي بما أشعر به الآن... هل كان يمكننا أن نقدِّر أن...

كذلك قالت ناتاشا مدهوشة مرتاعة من اكتشافها هذه العاطفة الجديدة في نفسها.

كانت ناتاشا تعتقد أنها أُخذت بالأمير أندريه منذ لقائهما الأول في أوترادنويا. وها هي ذي تلقى الآن في طريقها ذلك الرجل الذي اختارته حينذاك (وكانت مقتنعة بهذا اقتناعًا تامًّا)، وها هوذا يهتم بها ويبدو عليه أنه مأخوذ بها. فكانت تخيفها هذه السعادة الغريبة التي لم تكن في الحسبان. وكانت تحدّث نفسها قائلة: «وكأنه جاء إلى بطرسبورغ عمدًا في الوقت الذي نحن فيه ببطرسبورغ، وكأننا التقينا في تلك الحفلة على ميعاد، فهذا هو القدر. واضح أن هذا هو القدر. كان لا بد للأمور أن تنتهي إلى ما انتهت إليه. فمنذ البداية، منذ أن رأيته، شعرت بعاطفة خاصّة.

قالت الأم شاردة اللب تسأل ابنتها التي حدثتها عن أشعار كتبها الأمير أندريه في «ألبوم» ناتاشا:

- ماذا قال لك أيضًا؟ ما تلك الأشعار؟

قالت ناتاشا:

- ماما، أليس شرًّا أن تتزوج الفتاة رجلًا أرمل؟
- اسكتي يا ناتاشا. صلّي للرب. «الزيجات تتم في السماوات».
- ماما، حبيبتي، ما أعظم ما أحبك! ما أعظم سعادتي!

كذلك هتفت ناتاشا وهي تذرف دموع السعادة والاهتياج. وارتمت على عنق أمها.

وفي تلك اللحظة نفسها كان الأمير أندريه الذي ذهب إلى بطرس يكشف له عن حبِّه لناتاشا، وعن عزمه الجازم على الزواج منها.

***

وكان عند الكونتيسة هيلين في ذلك اليوم احتفال، حضره سفير فرنسا، والأمير الذي أصبح يلازم المنزل منذ مدة قصيرة، وسيدات كثيرات، وأشخاص من ذوي المنزلة العالية والمكانة المرموقة.

وقد قام بطرس بجولة في الصالونات، ولاحظ كل فرد من الحضور أنه كان ذاهل الهيئة، غارقًا في التفكير، مكفهرّ الوجه.

كان بطرس، منذ حفلة الرقص التي حضرها وزوجته، يحس بأن نوبة من نوبات السويداء والاكتئاب توشك أن تعتريه، وكان يقاومها مقاومة المستميت. إنه، منذ انعقدت صلة حميمية بين الأمير وامرأته، وقد عُيِّن في البلاط حاجبًا للإمبراطور على حين فجأة، صار يشعر في المجتمع بحرج وخزي. وعادت أفكاره القديمة السوداء المظلمة التي تقول له إن الأمور الإنسانية جميعها أباطيل وأنها عبث وغرور، تحاصر ذهنه مِرارًا وما تنفكّ تزداد. ما لاحظه من نشوء عواطف بين محميته ناتاشا وبين الأمير أندريه فاقمت في نفسه ذلك التجهم بالتضاد الواضح بين وضع صديقه ووضعه. فكان يحاول أن يطرد من ذهنه كل فكرة تتّصل بامرأته أو بناتاشا أو بالأمير أندريه على السواء. وعاد كل شيء يبدو له باطلًا بالقياس إلى الأبدية، وعاد يلقي على نفسه هذا السؤال: «علام» الروح الخبيث.

وفي نحو منتصف الليل، بعد أن غادر جناح الكونتيسة، ومضى إلى مسكنه فوق، وجلس إلى مكتبه في غرفة واطئة، لابسًا ثوبًا قديمًا للمنزل،

عاكفًا على نسخ القرارات الأصلية الصادرة عن المحافل الأيتوسية، إذا بأحد يدخل عليه. إنه الأمير أندريه.

قال بطرس ذاهل الهيئة ممتعضًا:

- ها... هذا أنت؟

ثم أراه دفتره وقد ظهرت على وجهه إمارات عذاب أولئك الناس الأتقياء الذين يلتمسون في العمل نسيان آلام حياتهم:

- إنني أعمل، كما ترى...

وقف الأمير أندريه أمامه مشرق الوجه، قد تغيرت هيئته وارتد إلى الحياة، وابتسم له ابتسامة السعادة الأنانية، غير حافل بحزن صديقه، وقال له:

- يا صديقي، كنت أريد أن أقول لك أمس شيئًا، ومن أجل أن أقول لك هذا الشيء إنما جئتك الآن. إن العاطفة التي أشعر بها هذه الأيام لا عهد لي بمثلها من قبل. إنني مغرم يا صديقي.

زفر بطرس زفرة عميقة، وتهالك بكل ثقل جسمه على الديوان وجلس بجانب الأمير أندريه، وقال يسأله:

- مُغرم بناتاشا روستوف، أليس كذلك؟

- نعم، نعم، مغرمٌ بها. بمن غيرها يمكن أن أُغرم؟ ما كنت لأصدق أن يقع لي شيء من هذا، ولكن هذه العاطفة أقوى مني. تعذّبت بالأمس وتألّمت، ولكنني لن أتنازل عن هذا الألم نفسه بحال من الأحوال. كنت من قبل لا أحيا. والآن إنما صرت أحيا، ولكنني لا أستطيع أن أحيا من دونها. ولكن هل تستطيع هي أن تحبّني؟ إنني كبير السن بالقياس إليها. ما بالك لا تقول شيئًا؟

فقال بطرس وقد نهض فجأة وأخذ يذرع أرض الغرفة:

- أنا؟ أنا؟ ماذا تريد أن أقول لقد كان هذا رأيي دائمًا... إن هذه الفتاة لهي كنز حقًّا... نعم، كنز... فتاة قلَّ أن يوجد لها نظير. يا صديقي العزيز، أرجوك... لا تعقِّد الأمور... لا تتردّد... تزوَّجها، تزوَّجها، تزوَّجها... وأنا واثق بأنك ستكون أسعد الرجال قاطبة.

- ولكن هي؟

- تحبك.

قال الأمير أندريه مبتسمًا وهو يحدّق إلى عيني بطرس:

- لا تقل سخافات.

فصرخ بطرس نافد الصبر:

- تحبك. أنا أعرف أنها تحبك.

فقال الأمير أندريه وهو يمسك ذراعه:

- اسمع، هل تعرف ما أنا عليه من حالة نفسية؟ إنني في حاجة إلى من أبوح له بما في قلبي.

فقال بطرس وقد بان الهدوء في قسمات وجهه فعلًا، وزال الغضن الذي كان يخدّد جبينه:

- تكلّم، تكلّم، إني ليسعدني أن أستمع لك.

وأخذ يصغي إلى الأمير أندريه فرحًا.

إن الأمير أندريه يبدو الآن إنسانًا آخر. أين المرارة التي كانت تملأ نفسه؟ أين احتقاره للحياة؟ أين ما كان يلوح عليه من تبدد الأوهام وزوال الأحلام وخيبة الآمال؟

وكان بطرس هو الإنسان الوحيد الذي يجرؤ أن يكاشفه الأمير أندريه بما يعتمل في نفسه. فباح له بأعمق ما كان يدور في ذهنه من أفكار خفية. كان يحدّثه تارة عن مشاريع جريئة سهلة لمستقبل طويل، ويقول له إنه لا يستطيع أن يضحّي بسعادته إرضاء لنزوة من نزوات أبيه، وإنه سوف يستغني عن موافقة أبيه إذا منع عنه أبوه هذه الموافقة؛ وكان تارة أخرى يُعبِّر له عن استغرابه هذه العاطفة التي استولت عليه واستبدت به، كأمر عجيب لا سلطة له عليه ولا حيلة له فيه. وختم كلامه بقوله:

- لو قال لي أحد إن من الممكن أن أحبّ هذا الحبّ لما صدَّقته. إن العاطفة التي أشعر بها الآن تختلف عما سبق أن شعرت به من قبل. والعالم ينقسم الآن في نظري نصفين: نصف هي فيه، وفيه السعادة والأمل والنور،

ونصف ليست فيه، فليس فيه إلّا ظلمات ويأس...

قال بطرس مكرِّرًا:

- ظلمات، ويأس... نعم، نعم، إنني أفهم هذا.

- لا أقدر ألا أحبّ النور. ذلك ليس رهنًا بإرادتي. وإني لسعيد. هل تفهمني؟ أنا أعلم أنك مغتبط لي.

قال بطرس وهو يلفّ صديقه بنظرة حب واكتئاب:

- نعم، نعم.

وعلى قدر ما بدا له مصير الأمير أندريه مضيئًا مشرقًا، بدا له مصيره هو مظلمًا وقاتمًا.

الفصل الثالث والعشرون

إن الأمير أندريه في حاجة إلى موافقة أبيه على زواجه. لذلك سيسافر إليه في الغد.

استقبل الأب ما ذكره له ابنه بهدوء ظاهر وغضب باطن. إنه لا يستطيع أن يتصور أن يريد أحد أن يغيِّر حياته، وأن يُدخل فيها عنصرًا جديدًا، على حين أن حياته هو قد انتهت. كان الشيخ يقول لنفسه: «فليدعوا لي، على الأقل أن أنهي أيامي على نحو ما أحب لها أن تنتهي، ثم فليفعلوا بعد ذلك ما يشاؤون». ومع ذلك عمد في معاملة ابنه إلى استعمال الدبلوماسية التي كان يستعملها في المناسبات الكبرى، فاصطنع لهجة هادئة، وناقش معه جميع جوانب الأمر.

فذكر أولًا أن الفتاة ليست فذة من حيث قرابتها وثروتها ومحتدّها. وذكر ثانيًا أن الأمير أندريه ليس في ريعان شبابه، وأن صحته ضعيفة (وقد ألح الشيخ على هذه النقطة كثيرًا) على حين أن للأمير أندريه ابنًا وأنه يشفق عليه من أن يوضع بين يدي صبية صغيرة. وقال الأب أخيرًا وهو يرمقه بنظرة ساخرة: «إني أطلب منك هذا الطلب: أرجئ الأمر سنة واحدة، سافر إلى الخارج، عالج صحتك، ابحث للأمير الصغير نيقولا عن مربٍّ ألماني كما تنوي أن تفعل، فإذا وجدت بعد ذلك أن حبّك وغرامك وعنادك، أو ما شئت فسمِّه، لا يزال قويًّا شديدًا، فتزوَّج...».

كذلك ختم الأمير الشيخ كلامه بلهجة تدل على أن لا شيء يمكن أن يحمله على التراجع عن قراره.

وأدرك الأمير أندريه إدراكًا واضحًا أن الشيخ يأمل بألا تدوم عواطف ابنه

أو عواطف الفتاة التي سيخطبها، سنة كاملة، أو أنه يأمل بأن يموت هو نفسه في أثناء هذه السنة. فقرّر الأمير أندريه أن يذعن لإرادة أبيه، فيخطب ناتاشا ويؤجّل الزواج سنة.

وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع على آخر سهرة قضاها الأمير أندريه عند آل روستوف، عاد إلى بطرسبورغ.

***

غداة المسارَّات التي قامت بين ناتاشا وأمها، ظلت ناتاشا تنتظر الأمير أندريه بولكونسكي طوال النهار، ولكنه لم يأتِ، ولا جاء في الأيام التالية. وكان بطرس لا يجيء أيضًا، فلم تستطع ناتاشا - وكانت تجهل أن الأمير أندريه سافر إلى أبيه - أن تجد لغيابه هذا تعليلًا.

وانقضت على هذه الحال ثلاثة أسابيع فكانت ناتاشا ترفض أن تخرج، فهي تطوِّف في الغرف متنقّلة من غرفة إلى أخرى كالشبح، مكفهرّة الوجه، لا تهتم بشيء ولا تعمل شيئًا، فإذا كان المساء أخذت تبكي في الخفاء حريصة على أن لا يرى بكاءها أحد، وصارت لا تذهب إلى أمها. وأصبحت يحمر وجهها وتثور أعصابها في كل مناسبة. كان يبدو لها أن الناس جميعًا قد علموا بخيبة أملها، وأنهم يسخرون منها، ويرثون لحالها، فكان هذا الجرح الذي يصيب كرامتها يزيدها شقاء، رغم كل الحزن العميق الذي يملأ نفسها.

وفي ذات يوم ذهبت إلى الكونتيسة. تريد أن تقول لها شيئًا، فإذا هي تنفجر باكية. وكانت دموعها أشبه بدموع طفل أسيء إليه ولكنه يجهل لماذا عوقب.

أرادت الكونتيسة أن تواسيها، فأصغت ناتاشا في أول الأمر إلى ما كانت تقوله لها أمها، ولكنها لم تلبث أن قاطعتها على حين فجأة بقولها:

- دعي هذا الكلام يا ماما. إنني لا أفكّر فيه، ولا أريد أن أفكّر فيه. والأمر بسيط على كل حال، كان يأتي ثم انقطع عن المجيء.

واختلج صوتها، وأوشكت أن تبكي، ولكنها سيطرت على نفسها وتابعت كلامها قائلة بهدوء:

- ثم إنني لا أريد أن أتزوّجه أبدًا. إنني أخاف منه. والآن هدأت نفسي هدوءًا كاملًا...

وفي غداة هذا الحديث ارتدت ناتاشا فستانًا قديمًا كانت تعرف أن له قدرة على بث الروح في نفسها، واستأنفت منذ الصباح طراز حياتها الذي كانت قد هجرته منذ حفلة الرقص. وبعد أن احتست الشاي ذهبت إلى صالة الرقص التي كانت تحبّها حبًّا خاصًّا لما تمتاز به من ترجيع صدى الأصوات فيها ترجيعًا رائعًا، وجعلت تراجع دروس الغناء، حتى إذا انتهت من الدرس الأول، تقدّمت إلى وسط الغرفة وكرّرت جملة موسيقية كانت قد أعجبتها على نحوٍ خاص، وانقادت لفتنة هذه الأنغام التي تملأ فراغ الغرفة متساقطة تساقطًا، ثم تغني في أرجائها غناء بطيئًا. انقادت لفتنتها فرحة بها، وكأن هذه الفتنة غريبة عنها جديدة عليها. وكأنها لم تكن تتوقّعها، فإذا هي تشعر فجأة بمرح وجذل، وإذا هي تقول مخاطبة نفسها: «علام ذلك التفكير كله! إن كل شيء حسن حتى على هذه الحال»، وأخذت تتجول في الصالة سائرة على أرضها الخشبية الرنانة لا بخطو عادي، بل بإنزال الكعب أولًا (وكانت تنتعل حذاءين جديدين تحبهما)، ثم بإنزال رأس القدم، وتستمع إلى الوقع بفرح لا يقلّ عن فرحتها الموقّعة الموزونة، وإلى صريف رأس القدم، بفرح لا يقل عن فرحها بأصوات غنائها منذ قليل. حتى إذا مرَّت أمام المرآة نظرت إلى نفسها فيها، فكان وجهها كأنه يقول على لسانها: «هأنذا! لا يوجد أحسن مما أنا فيه! لست بحاجة إلى أحد!».

وأراد خادم أن يدخل الصالة ليرتّبها، ولكنها صرفته، وأغلقت الباب وراءه، واستأنفت تجوالها. لقد رجعت في هذا الصباح إلى حالتها النفسية الأثيرة، حبًّها لنفسها وإعجابها بها. وأخذت تقول مرة أخرى بلسان شخص ثالث، شخص هو مجموع رجال: «يا لناتاشا هذه من معجزة! إنها بارعة الجمال، ريَّانة الصبا... وإن لها صوتًا لا يضارعه صوت! وهي لا تضايق

أحدًا، فدعوها وشأنها ولا تضايقوها!». ولكن هبهم تركوها وشأنها ولم يضايقوها، فإنها لن تجد إلى الهدوء سبيلًا بعد الآن. وسرعان ما شعرت ناتاشا بذلك.

فُتح باب الدهليز، وسأل أحدٌ هل الكونتيسة في غرفتها، وسُمع وقع خطى.

فنظرت ناتاشا في المرآة، فلم تَرَ نفسها، لأنها كانت تنصت إلى ما في الدهليز من حركة. فلما أبصرت نفسها في المرآة، كان وجهها شاحبًا. إنه هو. هي من ذلك على يقين، رغم أنها لم تكد تسمع صوته الوراء الباب الموصد.

وهرعت إلى الصالون شاحبة اللون مضطربة أشد الاضطراب، وقالت لأمها:

- ماما! بولكونسكي هنا. ماما! شيء رهيب. شيء لا يطاق... لا أريد أن... أتعذّب! ماذا يجب عليَّ أن أعمل؟

فما إن همَّت الكونتيسة أن تفتح فاها للكلام حتى دخل الأمير أندريه قلق الهيئة مهمومًا، فلما رأى ناتاشا أشرق وجهه وتهللت أساريره، وقبَّل يد الكونتيسة ويد ناتاشا وجلس بقرب الديوان.

قالت الكونتيسة:

- منذ مدة طويلة لم نحظ بمسرة مجيئك...

ولكن الأمير أندريه قاطعها مجيبًا عن سؤالها، مستعجلًا ذكر الهدف الذي جاء من أجله استعجالًا واضحًا:

- لم أجئ إليكم طوال هذه المدة لأنني كنت عند أبي: كان عليَّ أن أسوِّي معه أمرًا خطير الشأن. ولم أرجع إلّا هذه الليلة...

قال هذه الجملة الأخيرة وهو يلقي نظرة على ناتاشا. وتابع كلامه فقال مخاطبًا الكونتيسة بعد لحظة صمت:

- هناك أمر أريد أن أكلّمك فيه يا كونتيسة!

فخفضت الكونتيسة عينيها وزفرت زفرة عميقة، وقالت:

- إني مصغية إليك.

وكانت ناتاشا تعلم أن عليها أن تنصرف، ولكنها لم تستطع أن تخرج. كانت تشعر بانقباض في حلقها، وكانت تنظر إلى الأمير أندريه محملقة غير حافلة بقواعد الكياسة.

قالت تسأل نفسها: «الآن؟ في هذه اللحظة نفسها!... لا... هذا مستحيل!».

ونظر إليها الأمير أندريه مرة أخرى، فأقنعتها هذه النظرة بأن ظنها لم يخطئ. نعم، الآن، في هذه اللحظة نفسها، يتقرّر مصيرها.

قالت الأميرة لناتاشا متمتمة:

- اذهبي يا ناتاشا، سوف أناديك.

فألقت ناتاشا على الأمير أندريه وعلى أمها نظرة مرتاعة، ضارعة وخرجت.

قال الأمير أندريه:

- جئت أخطب ابنتك يا كونتيسة.

فاحمرّ وجه الكونتيسة احمِرارًا شديدًا، ولكنها لم تقل شيئًا.. ثم استجمعت قواها! وقالت برصانة وجد:

- إن طلبك...

وحارت في ما تقول، وكان الأمير أندريه صامتًا منصتًا ينظر في عينيها...

وعادت تقول مضطربة:

- إن طلبك.. يسرّنا ويبهجنا.. وأنا.. أقبله.. بسعادة؟.. وزوجي كذلك.. ولكن الأمر مرهون بها..

فقال الأمير أندريه:

- سأكلمها متى ظفرت بموافقتك.. فهل تمنحينني هذه الموافقة؟

بكلمة واحدة أجابت «نعم»، وصمتت.

بعاطفة هي مزيج من الشعور بالبعد والحب معًا، لثمت جبينه حين مال على يدها يقبّلها. كانت تريد أن تحبّه كما تحبّ أم ابنها، ولكنها كانت تحسّ بأنه غريب عنها، ويخيفها.

فأضافت:

- إني واثقة بأن زوجي موافق، ولكن أباك...
- أطلعت أبي على ما عقدت عليه نيتي، فاشترط لموافقته ألا يتم الزواج قبل انقضاء عام. هذا بعينه ما كنت أريد أن أقوله لك.

قالت الكونتيسة:

- صحيح إن ناتاشا لا تزال صغيرة، ولكن مهلة تبلغ هذا المبلغ من الطول...

قال الأمير أندريه متنهدًا:

- لم يمكن غير هذا.

قالت الكونتيسة:

- سأرسلها إليك.

وخرجت. فكانت تردّد قائلة وهي تبحث عن ابنتها: «ارحمنا يا ربّ. اللهم رحمتك!». وقالت لها صونيا إن ناتاشا في غرفتها. فوجدتها جالسة على سريرها شاحبة اللون، جافة العينين، تحدِّق إلى الأيقونات وتهمس راسمة على صدرها إشارة الصليب بحركة سريعة. فلما رأت أمها وثبت قائمة وهبَّت تتلقاها سائلة:

- هيه ماما؟ ماذا!

قالت الكونتيسة بلهجة بدت لناتاشا باردة:

- اذهبي إليه. إنه يخطبك!

ورددت تقول: «اذهبي، اذهبي»، بلهجة فيها حزن وفيها لوم حين رأت ابنتها تجري إليه جريًا.

لم تستطع ناتاشا أن تتذكّر في يوم من الأيام كيف دخلت الصالون، إذ ما إن رأته وهي على عتبة الباب حتى توقفت. «هل يمكن أن يكون هذا الرجل قد أصبح كل شيء عندي؟». وأجابت عن سؤالها قائلة في اللحظة نفسها: «نعم، كل شيء، هو الآن أعزُّ في قلبي من كل ما في العالم».

وجاءها الأمير أندريه خافضًا عينيه. وقال لها:

- لقد أحببتك منذ رأيتك. فهل آمل أن...

نظر إليها، فأذهله ما كان يُعبِّر عنه وجهها من هوى مشبوب. كان وجهها

كأنه يقول: «لِمَ السؤال؟ لِمَ الشك في ما يستحيل أن لا يُعرف؟ لِمَ الكلام حين يستحيل التعبير بالألفاظ عما تجيش به النفس؟».

واقتربت منه. وتوقفت. ثم تناولت يده وقبّلتها.

- هل تحبينني؟

سألها. فأجابت ناتاشا بما يشبه الغضب:

- نعم، نعم.

وزفرت نفسًا عميقًا، فنفسًا عميقًا ثانيًا، فثالثًا، إلى أن انفجرت تنشج باكية.

قال لها الأمير أندريه:

- لماذا؟

فأجابته:

- آه... كم أنا سعيدة.

وابتسمت من خلال الدموع، ومالت عليه، وتردَّدت لحظة كأنها تتساءل هل تستطيع أن تفعل ما تهمُّ أن تفعله، ثم قبّلته.

أمسك الأمير أندريه يدها بيديه، ونظر في عينيها، فلم يحس بأن قلبه لا يزال عامرًا بذلك الحب ذاته الذي كان يعتمر به. إن نوعًا من انقلاب قد حدث في نفسه. اختفى ما كان في الفتاة من جاذبية شعرية ملفّعة بالسر، ولم يبق في نفس الرجل إلّا شفقة على ضعفها امرأة وطفلة، وخوف انقيادها وثقتها، وشعور حاد هو مزيج من فرح وحزن بواجب الارتباط بها إلى الأبد. وكانت هذه العاطفة الجديدة، على خلوّها من الشعر والتألق، أشدَّ قوة وأكثر حزمًا.

قال الأمير أندريه وهو لا يزال ينظر في عينيها:

- هل ذكرت لك ماما أن الزواج لن يتمَّ قبل انقضاء سنة؟

حدثت ناتاشا نفسها متسائلة: «هل يمكن أن أكون، أنا الطفلة (جميع الناس يسمونني طفلة) قد أصبحت منذ الآن امرأة لهذا الرجل الأجنبي، مساوية له، امرأة لهذا الرجل الآسر الذي يحترمه حتى أبي؟ وصحيح أنني لا أستطيع بعد الآن أن آخذ الحياة مأخذ الخفّة والطيش، وأنني غدوت شخصًا

كبيرًا، وأنني مسؤولة عن كل عمل من أعمالي، وكل قول من أقوالي؟ ولكن عمَّ سألني؟».

وأجابته من دون أن تفهم السؤال الذي ألقاه عليها:

- لا.

قال الأمير أندريه:

- معذرة. إنك صغيرة السن جِدًّا، وإني عشت كثيرًا. فأنا أخاف عليك. أنت نفسك لا تعرفين نفسك.

كانت ناتاشا تصغي إلى كلامه بانتباه شديد، محاولة أن تفهم معنى أقواله فلا تظفر بذلك. وتابع الأمير أندريه كلامه يقول:

- مهما تكن هذه السنة التي تؤجّل سعادتي شاقّة على نفسي، فإن هذه المهلة ستتيح لك أن تري ما في قلبك رؤية واضحة. فأنا أطلب منك أن تهبي لي السعادة بعد سنة، ولكنك حرّة، فسوف تظل خطوبتنا سرًّا مكتومًا، فإذا لاحظت أنك لا تحبينني أو إذا لاحظت أنك تحبين...

قال ذلك وتبسم مكرهًا نفسه على التبسم إكراهًا. فقاطعته ناتاشا تقول مقتنعة بأنها تذكر الحقيقة:

- لماذا تقول هذا الكلام؟ أنت تعلم أنني أحببتك منذ أول لقاء حين جئت إلى أوترادنويا.

- سيُتاح لك في خلال سنة أن تعرفي نفسك...

فقالت ناتاشا فجأة وقد أدركت في تلك اللحظة أن الزواج مؤجَّل سنة:

- سنة... كا.. ملة؟ ولكن لماذا التأجيل سنة؟ لماذا يكون التأجيل سنة...

فأخذ الأمير أندريه يشرح لها أسباب هذا التأخير. فكانت ناتاشا لا تصغي إلى كلامه. ثم سألته:

- ألا يمكن غير هذا؟

فلم يجب الأمير أندريه بشيء، ولكن وجهه دلَّ على أن القرار باتٌّ لا رجوع عنه.

قالت ناتاشا فجأة:

- شيء فظيع، شيء فظيع، فظيع!

وانفجرت تبكي ناشجة من جديد. وأردفت تقول:

- سوف يميتني أن أنتظر سنة. مستحيل. فظيع.

ونظرت إلى خطيبها، فرأت على وجهه تعبيرًا عن شفقة وارتباك. فانبرت تقول بغتة وهي تجفّف دموعها:

- لا، لا. أنا راضية بكل شيء، موافقة على كل شيء. إني سعيدة!

ودخل الأب والأم في تلك اللحظة، فباركا الخطيبين.

ومنذ ذلك اليوم أصبح الأمير أندريه يتردّد على آل روستوف خطيبًا.

الفصل الرابع والعشرون

لم يُحتفل بخطبة بولكونسكي وناتاشا، ولم يعلم بها أحد. لقد أصر الأمير أندريه على هذا. كان يقول: ما دام هو سبب هذا التأجيل فيجب عليه أن يتحمّل جميع عواقبه. فالوعد الذي قطعه على نفسه يربطه إلى الأبد، ولكنه لا يريد أن يربط ناتاشا، بل هو يدع لها حريتها كاملة فإذا لاحظت بعد ستة أشهر مثلًا أنها لا تحبّه، كان من حقها أن تتراجع. وواضح أن الأبوين وناتاشا جميعًا كانوا لا يريدون أن يسمعوا كلامًا كهذا الكلام. ولكن الأمير أندريه لم يتزحزح عن رأيه. وقد أصبح يجيء إلى آل روستوف كل يوم، ولكنه لا يعامل ناتاشا كما يعامل خطيب خطيبته. فهو لا يزال يخاطبها بصيغة الجمع، ولا يزال لا يقبّل إلّا يدها. واتخذت العلاقات بين الأمير أندريه وناتاشا منذ الخطوبة طابعًا جديدًا، يمتاز بأن الصلة بينهما صارت صحيحة وبسيطة، حتى لكأنهما كانا لا يعرف أحدهما صاحبه قبل الآن. وأصبحا يحبان أن يتذكرا كلاهما ماذا كان يرى كل منهما في الآخر من رأي حين لم يكن أحد منهما شيئًا في نظر الآخر.

هما يشعران الآن بأنهما أصبحا إنسانين جديدين يختلفان عما كاناه من قبل كل الاختلاف. كانا من قبل متصنّعَيْن، وهما الآن بسيطان وصادقان. وكانت الأسرة تشعر في أول الأمر بشيء من الحرج حين جاء الأمير أندريه. كان يبدو لها أنه آتٍ من عالم غريب.

فأنفقت ناتاشا وقتًا طويلًا لتخلق جوًّا من الألفة بين أهلها وبينه وتؤكد لهم معتزة بأنه لا يبدو رجلًا على حدة إلّا في الظاهر، أما في حقيقة الأمر فهو كسائر الناس. فهي لا تخشاه، وما ينبغي لأحد أن يخشاه. فما هي إلّا أيام

حتى ألفوه واستردوا طراز حياتهم السابقة بغير حرج، وشاركهم هو في هذا الطراز من الحياة. كان يعرف كيف يكلّم الكونت في أمور الزراعة، ويعرف كيف يبحث مع الكونتيسة وناتاشا شؤون الثياب والزينة. وكان يعرف كيف يحدّث صونيا عن الألبومات والتطريز. وكان آل روستوف يدهشون أحيانًا، بينهم وبين أنفسهم، أو بحضور الأمير أندريه، من أن هذا كله قد أمكن أن يحدث فكانوا يقطعون بأن القدر هو الذي تدخّل في الأمر الذي تضافرت فيه ظروف كثيرة. رحلة الأمير أندريه إلى أوترادنويا، وإقامتهم ببطرسبورغ، والشبه بينه وبين ناتاشا، وهو شبه لاحظته الخادمة العجوز منذ أول زيارة، والمشادّة التي وقعت سنة 1805 بين الأمير أندريه وابنهم نيقولا، وما إلى ذلك من أمور رأت الأسرة فيها دليلًا واضحًا على تدخل القدر.

وكان جو البيت مشبعًا بذلك السأم الشعري وذلك الصمت اللذين يحيطان دائمًا بخطيبين. فكثيرًا ما كانوا يصمتون جميعًا وقد ضمتهم غرفة واحدة.

وكانوا في بعض الأحيان يقومون وينصرفون، فيختلي الخطيبان ويظلان صامتين. وهما لا يتكلّمان عن مستقبلهما إلّا نادرًا. كان الأمير أندريه يخشى أن يواجه هذا الموضوع، ويتحرَّج من أن يخوض فيه.

وكانت ناتاشا تشاركه هذا الشعور، مثلما كانت تشاركه جميع عواطفه التي تحزرها دائمًا. وفي ذات مرة سألته عن ابنه، فاحمرّ وجهه، وكان احمرار الوجه قد أصبح يعتريه كثيرًا، وكانت ناتاشا تحب فيه هذا حبًّا خاصًّا، ثم قال إن ابنه لن يقيم معهما. فسألته ناتاشا مذعورة:

– لماذا؟

– لأنني لا استطيع أن انتزعه من جده، لكن سرعان ما حزرت ناتاشا ما كان يفكّر فيه، فقالت:

– آه... ما أعظم ما سأحبّه! ولكنني أعلم أنك لا تريد أن يستطيع أحد لومنا، لا أنا ولا أنت.

وكان الكونت الشيخ يدنو من الأمير آندرو أحيانًا، فيقبّله ويسأله النصح في أمر تربية بيتيا أو عمل نيقولا. كانت الكونتيسة العجوز تتنهد وهي تنظر

إلى الخطيبَيْن. وكانت صونيا تخشى دائمًا أن يكون وجودها زيادة، فتنتحل شتى الأعذار لتتركهما وحيدين، حتى حين لا يكونان في حاجة إلى ذلك البتة. وكانت ناتاشا، إذا تكلّم الأمير أندريه (وهو يجيد الكلام خير إجادة) تصغي إليه فخورة معتزّة. وكانت إذا هي تكلّمت، تلاحظ - فَرِحة وجِلة في آن واحد - إنه يرمقها بانتباه، وينظر إليها متفرسًا، فتتساءل مرتبكة متحيّرة: «ما الذي يبحث عنه فيَّ؟ ما معنى هذه النظرة؟ ما عسى يحدث إذا لم يقع فيَّ على ما يبحث عنه هذا البحث؟». وكان يرتد إليها في بعض الأحيان مرَحُها الجنوني المعهود فيها، الخاصّ بها، فكانت في تلك الأحيان تحب أن تصغي إلى الأمير أندريه أكثر من أي وقت مضى وأن تراه يضحك. وكان قبل أن يغادر الأمير أندريه بطرسبورغ بيوم، جاء إلى آل روستوف مصطحبًا بطرس الذي لم يزرهم منذ حفلة الرقص. وكان بطرس يبدو قلقًا مضطربًا. وانخرط في حديث مع الأم. وجلست ناتاشا وصونيا إلى رقعة الشطرنج تلعبان داعيتين الأمير أندريه بذلك أن ينضم إليهما، فأقبل عليهما، وقال يسأل ناتاشا:

- إنك تعرفين بيزوخوف منذ مدة طويلة، أليس كذلك؟ ولا شك أنك تحملين له شعور المودّة والصداقة.

- نعم. هو لطيف، لكنه مضحك قليلًا.

وعلى عادتها حينٍ تتكلم عن بطرس أخذت تروي نكات عن ذهوله، وهي نكات غالبها ملفّق تلفيقًا.

قال الأمير أندريه:

- لقد بحت له بسرّنا. إنني أعرفه منذ الطفولة. هو رجل قلبه من ذهب.

وأضاف يقول فجأة بلهجة فيها جد:

- أرجوك يا ناتاليا... إني مسافر... ولا يعلم إلّا الله ما عسى يحدث. قد يزول من نفسك ما تحملينه لي الآن من حـ... نعم، أنا أعلم أنه لا يجوز أن أقول هذا الكلام. لكنني.. إذا حدث لك أي شيء أثناء غيابي...

- ما الذي يمكن أن يحدث؟

تابع الأمير أندريه كلامه فقال:

- إذا نزلت أية نازلة... فأرجوك يا آنسة صونيا، أن تطلبي العون والنصح منه وحده. هو رجل ذاهل، مضحك جِدًّا، ولكنه أطيب الناس قلبًا، وانقاهم سريرة.

لا الأب ولا الأم ولا صونيا ولا الأمير أندريه نفسه، استطاعوا أن يتنبأوا بالأثر الذي سيتركه في نفس ناتاشا فراقها عن خطيبها. كانت في يوم الفراق تذهب وتجيء في المنزل محمرّة الوجه مضطربة الحركة، جافة العينين، تشغل نفسها بأمور تافهة وتهتم بترّهات وسفاسف كأنها لا تدرك ما ينتظرها، ولم تذرف دمعة واحدة حين قبّل الأمير أندريه يدها لآخر مرة مودعًا. ولكنها قالت له بصوت اضطره أن يتساءل فعلًا ألا يجب عليه أن يبقى، (وقد بقيت ذكرى هذا الصوت في خياله زمنًا طويلًا)، قالت له:

- لا تسافر!

وحين مضى، لم تبكِ أيضًا، ولكنها حبست نفسها في غرفتها عدة أيام لا تسكب دمعة ولا تفعل شيئًا، ولا تزيد على أن تكرّر من حين إلى حين قولها: «لماذا سافر؟».

وما كان أشد الدهشة التي اعترت من حولها، حين رأوها تصحو من خدرها فجأة بعد خمسة عشر يومًا، وتعود إلى ما كانت عليه، ولكن بهيئة نفسية جديدة، كالأطفال الذين يبلون من المرض فيكون لهم وجه جديد.

الفصل الخامس والعشرون

ساءت صحة الأمير نيقولا آندريتش وساء طبعه كثيرًا أثناء السنة التي أعقبت سفر ابنه. فأصبح أسرع إلى الاهتياج والسخط، وأصبحت نوبات الغضب التي تعتريه بغير مسوِّغ تنصبّ على الأميرة ماريا، حتى لكأنه يختار النقاط الحساسة في نفسها اختيارًا، ليؤذي شعورها أشد الإيذاء ويوقع فيها أكبر التعذيب.

وكان للأميرة ماريا وَلَعان اثنان.. وكان لها إذًا فرحتان اثنتان.. نيقولا الصغير، ابن أخيها والدين. فكان الأمير الشيخ يختار هذين الولعين موضوعًا أثيرًا للهجوم عليها والسخرية منها. فأيًّا كان الحديث الذي يجري بينه وبينها، تراه يحرّفه إلى الكلام عن الخرافات التي تؤمن بها العوانس، وعن الإفراط في التساهل والتسامح مع الأولاد. كان يقول لها مثلًا: «تريدين أن تصنعي منه (يعني الصغير نيقولا) عانسًا مثلك، فأنت مخطئة. إن الأمير أندريه في حاجة إلى ابن لا إلى ابنة»، أو كان يتجه بالكلام إلى مادوموازيل بوريين فيسألها بحضور الأميرة ماريا عن رأيها في قسسنا وأيقوناتنا ويأخذ يهزل ويسخر.

أصبح يؤذي شعور الأميرة ماريا إيذاء قاسيًا في كل وقت. ولكن ابنته لم تحتج حتى إلى بذل شيء من الجهد لتغفر له. كانت تتحمله من دون أي تذمّر. هل يمكن أن يخطئ في حقها هذا الأب الذي تعلم علم اليقين أنه يحبّها، هل يمكن أن يكون ظالمًا غير عادل؟ وما العدل أصلًا؟ كانت الأميرة ماريا لا تفكر أبدًا في هذه الكلمة الصلِفة «العدل». كانت جميع القوانين الإنسانية المعقّدة تتلخّص عندها في قانون واحد بسيط واضح،

هو قانون المحبة والتضحية الذي علّمنا إياه «ذلك» الذي تحمَّل العذاب في سبيل البشر وهو إله. فما قيمة أن تلقى لدى الآخرين عدلًا أو أن تلقى ظلمًا؟ المهم أن عليها أن تتألّم وتحبّ، وذلك ما كانت تفعله.

وجاء الأمير أندريه إلى ليسييه جوري في الشتاء، وكان مرحًا لطيفًا رقيقًا عذبًا، وكان يبلغ من هذا كله ما لم يسبق للأميرة ماريا أن رأته فيه يومًا. فأدركت أن شيئًا ما قد وقع له، ولكنه لم يحدّثها بشيء عن غرامه الجديد. وقد جرى بينه وبين أبيه حديث طويل، فلاحظت الأميرة ماريا أن كلًّا منهما خرج من هذا الحديث ممتعضًا من الآخر.

وبعد سفر الأمير أندريه بوقت قصير، كتبت الأميرة ماريا من ليسييه جوري إلى بطرسبورغ، رسالة لصديقتها جوليا كاراجين التي كانت تحلم الأميرة ماريا، كما تحلم الآنسات دائمًا، أن تزوّجها أخاها، والتي كانت حينذاك في حداد على قتل أخاها في تركيا[1]. وهذا نص الرسالة:

يجب أن نؤمن بأن الحزن نصيبنا جميعًا يا صديقتي الغالية الرقيقة جوليا.

إن فقدك أخاك يبلغ من القسوة أنني لا استطيع أن أجد له تعليلًا إلّا في أنه نعمة من الرب أراد بها أن يمتحنكما، وهو يحبكما أنت وأمك الممتازة. آه يا صديقتي، إن الدين وحده يستطيع أن يخلّصنا من اليأس، ولا أقول أن يعزّينا. إن الدين وحده يستطيع أن يفسر للإنسان ما لا يستطيع الإنسان أن يفهمه إلّا بالدين، لماذا ينادي الرب إلى جواره أُناسًا أخيارًا شرفاء نبلاء يستطيعون أن يجدوا السعادة في الحياة، ولا يؤذون أحدًا، بل لا غنى عنهم لسعادة الآخرين. على حين أن أُناسًا أشرارًا لا يفيدون الناس أو هم يلحقون بالناس الضرر، ويكونون عبئًا على أنفسهم وعلى الآخرين، يبقون أحياء؟ إن الموت الأول الذي شهدته ولن أنساه مدى الحياة، وهو موت زوجة أخي العزيزة، قد ترك في نفسي هذا الأثر وخلّف في ذهني هذا الرأي. وكما تسألين أنت القدر لماذا كان يجب أن يموت أخوك الممتاز، كذلك كنت أتساءل أنا لماذا كان يجب أن تموت ليزا، هذه الملاك التي لم تؤذ في حياتها

---

(1) حرب على الترك بدأت في تشرين الثاني (نوفمبر) سنه 1806، واستمرت إلى تموز (يوليو) من عام 1812.

أحدًا، ولا احتوت نفسها إلّا أنبل المعاني. وقد انقضت على موتها يا عزيزتي خمس سنين، وأخذت أدرك الآن بعقلي الضعيف إدراكًا واضحًا لماذا كان لا بد أن تموت، وأخذت أدرك بعقلي الضعيف إدراكًا واضحًا أن هذا الموت لم يكن إلّا تعبيرًا عن رحمة الخالق التي لا نهاية لها، عن رحمة هذا الخالق الذي ليست أفعاله، وإن لم نفهمها في كثير من الأحيان، ليست إلّا تجلّيات حبّه لخليقته حبًّا ليس له حدود. وإني لأقول لنفسي أحيانًا.. لعلها كانت تملك براءة ملائكية، تجعلها أعجز من أن تقوم بجميع الواجبات التي تقع على عاتق أم. لا مأخذ عليها زوجة شابة، فلعلها لم تكن قادرة على ذلك أمًّا. وهي لم تخلف لنا جميعًا، ولا سيما للأمير أندريه، أجمل الذكرى وأنقى الحسرة فحسب، وإنما هي تحتل أيضًا في السماء، ولا شك، مكانًا لا أجرؤ أن أطمع لنفسي بمثله. وإذا تركنا الكلام عنها هي، فلا شك في أن هذا الموت المبكر الرهيب كان له، رغم كل الحزن الذي أمضّنا، كان له أثر مفيد في نفسي وفي نفس أخي. في ذلك الوقت، حين ماتت، ما كان لهذه الأفكار أن تساورني، ولو ساورتني لطردتها مرتاعة، أما الآن فإن كل شيء واضح في ذهني كل الوضوح، فلا سبيل إلى جحوده. لا أكتب لك هذا يا صديقتي لأقنعك بالحقيقة الإنجيلية التي أصبحت قاعدتي في الحياة، فلا شعرة تسقط من رأسنا إلّا بإرادة الرب. وإرادة الرب لا يوجهها إلّا ما يحمله لنا من حبٍّ لا نهاية له، فكل ما يحدث لنا إنما هو خير. تسألينني هل سنقضي الشتاء القادم في موسكو؟ لا أظن هذا ولا أتمنّه، رغم كل شوقي إليك ورغبتي في رؤيتك. وقد يدهشك أن تعلمي أن سبب هذا كله إنما هو «بونابرت». إليك شرح ذلك.. إن صحة أبي تتردّى تردّيًا واضحًا. أصبح لا يحتمل أن يعارضه أحد، وأصبح سريع الاهتياج، وهذا الاهتياج السريع إنما تثيره فيه الشؤون السياسة خاصّةً كما تعلمين. فهو لا يطيق أن يتصوّر أن يعامل «بونابرت» جميع ملوك أوروبا، وأن يعامله إمبراطورنا خاصّةً، وهو حفيد كاترين العظمى، معاملة الند للند. تعلمين أنني لا اكترث بالسياسة أي اكتراث، ولكنني أطلع من أقوال أبي وأحاديثه مع ميخائيل إيفانوفتش على كل ما يجري في العالم، وأطلع خاصّةً على الأمجاد التي يسبغونها

على «بوونابرت». لا شك أن ليسيه جوري تنفرد عن سائر الكون بأنها لا تعترف به لا رجلًا عظيمًا، ولا إمبراطورًا لفرنسا. تلك هي الأمور التي تُخْرِجُ أبي عن طوره. ويبدو لي أنه بسبب آرائه السياسية، ولأنه يتوقّع أن تورثه صراحته المألوفة، التي تحمله على أن يقول رأيه غير مبالٍ بأحدٍ، منازعات كثيرة ومتاعب جمّة. إنما يمتعض من الحديث عن رحلة نقوم بها إلى موسكو. إن كل ما تجنيه صحته من تحسّن بفضل العلاج الذي سيتبعه في موسكو، سيفقده بما سيشترك فيه من مناقشات عن «بوونابرت» لا يمكنه أن يتحاشاها. على كل حال، سيتقرر هذا الأمر قريبًا جِدًّا.

حياتنا في الأسرة تجري كما كانت تجري في الماضي، باستثناء أن أخي أندريه غائب. وقد سبق أن كتبت لك أنه تغير كثيرًا في الآونة الأخيرة. إنه منذ محنته بفقد زوجته لم يعد إلى الحياة النفسية الطبيعية إلّا في هذه السنة. لقد رجع إلى ما عهدته فيه منذ طفولته، طيبًا رقيق العاطفة، له قلب من ذهب لا أعرف له نظيرًا في غيره. أظن أنه أدرك أن حياته لما تنتهي بعد. ولكنه إلى جانب هذا التبدّل النفسي قد ساءت حاله الجسمية، فهو شديد النحول، ثائر الأعصاب. إنني قلقة عليه، لذلك سرَّني أنه قام بهذه الرحلة إلى الخارج، وهي رحلة يصفها له الأطباء منذ زمن طويل. آمل أن يستردّ بهذا عافيته. تقولين إن الناس ببطرسبورغ يتحدّثون عنه حديثهم عن شاب يعد من أكثر الشباب نشاطًا، وأوسعهم ثقافة، وأحدَّهم ذكاء. فاغفري لي اعتزاز الأخت بأخيها، إنني لم يخامرني في هذا شك يومًا. إن ما فعله هنا خير للناس كافة لا يُعَدُّ ولا يُحصى. ابتداء بفلاحيه وانتهاء بأبناء الطبقة النبيلة. فحين ذهب إلى بطرسبورغ لم ينل من المكافأة إلّا ما يستحق. يدهشني أن تصل من بطرسبورغ إلى موسكو شائعات تبلغ من البعد عن الحقيقة ما تبلغه الإشاعات التي تذكرينها لي عن زواج مزعوم سيتم بين أخي وبين الآنسة الصغيرة روستوف. لا أعتقد بأن أندريه سيتخذ له أيّ زوجة، فضلًا عن أن يتزوج هذه الآنسة. إليك شرح ذلك.. أنا أعلم أولًا، رغم قلة حديثه عن المرحومة امرأته، أن الحزن الذي أصابه به فقدها أعمق رسوخًا في قلبه من أن يستطيع في أي يوم من الأيام أن يعزم أمره على اتخاذ زوجة تحل محلها،

وعلى أن يجيء لملاكنا بزوجة أب. وأنا أعلم عدا ذلك أن هذه الفتاة ليست من نوع النساء اللواتي يمكن أن يعجبنه. فلا أعتقد بأن الأمير أندريه يمكن أن يختارها زوجة له، وأقول لك بصراحة إنني لا أتمنّى ذلك. ولكن هأنذا ثرثرت وأسرفت في الثرثرة، فملأت الورقة الثانية كلها. استودعك الله يا صديقتي العزيزة، وأساله تعالى أن تكوني في رعايته المقدّسة القادرة. صاحبتي الآنسة بوريين تقبِّلك.

ماريا

الفصل السادس والعشرون

في منتصف الصيف تلقّت الأميرة ماريا من سويسرا رسالة بعثها الأمير أندريه، وفيها يطلعها على نبأ غريب لا يُتوقّع. إنه يبلغها خطوبته للآنسة روستوف. وكانت رسالته تفيض غرامًا جيّاشًا بخطيبته، وتزخر بشعور الصداقة الواثقة الحنون نحو أخته. كتب يقول إنه لم يحب في حياته كما يحب الآن، وإنه لم يدرك الحياة ولم يعرف الحياة قبل الآن. وهو يسأل أخته أن تغفر له أنه لم يحدّثها بشيء عن نياته أثناء إقامته الأخيرة في ليسيه جوري، رغم أنه كاشف بها أباه، ويذكر أن السبب في ذلك هو أنه لو حدّثها بالأمر لرجت أباها أن يوافق، فأثارت غضبه عليها وغيظه منها. ويضيف إلى ذلك أن الأمر كله لم يكن قد بُتّ فيه بتًّا قاطعًا كما بُتَّ فيه الآن. «لقد فرض عليَّ أبي أن أتريث سنة، وها قد انقضت أشهر ستة، أي انقضى نصف المهلة، فما ازددت إلّا إصرارًا على عزمي وثباتًا على قراري، ولو لا أن احتجزني الأطباء هنا للعلاج بالمياه المعدنية لكنت قد رجعت إلى روسيا، ولكن يجب عليَّ أن أؤجل عودتي ثلاثة أشهر أخرى. إنك تعرفينني وتعرفين علاقتي بأبي، فتعرفين أنني أكتب إليه في هذا الأمر نفسه الآن، فأرجوك أن تختاري لحظة مناسبة تسلّميه فيها رسالتي، ثم أن تخبريني بوقع هذا كله في نفسه، وردّه عليه، وأن تبلغيني هل ثمة أمل في أن يوافق على إنقاص المهلة ثلاثة أشهر».

بعد تردّدات كثيرة وشكوك كبيرة، ودعوات وصلوات، سلَّمت الأميرة ماريا الرسالة إلى أبيها. فقال لها أبوها في الغد بهدوء:

- اكتبي إلى أخيك فقولي له أن يتريث إلى أن أرحل عن هذا العالم، ولن يتأخر رحيلي كثيرًا، فإنني لن ألبث أن أخلّصه مني...

أرادت الأميرة أن تردَّ، ولكنّ أباها لم يسمح لها بالرد، وقال بصوت ما ينفك يزداد علوًا وحدّة:

- تزوّج... تزوّج يا عزيزي، لم لا؟ مصاهرة عظيمة... هم أناس أذكياء، أليس كذلك؟ وأغنياء، أليس كذلك؟ نعم، وسيكون لنيقولا الصغير زوجة أب جميلة. اكتبي إليه أن يتزوج منذ الغد إذا شاء. ستكون هي زوجة أب لنيقولا، وسأتزوج أنا الآنسة بوريين! هأهأهأ، فبذلك يكون له هو أيضًا زوجة أب، ولكنني لا أريد أن يضم بيتي نساء أخريات، فليتزوّج، ولكن على شرط أن يعيش مستقلًا. وقد تحبين أنت أن تذهبي إليه، فتعيشي معه، فهلمي هلمّي! أسأل الله أن يباركك... وأرجو لك سفرًا موفقًا، أرجو لك سفرًا سعيدًا!..

وبعد ذلك الانفجار لم ينبس الأمير بكلمة واحدة عن هذا الأمر. ولكن الغضب الكظيم الذي سبّبه له ضعف ابنه ظهر في علاقاته بابنته فأضيف إلى مواضيع التندر القديمة موضوع جديد.. هو الكلام عن زوجة الأب ومغازلة الآنسة بوريين. فكان يقول لابنته:

- لم لا أتزوجها؟ لتكونن إذا تزوجتها أميرة رائعة. ولم تلبث ماريا أن لاحظت فعلًا أن أباها صار يقرِّب إليه الفرنسية مزيدًا من التقريب. فكتبت إلى أخيها كيف استقبل أبوهما الرسالة، ولكنها واسته بأن أمّلته في أنها ستفلح في ثني أبيها عن موقفه المتشدّد.

الصغير نيقولا وتربيته، والأمير أندريه والدين، تلكم هي تعزيات الأميرة ماريا وفرحاتها. ولكن كل امرئ يحتاج إلى أن تكون له آمال خاصّة به. فكانت الأميرة ماريا تخفي في أعمق أعماق قلبها حلمًا وأملًا هما اللذان يشدّان أزرها ويقويان عزيمتها في الحياة. وهي مدينة بهذا الحلم وهذا الأمل إلى «أولياء الله» والمجذوبين والجوّابين الذين كانوا يجيئون إليها خفية فلا يراهم الأمير. كانت الأميرة ماريا ما تنفك تلاحظ الناس وتجرّب الحياة، فتزداد دهشتها من البشر الذين يبحثون عن المباهج والسعادة على الأرض

يكدّون ويجهدون ويتألّمون ويكافحون ويؤذي بعضهم بعضًا لبلوغ هذه السعادة المستحيلة الوهمية المدنسة. لقد أحب الأمير أندريه امرأته وماتت، فلم يكفه هذا، فهو يحاول الآن أن يجعل سعادته رهنًا بامرأة أخرى. وأبوه يعارض هذا الأمر، لأنه يريد لابنه زوجة أعلى شأنًا وأعرض ثراء. وكل امرئ يكافح ويتألّم ويؤلم غيره ويفسد نفسه الخالدة، لبلوغ سعادة ليس عمرها إلّا لحظة. ونحن أنفسنا نعلم هذا، بل إن المسيح، ابن الرب، نزل إلى الأرض ليقول لنا إن هذه الحياة حياة عابرة، وإنها امتحان، ومع ذلك، نظل نتشبث بها، ونظل نعتقد بأننا واجدون فيها السعادة. كانت الأميرة تحدّث نفسها قائلة: «كيف لم يدرك أحد هذا؟ كيف لم يدركه «أولياء الله» هؤلاء الذين يحتقرهم الناس، ويأتون إليَّ حاملين أكياسًا على أكتافهم، صاعدين سلّم الخدم خشية أن يراهم الأمير، لا اتقاء لغضبه بل رغبة في تجنيبه الخطيئة. لأن يترك المرء أسرته ووطنه، ويهجر الاهتمام بخيرات هذا العالم جميعًا، لا يتعلّق منها بشيء، ويجعل يضرب في الأرض جوّابًا من مكان إلى مكان متدثرًا بأسمال من قنَّب، لا يؤذي من البشر أحدًا بل يصلّي من أجلهم، ويدعو الله للذين يطردونه مثلنا يدعو الله للذين يحمونه.. هل من حياة تفوق هذه الحياة وهل من حقيقة تفوق هذه الحقيقة؟

كان بين أولئك التقيّات واحدة اسمها فيدوسيوشكا[1]، هي امرأة قصيرة وديعة مجدورة.. عمرها خمسون سنة. إن هذه المرأة تضرب في الأرض منذ ثلاثين عامًا. حافية القدمين مثقلة بالسلاسل. وقد أحبّتها الأميرة ماريا حبًّا خاصًّا. ففي ذات يوم، رَوَت هذه المرأة للأميرة ماريا في غرفتها المظلمة التي لا يضيئها إلّا سراج واحد، قصة حياتها. فإذا بالأميرة ماريا تؤمن فجأة بأن هذه المرأة وحدها قد اهتدت إلى الطريق الحق، وإذا هي تبلغ من الإيمان بذلك أنها قرّرت أن تضرب في الأرض هي أيضًا. وحين مضت فيدوسيوشكا إلى النوم كانت الأميرة ماريا قد جزمت بأن عليها أن تعيش حياة تجواب مهما يبدو ذلك غريبًا. ولم تبح الأميرة ماريا بما عزمت عليه

(1) تصغير اسم فيدوسيا تدليلاً.

إلّا للكاهن الذي تعترف له، وهو الأب آكنفي، فاستحسن رأيها وشجّعها على إنفاذ ما عقدت عليه نيتها. وبحجة إهداء هدايا إلى النسوة الجوّابات التقيات اشترت لنفسها ثيابًا كاملة.. جلبابًا وخفّين وقفطانًا وخمارًا أسود. وصارت تقترب كثيرًا من الخزانة التي تنطوي على سرها، فتتساءل متردّدة ألم يحن لها أن تضع مشروعها موضع التنفيذ.

وصارت في كثير من الأحيان، حين تصغي إلى ما ترويه لها الجوّابات تشتعل حماسة لهذه الأقوال البسيطة التي يردّدنها هنَّ ترديدًا آليًّا، ولكنها تشتمل في نظرها هي على معنى عميق، وبلغت من ذلك أنها همّت عدة مرات أن تهجر كل شيء وتولي هاربة من المنزل. وفي خيالها أخذت تتصوّر نفسها لابسة خرقًا غليظة حاملة عصًا وكيسًا، سائرة مع فيدوسيوشكا في طرق غبراء، متنقّلة من معبد إلى معبد بلا أسف ولا حب إنساني ولا رغبة ولا شهوة واصلة في نهاية المطاف إلى حيث لا حزن ولا زفرات، بل فرح أبديّ وغبطة لا تنتهي.

كانت الأميرة ماريا تقول لنفسها في أثناء ذلك: «أصل إلى مكان فأصلّي فيه، وقبل أن آلفه وأتعلّق به، أنصرف منه وأوغل في السير بعيدًا، وأظل أمشي إلى أن تنثني ركبتاي، فأرقد على الأرض وأموت في مكان من الأمكنة، فألقى أخيرًا ذلك الشاطئ الأمين الوادع، حيث لا شجَن ولا آهات!».

ولكنها ما إن ترى أباها، أو ترى الصغير كوكو خاصّةً، حتى تضعف عزيمتها، فتبكي في الخفاء، وتحسّ بأنها آثمة، لأنها تحبّ أباها وتحبّ ابن أخيها أكثر مما تحبّ الربَّ.

الجزء الرّابـع

الفصل الأول

بحسب ما ترويه التوراة، فإن سعادة الإنسان الأول قبل سقوطه كانت تقوم على فراغ وقته وخلوِّه من العمل. وحين سقط الإنسان بقي حب البطالة في نفسه، ولكن لعنة الرب لا تزال جاثمة على صدره، لا لأن عليه أن يكسب خبزه بعرق جبينه فحسب، بل أيضًا لأن طبيعته النفسية تجعله لا يجد راحة النفس في الفراغ والبطالة. فكأن صوتًا خفيًّا يهتف قائلًا لنا إننا نكون آثمين خطاة إن لم نعمل. فإذا استطاع الإنسان أن يهتدي إلى حالة يحسّ فيها أنه مفيد وأنه يقوم بواجبه مع أنه لا يعمل، أمكنه أن يسترد ظرفًا من ظروف السعادة الأولى التي كان ينعم بها الإنسان الأول قبل سقوطه. وحالة البطالة الإجبارية التي لا يُلام عليها صاحبها ولا يعدُّ بسببها مقصِّرًا، إنما هي الحالة التي تنعم بها طبقة اجتماعية بأسرها، أعني طبقة العسكريين. وهذا بعينه ما يجعل للسلك العسكري وسيظلّ يجعل للسلك العسكري فتنة خاصّةً.

ولقد كان نيقولا روستوف ينعم بهذه السعادة منذ سنة 1807 ضابطًا في فوج بافلوغراد يقود كتيبة الفرسان خلفًا لدينيسوف.

وهو الآن شاب جسور خشن، لو رآه أصحابه الذين عرفوه في موسكو لوصفوه بأنه جلف، ولكن رفاقه ومرؤوسيه ورؤساءه يحبّونه ويقدّرونه وهو راضٍ بحظّه، سعيد بالحياة التي يعيشها. ولكن الرسائل التي تصله من أمه في هذه الآونة الأخيرة، سنة 1809، تشتمل على شكوى ما تنفكّ تزداد.،

فأمه تشكو من الحالة المالية التي يتفاقم سوؤها يومًا بعد يوم، وتقول له إنه قد آن له أن يعود ليكون لأبويه بهجة وعزاء.

كان نيقولا حين يقرأ هذه الرسائل يخشى أن يكون المقصود منها هو أن يُنتزع من هذه البيئة التي يعيش فيها عيشة هادئة في منجى من جميع تعقيدات الحياة. كان يحس أنه سيُزجّ في زوبعة الحياة مرة أخرى فيواجه أحوالًا مالية عليه أن يقيلها من عثراتها، ويحاسب الوكلاء وينخرط في مشاجرات، وتحاصره المكائد، وتضايقه العلاقات بالمجتمع الراقي، ويجابه مسألة حبّه لصونيا والوعد الذي قطعه لها. ذلك كله معقّد تعقيدًا رهيبًا، متشابك تشابكًا فظيعًا، فكان يجيب أمه برسائل تقليدية، خالية من الحرارة تبتدئ بقوله: ماما العزيزة، وتنتهي بتوقيع: ابنك المطيع. ولا تذكر شيئًا عما ينتويه في أمر عودته. وفي سنة 1810 وصلته رسالة من أهله تبلغه خطوبة ناتاشا والأمير أندريه بولكونسكي، وتأجيل الزواج سنة بسبب معارضة الأمير الشيخ. فآلمت هذه الرسالة نيقولا وآذت كرامته. فهو أولًا قد أحزنه أن يرى ناتاشا، أثيرة قلبه، تترك المنزل، وهو كضابط في سلاح الفرسان، يؤسفه أنه كان غائبًا، وإلا لأفهم بولكونسكي هذا أن مصاهرته ليست شرفًا كبيرًا، وأنه إذا كان يحب ناتاشا لاستطاع أن يستغني عن موافقة أبيه المستبد الطاغية.

وتساءل نيقولا روستوف في لحظة من اللحظات ألا يجب عليه أن يطلب إجازة ليرى ناتاشا مخطوبة، ولكن حدث أن تقرر القيام بمناورات في ذلك الحين، كما أنه فكّر في صونيا وفكر في المصاعب التي سيواجهها، فأرجأ مشروع طلب الإجازة. غير أن أمه كتبت له في ربيع تلك السنة نفسها بغير علم الكونت، فإذا هو يعزم أمره على السفر. لقد قالت له أمه في رسالتها، إنه إن لم يعد فيقبض على الأمور بيديه، فلسوف تباع جميع أملاكهم بالمزاد، وإن حالهم ستصير إلى التسوّل والاستجداء والاستعطاء. فالكونت ضعيف مسرف في الضعف، طيّب مسرف في الطيبة، يعتمد على متينكا اعتمادًا كاملًا، ويثق به ثقة مطلقة، والناس جميعًا يغشّونه غشًّا فاحشًا، فتسير الأمور من سيئ إلى أسوأ. وقالت الكونتيسة في رسالتها: «أناشدك الله أن تأتي

حالًا، أضرع إليك أن ترجع فورًا إذا كنت لا تريد أن تشقيني وتشقي الأسرة كلها».

وأحدثت هذه الرسالة في نفس نيقولا أثرها المنشود. إنه يملك ذلك الحس السليم الذي يملكه متوسطو المواهب من الناس، والذي يرسم سهم طريق واجبهم واضحًا لا لبس فيه.

لم يبق عليه الآن إلّا أن يسافر، إن لم يكن باستقالة فبإجازة. كان لا يعرف لماذا يجب عليه أن يسافر. ولكنه ما إن قام من قيلولته بعد الظهر، حتى أمر بأن يسرج «مارس»، وهو جواد فحل أشهب جامح لم يكن قد خرج منذ مدة طويلة، فلما وصل إلى بيته راكبًا على صهوة جواده المغطّى بالزبد، أبلغ لافروتكا (الجندي الخادم الذي كان يخدم دينيسوف وانتقل إلى خدمة روستوف) وأبلغ رفاقه الذين أتوا يزورونه في المساء إنه طلب إجازة ليسافر إلى أسرته.

كان يؤلمه ويدهشه أن يسافر من دون أن يعلم من هيئة الأركان - وذلك أمر يهمه كثيرًا - هل سيرقّى إلى رتبة كابتن في ختام المناورات؟ أو هل سينال وسام «القديسة حنة» في أقل تقدير؟ وكان يستغرب أن يسافر قبل أن يبيع الكونت غولوشوفسكي زلاجته التي تقودها أفراس غبراء، وهي زلاجة كان هذا البولندي يساومه على شرائها وكان هو يؤكد أنه سيبيعها بألفي روبل؛ وكان يبدو له أمرًا غير معقول ألا يحضر حفلة الرقص التي سيقيمها سلاح الفرسان لـ«بانا» برزازديكا[1] إغاظةً للأوهلان[2] الذين كانوا سيقيمون حفلة لصاحبتهم «بانا» بورزوزوفشكا! ولكنه كان يعلم علم اليقين أنه سيترك هذا العالم الممتع المبهج السهل إلى عالم كل شيء فيه مضطرب مرتبك. ووصلت الموافقة على طلب الإجازة بعد ثمانية أيام. فأقام له رفاقه، لا من فرسان كتيبته فحسب بل من فرسان اللواء كله، حفلة عشاء لتكريمه كلّفت كل فرد خمسة عشر روبلًا، وضمت فرقتَيْ عزف، وجوقتَيْ

(1) كان فرسان بافلوغراد مرابطين في مكان بإقليم كيف الذي كان جميع كبار المالكين فيه بولنديين. وكلمة «بانا» تعني باللغة البولندية «الآنسة».

(2) فرسان مرتزقة في الجيش الروسي.

غناء، ورقص فيها روستوف رقصة التريبان مع الميجر باسوف، وسكر فيها الضباط، فقبَّلوه، ثم حملوه ورجَّحوه، ثم تركوه يسقط على الأرض. وحمله جنود الكتيبة الثالثة مرةً أخرى، فرجَّحوه هاتفين «هوررررا» ثم وضعوه في زلاجته وقادوها له إلى أول محطة.

خلال الشطر الأول من رحلته، وهو الشطر الذي يمتد من كريمنتشوغ إلى كييف، ظل روستوف يعيش في فكره مع الأشياء التي تركها، كما يحدث هذا دائمًا، أي ظل يعيش مع كتيبته. ولكنه ما إن قطع نصف الطريق، حتى أخذ ينسى الترويكا التي تجرّها أفراس غبراء، والرقيب دوجويفيكو، وأخذ يتساءل، قلقًا، عما سيجده في أوترادنويا. وكان كلما ازداد قربًا من أوترادنويا، سيطرت على فكره صورة المنزل الأبوي مزيدًا من السيطرة (كأن العواطف خاضعة لقانون تسارع سقوط الأجسام تسارعًا متناسبًا مع مربّع المسافة). حتى إذا وصل إلى المحطة الأخيرة التي تليها أوترادنويا، نفح الحوذي ثلاثة روبلات بقشيشًا، فإذا بلغ المنزل صعد درجات المدخل أربعًا أربعًا كما يفعل صبي صغير، وهو يلهث لهاثًا شديدًا.

شعر نيقولا بعد حماسة الوصول الأولى بخيبة الأمل التي تجعل المرء يقول لنفسه: «هؤلاء هم كما كانوا، ولا يزال كل شيء على حاله، فما كانت حاجتي إلى ذلك الإسراع كله!». ثم عاد يألف حياة الأسرة شيئًا فشيئًا من جديد. كان أبواه على حالهما لم يتغيّرا، ولكنهما شاخا قليلًا. وكان الجديد فيهما نوعًا من قلق، وفي بعض الأحيان نوعًا من الخلاف لم يكن له وجود من قبل، وهو خلاف سرعان ما علم نيقولا أن مردَّه إلى أن الأحوال المالية في الأسرة سيئة مرتبكة.

وكانت صونيا تشارف على بلوغ الثالثة والعشرين من العمر، فلا يمكن أن تزداد جمالًا بعد الآن، ولا يمكن أن يُرجَّى لها أن تملك من الحسن أكثر مما تملك، ولكن ما تملكه كان يكفي أكبر الكفاية. وقد أصبح كل شيء فيها يشعّ سعادةً وحبًّا منذ وصول نيقولا، فكان تعلّق هذه الفتاة به ووفاؤها له وثباتها على حبه يملأ قلبه فرحًا. وكانا بيتيا وناتاشا هما اللذان أدهشاه أكبر دهشة. إن بيتيا هو الآن فتى جميل بلغ الثالثة عشرة من العمر، فتى مرح

عفريت قد بدأ صوته يتغيّر. وأما ناتاشا فقد أذهلته طويلًا، فكان يضحك كلما رآها، ويقول لها:

- ما أنت الآن ناتاشا التي أعرف.

فتجيبه سائلة:

- هل صرت دميمة؟

فيدمدم قائلًا لها:

- بالعكس. ولكني أرى فيك من الوقار ما لا عهد لي بمثله.

فتجيبه ناتاشا فرحة:

- نعم، نعم، نعم.

وروت له ناتاشا قصتها مع الأمير أندريه، وحكت له عن زيارته أوترادنويا، وأرته آخر رسالة وصلتها منه، وقالت تسأله:

- أأنت مسرور؟ إنني الآن هادئة جِدًّا، سعيدة جِدًّا.

فأجابها نيقولا قائلًا:

- مسرور جِدًّا. إنه فتى ممتاز. هل أنت مغرمة به؟

فأجابت ناتاشا:

- ما عساني أقول لك؟ لقد أُغرمت ببوريس، وبأستاذي، وبرينيسوف، ولكن عاطفتي الآن تختلف كل الاختلاف عن كل ما سبقها. أنا الآن هادئة. أنا الآن واقفة على أرض صلبة، أعرف أنه لا رجل خير منه، فأشعر من ذلك بطمأنينة كبيرة وسعادة عظيمة.

كاشفها نيقولا بما أحدثه تأجيل الزواج في نفسه من استياء، ولكن ناتاشا هاجمته هجومًا عنيفًا، موضحةً أن التأجيل كان أمرًا لا معدى عنه، وأنها لا ترضى أن تدخل أسرةً على كره من الأب، وأنها هي نفسها أرادت التأجيل. وختمت كلامها قائلة:

- إنك لا تفهم من هذا الأمر شيئًا البتة.

فصمت نيقولا موافقًا على رأيها.

وكثيرًا ما كان يدهش حين ينظر إليها. إنها لا تشبه خطيبة ولا هي منفصلة عن خطيبها. إنها متساوية المزاج، هادئة، مرحة كمرحها من قبل.

فكان ذلك يثير دهشة نيقولا، بل كان ذلك يبعث في نفسه شيئًا من الريبة في نيَّات بولكونسكي. لم يصدِّق أن مصير ناتاشا قد تقرر وانتهى الأمر، لا سيما وأنه لم يرها مع الأمير أندريه في يوم من الأيام. كان يبدو له دائمًا أن في مشروع الزواج هذا شيئًا يعرج. كان يتساءل: «لِمَ هذه المهلة؟ لمَ لم يُحتفل بالخطوبة احتفالًا رسميًا؟». وفي ذات يوم، حين كان يكلّم أمه في أمر أخته، لاحظ مدهوشًا، ومسرورًا بمعنى من المعاني، أن أمّه كانت في قرارة نفسها تشاطره ارتيابه في أمر هذا الزواج أحيانًا. قالت له أمه وهي تريه رسالة من الأمير أندريه، إنها تحسّ بتلك الشعور الخفي بالعداوة الذي تحسّه جميع الأمهات حين تتصوّر سعادة بناتهن الزوجية في المستقبل:

- ها هو ذا يكتب أنه لن يستطيع العودة قبل شهر كانون الأول (ديسمبر)؟ أي عمل يحتجزه؟ لا بد أن المرض هو الذي يمنعه من المجيء. إن صحته سيئة جِدًّا. لا تحدِّث ناتاشا بشيء عن هذا الأمر. لا تثق بما تراه فيها من مرح. إنها تعيش أواخر أيام عزوبتها ولكنني أعلم أنها تتألّم كلما وصلتها منه رسالة.

وكانت الأم تختم كلامها في كل مرة بقولها:

- على كل حال، سيجري كل شيء مجرّى حسنًا إذا أراد الرب ذلك. فهو شاب ممتاز.

الفصل الثاني

بدا نيقولا في المدة الأولى من إقامته شديد الرصانة بل متجهم الوجه، فقد كانت تعذبه وتقلقه ضرورة التدخل في تلك القضايا المالية السخيفة التي استدعته أمه لحلّها، فمن أجل أن يتخلّص بأقصى سرعة من هذه السخرة المقيتة، اتجه غداة وصوله وهو يفور ويغلي غضبًا، ولا يعرف إلى أين هو ذاهب، اتجه إلى مسكن ميتنكا، وطالبه بأن يقدّم إليه «حسابات عن كل شيء». وكان نيقولا لا يعرف لقوله «حسابات عن كل شيء» أكثر مما كان يعرفه ميتنكا نفسه لهذا القول من معنى، فلما طلب منه نيقولا ذلك، طاش صوابه وارتبك ارتباكًا شديدًا. ولم تطل أيضَاحات متينكا وحساباته. كان رؤساء إدارة القرية ينتظرون في غرفة المدخل خائفين ومسرورين في آن واحد، فيسمعون صوت الكونت الشاب يؤنب ويرعد ثم يعلو ويعلو مزيدًا من العلو إلى أن أخذ يمطره بوابل من المسبّات والشتائم.

– لص! حيوان عقوق!... لأقطعنّك إربًا إربًا يا كلب!... لترينَّ مني ما لم تره من أبي يا سارق.. إلخ.

ثم رأى هؤلاء الناس أنفسهم، خائفين مسرورين أيضًا، رأوا الكونت الشاب، وقد احمرّ وجهه احمِرارًا شديدًا، واحتقنت عيناه بالدم، ويمسك تلابيب ميتنكا ويجرّه على الأرض، ويستمر في سبّه وشتمه وركله ركلات محكمة بالقدم وضربات بالركبة على ظهره صائحًا: «اخرج، ولا تطأنّ قدماك هذا المكان أبدًا يا وغد، يا نصّاب!».

تدحرج ميتنكا على الدرجات الست بأقصى سرعة يستطيعها، وهرب يختفي في أجمة شجر (كانت هذه الأجمة هي الملجأ الذي يعتصم به

المذنبون في أوترادنويا وكان ميتنكا نفسه يلوذ بها حين يرجع من المدينة سكران، كما يلوذ بها كثير من سكان أوترادنويا الذين يريدون أن يتواروا عن أنظار ميتنكا إنقاذًا لأنفسهم منه).

وقد أخرجت امرأة ميتنكا وكنَّاته رؤوسهن المذعورة من باب غرفتهن التي كان يغلي فيها ماء سماور مجلو ملمَّع، وينتصب فيها سرير الوكيل حاليًا مغطى بغطاء مضلّع مصنوع من قطع مضاف بعضها إلى بعض، فمر الكونت الشاب أمامهن لاهثًا سائرًا بخطو جازم من دون أن يوليهنَّ انتباهًا، وعاد إلى المنزل.

وسرعان ما علمت الكونتيسة من الخادمات بما حدث في مسكن ميتنكا، فاطمأنت من جهة قائلة لنفسها إن شؤون الأعمال ستتحسّن حالها بعد الآن، وآلمها في الوقت نفسه ما سببه هذا كله لابنها من غيظ واضطراب. حتى لقد سارت إلى بابه على رؤوس الأصابع عدة مرات تتنصّت، فسمعته يدخن غليونًا بعد غليون.

وفي الغد انتحى الكونت الشيخ بابنه جانبًا وقال له وهو يبتسم ابتسامة خجلى:

- يا بني العزيز، إنك غضبت لغير ما سبب يدعو إلى الغضب. لقد حكى لي متينكا كل شيء.

قال نيقولا لنفسه: «كنت أعلم هذا حق العلم، لن يمكنني أن أفهم شيئًا في هذا العالم الذي فقد عقله».

وتابع الكونت الشيخ كلامه فقال:

- لقد زعلت ذلك الزعل كلّه، لأنه لم يسجّل تلك السبعمائة روبل. والواقع أنها مسجلة في الصفحة التالية، ولكنك لم تنظر في الصفحة التالية.

قال نيقولا:

- بابا! هذا نصَّاب وسارق. أنا من ذلك على يقين كامل. ولكنني لن أقول بعد الآن كلمة واحدة إذا شئت.

فقال الكونت الشيخ، وكان هو نفسه متضايقًا، وكان يعلم أنه يسيء إدارة

ثروة زوجته، ويحس بأنه مذنب في حق أولاده، ولكنه لا يدري كيف يصلح الحال:

- لا يا صديقي لا، إنني أطلب منك أن تعنى بشؤون أعمالنا، فأنا شيخ، وأنا....

- سامحني يا بابا إذا كان اندفاعي قد ساءك، إني في هذه الأمور أقل منك فهمًا وخبرة.

وقال لنفسه: «ليذهبوا إلى الشيطان هم وهؤلاء الفلاحون وهذا المال وهذه التسجيلات في الصفحات التاليات... لقد مر بي وقت كنت أفهم فيه مضاعفة الحطة ست مرات في القمار... أما هذه التسجيلات في الصفحات التاليات فلست أفهم من أمرها شيئًا». ومنذ ذلك الحين أصبح لا يتدخل في أي أمر من الأمور. مرة واحدة استدعته الكونتيسة وقالت إن عندها سندًا على آنا ميخائيلوفنا بمبلغ ألفي روبل، وسألته ماذا ينوي أن يفعل بهذا السند. فأجابها نيقولا:

«تقولين إن الأمر رهن بإرادتي، فاعلمي أنني لا أحب آنا ميخائيلوفنا، ولا أحب بوريس، ولكنهما كانا على صلة وثيقة بنا، وهما فقيران، وإليك ما أرى أن علينا أن نفعله...».

قال ذلك ومزق السند، فأخذت الكونتيسة العجوز تبكي ناشجة من الفرح. وبعد ذلك أصبح نيقولا لا يحشر نفسه في أمر من الأمور، وشغفه صيد المطاردة بالكلاب شغفًا شديدًا، فاندفع في هذه التسلية الجديدة عليه، وهي تسلية كانت عند الكونت رائجة رواجًا كبيرًا.

الفصل الثالث

التجلّدات الأولى البيضاء تحدّق بالأرض التي بلّلتها أمطار الخريف، وقمح الشتاء أخذ ينعقد فاخضراره الزاهي يناقض لون حشف المحاصيل القديمة السابقة. أشرطة سمراء من قمح الخريف داستها الدواب، وأشرطة صفراء فاتحة من القمح الجديد تخددها خطوط حمراء من السيقان الحمر، سيقان الحنطة السوداء. وذرى الأشجار والغابات التي كانت في نهاية شهر آب (أغسطس) لا تزال جزرًا صغيرة من خضرة بين الحقول السوداء وحشف الزرع المحصود، هي الآن جزر صغيرة من ذهب وأرجوان بين نبت قمح الشتاء الذي يشبه لونه لون الزمرد. والأرنب البري أخذ يفقد زغبه، و«يتوسّخ» على تعبير الصيادين؛ ومواليد الثعالب بدأت تفرح وتطرب؛ وصغار الذئاب تجاوزت قاماتها قامات الكلاب. هذه أحسن فترة للصيد. ولكن رهط الكلاب الذي يملكه الشاب الغائر من فرط تعبه غير متأهب للانطلاق إلى الصيد، فقرر مجلس الصيادين أن يمهلوه ثلاثة أيام ليرتاح، ثم ينطلقون إلى الصيد في اليوم السادس عشر من شهر أيلول، مبتدئين بغابة البلوط التي ذُكر أن فيها بطنًا من الذئاب لما يمسسه أحد بعد.

تلك كانت الحال في اليوم الرابع عشر من شهر أيلول (سبتمبر).

ولم يخرج موكب الصيد طوال ذلك النهار. كانت الأرض تتجلّد، وكان البرد قارصًا[1]. ولكن المناخ لطيف في المساء، حتى اذا كان صباح اليوم

---

(1) هذا آخر شهر أيلول، فاليوم الرابع عشر في التقويم القديم هو اليوم السادس والعشرون في التقويم الجديد، والجليد يبدأ منذ ذلك الوقت في روسيا.

الخامس عشر، نظر الشاب روستوف من النافذة وهو مرتدٍ ثوب المنزل، فرأى أن الجو أفضل جو يمكن أن يحلم به المرء للصيد، هي حركة هبوط ذرات صغيرة من الضباب؛ قطرات شفافة من الندى تتلألأ على الأغصان العارية في الحديقة، وتتدحرج على أوراق الأشجار التي سقطت منذ مدة قصيرة؛ أرض البستان تلتمع بسواد بذور الخشخاش، ثم تغيب الوراء حجاب الضباب الكابي الرطب.

خرج نيقولا إلى درجات الباب المبتلّة التي تغشاها آثار خطى موحلة. إن رائحة الأوراق الذابلة تمتزج برائحة الكلاب. ها هي ذي كلبته «ميلكا»، وهي كلبة سوداء مبقّعة عريضة المؤخرة، لها عينان سوداوان بارزتان تقوم حين ترى مولاها، فتتمطّى ثم تضّطجع اضّطجاع أرنب، ثم تثب إليه فجأة، فتلحس أنفه وشاربه. وهذا كلب سلوقي آخر يلحظ مولاه من خلال أجمات الأزهار، فيقوِّس ظهره، ويندفع إلى درجات الباب اندفاع السهم، فيشهر عليه نيقولا السوط، فيقبع الكلب بين ساقيه يحك بهما جسمه.

وفي تلك اللحظة دوَّت تلك الصرخة التي لا سبيل إلى تقليدها، صرخة الصيادين التي تجمع بين أعمق صوت جهير وأحدِّ صوت حاد:

- آووووو! آووووو!...

وهذا دانيلو، أول قائد لكلاب الصيد، ينبجس من زاوية المنزل. إن شعره مقصوص على الطريقة الاوكرانية، ووجهه ملوَّح مغضَّن، وعلى يده يلتف سوط طويل، وفي هيئته ما يُعبِّر عن روح الاستقلال والاحتقار الشديد التي يبدو أنها وقف على الصيادين. وقف دانيلو أمام سيده رافعًا طاقيته الشركسية، ورشقه بنظرة ازدراء. ليس في هذا الازدراء شيء يسوء أو يهين، إن نيقولا يعلم أن دانيلو هذا الذي يحتقر كل شيء، ويضع نفسه في منزلة أعلى من منازل الناس جميعًا، ليس في آخر الأمر إلّا رجلًا من رجاله، وليس إلّا قائدًا لكلابه من على صهوة حصانه.

قال نيقولا وقد رأى هذا الجو الذي لا يفضله جو للصيد، ورأى كلابه، ورأى قائد كلابه الأول، فشعر بذلك الشغف العارم الذي يستبد بالصياد فلا

يستطيع أن يقاومه، حتى لينسيه هذا الشغف مشاريعه السابقة، مثله كمثل العاشق يلقى عشيقته:

- دانيلو!

فسأله دانيلو بصوت جهير خفيض يليق برئيس شمامسة، صوت صار أبحَّ أجش من فرط ما صرخ يحضّ الكلاب:

- ما أوامرك يا صاحب السعادة؟

ومن عينيه الساطعتين السوداوين رشق مولاه بنظرة من تحت. وكان مولاه قد صمت لا يجيب. وقال نيقولا أخيرًا وهو يحك «ميلكا» خلف أذنيه:

- نهار جميل، أليس كذلك؟ جميل للصيد، وللسباق كليهما.

فلم يجب دانيلو وطرف بعينه، ثم استأنف يقول بصوته الجهير بعد لحظة صمت:

- أرسلت أوفاركا[1] يتنصّت في الغابة منذ الفجر، فقال «إنها» نقلتهم إلى ذخر غابة أوترادنويا، فهناك إنما سمعت عواءهم. (يقصد بذلك أن الذئبة التي كانا كلاهما يعرفان بوجودها قد انتقلت بصغارها إلى غابة أوترادنويا التي تقع على مسافة فرسخين من المنزل، وهي في الواقع بقية صغيرة من غابة).

قال نيقولا:

- يجب أن نذهب إليها، أليس كذلك؟ تعال إليَّ مصطحبًا لافروشكا.

- أمرك مطاع.

- وانتظر لتعطي الكلاب طعامها.

- طبعًا.

وما انقضت خمس دقائق حتى كان دانيلو وأوفاركا في المكتب الواسع الذي يشغله نيقولا. إن رؤية دانيلو في غرفته، رغم قصر قامته، يحدث في

---

(1) تصغير اسم أوفار، وهو اسم نادر.

النفس ذلك الإحساس الذي يحسّه المرء إذا رأى حصانًا أو دبًا في غرفة أرضها من خشب، وفيها أثاث، فهو في مكان تتهيأ فيه شروط المعيشة لإنسان لا لحصان أو دب. وكان دانيلو نفسه يحسّ بهذا الإحساس، فكان على عادته يقف عند الباب، محاولًا أن يتكلّم بأخفت صوت ممكن، وألا يتحرك، مخافة أن يحطم شيئًا في منزل سادته متعجلًا قول كلِّ ما يريد أن يقوله ليفلت إلى الهواء الطلق بأقصى سرعة.

فما إن انتهى نيقولا من إلقاء الأسئلة الضرورية، وانتزع من دانيلو اعترافًا بأن حال الكلاب، ليست سيئة (وكان دانيلو نفسه يرغب في المضي إلى الصيد) حتى أمر بإسراج الخيول. ولكن بينما كان دانيلو يهم أن يخرج، إذ دخلت ناتاشا لا مسرِّحة شعرها ولا مرتدية ثيابها، دخلت بخطى سريعة، والوراءها بيتيا وقالت تسأل أخاها:

- ماضٍ إلى الصيد، أليس كذلك؟ كنت موقنة بهذا؟ قالت صونيا إنك لن تمضي إلى الصيد اليوم، ولكنني كنت أعلم أنه يستحيل ألا يغريك الذهاب إلى الصيد في مثل هذا الجو الجميل!

أجاب نيقولا على مضض، وهو ينوي جادًّا أن يصطاد في هذا اليوم، ولا يحرص على أن يصطحب ناتاشا وبيتيا:

- نعم، ماضون إلى الصيد، ولكننا لن نزيد على أن نطارد الذئب، وهذا يضجرك.

قالت ناتاشا:

- إن مطاردة الذئب بالكلاب أكبر مسرة لي. ليس حسنًا منك أن تنوي الذهاب إلى الصيد، وأن تأمر بإسراج الخيول، ولا تقول لنا شيئًا.

وصاح بيتيا قائلًا:

- «لا عقبات تقف، في طريق الروس»[1]. هلمّوا بنا!

قال نيقولا لناتاشا:

- لكنك لا تستطيعين أن تصحبينا، ماما لا تريد هذا.

---

(1) مطلع الغنائية التي نظمت لباغراتيون، وقد وردت سابقًا.

- بل سأصحبكم، سأصحبكم حتمًا.

بذلك أجابت ناتاشا جازمة قاطعة. وأردفت تخاطب دانيلو قائلة:

- دانيلو، مُرْ بإسراج خيولي، وليأتني ميخائيلو بكلابي السلوقية.

إذا كان دانيلو يكره أشد الكره أن يكلّم آنسة. فها هوذا يخفض عينيه، ويخرج مسرعًا كأن هذه الكلمات التي سمعها لا شأن له هو بها، محاولًا ألا يصدم مولاته الشابة وهو ينطلق خارجًا بهذه السرعة الشديدة.

الفصل الرابع

للكونت الشيخ دائمًا طقم كبير للصيد عهد الآن بإدارته إلى ابنه، وكان يشعر في ذلك اليوم، يوم 15 أيلول (سبتمبر)، بانشراح وفرح، فقرر أن ينضمَّ هو أيضًا إلى ركب الصيادين.

فما انقضت ساعة حتى كانت عناصر الصيد كلّها قد تجمعت أمام درجات الباب. ومرَّ نيقولا أمام ناتاشا وبيتيا عابسًا من دون أن يحفل بما أرادا أن يقولا له. مشيرًا بذلك إلى أن الوقت ليس وقت لغو وسفاسف. فبعد أن تثبّت بالتفصيل من أن كل شيء جاهز وبعد أن أرسل إلى الأمام رهطًا من الكلاب مع عدد من الحائشين، ركب حصانه «دونتس»، وصفَّر لرهط كلابه، وسار في الحقول التي تفضي إلى ذخر غابة أوترادنويا. وكان سائس الكونت الشيخ يقود له حصانه «فيفليانكا»، وهو حصان أشقر خصي صغيرًا ذو عرف أبيض، لأن الكونت الشيخ سيذهب بالعربة رأسًا إلى المكان الذي خُصَّ به ليرابط فيه.

كان عدد الكلاب المطاردة أربعة وخمسين يسيِّرها ستة قادة راكبين أفراسهم، وكان عدد الذين يسيِّرون الكلاب السلوقية ثمانية يحركون أربعين كلبًا، فبذلك تكون أسراب الكلاب التي تحرّكت مع الأسياد يبلغ عددها زهاء مائة وثلاثين كلبًا مع عشرين صيّادًا.

وكان كل كلب يعرف سيده، ويعرف اسمه. وكان كل صياد يعرف دوره ويعرف المركز الذي سيرابط فيه. ومنذ أن اجتاز الركب السور أخذ الجميع يتمطّون في هدوء، وبغير ضجة، ومن دون كلام، في فترات منتظمة مطردة على الطريق والحقول المؤدية إلى أوترادنويا.

الخيول تسير في الحقول سيرها على بساط رخو؛ ولكنها تتخبّط في الغدران عند تقاطع الطرق. وضباب السماء لا يزال يهبط إلى الأرض شيئًا فشيئًا. والهواء ساكن رطب صامت. ومن حين إلى حين يُسمع صفير صياد أو حمحمة حصان، أو طقطقة سوط أو نباح كلب يهاب به أن يلتزم النظام.

حتى إذا قطع الركب قرابة فرسخ، انبجس من الضباب خمسة فرسان جُدُد تصحبهم كلابهم، وأقبلوا على ركب آل روستوف. كان يسير في مقدمتهم شيخ جميل الطلعة لا يزال قوي البنية له شاربان أبيضان.

قال نيقولا حين وصل الشيخ إليه:

- صباح الخير يا عم.

فقال العم (وهو يمت بقرابة بعيدة إلى آل روستوف، وليس واسع الثراء، وتجاور أراضيه أراضيهم):

- المسألة واضحة، إلى الأمام سِرْ... كنت واثقًا، كنت موقنًا بأنك لن تقاوم رغبة الخروج إلى الصيد. حسنًا فعلت. المسألة واضحة، إلى الأمام سر! (هذه جملة أثيرة عند العم يكثر من ترددها). هاجم ذخر الغابة فورًا. لقد أبلغني لي جيرتشيك أن آل إيلاجين مرابطون مع طقم الصيد في كورنيكي. سوف يسلبون منك الذئاب. المسألة واضحة، إلى الأمام سر!

- إلى هناك إنما نحن ذاهبون. هل نجمع أسراب الكلاب؟ هيا لنجمعها...

جمعوا الكلاب. رهطًا واحدًا، وسار نيقولا والعم جنبًا إلى جنب ولحقت بهما ناتاشا متدثّرة بشالات ينبجس منها وجهها المتوقد حياة بعينيه الساطعتين، ولحق بها خببًا يخفرها بيتيا وقائد الكلاب ميخائيلو الذي كلّفته خادمتها العجوز بحراستها، فكان لا يبتعد عنها خطوة واحدة. وكان بيتيا يضحك وهو يهمز الحصان ويحضه على الإسراع. وكانت ناتاشا منتصبة القامة بحذق وثقة على ظهر حصانها الأسود «آرابتشيك». حتى إذا بلغت أخاها والعم، أوقفت حصانها بحركة بارعة من غير جهد.

رشق العم بيتيا وناتاشا بنظرة استنكار. كان العم لا يحب أن يمزج المزاح بهذا الأمر الذي ليس فيه إلّا جد، أعني الصيد.

هتف بيتيا يقول:
- صباح الخير يا عم؛ نحن أيضًا جئنا.
فقال العم بلهجة قاسية:
- صباح الخير، صباح الخير، ولكن إياكم أن تدوسوا الكلاب.
وقالت ناتاشا لأخيها مادحة كلبه الأثير في نفسه:
- نيقولا، ما أجمل «ترونيلا» يا له من حيوان!
فقال نيقولا محدِّثًا نفسه: «أولًا، ترونيلا ليس حيوانًا بل هو كلب»، ورشق أخته بنظرة قاسية ليجعلها تشعر بالمسافة التي يجب أن تفصلها في هذا الوقت. وقد أدركت ناتاشا ذلك، وقالت:
- لا تظنَّ يا عمي أننا سنكون عبئًا عليكم. سوف نرابط في مكاننا، فلا نتحرّك منه.
قال العم:
- هذا أفضل يا عزيزتي الكونتيسة الصغيرة. ولكن حاذري أن تسقطي عن ظهر الحصان. وإلا فالمسألة واضحة: إلى الأمام سر! ليس في إمكان أحد أن يتدارك الأمر.
ها هي الجزيرة الصغيرة التي تتألف منها بقية غابة أوترادنويا تُرى على مسافة مائتي متر، وكان رؤساء أسراب الكلاب قد بلغوها.
اختار نيقولا، مستعينًا بالعم، أحسن مكان تبدأ منه الكلاب مطاردتها، حتى إذا فرغ من هذا الاختيار بعد طول درس، أشار لناتاشا إلى المكان الذي يجب أن ترابط فيه والذي لا يمكن أن يمرَّ به حيوان، وولج الغابة من أعلى الوادي.
قال العم:
- انتبه يا ابن أخي، سوف تواجه حيوانًا كبيرًا، فحذار أن تدعه يفلت.
أجاب روستوف:
- سوف نرى.
وصاح ينادي رادًّا على أقوال العم:
- «كاراي»، تعال إلى هنا.

إن «كاراي» كلب أسمر مسن دميم، ولكنه اشتهر بأنه قادر على أن يهاجم وحده ذئبًا بالغًا. والتحق كل واحد بمركزه الذي حُدِّد له.

وكان الكونت الشيخ الذي يعرف حماسة ابنه للصيد، قد حرص على ألا يصل متأخرًا، فما إن رابط الصيادون في أماكنهم حتى كانت مركبة إيليا آندريتش التي تجرها الخيول السوداء خببًا على حقول القمح المعشب تصل به إلى المكان الذي عُيِّن له، متهلّل الأسارير، منشرح المزاج، متورّد الوجه، متهدّل الخدين. حتى إذا أحكم التدثر بفروته، ووضع عدة الصيد، امتطى صهوة فرسه «فيفليانكا»، وهي فرس وادعة من جياد الخيل، شبعة، لمّاعة، كانت تشيب مثله. وصُرفت العربة. إن الكونت الشيخ يتقن معرفة قوانين الصيد إتقانًا عميقًا، من دون أن يكون صيادًا بروحه. وقد مضى يرابط عند حافة الغابة، جامعًا أزمّة الفرس، منتصبًا على ظهرها انتصابًا بارعًا، حتى إذا أحس بأنه أصبح متأهبًا تأهبًا تامًّا، نظر حواليه مبتسمًا.

كان جاره خادمًا اسمه سيميون تشكمار، وهو فارس قديم أصبح الآن ثقيل الحركة. إن تشكمار يمسك أرسان ثلاثة كلاب جريئة من كلاب الحراسة، ولكن الكلاب كانت كالحصان ومولاها قد سمنت وثقلت. وكان كلبان آخران مسنَّان من كلاب الحراسة راقدَيْن على الأرض بلا رسن. وعلى بعد مائة خطوة عند طرف الغابة كان يرابط سائس آخر من ساسة خيول الكونت، هو ميتكا، الفارس الجسور والصياد المولع بالصيد أشد الولع. إن الكونت قد شرب قبل الرحيل شيئًا من الفودكا مع البهار بإناء من فضة، وأكل وجبة خفيفة احتسى معها نصف زجاجة من خمرة بوردو المفضّلة عنده، عملًا بتقاليد قديمة.

فكان من نتائج تلك الوجبة وهذه الرحلة أن تورّد وجه إيليا آندريتش، والتمعت عيناه الرطبتان التماعًا خاصًّا، فكان - وهو قاعد على سرج حصانه متدثّرًا بمعطفه - أشبه بطفل سيصطحبونه في نزهة.

وكان تشكمار النحيل الجسم، الخاسف الخدين، بعد أن قام بواجبه وأنهى مهمته، ينظر إلى مولاه الذي يعيش معه منذ ثلاثين عامًا في تفاهم

تام، فيحسّ بأنه رائق المزاج، فيتوقع أن يدور بينهما حديث ممتع. واقترب شخص ثالث محاذرًا آتيًا من الغابة (كان واضحًا أنه أحسن تدريبه)، ووقف الوراء الكونت. هو عجوز ذو لحية بيضاء، فضفاضًا متموجًا، ويضع على رأسه طاقية عالية. إنه المهرِّج الذي أطلق عليه لقب هو اسم امرأة: ناستاسيا إيفانوفنا.

دمدم الكونت يقول غامزًا:

- هيه ناستاسيا إيفانوفنا. إياك أن تخيف الحيوان، وإلا كان لك شأن مع دانيلو!

قال ناستاسيا إيفانوفنا:

- أنا أيضًا أعرف كيف أدافع عن نفسي.

دمدم الكونت:

- شْتْ... والتفت إلى سيميون يسأله:

- هل رأيت ناتاليا إيلينيشنا؟ أين هي؟

- إنها ترابط مع بطرس إيلتش قرب أدغال جاروف. إنها سيدة، نعم، ولكنها تحب الصيد هي أيضًا.

كذلك أجاب سيميون مبتسمًا. فقال الكونت يردُّ عليه:

- ويدهشك هذا يا سيميون؟ انظر كيف تنتصب على صهوة الحصان، إنها لتفوز على رجل.

- كيف لا أدهش؟ يا لجسارتها ما أعظمها!

صار الكونت سائلًا بصوت لا يزال خافتًا:

- ونيقولا؟ أين هو؟ لا بد أنه عند وادي ليادوف؟

فأجاب سيميون الذي يعرف كيف يحسن التحدّث لإبهاج مولاه:

- تمامًا. إنه يعرف أين يرابط. وهو إلى ذلك فارس يبلغ من الكياسة ما يذهلنا أحيانًا عن أنفسنا أنا ودانيلو.

- يجيد ركوب الخيل، هيه؟ وما أجمله على السرج!

- لوحة رائعة من لوحات كبار المصوِّرين! ليتك رأيته يثب تلك الوثبات

في ذلك اليوم، حينما كان يجفِّل ثعلبًا لإخراجه من مكمنه في أسيجة زافاردينو. ثمن الفرس ألف روبل، ولكن الفارس لا يقدَّر بثمن. ليس سهلًا أن يجد المرء فارسًا مثله.

قال الكونت آسفًا أسفًا واضحًا على أن سيميون لم يقل أكثر مما قال:

– نعم، ليس سهلًا أن يجد المرء فارسًا مثله...

وعاد يكرر هذه الجملة نفسها وهو يزيح حافة فروته ويُخرِج كيس سعوطه:

– نعم، ليس سهلًا أن يجد المرء فارسًا مثله....

– في ذات يوم، منذ مدة قصيرة، كان خارجًا من الصلاة في أجمل حلة، فإذا ميخائيل سيدورتش...

ولم يكمل سيميون جملته، لأنه سمع ركض ونباح كلبين أو ثلاثة لا أكثر، سمعًا واضحًا في الهواء الساكن، فمال برأسه، وأصاخ بسمعه، وأشار لمولاه من دون كلام أن لا يحدث أية ضجة، وتمتم يقول:

– وقعوا على الذئاب، فهم يطاردونهم عند وادي ليادوف.

نسي الكونت أن يزيل الابتسامة عن أسارير وجهه، ونظر إلى بعيد أمامه، ممسكًا كيس سعوطه بيده من دون أن ينشق منه. وبعد نباح الكلاب سمع صوت البوق ينفخ فيه دانيلو مستنفرًا الذئب، فانضم رهط الكلاب إلى الثلاثة الأُول، وسمع عويل الضراء كأنها تولول ناشجة، وتلك علامة على أنها تطارد الذئب. لم يبق على ساسة الكلاب أن يحرِّضوها، ولكنهم كانوا يهتفون صائحين: «هارلووو!»، وكان صوت دانيلو، الأجش تارة، الحادّ تارة أخرى، يعلو سائر الأصوات، حتى لكأنه يملأ الغابة كلها، ويفيض عنها وينتشر بعيدًا في الحقول.

وأدرك الكونت وسائسه، بعد أن أصاخا بسمعهما صامتَيْن، أن الكلاب انقسمت فئتين: ففئة، وهي الفئة الأكبر التي كانت تعوّل بحماسة شديدة خاصّة، تبتعد شيئًا فشيئًا، وفئة تمرُّ أمام الكونت بأقسى سرعة تقطع الغابة من أولها إلى آخرها، وبينها إنما كان يُدوَّى حداء دانيلو صائحًا: «هارلووو!».

وتداخلت جلبة الفئتين واختلطت. ولكنّ الرهطين كليهما كانا ينأيان. وتنهد سيميون ومال على الأرض ليزيح رسنًا كان كلب قد اشتبك به. وتنهد الكونت أيضًا، فلما لاحظ أنه ممسك كيس سعوطه بيده، فتحه ونشق منه نشقة.

صرخ سيميون ناهرًا كلبًا كان مقبلًا على تخوم الغابة:

- ابتعد.

وانتفض الكونت، وسقط كيس السعوط من يده، فنزل ناستاسيا إيفانوفنا عن حصانه، ورفع كيس السعوط عن الأرض.

وبينما كان الكونت وسيميون ينظران إليه إذ اقتربت جلبة الرهط على الفور فجأة، كما يحدث هذا كثيرًا، حتى لكأنهما يريان أفواه الكلاب يخرج منها النباح، ويريان دانيلو يطلق صيحاته أمامهم، أدار الكونت رأسه، فإذا هو يرى ميتكا ينظر إليه جاحظ العينين، رافعًا قبعته، مشيرًا له إلى شيء في الأمام بالجهة الآخرى، صائحًا بصوت يدل على أن هذه الصرخة قد كظمت وهلة طويلة ثم انفجرت:

- حذار!

وأطلق كلابه، وأقبل على مولاه بفرسه عدوًا سريعًا.

ترك الكونت وسيميون حافة الغابة، ورأيا الذئب على يسارهم وهو يترجّح ترجحًا رخوًا ويتجه بوثبات صغيرة إلى تلك الحافة نفسها التي تركاها قبل لحظة. وأعولت الكلاب الحانقة وانتزعت نفسها من أرسانها، وسارت إلى الذئب تحت أرجل الخيول.

توقف الذئب عن جريه فجأة، ولفت رأسه العريض الجبهة إلى جهة الكلاب بحركة خرقاء، كمريض مصاب بالتهاب في حلقه، ثم وثب وثبة أولى فوثبة ثانية وهو يحرك ذيله ولا يزال يترجح ترجّحًا رخوًا، وغاب في أسيجة الغابة. وفي تلك اللحظة نفسها انبجست من طرف الغابة الآخر كلاب تعول، ظهر منها، واحدٌ فثانٍ فثالثٌ، ثم ظهر رهطها كلّه راكضًا خلال الحقول، إثر الذئب. ثم انشقت أدغال شجر البندق، وظهر حصان دانيلو مسودًا من فرط العرق. كان دانيلو حاسر الرأس قد تشعّث شعره الأشيب

على وجهه الأحمر السابح في العرق، ومال بجسمه إلى أمام، وتجمّع ظهره الطويل كرة على ظهر حصانه. وكان ما ينفك يهتف صائحًا:

- هارلووو! هارلووو! هارلووو!

ولكنه حين لمح الكونت قدحت عيناه شررًا، وصاح يقول شاهرًا سوطه عليه مهددًا إياه به:

- تركوا الذئب يفلت! يا لهم من... صيادين!

وكمن لا يحبّ أن يتنازل فيقول للكونت الخجِل المرتاع أكثر مما قال، ضرب جانبي حصانه الخاسفين المبلين ضربًا أودعه كل الغضب المتراكم في قلبه من الكونت، وأوغل مسرعًا في إثر كلابه. وكأن الكونت أحس بأنه عوقب، فنظر حواليه محاولًا أن يستدر عطف سيميون. ولكن سيميون كان قد تركه ومضى يلتفّ حول أرومات الأشجار المقطوعة محاولًا أن يقطع الطريق على الذئب، وكانت الكلاب السلوقية تطارد الذئب أيضًا من الجهتين، ولكن الذئب توغّل في الأدغال الكثيفة، ولم يستطع أحد من الصيادين أن يسد عليه دربه.

الفصل الخامس

في أثناء ذلك كان نيقولا روستوف لا يزال مرابطًا في مكانه ينتظر الذئب. لقد كان يدرك ما يجري في الغابة، من اقتراب ركب الصيد أو ابتعاده، ومن تنوّع نباح الكلاب التي كان يعرف أصواتها، ومن مسافة صيحات الحائشين وكثافتها. وكان يعلم أن في الغابة ذئابًا صغارًا، وذئابًا كبارًا. وكان يعلم أن الكلاب انقسمت فئتين، وأن ذئبًا لوحق وأن حادثًا طرأ، فكان يتوقّع في كل لحظة أن ينبجس بقربه ذئب، وراح يفترض ألف افتراض عن المكان الذي قد ينبجس منه الذئب، وعن الطريقة التي سيفوز عليه بها. وكان يتوزّعه الأمل واليأس. فتارة يتفاءل، وتارة يتشاءم. حتى لقد دعا ربه عدة مرات أن يبعث إليه الذئب. وكان في أدعيته وصلواته إلى الرب حرارة شديدة تكاد أن تكون مخجلة، كالأدعية والصلوات في لحظات لا تناسب فيها بين الأسباب التافهة والاهتياج القوي. كان يقول مناجيًا ربه: «ربّي ماذا يكلّفك أن تصنع لي هذا الجميل؟ إني لأعلم يا رب أنك عظيم جبار، وأن طلبي هذا إثم وخطيئة. ولكنني أبتهل إليك يا رب. اجعل لي ذئبًا كبيرًا ينقضّ نحوي، فينقضّ «كاراي»، على عنقه وينشب فيه أنيابه، على مرأى من العم الذي ينظر هناك». وفي أثناء نصف ساعة أجال روستوف عينيه ألف مرة بنظرة عنيدة مشدودة قلقة على تخوم الغابة، وعلى شجرتي السنديان الهزيلتين المنبجستين بين طائفة من شجيرات الحور الرجراج، وعلى الوادي المتآكلة أطرافه، وعلى طاقية العم التي لا تكاد تُرى الوراء دغل على اليمين. فكان يقول لنفسه: «لا، لن يكون لي هذا الحظ. ومع ذلك، ماذا يكلّف الربّ أن يرسل إليَّ الذئب. لا، لن أفوز بهذا الحظ لقد كان النحس نصيبي في كل

شيء، في القمار، وفي الحرب!». وطافت في خياله صور حرب أوسترلتز، وصورة مقامرته مع دولوخوف، وهي صور واضحة لكنها سريعة عابرة. «ألا فلأستطع مرة واحدة في حياتي أن أقهر ذئبًا ضخمًا. ولست أطمع في أكثر من هذا!». كذلك كان يقول لنفسه، مادًّا أذنيه، فاتحًا عينيه، ملقيًا نظراته إلى اليمين تارة وإلى الشمال تارة، مصيخًا سمعه لأضعف ترجّع للضجيج الذي تحدثه حركة المطاردة. وبينما كان ينظر مرة أخرى إلى اليمين، إذ رأى شيئًا يركض نحوه خلال الحقل المقفر. فقال لنفسه وهو يخرج من صدره تلك الزفرة العميقة التي يزفرها من يرى تحقّق أمر طال انتظاره له: «لا، مستحيل!». أتتحقّق سعادته الكبرى بمثل هذه السهولة، بغير ضجة، بلا بريق، وبلا بشائر؟!... لم يصدّق روستوف عينيه، ولازمه هذا الشك لحظة وكان الذئب يوغل في الركض أمامه، وتخطى بحركة ثقيلة، بركة موحلة وجدها في طريقه. إنه ذئب عجوز شائب الصلب كبير البطن كان يركض على مهل مقتنعًا اقتناعًا واضحًا بأنه لا يراه أحد. حبس روستوف أنفاسه، ونظر إلى كلابه. كان بعضها راقدًا وبعضها واقفًا، ولم تكن قد رأت الذئب، ولا خطر ببالها شيء من ذلك. وكان «كاراي» العجوز كافئًا رأسه يبحث في حق عن برغوث في زغبه، كاشفًا عن أسنانه الصفر، مقرقعًا بها عند مؤخرته. دمدم روستوف مقدِّمًا شفتيه:

– هارلوو! هارلوو! فهزت الكلاب أرسانها، ووثبت ناصبة آذانها. وكف «كاراي» عن حك جلده. وهبَّ قائمًا، ورفع أذنيه، وحرك ذيله الذي كانت تتدلىء منه طرَّات زغب.

وكان روستوف يتساءل أثناء إقبال الذئب عليه وتقدّمه منه مبتعدًا عن الغابة: «أيجب أن أطلقها؟ أيجب ألا أطلقها؟». وفجأة تغيّرت حركة الذئب كلها، ارتعش الذئب حين رأى ربما أول مرة في حياته – عيني إنسان تحدِّقان إليه، ولفت رأسه قليلًا إلى الصياد فوقف وكأنه يحدث نفسه: «ماذا يجب أن أعمل؟ أأتقدم أم أتقهقر؟ بل أتقدّم، وليكن ما يكون! هلمَّ!». ومن دون أن يتردّد مزيدًا من التردّد، استأنف ركضه وثبات رخوة. متباعدة، متفاوتة، ولكنها واثقة.

صرخ روستوف بصوت مرعد:

- هارلووو!

ثم إذا بحصانه ينطلق من تلقاء نفسه نازلًا على المنحدر، متخطيًّا برك الماء الموحلة، ليسد على الذئب طريقه، وانطلقت الكلاب بسرعة تفوق سرعة الحصان فسبقته. وطاش صواب نيقولا، فهو لا يسمع نفسه صارخًا، ولا يحسّ بجريه السريع، ولا يبصر لا الكلاب ولا الأرض التي يقطعها. إنه لا يرى إلّا الذئب الذي حثَّ الخطى هاربًا على طول الوادي لا يغيّر اتجاهه. هذه «ميلكا»، الكلبة المبقعة ذات المؤخرة العريضة، تسبق سائر الكلاب، فتظهر قريبة من الذئب، ثم يزداد قربها منه.... ثم يزداد... ثم تبلغه. ولكن الذئب ينظر إليها، وبدلًا من أن تنقضّ كما تفعل دائمًا، إذا هي تتوقّف على حين فجأة، رافعة ذيلها، مقوِّسة ظهرها، مثبتة على الأرض في الأمام قائمتيها. صرخ نيقولا مهيبًا حاديًا:

- هارلووو!...

وها هو ذا «ليوبيم» العجوز ينبجس من الوراء «ميلكا» وينقضّ على الذئب ممسكًا مؤخرته. ولكنه لم يلبث أن خاف فوثب جانبًا. فتكوّم الذئب على نفسه، وطقطق بأسنانه، ثم عاد ينهض وانطلق إلى الأمام، تتبعه الكلاب كلها على مسافة نصف متر، ولا تقترب منه أكثر من ذلك.

قال نيقولا لنفسه وهو لا يزال يصرخ بصوته المبحوح: «لا، سوف يهرب! مستحيل!».

وصاح وهو يبحث بنظراته عن كلبه العجوز، أمله الوحيد:

- «كاراي»! هارلووو!...

وكان «كاراي» يجري ثقيل الحركة ليقطع الطريق على الذئب، باذلًا كل ما أبقته له الشيخوخة من قوة، شادًّا جسمه أقصى الشد مثبتًا بصره على الذئب لا يحوّله عنه. ولكن خفة الذئب وثقل الكلب كانتا تحملان على التنبؤ بأن «حسابات» كاراي لن تصدّق. وكان نيقولا يرى منذ ذلك الوقت، على مسافة غير بعيدة منه، الغابة التي لا شك أن الذئب سيفزع إليها ويغيب فيها. وأن روستوف لكذلك، إذا بكلاب مع صياد يكاد يجري بحصانه مقبلًا

عليه متّجهًا إليه، ظهر أمامه، فيتنعش أمل روستوف. وهذا كلب أسمر من رهط آخر، كلب مستطيل الأشكال لا يعرفه نيقولا، ينقضّ على الذئب ويوشك أن يقلبه. ولكن الذئب نهض من كبوته بأسرع ما يمكن أن يظن المرء وهجم على الكلب الفتيّ، فعضه بأنيابه: فنكس الكلب رأسه إلى الأرض ممزق الجنب نازف الجرح، صارخًا صرخات حادة.

قال نيقولا بما يشبه الرجاء:

- عزيزي «كاراي»، صديقي «كاراي»، هيًّا!

وبفضل هذا الحادث الذي وقع، كان الكلب المسنّ الذي يقطع الطريق على الذئب وتتدلى طرَّات شعره على فخذيه، أصبح لا يبعد عنه إلّا خمس خطوات. وكأن الذئب أحسّ بالخطر، فنظر إلى «كاراي» من جانب، ثم شدَّ ذيله بين ساقيه مزيدًا من الشد، وغذَّ خطاه يجري جريًا سريعًا. ولكن «كاراي»، (ويجب أن نذكر أن نيقولا لم يلاحظ أن «كاراي»، قد حدث له شيء)، صار فوق الذئب في طرفة عين، وأخذ الذئب والكلب يتدحرجان في مجرى سيل كان أمامهما.

إن اللحظة التي أتيح فيها لنيقولا أن يرى الكلاب في مجرى السيل تتجمع حول الذئب الذي يبصر نيقولا شعره الشائب، وإحدى رجليه متوترة ورأسه المروَّع اللاهث (كان كاراي قابضًا على عنق الذئب)، إن اللحظة التي أتيح فيها لنيقولا أن يرى ذلك كله كانت أسعد لحظة في حياته. وفيما كان يمسك تربوس السرج ليترجّل ويجهز على الذئب، إذا برأس الذئب ينبجس من بين جموع الكلاب، ثم إذا برجليه تتشبّثان بحافة مجرى السيل، وإذا هو يكشّر عن أسنانه وقد ترك كاراي رقبته، وإذا هو يشد ذيله بين فخذيه، ويخرج إلى السهل راكضًا ركضًا سريعًا، مخلِّفًا الكلاب الوراءه مرة أخرى. وخرج «كاراي» من مجرى السيل بمشقة وعناء. خرج مشعّث الشعر، مرضوضًا أو مجروحًا في غالب الظن.

صرخ نيقولا يقول مكروبًا يائسًا:

- ماذا جنت يداي يا رب حتى تُنزل بي هذا العقاب؟

ووصل قائد كلاب العم يعدو عدوًا سريعًا ليسد طريق الذئب من جهة

أخرى، فأفلحت الكلاب في وقف الذئب من جديد، وأحدقت به وطوّقته.

فكان نيقولا وسائسه والعم وقائد كلابه، يدورون حول الذئب صائحين «هارلووو!»، ويتأهبون للترجل متى قعد الذئب على مؤخرته، ويتقدّمون إلى الأمام متى تحرك وسار متقدمًا إلى الغابة التي يمكن أن تكفل له الخلاص وتضمن له السلامة.

وكان دانيلو قد خرج إلى تخوم الغابة منذ بدء المطاردة حين سمع الصراخ، وكان قد رأى «كاراي» يقبض على الذئب فأوقف حصانه ظانًّا أن كل شيء قد انتهى. ولكنه حين لاحظ أن الصيادين لم يترجلوا وأن الذئب يتحرّك ويهرب، انطلق بحصانه لا متجهًا إلى الذئب بل متقدّمًا من الغابة على خط مستقيم، فقطع الطريق على الذئب كما سبق أن فعل «كاراي»، فاستطاع بفضل هذه المناورة أن يدرك الذئب لحظة كانت كلاب العم توقفه مرة ثانية.

كان دانيلو يجري بحصانه صامتًا، ويمسك بيسراه خنجرًا مسلولًا، ويضرب جانبي حصانه الخاسفَيْن بسوطه ضربًا كأنه طرق مدقة من حديد.

لم يرَ نيقولا صاحبنا دانيلو ولا سمع حركة مجيئه إلّا لحظة مرَّ حصانه أمامه لاهثًا، وسمع سقوط جسم على الأرض، فرأى دانيلو راقدًا بين الكلاب فوق مؤخرة الذئب محاولًا أن يقبض عليه من أذنيه. ووضح منذ تلك اللحظة للكلاب وللصيادين وللذئب نفسه أن كل شيء قد انتهى. كان الذئب يشد أذنيه إلى جسمه وقد اعتراه رعب شديد، وكان يحاول أن يقوم ولكن الكلاب تزحمه وتلتصق به. وها هوذا دانيلو ينتصب، ويخطو خطوة مترنّحة، ثم يتهاوى بكل ثقله على الذئب كأنه يرتمي على سريره، ويقبض على أذنيه. أراد نيقولا أن يذبح الذئب بخنجره، ولكن دانيلو دمدم يقول: «لا داعي إلى ذبحه. سوف نوثّقه»، أسرع يغيّر وضعه، فجعل قدمه فوق رقبة الذئب، ثم دُسَّت في فمه عصا، وأوثق برسن كأنما هو يوضع له عنان، وربطت قوائمه، وقلبه دانيلو من جانب إلى جانب مرتين أو ثلاثًا.

وحملوا الذئب حيًّا إلى ظهر حصان كان يثب ويصهل، حملوه إلى ظهر الحصان وقد تهللت أساريرهم التي أضناها التعب، ومضوا به إلى مكان

التجمّع تتبعهم الكلاب نابحة عليه. وكانت الضرار قد قبضت على ذئبين صغيرين، وكانت الكلاب السلوقية قد قبضت على ثلاثة ذئاب صغيرة أخرى. إن مكان التجمّع هو المكان الذي يلتقي فيه الصيادون مع طرائدهم، ويأخذ بعضهم يقص على بعضهم الآخر بعض مغامراتهم. تقدّم الجميع ليروا الذئب الذي ترك رأسه ذا الجبهة العريضة يتدلّى كالمشنوق، وراح يقضم العصا المدسوسة في فمه، وينظر بعينيه الواسعتين اللتين تشبهان أن تكونا من زجاج، إلى تلك الجمهرة من الكلاب والبشر التي تحيط به. وكان إذا لمسه أحد تسري في أرجله المربوطة رعدة، ويحدِّق إلى جميع الملتفين حوله بنظرة وحشية ساذجة في آن واحد.

ودنا الكونت إيليا آندريتش هو أيضًا، ولمس الذئب، وقال يسأل دانيلو الذي كان واقفًا بقربه:

- ذئب بالغ عظيم؟ أليس بالغًا أم هو من صغار الذئاب؟

فأجابه دانيلو وهو يسارع إلى رفع طاقيته احترامًا:

- بل هو بالغ يا صاحب السعادة.

فتذكّر الكونت غلطته حين ترك للذئب أن يفلت وتذكّر الكلام العنيف الذي بادره به دانيلو، وقال:

- أتعلم يا عزيزي أنك لست رضيّ الخلق؟

فلم يقل دانيلو شيئًا، ولم يزد على أن ابتسم ابتسامة خجلى وديعة عذبة كابتسامة طفل.

الفصل السادس

سلك الكونت طريق العودة إلى المنزل، ووعدت ناتاشا وبيتيا بأن يرجعا في الحال. وكان الصيد مستمرًا، فلا يزال الوقت مبكرًا. وفي نحو العصر، أطلقت الكلاب في وادٍ يغطيه حرج كثيف من شجيرات نابتة على أرومات أشجار مقطوعة. وكان نيقولا مرابطًا في المراعي الجرداء فكان يستطيع أن يرى كل شيء.

إن أمامه حقولًا من قمح صغير نبته. وكان قائد كلابه يرابط وحيدًا في حفرة الوراء شجرة بندق. فما إن فصلت الكلاب حتى سمع نيقولا نباحًا متقطعًا صادرًا عن كلب يعرفه واسمه «فولترون»، وكانت الكلاب الآخرى تضم نباحها إلي نباحه تارة، وتسكت تارة أخرى، وتعود إلى النباح تارة ثالثة. فما هي إلّا لحظة حتى صدر عن ذخر الغابة صوت دل على وجود ثعلب، فإذا برهط الكلاب كلّه يجتمع وينطلق متّجهًا إلى حقول القمح مبتعدًا عن نيقولا.

وأبصر نيقولا صيادين من قادة الكلاب لابسين طاقياتهم الحمراء، يجرون بخيولهم على ضفاف الوادي عدوًا سريعًا، حتى لقد ميّز الكلاب فكان يتوقّع أن ينبجس الثعلب في حقول القمح بين لحظة وأخرى.

وسار قائد الكلاب الذي كان مرابطًا في الحفرة، وفصل كلابه، فإذا بنيقولا يرى ثعلبًا غريب الشكل، ناري اللون، واطئ الصلب على قوائمه، قصير الذيل، يتسلّل بين نبت القمح مسرعًا، وتطارده الكلاب فلا تزال تقاربه إلى أن أدركته. ها هي الكلاب تدنو من الثعلب، ها هو الثعلب يرسم حولها دوائر ما تنفك تضيق، محركًا ذيله الكثّ يضرب به الأرض، وها هوذا كلب أبيض لا يعرفه نيقولا ينقض على الثعلب، وها هو كلب آخر أسود اللون

ينقض عليه أيضًا، ثم يختلط كل شيء وتتحلّق الكلاب حول الثعلب، واقفة أمامه كالجامدة لا تكاد تتحرك. وها هما قائدان من قادة الكلاب يصلان على فرسيهما مسرعين، فإذا أحدهما يضع على رأسه طاقية حمراء، وأما الثاني فهو صياد مجهول يرتدي قفطانًا أخضر.

تساءل نيقولا: «ما هذا الذي يحدث؟ من أين أتى هذا الصياد ليس هو قائد كلاب العم».

أجهز الصيادان على الثعلب، ومكثا في مكانهما مدة طويلة، فلا هما يربطان الثعلب ولا هما يركبان حصانيهما اللذين يُرى سرجاهما في حرج الشجيرات عاليًا قربوسهما؛ ورقدت الكلاب حولهما، وطفق الصيادان يحرّكان أيديهما غاضبين، ويحومان بقرب الثعلب مضطربين وسُمع صوت بوق يدوي، وهو الصوت الذي يدل اصطلاحًا على نشوب مشاجرة.

قال سائس نيقولا:

- هذا قائد كلاب إيلاجين يتشاجر مع صاحبنا إيفان.

فبادر نيقولا إلى استدعاء ناتاشا وبيتيا، واتجه خطوًا إلى حيث كان الخدم يجمعون الكلاب، وكان عدد من قادة الكلاب قد بلغوا مكان المشاجرة.

ترجل نيقولا، ووقف هو وناتاشا وبيتيا اللذان أدركاه، بقرب الكلاب ينتظرون نهاية الأمر. فرأى أحد قائدي الكلاب اللذين نشبت بينهما المشاجرة، يظهر عند حافة الغابة وقد ربط الثعلب بسرجه، ويقبل على مولاه الشاب، ويرفع طاقيته محييًا من مسافة غير قريبة، ويحاول أن يتكلّم باحترام وتعظيم. ولكنه كان شاحب اللون، ويختنق غضبًا وحنقًا شديدًا، وكانت إحدى عينيه متورّمة، ولكن لا يبدو عليه أنه منتبه إلى ذلك أو شاعر به.

سأله نيقولا:

- ماذا جرى بينكما؟

- ماذا جرى؟ يريد أن ينهب من كلابنا فريستها! ثم إن كلبتي الشهباء هي التي اصطادت الثعلب! ولم يشأ هو أن يفهم وأن يلتزم جانب الصواب. كان يريد أن يأخذ الثعلب. فما كان مني إلّا أن أمسكت الثعلب، ولطمت به خطمه. وها هوذا الثعلب مربوط بسرجي وإذا كان ما وقع لك لا يكفيك فعندي هذا أيضًا.

أضاف قائد الكلاب هذه الجملة الأخيرة مظهرًا خنجره متخيّلًا أنه لا يزال يخاطب خصمه.

لم يجبه نيقولا بشيء، وطلب إلى أخته والى بيتيا أن ينتظراه، وذهب إلى حيث كان يجتمع ركب الصيد الذي ينتمي إلى إيلاجين الخصم.

اختلط الصياد المنتصر بجمهرة الصيادين الآخرين، وأخذ يروي لهم مأثرته في جو مشبع بالحبّ له والإعجاب به.

وإليكم ما كان قد حدث: إن إيلاجين الذي بينه وبين آل روستوف قضية تنظر فيها المحاكم كان يصطاد على أرض تعد في العرف تابعة لأملاك آل روستوف.

وكأنه تعمّد الآن أن يقترب من الغابة التي كان آل روستوف يصطادون فيها، وسمح لقائد كلابه أن يسطو على الثعلب الذي اصطادته كلاب آل روستوف.

لم يكن نيقولا قد رأى إيلاجين من قبل قط، ولكنه على عادته في التطرف في أحكامه وعواطفه، كان يكره ايلاجين كرهًا شديدًا، ويعدّه أعدى أعدائه، مستمدًا رأيه فيه مما كان يروج من إشاعات عن عنفه واستبداده. فهو الآن يسير إليه مهتاجًا حانقًا، شادًّا على سوطه، عازمًا عزمًا قاطعًا على أن يعمد في معاملته إلى أشد الأساليب خطورة وحسمًا.

فما كاد يبلغ زاوية الغابة حتى رأى سيدًا ضخمًا على رأسه كسكيتة من قماش الكستور، يقبل عليه راكبًا حصانًا أسود رائعًا في صحبة سائسَين اثنين.

فما كان أشد دهشة نيقولا حين رأى أنه ليس أمام خصم لدود، بل أمام إنسان مهيب الطلعة رضي الطبع رقيق الحاشية، راغب رغبة شديدة في أن يتعرّف بالكونت الشاب، فهو ما إن اقترب من نيقولا حتى رفع كسكيتته محييًا وقال إنه سيعاقب قائد الكلاب الذي أجاز لنفسه أن يتبع مسار رهط آخر من الكلاب، وانه سيسعده كثيرًا أن يتعرّف إلى الكونت الشابّ، ودعاه لأن يصطاد في أراضيه.

وكانت ناتاشا خائفة أن يحتد أخوها ويتورط في ما لا تُحمد عقباه، فكانت تتبعه قريبة منه مهتاجة أكبر الاهتياج، فلما رأت الخصمين يتبادلان

الملاطفات في مودّة وصداقة، أقبلت عليهما وتقدّمت منهما، فرفع إيلاجين كسكيتته مرة أخرى بمزيد من الأدب والكياسة واللطف، وقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة أن الكونتيسة تشبه إلهة اليونان ديانا حتى لكأنها صورتها، بشغفها بالصيد، أو بجمالها الذي سمع عنه كثيرًا.

ومن أجل أن يصلح إيلاجين ما أفسده قائد كلابه، أخذ يرجو روستوف ملحًا أن يصحبه إلى المكان الذي لا يبعد إلّا فرسخًا واحدًا، وهو مكان يحتفظ به لنفسه وتكثر فيه الأرانب البرية. فقبل روستوف الدعوة. وتضاعف الركب مرة أخرى وسار.

وكان لا بد من المرور في الحقول لبلوغ ذلك المكان. وكان قادة الكلاب فرحين تتهلّل وجوههم بشرًا؛ وسار الأسياد معًا، فكان كل من العم وروستوف وإيلاجين يختلس النظر إلى كلاب صاحبيه، خائفًا أن يرى بينها كلابًا تفوق كلابه.

أما في رهط كلاب إيلاجين فقد خطف بصر روستوف جمال كلبة ذات بقع حمر، طيّبة العرق كريمة الأصل، لها خطم دقيق، وعينان سوداوان بارزتان. كانت ضئيلة نحيلة لكن لها عضلات كالفولاذ قوة، وكان قد سمع عن خفة كلاب إيلاجين، فرأى أن هذه الكلبة تنافس كلبته «ميلكا».

وبينما كانا في حديث عن محاصيل هذه السنة، وهو حديث بدأه إيلاجين، قال روستوف لصاحبه وهو يشير له إلى الكلبة مصطنعًا قلة الاكتراث:

- كلبتك هذه جميلة. فهل هي خفيفة الحركة؟

فأجابه إيلاجين بلهجة غير المبالي، وهو الذي كان في السنة الماضية قد أعطى جارًا له ثلاث أسر من الخدم الأقنان ثمنًا لكلبته الحمراء هذه «إيرتسا»:

- تلك؟ نعم، هي كلبة طيبة تجيد الصيد. وأكمل حديثه عن المحاصيل:

- إذًا كانت المحاصيل عندكم أيضًا رديئة يا كونت.

ومن حرصه على أن لا يكون أقل لطفًا من الكونت، ألقى نظرة على كلاب روستوف، فاختار منها «ميلكا» التي لفتت انتباهه بعرض مؤخرتها:

- كلبتك السوداء هذه جميلة أيضًا، جميلة جِدًّا.

فأجاب نيقولا:

- نعم، لا بأس بها، وهي سريعة العدو.

وقال محدِّثًا نفسه: «ليت أرنبًا بريًّا كبيرًا ظهر الآن، لأريك ما هذه الكلبة».

ثم التفت إلى سائسه، ووعد بأن يهب روبلًا لمن يُخرج أرنبًا من مكمنه.

واستأنف إيلاجين الكلام فقال:

- يدهشني يا كونت أن يغار صياد مما يصطاده صياد آخر، أو أن يغار من كلابه. اعترف لك يا كونت بأنني، من جهتي، إنما يسرني التريّض أكثر من أي شيء آخر، فإذا أوتي المرء صحبة كهذه الصحبة، ففي أي شيء عساه يرغب زيادة على هذا؟ (قال ذلك وهو يرفع كسكتيته لناتاشا مرة أخرى). أما أن أعد الجلود التي أعود بها من رحلة الصيد، فذلك أمر لا يهمني البتة.

- طبعًا.

- ولا يحنقني أيضًا أن يكون كلب ليس كلبي هو الذي قبض على الطريدة متى أعجبني الصيد نفسه، أليس هذا رأيك يا كونت ثم إنني أقدّر...

لم يكمل إيلاجين جملته، لأن أحد خدم الكلاب وقف يطلق صرخة طويلة:

- أر... نااا... ب!

كان الخادم واقفًا على تلة صغيرة في الحقول، رافعًا سوطه، وصرخ مرة أخرى صرخة طويلة مكرِّرًا:

- أر... نااا... ب!

فكان هذا الصراخ وهذا السوط المرفوع يشيران إلى أنه يرى أمامه أرنبًا بريًّا في مأواه.

قال إيلاجين متظاهرًا بعدم الاكتراث:

- أظن أنه وقع بصره على أرنب بري. فهل نطارده يا كونت؟

أجاب الكونت وهو يلقي نظرة على «إيرتسا» كلبة إيلاجين وعلى «روجاي» الكلب الأحمر الذي يملكه العم، وهما منافسان مخيفان لم يتح له من قبل أن يقارن بين قدرتهما وقدرة كلابه:

- نعم، نعم، ولكن هل نشترك في المطاردة جميعًا؟

وتساءل وهو يتقدم في اتجاه الأرنب إلى جانب العم وإيلاجين: «ماذا لو غلبا كلبتي العزيزة ميلكا؟».

قال إيلاجين يسأل الصياد الذي كشف عن وجود الأرنب.

- أهو ضخم؟

ثم التفت إلى «ايرتسا» قلقًا، وصفّر يناديها. وقال يسأل العم:

- وأنت يا ميخائيل نيكانوردفتش؟

ولكن العم كان متجهّم الوجه عابسًا. وأجاب يقول:

- أين أنا منكما؟ المسألة واضحة، إلى الأمام سر. كلابكم أنتم اشتُري كل منها بقرية. إن ثمن الكلب منها ألف روبل. فلتكن المباراة بينها، وحسبي أنا أن أنظر...

ولكنه أضاف مناديًا كلبه:

- هلمَّ «روجاي»، هلم يا عزيزي روجاي.

وكان يودع هذا النداء كل ما يشتمل عليه قلبه من حب وحنان وعاطفة، وكل ما يعقده على هذا الكلب الأحمر من آمال وأمنيات.

وقد لاحظت ناتاشا الهيجان المكظوم الذي كان يضطرم في نفسي الشيخين ونفس أخيها نيقولا. وكانت هي أيضًا مهتاجة.

لا يزال الصياد واقفًا على التلة رافعًا سوطه، والأسياد يتقدّمون على ظهور خيولهم خطوًا، والكلاب متفرقة مبعثرة حتى آخر الأفق على مسافة بعيدة من الأرنب.

قال نيقولا يسأل الصياد الذي كشف عن وجود الأرنب، حين صار على مسافة مائة خطوة منه:

- أين رأسه؟

لم تتح للصياد فرصة الإجابة عن هذا السؤال، فالأرنب وقد أحس بأن الصقيع سيداهمه في صباح الغد، وثب خارجًا من مأواه. فأخذت الكلاب تهبط المنحدر في أثره نابحة. وهرعت الكلاب السلوقية من كل صوب تتبعها بغير أرسان، ثم إذا بجميع الصيادين الذين كانوا يسيرون متمهّلين، وجميع قادة الكلاب الذين كانوا يستوقفون كلابهم صائحين بها: «هالت»! وجميع الخدم الذين يطلقون الكلاب السلوقية بصيحة «تايو!»، إذا بهؤلاء جميعًا يندفعون موغلين في الحقول.

وكان إيلاجين الهادئ، ونيقولا والعم، وناتاشا يجرون بخيولهم عدوًا

سريعًا على غير هدى، لا ينظرون إلّا إلى الكلاب والأرنب، ولا يخشون إلّا أن يغيب منظر الصيد عن أبصارهم لحظة. واتفق أن كان الأرنب حيوانًا ضخمًا سريع الحركة، نشط الهمة، بدأ جريه منذ خرج من مأواه فورًا، ولكنه حرَّك أذنيه، فلما سمع الصيحات ووقع حوافر الخيول التي بدأت تقرع الأرض في كل صوب، وثب زهاء عشر وثبات من دون سرعة كبيرة، فاقتربت الكلاب منه، لكنه وقد اختار اتجاهه وأحسّ بالخطر، لم يلبث أن أنام أذنيه وانطلق يشق الفضاء كالسهم. حتى إذا خرج من المراعي التي فيها مأواه، كانت تمتد حقول قمح على أرض موحلة. وكان كلبا الصياد الذي اكتشف وجوده أقرب الكلاب إليه، فرأيا الطريق التي سلكها قبل أن تراها الكلاب الآخرى، فجريا يتبعانها ولكنهما كانا لا يزالان بعيدين بعدًا كبيرًا حين انبجست من ورائهما «إيرتسا»، كلبة إيلاجين الحمراء، وسبقتهما حتى إذا أصبحت من الأرنب على مسافة طول كلب، وثبت وثبة رائعة تريد بها أن تمسك الأرنب من ذيله، ولكنها أخطأته، فتدحرجت منقلبة على رأسها. وقوَّس الأرنب ظهره، وغذَّ الخطى منطلقًا. وهذه «ميلكا» السوداء ذات المؤخرة العريضة تثب من الوراء إيرتسا، وتوشك أن تدرك الأرنب.

صاح نيقولا بصوت المنتصر الظافر:

- ميلكا، عزيزتي!

وبلغت ميلكا الأرنب، ووثبت لتقبض عليه، ولكن وثبتها تجاوزته فاستطاع الأرنب الإفلات منها. وعادت «إيرتسا» الجميلة تطارده فبلغته حتى مسّت ذيله، وكأنها كانت تقيس المسافة بحيث لا تخطئه ثانية بل تمسك فخذه في هذه المرة.

هتف إيلاجين ضارعًا بصوت غريب تبلّله الدموع:

- إيرتسا! جميلتي!

ولكن يبدو أن إيرتسا لم تحفل بضراعاته. ففي اللحظة التي كان يتوقّع فيها أن تقبض على الأرنب، حرف الأرنب اتجاهه قليلًا، وارتمى في الثلم الذي يفصل المراعي عن حقول القمح وراحت إيرتسا وميلكا تجريان

الوراء الأرنب جنبًا إلى جنب، كحصانين قُرنا بعريش واحد، ولكن جري الأرنب في الثلم كان أسهل من جري الكلاب فيه، فلم تستطع الكلبتان أن تدركاه.

هنا تدخّل في الصياح صوت جديد هتف مناديًا:

- «روجاي»، صغيرتي «روجاي» المسألة واضحة، إلى الأمام سر.

فإذا بالكلب الأحمر الأحدب «روجاي»، وهو كلب العم، يتمطّى ويقوّس ظهره وينطلق فيدرك الكلبتين السابقتين، ثم يسبقهما، ثم يعجِّل ركضه مستميتًا متفانيًا، فيحاصر الأرنب من قرب، ويضطره إلى الانحراف عن الثلم إلى حقول القمح، ثم يزيد من جريه بمزيد من الحنق المسعور في الحقول الموحلة، غائصًا حتى بطنه، ثم إذا هو يُرى وقد قبض على الأرنب وراح يتدحرج معه في الحقل ملطخًا ظهره بالوحل. وتجمهرت الكلاب حوله. وما انقضت لحظة حتى كان الركب كله قد وصل إلى حيث تجمّعت الكلاب. ولم يترجل إلّا العم وحده. فأجهز على الأرنب سعيدًا وأخذ يهزه ليخرج دمه، ملقيًا على ما حوله نظرات قلقة، منتقلًا ببصره من شخص إلى شخص، لا يدري ما عساه يصنع بذراعيه وساقيه، ويتكلّم من دون أن يعرف من ذا يخاطب وماذا يقول: «هذه مسألة واضحة... إلى الإمام سر... هذا كلب حقًا! غلب الكلاب جميعًا.. الكلاب التي ثمنها ألف روبل، والكلاب التي ثمنها روبل واحد. المسألة واضحة، إلى الأمام سر!». كذلك كان يقول لاهثًا مختنقًا، وهو يلقي على الجميع نظرات حانقة، كأنه يشتم أحدًا، وكأن جميع من حوله أعداء أهانوه جميعهم فهو الآن يثأر لنفسه منهم. ««هذه هي كلابكم التي ثمن الكلب منها ألف روبل. المسألة واضحة، إلى الأمام سر!».

وقال وهو يرمي إلى كلبه قائمة ملطخة بالوحل من قوائم الأرنب.

- خذ حصتك يا «روجاي». إنك جدير بها. هي حقك. المسألة واضحة، إلى الأمام سر.

قال نيقولا وكان هو أيضًا لا يصغي إلى كلام أحد، ولا يهمه أن يعرف هل يصغي أحد إليه أم لا:

- كانت قد نفدت قواها. قامت وحدها بثلاث مطاردات.

وقال سائس إيلاجين من جهته:

- يا للشطارة! لقد أخذها من خلف!

وقال إيلاجين في الوقت نفسه، وكان وجهه محمرًا احمِرارًا شديدًا، وكان يستردّ أنفاسه التي قطعها الاهتياج والجري، يستردّها بمشقة وعناء:

- بعد أن أخطأته ضربتها صار في إمكان أي كلب زنيم أن يستفيد من ذلك فيقبض عليه.

وفي أثناء ذلك كانت ناتاشا لا تزال تلهث، ولا تزال تطلق من شدة فرحها وحماستها صرخات حادّة تصمّ الآذان. بذلك كانت تعبِّر عما كان يُعبِّر عنه الآخرون بالكلام جميعًا في وقت واحد. وكانت صرخاتها تبلغ من الغرابة أنها لو أطلقتها في غير تلك اللحظة لكان يمكن أن تخجل من نفسها، ولكان يمكن أن يدهش الناس من هذا الصياح العجيب أشد العجب.

تولى العم بنفسه ربط الأرنب إلى سرجه بحركات نشطة حاذقة، ثم ردَّه إلى ردف الحصان بحركة تكاد تشتمل على معنى التحدي والاستفزاز، وهمز حصانه الأشقر وتحرّك مختالًا لا يريد أن يكلم أحدًا. وتفرق الآخرون مكتئبين حزانى وقد جرحت كبرياؤهم، ولم يستردّوا قدرتهم على اصطناع هيئة قلة الاكتراث وعدم المبالاة إلّا ببطء. وظلوا يتبعون «روجاي» الأحمر بأبصارهم، وكان روجاي وقد تلطخ ظهره المحدودب بالوحل، وبدا في وجهه هدوء الانتصار، يجري خببًا الوراء حصان العم، ويجعل لرسنه رنينًا. فكان نيقولا ينظر إليه، فكأنه يقرأ في وجهه أنه يقول: «نعم، منظري كمنظر سائر الكلاب ما لم يكن الأمر أمر صيد! أما في الصيد، فحذار مني!».

وبعد مدة، حين اقترب العم من نيقولا وكلّمه، شعر نيقولا باعتزاز من أن العم تنازل وتواضع وارتضى لنفسه أن يكلمه.

الفصل السابع

حين حلَّ المساء، وودع إيلاجين نيقولا، كان نيقولا قد بلغ من الابتعاد عن منزله أنه قبل ما اقترحه عليه العم من صرف ركب الصيد وقضاء الليلة في قريته ميخائيلوفنا. قال العم:

- إذا جئتم جميعًا إلى منزلي كان هذا أفضل، المسألة واضحة، إلى الأمام سر. إنكم لترون أن الجو الرطب، فإذا تعبتم أصبتم عندي شيئًا من راحة. أما الكونتيسة الصغيرة فنعيدها إلى المنزل في عربة.

قَبِلَ الاقتراح، فأرسل أحد قادة الكلاب ليجلب عربة من أوترادنويا وسار نيقولا وناتاشا وبيتيا يتبعون العم إلى داره.

عند الباب الكبير كان خمسة خدم أو ستة بعضهم طوال وبعضهم قصار لكنهم جميعًا ذكور، وقد هرعوا يستقبلون مولاهم. وأسرعت مجموعة كبيرة من النساء عجائز وشابات وصبايا صغيرات، إلى باب الخدمة تنظرن لترى وصول الصيادين. فما كان أشد فضولهن ودهشتهن حين رأين ناتاشا وهي امرأة وسيدة عظيمة، ممتطية صهوة حصان، حتى لقد بلغت الدهشة بعدد كبير منهن أنهن اقتربن منها يتفرّسن فيها بغير تحرّج، ويتبادلن أمامها بعض الملاحظات كأنها دمية لا إنسان، فلا تستطيع أن تسمع ولا أن تفهم ما يُقال عنها.

- آرينكا، انظري كيف تجلس على الحصان من جانب وانظري كيف تجر ذيل تنورتها الطويلة! ولها عدا ذلك قرن!

- يا ساتر يا رب! ألا ترين السكّين أيضًا؟

- لكأنها امرأة من التتر فعلًا!

وقالت أجسرهنَّ مخاطبة ناتاشا مباشرةً:

- كيف لم تتشقلبي؟

ترجل العم أمام باب داره الصغيرة، المبنية من خشب، الغارقة في الخضرة، وطاف ببصره على خَدَمه، فصرخ جازمًا يهيب بالعدد الزائد منهم أن ينصرف، وأمر بالقيام بما يجب القيام به لاستقبال ضيوفه ورَكْب الصيد.

فرح الجميع. وأنزل العم ناتاشا عن الحصان، وأمسك يدها لتصعد درجات المدخل، وهي درجات من خشب تهتز وتترجرج.

إن المنزل الذي بنيت جدرانه من جذوع أشجار الصنوبر بغير بلاط، ليس من المنازل التي يعنى أصحابها بخدمتها ونظافتها عناية كبيرة. فالمرء لا يعدم أن يرى فيه بقعًا، ولكنه لا يلاحظ مع ذلك أنه مهمل إهمالًا شديدًا. والدهليز تفوح فيه رائحة تفّاح طريّ، وعلى جدرانه عُلّقت جلود ذئاب وثعالب.

قاد العم ضيوفه من حجرة المدخل إلى صالة صغيرة أثاثها طاولة تُطوى وكراسٍ من خشب الآكاجو، ثم مضى بهم إلى صالون فيه مائدة مستديرة من خشب السندر وديوان، ثم أدخلهم مكتبه الذي يضم كنبة ممزقة وسجّادة مرقّعة، وصورة لسوفوروف وصورة لوالدَيْ رب البيت وصورة لرب البيت نفسه. وكانت الغرفة ملأى برائحة تبغ ورائحة كلاب.

رجا العم ضيوفه أن يجلسوا، وأن يتصرفوا كأنهم في منزلهم ثم خرج. بعد لحظات دخل «روجاي» ملطخ الظهر بالوحل، وجلس على الديوان، وطفق ينظّف نفسه بضربات من لسانه وأسنانه. وكان المكتب يطل على ممر يُرى فيه حاجز ممزق، فكانت تُسمع من الوراء الحاجز ضحكات وهمسات صادرة عن نساء.

ارتاحت نفس ناتاشا ونيقولا وبيتيا، وجلسوا على الديوان، وأسند بيتيا كوعه على فخذَيْه ووضع رأسه بين يديه، فلم يلبث أن نام وصمت كل من نيقولا وناتاشا. إن وجهيهما كالجمر احمِرارًا، وإنهما جائعان وفرحان أعظم الفرح. وتبادلا النظرات (إن نيقولا وقد انهى الصيد، أصبح يرى أن من الضروري أن يظهر لأخته تفوّقه عليها رجلًا) وغمزته ناتاشا، فلم

يصمدا طويلًا، فإذا هما ينفجران ضاحكين ضحكًا رنانًا مجلجلًا لا يهمهما أن ينتحلا لمرحهما هذا عذرًا.

وعاد العم بعد قليل وهو يرتدي صدرية وسروالًا أزرق وجزمتين قصيرتين. فأحست ناتاشا بأن هذا الملبس الذي أثار في نفسها دهشة ساخرة في اوترادنويا، لا يختلف عن غيره من الملابس، ولا يفوقه الردنجوت أو الفراك في شيء. وكان العم مرِحًا كذلك، لم يشبه ضحك الأخ وأخته (وما كان ليخطر بباله إنهما يضحكان استهزاء بطراز معيشته)، حتى لقد انضمّ إليهما في الضحك.

قال وهو يمد إلى روستوف غليونًا طويلًا ويتناول لنفسه غليونًا قصيرًا بحركة مألوفة بين أصابعه الثلاث:

- انظر إلى الكونتيسة الشابة، المسألة واضحة، إلى الأمام سر! إنني ما رأيت لها مثيلًا في حياتي.

ثم استطرد قائلًا:

- قضت النهار كله على ظهر الحصان، وهذا عناء لا يكاد يحتمله رجل، ثم هي لا يظهر عليها الإعياء.

بعد عودة العم بوقت قصير، فتحت الباب خادمة غالب الظن أنها حافية القدمين، لأنه لم يُسمع لخطاها على الأرض وقع، وأفسحت المجال لدخول امرأة جميلة في نحو الأربعين من العمر، نضرة البشرة بضّة الوجه كأنّ لها ذقنين اثنين، ولها شفتان مكتنزتان حمراوان، تحمل صينية ثقيلة، شملت الضيوف بنظرة رقيقة، وانحنت تحييهم باحترام وهي تبتسم ابتسامة باشّة مرحّبة. إن هذه المرأة رغم بدانتها التي تضطرها أن تقدّم صدرها وبطنها إلى أمام وأن تردّ رأسها إلى الوراء (وهي خادمة العم) خفيفة المشية رشيقة الحركة، اقتربت من المائدة فوضعت الصينية، وأخذت ترتب عليها بيديها السمينتين البيضاوين الخفيفة حركتهما، ما تحمله الصينية من قنانٍ وأطباق وأقراص حلوى. حتى إذا أنهت مهمتها تنحّت ووقفت بقرب الباب والابتسامة لا تبارح شفتيها. فكان ظهورها هذا كأنه يقول لنيقولا «هذه أنا فهل تفهم الآن عمك؟». وكيف لا يفهم روستوف؟ إن ناتاشا نفسها قد

فهمت العمَّ وفهمت ما ظهر في وجه العم عند دخول آنيسيا فيدوروفنا من تقطيب للحاجبين ومن ابتسامة سعيدة راضية غضّنت شفتيه تغضينًا خفيفًا. ولقد صفَّت آنيسيا على المائدة فودكا بالأعشاب، وخمور حلوة، وفطر مملَّح، وفطائر من قمح أسود معجونة بمصالة اللبن، وعسلًا، وتفاحًا، وبندقًا طريًّا، منه المشوي ومنه المنقوع في العسل وفي السكر. ثم جاءت آنيسيا فيدوروفنا أيضًا بمربيات عسل وشرائح من فخذ الخنزير. ودجاجة أخرجت الآن من الفرن.

وكانت تقول وهي تسكب لناتاشا تارة من هذا الطعام وتارة من ذاك.

- كلي يا آنستي الكونتيسة الصغيرة.

فكانت ناتاشا تأكل من كل شيء فيخيل إليها أنها لم ترَ في حياتها ولا ذاقت في أي مكان فطائر كهذه الفطائر، ولا مربَّيات لها هذا الشذى كله، ولا بندق بالعسل كهذا البندق، ولا دجاجًا كهذه الدجاجة.

ذلك كله كانت آنيسيا فيدوروفنا قد جمعته وهيأته، وكان فيه عطر آنيسيا فيدوروفنا ومذاقها. كله كان في حلاوتها ونظافتها وبياضها وابتسامها اللطيف.

وخرجت آنيسيا فيدوروفنا. وأخذ روستوف والعم، وقد شربا مع هذه الوجبة الخفيفة شيئًا من خمرة الكرز، يتحدثان عن الصيد الذي كانا فيه، وعن الصيد الذي سيقومان به في المستقبل، وعن «روجاي»، وكلاب إيلاجين. فكانت ناتاشا منتصبة الجذع على الديوان، تصغي إلى حديثهما ساطعة العينين. وقد حاولت مِرارًا أن توقظ بيتيا لتطعمه شيئًا ولكن بيتيا كان لا يزيد على أن يجمجم بكلمات غير مفهومة من دون أن يستيقظ. كانت ناتاشا في هذا الجو الجديد عليها تشعر بسعادة وارتياح يبلغان من القوة أن كل ما تخشاه هو أن تصل المركبة التي ستقلها إلى منزلها قبل أن ترتوي من التمتع بهذا الجو البهيج. وبعد فترة من فترات ذلك الصمت الذي لا إرادة للمرء فيه، أعني صمت أولئك الذين يستقبلون أصدقاء لأول مرة، قال العم مجيبًا عما كان يجول في خاطر ضيوفه من أسئلة:

- هكذا أقضي بقية حياتي. حين يموت المرء، فالأمر واضح، إلى الأمام

سر! لا يبقى بعد ذلك شيء. فعلام يحرم المرء نفسه!

كان وجه العم وهو يقول هذا الكلام بليغ التعبير، بل كان جميلًا أيضًا. فتذكر روستوف على غير إرادة كل ما كان أبوه والجيران يقولونه عنه من خير، ويصفونه به من مزايا. كان للعم في الإقليم كله سمعة طيبة، وكان يوصف بأنه رجل غريب الأطوار، ولكنه من أنبل الناس وأنزههم وأعفّهم وأزهدهم بالمنفعة. كانوا يلجأون إليه حَكَمًا يفصل في الشؤون العائلية، وكانوا يختارونه منفذًا للوصايا التي يتركها الراحلون عن هذه الأرض، وكانوا يبوحون له بالأسرار. وقد اختير قاضيًا، ودُعي أن يتقلد وظائف أخرى، ولكنه كان يصر على رفض أيّ وظيفة من وظائف الدولة إصرارًا عنيدًا، ويقضي الخريف والربيع في الحقول على ظهر حصانه الأشقر الخصي، ويقضي الشتاء في منزله، ويقضي الصيف مستلقيًا في حديقته الكثيفة.

- لماذا ترفض أن يكون لك وظيفة يا عمي؟

- جرّبت الوظيفة ثم تركتها. أنا لا أصلح للوظيفة. المسألة واضحة إلى الأمام سر! يصلح غيري للوظائف، أما أنا فلا أفقه من أمورالوظائف شيئًا، ولا كذلك في شؤون الصيد.

وصاح مناديًا:

- افتحوا الباب. لماذا أغلقتم الباب؟

كان الباب الذي يقع في آخر الدهليز (والعم يقول «دهريز») يفضي إلى صالة قادة الكلاب. فأسرعت إلى ذلك الباب أقدام عارية، وفتحته أيدٍ خفيّة، فإذا بأنغام بالالايكا تصل إلى الأسماع حلوة مطربة فلا شك أن اليد التي تعزف على البالالايكا، يدٌ ماهرة. وكانت ناتاشا، تنصت لهذه الأنغام منذ مدة طويلة، ها هي ذي الآن تخرج إلى الدهليز لتحسن الاستماع.

- قال العم.

- هذا ميتكا، حوذي عربتي. لقد اشتريت له بالالايكا ممتازة. إنني أحب هذا.

كان من العادات المألوفة في منزل العم حين العودة من الصيد أن

يعزف ميتكا علي البالالايكا في صالة قادة الكلاب. وكان العم يحب هذه الموسيقى.

قال نيقولا بنبرة خجولة، كأنه كان يستحي أن يعترف بأن هذه الموسيقى تعجبه:

- ما أجمل هذا العزف!

وأحّست ناتاشا بما اشتملت عليه لهجة أخيها، فعقبت تقول معترضة:

- ما أجملها؟ بل قل ما أروعها!

وكما بدت لها الفطائر المملَّحة والعسل والأشربة التي ذاقتها عند العم أشهى ما يؤكل وما يُشرب في العالم بأسره. كذلك بدت لها الآن هذه الموسيقى قمة الفن الموسيقي قاطبة. فلما صمت صوت البالالايكا هتفت تقول موجّهة كلامها ناحية الباب:

- المزيد، المزيد، رجاء!

فدوزن ميتكا آلته الموسيقية، وعاد يعزف «البارينيا»[1] بتوقيع سريع وتنويع في طبقة الصوت. فكان العم يصغي.. إلى الموسيقى. مائلًا برأسه إلى جانب، مبتسمًا ابتسامة خفيفة لا تكاد تُرى. وقد دوزن ميتكا آلته عدة مرات، وأعاد عزف اللحن نفسه مرة بعد مرة، فلم يسأم السامعون من سماعه. ودخلت آنيسيا، وأسندت جسمها البدين إلى ساكف الباب، وقالت تسأل ناتاشا وهي تبتسم ابتسامة تشبه ابتسامة العم شبهًا كبيرًا:

- هل تسمعين؟ إنه يجيد العزف.

وقال العم فجأة وهو يُجري يده بحركة قوية:

- هذا جزء لا يتقن عزفه. هنا يجب التعديل قليلًا. المسألة واضحة، إلى الأمام سر. يجب التعديل قليلًا.

فقالت ناتاشا تسأل العم:

- ولكن هل تتقن العزف؟

فابتسم العم من دون أن يجيب عن سؤالها. وقال لآنيسيا:

---

(1) أي «السيدة».

- اذهبي فانظري أما يزال لقيثارتي أوتار؟ إنني لم أمسسها منذ مدة طويلة. المسألة واضحة، إلى الأمام سر. لقد أهملتها.

فأسرعت آنيسيا فيدوروفنا بخطوها الخفيف تنفذ أمر العم، وجاءته بقيثارته. فنفخ العم على القيثارة ينفض عنها الغبار، ونقر بأصابعه المعروقة على صندوقها، ودوزن الأوتار واستراح في مقعده، وأمسك القيثارة من أعلى مقبضها مباعدًا الكوع اليسرى (بحركة مسرحية قليلًا)، وغمز بعينه آنيسيا فيدوروفنا، وبدلًا من أن يعزف «البارينيا»، بدأ ينقر الأوتار بنغمات صافية رنانة، ثم أخذ - بوقار وهدوء، ولكن بثبات وعزم - يعزف الأغنية الشهيرة «على طول الشارع المرصوف» عزفًا بطيء الإيقاع جِدًّا. فسرعان ما ترجّع لحن الأغنية ترجع الصدى في نفس ناتاشا ونيقولا وهزَّهما مرح خفيف يشبه ذلك المرح الذي يشع من آنيسيا فيدوروفنا. واحمرت آنيسيا فيدوروفنا، وخبأت وجهها بخمارها، وخرجت ضاحكة. وظل العم يعزف لحن الأغنية عزفًا معتدلًا واضحًا، وقد ظهرت في وجهه إمارات الجد والقوة، وثبتت نظرته على المكان الذي تركته آنيسيا فيدوروفنا منذ هنيهة. وكانت بسمة غامضة ترتسم على شفتيه تحت شاربيه الشائبين، وتزداد تفتحًا ووضوحًا كلما ازداد انطلاق اللحن وتسارعُ الإيقاع، وكلما صارت تنويعات طبقة الصوت تقترب من النهاية التي تختم اللحن بنغمة قصيرة مهتزة تشبه أن تكون انكسارًا.

صاحت ناتاشا تقول بعد أن أنهى العم عزفه:

- رائع.! رائع يا عمي!

ووثبت من مكانها، وهرعت إليه تطوّق عنقه وتقبل وجنته. وقالت وهي تلتفت إلى أخيها منادية:

- نيقولا! نيقولا!

فكانت بهذه المناداة كأنها تسأله: «ما هذا؟».

وأحب نيقولا عزف العم كثيرًا أيضًا. وعاد العم يعزف اللحن مرة أخرى. فإذا بوجه آنيسيا فدوروفنا الباسم يظهر من جديد في الباب، وإذا بوجوه أخرى تظهر الوراء وجهها. فلما وصل العم من عزفه إلى قول الشاعر:

انتظري، انتظري، يا جميلتي
فنذهب إلى البئر كلانا
نمتح الماء البارد.

نوَّع العم طبقة الصوت تنويعًا بارعًا مرة أخرى، ثم ختم اللحن بنقرة أخيرة حاسمة، وهزَّ كتفيه. فقالت ناتاشا بصوت فيه من الضراعة والابتهال ما يكاد يوهم أن حياتها كلها رهن بتلبية رجائها:

- هيا يا عمي، هيا يا عمي العزيز!

فقام العم وكأنه صار رجلين، رجلًا يبتسم بوقار من جنون الرجل الخليّ المرح، ورجلًا آخرهو الخليُّ المرح الذي أخذ يمهِّد للرقص بعزف بسيط قوي.

وصاح العم مهيبًا بناتاشا وهو يلوح بيده التي نقرت القيثارة بآخر نغمة:

- هلمي يا ابنة أخي!

فرمت ناتاشا شالها، واندفعت حتى صارت أمام العم، فوضعت قبضتي يديها على خصريها، وهزَّت كتفيها، واتخذت وضع الرقص.

أين ومتى وكيف لهذه الكونتيسة الصغيرة التي ربَّتها فرنسية مهاجرة، وكيف أنه بفضل الهواء الذي تتنشقه وحده، استطاعت أن تتشبع بهذه الروح القومية وأن تتمثل حركات «رقصة الشال» على هذا النحو؟ لا أدري، المهم أن الروح التي تجلت في وقفة الفتاة وفي حركاتها، وهي وقفة وحركات لا سبيل إلى تقليدها، وقفة وحركات نابعة من الفطرة، وقفة وحركات روسية. كانت عين ما توقعه العم منها. فما إن اتخذت وضع الرقص، وابتسمت ابتسامة الفخر والعزة التي يمازجها مَكر مَرِح، حتى زال عن نيقولا وعن جميع الحضور ذلك الخوف الذي اعتراهم في الوهلة الأولى لظنهم أنها لن تحسن التصرف، فإذا هم يعجبون بها إعجابًا مذهلًا.

فعلت كل ما كان يجب أن تفعله، بل بلغت فيه من حسن التمام والكمال أن آنيسيا فيدوروفنا التي أسرعت تناولها منديلها الذي لا بد منه للرقص، قد ذرفت من خلال ضحكها دمعة وهي تنظر إلى هذه الكونتيسة الهيفاء النحيلة الرشيقة التي نشأت بين الحرير والمخمل، وكانت بعيدة عنها كل البعد، فإذا

هي ترى فيها الآن كل ما فيها وما في أبيها وما في عمتها وما في أمها، هي آنيسيا، وترى فيها كل ما في أي إنسان روسي.

قال العم وهو يضحك ضحكًا مرحًا حين انتهى الرقص:

– هيه عزيزتي الكونتيسة الصغيرة الأمر واضح، إلى الأمام سر. مرحى يا ابنة أخي. لم يبق الآن إلّا أن نختار لك فتى جسورًا يكون لك عريسًا. المسألة واضحة، إلى الأمام سر!

قال نيقولا مبتسمًا:

– الاختيار تمَّ.

فقال العم مدهوشًا وهو يلقي على ناتاشا نظرة فيها معنى السؤال:

– هاه!

فحركت ناتاشا رأسها مؤمِّنة وهي تبتسم ابتسامة سعيدة. وقالت:

– وما أحسنه من عريس!

لكنها ما إن نطقت بجملتها هذه حتى اجتاحتها موجة جديدة من الأفكار والعواطف. ماذا كانت تعني ابتسامة نيقولا حين قال: «الاختيار تم»؟ أهو مغتبط أم لا؟ لكأنه يعتقد أن خطيبي بولكونسكي ما كان ليحبذ مرحنا هذا، وما كان ليفهمه. كذلك تساءلت ناتاشا، فإذا بوجهها يربدّ. ولكن هذا لم يدم إلّا لحظة، فقد قالت لنفسها: «لا تفكِّرَنّ في هذا الأمر الآن، فما ينبغي لنا أن نفكر فيه!»، ومضت إلى العم تجلس بقربه مبتسمة، وتسأله أن يعزف شيئًا آخر.

فعزف العم أغنية ولحنًا من ألحان رقص الفالس. ثم تنحنح بعد لحظة صمت، وأخذ يغني أغنية الصيد، وهي الأغنية الأثيرة في قلبه:

حينما في المساء

يأخذ الثلج يهطل...

كان العم يغني كما يغني الشعب، مقتنعًا ذلك الاقتناع الكامل الساذج بأن الكلام وحده هو الشيء الهام في الأغنية، وأن اللحن ينضاف إلى الكلام إنضيافًا من تلقاء نفسه، وأن لا لحن يقوم بذاته، وأن اللحن إنما وُجد للوزن لا غير. فلذلك كان غناؤه الذي صدح به على غير وعي وشعور كما يغرِّد

عصفور، غناء يبلغ غاية الجمال، فالتهبت ناتاشا حماسة، وقررت أن تترك العزف على آلة «الهارب»، وأن لا تعزف بعد اليوم إلّا على القيثارة، وطلبت من العم أن يناولها قيثارته، وسرعان ما استطاعت أن تُخرِج منها نغمات ترافق بها الغناء.

وفي نحو الساعة العاشرة وصلت عربتان وثلاثة فرسان لأخذ ناتاشا وبيتيا. وقال أحد الفرسان إن الكونت والكونتيسة كانا لا يعرفان أين ناتاشا وبيتيا، فقلقا عليهما قلقًا شديدًا.

حُمل بيتيا ووُضع في إحدى العربتينِ وهو ما يزال غارقًا في نوم ثقيل. وركب نيقولا وناتاشا العربة الثانية. ودثّر العم ناتاشا وودَّعها بحنان كبير وعاطفة جائشة. ورافق الركب سائرًا على قدميه إلى الجسر الذي كان يجب الالتفاف عليه ليقطعوا النهر خوضًا، وأصدر أمره إلى صيَّاديه أن يسبقوهم بمصابيح.

وصاح صوت العم يقول في الظلام:

- استودعك الله يا ابنة أخي العزيزة!

ولم يكن صوته في تحية الوداع هذه ذلك الصوت الذي كانت تعرفه ناتاشا، وإنما كان هو الصوت الذي صدح به مغنيًا: «حين في السماء...».

كانت أضواء حمراء تسطع في القرية التي اجتازوها وشمّوا فيها رائحة دخان جذلى. فلما وصلوا إلى الطريق الكبيرة، قالت ناتاشا:

- يا لهذا العم من أعجوبة رائعة!

فقال نيقولا:

- حقًّا. وأضاف: ألا تشعرين ببرد؟

قالت ناتاشا كالمدهوشة هي نفسها:

- لا، أنا في خير حال، في خير حال.

ولزما الصمت.

كانت الليلة حالكة الظلام رطبة. وكانت الخيل لا تُرى ولكن يُسمع خوضها في الوحل.

ما الذي كان يحدث في نفس تلك الطفلة، المنفتحة لكل شيء، تدرك

وتتمثل في نهم وشراهة، أكثر الإحساسات تنوّعًا؟ كيف يلتقي فيها ويتصالح فيها هذا كلّه؟ المهم أنها كانت سعيدة سعادة كبيرة. وما أن أوشكوا على الوصول إلى المنزل حتى صدح صوتها مغنّيًا: «حينما في المساء، يأخذ الثلج يهطل...». لقد ظلّت طوال الطريق تبحث عن اللحن حتى اهتدت إليه.

قال نيقولا:

اهتديت إليه أخيرًا؟

فسألته ناتاشا:

- في أي شيء كنت تفكر اللحظة؟

كان الأخ وأخته يحبان أن يتطارحا هذا السؤال.

فقال نيقولا محاولا أن يتذكر:

- أنا؟ آ... نعم... فكرت أولًا في أن «روجاي» هذا الكلب الأحمر، يشبه العم. فلو كان هو الرجل وكان العم هو الكلب، لاحتفظ به في منزله، إن لم يكن في سبيل الصيد، فبسبب ما بينهما من حسن التفاهم. ما أسهله عيشًا، هذا العم، أليس كذلك؟ وأنتِ، في أي شيء كنت تفكرين؟

- أنا؟ انتظر. آ... نعم... فكرت أولًا في أننا ظانون أننا عائدون إلى المنزل، ولكننا في حقيقة الأمر ماضون في هذا الظلام إلى حيث لا يدري إلّا الله، وأننا واصلون فجأة إلى مكان ليس هو أوترادنويا بل هو أرض مسحورة. ثم فكرت أيضًا... لا... لم أفكّر في شيء...

فقال لها نيقولا مبتسمًا (وقد حزرت ناتاشا من نبرة صوته أنه مبتسم):

- بل لا شك أنك فكّرت «فيه».

فقالت ناتاشا نافية: - لا.

ولكنها في حقيقة الأمر كانت قد فكرت في الأمير أندريه أيضًا، وتساءلت هل تراه يُعجبه العم. وأردفت تقول:

- ... آ... وكنت طول الطريق أتصور أيضًا آنيسيا فدوروفنا فأقول لنفسي: «ما أحسن عنايتها بنفسها!».

سمع نيقولا ضحك أخته ينطلق في الظلام رنانًا وضّاحًا سعيدًا لا تكلّف فيه ولا اصطناع.

واستأنفت ناتاشا كلامها فجأة تقول:

- أحسّ أنني لن أنعم في يوم من الأيام بمثل ما أنعم به سعادة وهدوءًا.

فقال نيقولا محتجًّا:

- كفاك سخافات وترّهات!

ولكنه قال بينه وبين نفسه في الوقت ذاته: «ما أروع ناتاشا هذه! ليس لي ولن يكون لي صديق مثلها في يوم من الأيام. ما حاجتها إلى الزواج؟ لسوف نظل نقوم برحلات صيد بهيجة كرحلة هذا اليوم!».

وكانت ناتاشا تقول لنفسها أيضًا: «ما أروعه، نيقولا هذا!».

وقالت وهي تومئ إلى نوافذ المنزل التي كانت تتلألأ فرحة في ظلام الليل الرطب المخملي:

- آه.. لا يزال الصالون مضاءً!

الفصل الثامن

كان الكونت إيليا آندريتش قد تنازل عن منصب مارشال الطبقة النبيلة، وهو منصب كان يكلّفه نفقات طائلة. ولكن حالته المالية ظلّت سيّئة لا تتحسّن. وكثيرًا ما فاجأ نيقولا وناتاشا أحاديث سرّية قلقة تدور بين أبويهما، حتى لقد سمعا كلامًا عن بيع المنزل الفخم الذي ورثته الأسرة عن الآباء والأجداد في موسكو، وعن بيع الأملاك التي تقع في ضواحي موسكو.

أصبح الكونت، وقد ترك منصب مارشال النبالة، في غير حاجة إلى إقامة حفلات استقبال فخمة، وأصبحت الحياة في أوترادنويا أهدأ مما كانت عليه في السنين السابقات. ولكن المنزل الكبير والأجنحة التي تقوم في الحوش، لا تزال ملأى بالناس، ولا يزال عدد الذين يُطعَمون على مائدة الكونت يربو على عشرين شخصًا فهم أصبحوا منذ عهد بعيد من سكان المنزل، حتى لكأنهم من أفراد الأسرة، ومنهم من كان يبدو أنهم لا يستطيعون أن يتخلّوا عن المعيشة في هذه الدار، كالموسيقي ديملر وامرأته ومعلّم الرقص فوغل وامرأته، والآنسة العجوز بيلوف، وآخرون كثيرون كمعلمي بيتيا، وخادمة عجوز من خادمات البنات؛ ومنهم أناس يرون أن العيش في منزل الكونت أمتع أو أريح من العيش في بيوتهم. وقد قلّ تدفق الزائرين، ولكن طراز الحياة بقي على حاله لم يتغيّر، وكان الكونت والكونتيسة لا يتصوران للحياة طرازًا آخر. فلا يزال للأسرة ركب الصيد الذي كانت تملكه، حتى لقد زاد نيقولا عدده، ولا تزال الخيول خمسين، ولا يزال السائسون في الأسطبل خمسة عشر؛ ولا تزال الأسرة تهدي هدايا باهظة الثمن في الأعياد، وما تزال تقيم في هذه المناسبات حفلات عشاء كبرى تدعو إليها وجوه القوم

في المقاطعة كلها، ولا تزال موائد القمار بلعبة الويست والبوستون تُمدُّ ويشارك فيها الكونت تاركًا للجميع أن يروا أوراقه، فيربح منه جيرانه في كل مرة مئات الروبلات، حتى إن هؤلاء أصبحوا يعدّون المقامرة مع الكونت إيليا آندريتش موردًا من موارد ربحهم.

أصبح الكونت يتخبّط في شؤون أعماله تخبّطه في شبكة واسعة، محاولًا أن يوهم نفسه بأنه لا يتخبط، وهو في حقيقة الأمر يزداد تعثرًا وارتباكًا في كل خطوة يخطوها، فلا يشعر بأنه قادر على قطع هذه الشبكة التي أصبح سجينها، ولا بأنه قادر على أن يشرع في فك حبالها بأناة وروية وصبر. وكانت الكونتيسة، ذات القلب المحب الحنون، تحس بأن أولادها مهدَّدون بالدمار، ولكنها لا تؤاخذ الكونت فهو ليس مذنبًا، وهو يشعر بخرابه وخراب أولاده، فيتألّم من ذلك وإن أخفى ألمه، فكانت تحاول بجميع الوسائل أن تجد من هذه الحال مخرجًا، فلم يعرض لها - وهي المرأة - إلّا حل واحد! هو أن يتزوج نيقولا فتاة غنية. كانت تحسّ أن هذا هو الأمل الأخير، فإن رفض نيقولا الفتاة التي وقع عليها اختيارها زوجة له، فلا أمل في أن تصلح حال الأسرة أبدًا. وكانت جوليا كاراجين هي الفتاة التي وقع عليها اختيار الكونتيسة وطمعت فيها زوجة لابنها. إنها فتاة ابواها ممتازان فاضلان، يعرفها آل روستوف منذ طفولتها، وقد أصبح لها ميراث ضخم بعد أن توفّي آخر أخوتها.

كتبت الكونتيسة للسيدة كاراجين رأسًا، وبعثت الرسالة إلى موسكو، تعرض عليها هذا القران بين ابنتها وابنها، وتلقت من السيدة كاراجين جوابًا مرضيًا. قالت السيدة كاراجين إنها من جهتها موافقة، وإن الأمر كله رهن بميل ابنتها، ودعت نيقولا أن يجيء إلى موسكو.

وكانت الكونتيسة قد قالت لابنها مِرارًا، والدموع تترقرق في عينيها، إن رغبتها الوحيدة بعد أن استقرت حال ابنتيها في أمر الزواج هي أن تراه وقد تزوج، فتموت قريرة العين مطمئنّة النفس. ثم صارحته بأنها قد اختارت له فتاة رائعة، وحاولت أن تعرف ما يدور في رأسه من أفكار بصدد الزواج.

وكانت في أوقات أخرى تمدح جوليا وتثني عليها ثناء عاطرًا، وتنصح

نيقولا بأن يذهب إلى موسكو يسرّي عن نفسه ويتسلّى بمناسبة الأعياد. فكان نيقولا يحزر ما تنويه أمه، وما تريد أن تنتهي إليه، واستطاع ذات مرة في أثناء حديث بينهما أن يجرّ أمه إلى الإفصاح عما تخفيه إفصاحًا صريحًا، فقالت له إن الأمل الوحيد في إصلاح أحوال الأسرة هو أن يتزوج جوليا كاراجين. فما كان منه إلّا أن سأل أمه من دون ان ينتبه إلى قسوة السؤال، من دون أن يهمه ألّا يظهر نبل نفسه:

- ماذا؟ أتطلبين مني يا ماما، إذا كنت أحبّ فتاة لا ثروة لها، أن أضحّي في سبيل المال بعاطفتي وشرفي؟

فقالت الأم مرتبكة وهي لا تعرف كيف تبرّر كلامها:

- لا، إنك لم تفهمني. لم تفهمني يا نيقولا.

ثم أضافت تقول وهي تحسّ بأنها لا تصدق وأنها تورّطت:

- أنا أريد سعادتك!

وأجهشت تبكي.

أسرع نيقولا يقول لها:

- ماما، لا تبكي، يكفي أن تعلني لي رغبتك حتى أضحّي بحياتي كلها. إنني مستعدٌّ لكل شيء في سبيل أن تهدئي بالًا وتقرّي نفسًا. إنني مستعدٌّ لأن أضحّي في سبيلك حتى بعاطفتي.

ولكن الكونتيسة كانت لا تفهم الأمر على هذا النحو. فهي لا تريد أن يضحّي ابنها بنفسه، وأنها لتود لو تضحّي هي بنفسها في سبيله. فقالت وهي تجفّف دموعها:

- لا، إنك لم تفهمني. فلن أتكلّم في هذا الأمر بعد الآن.

وحدّث نيقولا نفسه قائلًا: «نعم، يمكن أن أحب فتاة فقيرة، فهل يجب عليَّ في هذه الحال أن أضحّي في سبيل المال بعاطفتي وشرفي؟ يدهشني أن تقول لي أمّي هذا الكلام. إذا كانت صونيا فقيرة، يحرَّم عليَّ أن أحبّها، ويحرّم عليَّ أن أستجيب لما تحمله لي من حبّ زاخر بالوفاء والإخلاص والتفاني. لا شك في أنني سأكون معها أسعد مني مع دمية مثل جوليا. هبني مستعدًا لأن أضحّي في سبيل أبويَّ بعواطفي، ولكنني لا أستطيع أن أقمع

هذه العواطف. إذا كنت أحبّ صونيا، فإن هذه العاطفة هي عندي أقوى من كل شيء وأجلّ شأنًا من كل شيء».

ولم يذهب نيقولا إلى موسكو، وكفت الكونتيسة عن محادثته في أمر الزواج، ولكنها أخذت تلاحظ، وهي تشعر بحزن شديد، وتشعر أحيانًا بغيظ قوي، علاقات تقارب متزايد بين ابنها وبين صونيا، الفتاة التي لا تملك مهرًا. وكانت تأخذ على نفسها أنها لا تستطيع أن تمسك عن مشاكسة صونيا والتذمّر منها، وعن توبيخها وتقريعها في كثير من الأحيان، وعن جرح شعورها بمخاطبتها بصيغة الجمع، وقولها لها «أيتها الآنسة العزيزة». وكان ما يحنق الكونتيسة الطيبة على صونيا أكثر من أي شيء آخر هو أن هذه القريبة الفقيرة ذات العينين السوداوين كانت عذبة رقيقة طيّبة مخلصة وفية، تحمل لهؤلاء الذين أحسنوا إليها أعمق عواطف العرفان بالجميل، وتحبّ نيقولا حبًّا بلغ من الثبات والتفاني أنها لا يمكن أن يؤخذ عليها شيء.

وكان نيقولا في نهاية إجازته عند أهله. وكان الأمير أندريه قد بعث برسالة رابعة من روما يقول فيها إنه لولا أن جرحه قد انتكأ فجأة بتأثير حرارة الجو، فأصبح مضطرًا إلى البقاء في الخارج حتى مطلع العام القادم، لكان الآن في طريق عودته إلى روسيا. إن ناتاشا لا تزال تحبّ خطيبها، ولا تزال سعيدة بهذا الحب، ولا تزال منفتحة النفس لجميع أفراح الحياة ومباهجها. ولكنها في نهاية الشهر الرابع الذي انقضى على الفراق، اعترتها نوبات حزن لم تستطع أن تغالبها. وكانت تأخذها بنفسها شفقة، وتأسف على هذا الوقت الذي ينقضي ويضيع هباء، بينما هي تشعر بقدرة هائلة على أن تُحِبَّ وأن تُحَب.

أوغاب المرح عن منزل آل روستوف.

الفصل التاسع

جاءت أعياد الميلاد، فلم تتميّز بشيء خاصٍّ، سوى القدّاس الفخم الذي أقيم للمناسبة، والمعايدات المصطنعة والتمنّيات المملّة التي أزجاها الجيران والخدم، والثياب الجديدة التي لبسها الجميع. ولكن هذا البرد الذي بلغ عشرين درجة تحت الصفر[1] بلا رياح، وهذه الأيام الوضّاءة التي يغمرها نور الشمس، وهذه الليالي الجميلة التي تتلألأ في سمائها النجوم كانت تحض المرء على أن يحتفل بهذه الفترة بطريقة من الطرق.

تفرَّق الجميع في اليوم الثالث من أعياد الميلاد، هذا هو الوقت الذي يثقل فيه الضجر على النفس أكثر من أي وقت آخر. وكان نيقولا قد قام في الصباح بزيارة عدد من الجيران، ثم نام في غرفة التدخين، وكان الكونت يستريح في مكتبه. وكانت صونيا جالسة إلى المائدة المستديرة في الصالون تنقل رسمًا من الرسوم. وكانت الكونتيسة تصفّ ورق اللعب منَجِّمة مبصِّرة. وكان ناستاسيا إيفانوفنا، المهرِّج، يجالس امرأتين عجوزين عابس الوجه حزين الهيئة.

دخلت ناتاشا على صونيا ونظرت إلى ما تفعله، ثم ذهبت إلى أمها ووقفت صامتة. فقالت لها أمها:

– ما بالك تطوفين كالروح الهائمة المعذبة؟ ماذا تريدين؟

فأجابت ناتاشا ساطعة العينين لا تبتسم:

– «هو» من أريده حالًا، «هو» من أحتاج إليه في هذه اللحظة نفسها! لا بد لي «منه».

---

(1) 20 ريناموِر، أي – 25 مئوية.

فرفعت الأم رأسها تحدّق إلى عيني ابنتها. فقالت ناتاشا:

- لا تنظري إليَّ هذه النظرة يا ماما، لا تنظري إليَّ هذه النظرة، وإلا طفرت الدموع من عينَيَّ حالًا.

قالت الكونتيسة:

- اجلسي، اجلسي بقربي قليلًا.

- ماما، إنه «هو» من أحتاج إليه. لماذا يجب عليَّ أن أبعثر حياتي هذه البعثرة يا ماما؟

واختلج صوتها، وانبجست دموع من عينيها، فأسرعت. تشيح وجهها إخفاء لدموعها، وخرجت.

ذهبت إلى غرفة التدخين، فتردَّدت لحظة تفكّر، ثم مضت إلى غرفة الخادمات. كانت امرأة عجوز في غرفة الخادمات تقرّع فتاة وصلت من حجرات الخدمة راكضة لاهثة، وتقول:

- كفى تسلية. لكل شيء أوانه.

فقالت ناتاشا:

- دعيها يا كوندراتيفنا! اذهبي يا مافروشكا، اذهبي!

وبعد أن أنقذت مافروشكا، اجتازت ناتاشا صالة الحفلات، واتجهت إلى حجرة المدخل. كان في حجرة المدخل خادم شيخ وخادمان شابان يلعبان بالورق. فما إن رأوا مولاتهم الشابة داخلة عليهم حتى قطعوا لعبتهم، وهبّوا واقفين.

تساءلت ناتاشا: «ما الذي يمكنني أن استخدمهم فيه؟». ثم لم تلبث أن قالت: نيكيتا، أرجوك أن تذهب إلى..

وتساءلت: «إلى أين يمكن أن أرسله؟»، ثم أردفت:

- اذهب إلى حجرة الخدمة، وائتني بديك[1]. وأنت يا ميشا جئني بشوفان.

---

(1) في الريف تمتد أعياد الميلاد إلى الغطاس: ففي هذه الفترة تقام حفلات تنكرية، وحفلات رقص، وتتنبأ البنات بالمستقبل على العادات القديمة، وكما مرّ معنا: يؤتى بديك وشوفان، ويكون على الديك أن ينقر الشوفان مؤشرًا عليه بطباشير، ويذاب شمع، وتذهب البنت تسأل المستقبل في قاعة الحمام المقفرة، باحثه في طيف الخطيب الذي سيخطبها في انعكاس مرآتين متقابلتين، إلخ.

فقال ميشا سائلًا، بلهجة فرحة تدل على اغتباطه بالقيام بهذه الخدمة:

- بقليل من الشوفان لا بكثير؟ أليس كذلك؟

فقال العجوز مؤمِّنًا:

- اذهب، اذهب بسرعة.

وقالت ناتاشا:

- وأنت يا فيدور، ابحث لي عن طبشورة.

وحين مرَّت بغرفة الخدمة، أمرت فوكا بإعداد سماور الشاي، مع أن الأوان ليس أوان الشاي.

إن خادم المائدة فوكا هو أكثر سكان المنزل تجهّمًا وفظاظة. وكان يحلو لناتاشا أن تمارس عليه سلطتها. فلم يصدق أذنيه ولم يأخذ أمرها مأخذ الجد إلّا بعد أن أكّدته له. فقال وهو يتصنّع العبوس:

- آه... هذه الآنسة.

ما كان أحد من أرباب المنزل يكلّف الخدم بمهمات كثيرة، مثل ناتاشا. فما إن يقع بصرها على أحد منهم حتى ترسله في مهمة إلى مكان من الأمكنة. فكأنها تريد أن ترى هل يضيق أحد ذرعًا بأوامرها، وهل يتلكأ في تنفيذها أو يعصاها. ولكن الخدم كان يسرّهم أن ينفذوا أوامرها أكثر مما يسرهم أن ينفذوا أوامر أي شخص آخر في المنزل.

وتساءلت ناتاشا وهي تتابع سيرها في الدهليز: «ماذا يمكنني أن أفعل أيضًا؟ أين يمكن أن أذهب؟». وبينما هي سائرة في الدهليز ببطء إذ رأت المهرّج ناستاسيا إيفانوفنا مقبلًا عليها بجلبابه الفضفاض، فقالت تسأله:

- ما عسى ألِد يا ناستاسيا إيفانوفنا؟

- أنت براغيث، يعاسيب، جداجد...

قالت ناتاشا محدّثة نفسها: «يا إلهي، يا إلهي، كل شيء على حاله لم يتغيّر. آه... أين أذهب؟».

وأخذت تصعد السلم المؤدي إلى فوغل الذي يقيم هو وامرأته في الطابق الأعلى، أخذت تصعد السلم وهي تقطع الدرجات أربعًا أربعًا وتحدث ضجة شديدة. كانت المربيتان عنده، وكانت المائدة مثقلة بأطباق

الزبيب والجوز واللوز. وكانت المربيتان تقارنان بين أسعار الحياة بموسكو وأسعار المعيشة بأوديسا.

جلست ناتاشا تستمع إلى الحديث عابسة الهيئة شاردة الفكر ثم قامت وهي تقول:

- مدغسقر... مد..غسقر...

نطقت باسم مدغسقر وكررته، مبرزة كل حرف من أحرفه، من دون أن تجيب عن أسئلة مدام شوس التي سألتها ماذا تقول. وانصرفت.

وكان أخوها بيتيا في ذلك الطابق أيضًا، يحضِّر بمساعدة معلمه الأسهم النارية التي ينوي إطلاقها في الليل. فهتفت تقول له:

- بيتيا، بيتيا، احملني على ظهرك، وأنزلني إلى تحت. فهرع بيتيا إليها وحنى لها ظهره، فوثبت إلى ظهره، وأحاطت بذراعيها عنقه، وأخذ بيتيا يهبط بها السلم راكضًا متواثبًا.

فقالت ناتاشا قبل أن يصل بها إلى آخر السلم:

- كفى هذا. لا داعي.

وعادت تكرّر قولها:

- مدغسقر.

ووثبت عن ظهره تهبط بقية درجات السلم.

وكأن ناتاشا أنهت الطواف في أرجاء مملكتها، وأحسّت بما لها من نفوذ وسطوة وسلطان، وتأكدت أن الناس جميعهم طيّعون خاضعون، وأن هذا كله لا ينفي أن ضجرًا شديدًا يخيم على هذه المملكة، فذهبت إلى الصالون الكبير، وتناولت القيثارة، وجلست في ركن معتم الوراء خزانة صغيرة، وأخذت تنقر الأوتار الجهيرة من القيثارة، محاولة أن تعزف جملة موسيقية من مسرحية أوبرا، كانت قد سمعتها في صحبة الأمير أندريه في بطرسبورغ. فلو سمع شخص آخر ما عزفته لما كان له في نظره أي معنى ولا كان له في نفسه أي وقع، ولكن هذه الأصوات التي أخرجتها من أوتار القيثارة قد بعثت في خيالها عالمًا كاملًا من ذكريات. كانت، وهي جالسة الوراء الخزانة الصغيرة محدّقة إلى شعاع من ضوء ساقط من باب غرفة الخدمة، تصغي إلى عزفها وتتذكّر. كانت تعيش الماضي مرة أخرى.

واجتازت صونيا الصالون ذاهبة إلى «الأوفيس» حاملة بيدها كأسًا. فرفعت ناتاشا عينيها تنظر إليها وتنظر إلى شق الباب، فبدا لها سقوط شعاع النور من شق الباب ومرور صونيا بكأسها، جزءًا مما كانت تتذكّره. وقالت لنفسها: «نعم، حدث هذا على هذا النحو تمامًا».

وصرخت ناتاشا وهي تضرب الوتر الغليظ:

- صونيا! ما هذا الذي أعزفه؟

فارتعشت صونيا وقالت:

- آ... أنت هنا؟

وأقبلت عليها، وأخذت تصغي، ثم قالت تسألها في خجل ووجل، خائفة أن تخطئ:

- لا أدري أهو «العاصفة»؟

قالت ناتاشا محدّثة نفسها: «نعم، على هذه الصورة تمامًا ارتعشت وعلى هذه الصورة تمامًا أقبلت علي، وعلى هذه الصورة تمامًا ابتسمت خجلة وجلة حين حدث هذا كلّه أول مرة. وعلى هذه الصورة تمامًا إنما قلت أنا لنفسي ما أقول الآن من أنها محتاجة إلى شيء قطعًا».

وقالت تردّ على صونيا:

- لا، ليس ما أعزفه هو «العاصفة»، بل هو غناء الجوقة في حامل الماء[1].

ومن أجل أن تقنع صونيا بذلك غنّت اللحن إلى آخره ثم سألتها:

- إلى أين كنت ذاهبة؟

- كنت أريد تغيير ماء الكأس. سأنهي رسمتي بعد قليل.

قالت ناتاشا:

- أنت تعرفين دائمًا كيف تشغلين نفسك بشيء أما أنا فلا أعرف... أين نيقولا؟

- أظن أنه نائم.

- فاذهبي وأيقظيه إذًا، وقولي له أن يأتي إليَّ ليغنّي معي.

ثم غاصت في ركنها، وتساءلت كيف أمكن أن يحدث هذا كلّه من قبل،

---

(1) أوبرا ألفها شيروبيني سنة 1800.

فلم تفلح في الإجابة عن هذا السؤال، ولكن ذلك لم يؤنسها، وعادت تنتقل بخيالها إلى العهد الذي كانا فيه معًا، وكان ينظر إليها بعينين تلتهبان حبًّا.

قالت محدّثة نفسها: «آه... ألا فليرجع بسرعة. إني لا أخشى كثيرًا ألا يتم زواجنا. وأنا مع ذلك أتقدّم في السن وأشيخ. فلن أكون في المستقبل. أنا الآن. ولكن قد يصل اليوم. قد يصل في الحال. ولعله هو الآن في الصالون. بل لعله وصل بالأمس ونسيت أنا ذلك».

وقامت، فوضعت القيثارة وذهبت إلى الصالون. كان الجميع قد جلسوا إلى مائدة الشاي، معلّمين ومربّيات وأسرة وزوّارًا. وكان الخدم واقفين في أماكنهم. ولكن الأمير أندريه لم يكن هناك، والحياة لا تزال كما كانت.

قال إيليا آندريتش حين رأى ابنته داخلة:

- آ... ها هي ذي! هلمّي. اجلسي بجانبي.

ولكن ناتاشا وقفت بقرب أمها ناظرة حواليها كأنها تبحث عن شيء.

ثم قالت متوسّلة ضارعة:

- ماما! هاتيه لي، هاتيه لي حالًا، حالًا.

ومرة أخرى لم تستطع أن تحبس نشيجها إلّا بكثير من المشقة.

وجلست إلى المائدة، وأنصتت إلى محادثات الكبار، والى حديث نيقولا الذي جاء هو أيضًا. فقالت تحدّث نفسها: «يا إلهي! الوجوه نفسها، المحادثات نفسها، بابا الذي يمسك فنجانه بالطريقة نفسها، وينفخ عليه النفخ نفسه!». وهالها أن تحسّ بأن اشمئزازًا شديدًا من جميع سكان المنزل قد ملأ نفسها، لأنهم لا يزالون هم أنفسهم.

وبعد العشاء مضت ناتاشا وصونيا ونيقولا إلى غرفة التدخين، يلوذون بركنهم المفضَّل فيها، وهو الركن الذي كانت تدور فيه بينهم الأحاديث الحميمة.

الفصل العاشر

قالت ناتاشا تسأل أخاها حين استقروا في غرفة التدخين:

- هل يحدث لك هذا، هل يحدث لك أن تحسّ بأنه لن يكون شيء، لن يكون شيء البتة، وأن السعادة التي يمكن أن تنعم بها نعمت بها وانتهى زمنها، فهي من الماضي، فينتابك عندئذ حزن، حزن وضجر؟

فأجاب نيقولا:

- طبعًا. تكون الأمور في بعض الأحيان على أحسن حال، ويكون جميع الناس فرحين جذلين، فإذا أنا أشعر فجأة باشمئزاز من هذا كله، وأفكّر في أن البشر جميعًا صائرون إلى الموت. حين كنت في الجيش، رفضت المشاركة في نزهة، وكان في النزهة مع ذلك موسيقى، فإلى هذا الحد كان الضجر قد استبد بنفسي وملأ جوانحي...

واستأنفت ناتاشا كلامها فقالت:

- آ... أعرف أنني أنا هذا. أعرفه. أعرفه. كنت طفلة حين حدث لي. هل تتذكّر؟ لقد عاقبوني ذات يوم بسبب ثمار خوخ لها قصة. وكنتم ترقصون جمعيًا، وكنت أنا في قاعة الدروس، وكنت أذرف دموعًا حارة. لن أنسى هذا ما حييت. كنت حزينة، وكنت أرثي لحالكم وأرثي لحالي، وأرثي لحالكم جميعًا. وكان يحزنني خاصّةً أنني لم أكن قد أذنبت. هل تذكر؟

قال نيقولا:

- نعم. وأذكر أنني ذهبت بعدئذ إليك أريد أن أواسيك وأعزّيك، ولم أعرف كيف أفعل. كنت أشعر بخجل. وكنا مضحكَين كلانا، مضحكَين جِدًّا. كانت معي دمية صغيرة، فأردت أن أهديها إليك، هل تذكرين؟

قالت ناتاشا وهي تبتسم ابتسامة حالمة:

- وهل تذكر أن عمنا نادانا يومًا إلى مكتبه، وكنا صغارًا جِدًّا، فقد حدث هذا منذ زمان بعيد، وكنا في المنزل القديم، وكان الظلام دامسًا، فما إن دخلنا عليه، حتى رأينا على حين فجأة...

- زنجيًا...

كذلك أكمل نيقولا جملة أخته مبتسمًا ابتسامة فرحة، وواصل كلامه قائلًا:

- كيف لا أذكر هذا؟ وإني حتى هذه اللحظة لا أدري أكان في المكتب زنجي حقًّا، أم أننا رأينا ذلك حلمًا في النوم، أم إن الأمر كله حكاية حُكيت لنا...

- كان لونه كالرماد الداكن، وكانت أسنانه بيضاء ناصعة البياض، وكان ينظر إلينا...

قال نيقولا سائلًا:

- هل تذكرين يا صونيا؟

فأجابت صونيا في خجل:

- نعم، نعم، أذكر ذلك على نحوٍ غامض.

قالت ناتاشا:

- حدّثت عن هذا الزنجي بابا وماما. فقالا إنه لم يكن هناك زنجي قط. ولكنك تذكر طبعًا؟

- كيف لا أذكر؟ إني لأذكر أسنانه البيض كأنني رأيته بالأمس.

- ما أغرب هذا! لكأنه حلم ذلك ما يعجبني في الأمر كله.

- وهل تذكرين يوم كنا ندحرج بيضًا في صالة الرقص، فإذا بامرأتين عجوزين تنبجسان فجأة، وتأخذان تدوران حلقة على السجادة أحدث هذا أم لا؟ أتذكرين كم كان ذلك رائعًا؟

- نعم، وهل تذكر يوم أطلق بابا رصاصًا من على درجات الباب وهو مرتدٍ فروته الزرقاء؟

هكذا راح الأخ وأخته يستعرضان ذكريات ليست هي ذكريات الشيوخ

الحزينة، بل هي ذكريات الشباب الشعرية، إنها ذكريات هي إحساسات الماضي البعيد التي يمتزج فيها الحلم بالواقع، فكانا وهما يستعرضان هذه الذكريات يضحكان ضحكًا عذبًا، ويشعران بفرح لا يعرفان سببه.

وبقيت صونيا كالمتنحية، رغم أن ذكرياتهم مشتركة. كانت صونيا قد نسيت كثيرًا من الأمور التي كانا يستعرضان ذكرياتها، وكان ما تتذكره منها لا يوقظ في نفسها تلك العاطفة الشعرية التي كان الأخ والأخت يحسّانها. ولكنها كانت مبتهجة بفرحهما، وكانت تحاول أن تضع نفسها في جوّهما.

ولم تشارك في الحديث إلّا حين استعرضا ذكرى وصولها إلى المنزل فروت كيف أنها، خافت من نيقولا، لأن سترته الصغيرة كانت مزدانة بزخارف في عراها، ولأن خادمتها أرادت أن ترعبها فقالت لها إنها ستُعلَّق في السترة مع هذه الزخارف.

قالت ناتاشا:

- وأنا قيل لي إنك ولدت تحت نبتة يخنة، وأذكر أيضًا أنني لم أجرؤ ألا أصدق هذا الكلام، ولكنني كنت أعلم أنه غير صحيح، وشعرت من ذلك بضيق شديد.

وفيما كانوا يجرون هذه الأحاديث، مدت امرأة رأسها من شق الباب الموجود في آخر الغرفة وقالت همسًا:

- جيء بالديك يا آنسة.

فأجابت ناتاشا:

- لم تبق لي به حاجة يا يوليا.

وفي أثناء ذلك دخل ديملر ومضى إلى آلة «الهارب» التي كانت في ركن، ونزع عنها غطاءها، فأخرجت «الهارب» صوتًا نشازًا.

وسُمع صوت الكونتيسة تقول من الصالون:

- إدوارد كارلتش، أرجوك أن تعزف «ليلية» فيلد[1] الأثيرة عندي.

فنقر ديملر الأوتار، وقال وهو يلتفت إلى ناتاشا وصونيا ونيقولا:

---

(1) جون فيلد (1782 - 1831)، ملحّن كبير وعازف بيانو، أقام في روسيا منذ سنة 1821 مربيًا، ومؤلف «ليليات»، وكونشرتات للبيانو.

- ما أهدأ الشباب!

فقالت ناتاشا وقد أدارت رأسها لحظة واستأنفت الحديث:

- نعم، إننا نتكلّم في أمور فلسفية، وكنا نتحدّث الآن عن الأحلام.

وأخذ ديملر يعزف. فاقتربت ناتاشا من الطاولة صامتة سائرة على رؤوس الأصابع، وتناولت الشمعة، وحملتها عائدة بها إلى حيث كانت. كان الظلام يخيّم على الغرفة، ولا سيما في الركن الذي جلسوا فيه على الديوان، ولكنّ شعاعًا فضيًّا كان يسقط على أرض الغرفة من القمر الذي كان بدرًا.

قالت ناتاشا مدمدمة وهي تقترب من نيقولا وصونيا، بينما كان ديملر، بعد أن أنهى المعزوفة، يتساءل أيجب عليه أن يتوقّف عن العزف أم يبدأ معزوفة أخرى، وهو لا يزال يطوف بأصابعه على أوتار «الهارب»:

- هل تعلمون ماذا يخطر ببالي؟ يخطر ببالي أننا من فرط ما نحرّك الذكريات مدة طويلة، طويلة جِدًّا، نصل إلى تذكّر أمور حدثت قبل أن نولد نحن...

فقالت صونيا التي كانت تلميذة مجتهدة دائمًا، وكانت ذاكرتها أمينة:

- هذا هو التقمّص أو تناسخ الأرواح. لقد كان قدماء المصريين يعتقدون بأن أرواحنا كانت من قبل أرواح حيوانات، وأنها بعد موتنا تحل مرة ثانية في حيوانات.

قالت ناتاشا بصوت لا يزال دمدمة خافتة، رغم أن الموسيقى صمتت:

- لا أظن أننا كنا حيوانات، بل يقيني أننا كنا ملائكة هناك، في مكان ما، وهنا أيضًا، وأننا بسبب ذلك إنما نتذكّر كل شيء...

قال ديملر يسأل وقد اقترب بغير ضجة وجلس بقربهم:

- هل يمكنني أن أنضمَّ إليكم؟

وعلّق نيقولا:

- لو صح أننا كنا ملائكة فلماذا هبطنا إلى أسفل؟ لا، ليس ما تقولينه معقولًا.

- لم نسقط إلى أسفل. من قال لك إننا أدنى مما كنا؟ أين لي أن أعرف

ماذا كنت من قبل؟ إذا كانت النفس خالدة، وإذا كنت سأحيا إلى الأبد، فإنه يترتب على هذا أنني حييت الأزل كله.

كذلك قالت ناتاشا بحرارة واقتناع. فقال ديملر الذي انضم إلى الشباب وهو يبتسم ابتسامة خفيفة فيها معنى التواضع، ولكنه يتكلّم الآن مثلهم بهدوء وجد:

- نعم، ولكن يصعب علينا أن نتصوّر السرمدية التي تمتد من الأزل إلى الأبد.

فقالت ناتاشا:

لِمَ يصعب ذلك؟ بعد اليوم سيكون الغد، وقبل اليوم كان الأمس، وهكذا يمتد الزمان من الأزل إلى الأبد.

وسُمع صوت الكونتيسة تقول:

- ناتاشا! جاء دورك الآن. غنِّ لي شيئًا. ماذا تفعلون هناك كجماعة اجتمعوا لتدبير مؤامرة!

قالت ناتاشا:

- ماما، ليست بي رغبة في الغناء!

ولكنها قامت.

لم يكن أحد حتى ديملر الذي لم يعد شابًّا، يحب أن ينقطع هذا الحديث، وأن يترك هذا الركن من غرفة التدخين. ولكن ناتاشا قامت، ونيقولا جلس إلى البيانو. ومضت ناتاشا تقف، على عادتها، في وسط صالة الرقص، وهو المكان الذي يترجع فيه الصوت أحسن ترجيع، وغنَّت الأغنية الأثيرة على أمها.

لقد قالت إنها ليس بها رغبة في الغناء، ولكنها لم تحسن الغناء منذ زمن طويل كما أحسنته في ذلك المساء، وستظل زمنًا طويلًا لا تحسنه كما أحسنته في ذلك المساء. وكان الكونت إيليا آندريتش في مكتبه يكلم ميتنكا، فسمع غناءها، فإذا هو يعجِّل إصدار أوامره إلى وكيله، كتلميذ يستعجل الخروج إلى اللعب بعد الانتهاء من درس، ثم يصمت منصتًا، وكان ميتنكا جالسًا أمام الكونت ينصت هو أيضًا وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة. وكان

نيقولا لا يحوِّل بصره عن أخته، ويتنفس حين تتنفس. وكانت صونيا تصغي إلى الغناء فتفكّر في الفرق الكبير بينها وبين صديقتها، وتقول لنفسها إنها يستحيل عليها أن تملك جزءًا مما تملكه قريبتها من فتنة وسحر. وكانت الكونتيسة العجوز تبتسم وقد بان في وجهها حزن وسعادة في آن واحد، وكانت دموع تملأ مآقيها، وكانت تهز رأسها من حين إلى حين. كانت تتذكّر شبابها، وتفكّر في ابنتها أيضًا، فترى أن زواجها بالأمير أندريه غير طبيعي كثيرًا، وإنه محفوف بالمخاطر.

وكان ديملر قد جلس بقرب الكونتيسة يصغي إلى الغناء مغمضًا عينيه، فقال أخيرًا:

- هذه موهبة أوروبية يا كونتيسة، ليس في ذلك ريب. أصبحتِ في غنًى عن أن تتعلمي شيئًا. ما هذه الرخامة، ما هذه العذوبة، ما هذه القوة!...

فقالت الكونتيسة من دون أن يعنيها أن تعرف من الذي تكلّمه:

- آه... ما أشد خوفي عليها! ما أشد خوفي عليها!

كانت غريزة الأمومة فيها تقول لها إن في ناتاشا شيئًا متطرفًا مغاليًا، وأن هذا قد يحرمها من أن تكون سعيدة.

ولم تكن ناتاشا قد انتهت من الغناء، إذا بأخيها بيتيا يقتحم الصالة، ليعلن بحماسة الفتى الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، إن المقنَّعين قد وصلوا.

فتوقفت ناتاشا عن الغناء. وصرخت تقول له:

- غبيّ!

وأسرعت إلى كرسي، فتهاوت عليه وانفجرت تبكي ناشجة نشيجًا بلغ من القوة أنها لم تستطع أن تسترد سيطرتها على نفسها والكف عن البكاء إلّا بعد مرور وقت.

قالت تخاطب أمها وهي تحاول أن تبتسم، ولكن الدموع لا تزال تسيل والنشيج لا يزال يخنقها خنقًا:

- ليس هذا شيئًا ذا بال يا ماما. أؤكد لك أنه ليس شيئًا ذا بال. كل ما في الأمر أن بيتيا روَّعني.

وها هم أولاء الخدم، المقنعون دببةً وأتراكًا وخمّارين ونساءً من المجتمع الراقي، مضحكين أو مرعبين، آتين بالبرد والمرح، ها هم أولاد يزدحمون أول الأمر في الدهليز خجلين، ثم يختبئون بعضهم الوراء بعض ويلجّون الصالة. ثم يندفعون في الغناء والرقص والدوران وألعاب عيد الميلاد، على تردُّد في البداية، وبمزيد من المرح والإجماع شيئًا بعد شيء. وبعد أن تعرفت الكونتيسة المقنعين، وضحكت لتنكرهم، انسلّت ذاهبة إلى الصالون. وبقي الكونت إيليا آندريتش في الصالة يشجّعهم متألّق الابتسامة. واختفى الشبان. فما انقضى على اختفائهم نصف ساعة حتى انضمت إلى المقنّعين سيدة عجوز تحمل سلالًا (هي نيقولا) ثم انضمَّ إليهم تركي (هو بيتيا)، فمهرِّج (هو ديملر)، ففارس (هو ناتاشا)، فشركسي (هو صوفيا)، وكانت ناتاشا وصونيا كلتاهما قد رسمتا بالفلين المحروق على وجهيهما شوارب وحواجب.

فلما ظفروا من أولئك الذين لم يكونوا متنكرين بدهشة مصطنعة ومديح وافر، ولما تظاهر هؤلاء بأنهم لم يتعرفوهم، أحسَّ الشبان بأنهم وُفِّقوا في ارتداء هذه الثياب توفيقًا كبيرًا ونجحوا نجاحًا باهرًا، فأحبوا أن يراها أناس آخرون أيضًا. وكانت حالة الطرق ممتازة فاقترح نيقولا أن يمضي بالجميع في عربته إلى العم، مصطحبًا عشرة من الخدم المتنكرين. فقالت الكونتيسة معترضة:

- لا، فيم إزعاج الشيخ، إذا كان لا بد لكم أن تذهبوا إلى مكان ما، فاذهبوا إلى آل مليوكوف.

فكانت السيدة مليوكوف، مع أولادها المختلفة أعمارهم، ومع مربيات، ومعلمين، تقيم على بعد أربعة فراسخ من منزل آل روستوف.

قال الكونت الشيخ متحمسًا:

- هذه فكرة حسنة يا عزيزتي. سوف أتنكر أنا أيضًا، فأصحبكم إلى آل مليوكوف. سأعرف كيف أحرِّك باشيت[1] الطيبة هذه وأنشِّطها.

---

(1) صيغة مفرنسة لاسم باشا، وهو تصغير اسم بيلاجيا مليوكوف. ويصدق هذا على اسم ساشينيت الذي سيرد بعد قليل، فهو فرنسة لاسم ساشا، مصغَّر الكسندرا.

ولكن الكونتيسة لم تقبل أن يصحبهم الكونت، فقد كانت ساقه تؤلمه طوال الأيام الأخيرة. فتقرر إن إيليا آندريتش لا يمكن أن يذهب، ولكن إذا وافقت لويز إيفانوفنا (مدام شوس) على مرافقتهم، فمن الممكن أن تذهب البنات إلى منزل آل مليوكوف. وكانت صونيا، وهي المتحفظة أشدّ التحفظ، الخجول أشدّ الخجل، أكثر الجميع حماسة في الضراعة إلى لويز إيفانوفنا ألا ترفض.

وكانت ثياب صونيا أفضل الثياب. وكان شارباها وحاجباها فاتنين حقًّا. وكان الجميع يقولون لها إنها جميلة، فكانت، على خلاف عادتها، تزخر حماسة وحرارة وطاقة واندفاعًا. كان صوتٌ في أعماق نفسها يقول لها إن مصيرها إما أن يتقرّر اليوم وإما أن لا يتقرّر أبدًا. كانت في ثياب الرجال التي ترتديها تبدو إنسانًا آخر مختلفًا عنها كل الاختلاف. وقبلت لويز إيفانوفنا أن ترافقهم، فما انقضى نصف ساعة حتى كانت أربع عربات ترويكا قد جاءت تصطف أمام درجات الباب مثقلةً بأجراسها وجلاجلها، صارخةً بزلاقاتها على الثلج المتجلد.

وكانت ناتاشا أول من أطلق نغمة الفرح بعيد الميلاد، فإذا بهذا المرح ينتقل من فرد إلى فرد، وما ينفك يشتد مزيدًا من الاشتداد شيئًا بعد شيء، حتى خرج الجمع كلّهم إلى الهواء البارد يتخاطبون ويتنادون ضاحكين صارخين، وركبوا الزلاجات.

كانت اثنتان من عربات الترويكا زلّاجتي سباق. وكانت الثالثة التي قُرن بعريشها حصان خبَّاب من أورولوف هي عربة الكونت. أما الرابعة فهي عربة نيقولا وقُرن إلى عريشها حصان صغير أسود كثيف الشعر. وقد بقي نيقولا، الذي كان يلبس ثوب امرأة عجوز مع زنار ويرتدي فوقه معطف الفارس، واقفًا في وسط زلاجته ممسكًا بأعنّتها.

وكان الجو يبلغ من الصفاء أن نيقولا كان يرى في ضوء القمر، وركب ديملر وامرأته وبيتيا زلاجة الكونت. وتوزع الخدم المتنكرون صفائح المعدن في عُدَّة الخيل، وكان يرى بريق نظرات الأفراس وهي تلتفت إلى المسافرين. وركبت ناتاشا وصونيا ومدام شوس والخادمتان زلاجة نيقولا.

صاح نيقولا قائلًا لحوذي أبيه من أجل أن تتاح له فرصة تجاوزه على الطريق:

- تقدّمنا يا زاخار.

فتحرّكت عربة الكونت الشيخ التي ركبها ديملر ومتنكرون آخرون، صارفة بزلاقاتها التي كان الجليد يلصقها بالثلج، مجلجلةً بجرسها الجهير. وشدّت الأفراس أبدانها، وأخذت تتوغّل في ثلج يابس لامع كالسكر. تبع نيقولا الترويكا الأولى، وتحركت الوراءه العربات الآخرى في صخب وجلبة. وقد ساروا أول الأمر في الطريق الضيق خببًا، فكانت ظلال الأشجار العارية، على طول سيرهم في محاذاة الحديقة، تسبقط على الطريق عَرْضًا، فتحجب نور القمر الساطع، ولكن ما إن اجتازوا الحاجز حتى انبسط أمامهم سهل يغمره الثلج ويتلألأ كالماس، وتنعكس عليه أشعة يضرب لونها إلى زرقة، ويستحم في ضوء القمر الواضح الساكن، ويمتدّ إلى غير نهاية. وقد تواثبت عربة المقدمة مرةً فمرةً ثانية على أخدود، وتواثبت العربات الآخرى ذلك التواثب نفسه على ذلك الأخدود ذاته، وواصلت سيرها متباعدة لا يضير ضميرها أن تعكّر صفو هذا السكون الساجي.

وانطلق صوت ناتاشا في الهواء الذي جمَّده البرد، قائلًا:

- آثار أرانب برية، آثار كثيرة...

وقال صوت صونيا:

- ما أوضح الرؤية يا نيقولا!

فالتفت نيقولا إلى صونيا، ومال ليرى وجهها من قرب. فظهر له في ضوء القمر وجه فتّان، جديد كل الجدة بحاجبيه الكحيلين وشاربيه الأسودين، ظهر له خارجًا من ياقة فراء السمور، قريبًا وبعيدًا في آن واحد.

قال نيقولا لنفسه وهو يتفرّس فيها ويبتسم: «أهذه صونيا التي أعرفها من زمان قديم؟».

قالت صونيا:

- ماذا يا نيقولا؟

فأجابها وهو يلتفت ثانيةً إلى الخيل:

- لا شيء.

حتى إذا وصلوا إلى الطريق الكبير الذي مهدته زلاقات العربات، وخدّدته آثار كلّابات كثيرة تُرى في ضوء القمر، أخذت الخيول تشدّ الأعنة من تلقاء نفسها وتعجِّل سيرها. إن الحصان الأيسر يميل برأسه إلى اليسار، ويشدّ الأعنّة شدًّا متقطعًا. والحصان المقرون إلى العريش يترجح محركًا أذنيه كأنه يتساءل: «هل آن الأوان، أم لا؟». وكانت الترويكا السوداء التي يقودها زاخار قد أمعنت في السبق مجلجلة بجرسها على الثلج الأبيض. وكانت تنطلق منها صيحات المتنكرين وضحكاتهم وصرخاتهم.

وصرخ نيقولا يقول وهو يشدّ الأعنة بإحدى يديه، ويرفع يده الآخرى ليضرب بسوطه:

- هيَّا يا أصدقائي!

فما هي إلّا لمحة، حتى كان الهواء يصفع الوجوه صفعًا ما ينفك يشتد، فكان يكفي أن يحس المرء بالهواء يصفع وجهه هذا الصفع، وأن يرى الخيول كيف تشد المجرَّ دفعةً بعد دفعة، حتى يحسّ بسرعة جري العربة. وألقى نيقولا نظرة إلى الوراء، فرأى العربات الآخرى وسمع صياح المتنكرين، واصطفاق السياط، ووقع حوافر الخيل. وكان حصان عربته لا يزال يعدو سريعًا ولا يخطر بباله أن يبطئ، حتى إنه ليعد بمزيد من الإسراع إذا طُلب منه ذلك.

وأدرك نيقولا الترويكا الأولى. وأخذت العربتان تهبطان على منحدر، ووصلتا إلى طريق عريض مشقوق في مروج بمحاذاة نهر.

تساءل نيقولا: «أين نحن؟ لا شك أنها مروج كوسوي. ولكن لا. هذا شيء جديد ما رأيته من قبل قط. ما هذه مروج كوسوي، ولا هذا شاطئ نهر داميان. الله يعلم ماذا! هذا مكان جديد مسحور. ولكن أي بأس في ذلك؟!...». وأخذ يستحثّ حصانه مصرًّا على أن يسبق الترويكا الأولى.

فلجم زاخار عربته قليلًا، وأدار له وجهه الذي بيّضته الصبرة حتى الحاجبين وأطلق نيقولا أفراسه، فإذا بزاخار يمد يديه إلى أمامه، ويصفر بلسانه، ويطلق أفراسه هو أيضًا. وصاح يقول لنيقولا:

- انتبه يا سيدي! حذار!

وطارت العربتان جنبًا إلى جنب، وتسارع قرع حوافر الخيل مزيدًا من التسارع. وأفلح نيقولا في أن يتقدّم زاخار قليلًا. فرفع زاخار يده التي كانت ممسكة بالأعنة، من دون أن يغيّر وضع ذراعيه المشدودتين، وصاح يقول لنيقولا:

- لن تنتصر عليَّ يا مولاي.

فانطلق نيقولا، وسبق زاخار. كانت الخيول ترش وجوه المسافرين بثلج ناعم جاف، وقرع حوافر الخيل يترجع سريعًا في الأسماع، وقوائم الأفراس تتصالب على إيقاع متسارع، فتختلط بظلال الترويكا التي تُسبق، وفي جميع الجهات تصر زلاقات العربات على الثلج، وتترجّع صيحات النساء حادّة.

ولجم نيقولا عربته بعض الشيء مرةً أخرى، ونظر حواليه والسهل لا يزال هو ذلك السهل المسحور نفسه، قد غرق في ضوء القمر، وتلألأت في سمائه نجوم من فضة هنا وهناك.

وقال نيقولا لنفسه: «إن زاخار يصرخ مهيبًا بي أن أنحرف إلى اليسار. ولكن علام أنحرف إلى اليسار. أنحن متجهون إلى آل مليوكوف؟ أهذه مليوكوفكا؟ الله يعلم أين نحن. الله يعلم ما الذي يحدث لنا. فما يحدث لنا لمغامرة جميلة جِدًّا وغريبة جِدًّا».

والتفت إلى داخل الزلاجة. فسمع أحد هؤلاء الأشخاص العجيبين المجهولين الذين كانت حواجبهم وشواربهم المرسومة رسمًا دقيقًا تضفي عليهم فتنة خاصّةً:

- انظر إلى شاربيه وأهدابه كيف ابيضّت ابيضاضًا تامًّا.

فقال نيقولا محدِّثًا نفسه: «هذه ناتاشا في ما أظن. وتلك هي مدام شوس... أو لعلها ليست مدام شوس. أما هذا الشركسي ذو الشاربين: لا أدري من هو ولكنني أحبّه».

وقال يسأل:

- ألا تشعرون ببرد؟

فلم يجبن، بل أخذن يضحكن. وصاح ديملر من الزلاجة التي تسير

خلف زلاجتهن. لا شك أنه قال شيئًا يبعث على الضحك، ولكن لم يمكن فهم كلامه.

أجابت أصوات ضاحكة:

- نعم، نعم.

وهذه غابة مسحورة تنكشف للأبصار، غابة ذات ظلال سوداء، تتلألأ كتلألؤ الماس، وهذا صف درجات من مرمر، وهذه سطوح من فضة تسقف مسكنًا مسحورًا، وهذه صرخات حادة تطلقها حيوانات.

قال نيقولا لنفسه: «إذا صحَّ أن هذه مليوكوفكا، فإنها لذروة العجب أن نصل إلى هذا المكان بعد طوافنا هذا الذي لا يعلم إلّا الله أين كان!».

وكانت هي مليوكوفكا فعلًا. وهرعت خادمات وخدم إلى درج الباب يحملون شموعًا، وتضحك وجوههم فرحًا.

ونادى صوت من أعلى الدرج يسأل:

- ما هذا؟

فأجابت أصوات أخرى:

- هم مقنَّعو الكونت. عرفت أفراسهم.

الفصل الحادي عشر

كانت بيلاجيا مليوكوف، وهي امرأة بدينة قوية، تضع على عينيها نظارتين وتلبس فستانًا فضفاضًا مما يُلبس في المنزل، كانت جالسة في الصالون تحيط بها بناتها، وتحاول هي أن تسليهن. ففيما كن يذبن شمعًا، ويتأمّلن ظل الإشكال التي تتكوّن من الشمع، إذا بوقع خطى القادمين وأصوات كلامهم. يُسمع في الدهاليز.

ودخل الفرسان والسيدات والساحرات والمهرّجون والدببة إلى الصالة الكبرى وهم يسعلون ويجففون وجوههم التي غشيتها الصبرة، وسرعان ما أُشعلت في الصالة الشموع، وهب المهرج ديلمر يفتتح الرقص هو والسيدة العجوز نيقولا. وراح المتنكّرون، وقد أحاط بهم الأطفال صارخين، يحيّون ربة الدار مخبئين وجوههم مبدِّلين أصواتهم. وانتشروا في أرجاء الصالة.

- آ... يستحيل تعرّفهم! يا رب مَنْ ذا تشبهه ناتاشا هذه؟ انظروا إلى هيئتها! إنها تذكرني حقًّا بأحد الناس. وما أحسن إدوارد كارليتش! أين لي أن أتعرفه! وما أبدع رقصه! آه، يا إلهي! شركسيّ! ها... ولكن هذه صونيا!... وذاك، من ذاك؟ يا نيكيتا، يا فانيا، ارفعا الطاولات... يا لها من تسلية جميلة هذه التي تحملونها، إلينا، بينما نحن جامدون متعلّقون!...

وقالت أصوات!

- ها.. ها.. فارس سلاح الفرسان! إنه لفتى حقًّا. انظروا إلى قدميه!.. لا أستطيع أن أرى.

وغابت ناتاشا، وهي الحبيبة إلى قلوب فتيات آل مليوكوف، الأثيرة على نفوسهن، غابت معهنّ في غرف المنزل الداخلية، وأمرت بأن يؤتين بفلينة

ومباذل وثياب شتى من ثياب الذكور أخذت تتناولها أذرع الفتيات العارية من خادم يمدها إليهن من شق الباب. فما انقضت عشر دقائق حتى كانت فتيات مليوكوف كلهن قد انضممن إلى المتنكرين.

وهيّأت بيلاجيا دانيلوفنا للزوار أماكن، وأعدّت وجبة خفيفة للأسياد والخدم، وكانت تطوف بين المتنكرين لا تخلع نظارتيها، وتحاول أن تكظم ابتسامة تجتاح شفتيها، وتتفرس فيهم عن قرب فلا تتعرف منهم أحدًا. لم تتعرف لا آل روستوف وديملر، ولا تعرفت حتى بناتها، ولا المباذل وبزات زوجها التي كن يلبسنها.

كانت تسال المربية وهي تتفرس في بنت من بناتها تنكّرت في زي تتري من قازان:

- وهذه، مَنْ هذه؟ لا بد أنها واحدة من آل روستوف.

قالت تسأل ناتاشا مرة:

- وأنت أيها السيد من سلاح الفرسان، من أي فوج أنت؟

وأضافت تسأل قائلة:

- وهذا التركي؟

ومرَّ خادم يحمل صينية، فقالت له:

- قدم فطائر بالفاكهة لهذا التركي. إن دينه لا يحرم عليه أكل الفطائر بالفاكهة.

وكانت في بعض الأحيان ترى الخطوات الغريبة المضحكة في رقص الراقصين الذين ثبت لهم أن أحدًا لا يعرفهم وهم في أزياء التنكر هذه، ولا ينبغي لهم أن يتحرّجوا. كانت العجوز تدفن وجهها في منديلها ويأخذ جسمها البدين كله يهتز بضحك وقهقهة لا تستطيع أن تكبحه.

وكم من مرة قالت:

- انظروا إلى عزيزتي ساشينيت! انظروا إلى ساشينيت!

بعد الرقص الروسي والغناء الروسي الذي يرافق الرقص حلقات، شكّلت بيلاجيا دانيلوفنا دائرة كبيرة ضمّت جميع الخدم والسادة، وجيء بخاتم وخيط وروبل، وبدأت ألعاب جماعية.

وما إن انقضت ساعة حتى كانت الأزياء كلها قد اندعكت وتشوّهت، وكانت الشوارب والحواجب المرسومة بالفلين المحروق قد سالت على الوجوه التي تنضح عرقًا وتفيض نشاطًا ومرحًا وفرحًا. فأصبحت بيلاجيا دانيلوفنا تتعرّف المتنكرين، فتمتلئ نشوة وإعجابًا بنجاحهم في التنكر بهذه الأزياء، ولا سيما أزياء البنات، وأخذت تشكر للجميع أنهم هيأوا لها هذه المسرة. ودُعي السادة إلى تناول العشاء في الصالون، وقُدّم الطعام للخدم في الصالة الكبرى.

وفيما كانوا يتحدّثون أثناء العشاء عن التنبؤ بالخطر في الحمامات، قالت عانس تعيش في منزل آل مليوكوف:

– لا... إنه لشيء مرعبٌ جِدًّا، نسائل المستقبل في الحمامات.

فسألتها كبرى بنات آل مليوكوف:

– لماذا؟

فأجابت:

– لا، لا تذهبنّ إلى هناك. ذلك يحتاج إلى جسارة كبيرة.

فانبرت صونيا تقول:

– أنا أذهب!

وطلبت صغرى بنات ميلوكوف من العانس أن تروي لهم ما حدث لفتاة سألت المستقبل في الحمامات. فقالت العانس:

– ذهبت فتاة مرة إلى الحمامات، ومعها ديك، وعُدَّة طعام لشخصين، وكل ما يجب. وجلست تنتظر منصتة مدة طويلة. وإنها لكذلك إذا هي تسمع رنين جلاجل وأجراس على حين فجأة، ثم إذا هي ترى عربة مقبلة. أصاخت بسمعها، فأدركت أن أحدًا آتٍ. ودخل القادم: إنه صورة رجل، حتى لكأنه ضابط من ضباط الجيش، وجلس الرجل بقربها إلى المائدة.

صاحت ناتاشا وهي تدير عينيها مروَّعة مذعورة:

– أوه! أوه! وبعد ذلك هل أخذ يتكلّم؟

– طبعًا، كما يتكلّم أي رجل، وأخذ يغازلها متضرِّعًا. وكان يجب عليها أن تستمر في الحديث معه إلى أن يصيح الديك، لولا أن اعتراها هلع شديد،

فدفنت وجهها في يديها. فما كان منه إلّا أن أمسك بها وقبض عليها... ولكن شاء حسن حظها أن تهرع إليها الخادمات في تلك اللحظة...

قالت بيلاميا إيفانوفنا:

- علام التعرض لهذا الخوف؟

فردّت عليها إحدى بناتها معترضة:

- ألم تفعلي هذا أنت نفسك!

وقالت صونيا تسأل:

- وهل يُساءل المستقبل أيضًا في الهُرى؟ وكيف يكون ذلك؟

- يكفي أن تذهبي إلى هناك، الآن مثلًا، وأن تنصتي. فيكون حظك مختلفًا باختلاف ما تسمعين من أصوات، فإن سمعت ضربات مطرقة، كان ذلك نذير شؤم، وإن سمعت صوت قمحٍ يُسكب كان ذلك بشير سعادة. ثم تصدق النبوءة.

- ماما، قصّي علينا ما حدث لك يومًا في الهُرى!

ابتسمت بيلاجيا دانيلوفنا، وقالت:

- أو... نسيت كل شيء. وما من أحد منكم ينوي أن يذهب إلى هناك، أليس كذلك؟

فانبرت صونيا تقول:

- بلى يا بيلاجيا دانيلوفنا. أنا أذهب إذا أذنت لي بذلك؟

- اذهبي إذا لم تكوني خائفة.

فقالت صونيا تستأذن لويز إيفانوفنا:

- هل يمكنني أن أذهب يا لويز إيفانوفنا؟

وكان نيقولا، سواء أثناء اللعب بالخاتم والخيط والروبل، أو أثناء الحديث، لا يحوِّل بصره عن صونيا، وينظر إليها بعينين جدّيتين كل الجدة. فكان يبدو له أنه لا يعرفها حقًا إلّا في هذا اليوم بفضل هذين الشاربين اللذين رُسما بسخمة الفلين المحروق. ولقد كانت صونيا في ذلك المساء مرحة حقًا، وكانت تتدفق نشاطًا، وتشعّ جمالًا، كما لم يرها هو على هذه الحال من قبل في يوم من الأيام.

قالت صونيا:

- لست أخاف شيئًا. هل يمكنني أن أذهب إلى الهُرى حالًا؟

ونهضت. فقالوا لها أين مكان الهُرى، وقالوا لها إن عليها أن تبقى صامتة منصتة مدة طويلة، وجاؤوها بفروتها، فألقتها على رأسها، ورشقت نيقولا بنظرة.

قال نيقولا محدِّثًا نفسه: «يا لها من طفلة عذبة أين كان عقلي إلى الآن؟».

وخرجت صونيا إلى الدهليز لتذهب إلى الهُرى، فأسرع نيقولا يمضي إلى الباب الكبيرِ قائلًا إنه يشعر بحرٍّ شديدٍ. وكان الحشد قد جعل الجو في المنزل خانقًا حقًا.

وكان كل شيء في الخارج على حاله؛ البرد المتجمد، والقمر المضيء. ولكن ضوء القمر ازداد تألقه. كان الضياء يبلغ حد السطوع، وكانت نجوم الثلج تبلغ من التلألؤ، أن المرء لا يفطن إلى تلألؤ نجوم السماء التي كبا بريقها، فالأرض تبدو فرحًا كلها.

قال نيقولا لنفسه: «غبي، أنا غبي! لماذا انتظرت حتى الآن؟». وأخذ يهبط درجات الباب، ثم دار حول المنزل سالكًا الممر الذي يؤدي إلى باب الخدم. كان يعلم أن صونيا ستمرّ من هناك. هذه أكداس من الحطب المغطى بالثلج تسقط على الأرض في منتصف الطريق ظلالًا تنضم إلى الظلال المواربة التي تسقطها على الثلج والممر وأشجار الزيزفون المعمّرة العارية من أوراقها. والممر يؤدي إلى الهرى. وهذا جدار من جدران الهرى وهذا سقفه الذي يغطيه الثلج والذي يشبه أن يكون مقدودًا في صخرة من حجر ثمين يلتمعان في ضوء القمر التماعًا متلألئًا. وقرقعت شجرة في الحديقة ثم عاد كل شيء إلى السكون والصمت. لكأن المرء لا يتنفس هواء بل يعبّ قوة فتية أبدية وينشق الفرح نفسه.

وترجّع أصوات وقع أقدام على درجات الباب، وسُمعت قرقعة رنانة على آخر درجة يغطيها الثلج، وعلا صوت العانس يقول:

- قُدُما قُدُما على هذا الممر يا آنسة. ثم إياك خاصّةً أن تلتفتي إلى الوراء.

فقال صوت صونيا:

- لست خائفة.

وظلّ الثلج يصرف صريفًا تحت قدميها الصغيرتين اللتين تنتعلان خفين دقيقين في الممر المؤدّي إلى مكمن نيقولا.

كانت صونيا تتقدّم متدثّرة بفروتها. فلما صارت على بعد خطوتين منه رأته. وقد رأته هي أيضًا مختلفًا عن الرجل الذي تعرفه والذي كانت تخافه بعض الخوف دائمًا. كان شعث الشعر متنكرًا بثياب امرأة، يبتسم ابتسامة سعيدة جديدة عليها. وركضت إليه صونيا مسرعة.

قال محدِّثًا نفسه وهو ينظر إلى وجهها الذي يغمره ضوء القمر:

«إنها تختلف عما كانت كل الاختلاف ولكنها لا تزال عين نفسها». وأمرَّ يديه تحت فروتها التي تغطي رأسها، وطوَّقها بذراعيه، وشدّها إليها، وضمّها ضمًا قويًّا، وقبَّل شفتيها اللتين يعلوهما الشاربان وتفوح منهما رائحة الفلين المحروق. وقبَّلته صونيا في وسط شفتيه تمامًا، ثم خلّصت يديها وأحاطت بهما وجهه.

- صونيا!...

- نيقولا!...

ذلك كل ما قالاه. وهرعا إلى الهرى، جلسا لبعض الوقت على أكوام القمح والشعير، ثم رجع كل منهما إلى المنزل سالكًا الطريق الذي سلكه في مجيئه.

الفصل الثاني عشر

حين غادروا منزل بيلاجيا دانيلوفنا، فإن ناتاشا التي تراقب دائمًا كل شيء، وتلاحظ كل شيء، قد رتبت الأمور ترتيبًا يجعلها تركب عربة ديلمر هي ولويز إيفانوفنا، وأن تركب صونيا عربة نيقولا مع الخادمات.

لم يحاول نيقولا في هذه المرة أن يسبق الآخرين، وكان يسير في العودة بسرعة متساوية، ولا ينفك يلقي نظرات إلى صونيا في ضوء القمر الغريب هذا، ويحاول في هذا الضوء الذي يحيل كل شيء إلى جمال أخّاذ أن يكتشف تحت الحاجبين والشاربين صونيا التي عرفها في الماضي، والتي قرّر ألا ينفصل عنها بعد اليوم أبدًا. كان يتفرّس في وجهها، ويراها مختلفة عما كانت، باقية كما كانت. وتذكّر مذاق الفلين ممتزجًا بمذاق القبلة، فتنفس الهواء البارد ملء رئتيه، ونظر إلى المنظر البديع والسماء المتلألئة، فأحس مرة أخرى أنه في عالم مسحور.

وكان يسألها من حين إلى حين بصيغة الفرد رفعًا للكلفة:

- صونيا، هل «أنت» بخير؟

فتجيبه بصيغة المفرد أيضًا:

- نعم، و«أنت» هل أمورك على ما يرام؟

وفي منتصف الطريق سلّم نيقولا الأعنّة إلى الحوذيّ، وهرع إلى عربة ناتاشا راكضًا، ووقف على طرف زلاقتها، وهمس يقول لها:

- هل تعلمين يا ناتاشا؟ لقد عزمت أمري في موضوع صونيا.

فسألته ناتاشا فجأة وقد أشرقت فرحًا:

- وهل قلت لها هذا؟

- هاه!... ما أغربك بهذين الشاربين وهذين الحاجبين يا ناتاشا؟ هل سرَّك النبأ؟

- أعظم المسرة، أعظم المسرة! كنت مغتاظة منك حاقدة عليك، ولكنني لم أعلن لك ذلك. لقد أسأت معاملتها. إن لها قلبًا لا يضارعه في نبله قلب يا نيقولا. ما أعظم ابتهاجي الآن! إنني شريرة أحيانًا، ولكن ما كان أشد خجلي من نفسي لأنني سعيدة وحدي، سعيدة من دونها. أما الآن فما أعظم اغتباطي! هيًا عُدْ إليها مسرعًا!

فأجاب نيقولا وهو يتفرّس في وجه أخته، فيكتشف لديها هي أيضًا شيئًا جديدًا، شيئًا غير مألوف، شيئًا فيه عاطفة حنون وسحر فاتن لم يعرفهما فيها من قبل:

- بل امهليني لحظة. آه ما أغربك يا ناتاشا! ناتاشا، نحن في عالم مسحور، أليس كذلك.

- نعم. وقد أحسنت صنعًا.

قال نيقولا محدِّثًا نفسه: «لو رأيتها قبل الآن كما أراها في هذا الوقت، لاستشرتها منذ زمن طويل في ما ينبغي أن أعمله، ولنفذت كل ما كان يمكن أن تنصحني به، ولجرت الأمور أحسن مجرى!».

- إذًا أنت مسرورة، وترين أنني أحسنت صنعًا.

- أحسنت كل الإحسان. لقد ناقشت ماما في هذا الأمر في الآونة الأخيرة، فكدنا نتشاجر. لن أسمح لأحد أبدًا أن يقول فيها سوءًا، ولا أن يخطر بباله أن يقول فيها سوءًا، لأن كل شيء فيها هو الكمال.

قال نيقولا وهو يتفرّس في تعابير وجه أخته من جديد ليعرف هل ما تقوله حق:

- إذًا أحسنت أنا صنعًا؟

وقرع جزمتيه إحداهما بالآخرى ووثبت عن الزلاقة وأسرع يركض إلى عربته، كان ذلك الشركسي السعيد الباسم نفسه، بشاربيه الصغيرين وعينيه المتألّقتين، ينظر إليه من تحت غطاء رأسه المصنوع من فراء السمّور، وكان ذلك الشركسي هو صونيا، ولتكوننَّ صونيا هذه امرأته المحبّبة لا مراء في ذلك.

وصلوا إلى المنزل، وقصَّت البنتان على الأم كيف قضين الوقت عند آل مليوكوف، ثم انصرفتا، وبعد أن خلعتا زيَّهما من دون أن تمحيا شواربهما ظلّتا مدة طويلة تتحدثان عن سعادتهما، فتتكلمان عن حياتهما الزوجية المقبلة، وعن الصداقة التي ستربط زوجَيْهما، وعن مدى السعادة التي سينعمن بها. وكان على طاولة ناتاشا مرايا هيأتها دونياشا في المساء.

قالت ناتاشا وهي تنهض وتقترب من المرايا:

- ولكنني أتساءل متى يحدث هذا كلّه؟ إني لأخاف ألا يحدث أبدًا. لكأنه أجمل من أن يحدث؟

قالت صونيا:

- اجلسي يا ناتاشا، فقد ترينه.

فأشعلت ناتاشا الشموع وجلست، ثم قالت وهي تنظر إلى صورة وجهها في المرآة:

- أرى أحدًا له شاربان.

قالت دونياشا:

- ما يجب الضحك يا آنسة.

وعدلت ناتاشا المرآة بمساعدة صونيا والخادمة، فجعلتها في وضعها الصحيح، وعبَّر وجهها عن الجد وصمتت، وبقيت على هذه الحال تنظر إلى صف الشموع يبتعد في المرايا، منتظرة (وفقًا للحكايات التي حُكيت لها) إما أن ترى تابوتًا وإما أن تراه «هو»، الأمير أندريه، في ذلك المربّع الأخير الذي يختلط فيه كل شيء ويصبح فيه كل شيء غامضًا مبهمًا. ولكنها على استعدادها لأن ترى في أية بقعة شكل إنسان أو شكل تابوت، لم تبصر شيئًا البتة. فأخذ جفناها يصطفقان اصطفاقًا سريعًا، وتركت المرآة، وقالت:

- ما السبب في أن غيري يرى وأنا لا أرى. تعالي اجلسي في مكاني يا صونيا، وانظري، عليك أن تجلسي وأن تنظري حتمًا وإني اليوم لخائفة خوفًا شديدًا.

فجلست صونيا أمام المرآة، وعدّلت وضعها، وأخذت تنظر.

همست دونياشا تقول:

- لسوف ترى صونيا الكسندروفنا حتمًا، أنا واثقة أنها سترى. والسبب في أنك أنت لم تري هو أنك ظللت تضحكين.

سمعت صونيا كلمات دونياشا هذه، وسمعت جواب ناتاشا خافتًا:

- أنا أيضًا واثقة بأنها سوف ترى. في السنة الماضية رأت شيئًا.

ولزم الثلاثة الصمت عدة دقائق. ثم قالت ناتاشا مدمدمة: «لا شك في...»، ولكنها لم تكمل كلامها، لأن صونيا لم تلبث أن رفعت عنها المرآة فجأة، وغطّت عينيها بيدها وهي تصرخ قائلة:

- آه... ناتاشا!

فهتفت ناتاشا تسألها وهي تحجز المرآة:

- هل رأيت؟ هل رأيت؟ ماذا رأيت؟

ولم تكن صونيا قد رأت شيئًا، وكانت على وشك أن تطرف عينيها وأن تقوم حين سمعت صوت ناتاشا مدمدمًا بقولها: «لا شك في... »، وكانت لا تريد أن تخدع لا دونياشا ولا ناتاشا، وكانت قد تعبت من البقاء جالسة، وإنها لتجهل لماذا أفلتت منها تلك الصرخة حين غطّت عينيها بيدها.

سألتها ناتاشا وهي تمسك ذراعها:

- أ»هو» الذي رأيته؟

- نعم. انتظري. «هو» الذي رأيته.

بذلك أجابت صونيا على غير إرادة منها دون أن تعرف من الذي تقصده ناتاشا بقولها «هو»: نيقولا أو الأمير أندريه. لقد قالت لنفسها: «لماذا لا أقول إني رأيت! غيري يرى. ومن ذا الذي يستطيع أن يبرهن أني رأيت أو أني ما رأيت؟». قالت:

- نعم، رأيته.

- كيف كان؟ كيف؟ واقفًا أم راقدًا؟

- لا بل رأيت... في البداية لم أر شيئًا... ثم رأيته على حين فجأة راقدًا.

- رأيت أندريه راقدًا؟ أهو مريض؟

كذلك سالت ناتاشا صديقتها وهي تنظر إليها بعينين جمَّدهما الرعب.

فأجابت صونيا:

- لا... بالعكس... بالعكس... كان متهلل الأسارير فرحًا، وقد التفت إليَّ.

وكانت صونيا وهي تقول هذا الكلام يبدو لها أنها رأت حقًّا ما تذكر أنها رأته.

- وماذا أيضًا يا صونيا؟

- بعد ذلك لم أبصر شيئًا... كان هناك زرقة وحمرة...

- صونيا! متى يعود؟ متى أراه! يا إلهي، ما أشد خوفي عليه وعلى نفسي. كل شيء يخيفني...

كذلك قالت ناتاشا. ومن دون أن تردَّ على الكلمات التي قالتها لها صونيا شدًّا لأزرها وتقوية لعزيمتها، استلقت على السرير، ولبثت مدة طويلة، بعد إطفاء الشمعة، جامدة محملقة تنظر إلى ضوء القمر البارد من خلال الزجاج الذي غشيته الصبرة.

الفصل الثالث عشر

بعد انقضاء زمن قصير على أعياد الميلاد اعترف نيقولا لأمه بأنه يحبّ صونيا، وبأنه عازم عزمًا قاطعًا على أن يتزوجها. وكانت الكونتيسة قد لاحظت منذ مدة ما يجري بين صونيا ونيقولا، وكانت تتوقع من ابنها هذا الاعتراف، فأصغت إلى كلامه صامتة، ثم قالت له إن في وسعه أن يتزوّج من يشاء، ولكن مثل هذا الزواج لن يحظى بالمباركة لا منها ولا من أبيه. فأحسّ نيقولا، لأول مرة، أن أمه مستاءة منه وأنها رغم كل ما تحمله له من حبّ لن تذعن لإرادته؛ وها هي ذي ترسل أحدًا يستدعي زوجها بلهجة باردة، دون أن تلقي على ابنها نظرة واحدة، حتى إذا جاء الكونت أرادت أن تطلعه على الأمر موجزة هادئة بحضور نيقولا، ولكنها لم تستطع أن تسيطر على نفسها، فإذا هي تنفجر باكية ذمن فرط غضبها، ثم تخرج. وأخذ الكونت الشيخ يعظ ابنه مع أنه غير مقتنع بما يقوله له، وأخذ يرجوه أن يعدل عن هذا الأمر. فأجابه نيقولا بأنه لا يستطيع أن ينكث عهدًا قطعه، فزفر الكونت الشيخ متنهدًا تنهدًا عميقًا، وقد ظهر عليه ضيق واضح، وأسرع يقطع حديثه ومضى يلحق بالكونتيسة.

وكان الكونت الشيخ، كلما نشب بينه وبين ابنه خلاف، يشعر بأنه مذنب في حق ابنه، لأنه هو السبب فيما آلت إليه أحوال الأسرة المالية من تدهور. لذلك لم يأخذ على ابنه رفضه الزواج من فتاة لمجرّد أنها غنية، وأن يؤثر صونيا التي لا تملك مهرًا. وكل ما في الأمر أنه في هذه المناسبة أدرك إدراكًا أوضح أنه ما كان يمكن أن يتمنّى لابنه زوجة خيرًا من صونيا لولا تدهور

أحوالهم المالية، وأنه هو المسؤول عن تردّي هذه الأحوال، هو ووكيله ميتنكا وعاداته التي ترسخت فيه ولم يستطع أن يقلع عنها.

وبعد ذلك لم يكلم الأب والأم ابنهما في هذا الأمر، ولكن الكونتيسة استدعت إليها صونيا بعد بضعة أيام، وبقسوة ما كان لا للكونتيسة ولا لصونيا أن تتوقّعها، أخذت تقرعها على أنها أضلَّت ابنها وعلى أنها فتاة عقوق. فكانت صونيا تصغي صامتة خافضة العينين إلى الكلمات الخشنة التي تقولها لها الكونتيسة، ولا تفهم ماذا يُطلب منها أن تفعل. إنها مستعدة أن تضحي بكل شيء في سبيل هؤلاء الذين أحسنوا إليها، وإن فكرة التضحية لهي من الأفكار الأثيرة في نفسها. ولكنها في هذا الأمر لا تعرف بماذا يجب أن تضحي، ولمن يجب أن تضحي. هي لا تستطيع ألا تحب الكونتيسة وأسرة روستوف كلها، ولكنها لا تستطيع أيضًا ألا تحبّ نيقولا، ولا تجهل أن سعادته هو نفسه رهن بهذا الحبّ. فصمتت حزينة ولم تجب بكلمة.

ورأى نيقولا أنه لا يستطيع أن يحتمل هذا الوضع مدة أطول، فمضى إلى أمه يكلمها، فكان تارة يضرع إليها أن تغفر له ولصونيا وأن ترضى عن زواجهما، وتارة يهدِّدها بأنه سيتزوج صونيا في الحال إذا استمروا في اضطهادها.

فأجابته الكونيتسة ببرودة لم يعرفها ابنها فيها يومًا من قبل. بأنه بالغ راشد، وبأن الأمير أندريه سيتزوج أيضًا من دون موافقة أبيه، فليفعل هو مثله، ولكنها لن تعترف يومًا لهذه «المحتالة» بأنها ابنتها.

فاستشاط نيقولا غيظًا من كلمة «المحتالة» هذه التي قالتها أمه. فرفع صوته وقال إنه ما كان ليصدق في يوم من الأيام أن تدفعه أمه إلى أن يبيع عواطفه بالمال، أما وأن الأمر كذلك، فإنه ينذرها لآخر مرة...

ولكن الوقت لم يتسع لأن ينطق نيقولا بالكلمة الحاسمة التي - إذا صدق ما عبَّر عنه وجه الكونتيسة - كانت الأم تتوقّعها مرتاعة أشد الارتياع، والتي كان يمكن أن تترك بينهما ذكرى رهيبة. لم يتسع الوقت أن ينطق نيقولا بالكلمة الحاسمة لأن ناتاشا التي كانت تتنصّت على حديثهما من

وراء الباب، فتحت الباب وظهرت شاحبة اللون مكفهرّة الوجه، وقالت بما يشبه الصراخ ليغطي صوتها صوته:

- نيقولا، كلامك حماقات، كلامك سخافات، اسكت، أسكت، أقول لك أسكت!

وأضافت تخاطب أمها التي كانت، وهي تحسّ بأنها على حافة قطيعة حاسمة بينها وبين ابنها، تنظر إليه مروّعة، ولكنها بالعناد وانجرافها في الصراع لا تستطيع ولا تريد أن تستسلم:

- ماما، ماما الحبيبة، ليست هذه هي المسألة، عزيزتي ماما..

واتجهت إلى أخيها تقول له:

- انصرف يا نيقولا، سأشرح لك كل شيء. وأنت يا ماما العزيزة، اصغي إليَّ...

لم يكن لأقوال ناتاشا معنى، ولكنها حققت هدفها وبلغت غايتها.

أخذت الأم تبكي ناشجة نشيجًا موجعًا، وارتفعت على صدر ناتاشا تخفي وجهها فيه، وقام نيقولا ممسكًا رأسه بيديه وخرج.

واستطاعت ناتاشا أن تحسن التدبير في إكمال مسعاها للمصالحة، فحصل نيقولا من أمه على وعدٍ بألا تضطهد صونيا، ووعد من جهته بأن لا يفعل شيئًا بغير علمها.

وفي مطلع شهر كانون الثاني (يناير) التحق نيقولا بفوجه، حزينًا أشد الحزن لخلافه مع أبويه، موقنًا بأنه مولع أعمق الولع، عازمًا على أن يستقيل من الجيش ثم يرجع ليتزوج صونيا.

وكان من شأن سفره أن جعل المنزل أشد حزنًا مما كان في أي وقت مضى. ومرضت الكونتيسة في أعقاب ما عانته من هزَّات وهيجانات.

وكانت صونيا تتألم لفراق نيقولا، وتتألم ألمًا أشد للهجة العداء التي أصبحت الكونتيسة لا تستطيع أن تمنع نفسها عن مخاطبتها بها. وازدادت هموم الكونت بسبب تردي أحواله المالية التي أصبحت تقتضي اتخاذ إجراءات قوية. أصبح لا غنى له عن بيع منزله الفخم بموسكو وبيع الأرض التي تقع في ضواحي موسكو؛ ومن أجل أن يستطيع إتمام هذا البيع لا بد

له أن يكون بموسكو. ولكن سوء صحة الكونتيسة كان يضطره إلى إرجاء سفره يومًا بعد يوم.

وناتاشا التي لم يشق عليها في الأشهر الأولى أن تحتمل فراق خطيبها، حتى لقد قبلت هذا الفراق راضية فرحة، أصبحت لا تنفك تزداد اهتياجًا وتزداد ضيقًا وتململًا. وأصبح يعذبها تعذيبًا مستمرًا أن تتصور أن أجمل أيامها التي كان يمكنها أن تعيشها في الحب إنما تضيع الآن سُدى ولا ينتفع بها أحد. وكانت الرسائل التي تصلها من الأمير أندريه يثير أكثرها غيظها وحنقها. وأصبح يجرح شعورها ويطعن كرامتها أن تعرف أنها لا تحيا هي إلّا بالتفكير فيه، على حين أنه يحيا هو حياة حقيقية. يرى بلادًا جديدة ويعرف أُناسًا جددًا تسرّه معرفتهم. وكلما كانت رسائله أحفل بما هو جدير أن يثير اهتمامها ويشوّقها، كان الغضب الذي تشعر به أقوى وأشد. أما الرسائل التي تكتبها هي إليه، فلم تكن تجد في كتاباتها أي عزاء، بل كانت تبدو لها سخرة مملة ورياءً كاذبًا. كانت لا تعرف ماذا تكتب لأنها لا تستطيع أن تتصور أن في وسعها أن تعبر بالكتابة عن جزء يسير مما ألفت أن تعبر عنه بصوتها وابتسامتها ونظرتها. فكانت تدبّج له رسائل «كلاسيكية» رتيبة جافة لا تقيم لها هي نفسها أيَّ وزن. وتتولّى أمّها تصحيح ما فيها من أخطاء لغوية.

ولا تزال الكونتيسة مريضة لا تبلّ من مرضها. ولكن إرجاء السفر إلى موسكو أصبح مستحيلًا. كان يجب البدء في تجهيز العروس. وكان يجب بيع المنزل. زد على ذلك أن الأمير أندريه سيجيء أولًا إلى موسكو التي كان نيقولا آندريتش يقضي فيها فصل الشتاء، وكانت ناتاشا مقتنعة بأن خطيبها وصل إلى موسكو.

هكذا بقيت الكونتيسة في الريف، وسافر الكونت إلى موسكو في نهاية كانون الثاني (يناير) مصطحبًا صونيا وناتاشا.

الجزء الخامس

الفصل الأول

بعد خطبة الأمير أندريه وناتاشا، أحسّ بطرس فجأة، من دون سبب ظاهر، بأنه يستحيل عليه أن يمضي في حياته كما كان يمضي فيها؛ فمهما يكن قويًّا اقتناعه بالحقائق التي كشفها له المحسن إليه، ومهما يكن عظيمًا فرحه بالجهد الذي اندفع فيه للتسامي بروحه، فإنه بعد خطبة الأمير أندريه وموت أوسيب ألكسيفتش الذي علم نبأه في الوقت نفسه تقريبًا، قد فقدت الحياة التي يعيشها كلَّ ما كان لها في نظره من فتنة على حين فجأة، وأصبح لا يرى منها إلّا عظامها: منزله الفخم، وامرأته المتألقة التي كانت تحظى في ذلك الأوان باهتمام متزايد، وعلاقاته ببطرسبورغ كلها، ووظيفته الرسمية في البلاط وما فيها من شكليات سخيفة، فاشمأز من هذه الحياة فجأة. فكفَّ عن كتابة يومياته، ونأى عن مجتمع الماسونيين، وأخذ يتردّد على النادي من جديد، وعاد يسرف في الشراب، ورجع يعاشر شبابًا عزّابًا، أي صار يسلك سلوكًا جعل الكونتيسة هيلين فاسيليفنا ترى أن من واجبها أن توجّه إليه توبيخًا قاسيًا عنيفًا. وأحس بطرس أن امرأته على حق، وسافر إلى موسكو حتى لا تكون في حَرَجٍ من أمرها.

حتى إذا وجد نفسه في منزله الضخم الواسع الذي ما يزال يعج بعدد كبير من الخدم، ولا تزال تقيم فيه الأميرات اللواتي أصبحن مومياوات؛ وحين رأى وهو يجتاز مدينة موسكو تلك الكنيسة التي تُعرف باسم «كنيسة

عذراء إيبريا»[1] ورأى نيران شموعها التي لا يحصى عددها، متوهّجة أمام الأيقونات المحلّاة بالذهب، ورأى ساحة الكرملين وثلجها الناصع الذي ليس فيه لطخة، ورأى شارع سفتسوف وما فيه من عربات ومساكن متداعية، ورأى شيوخ موسكو هؤلاء الذين يختمون حياتهم الطويلة بغير تعجّل، ورأى صالات حفلات الرقص والنادي الإنجليزي، أحسّ بأنه عاد أخيرًا إلى الشاطئ. إن موسكو هي في شعوره ذلك الثوب العتيق المريح الناعم الذي ألف أن يلبسه في المنزل، متسخًا بعض الاتساخ.

واستُقبل بطرس في مجتمع موسكو كلّه، من سيداته حتى أطفاله، استقبال ضيف طال انتظاره ولا يزال مكانه شاغرًا ينتظره. إن بطرس في مجتمع موسكو هو الرجل الذي لا يضارعه بين المتفرّدين أحد في حسن سريرته وفتنته وذكائه ومرحه وجوده وكرمه. إنه في نظر مجتمع موسكو رجل مهذب من الطراز القديم طيب القلب نبيل النفس.

وكان بطرس فارغ الكيس من المال، لأن كيس ماله مفتوح لجميع الناس دائمًا. فهو لا يصدُّ أحدًا في يوم من الأيام أبدًا، سواء من أجل إحياء حفلات ذات ريع، أو من أجل ابتياع لوحات أو تماثيل رديئة، أو من أجل أعمال خيرية، أو من أجل نساء غجريات، أو من أجل التبرع لمدارس، أو من أجل إقامة حفلات عشاء بالاكتتاب، أو من أجل سهرات سكر وعربدة مع صخب ومرح، أو من أجل الماسونيين الأحرار، أو من أجل الكنائس، أو من أجل شراء كتب؛ ولولا صديقان له اقترضا منه مالًا كثيرًا ووضعاه تحت وصايتهما، لوزّع كل ما يملك. ما من حفلة عشاء أو سهرة تقام في النادي من دونه. ومتى استرخى على ديوان بعد أن يكون قد أفرغ في جوفه زجاجتين من خمرة «شاتو - ماجور»، أحاط به الحضور يتبادلون الآراء

---

(1) إن الأيقونة الكبيرة التي تمثل مريم العذراء والتي أُرسلت إلى القيصر ألكسي من دير إيفرون في مونت آتوس، كانت تقدس تقديسًا عظيمًا في روسيا، وتشتهر بأنها صانعة معجزات. وكانت الكنيسة التي تضم هذه الأيقونة تقع في ساحة كراسنايا، بين الكرملين وكتيايغورود، وقد صدر أمر بهدمها سنه 1923.

ويتناقشون ويتمازحون مندفعين في ذلك اندفاعًا حارًّا. وإذا نشب شجار كان يكفي أن يبتسم ابتسامته الطيبة السمحة، أو يطلق مزحة مناسبة حتى يحل السلام والوئام. واجتماعات المحافل الماسونية تكون جهمة مضجرة إذا هو لم يشارك فيها.

وإذا كان في عشاء مع عصبة من فتيان، فألحّت العصبة أن يرافقها بعد العشاء، فوافق على اقتراحها وهو يبتسم ابتسامته الطيبة السمحة الرقيقة، وقام ليرافقها، انطلقت صرخات الانتصار من صدور الشباب. وإذا أعوز حفلات الرقص راقص قام فرقص. والنساء والفتيات يحببنه لأنه يلاطفهن جميعًا على حد سواء، من دون أن يغازل واحدة منهن، لا سيما بعد العشاء، فكان يقال عنه: «رائع، لا جنس له».

الخلاصة أن بطرس أصبح واحدًا من أولئك الذين يسمّون حجابًا للإمبراطور، ولا يقومون بأي عمل، ويقضون أيامهم في موسكو هادئة وادعة. وهم يُعَدون بالمئات.

لو أن أحدًا قال له قبل سبع سنين، حين عاد من الخارج، إنه ليس عليه أن يسعى إلى شيء، ولا أن يتخيل شيئًا، وإن طريقه مرسومة منذ الأزل وإنه مهما يفعل من أمر فسيكون حاله كحال الآخرين قاطبة، لشعر بهول ما بعده هول، ولما أمكنه أن يصدق ما تسمعه أذناه.

أليس هو الذي أراد بكل قلبه تارة أن يقيم النظام الجمهوري في روسيا، وتارة أن يكون هو نفسه «نابوليونًا»، أو فيلسوفًا، أو مقاتلًا يغلب نابوليون؟ أليس هو الذي اعتقد بإمكان بعث النوع الإنساني الذي فسد أمره، وأن يسمو بنفسه إلى الكمال المطلق، ورغب في تحقيق ذلك رغبة مشبوبة عارمة؟ أليس هو الذي أقام المدارس والمستشفيات، وحرَّر فلاحيه؟

أين هو من هذا كله الآن؟ هو الآن لا يعدو أن يكون زوجًا ثريًا لامرأة خائنة، وحاجبًا للإمبراطور بغير عمل، يحب الطعام الطيب والشراب الشهي وينتقد الحكومة بعد السكر انتقادًا خفيفًا، هذا إلى كونه عضوًا في النادي الإنجليزي، ورجلًا يحبه مجتمع موسكو كله. لقد بقي بطرس مدة طويلة لا يستطيع أن يألف أنه هو هذا الإنسان، هذا النموذج من حجاب

الإمبراطور بموسكو، هذا النموذج الذي كان يحتقره أعمق الاحتقار قبل سبع سنين.

كان يعزي نفسه أحيانًا بأن يقول لنفسه إنه لا يعيش هذه الحياة إلّا إلى حين. ولكنه ما يلبث أن يفكر مروَّعًا في عدد الذين انخرطوا مثله في هذا الطراز من المعيشة إلى حين، ودخلوا مثله إلى هذا النادي بأسنانهم كلها وشعرهم كله، ثم خرجوا بغير سنٍّ واحدة وبغير شعرة واحدة.

وربما مرت به ساعات عجب وزهو حين يفكر في هذه الحال، فيبدو له أنه مختلف كل الاختلاف عن حجّاب الإمبراطور أولئك، الذين كان يحتقرهم ذلك الاحتقار كله، فأولئك رجال عاميون أغبياء هادئين راضين بما قُسم لهم، «أما أنا فما زلت حتى الآن ساخطًا غير راض، وما زلت أريد أن أصنع للإنسانية شيئًا». بمثل هذا الكلام كان يحدّث نفسه في تلك الساعات. ثم تمر به ساعات تواضع، فيقول لنفسه: «ولكن لعل جميع رفاقي هؤلاء قد صارعوا مثلما صارعت، وبحثوا في الحياة عن طريق جديدة. طريق تناسبهم، طريق خاصّة بهم، ثم كان شأنهم كشأني، ووصلوا إلى النقطة التي إليها وصلت، وصلوا إليها مكرهين بحكم الظروف والبيئة والمولد، وبحكم تلك القوة الأولية من قوى الطبيعة التي لا حيلة للإنسان في دفعها، ولا قدرة له عليها!»، وأصبح بعد إقامته بموسكو زمنًا لا يحتقر رفاقه هؤلاء الأشقياء الذين لم يسعفهم الحظ، حتى لقد أصبح يحبهم، ويقدّرهم، ويرثي لحالهم.

وأصبح بطرس لا يعاني ما كان يعانيه في الماضي من لحظات اليأس والاكتئاب والاشمئزاز من الحياة، ولكن ضيقه الذي كان يتجلّى في الماضي نوبات عنيفة أصبح يكبت الآن في داخل نفسه، ولا يبارحه لحظة. أصبح يتساءل متحيّرًا: «لماذا؟ وكيف؟ يحدث ما يحدث في هذا العالم؟»، وأصبح يلقي على نفسه هذه الأسئلة مِرارًا في كل يوم، ويأخذ يبحث عن معنى ظواهر الحياة، ولكنه لعلمه بالتجربة أن هذه الأسئلة ليس لها أجوبة لا يلبث أن يحاول الانصراف عنها، فإما أن يتناول كتابًا، وإما أن يسارع

إلى النادي، وإما أن يذهب إلى أيولون نيقولايفتش يبادله الهذر والاغتياب والأقاويل.

كان بطرس يحدث نفسه قائلًا: «إن هيلين فاسيليفنا التي لم تحب في يوم من الأيام شيئًا إلّا جسدها، والتي هي واحدة من أشد النساء حماقة وغباء، يعدّها الناس معجزة من معجزات الذكاء ورهافة الفكر، ويسجدون لها سجودًا. وحين كان نابوليون رجلًا عظيمًا كان جميع الناس يحتقرونه، حتى إذا صار مهرّجًا حقيرًا، أصبح الإمبراطور فرانسوا[1] يحترق رغبة في أن يتخذ ابنته زوجة غير شرعية له. والإسبان يشكرون الله بواسطة الكهنوت الكاثوليكي أنه مكّنهم من الانتصار على الفرنسيين في 14 حزيران (يونيو)، والفرنسيون يشكرون الله بواسطة الكهنوت الكاثوليكي نفسه، أنهم استطاعوا أن يهزموا الإسبان يوم 14 حزيران. وإخواني الماسونيون الأحرار يحلفون بدمائهم أنهم مستعدون للتضحية بأنفسهم في سبيل أخيهم الإنسان وهم يضنّون بروبل واحد على حملات التبرع للفقراء، ويحرضون «آستره»[2] على «الباحثين عن زان» ولا يدخرون جهدًا للحصول على البساط الإيقوسي الحقيقي وعلى ميثاق يجهل معناه مؤلفه نفسه، ولا حاجة لأحد به. ونحن جميعًا ندين بالقانون المسيحي الذي يدعو إلى غفران الإساءات والمسبّات وإلى حب الإنسان أخيه الإنسان، وهو القانون الذي بفضله بنينا في موسكو أربعين أربعين كنيسة[3]، وبالأمس جلدنا بالسياط حتى الموت رجلًا هاربًا من الجندية، والكاهن الذي هو القيّم على قانون الغفران والحب، تولّى جعل هذا الرجل يقبل الصليب قبل بدء التعذيب».

كذلك كان يفكر بطرس؛ وكان هذا الكذب الذي يكذبه الناس كافة، ويقبله الناس كافة، يذهله في كل مرة كأنه شيء جديد رغم أنه اعتاده وألفه.

---

(1) تزوج نابوليون ماري لويز، ابنة إمبراطور النمسا سنة 1810؛ ولعل بطرس بيزوخوف يعد طلاق نابوليون وجوزيفين غير شرعي.

(2) اسم محفل من المحافل الماسونية المختلفة.

(3) تعبير شعبي يزعم أن في موسكو أربعين أربعين كنيسة، والحق أن عدد الكنائس بموسكو في ذلك الحين كان لا يكاد يبلغ مائتي كنيسة.

كان يقول لنفسه: «إنني أفهم هذا الكذب وهذا الخلط، ولكن كيف أشرح للآخرين كل ما أفهم؟ لقد حاولت فوجدت دائمًا أنهم في قرارة أنفسهم يفهمون هذا كله كما أفهمه أنا، ولكنهم يرفضون أن يروه. فلا بد إذن أن تبقى الأمور على هذه الحال! ولكن أين عساني أهرب أنا؟ إلى أين يمكن أن ألجأ؟». كان بطرس يمتاز بتلك الميزة المحزنة المشتركة بين كثير من الناس، ولا سيما الروس، أعني كونهم يعتقدون بإمكان الخير والحق، ويرون الشر والكذب في الحياة رؤية أوضح من أن يستطيعوا المشاركة في الحياة حقًّا. إن كل نشاط ملوّث في نظره بالشر والكذب، فما أن يحاول أي فعل حتى يصده الشر والكذب فإذا جميع الطرق مسدودة أمامه. وكان لا بد له مع ذلك من أن يحيا، وكان لا بد له من أن يشغل نفسه. إنه لشيء رهيب فظيع أن يبقى مرهقًا بمشكلات الحياة هذه التي لا سبيل إلى حلها. فكان بطرس ينجرف في أهوائه القديمة لا لشيء إلّا أن ينسى هذه المشكلات التي تستعصي على الحل، فيختلف إلى بيئات شتى، ويشرب الخمر صرفًا غير ممزوج، ويقتني لوحات تصوير، ويُقبِل على القراءة خاصّةً.

كان يقرأ كل ما يقع تحت يديه، حتى إنه كان إذا عاد إلى منزله يتناول كتابًا ويشرع في القراءة قبل أن يفرغ من خلع ثيابه. ثم ينتقل من القراءة إلى النوم، ومن النوم إلى ثرثرة الصالونات والنادي، ومن الثرثرة إلى القصف واللهو والنساء، ومن القصف واللهو والنساء إلى الثرثرة والخمرة. أصبحت الخمرة له حاجة ماسة، جسدية ونفسية في آن واحد. ونصحه الأطباء بالاعتدال، وقالوا له إن الخمرة تؤذيه أشد الأذى ولا سيما بسبب بدانته، ولكنه ظل يسرف في الشراب. كان لا يحس بالراحة إلّا حين يشعر بدفء لذيذ في جسمه كله، ويشعر بحنان نحو أخيه الإنسان، ويصبح مستعدًا لأن يستجيب لكل فكرة، استجابة سطحية دون أن يتعمق معناها، وذلك بعد أن يبتلع بفمه الكبير عدة كؤوس من الخمرة، ثم هولا يشعر بأن العقدة الرهيبة الشائكة، عقدة الحياة هذه التي كانت تروّعه، ليست مروّعة إلى الحد الذي كان يتصوره، إلّا بعد أن يفرغ زجاجة أو زجاجتين. كان يظل يرى جانبًا من جوانب هذه العقدة فائر النفس أثناء استرساله في ثرثرة أو أثناء إصغائه

إلى أحاديث غيره؛ أو أثناء عكوفه على القراءة بعد عشاء، وكانت الخمرة وحدها تستطيع أن تجعله يقول لنفسه: «ليس هذا بشيء ذي بال. لسوف أملّه، حتى إن عندي حلًّا منذ الآن. ولكن ليس هذا هو الأوان. سوف أفكر به في ما بعد. ثم لا يأتي زمان «في ما بعد هذا أبدًا».

فإذا كان صباح الغد واستيقظ صباحا من سكره رجعت هذه الأسئلة كلها إلى طبيعتها أسئلة رهيبة لا سبيل إلى حلها، فيسرع بطرس إلى كتاب يقرأ فيه أو يسره أن يأتيه زائر.

وكان يتذكر في بعض الأحيان أنه سمع ما سمعه عن الجنود من أنهم أثناء الانسحاب حين يضطرون إلى التوقف عن القيام بأي عمل تحت نيران العدو، يتفننون في شغل أنفسهم بأي شيء التماسًا لنسيان الخطر بسهولة أكبر. فكان يتراءى له عندئذ أن البشر جميعًا مثلهم كمثل أولئك الجنود، يسعون إلى الهروب من الحياة، فمنهم من يهرب منها بالطموح، ومنهم من يهرب منها بالقمار، ومنهم من يهرب منها بوضع قوانين، ومنهم من يهرب منها بمعاشرة النساء، ومنهم من يهرب منها بالانصراف إلى أنواع التسليات، بعض يتسلون بالخيل وبعض يتسلون بالسياسة أو بالصيد أو الخمرة أو بشؤون الدولة. «فلا شيء تافهًا، لا شيء غير ذي قيمة، لكل شيء شأنه: وإنما المهم أن يستطيع المرء الهرب ما وسعه ذلك! إنما المهم أن لا أراها، هذه الحياة الرهيبة». بذلك كان بطرس يحدّث نفسه.

الفصل الثاني

في مطلع الشتاء جاء الأمير نيقولا آندريتش بولكونسكي وابنته إلى موسكو. وبفضل ماضيه وذكائه وتفرّده، ولا سيما بفضل تضاؤل الحماسة التي كان قد ألهبها حكم ألكسندر الأول في نفوس الناس، وبفضل عواطف العداء للفرنسيين، وبفضل المشاعر الوطنية التي ملأت النفوس حينذاك، سرعان ما أصبح أهل موسكو يولونه احترامًا خاصًّا عظيمًا، وسرعان ما أصبح مركز المعارضة للحكومة.

كان الأمير قد شاخ كثيرًا في أثناء تلك السنة. وظهرت عليه علامات شيخوخة واضحة كل الوضوح، فهو يغفو على حين فجأة. وهو ينسى الحوادث التي وقعت منذ وقت قصير، ويتذكر الحوادث القديمة الموغلة في القدم. هذا ما ظهر عليه من غرور ساذج كسذاجة الأطفال حين قبل أن يكون زعيم المعارضة في موسكو. ولكنه رغم العلامات كلها، ولا سيما في المساء، حين يظهر ساعة احتساء الشاي مرتديًا سترته المبطنة بالفرو، واضعًا على رأسه باروكته المرشوشة بالبودرة، وينطلق في حكاية قصص مفككة تتعلق بالماضي أو يقطع بآراء أكثر تفككًا وأكثر جزمًا عن الحاضر، بتحريض من أحد الحضور، كان يظل يوقظ في نفوس ضيوفه شعورًا بالاحترام والتبجيل. إن هذا المنزل الفخم القديم، وما يضمه من مرايا ضخمة تغطي الجدران بين النوافذ، وما يحتويه من أثاث عريق سابق على عهد «الثورة»، مع خدمه المرشوشين بالبودرة، ومع هذا الشيخ القاسي الخشن الذكي من شيوخ القرن الماضي، ومع ابنته الرقيقة العذبة، والفرنسية الحسناء اللتين تنحنيان له احترامًا، إن هذا كله كان منظرًا تبهج فخامته

الأبصار. ولكن الزائرين الذين يقضون في هذا المنزل ساعتين كان لا يخطر ببالهم أن هناك اثنتين وعشرين ساعة من حياة داخلية خفية تجري فيه.

وقد أصبحت هذه الحياة الداخلية تؤلم الأميرة ماريا أكبر الألم في الآونة الأخيرة. إن الأميرة ماريا محرومة هنا من أجمل أفراحها، محرومة من أحاديث «أولياء الله»، محرومة من القدرة على الوحدة والعزلة، وهي أمور تشدّها إلى ليسييه جوري؛ كما أنها لا تتمتع بمزايا الحياة في العاصمة ومباهجها. فهي لا تختلف إلى المجتمع، لأن كل إنسان يعرف أن أباها لا يسمح لها بارتياد المجتمع إلّا إذا رافقها هو، وهو لا يرافقها بسبب سوء حالته الصحية، فكان لا يدعوها أحد إلى ما يقام من حفلات عشاء ومن سهرات. وقد أقلعت الأميرة ماريا عن كل أمل في الزواج إقلاعًا تامًّا. فهي ترى كيف كان الأمير نيقولا آندريتش يعامل الشبان الذين يمكن أن يطمعوا في الزواج منها، والذين كانوا يجيئون أحيانًا إلى المنزل، فإذا هو يسيء استقبالهم بل ويطردهم طردًا. ولم يكن لها أيضًا صديقات. فهي في أثناء إقامتها هذه بموسكو قد فقدت أوهامها عن الإنسانتين اللتين كانتا أقرب الناس إليها، وهما مادوموازيل بوريين وجوليا. فأما مادوموازيل بوريين، فإنها لم تستطع أن تطمئن إليها اطمئنانًا كاملًا في يوم من الأيام على كل حال، قد أصبحت هنا بغيضة إلى نفسها، حتى لقد أخذت تبتعد عنها لبعض الأسباب. وأما جوليا التي كانت مقيمة بموسكو، والتي ظلّت الأميرة ماريا تراسلها طوال خمس سنوات، فإنها ما إن رأتها بموسكو حتى أحست بأنها غريبة عنها ولا تربطها بها صلة من الصلات. إن جوليا التي جعلها موت إخوتها من أغنى البنات التي يُطمع في تزوجهن، تعيش الآن في زوبعة من مباهج المجتمع الراقي، ويحيط بها شبان تظن أنهم اكتشفوا مزاياها على حين فجأة. إنها في تلك السن التي تحس فيها بنات المجتمع الراقي اللواتي يتقدمن في السن أن عليهن أن يلقين بآخر سهم في سبيل أن يتزوّجن، ويدركن أن مصيرهن إما أن يتقرر الآن وإما ألا يتقرر أبدًا. فكانت الأميرة ماريا، كلما جاء يوم الخميس، تتذكر وهي تبتسم ابتسامة حزينة أنها أصبحت محرومة من الكتابة إلى أحد، لأن جوليا، جوليا التي لا يسر الأميرة ماريا أن تجالسها،

مقيمة هنا، وهي تراها كل أسبوع. فكانت الأميرة ماريا، مثلها في ذلك كمثل ذلك المهاجر القديم الذي رفض أن يتزوج السيدة التي ظل يقضي سهراته عندها عدة سنين، تأسف لأن جوليا مقيمة هنا، وأنها محرومة لذلك من متعة الكتابة إلى أحد. ولم يكن للأميرة ماريا أحد تستطيع أن تكلّمه وأن تفضي إليه بما تعاني من حزن. وما أكثر أسباب الحزن الجديدة التي أُضيفت خلال هذه المدة إلى أسباب الحزن القديمة. إن أوان عودة الأمير أندريه وزواجه يقترب، والمهمة التي عهد بها إليها أخوها، وهي أن تهيئ أباها لقبول الأمر لم يستحل عليها القيام بها فحسب، بل أصبحت كذلك أمرًا خطرًا، فإن أيّ إشارة إلى آل روستوف صارت تغضب الشيخ غضبًا شديدًا وتخرجه عن طوره، فضلًا عن أنه معتكر المزاج في أكثر الأحيان. ومن التباريح الجديدة التي جاءت تعذب الأميرة ماريا في الآونة الأخيرة، هذه الدروس التي كان عليها أن تتفرّغ لها لتعليم ابن أخيها الذي بلغ السادسة من عمره. لقد هال الأميرة ماريا أن ترى أنها في علاقاتها بالصغير نيقولا نزقة نزقًا شبيها بنزق أبيها. وما أكثر ما نصحت نفسها بأن لا تدع للغضب سبيلًا إليها، ولكنها كلما بدأت تعليم الصبي الصغير مبادئ اللغة الفرنسية تمنّت لو تلقّنه كل ما تعرفه بأقصى سرعة وأيسر وسيلة، والطفل يخاف أن يرى عمّته وقد استبد بها الغضب بين لحظة وأخرى، حتى إذا شرد انتباهه أقل شرود أخذت ترتجف، ونفد صبرها، وثارت أعصابها، وعلا صوتها، وربما جرّته من ذراعه ووضعته في ركن من الأركان قصاصًا له، ثم أخذت تبكي ناشجة، لائمة نفسها على هذا الطبع الرديء الشرير، فإذا بالطفل نيقولا يضم بكاءه إلى بكائها، ويترك الركن الذي حبسته فيه من دون أن يستأذنها، ويقترب منها، فيبعد عن وجهها يديها المبتلتين بالدموع، ويأخذ يواسيها ويسرّي عنها.

غير أن ما كان يشجي الأميرة ماريا أكثر من أي شيء آخر، هو هذا النزق في أبيها يصبّه عليها هي دائمًا. وقد بلغ في الآونة الأخيرة أشدّ قسوة. لو أجبرها على أن تسجد أمام الأيقونات ليلها كله، لو جعل يضربها، لو أكرهها على أن تحمل الحطب والماء، لما خطر ببالها أن تعد حظها عاثرًا وأن

تحزن. ولكن هذا الجلاد المحب، هذا الجلاد الذي هو أقسى الجلادين طرًّا لأنه يحبها ويعذّب نفسه باضطهادها، كان لا يكتفي بإهانتها وإذلالها بل يحرص على أن يبرهن لها على أنها في كل أمر هي المخطئة. وظهرت في المدة الأخيرة ظاهرة بلغت بأشجان الأميرة ماريا أقصاها، هي هذا الاهتمام المتزايد من أبيها بمادوموازيل بوريين.

إن الأمير، منذ أن علم بأن ابنه ينوي أن يتزوج ناتاشا قال ديمتريتش إنه سيتزوج مادوموازيل بوريين إذا تزوج ابنه ناتاشا، ويظهر أن هذه الفكرة قد راقت له، فأصبح في المدة الأخيرة لا لشيء إلّا أن يجرح شعور الأميرة ماريا (هكذا اعتقدت الأميرة ماريا)، يصر على أن يضاعف اهتمامه بمادوموازيل بوريين، وأن يبدي بذلك استياءه وامتعاضه من ابنته، حتى إنه في ذات يوم في موسكو، قبَّل يد مادوموازيل بوريين بحضور الأميرة ماريا، ثم جذبها إليه وطوّقها بذراعيه وأخذ يدغدغها فاحمرّت الأميرة ماريا وولت هاربة. فما انقضت على ذلك لحظات حتى دخلت عليها مادوموازيل بوريين متهللة الأسارير مشرقة الوجه بالتبسّم وأخذت تكلّمها بصوتها العذب الحلو. فأسرعت الأميرة ماريا تمسح دموعها، وقامت لها بخطى حازمة، وصرخت بغضب وصياح وهي لا تدري ماذا تفعل:

- هذا حقارة.. هذا دناءة... عار على امرأة أن تستغل ضعف... ولكن لم تكمل جملتها. واكتفت بأن أردفت تصيح قائلة:

- اخرجي من غرفتي.

وانفجرت تبكي ناشجة.

لم يقل الأمير لابنته في الغد كلمة واحدة. ولكن البنت لاحظت أثناء العشاء أنه أمر بأن يقدَّم الطعام لمادوموازيل بوريين قبل أن يقدَّم إليها. وفي نهاية العشاء، حين سكب الخادم القهوة للأميرة قبل غيرها بحكم العادة، استشاط الأمير غضبًا، ورمى رأس فيليب بعصاه، وأصدر على الفور امرًا بتجنيده. وقال صارخًا:

- أنت أصم لا تسمع، قلتها مرتين... مادوموازيل بوزيين هي الأولى في المنزل. هي خير صديقة لي.

ثم صاح يقول غاضبًا، موجِّهًا كلامه لأول مرة إلى الأميرة ماريا:

- وأنت، إذا سمحت لنفسك مرة أخرى أن تتجرئي عليها كما تجرأت بالأمس، فلأرينَّك مَنِ الآمر الناهي هنا. اخرجي. لا أريد أن أراكِ بعد الآن. واطلبي منها العفو.

طلبت الأميرة ماريا العفو من مادوموازيل بوريين ومن أبيها، طلبته لنفسها وللخادم فيليب الذي رجاها أن تتشفّع له.

وكان الشعور الذي ينمو ويكبر في نفس الأميرة ماريا في مثل هذه اللحظات نوعًا من الزهو بأنها تضحي. إن هذا الأب الذي سمحت لنفسها بأن تلومه يبحث في تلك اللحظات نفسها عن نظّارتيه تلمسًا بيديه على مقربة منه، وينسى ما حدث منذ دقيقة، وتزل ساقاه فجأة، فينظر حواليه متسائلًا هل رأى أحد ضعفه. وأنكى من ذلك، أنه حين يجلس إلى المائدة ولا يكون ثمة ضيوف يوقظون نشاطه، يغفو على حين فجأة، فتسقط على الأرض فوطته، ويميل على الطبق رأسه متهزّزًا، فتقول الأميرة ماريا في سرها مقرّعة نفسها: «إنه شيخ وضعيف، فكيف أبيح لنفسي أن ألومه؟».

الفصل الثالث

كان في موسكو سنة 1811 طبيب فرنسي اسمه الدكتور ميتيفييه، ذاع صيته وطارت شهرته بسرعة، وهو رجل وسيم جِدًّا، طويل القامة، لطيف كسائر الفرنسيين، يُجمع الناس على أنه طبيب حاذق حذقًا نادرًا. وقد صار يُستقبل في المجتمع الراقي لا كما يُستقبل طبيب بل كما يُستقبل نَدّ.

وكان الأمير نيقولا آندريتش الذي يسخر عادة من الطب، قد قبل في الآونة الأخيرة، تنفيذًا لنصائح مادوموازيل بوريين، أن يستشير هذا الطبيب وأصبح يألفه فكان ميتيفييه يعوده في الأسبوع مرتين أو ثلاثًا.

وفي يوم عيد القديس نيقولا[1]، وهو عيد اسم الأمير، جاءت موسكو كلّها إلى بابه تبارك له بالعيد، ولكن الأمير كان قد أصدر أمره بألا يُستقبل إلّا عدد من خلصائه القلائل، وأعطى الأميرة ماريا قائمة بأسمائهم لتدعوهم إلى العشاء.

وقد جاء ميتيفييه في الصباح ليبارك للأمير بالعيد، ورأى أنه بصفته طبيبًا، يستطيع أن يخالف الأوامر، على حد تعبيره حين كلّم الأميرة ماريا، فدخل على الأمير وشاءت الظروف أن يكون الأمير في صباح يوم عيده هذا معتكر المزاج أكثر من أي يوم آخر، فهو مهتاج النفس يطوف في المنزل ذاهبًا آيبًا، ويصبّ غضبه على كل من يلقاه ويتظاهر بأنه لا يفهم ما يقوله أحد، ولا يفهم حتى ما يقوله هو. وكانت الأميرة ماريا تعرف فيه هذا المزاج المقاتل المكظوم القلق حقَّ المعرفة، وتعلم كيف ينتهي عادة بانفجار، فكانت تشعر

---

(1) اليوم السادس من شهر كانون الأول (ديسمبر).

طوال الصباح بأنها في مرمى بندقية ملقَّمة مرفوعة الزناد، وتنتظر أن تصيبها الطلقة لا محالة. وقد انقضى الصباح بغير حدوث شيء إلى أن وصل الطبيب، فأدخلته ومضت تجلس في الصالون بقرب الباب وفي يدها كتاب، فكان يمكنها أن تسمع هناك كل ما يحدث في مكتب أبيها.

لم تسمع في أول الأمر إلّا صوت ميتيفييه، ثم سمعت صوت أبيها، ثم سمعت صوتيهما يتكلّمان في آن واحد، ثم رأت الباب يُفتح على مصراعيه، ورأت قامة ميتيفييه الجميلة ورأت ذؤابته السوداء ورأت وجهه المرتاع، ورأت قامة الأمير وهو مرتدٍ ثوب المنزل معتمرًا طاقيته المصنوعة من نسيج القطن، ورأت سحنته منقلبة وعينيه محتقنتين من فرط الغضب، وكان الأمير يزأر قائلًا:

- أنت لا تفهم؟ ولكنني أنا أفهم! أنت جاسوس فرنسي، خادم لبونابرت، جاسوس، اخرج من هنا، اخرج من هنا، أقول لك اخرج!

وصفق الأمير الباب.

اقترب ميتيفييه من مادوموازيل بوريين التي هرعت من الغرفة المجاورة حين سمعت هذا الصياح. اقترب منها وهو يهزّ كتفيه، وقال لها:

- إن صحة الأمير سيئة. فهو مصاب بالصفراء وباحتقان في الدماغ هدّئي نفسك. سأرجع غدًا. ورفع أصبعًا إلى شفتيه، وخرج مسرعًا. وظل يسمع من الوراء الباب وقع خُفَّي الأمير متجولًا في مكتبه، صارخًا ملء صوته: «جواسيس، وخونة. في كل مكان خونة! أما من سبيل إلى أن يُترك المرء وشأنه هادئًا في بيته!». وبعد انصراف ميتيفييه، استدعى ابنته، وصبَّ عليها هي الأخرى كل غضبه، قائلًا إن الذنب ذنبها، فهي التي تركت لجاسوس أن يدخل عليه، مع أنه سلَّمها قائمة وأمرها أن لا تسمح بالدخول إلّا للذين أدرج أسماءهم في القائمة، فهي سبب كل تعب، ومصدر كل عذاب وأنه لا يستطيع معها أن يعيش للحظة واحدة في هدوء، ولا يمكنه أن يموت في سلام.

وقال لها:

- لا بد أن نفترق حتمًا. لا بد أن ننفصل، اعلمي هذا! اعلمي هذا! نفد صبري، أصبحت لا أطيق!

وكأنه خشي أن تستطيع تعزية نفسها، فها هو ذا يعود إليها محاولًا أن يصطنع هيئة الهدوء، ويضيف:

– لا تحسبي أنني أقول لك هذا في ثورة غضب. إنني هادئ كل الهدوء. وقد فكرت في الأمر مليًّا. وما قلته هو ما سيحدث. يجب أن نفترق. ابحثي لنفسك عن مأوى تلجئين إليه!

ولكنه لم يستطع أن يستمر في السيطرة على نفسه واصطناع الهدوء فها هو ذا يهز قبضة يده بغضب قد لا يقدر عليه إلّا رجل يدفعه الحب، متألمًا هو نفسه ألمًا واضحًا، ويصرخ قائلًا:

– ليت غبيًّا من الأغبياء يتزوّجها، فيريحني منها!

وصفق الباب، ونادى مادوموازيل بورين، ثم لم يُسمع صوته في مكتبه بعد ذلك.

وفي الساعة الثانية وصل الأشخاص الستة الذين دُعوا إلى العشاء، وهم الكونت الشهير روستوبتشين، والأمير لوبوخين[1] وابن أخيه، والجنرال تشاروف، أحد قدامى رفاق الأمير في السلاح، وشابان هما بطرس وبوريس روبتسكوي. وجلسوا ينتظرون الأمير.

إن بوريس الذي يقضي إجازة في موسكو منذ بضعة أيام كان قد حرص على أن يقدَّم إلى الأمير نيقولا آندريتش، وعرف بالحذق كيف يفوز بحظوته، فاستثناه الأمير من الشبان العزّاب، إذ كان لا يستقبل في منزله شابًّا عازبًا.

لم يكن منزل الأمير ما يسمى «مجتمعًا» بمعنى كلمة المجتمع، وإنما هو حلقة صغيرة لا يتكلم الناس عنها كثيرًا في المدينة، ولكن لا شيء يرضي غرور امرئ ويرفع قدره في نظر نفسه مثل أن يُقبل في هذه الحلقة. وقد أدرك بوريس ذلك قبل ثمانية أيام حين قال روستوبتشين بحضوره للحاكم العسكري الذي كان يدعوه إلى العشاء احتفالًا بيوم القديس نيقولا:

– إنني في هذا اليوم أذهب دائمًا إلى حلقة الأمير نيقولا آندريتش أباركها وأقدّسها.

---

(1) هو بطرس فاسيليفتش لبوخين (1753 – 1827)، كان نائبًا عامًا سنة 1798، ثم أصبح وزيرًا للعدل من سنة 1803 إلى سنة 1810، وقد خُلع عليه لقب الأمير سنة 1799.

فأجابه الجنرال بقوله:

- آه... حقًّا. نعم. كيف حاله.

إن هذه الجماعة الصغيرة التي اجتمعت قبل العشاء في الصالون ذي السقف العالي على الطراز القديم، وذي الأثاث العريق العتيق، لأشبه بأعضاء محكمة ضمّتهم جلسة محاكمة مهيبة. إنهم جميعًا صامتين فإذا قطع أحدهم الصمت، تكلم بصوت خافت.

وطلع عليهم الأمير نيقولا آندريتش رصينًا صموتًا. وكانت الأميرة ماريا تبدو أشد خجلًا وأكثر استحياءً منها في أي وقت مضى. وكان الضيوف لا يوجهون كلامهم إليها إلّا قليلًا، لأنهم لاحظوا أن فكرها منصرف إلى غير ما هم فيه من حديث. وكان الكونت روستوبتشين ممسكًا وحده زمام الحديث، فتارة يقصّ ما يروج في المدينة من أقاويل، وتارة يروي آخر الأنباء السياسية. وكان لوبوخين والجنرال الشيخ يقولان شيئًا من حين إلى حين. أما الأمير نيقولا آندريتش فهو يصغي إصغاء القاضي الأعلى إلى تقرير يُقرَأ له، ولا يبدي إلّا بين الفينة والفينة، بالصمت أو بكلمة موجزة، أنه يأخذ علمًا بما يقال له. وكانت لهجة المحادثة كلها تدل على أن أحدًا لم يكن راضيًا عمَّ يجري في عالم السياسة. وكانت تُروى حوادث تقطع بأن الأمور تجري من سيء إلى أسوأ. ولكن ما يلفت النظر في كل قصة تُروى وفي كل رأي يقال، أن المتحدث يقف في حديثه كل مرة عند الحدود التي قد يكون في تجاوزها مَسّ بالإمبراطور.

وفي أثناء العشاء دار الكلام على آخر نبأ سياسي وهو استيلاء نابوليون على ممتلكات دوق أولدنبورغ الأكبر[1] وعن المذكّرة الروسية المعادية لنابليون التي أُرسلت إلى جميع ملوك أوروبا. فقال الكونت روستوبتشين مكرِّرًا جملة سبق أن قالها مِرارًا في كل مكان:

- إن نابوليون يعامل أوروبا كما يعامل قرصان باخرة استولى عليها،

---

(1) في مطلع عام 1811 ألحق نابوليون دوقية أولدنبورغ الكبرى فنقل إلى داخل ألمانيا الدوق الأكبر «بطرس فريدريك» زوج كاترين، أخت ألكسندر الأول.

وليس يسع المرء إلّا أن يُدهش من صبر الملوك أو من عماوتهم. والآن جاء دور البابا، فإن بونابرت الذي أصبح لا يتحرّج من شيء يريد أن يقلب رئيس الكنيسة الكاثوليكية، ثم لا نرى أحدًا يحرك ساكنًا، ويصمت الجميع. إن إمبراطورنا وحده احتجّ على اغتصاب نابوليون دوقية أولدنبورغ. وليت...

وصمت الكونت روستوبتشين، لأنه شعر أنه بلغ الحدَّ، الذي لا يجوز بعده لوم.

قال الأمير نيقولا آندريتش:

- عُرض عليه أن يعطى ممتلكات أخرى لقاء تخليه عن دوقية أولدنبورغ. إنه يعامل الأدواق معاملتي لفلاحيَّ إذا أنا نقلتهم من ليسييه جوري إلى بوغوتشاروفو أو إلى أملاكي في ريازان...

قال بوريس متدخلًا في الحديث باحترام:

- إن دوق أولدنبورغ يتحمل الكارثة التي أصابته بصلابة رائعة وإذعان مدهش.

وقد قال بوريس هذا الكلام، لأنه حين مروره ببطرسبورغ قد شرف بأن قُدّم إلى الدوق. فنظر الأمير نيقولا آندريتش إلى الشاب نظرة من يريد أن يجيبه، ولكنه عدل عن ذلك، لأنه عدَّه أصغر سنًّا من أن يردَّ عليه.

وقال الكونت روستوبتشين بلهجة طلقة هي لهجة امرئ يعرف المسألة التي يتكلم فيها حق معرفتها:

- قرأت مذكرة الاحتجاج التي أرسلناها في أمر أولدنبورغ، فأدهشتني رداءة أسلوبها.

فنظر إليه بطرس نظرة استغراب ساذج، لأنه لم يدرك قيمة تهمة رداءة الأسلوب، وقال معلقًا على كلامه:

- ما قيمة أسلوب المذكرة إذا كان مضمونها شديدًا؟

فأجابه الكونت روستوبتشين قائلًا:

- يا عزيزي، إنه لمن السهل علينا ونحن نملك خمسمائة ألف من الجند، أن نكتب بأسلوب جيد.

فأدرك بطرس لماذا يضيق الكونت بهذا الأسلوب.

قال الأمير الشيخ:

- يخيل إليَّ مع ذلك أن ما يعوزنا ليس الكتّاب. إن بطرسبورغ لا تفعل شيئًا غير الكتابة، لا كتابة المذكرات فحسب، بل كتابة القوانين الجديدة بغير انقطاع. إن ابني آندرويوشا كتب في بطرسبورغ لروسيا مجلدًا ضخمًا من القوانين. في هذا الزمان ليس أكثر من الذين يكتبون.

وضحك الأمير الشيخ ضحكة مصطنعة.

وانقطع الحديث لحظة. ثم تنحنح الجنرال الشيخ ليلفت الأنظار إليه، وقال:

- هل سمعتم بالحادث الأخير الذي وقع أثناء الاستعراض العسكري الذي جرى ببطرسبورغ! لقد تكشفت حقيقة سفير فرنسا الجديد!

- ماذا حدث على وجه الدقة؟ سمعت كلامًا غامضًا عن أمر وقع، يظهر أن السفير كان أخرق في مخاطبة الإمبراطور.

- كان صاحب الجلالة الإمبراطور يلفت انتباه السفير إلى رُماة القنابل اليدوية الذين كانوا يسيرون في الاستعراض، فلم يلق السفير بالًا إلى كلام الإمبراطور، حتى إنه أجاز لنفسه أن يعقّب بقوله إنهم في بلادهم فرنسا، لا يعبأون كثيرًا بأمثال هذه السفاسف والترّهات. ولم يجبه الإمبراطور بشيء، ولكنه في الاستعراض التالي لم يتنازل فيكلم السفير مرة واحدة.

صمت الجميع، إنهم لا يستطيعون أن يصدروا أي حكم في هذه الواقعة التي تتعلق بالإمبراطور نفسه. فقال الأمير:

- هؤلاء أناس وقحون! هل تعرفون ميتيفييه! طردته من منزلي في هذا الصباح. لقد جاء إلى هنا، فسُمح له بأن يدخل عليَّ.

وأضاف الأمير يقول وهو يرشق ابنته بنظرة ساخطة حانقة:

- سُمح له بأن يدخل عليَّ، رغم إنني ألححت على أن لا يسمح لأحد بالدخول.

ثم روى الأمير الحديث الذي جرى بينه وبين ميتيفييه، وشرح الأسباب التي تحمله على الاعتقاد بأن هذا الرجل جاسوس. فلم يعترض عليه أحد، رغم أن الأسباب التي ذكرها ناقصة أكبر النقص، غامضة أشد الغموض.

وشرب الضيوف الشمبانيا. ثم قاموا يباركون للأمير بالعيد ويعربون له عن تمنياتهم. وتقدّمت منه الأميرة ماريا فرشقها بنظرة باردة شريرة، ومدَّ لها خده المغضَّنة المحلوقة لتقبّلها، فكان تعبير وجهه يقول لها إنه لم ينس حديثه إليها في الصباح، وإن قراره لا يزال قائمًا، وإنه إن لم يكلمها في هذا الأمر الآن، فما ذلك إلّا مراعاة ومداراة للضيوف.

وحين انتقل الجمع إلى الصالون لاحتساء القهوة جلس الشيوخ على حدة. وتحمّس الأمير نيقولا آندريتش، فبسط آراءه في الحرب التي ستنشب.

فقال إن الحملات التي سنشنها على نابوليون ستبوء بالإخفاق ما ظللنا نسعى إلى محالفة الألمان، ونتدخّل في شؤون أوروبا، وهي سياسة جرَّنا إليها صلح تيليست. فلم يكن ينبغي لنا لا أن نحارب في سبيل النمسا، ولا أن نحارب النمسا. إن مصالحنا كلها في الشرق. والموقف الوحيد الذي يجب أن نقفه من نابوليون هو أن نسلّح حدودنا، وأن نكون في السياسة صلابًا، فبذلك لا يجرؤ أن يطأ الأرض الروسية كما فعل ذلك سنة 1807.

فقال الكونت روستوبتشين:

- أين لنا أن نحارب الفرنسيين يا أمير؟ أين لنا أن نتمرّد على سادتنا وآلهتنا. انظر إلى شبابنا، انظر إلى سيداتنا أصبح الفرنسيون آلهتنا، وأصبحت باريس جنتنا.

قال الكونت روستوبتشين ذلك رافعًا صوته، من أجل أن يسمعه الجميع في غالب الظن. وواصل كلامه يقول:

- موضات فرنسية، أفكار فرنسية، عواطف فرنسية، لقد طردت أنت ميتيفييه لأنه فرنسي ولأنه وغد، أما سيداتنا فإنهن يجرين وراءه راكعات. كنت أمس في سهرة، فماذا رأيت؟ إن ثلاثًا من السيدات الخمس اللواتي كنّ في السهرة كاثوليكيات حصلن على إذن خاص من البابا بأن يطرّزن يوم الأحد، وكنَّ عدا ذلك أشباه عاريات يصلحن أن تتخذ صورهنَّ لافتات لدور حمامات، لا تؤاخذني يا أمير فإنني لا أستعمل هذه اللغة بحضورك ناسيًا ما يجب لك علينا من احترام. آه... حين أرى شبيبتنا لأتمنى أن آخذ

من المتحف هراوة بطرس الأكبر[1]، وأن أهشم بها أضلاعهم على الطريقة الروسية، فلعل ذلك أن يخرج من رؤوسهم ما امتلأت به من حماقات!

صمت الجميع، وكان الأمير الشيخ ينظر إلى روستوبتشن مبتسمًا ويهز رأسه محبذًا مؤيدًا.

قال روستوبتشين وهو يقوم ويمدّ يده إلى الأمير بحركة قويّة معهودة فيه:

- أستودعك الله يا أمير، وأتمنّى لك صحة موفورة.

فأجابه الأمير وهو يحتجز يده في يديه، ويمد إليه خدَّه ليقبله:

- أستودعك الله يا عزيزي. ونظر حوله وأضاف:إن له فمّا من ذهب، فلا أسأم من سماع كلامه.

ونهض الآخرون مقتدين بالكونت روستوبتشين.

(1) كان بطرس الأكبر الفتى الجبار يحمل عصًا ضخمة يضرب بها كبار رجال الدولة الذين يخرجون على الطاعة أو يرتكبون ذنبًا.

الفصل الرابع

إن الأميرة ماريا التي سمعت في الصالون ما دار بين الشيوخ من أحاديث وما تبادلوه من آراء لم تفهم شيئًا مما سمعت، وكان همها الوحيد هو أن لا يلاحظ الضيوف ما يحمله لها أبوها من عداوة، حتى إنها لم تلاحظ ما أحاطها به دروبتسكوي طوال مدة العشاء من اهتمام شديد. وكانت هذه ثالث زيارة له.

رفعت الأميرة ماريا نظرة ذاهلة إلى بطرس الذي تقدم منها آخر المتقدّمين وفي يده قبعته وعلى شفتيه ابتسامة، بعد أن خرج الأمير، وبقيا وحيدين في الصالون. وقال لها وهو يتهالك بكل ثقله على مقعد بقربها:

- هل أستطيع أن أبقى قليلًا؟

فقالت:

- طبعًا.

وكانت نظرتها تسأله: «هل لاحظت شيئًا؟».

كان بطرس رائق المزاج، كما يكون دائمًا بعد العشاء. وكان ينظر أمامه، ويبتسم ابتسامة عذبة. قال يسألها:

- هل تعرفين هذا الشاب منذ مدة طويلة يا أميرة؟

- أي شاب؟

- دروبتسكوي.

- لا، عرفته منذ مدة قصيرة.

- هل يعجبك؟

أجابت الأميرة ماريا وهي لا تزال تفكر في الحديث الذي قام بينها وبين أبيها هذا الصباح:

- شاب لطيف. ولكن لِمَ تسألني هذا السؤال؟

فقال بطرس:

- لأنني لاحظت أمرًا، هو أنه حين يجيء شاب إلى موسكو من بطرسبورغ في إجازة، فإنه لا يجيء عادة إلّا بقصد أن يتزوج فتاة غنية.

قالت الأميرة ماريا:

- لاحظت هذا؟

فتابع بطرس كلامه وهو يبتسم:

- نعم، وهذا الشاب لا يذهب إلّا إلى حيث يكون ثمة فتيات غنيات للزواج. إنني أقرأ ما في نفسه كما أقرأ في كتاب. وهو يتساءل الآن من التي يجب أن يوجه إليها حملته، أنت أم الآنسة جوليا كاراجين، ذلك أنه يلازمها ملازمة شديدة.

- هل يتردّد عليهم؟

- نعم، يذهب إليهم كثيرًا. وهل تعرفين الأسلوب الجديد في المغازلة؟

ألقى بطرس هذا السؤال وهو يبتسم ابتسامة مرحة تشتمل على ذلك النوع من السخرية التي كان يؤاخذ نفسه عليها في يومياته. فأجابته الأميرة ماريا قائلة:

- لا.

فقال بطرس:

- من أجل أن يفوز الشاب بإعجاب فتيات موسكو في هذه الأيام، يجب أن يكون مكتئبًا. وما أشد ما يُظهر من اكتئاب حين يكون مع الآنسة كاراجين!

كانت الأميرة ماريا وهي تنظر إلى وجهه الطيب ولا تزال تفكّر في حزنها. وكانت تحدّث نفسها بقولها: «إنه ليسرِّي عني ويخفف وطأة ما أعانيه من حزن أن أتجرأ فأفضي إلى أحد بكل ما أشعر به. وبطرس هو الإنسان الذي أتمنّى لو أحدّثه بكل شيء. إنه طيب جِدًّا، وإن له قلبًا نبيلًا فلو أسررت إليه

بما في نفسي أحسن هذا إليَّ. إن في وسعه أن ينصحني!».

لاحظ بطرس صمتها، فسألها:

- هل ترضين أن تتزوّجيه إذا طلب ذلك؟

فإذا بالأميرة ماريا تقول على غير إرادة منها تقريبًا، والدموع في صوتها:

- آه يا كونت! تمرّ بي لحظات أتمنى فيها أن أتزوّج أي إنسان!

آه... ما أشد الألم الذي يعانيه المرء الذي يحب أحدًا يمت إليه بأقرب صلة، ثم هو يحسّ بأنه لا يستطيع أن يسبب إلّا الحزن، وأنه لا يمتلك أن يغير من الأمر شيئًا. إن المخرج الوحيد الذي يبقى له في هذه الحالة هو أن ينصرف. نعم، أن ينصرف، ولكن إلى أين يمكنني أن أذهب؟

أضافت الأميرة قولها هذا بصوت متهدّج، فقال بطرس يسألها:

- ماذا بك؟ ما هذا الذي تقولينه يا أميرة؟

ولكن الأميرة ماريا لم تكمل كلامها، وأجهشت تبكي. ثم قالت:

- لا أدري ماذا اعتراني اليوم. لا تسمع كلامي. انسَ كل ما قلته لك.

زال عن بطرس مرحه كلّه. وأخذ يسأل الأميرة ضارعًا أن تحدّثه بكل شيء، وأن تفضي إليه بأشجانها. ولكن الأميرة ماريا لم تزد على أن كررت رجاءها إليه أن ينسى كل ما قالته له، وأكدت له أنها هي نفسها نسيت ما قالته، وأنها خالية النفس إلّا من هم واحد يعرفه، وهو أن يكون زواج الأمير أندريه مهدِّدًا بإفساد صلة الأب بابنه.

وسألته لتغيِّر الحديث:

- هل بلغتك أنباء عن آل روستوف؟ قيل لي إنهم واصلون إلى موسكو في القريب. وأنا أنتظر أن يصل الأمير أندريه أيضًا بين يوم وآخر. وأود أن يلتقيا مرة أخرى هنا.

قال بطرس يسألها:

- ما رأيه «هو» الآن؟

وكان يقصد، الأمير الشيخ. فهزّت الأميرة ماريا رأسها، ثم قالت:

- ماذا نستطيع أن نفعل! لم يبق من مهلة السنة إلّا بضعة أشهر.

ولكنني لست متفائلة. كل ما أتمناه هو أن أخفِّف عن أخي وطأة

اللحظات الأولى. أود أن يصلوا بسرعة. وآمل أن يقوم بيني وبينها تفاهم... إنك تعرفهم منذ زمن طويل، فأستحلفك أن تقول لي الحقيقة كاملة: ما نوعها من فتاة؟ ما رأيك فيها؟ ولكن قل لي الحقيقة كلّها. ذلك أن أندريه، إذا تزوّجها مخالفًا إرادة أبيه، يجازف مجازفة كبيرة. لذلك أريد أن أعرف.

أدرك بطرس بغريزة غامضة أن هذه المواربات في الكلام، وهذه المطالبات المتكرّرة بأن يقول لها «الحقيقة كلّها»، تخفي وراءها أن الأميرة ماريا ليست مرحِّبة بخطيبة أخيها، وأنها تتمنّى أن تسمع منه شجبًا واستنكارًا لسوء اختيار الأمير أندريه. ولكن بطرس عبّر لها عن إحساسه لا عن رأيه، فقال وقد احمرّ وجهه لا يدري لماذا:

- لا أدري بماذا أجيب عن سؤالك. إنني أجهل كل الجهل ما نوعها من فتاة. إنني عاجز عن تحليلها. كل ما أستطيع أن أقوله عنها هو أنها فاتنة. لماذا؟ لا أدري.

فتنهدت الأميرة ماريا، وكان تعبير وجهها يقول: «نعم، هذا ما كنت أقدِّره، وهذا ما كنت أخشاه!». وسألته:

- أهي ذكية؟

ففكر بطرس برهة ثم قال:

- لا أظن بأنها ذكية، ومع ذلك فهي ذكية. ثم إنها لا يهمها كثيرًا أن تكون ذكية. هي فاتنة وكفى.

فهزت الأميرة ماريا رأسها مرة أخرى وقد لاح في وجهها الاستهجان، وقالت:

- لشد ما أود أن أحبّها. قل لها هذا إذا رأيتها قبلي.

قال بطرس:

- سمعت أنهم آتون في الأيام القليلة القادمة.

فأعلنت له الأميرة ماريا أنها عازمة على أن تصادق هذه الفتاة التي ستصبح زوجة أخيها، وأنها ستحاول أن يألف الأمير الشيخ هذا الوجه الجديد.

الفصل الخامس

لم يفلح بوريس في أن يتزوّج فتاة ثرية في بطرسبورغ، فجاء يجرِّب حظه في موسكو. وكان متردّدا في اختيار إحدى أغنى فتاتين، جوليا والأميرة ماريا. وقد جذبته الأميرة ماريا أكثر مما جذبته جوليا رغم أنها ليست على حظ من جمال، ولكنه كان يتهيّب أن يغازلها. ولقد حاول في آخر لقاء بينهما، وهو اللقاء الذي تمَّ يوم عيد الأمير الشيخ، أن يسبغ على حديثه معها طابعًا عاطفيًا، فباءت محاولاته كلها بالخذلان، إذ كانت أجوبتها ذاهلة، وبدا أن فكرها كان منصرفًا إلى أمور أخرى. ولا كذلك جوليا قد رحبت بملاطفاته، ولو ترحيبًاا من نوع خاصٍّ بها تنفرد بها من دون غيرها.

إن جوليا في السابعة والعشرين من عمرها. وقد أصبحت طائلة الثراء بعد موت أخواتها. وقد فقدت الآن كل حسن وبهاء. ولكنها تظن أنها لا تزال جميلة كما كانت، بل هي تظن فوق ذلك أنها أصبحت أشد فتنة وإغراء، وكان ثراؤها يعزز هذا الخطأ عندها، وكان يعززه كذلك أنها كلما تقدّمت في السنِّ صارت أقل خطرًا على الرجال، فصار الرجال يشعرون بالارتياح حين يلقونها، ويحسّون أن من حقهم أن يستمتعوا، من دون أي تورّط، بما يصيبونه عندها من طعام، وما يقضونه في منزلها من سهرات، وما يلقونه لديها من مجتمع ممتعة صحبته. فمن كان يمكن، قبل عشر سنين، أن يُخشى من التردّد كل يوم على منزل يضم فتاة في السابعة عشرة من عمرها مخافة أن يسيء إلى سمعتها أو أن تُعدَّ زياراته الكثيرة ارتباطًا بها وعهدًا عليه لها، أصبح الآن لا يتردّد في المجيء إليها كل يوم، وأصبح لا يعاملها معاملة آنسة للزواج بل معاملة صديقة ليس فيها ما يُغري كأنثى.

كان منزل آل كاراجين في ذلك الشتاء أمتع منازل موسكو وأكثرها ترحيبًا

بالضيوف، يحتشد فيه كل يوم عدد كبير من الناس أكثرهم رجال، ويُطعمون فيه إذا انتصف الليل، ويلبثون فيه حتى الساعة الثالثة من الصباح، هذا عدا السهرات الخاصّة وحفلات العشاء الخاصّة. وكانت جوليا لا تفوِّت حفلة رقص، ولا تتخلّف عن نزهة، ولا تغيب عن عرض في مسرح. وكانت ثيابها تلبي آخر صيحة من صيحات الموضة دائمًا. ومع ذلك كان يحلو لها أن تمثّل دور الفتاة التي خابت ظنونها وزايلتها أوهامها، فهي تقول لكل من تحادثه إنها أصبحت لا تؤمن لا بالصداقة ولا بالحب ولا بأي بهجة من مباهج الحياة، وإنها لا تنتظر سكينة النفس والطمأنينة إلّا «هناك». لقد اصطنعت جوليا لهجة فتاة فقدت إنسانًا أحبّته حبًّا قويًّا، أو لهجة فتاة خُدعت خديعة قاسية. ورغم أن شيئًا من هذا لم يحدث لها في حياتها، فقد كان الناس يتظاهرون بأنهم يصدّقونها، وكانت هي نفسها مقتنعة بأنها قاست آلامًا كثيرة ونزلت بها مصائب كبيرة. على أن هذا المزاج المكتئب كان لا يمنعها أبدًا من أن تتسلى، ولا يمنع الشبان الذين يختلفون إليها من أن يقضوا في منزلها وقتًا ممتعًا. فكان كل زائر من زوارها يدفع ما يستحقه عليه مزاجها المكتئب من ضريبة منذ أن يصل، ثم يمضي يشارك في أحاديث المجتمع، أو يندفع للرقص، أو يساهم في ما يتفكّه به القوم من نكات عمادُها جناس الألفاظ، أو في ما يقوم بينهم من مباريات الجمل المسجوعة المقفاة التي كان التسلّي بها رائجًا في منزل آل كاراجين. وكان عدد قليل من الشبان، منهم بوريس، يعرفون كيف يشاطرون الآن جوليا مزاجها المكتئب مشاطرة أكبر، فكانت تقوم بينها وبينهم أحاديث طويلة على انفراد، فيتكلّمون عن بطلان شؤون هذا العالم؛ وتريهم ألبوماتها الملأى برسوم وأفكار وقصائد تعبّر عن أشد الحزن وأعمق الكآبة.

وقد خصَّت جوليا صاحبنا بوريس بمودّة لم تخصّ بها غيره. فكانت تشاركه ما يعانيه من أسى مبكِّر، وتحمل عزاء الصداقة الذي تقدر أن تحمله إليه لأنها تألّمت هي نفسها. وقد فتحت له ألبومها ذات يوم، فرسم بوريس على إحدى أوراقه شجرتين، وكتب ما يلي: يا أشجار البرية، إن أغصانك القاتمة ترجِّح فوقي الظلام والكآبة.

وفي صفحة أخرى رسم قبرًا وكتب تحته هذين البيتين من الشعر:

في الموت غوث، في الموت هدوء
فلا ملاذ من الآلام إلّا بالموت.

وقد رأت جوليا أن هذا الكلام كلّه ممتع لذيذ ورائع. وقالت مفصحة عن رأيها:

«إنه شعاع من ضياء في غيهب الظلام، إنه يُعبِّر عن عاطفة خاصّة تقع بين الألم واليأس، وتشير إلى العزاء الممكن».

كانت جوليا قد اقتطفت هذه الجملة من كتاب، فردّ عليها بوريس بهذه الأبيات:

أيتها الكآبة، يا سما تغتذي به النفس الحساسة
يا عاطفة لا سعادة لي من دونها!
أيتها الكآبة الرقيقة العذبة الحنون!
تعالي واسيني
تعالي هدّئي تباريح عزلتي القاتمة.
وبثِّي فيَّ الدموع التي أحس انسكابها،
بثي عذوبة خفية.

وكانت جوليا تعزف لبوريس على آلة «الهارب» ليليات محزنة كاوية تفيض بالشكوى، وكان بوريس يقرأ لها قصة «ليزا المسكينة»[1]، ويقطع قراءته في بعض الأحيان لاهثًا من شدة الانفعال. وكان بوريس وجوليا إذا التقيا في صحبة عدد كبير، يتبادلان نظرات خاصّةً معناها أنهما الإنسانان الوحيدان اللذان يفهم أحدهما الآخر بين هؤلاء الناس الذين لا يكترثون بشيء، وأن روحَيْهما أختان.

---

(1) قصة عاطفية كتبها كارانزين، تصف الحب الشقي الذي أحبته فتاة قروية أغواها شاب من الأسياد الملاكين. وقد نشرت القصة سنة 1793، وظفرت بنجاح كبير في روسيا.

وكانت آنا ميخائيلوفنا تزور آل كاراجين كثيرًا، فتلازم الأم، فتجمع أثناء ذلك معلومات دقيقة عن مهر جوليا، فعرفت أنه أرضان في إقليم بنتسا وغابات في إقليم نيغني نوفغورود. وكانت تتأمل هذا الحزن الرفيع الذي يربط بين ابنها بوريس وجوليا الغنية، تتأمّل هذا الحزن وقد فاض قلبها حنانًا وإذعانًا لمشيئة الرب، وتقول:

- دائمًا فتانة أسيانة، هذه العزيزة جوليا.

وتضيف قائلة للأم:

- إن ابني بوريس يؤكد أنه لا يجد طمأنينة الروح وسكينة النفس إلّا عندكم. ما أكثر ما خابت آماله في الماضي، وإنه لحساس شديد الحساسية.

وكانت تقول لابنها بوريس:

- آه يا بني، لا أستطيع أن أعبّر لك عن مدى تعلقي بجوليا في هذه الآونة الأخيرة! من الذي يمكنه ألا يحبها؟ إنها من غير هذا العالم. آه، بوريس، بوريس. وتنصت قليلًا، ثم تضيف:

- وما أشد رثائي لحال أمها. لقد أطلعتني اليوم على الرسائل والحسابات التي تتلقاها من بنتسا. إن لها أملاكًا واسعة هناك. والمسكينة مضطرة أن تهتم وحدها بكل شيء. وما أكثر ما يغشونها!

فكان بوريس، حين يسمع أمه، يبتسم ابتسامة خفيفة لا تُرى، ويستهزئ في سرِّه استهزاء ناعمًا من مكرها الساذج، ولكنه كان يصغي إلى كلامها بانتباه، وإنما ألقى عليها أسئلة عن أملاكها في بنتسا ونيغني نوفغورود.

وكانت جوليا تنتظر منذ مدة طويلة أن يصارحها عاشقها الأسيان بحبه. وكانت مستعدة أن تقبله زوجًا. غير أن بوريس كان في دخيلة نفسه يحس نوعًا من الاشمئزاز من جوليا، وينفر من رغبتها المشبوبة هذه في أن تتزوّج، ويكره فيها هذا التصنّع والتكلّف، ويخشى أن يكون مضطرًا إلى التنازل عن كل أمل في أي حب حقيقيّ. فكان ذلك كله لا يزال يصدّه عن مصارحتها، وكانت إجازته تشارف على نهايتها. ولأنه كان يقضي وقته كله في منزل آل كاراجين، كان في كل يوم يفكّر في الأمر ويقول لنفسه إنه سيصارحها بحبه غدًا. ولكنه كلّما اجتمع بها، فرأى وجهها الأحمر وذقنها المطلية في جميع الأحيان تقريبًا بطبقة من البودرة، ورأى عينيها المبتلتين، ورأى ما

تعبر عنه هيئتها من تأهب دائم لأن تستبدل بقناع الاكتئاب المصطنع قناع الحماسة المصطنعة التي يوقظها في نفسها أمل السعادة بالزواج، يعجز عن النطق بالكلمات الحاسمة، رغم أنه في خياله يكون قد عد نفسه منذ زمن طويل مالكًا لأطيان بنتسا ونيغني نوفغورود، واستغل موارد هذه الأطيان. وكانت جوليا ترى تردّد بوريس، وخطر ببالها في بعض الأحيان أنه ينفر منها. ولكن سرعان ما كانت قدرتها النسوية على الوهم تهبّ إلى نجدتها في تلك اللحظات، فتقول لنفسها إن الحب هو الذي يجعله خجولًا. ومع ذلك أخذ اكتئابها يستحيل إلى حنق. ولما كان موعد سفر بوريس يوشك أن يأزف، فقد قررت أن تتصرّف تصرفًا حازمًا قويًا. وحدث في ذلك الوقت أن ظهر آناتول كوراجين في موسكو وفي صالون آل كاراجين طبعًا، فسرعان ما هجرت جوليا اكتئابها فجأة، وأصبحت شديدة الفرح والمرح، وأظهرت اهتمامًا كبيرًا بآناتول كوراجين.

قالت آنا ميخائيلوفنا لابنها بوريس:

- إنني أعلم من مصدر مطلع أن الأمير فاسيلي أرسل ابنه إلى موسكو ليزوّجه جوليا. وإني لأحب جوليا كثيرًا، فأشفق عليها من مثل هذا الزواج. فما رأيك يا صديقي؟

فلما تصور بوريس أنه بذل ذلك الجهد كله، وسلخ من عمره شهرًا كاملًا في تمثيل دور الفارس المكتئب الذي يضع نفسه في خدمة جوليا، ولما تصوّر أن جميع موارد أملاك بنتسا ستفلت من يديه إلى يدي شخص آخر، ولا سيما هذا الغبي الأحمق آناتول، بعد أن أحسن توزيعها واستثمارها في خياله، لما تصوّر بوريس ذلك كله اضطرب اضطرابًا شديدًا، وذهب إلى آل كاراجين عاقدًا عزمه على أن يخطب جوليا بغير تردّد. فاستقبلته جوليا مرحة غير عابئة، وحكت له بإهمال عن مدى استمتاعها بحفلة الرقص التي قامت البارحة، وسألته عن موعد سفره. فإذا هو رغم أنه جاء منتويًا أن يكلمها عن حبه، وأن يكون دمثًا رقيق الحاشية، إذ هو يُفيض في الكلام عن تذبذب النساء ساخطًا وينعتهن بأنهن لا ثبات لهنّ، وبأنهنّ ينتقلن انتقالًا سهلًا من الحزن إلى الفرح، وبأن مزاجهنّ ليس مرهونًا إلّا بمن يغازلهنّ. فوخز هذا الكلام جوليا، وردّت على بوريس بأن ما قاله صحيح، وبأن النساء يحتجن

إلى التغيير، وبأن الحياة التي تجري رتيبة على وتيرة واحدة تضجر كل إنسان. فأراد بوريس أن يلذعها فبدأ كلامه بالقول:

- أنصحك إذًا...

ولكن سرعان ما خطرت بباله هذه الفكرة التي تذلّه وتهينه، وهي أنه قد يغادر موسكو قبل أن يبلغ هدفه وأنه ضيَّع جهوده كلها سدى (وهذا ما لم يحدث له من قبل قط)، فأمسك عن إتمام جملته، وخفض عينيه حتى لا يرى وجه جوليا الحانق المتردّد الذي ينفّره، وأردف يقول:

- أنا لم آتِ إليكِ لأشاجرك... بالعكس...

ونظر إليها ليرى هل ينبغي له أن يستمر في هذا الكلام. فلاحظ أن سخط جوليا كله قد تبدّد فجأة، وأن جوليا تحدّق إليه بعينين قلقتين ضارعتين مستجديتين، وتنتظر أن يتم كلامه نافدة الصبر نهمة أشد النهم. فقال بوريس لنفسه: «سأعرف كيف أرتب الأمور بحيث لا أراها إلّا نادرًا. لقد بدأت فيجب أن أكمل»، ثم رفع إليها بصره وقال لها وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة:

- إنك تعرفين العواطف التي أحملها لك.. ولم يحتج بوريس إلى أن يزيد على جملته كلمة واحدة، فها هو ذا وجه جوليا يشرق معبّرًا عن الظفر والرضى، ولكنها أجبرت بوريس على أن يقول لها كل ما يقال في مثل هذه الظروف، فقال لها إنه يحبها، وإنه لم يحب في حياته امرأة كما أحبّها. لقد كانت جوليا تعلم أن أراضي بيتسا وغابات نيغني نوفغورود تهب لها الحق في أن تقتضيه أن يقول لها كلمات الغرام هذه، وظفرت بما أرادت.

وكف الخطيبان عن الاهتمام بالأشجار التي ترجح فوقها الظلام والاكتئاب، وبحثا أمر تجهيز منزل متألق لهما ببطرسبورغ، وقاما بزيارات، وانصرفا إلى إعداد زفاف فخم.

الفصل السادس

في آخر شهر كانون الثاني (يناير)، وصل الكونت إيليا آندريتش إلى موسكو مع ناتاشا وصونيا. لم تستطع الكونتيسة، وهي لا تزال مريضة، أن ترافقهما، ولا كان يمكن انتظارها إلى حين إبلالها من مرضها. فالأمير أندريه يُتوقع وصوله من يوم إلى يوم، ولا بد عدا ذلك من شراء جهاز العروس، وبيع الأرض التي تقع في ضواحي موسكو، وانتهاز فرصة وجود الأمير في موسكو لتعريفه بمن ستصبح امرأة ابنه. ولم يكن منزل آل روستوف بموسكو مدفًأ، وإقامتهم في موسكو لا بد أن تكون إقامة قصيرة، والكونتيسة ليست معهم، لذلك كله قرر إيليا آندريتش أن ينزلوا ضيوفًا على ماريا ديمتريفنا آخروسيموف، التي تعرض عليهم ضيافتها منذ زمن طويل.

في ساعة متأخرة من المساء كانت العربات الأربع التي تقل آل روستوف تدخل فناء المنزل الفخم الذي تقطن فيه ماريا ديمتريفنا في شارع «الحظائر القديمة». إن ماريا ديمتريفنا تعيش في هذا المنزل وحيدة فابنتها تزوّجت، وأبناؤها التحقوا بوظائف.

وهي لا تزال على جانب كبير من الاستقامة، ولا تزال على جانب كبير من الصراحة والصرامة والقطع في إعلان رأيها للناس كافة، بل إنها تجسيد حي للاحتجاج على أنواع الضعف والأهواء والانحرافات التي تراها في الناس ولا تملك أن تقبلها بحال من الأحوال. وكانت حياتها تجري على هذه الوتيرة. فما إن يطلع الصباح حتى تأخذ بالعناية بشؤون منزلها مرتدية جلبابًا فضفاضًا، وفي أيام الآحاد والأعياد تذهب إلى الكنيسة لحضور القداس، فإذا فرغت من القداس زارت السجون لشؤون تخصّها ولا تكلم

أحدًا عنها، وفي أيام الأسبوع ما إن تنتهي من زينتها حتى تستقبل أُناسًا من جميع الطبقات يحتشدون في منزلها كل يوم ملتمسين وساطتها أو شفاعتها. فإذا حان موعد العشاء، وهو عشاء وافر شهيٌّ دائمًا، جلست إلى المائدة في صحبة ثلاثة ضيوف أو أربعة، وبعد العشاء تشارك في لعبة بوستون، وقبل النوم تُقرأ لها الجرائد والكتب الجديدة وهي تحيك، وقلَّ أن تخل بعاداتها لتخرج، فإذا خرجت لم تزُر إلّا أعلى شخصيات المدينة مقامًا وأرفعهم شأنًا.

لم تكن قد نامت بعد حين صرَّ باب المنزل على محوره ليدخل آل روستوف وأتباعهم. فكانت ماريا ديمتريفنا تنظر إلى القادمين من موقعها في عتبة الصالون الكبير وقد خفّضت نظارتيها على عينيها وردَّت رأسها إلى الوراء، وبان في وجهها غضب وقسوة. فإذا رآها أحد على هذه الحال ظن أنها مستاءة من قدوم هؤلاء القادمين، ولاعتقد أنها ستطردهم لولا أن ماريا ديمتريفنا طفقت تصدر أوامر، لإعداد سكنى ضيوفها وترتيب أمتعتهم، بطريقة ملأى بالترحيب. وكانت تقول مشيرة إلى الحقائب من دون أن تحيي أحدًا:

– أهذه للكونت؟ خذوها إذًا إلى هنا. وهذه للآنستين؟ انقلوها إذًا إلى هناك، على اليسار.

وكانت تصيح مقرِّعة الخادمات:

– هيًّا! ما بالكنَّ تتحرّكن في غير فائدة. أعددن إشعال السماور.

ثم تمسك ناتاشا التي تورَّد خداها من شدة البرد، وتقول لها وهي تجذبها إليها ممسكة برأسها:

– ما أكثر ما نما جسمك! ما أعظم ما ازداد جمالًا! أفٍ من هذا البرد الشديد.

وتهتف قائلة للكونت الذي أراد أن يقبِّل يدها:

– هيا استرح. لا بد أنك متجمّد من شدة البرد.

وتقول آمرة الخادمات:

– لا تنسينّ أن تضعن للشاي شيئًا من خمرة «الروم».

وتصيح مخاطبة صونيا بالفرنسية، فتدلُّ بهذا الاحتفاء بها باللغة الفرنسية على ما تحمله لها من عاطفة فيها شيء من التنازل:

- صونيوشكا، «يومك سعيد».

حتى إذا خلع القادمون فرواتهم، واستراحوا قليلًا من عناء السفر، اجتمعوا على الشاي. وقبَّلتهم ماريا ديمتريفنا واحدًا بعد آخر، وهي تقول:

- إني مغتبطة أعمق الاغتباط بوصولكم ونزولكم عندي.

وأضافت تقول وهي تلقي على ناتاشا نظرة خاصّة ذات معنى!

- آن الأوان حقًّا. الشيخ هنا، ويُنتظر وصول ابنه من يوم إلى يوم. يجب التعرف إليه. ولكننا سنتكلّم في هذا الأمر من بعد.

قالت هذه الجملة الأخيرة وهي تلف صونيا بنظرة تدل على أنها لا تريد أن تبحث هذا الموضوع بحضورها. وواصلت كلامها مخاطبة الكونت:

- والآن اسمع. ماذا تريد أن تفعل غدًا؟ من تريد أن أستدعي لك؟

وأخذت تعد الأسماء على أصابعها:

- شنشين؟ وتلك البكّاءة آنا ميخائيلوفنا؟ إنها هنا مع ابنها. والابن يتزوّج. مَنْ أيضًا؟ بيزوخوف؟ هو هنا مع زوجته. هرب منها، ولكنها أسرعت تطارده. تعشّى عندي يوم الأربعاء.

وأردفت تقول وهي تشير إلى الفتاتين:

- أما هاتان، فسوف أقودهما غدًا إلى «عذراء إيبريا» ثم أمضي بهما إلى مدام أوبير شالميه[1]. تريدان أحدث الأزياء، أليس كذلك؟ لا تنظروا إلى ثيابي أنا. إن الثياب التي تلبسها النساء في هذه الأيام لها أكمام هكذا (وتشد كمّها لتوسّعه) منذ بضعة أيام جاءت تزورني الأميرة الشابة شيرين فاسيليفنا، لكأن كلّ كمٍّ من كمّيها برميل. شيء يراه المرء فيفزع. لا ينقضي يوم في هذا الزمان إلّا وتظهر موضة جديدة.

وقالت تسأل الكونت الشيخ:

---

(1) تاجرة فرنسية كان لها متجر شهير للأزياء. وفي حاشية كتبها هـ. مونجو أن نابوليون بدت له هذه الفكرة الغريبة، وهي أن يسألها عما قد يصيبه إصدار مرسوم بتحرير الفلاحين من نجاح. وقد تبعت انسحاب «الجيش الكبير»، وغرقت في نهر بيربزنيا.

- وأنت شخصيًا؟ ما الأعمال التي جئت لها؟

فأجاب الكونت يقول:

- حدث كل شيء دفعة واحدة. يجب شراء ثياب. وهناك من يريد شراء أرضي ومنزلي. إذا أذنت لي، مضيت أقضي يومًا في مارنيسكويا، وعهدت إليك بابنتيَّ:

- حسنًا. حسنًا. ستكونان عندي في أمان. منزلي لا يقل أمانًا عن «مجلس الوصاية». سأذهب بهما إلى حيث يجب أن نذهب، وسأقرِّعهما أيضًا.

قالت ماريا ديمتريفنا ذلك وهي تلامس بيدها خدَّ ناتاشا، ابنتها بالمعمودية، والأثيرة في قلبها.

فلما كان صباح الغد قادت ماريا ديمتريفنا الفتاتين إلى كنيسة «عذراء إيبريا»، ثم مضت بهما إلى مدام أوبير شالميه التي كانت تخشاها خشية كبيرة، حتى إنها كانت تبيعها ثيابها وزينتها بخسارة بغية أن تتخلّص منها بأقصى سرعة. وقد أوصت ماريا ديمتريفنا على الجهاز كله تقريبًا. حتى إذا رجعت إلى البيت صرفت الجميع إلّا ناتاشا. ودعتها أن تجلس بقرب مقعدها، وقالت:

- والآن فلنتحدّث قليلًا، إنني أهنئك بخطيبك. وقعت على شاب من خيرة الشباب. ما أعظم فرحي لك! أنا أعرفه منذ أن كان طوله هكذا...

قالت ذلك وهي تمد ذراعها عالية عن الأرض مقدار نصف متر. واحمرّت ناتاشا سرورًا. وتابعت ماريا ديمتريفنا كلامها قائلة:

- إني أحبه كثيرًا، وأحب أسرته كلها. والآن اسمعي. أنت تعلمين أن الأمير نيقولا يعارض أشد المعارضة أن يتزوجك ابنه. إنه شيخ مستبد. صحيح أن الأمير أندريه ليس طفلًا، وإنه يستطيع أن يستغني عن موافقة أبيه. ولكن ليس يُستحسن أن تدخلي أسرة يعارض الأب دخولك فيها. يجب أن يتم كل شيء بهدوء، وبتفاهم، وبمودّة. أنت ذكية، وسوف تعرفين كيف تحسنين التصرف في الأمر. تحلّي بقوة العزيمة وحسن التدبير، فتجري الأمور كلها مجرًى حسنًا.

كانت ناتاشا صامتة، لا من خجل كما ظنت ماريا ديمتريفنا، بل لأنها

كانت تكره أن يتدخل أحد في حبّها للأمير أندريه، وهو حبّ ترى أنه يبلغ من الاختلاف عن كل ما يشغل بال الآخرين، وما من أحد يستطيع أن يفهمه. أنها لا تحبّ ولا تعرف إلّا الأمير أندريه، وسوف يرجع في غضون أيام فيأخذها، وليست تطلب أكثر من هذا.

واصلت ماريا ديمتريفنا كلامها قائلة:

- إنني أعرفه منذ مدة طويلة، وأعرف أخته ماشنكا وأحبها كثيرًا. يقال إن أخوات الزوج سمّ، ولكن ماشنكا لا تستطيع أن تؤذي ذبابة. وقد طلبت مني أن أعرِّفها بك. ستذهبين إليها غدًا مع أبيك، فكوني لطيفة في معاملتها كل اللطف. أنت الأصغر سنًا. حتى إذا وصل خطيبك تكونين قد عرفت أخته وأباه، ويكونان قد أحبَّاك. أليس كذلك؟ أليس هذا أفضل؟

فأجابت ناتاشا على مضض:

- بلى!

الفصل السابع

عملًا بنصيحة ماريا ديمتريفنا، ذهب الكونت إيليا آندريتش مع ناتاشا إلى منزل الأمير نيقولا آندريتش. لم يقم الكونت بهذه الزيارة مرتاحًا إليها، وإنما كان في قرارة نفسه يخشاها. إنه لم ينس لقاءهما الأخير أثناء تشكيل الميليشيا حين دعا الأمير الى العشاء، فكان ردُّ الأمير على الدعوة توبيخًا للكونت لأنه لم يقدم العدد المطلوب من الرجال. أمّا ناتاشا، فقد كانت وهي ترتدي أجمل فستان لها فرحة كل الفرح، تقول لنفسها: «يستحيل ألا يحباني، لقد أحبني جميع الناس دائمًا. وإني لمستعدة أن أصنع لهما كل ما يشاءان، أما هو فلأنه أبوه، وأمّا هي فلأنها أخته، وما من سبب يدعوهما إلى أن لا يحباني».

وقفت العربة أمام المنزل الكبير المتجهّم في شارع فوزدفيجنكا، ودخل الكونت وابنته الدهليز، وقال الكونت ديمتريتش جادًّا في آن واحد:

- حمانا الله!

ولاحظت ناتاشا أن أباها اضطرب حين دخوله، وأنه سأل بصوت خافت خجل هل الأمير والأميرة في المنزل. وما إن تم الإبلاغ عن زيارتهما حتى قامت بين خدم الأمير بلبلة. فالخادم الذي هرع يبلغ عن وصولهما استوقفه في الصالون خادم آخر وأخذا يتهامسان، وأسرعت إليهما خادمة، فقالت لهما متعجلة كلامًا عن الأميرة. وأخيرًا طلع على الكونت وابنته خادم عجوز قاسي الوجه، فأنّباهما بأن الأمير لا يستطيع أن يستقبلهما، ولكن الأميرة ترجوهما أن يعرِّجا عليها. وجاءت مادوموازيل بوريين، فرحّبت بالأب وابنته بأدب كبير، وقادتهما إلى الأميرة. وقامت الأميرة بخطوها

الثقيل تستقبلهما مهتاجة مرتاعة مصطبغة الوجه ببقع حمر، تحاول أن تصطنع هيئة طلقة باشّة فلا تفلح. لم تعجبها ناتاشا منذ الوهلة الأولى. رأت أنها مسرفة في الأناقة، وأنها تحب الظهور، وأنها مرحة مرحًا فيه خفّة وطيش. كانت الأميرة ماريا، قبل أن ترى ناتاشا، تكرهها بعض الكره بدافع غيرة لا شعورية من جمالها وصباها وسعادتها ومن الحبّ الذي حمله أخوها لها. وإلى عاطفة الكره هذه أضيفت الآن عواطف خوف وقلق وغَمّ، لأن الأمير حين أبلغ زيارة الكونت روستوف وابنته صرخ قائلًا إنه ليس في حاجة إليهما، فما على الأميرة ماريا إلّا أن تستقبلهما إذا شاءت، ولكنه لا يريد أن يؤتى بهما إليه. وقد قررت الأميرة ماريا أن تستقبلهما، ولكنها كانت تخشى في كل لحظة أن يداهمهم الأب غاضبًا، لأن هذه الزيارة قد أهاجته في ما يبدو وأخرجته عن طوره.

قال الكونت وهو يدق كعبيه أحدهما بالآخر ويلقي حواليه نظرات قلقة كأنه يخشى أن يرى الأمير الشيخ مغيرًا عليهم:

- جئتك بمغنيتي الصغيرة أيتها الأميرة ما أسعدني بأن تتعارفا. خسارة أن الأمير لا يزال مريضًا.

وبعد عبارات أخرى مبتذلة قام وهو يقول:

- إذا أذنتِ لي يا أميرة، تركت لك ناتاشا ربع ساعة، ومضيت لشأن من الشؤون على مسافة خطوتين من هنا، في «ميدان الكلاب»، عند آنا سيميونوفنا، ثم عدت آخذها.

اخترع إيليا آندريتش هذه الحيلة الدبلوماسية من أجل أن يتيح لمن ستصيران أخت زوج وزوجة أخ أن تتبادلا الحديث مرتاحتين (اعترف بهذا لابنته من بعد)، وكذلك اتقاء لخطر لقاء الأمير، وهو لقاء يهابه ويخشاه. وهو لم يقل هذا لابنته، ولكن ناتاشا حزرت ما بنفس أبيها من خوف وقلق فساءها هذا وأحسّت منه بمهانة؛ واحمرّ وجهها خجلًا عن أبيها، وأضرم حنقها مزيدًا من الإضرام أنها احمرّت، فألقت على الأميرة ماريا نظرة جريئة متحدّية تريد أن تقول لها إنها لا تخاف أحدًا.

ردّت الأميرة على الكونت بأنها سعيدة بلقائه، حتى لقد سألته أن يبقى

عند آنا سيميونوفنا أطول مدة. وانصرف الكونت.

وكانت مادوموازيل بوريين راغبة في أن تحادث ناتاشا، فلم تنسحب رغم نظرات التململ التي كانت ترميها بها الأميرة ماريا، وظلّت تكلّم ناتاشا بإصرار عن مباهج موسكو ومسارحها.

وكانت ناتاشا قد جرحها الارتباك الذي حدث بين الخدم في الدهليز، والقلق الذي ظهر على أبيها، واللهجة المصطنعة التي بدا لها أن الأميرة تخاطبها بها وكأنها تنعم عليها إذ تستقبلها. لذلك كان كل شيء يضايقها. فلم تعجبها الأميرة ماريا، ورأتها شديدة القبح، كثيرة التصنّع، خشنة الجانب، كريهة إلى القلب، فانطوت على نفسها، واتخذت على غير إرادة منها لهجة طلقة ليس في اكتراث، فكان من شأن هذا أن جعل الأميرة ماريا تنفر منها مزيدًا من النفور. وبعد خمس دقائق انقضت في محادثة شاقّة مصطنَعة، سُمع وقع خطى سريعة يخطوها رجل يحتذي بابوجين ويقترب من الغرفة. فارتسم على قسمات الأميرة ماريا رعب، وفُتح الباب، ودخل الأمير بطاقية بيضاء وثوب للمنزل، وجعل يقول:

- آ... الآنسة الكونتيسة... الكونتيسة روستوف إذا لم يخطئ ظنّي. أرجوك أن تسامحيني، أن تسامحيني. شهد الله يا آنسة أنني كنت أجهل أنك شرفتنا بالزيارة، وكنت أظن أنني ساجد ابنتي وحدها حين جئت بهذه الثياب.

وظل يردّد ملحًا على قوله «شهد الله» بلهجة تبلغ من التصنّع والسوء أن الأميرة ماريا بقيت جامدة خافضة عينيها لا تجرؤ أن تنظر لا إلى أبيها ولا إلى ناتاشا:

- شهد الله، كنت أجهل، شهد الله...

وكانت ناتاشا قد قامت وانحنت تحييه ثم عادت تجلس، فأصبحت لا تعرف ما هو الموقف الذي يجب أن تقفه، وما السلوك الذي ينبغي أن تلتزمه. وكانت مادوموازيل بوريين تبتسم ابتسامة رقيقة لطيفة. وظل الشيخ يجمجم بقوله:

- أرجوك أن تسامحيني، شهد الله أنني كنت أجهل...

ثم نظر إلى الأميرة ماريا من رأسها إلى قدميها وخرج. فكانت مادوموازيل بوريين أول من أفاق من صدمة هذه المداهمة، فتكلّمت عن سوء صحة الأمير. وتبادلت ناتاشا والأميرة ماريا النظر صامتتين، فكلما طال هذا الصمت من دون أن تقول إحداهما ما يجب أن تقوله، ازداد ما تشعر به كل منهما إزاء الآخرى من نفور.

وحين رجع الكونت أظهرت ناتاشا فرحها برجوعه ولم تحاول أن تخفيه، وأسرعت تودّع الأميرة ماريا. إنها الآن تكاد تمقت مقتًا هذه الأميرة المسنّة الجافية التي استطاعت أن تضعها في موقف حرج أشد الحرج، وأن تقضي معها نصف ساعة من دون أن تقول لها كلمة واحدة عن الأمير أندريه. وكانت تقول لنفسها: «ما كان في وسعي أنا أن أكون الأولى في الكلام عنه بحضور الفرنسية». وكانت هذه الفكرة نفسها تعذّب الأميرة ماريا أيضًا. إن الأميرة ماريا تعرف ما الذي كان يجب عليها أن تقوله لناتاشا، ولكنها لم تستطع أن تقوله، أولًا لأن حضور مادوموازيل بوريين كان يضايقها ويجعلها في حرج من أمرها، وثانيًا لأنها شقَّ عليها، من دون أن تعرف لماذا، أن تتحدّث في أمر هذا الزواج.

وفيما كان الكونت يخرج، جرت الأميرة ماريا إلى ناتاشا بخطى سريعة، فأمسكت يديها، وقالت لها وهي تتنهّد تنهدًا عميقًا: «لحظة... يجب عليَّ أن...». فنظرت إليها ناتاشا نظرة ساخرة على غير إرادة منها. قالت الأميرة ماريا:

– ناتاليا العزيزة، اعلمي أنني مبتهجة بأن أخي وجد السعادة...

ولكنها أمسكت عن المضي في هذا الكلام لإحساسها بأنها لا تقول الحقيقة. وقد لاحظت ناتاشا تردّدها هذا، وأدركت سببه. فقالت برصانة وهدوء تكبّدت مشقة كبيرة لتستطيع أن تصطنعها بينما هي تحسّ الدموع تصعد إلى حلقها؟

– أظن يا أميرة أن هذا الوقت ليس هو الوقت المناسب للتحدث في هذا الأمر.

وما إن خرجت حتى كانت تتساءل: «ماذا قلت؟ ماذا فعلت؟».

وفي ذلك اليوم تأخّرت ناتاشا كثيرًا عن المجيء إلى المائدة، وانتظرها الجميع مدة طويلة. لقد حبست نفسها في غرفتها تبكي ناشجة كما يبكي طفل، وتتمخّط وتشهق. وكانت صونيا مائلة عليها تقبّل شعرها وتقول لها:

- ناتاشا، لماذا تبكين؟ فيم يهمك أمرهم؟ سوف يُسوَّى كل شيء.

فتقول ناتاشا:

- لو علمت مدى ما كان في ذلك من جرح لشعوري وطعن لكرامتي... لكأنني...

- لا تتكلمي في هذا الموضوع يا ناتاشا، ليس الذنب ذنبك، ففيم يهمك الأمر؟ هيَّا قبِّليني...

رفعت ناتاشا رأسها فقبَّلت صديقتها في شفتيها، وشدت إليها وجهها الغارق في الدموع، وقالت:

- لا أستطيع أن أقول مَنِ المخطئ. لا أعرف مَنِ المخطئ. ليس أحد مخطئًا. أنا المخطئة. ولكن ذلك كله يؤذي إيذاء رهيبًا، ويؤلم إيلامًا فظيعًا.

وجاءت إلى المائدة محمرَّة العينين. وكانت ماريا ديمتريفنا قد عرفت كيف استقبل الأمير نيقولا آل روستوف، فتظاهرت بأنها لم تلاحظ انقلاب سحنة ناتاشا، وطفقت أثناء الطعام تمازح الكونت وسائر الضيوف بلهجة طلقة وصوت عالٍ.

الفصل الثامن

في ذلك المساء ذهب آل روستوف إلى الأوبرا، حيث أعدّت لهم ماريا ديمتريفنا شرفة.

لم تكن ناتاشا راغبة في الذهاب إلى الأوبرا، ولكنها لا تستطيع رفض دعوة كانت من جانب ماريا ديمتريفنا ملاطفة لها هي وحدها. فلما فرغت ناتاشا من ارتداء ثيابها، ودخلت الصالون تنتظر أباها، وألقت نظرة على مرآة الحائط بين النافذتين، فرأت أنها جميلة، جميلة جِدًّا، أحسَّت مزيدًا من الحزن، ولكنه الآن حزن فيه حب ودنف. وقالت تحدّث نفسها: «يا إلهي، لو كان هنا، لما خجلت ذلك الخجل الأحمق كما كنت أخجل من قبل، ولاحتضنته بذراعي من غير حرج، ولشددت نفسي إلى صدره، فيأخذ ينظر إليَّ بعينيه المستطلعتين المستفهمتين كما كان ينظر إليَّ من قبل، ثم أجعله يضحك كما كان يضحك في ذلك الوقت... وتبرق عيناه... يا لعينيه!... ما أوضح ما أرى عينيه! وما لي أهتم بأبيه وأخته! ما شأني بهما! إنه هو الذي أحبّه، هو وحده، هو بوجهه وعينيه، وابتسامته الملأى رجولة وطفولة في آن واحد. لا، الأفضل ألا أفكر فيه، ألا أفكر في شيء، أن أنسى نسيانًا تامًّا، أن أنسى إلى حين على الأقل. إن هذا الغياب سيقتلني قتلًا. هأنا أهمُّ أن أنفجر باكية مرة أخرى».

وأشاحت عن المرآة وهي لا تحبس دموعها إلّا بكثير من المشقة. ودخلت صونيا وقد ارتدت ثيابها هي أيضًا، وأمسكت بيدها مروحة. فقالت ناتاشا لنفسها: «كيف تستطيع صونيا أن تحبَّ نيقولا حبًّا هادئًا هذا الهدوء

كله، وأن تنتظر هذه المدة كلها، وأن تصبر هذا الصبر كله؟ إنها تختلف عني اختلافًا تامًّا. أنا لا أطيق ما تطيقه!».

وأحسّت ناتاشا في تلك اللحظة بدنف وحنان يبلغان من الشدة أنها أصبحت لا يكفيها أن تحبَّ وأن تعلم أنها محبوبة، وإنما هي محتاجة الآن، في الحال، على الفور، أن تعانق الحبيب بذراعيها، وأن تقول له وتسمع منه ما يزخر به قلبها من كلمات الحب.

وطوال مدة سير العربة، بينما هي تنظر أسيانة إلى الأضواء المتهرّبة التي ترسلها مصابيح الشارع إلى زجاج العربة المغشّى بالجليد، كانت تحس بدنفها وحبها يزدادان، حتى أصبحت لا تدري إلى أين هي ذاهبة، ومع من هي ذاهبة. وأخيرًا ها هي عربة آل روستوف التي كانت عجلاتها تصرّ صريرًا شاكيًا على الثلج تسير في إثر العربات الآخرى، ووصلت إلى مدخل المسرح. فقفزت ناتاشا وصونيا إلى الأرض بخفة ورشاقة وقد شمّرتا فستانيهما، ثم نزل الكونت يسنده الخدم، واختلط الثلاثة بالجمهور الداخل وباعة البرامج، ثم ولجوا دهليز الشرفات. وكانت الأوركسترا تُسمع من خلال الأبواب المغلقة نصف إغلاق.

دمدمت صونيا تقول:

- ناتاليا، شعرك.

وأسرع الخادم الذي يقوم على فتح أبواب الشرفات لأصحابها، أسرع يتقدّم الآنستين بأدب واحترام، وفتح باب الشرفة، فأصبحت الموسيقى تُسمع سمعًا أوضح، وظهرت صفوف الشرفات المتوهّجة تزينها أكتاف السيدات وأذرعهنّ العارية، وبانت ردهة المسرح وقد علا فيها الضجيج وزركشتها البزات الرسمية. ودخلت سيدة إلى الشرفة التي تجاور شرفة آل روستوف، فألقت على ناتاشا نظرة ملأى بالغيرة النسوية. ولم تكن الستارة قد رُفعت بعد، وكان الموسيقيون يعزفون الافتتاحية فعدّلت ناتاشا فستانها، وتقدمت مع صونيا، فجلستا، وأخذت تطوف ببصرها على صفوف الشرفات المتلألئة التي تقابلها، فإذا بإحساس لم تحسّه منذ زمن طويل يعتريها فجأة، هو الإحساس بأن مئات الأبصار تشخص إلى عنقها العارية

وذراعيها العاريتين، وقد سرَّها هذا الإحساس وضايقها في آن واحد، وأيقظ في نفسها جمهرة من الذكريات والرغبات والانفعالات.

لقد لفتت هاتان الفتاتان الجميلتان جمالًا بارعًا أنظار الناس كافة. ولفت أنظارهم الكونت إيليا آندريتش الذي لم يروه في موسكو منذ زمن طويل. وكان الناس عدا ذلك يسمعون عن خطبة ناتاشا والأمير أندريه أشياء غامضة، وكانوا يعرفون أن آل روستوف يعيشون منذ الخطبة في الريف، فأخذوا يتفرّسون بكثير من حب الاطلاع في تلك التي ستتزوج واحدًا من أحسن الرجال الذين تطمع الفتيات بالزواج منهم في روسيا كلّها.

وكانت ناتاشا قد ازدادت حسنًا وجمالًا في الريف. قال لها هذا جميع الناس. وهي في هذه اللحظة قد زادها الانفعال حسنًا على حسن وجمالًا على جمال. وكان ما يخطف الانتباه فيها هو هذا الفيض من الحياة والجمال مقترنًا لديها بعدم الاكتراث بكل ما حولها. كانت عيناها السوداوان تنظران إلى الجمهور من دون أن تبحثا عن أحد، وكانت ذراعها النحيلة العارية إلى ما فوق الكوع متكئة على الحافّة المكسوَّة بالمخمل، وكانت يدها تنقبض وتنبسط على إيقاع موسيقى الافتتاحية فتدعك البرنامج الذي تمسكه على غير شعور منها في غالب الظن.

قالت لها صونيا:

– انظري، هذه هي الآنسة آلتين، وأحسب أن التي معها هي أمها.

وقال الكونت الشيخ:

– يا إلهي! سمن ميخائيل كيريلتش مزيدًا من السمنة.

– انظري إلى هذه القبعة على رأس آنا ميخائيلوفنا!

– ها هم أولاء آل كاراجين، جوليا وأمها، ومعهما بوريس. يلاحظ المرء فورًا أن جوليا وبوريس خطيبان.

قال شنشين وهو يدخل شرفة آل روستوف:

– خطبها دروبتسكوي، طبعًا، علمت هذا منذ قليل.

نظرت ناتاشا إلى حيث كان ينظر أبوها، فرأت جوليا جالسة بقرب أمها متهللة الأسارير سعيدة الهيئة، ورأت عقدًا من اللؤلؤ في جيدها الأحمر

الذي تعرف أنه مطليّ بالبودرة، ورأت وراء السيدتين رأس بوريس الجميل يميل على جوليا مبتسمًا لينصت إلى كلامها، وقد عنى بتصفيف شعره وتمليسه أكبر العناية. وكان بوريس ينظر إلى آل روستوف خلسة، ويكلم خطيبته باسمًا.

قالت ناتاشا لنفسها: «إنهما يتكلّمان عني وعنه، وعن العلاقات التي كانت بيني وبينه. ولا شك أنه يهدّئ غيرة خطيبته. لكن لا حاجة إلى القلق! ليتهما يعرفان مدى قلة اكتراثي بهما!».

وفي الخلف كانت تجلس آنا ميخائيلوفنا وعلى رأسها قبعة خضراء، وفي وجهها تعبير عن الانتصار، مع الإذعان لمشيئة الله كما تصطنع ذلك دائمًا. وكانت شرفتهم مشرَّبة بجو الخطبة، هذا الجو الذي كانت ناتاشا تعرفه جيدًا وتحبه كثيرًا، فأشاحت وجهها، وإذا بكلّ ما أحسّت به في زيارة هذا اليوم من مشاعر المذلة والمهانة يغزو ذاكرتها على حين فجأة. فقالت لنفسها: «بأي حق لا يريد أن أكون في أسرته؟ آه.. الأفضل أن لا أفكر في هذا الأمر إلى حين عودته!»، وأخذت تستعرض وجوه الجالسين في ردهة المسرح ممن تعرفهم أو لا تعرفهم، فرأت في وسط الصف الأول دولوخوف وقد ارتدى لباسًا فارسيًا، ورفع جزة شعره الأجعد عالية جِدًّا. كان دولوخوف يحسّ أنه محط أنظار الصالة كلها، فكان في مظهره من الطاقة واليسر ما لا يكون لامرئ إلّا في بيته؛ وكان يحيط به ألمع شبان موسكو، وكان واضحًا أنه زعيمهم.

لكز الكونت الشيخ صونيا بكوعه، ودلّها ضاحكًا على الرجل الذي تولّه بحبّها وطمع في تزوّجها، وكانت صونيا قد تضرّج وجهها بحمرة شديدة. سألها الكونت الشيخ:

– هل عرفته؟

ثم أضاف مخاطبًا شنشين:

– ولكن من أين طلع علينا؟ كان قد اختفى اختفاء تامًّا، أليس كذلك؟

فأجابه شنشين:

– نعم، كان في القوقاز ثم هرب، ويقال إنه ذهب إلى بلاد فارس فصار

فيها وزيرًا لأمير حاكم، وإنه قتل شقيق الشاه. ويمينًا أن جميع سيدات موسكو مجنونات به، حسبك أن تقول: دولوخوف الفارسي؛ لا حديث إلّا عنه، ولا قَسم إلّا به! ومثل الذي يقيم حفلة ويدعو إلى رؤيته كمثل الذي يولم سمك الحفش على مائدته. إن دولوخوف وآناتول كوراجين قد أطارا صواب جميع سيداتنا.

ودخلت إلى الشرفة التي تجاور شرفة آل روستوف امرأة فارعة القوام بارعة الجمال ذات جديلة ضخمة وكتفين بيضاوين زاهيين عاريين عريًا شديدًا، ونحر ناصع مزهوّ عارٍ عريًا شديدًا، كذلك يزيّن جيدها عقد بصفين من لؤلؤ كبير. دخلت وجلست بتمهّل فيه كبرياء فكان لفستانها الحريري الثقيل حفيف مسموع.

لم تستطع ناتاشا إلّا أن تتأمل هذه العنق، وهاتين الكتفين، وهذه اللآلئ، وهذه التسريحة، فراعها جمال الكتفين، وأعجبت باللآلئ. وفيما كانت تنظر إليها مرة أخرى، التفتت السيدة فوقعت عيناها على عيني الكونت إيليا آندريتش، فحيّته بحركة من رأسها وابتسمت له. إنها الكونتيسة بيزوخوف، زوجة بطرس. ومال الكونت، الذي يعرف جميع الناس، نحوها وأخذ يكلمها:

- هل وصلتِ منذ مدة طويلة يا كونتيسة؟ سأجيء إليك، نعم، سأجيء إليك أقبّل يدك. قدمت أنا هنا لأعمال أقضيها، واصطحبت ابنتيَّ. يُقال إن سيمينوفا تمثّل تمثيلًا رائعًا. لقد كان الكونت بطرس كيريلوفتش يزورنا، وكان من أوفى أصدقائنا. هل هو هنا؟

فأجابت هيلين وهي تنظر إلى ناتاشا بانتباه شديد واضح:

- نعم، وكان ينوي أن يجيء...

وعاد الكونت يجلس، وقال لابنته همسًا:

- جميلة، أليس كذلك؟

قالت ناتاشا:

- رائعة! هذه امرأة يمكن التولّه بحبها.

وفي تلك اللحظة سُمعت النغمات الأخيرة من الافتتاحية، ثم قرع

رئيس الأوركسترا منضدته بعصاه، فأسرع المتأخّرون يجلسون في أماكنهم بالردهة، ورُفعت الستارة.

وسرعان ما صمت الجميع في الشرفات والردهة، وانصبَّ انتباه جميع الرجال، شبانًا وشيوخًا، من كان منهم ببزات عسكرية أو بثياب رسمية، وجميع السيدات، العاريات نحورًا وأكتافًا، والمزدانات بالحليّ ألوانًا وأنواعًا، انصب انتباههم على المسرح بكثير من الاستطلاع النهم واقتدت ناتاشا بهم.

الفصل التاسع

وسطُ المسرح مزدان بألواح من خشب، وعلى جانبيه زينات تمثّل أشجارًا، وفي آخره قماش عليه رسوم وصور قد شدَّت على إطار. وهاته فتيات مرتديات صدارًا أحمر وتنورة بيضاء يجلسن من المسرح في وسطه. وهذه إحداهن، وهي فتاة بدينة جِدًّا، لابسة فستانًا من حرير أبيض، قد انتحت جانبًا على مقعد صغير ألصق وراءه كرتون أخضر. إن الفتيات يغنّين جوقة واحدة، حتى إذا انتهين من غنائهن، تقدّمت الفتاة ذات الفستان الأبيض من مخبأ الملقّن، وتبعها رجل يلبس سروالًا من حرير ملتصقًا بجسمه لافًا فخذيه السميتتين لفًا، وعلى قبعته ريشة وفي حزامه خنجر، فوقف بجانبها وأخذ يغني محركًا يديه بإشارات كثيرة.

غنًّى الرجل في البداية وحده، ثم غنت الفتاة وحدها، ثم صمت الاثنان كلاهما، واستأنفت الاوركسترا عزفها، وأخذ الرجل يربّت بأصابعه على يد الفتاة وفقًا لإيقاع الموسيقى، منتظرًا اللحظة التي يجب أن يصدح فيها صوتاهما بالغناء معًا. وغنيا معًا، فصفقت لهما الصالة كلها وهتفت مستحسنة، بينما كان الرجل والفتاة، وكما لو يمثلان حبيبين، ينحنيان مبتسمين مباعدين ما بين الذراعين.

وكان طبيعيًا من ناتاشا، وهي واصلة من الريف رأسًا، عدا ما هي عليه من حالة نفسية فيها كثير من الجد، أن تجد هذا كله غريبًا بل سخيف. ولم تستطع أن تتابع مجرى حوادث المسرحية الغنائية، وعجزت حتى عن سماع الموسيقى، فهي لا تزيد على أن ترى صوَرًا على الشاشة التي في

آخر المسرح، ورجالًا ونساء يلبسون ثيابًا عجيبة مضحكة، ويتحرّكون ويتكلمون ويغنون على نحو غريب تحت ضوء ساطع. لم تكن ناتاشا تجهل ما لا بد أن يمثله هذا كله، ولكن جميع ما رأته كان يبلغ من الاصطناع والتعقيد والزيف، أنها كانت تارة تشعر بخجل عن الممثّلين، وتارة تنتابها رغبة في الضحك عليهم. وكانت تنظر إلى وجوه المشاهدين من حولها، متوقعة أن تكتشف فيها نفس مشاعر السخرية والاستغراب التي تشعر بها، فتراها جميعًا مشدودة الانتباه إلى ما يجري على المسرح، معبّرة عن افتتان يبدو لها كذبًا وتظاهرًا، وتقول لنفسها: «لا بد أن هذا كله تظاهر كاذب». وتنظر إلى هذه الصفوف من الرؤوس المدهَّنة في ردهة المسرح صفًا صفًا، وتنظر إلى النساء المعرَّاة أكتافهنَّ ونحورهنّ في الشرفات، وتنظر خاصّةً إلى جارتها هيلين التي كانت متعرّية تعرّيًا شديدًا وكانت تتأمل المسرح وهي تبتسم ابتسامة هادئة، ولا تحوِّل بصرها عنه لحظة، مستمتعة بالضياء المتألّق في كل مكان وبدفء الصالة ينشره حشد المشاهدين، فإذا هي تحسّ بنشوة تتسرب إلى نفسها شيئًا بعد شيء، نشوة انقطعت عن الشعور بمثلها منذ زمن طويل، وبلغت من الشعور بالنشوة السكرى إلى حيث أمست لا تعرف ماذا تعمل، ولا أين هي، ولا ماذا جرى أمام بصرها، فهي تنظر ولا ترى، والأفكار تتلاحق في خيالها غريبة أشد الغرابة متفكّكة لا تربط بينها صلة. فتارة يخطر ببالها أن تثب فتصعد الدرج الى المسرح لتغنّي اللحن الذي تغنّيه الممثلة، وتارة تعتريها رغبة في أن تلمس بمروحتها رأس شيخ قصير يجلس غير بعيد عنها، أو أن تميل على هيلين وتدغدغها.

وفي لحظة صمت فيها كل شيء على المسرح قبيل البدء في قطعة جديدة من الغناء، صرَّ باب الردهة من جهة شرفة آل روستوف، وسُمع وقع خطى مشاهد تأخر عن الوصول في بداية المسرحية. فهمست شفتان: «هذا كوراجين!»، والتفتت الكونتيسة بيزوخوف إلى القادم الجديد مبتسمة. ونظرت ناتاشا إلى حيث نظرت الكونتيسة، فأبصرت ضابطًا مرافقًا جميلًا جمالًا نادرًا يقبل على شرفتهم وقد فاضت هيئته ثقة وكياسة في آن واحد.

إنه آناتول كوراجين الذي سبق أن رأته ولاحظته من قبل في حفلة رقص في بطرسبورغ. وهو الآن يرتدي البزة العسكريه التي يرتديها ضابط مرافق بكتفية واحدة تزيّنها زخارف. كان يمشي مشية عسكرية رصينة يمكن أن تبعث على الضحك والاستهزاء لولا أنه جميل هذا الجمال كله، ولولا أن وجهه الرائع يُعبِّر عن فرح كبير ورضى ساذج يغلان سلاح من يراه. ورغم أن الفصل الأول من المسرحية بدأ، فقد كان يمشي على سجادة الممر غير متعجل، جاعلًا مهاميزه وسيفه ترنّ رنينًا خفيفًا رافعًا رأسه الجميل المعطَّر عاليًا في أبهة وفخامة. فلما رأى ناتاشا تقدّم من أخته، ووضع يديه الملفوفتين بقفازيهما على حافة الشرفة، وأومأ لها برأسه، وسألها سؤالًا بصوت هامس وهو يدلُّها على ناتاشا، وقال وهو يعني ناتاشا حتمًا، لأن ذلك كان ظاهرًا واضحًا:

- فتّانة!

لم تسمع ناتاشا هذه الكلمة بأذنيها بقدر ما حزرتها من حركة شفتيه.

ثم عاد يلتحق بالصف الأول من مقاعد الردهة، ويجلس إلى جانب دولوخوف، ومن دون كلفة، يلكز بكوعه دولوخوف هذا الذي كان جميع الناس يسعون إلى الحظوة برضاه. فابتسم له دولوخوف وهو يغمز بعينه غمزًا مرحًا، وأسند ساقه إلى الدرابزين.

قال الكونت:

- ما أعظم الشبه بين الأخ وأخته! وما أجملهما كليهما!

فقصَّ عليه شنشين بصوت خافت مغامرة جديدة من مغامرات كوراجين في موسكو، فكانت ناتاشا تنصت إلى ما يرويه شنشين لا لشيء إلّا لأن الشاب وصفها بأنها فتانة.

وانتهى الفصل الأول، فقام جميع من في الردهة، وأصبح المرء لا يرى إلّا ذهابًا وإيابًا، وخروجًا ودخولًا.

وجاء بوريس يحيي آل روستوف في شرفتهم، فتلقى تهانئهم بكثير من البساطة، وباسمه واسم خطيبته رجا ناتاشا وصونيا، وهو يرفع حاجبيه ويبتسم ابتسامة ذاهلة، أن يحضرا زواجه ثم خرج. وقد كلمته ناتاشا وهي

تبتسم ابتسامة فرحة تفيض دلالًا، وهنّأت بالزواج هذا الشاب بوريس نفسه الذي كانت مولهة بحبّه في الماضي. إن كل شيء كان يبدو لها بسيطًا طبيعيًا وهي على ما هي عليه من نشوة سكرى.

وكانت هيلين شبه العارية جالسة بقربهم، وتبتسم للجميع ابتسامة واحدة هي تلك الابتسامة نفسها التي منَّت بها ناتاشا على بوريس. ولم تلبث شرفة هيلين أن امتلأت وحوصرت بجمهرة من الرجال المرموقين. يريد كل واحد منكم أن يري الناس أنه يعرفها.

وقضى كوراجين كل فترة الاستراحة مع دولوخوف. مسندًا ظهره إلى الدرابزين، شاخصًا ببصره إلى شرفة آل روستوف. وكانت ناتاشا تعلم أنه يتكلم عنها فسرَّها ذلك، حتى لقد أدارت رأسها بحيث يستطيع أن يرى وجهها من جانب، إذ كانت تعتقد بأن هذا الوضع يبرز جمالها أكثر من أي وضع آخر. وقبل بداية الفصل الثاني، ظهرت في الردهة قامة بطرس بيزوخوف الذي لم يكن آل روستوف قد رأوه منذ وصولهم. كان بطرس يبدو حزينًا، وكان قد ازداد بدانة وسمنة عن آخر مرة رأته فيها ناتاشا. وقد مضى إلى الصفوف الأولى من دون أن يلاحظ أحد. فاستوقفه آناتول وكلّمه مشيرًا إلى شرفة آل روستوف. فلما رأى ناتاشا انتعشت هيئته وأسرع يمشي بين صفوف المقاعد متّجهًا إلى شرفتها. عندما بلغ حافة الشرفة وضع كوعه عليها وجعل يحدّث ناتاشا مبتسمًا لمدة طويلة. وسمعت ناتاشا في أثناء الحديث صوت رجل في شرفة الكونتيسة بيزوخوف، فأدركت (من دون أن تعرف كيف!) أن الرجل هو كوراجين، حتى إذا التفتت التقى بصرها ببصره. كان كوراجين يتأملها متفرّسًا وقد ألمّت بشفتيه ابتسامة خفيفة. كان يتأمّلها بعينين تبلغان من الحماسة والحرارة والملاطفة والمودّة إلى حد أنه أدهشتها أن تكون قريبة منه هذا القرب كله، وأن تظل تنظر إليه هذه النظرة، وأن تثق هذه الثقة كلها بأنها ظفرت بإعجابه رغم أنهما لم يتعارفا من قبل.

وكان ديكور المسرح في الفصل الثاني يمثل أضرحة ورموسًا، وكان في الشاشة المصوَّرة التي تقع في آخر المسرح ثقب يمثل القمر. ورفعت عاكسات النور في الدرابزين، وأخذت الأبواق وآلات الكمان الضخم

تعزف عزفًا خفيضًا، وتقدمت جمهرة من الناس من يمين ومن يسار بثياب سود، وأخذوا يحرّكون أيديهم بإشارات، ويهزّون أشياء تشبه الخناجر. ثم هرعت طائفة أخرى تريد أن تختطف الفتاة التي كانت في الفصل الأول تلبس فستانًا أبيض وهي تلبس الآن فستانًا أزرق كابي اللون. ولكنهم لم يجرّوها على النور، بل لبثوا يغنون معها زمنًا طويلًا، حتى إذا انتهى الغناء اقتادوها، وسُمع وراء الكواليس صوت معدنٍ يُقرع ثلاث مرات، فخرَّ جميع الممثلين عندئذ ركَّعًا وصدحت أصواتهم بصلاة. وقد قاطع المشاهدون هذه المناظر المختلفة بصيحات الحماسة مِرارًا.

وكانت ناتاشا، كلّما ألقت نظرة على الردهة في أثناء هذا الفصل، ترى آناتول كوراجين ملتفتًا إليها يتأملها، جاعلًا ذراعه وراء ظهر مقعده، فيسرّها أن تراه مفتونًا بها ولا يخطر ببالها أن في هذا أي سوء.

حتى إذا انتهى الفصل الثاني نهضت الكونتيسة بيزوخوف، والتفتت إلى شرفة آل روستوف (وكان نحرها عاريًا عريًا تامًّا)، ونادت الكونت بإشارة من يدها المكسوّة بالقفاز، وأخذت تحادثه مبتسمة ابتسامة تفيض بالمودّة من دون أن تولي أولئك الذين ملأوا شرفتها أي انتباه. قالت له:

- هلا عرفتني بابنتيك الفتّانتين! أتتحدّث المدينة كلها عنهما ولا أعرفهما؟

فقامت ناتاشا وحيَّت الكونتيسة الخلّابة بثني ركبتيها احترامًا. وتضرّجت وجنتاها سرورًا بهذا ا المديح تزجيه لها هذه المرأة ذات الجمال الباهر.

وتابعت هيلين كلامها تقول:

- أنا أيضًا أريد أن أصبح من سكان موسكو حقًّا. ألا تستحي أن تدفن مثل هذه اللآلئ في الريف؟

كانت الكونتيسة بيزوخوف معروفة بأنها ساحرة. إنها تعرف كيف تعلن ما لا تضمر وكيف تظهر ما لا تبطن، وكانت تشتهر خاصّةً بأنها تحسن إزجاء المديح والثناء ببساطة لا يبدو فيه أثر من تكلف.

ثم أضافت:

حقًّا يا كونت! دعني أعنى بابنتيك، صحيح أنني لست مقيمة هنا زمنًا

طويلًا. ولكن إقامتكم أنتم لن تطول كثيرًا أيضًا. فاسمح لي أن أسلّيهن خلال هذه الفترة.

وتابعت تقول مخاطبة ناتاشا وهي تبتسم ابتسامتها الواحدة نفسها:

- سمعت عنك كثيرًا في بطرسبورغ، فوددت لو أعرفك. وسمعت عنك أيضًا من غلامي دروبتسكوي، وهو يوشك أن يتزوج كما تعلمين. وسمعت عنك كذلك من صديق لزوجي هو بولكونسكي، الأمير أندريه بولكونسكي.

وقد شدّدت هيلين على هذا الاسم لتفهم ناتاشا أنها تعرف ما بولكونسكي عندها؛ وطلبت من الكونت أن يسمح لإحدى الفتاتين بمجالستها في شرفتها بقية المسرحية زيادة للتعارف، فذهبت إليها ناتاشا.

كان الفصل الثالث يمثل قصرًا تشتعل فيه شموع كثيرة، وتزين جدرانه صور فرسان ذوي لحى صغيرة، ويقف في وسطه شخصان لا شك أنهما الملك والملكة. ويحرك الملك يده بإشارة، ويغني لحنًا من الألحان غناء رديئًا وقد بدا عليه خجل واضح، ثم يجلس على عرش بلون القطيفة. والفتاة التي رأيناها لابسة فستانًا أبيض، ثم فستانًا أزرق، لا يكسوها الآن إلّا قميص، وهي تقف بقرب العرش مبعثرة الشعر، فتغني لحنًا حزينًا تتجه به إلى الملكة. ولكن الملك يحرك يده بإشارة قاسية، فإذا برجال ونساء عارية سيقانهن ينبجسون من الجهتين راقصين. ثم تعزف آلات الكمان عزفًا خفيفًا مرحًا، وتنفصل إحدى النساء ذوات السيقان البدينة والأذرع النحيلة عن الآخريات، وتنسحب إلى ما الوراء الكواليس، فتعدل صدارها، ثم تنطلق إلى وسط المسرح وتأخذ تثب وتضرب إحدى قدميها بالقدم الآخرى ضربًا قويًا. فيصفق لها جميع المشاهدين الجالسين في ردهة المسرح، ويهتفون معبّرين عن الاستحسان والإعجاب. ثم يمضي أحد الرجال إلى ركن من المسرح يقف فيه، وتأخذ آلات الصنج والأبواق تعزف عزفًا أقوى، فينطلق هذا الرجل العاري الساقين يثب وحده وثوبًا عاليًا جِدًّا ويضرب قدميه إحداهما بالآخرى (إن هذا الرجل هو دوبو[1] الذي كانت ممارسة هذا الفن

---

(1) راقص فرنسي وصل إلى روسيا سنة 1808.

تدر عليه ربحًا قدره ستون ألف روبل في السنة)، فإذا بجميع من في الردهة ومن في الشرفات ومن في المقاصير العليا يصفّقون يصيحون ويطلقون هتافات الاستحسان بكل ما أوتو من قوة، فيقف الرجل يبتسم ويحيي ملتفتًا بتحيته إلى جميع الجهات.

ثم يرقص آخرون، رجالًا ونساء عارية سيقانهم، ثم يصدح صوت، الملك أو الملكة بكلمات ترافقها الموسيقى، فينطلق جميع من على المسرح يغنون جوقة واحدة. ولكن عاصفة تهب على حين فجأة، وتعزف الاوركسترا سلالم موسيقية ملوَّنة وألحانًا على الطبقة السابقة الصغرى، فيأخذ الجميع يركضون، ويُقاد أحد الممثلين مرة أخرى إلى ما الوراء الكواليس، وتُسدل الستارة. فيعود الصخب يعلو في ردهة المسرح قويًّا لا يوصف، ويصيح كل مشاهد في حماسة قائلًا:

- دوبور! دوبور! دوبور!

وكانت ناتاشا قد انجرفت، فلم تعد تجد في هذا أمرًا عجيبًا.

وقالت هيلين تسألها:

- أليس مدهشًا دوبور هذا؟

فأجابتها ناتاشا:

طبعًا!

الفصل العاشر

هب هواء بارد على شرفة هيلين أثناء الاستراحة بين الفصلين.

لقد فُتح باب الشرفة، ودخل آناتول منحنيًا محاذرًا أن يصدم أحدًا. قالت هيلين وهي ترفع عينيها من ناتاشا إلى آناتول قلقة الهيئة:

- اسمحي لي أن أعرّفك بأخي.

فأدارت ناتاشا رأسها الجميل إلى الفتى الوسيم، وابتسمت له من فوق كتفها العارية. إن آناتول الذي يلوح جميلًا، من بعد، يبدو جميلًا من قرب أيضًا. وها هو ذا يجلس إلى جانبها ويقول لها إنه يرغب في معرفتها منذ زمن طويل، منذ حفلة الرقص التي أقيمت في منزل آل نارشكين، وسرَّه أن يراها فيها سرورًا لم يفارق ذاكرته. إن آناتول كوراجين يبدو في مخاطبة النساء أذكى وأبسط كثيرًا منه في مخاطبة الرجال. فهو يكلم النساء بجرأة ليس فيها تكلف، فكم كان قدر الدهشة والمتعة التي شعرت بهما ناتاشا حين لم تجد في هذا الرجل الذي تُقال عنه الأقاويل شيئًا يدعو إلى الخوف والرهبة، وحين رأته يبتسم ابتسامًا لا يضارعه في سذاجته وفرحه ومودته ابتسام.

سألها كوراجين عن رأيها في المسرحية، وذكر لها أن سيميونوفا قد سقطت على أرض المسرح في العرض السابق أثناء التمثيل. ثم قال لها فجأة بلهجة طلقة وكأن معرفته بها ترجع إلى عهد بعيد:

- هل تعلمين يا كونتيسة؟ سوف نقيم حفلة فروسية بملابس تنكّرية، فيجب أن تشاركي في هذه الحفلة. لتكونن حفلة مسلية جِدًّا. سوف نتجمع عند آل آرخاروف. تعالي، أرجوك، هل تجيئين؟

كان وهو يقول هذا الكلام لا يحوّل عينيه الباسمتين عن وجهها وجيدها

وذراعيها العاريتين، فأيقنت بأنه معجب بها إعجابًا لا مجال للشك فيه، وسرّها ذلك، ولكنها أخذت تشعر – من دون أن تعرف لهذا سببًا – وهي معه بحرج ما ينفك يشتد. صارت إذا تحولت عنه تحسّ بوطأة نظرته على كتفيها، فتدفعها غريزتها إلى أن تشد نظرته إلى وجهها لينصرف بصره عن كتفيها. ولكنها تنظر إلى عينيه فيروّعها أن تحسَّ أن حاجز الحياء والخفر الذي يقوم بينها وبين غيره من الرجال، لا وجود له بينها وبينه. ثم لم تنقض خمس دقائق حتى شعرت بأنها قريبة من هذا الرجل قربًا شديدًا من دون أن تعرف كيف حدث هذا. وصارت إذا هي تحولت عنه تخشى أن يمسك ذراعها العارية من خلف، وأن يطبع على جيدها قبلة. وقد تكلما في أمور مبتذلة تافهة، فكانت تحسّ بأنهما قريبان قربًا لم تشعر بمثله مع رجل آخر. وألقت نظرة على هيلين وعلى أبيها، فأما هيلين فكانت مشغولة بحديثها مع جنرال، فلم تردّ على نظرتها، وأما أبوها فكانت نظرته لا تقول شيئًا غير ما تقوله دائمًا: «يسرني جِدًّا أن تتسلّي!».

وفي لحظة من لحظات الصمت المرتبك التي كان آناتول يتأملها أثناءها بعينيه النجلاوين في عناد، أرادت ناتاشا أن تقطع الصمت فسألته، هل يحب موسكو، فما إن أفلت منها هذا السؤال حتى تضرّج وجهها. وكانت تحسّ في كل لحظة أنها بمحادثتها هذا الشاب ترتكب عملًا لا يليق ولا يحسن. فابتسم لها آناتول يشجّعها، وقال يجيب عن سؤالها وهو ينظر إليها نظرة ذات مغزى:

– لم أحبّ موسكو كثيرًا من قبل، لأن الشيء الذي يجعل مدينة من المدن مبهجة ممتعة هو النساء الجميلات، أليس هذا صحيحًا؟ أما الآن فقد صرت أحبّ موسكو كثيرًا. هل تأتين إلى حفلة الفروسية يا كونتيسة؟ أرجوك أن تأتي...

ثم أضاف يقول بصوت خافت وهو يمد يده إلى ياقة ناتاشا:

– لسوف تكونين أجملهن كافة. تعالي يا عزيزتي الكونتيسة، وأعطيني هذه الزهرة رهنًا.

لم تفهم ناتاشا ما قاله، ولا هو نفسه فهمه، ولكنها أحسّت بأن هذه الكلمات التي ليست مفهومة تشتمل على شيء غير لائق. ولم تعرف بم

تجيبه، وماذا تقول له، فأشاحت عنه كأنها لم تسمع. ولكنها ما إن تحولت عنه حتى عاد يحاصر فكرها أنه هنا، أنه وراءها، أنه قريب منها كل القرب، وأخذت تتساءل: «ما الذي يفكر فيه الآن؟ أهو خجلان مضطرب؟ أهو زعلان غاضب؟ هل يجب أن أسوّي الأمر؟». ثم لم تستطع أن تمتنع عن الالتفات إليه، فنظر إلى عينيها نظرة ثابتة، فإذا بحضوره القريب، وثقته الهادئة، وما تدلّ عليه ابتسامته من مودّة أخاذة، إذا بهذا كله يستولي عليها، وإذا هي تنظر إليه كنظرته إليها، وتبتسم له كابتسامته لها، وإذا هي تحس مرة أخرى، على ارتياع ورهبة، أن ليس بينها وبينه أي حاجز.

وأزيحت ستارة المسرح. فخرج آناتول من الشرفة هادئًا مرحًا.

وعادت ناتاشا إلى شرفة أبيها وقد سرَّها الآن هذا العالم الذي هي فيه. صار كل ما تراه يبدو لها طبيعيًّا لا تكلّف فيه، ولم يعد يخطر ببالها ما كان يجول في فكرها قبل ذلك من خواطر عن خطيبها وعن الأميرة ماريا، فكان هذا كله ينتمي إلى ماضٍ بعيد، موغل في البعد.

في الفصل الرابع انبجس نوع من شيطان أخذ يحرك يديه بإشارات كثيرة، وظل يغني إلى أن فتحت له فرجة غار فيها. ذلك كل ما رأته ناتاشا من هذا الفصل.

كان شيء يبث الاضطراب في نفسها ويعذّبها تعذيبًا، وكان سبب اهتياجها هذا، هو آناتول كوراجين الذي كانت تتابعه ببصرها رغم إرادتها. وعند الخروج من المسرح، اقترب آناتول من آل روستوف، وأمر بأن تتقدّم عربته، وأركبهم فيها. وبينما كان يساعد ناتاشا في الركوب ضغط على ذراعها فوق الكوع، فتضرجت ناتاشا واضطربت، والتفتت إليه، فكانت عينا آناتول تتألقان، وكان ينظر إليها مبتسمًا برقّة وحنان.

لم تستطع ناتاشا أن تعي كل ما حدث لها وعيًا كاملًا إلّا حين العودة إلى المنزل. هناك تذكرت الأمير أندريه، فجأة فاعتراها رعب شديد، وفيما كانوا يحتسون الشاي بعد الرجوع من المسرح تخضّب وجهها بحمرة شديدة وأفلتت منها صرخة أمام الجميع، وولت هاربة. قالت لنفسها: «رباه! لقد هلكت! كيف أمكن أن أسمح بهذا؟». ولبثت على هذه الحال مدة طويلة، دافنة وجهها المضرّج في يديها، محاولة أن تدرك ما حدث لها

إدراكًا واضحًا، ولكنها لم تستطع أن تفهم لا ما وقع لها ولا ما تشعر به. بدا كل شيء لها مبهَمًا غامضًا مشوَّشًا، مخيفًا مرعبًا. هناك، في تلك الصالة الواسعة المتلألئة بالأنوار، حيث كان دوبور يثب على إيقاع الموسيقي فوق الألواح الرطبة بساقيه العاريتين وصداره الصغير الموشّى بالترتر، وبينما كانت الفتيات والشيوخ وهيلين المتعرّية المبتسمة ابتسامة هادئة متعالية يطلقون هتافات الاستحسان المتحمّسة الحارّة، هناك، في ظل هيلين تلك، وفي كنفها، هذا كان كلّه في نظر ناتاشا بسيطًا وواضحًا. أما الآن وقد خلت ناتاشا إلى نفسها أمست لا تفهم شيئًا البتة، وصارت تتساءل: «ما هذا؟ ما هذا الخوف الذي يبثّه في نفسي؟ ما معنى عذاب الضمير هذا الذي يمضّني الآن؟».

وما كانت ناتاشا لتستطيع أن تبوح بما في نفسها لغير أمها الكونتيسة حين تزورها في الليل وهي راقدة على سريرها. أما صونيا فإنها لتعرف مما عهدته فيها من نظرة إلى الأمور قاسية وكلّية أنها إما أن تفهم من اعترافها شيئًا، وإما أن يروِّعها هذا الاعتراف ترويعًا هائلًا.

وأخذت تتساءل: «هل ضعت من ناحية حبّي للأمير أندريه؟»، ولكنها لم تلبث أن سارعت تطمئن نفسها قائلة وهي تبتسم: «ما أغباني إذ ألقي هذا السؤال على نفسي! ما الذي حدث؟ لا شيء البتة! أنا لم أرتكب إثمًا، أنا لست مسؤولة عما وقع. ولن يعلم أحد بشيء. ولن أراه بعد اليوم أبدًا. نعم، الأمر واضح، لم يحدث شيء، وليس لي أن أندم على خطيئة ارتكبها، ولا يزال في وسع الأمير أندريه أن يحبّني كما أنا الآن. ولكن ما أنا الآن؟ آه، رباه رباه، لماذا هو ليس هنا؟». كانت ناتاشا تهدأ لحظة، ثم لا تلبث غريزة خفية أن تقول لها إن ما كان يتّصف به حبّها للأمير أندريه من نقاء وطهارة قد زال، رغم أن كل ما تقوله لنفسها صحيح، ورغم أنه لم يحدث شيء، ثم تعود تستعرض بخيالها الحديث الذي دار بينها وبين آناتول كوراجين، وترى وجهه وحركاته وإشاراته، وترى الابتسامة الرقيقة على ثغر هذا الفتى الجسور الجميل لحظة ضغط ذراعها.

الفصل الحادي عشر

جاء آناتول كوراجين إلى موسكو لأن آباه طرده من بطرسبورغ حيث كان ينفق أكثر من عشرين ألف روبل في السنة، وكانت تتراكم عليه الديون وكان الدائنون يطالبون أباه بسداد هذه الديون.

وقد وافق الأب على أن يدفع عن ابنه نصف ديونه آخر مرة، بشرط أن يسافر على الفور إلى موسكو ضابطًا مرافقًا للحاكم العسكري، وهو منصب حصل له عليه، وأن يبذل كل ما يستطيع بذله من مساعٍ ليتزوّج فتاة وارثة غنية؛ وسمَّى له الأميرة ماريا وجوليا كاراجين.

قبل آناتول ما عرضه عليه أبوه وسافر إلى موسكو ونزل ضيفًا على بطرس. وقد استقبله بطرس في أول الأمر ممتعضًا، ولكنه ألفه بعد ذلك، حتى لقد شاركه مغامراته أحيانًا، وكان يعطيه مالًا على سبيل القرض.

صدق شنشين حين قال إن آناتول قد ذهب بصواب جميع السيدات منذ وصوله إلى موسكو، لا سيما وأنه كان يهملهنّ ويؤثر عليهنّ الغجريات والممثّلات الفرنسيات إيثارًا صريحًا، ومن هاته الممثّلات مادوموازيل جورج التي كانت تُعدًّ خليلته. كان لا يفوِّت احتفالًا عند دانيلوف وغيره من المقبلين على ملذات الحياة في موسكو، وكان يقضي ليالي كاملة يشرب الخمرة في صحبة أكثر السكارى ولعًا بالشراب وإغراقًا فيه، وكان يحضر جميع السهرات وجميع حفلات الرقص التي تقام في المجتمع الراقي. والناس يتناقلون عددًا من مغامراته مع سيدات موسكو، وهو في حفلات الرقص يغازل سيدات أخريات. أما الفتيات، ولا سيما الوارثات الغنيات، وأكثرهنّ دميمات، فقد كان ينأى عنهنّ ما وسعه النأي، خاصّةً وأنه متزوج منذ سنتين، وذلك أمر لا يعرفه إلّا الخلصاء من أصدقائه. ذلك أنه قبل

سنتين، حين كان فوجه معسكرًا في بولندا، قد أجبره بولندي من الريف على أن يتزوج ابنته.

ولم يلبث آناتول أن هجر امرأته، وحصل من حميّه على حق التظاهر بأنه عازب مقابل مبلغ تعهَّد بأن يدفعه له كل شهر.

إن آناتول راضٍ دائمًا عن حظه، وعن نفسه، وعن الآخرين، وهو بغريزته مقتنع اقتناعًا عميقًا قويًا بأن الحياة التي يحياها هي الحياة الوحيدة التي تناسب طبيعته، وبأنه لم يصنع سوءً في يوم من الأيام. إنه عاجز عن فهم العواقب التي يمكن أن تنشأ عن عمل من أعماله، وعاجز عن أن يتصوّر ما قد يكون لهذا الفعل أو ذاك من أفعاله من أثر في غيره. كان مؤمنًا إيمانًا قاطعًا بأن الله خلقه لينفق ثلاثين ألف روبل في السنة، ويحتل في المجتمع أعلى منزلة، كما خلق البطَّ ليعيش في الماء. وكان يبلغ من الإيمان بهذا أن الآخرين إذا رأوه شاطروه هذا الاقتناع، فلم يضنّوا عليه لا بأعلى منزلة في المجتمع الراقي، ولا بالمال الذي يقترضه من أي إنسان يراه وهو لا ينوي أن يردَّه إليه طبعًا.

لم يكن آناتول مقامرًا، أو قل على الأقل إنه لم يسعَ إلى الربح أبدًا. ولم يكن مغترًا متباهيًا، ولا كان يعبأ بما قد يرى فيه الناس من رأي، وما قد يقولونه فيه من قول، ولا كان يمكن اتهامه بأنه ذو طموح، فكم من مرة ثارت ثائرة أبيه لأنه عرَّض نفسه لخطر فقدان رتبته العسكرية، وما أكثر ما كان يسخر بالأمجاد، ولا يحفل بها، ولا يكترث لها. ولم يكن بخيلًا، فإنه لا يمنع مالًا عن أحد يطلبه منه. إن الشيء الوحيد الذي يحبه هو الملذات والنساء؛ ولأنه كان لا يرى في هذه الميول أي سوء أو شر، وكان عاجزًا عن التنبؤ بما قد يلحقه إرضاء هذه الميول بالآخرين من أذى، كان يعتقد صادقًا بأن سلوكه لا مأخذ عليه، وكان يحتقر التافهين والجبناء والأشرار، ويرفع رأسه مطمئن البال مرتاح الضمير.

إن هؤلاء الرجال الذين ينغمسون في ملذات الحياة يكونون في قرارة أنفسهم مقتنعين بأنهم غير آثمين، وذلك شعور يقوم عند الخطأة من الرجال على نفس ما يقوم عليه عند الخطأة من النساء، أعني الأمل في الغفران. «سيُغفر لها كثيرًا لأنها أحبّت كثيرًا، وسيُغفر له كثيرًا لأنه تسلّى كثيرًا».

كان دولوخوف قد رجع إلى موسكو في تلك السنة بعد منفاه ومغامراته في فارس، وكان يعيش حياة فخمة يقامر ويقصف ويلهو، وكان قد جدّد علاقته بآناتول كوراجين، رفيقه في الماضي في بطرسبورغ، فكان يستخدمه لتحقيق أهدافه والوصول إلى مآربه.

كان آناتول يحب دولوخوف حبًّا صادقًا، لذكائه وبسالته. وكان دولوخوف في حاجة إلى اسم آناتول كوراجين ورتبته وصلاته ليجتذب الشبان الأغنياء إلى عصبة المقامرين الذين يقامر معهم، فكان يستخدمه من دون أن يدع لذلك أن يظهر عليه، وفي قرارة نفسه يسخر منه. على أنه كان لا يخضع في هذا للحساب وحده، فإن السيطرة على إرادة إنسان كانت وحدها تسرّه وتبهجه، وكانت قد أصبحت عادة من عاداته وحاجة من حاجاته.

أحدثت ناتاشا في نفس آناتول أثرًا قويًّا. فلما كان يتعشّى مع آناتول بعد الخروج من المسرح، حدَّث آناتول عن جمال الفتاة بالتفصيل، حديث الخبير العارف، ومدح ذراعيها وكتفيها ورجليها وشعرها، وأعلن له جازمًا أنه عزم أمره على مغازلتها. أما النتيجة التي يمكن أن يؤدي إليه عمله هذا، فإنه عاجز عن التفكير فيها والتنبؤ بها، كعجزه عن معرفة عواقب أفعاله دائمًا.

قال له دولوخوف:

- هي جميلة يا عزيزي، ولكنها ليست لنا.

فأجابه آناتول:

- سأكلف أختي بأن تدعوها إلى العشاء، ما رأيك؟

- بل انتظر إلى أن تتزوج...

قال آناتول:

- اسمع! إنني أحب الفتيات الصغيرات حبّ العبادة، لأنهنّ سرعان ما يطيش صوابهنّ.

فأجابه دولوخوف وهو يعلم بالزواج الذي أجبر عليه آناتول إجبارًا:

- سبق أن وقعت في شرك فتاة صغيرة؟ فكن من أمرك على حذر.

فقال آناتول وهو يضحك ضحكًا فيه بساطة وبراءة:

- لا يقع المرء في شرك مرتين، أليس كذلك؟

الفصل الثاني عشر

لم يخرج آل روستوف غداة ذهابهم إلى المسرح ولا زارهم أحد. وكانت ماريا ديمتريفنا تحدّث إيليا آندريتش مستخفية عن ناتاشا. فحزرت ناتاشا أنهما يتكلمان عن الأمير الشيخ، وأنهما يرسمان خطة، فأقلقها هذا وجرح كبرياءها. كانت تنتظر الأمير أندريه في كل لحظة، حتى إنها في ذلك اليوم أرسلت البواب إلى شارع فوزروفيخبكا مرتين يستطلع الأخبار، فكان يرجع إليها في كل مرة قائلًا إن الأمير أندريه لم يصل. وأصبح إذعانها يشقّ على نفسها أكثر مما كان يشق عليها في الأيام الأولى من وصولها. وقد أضيف الآن إلى نفاد صبرها والى حزنها الناشئ عن غيابه، أنها تذكر تلك الذكرى الأليمة عن لقائها الأميرة ماريا والأمير الشيخ، وأنها تشعر بخوف وقلق لا تعرف لهما سببًا. كان يتراءى لها في كل لحظة أنه قد لا يجيء أبدًا، أو أن شيئًا قد يقع لها هي قبل أن يجيء. وغدت لا تستطيع أن تفكر فيه طويلًا حين تخلو إلى نفسها، فما أن تفكر فيه حتى تضم إلى ذكراه ذكرى الأمير الشيخ، والأميرة ماريا، وذكرى المسرحية الأخيرة وذكرى آناتول كوراجين. وعادت تتساءل أليست آثمة منذ الآن؟ ألم تخن العهد الذي قطعته للأمير آندرو منذ تلك الليلة في المسرح؟ وكم من مرة فاجأت نفسها تستعرض في خيالها بالتفصيل كل كلمة وكل حركة وكل نأمة في وجه ذلك الرجل الذي استطاع أن يوقظ في نفسها شعورًا مفزعًا كل هذا الفزع، مبهَمًا كل هذا الإبهام فلا سبيل لها إلى فهمه. وكانت ناتاشا تبدو في نظر ذويها أكثر انتعاشًا من أي عهد مر بها، ولكن الواقع أنها لم تكن في مثل الطمأنينة والسعادة التي كانت فيهما من قبل.

وفي صباح يوم الأحد اقترحت ماريا ديمتريفنا على ضيوفها أن يسمعوا

القداس في كنيسة «الصعود»، كنيسة حيِّها، وقالت معتزة باستقلال رأيها اعتزازًا واضحًا:

- أنا لا أحب تلك الكنائس التي على الموضة! إن الله هو الله في كل مكان. وإن في كنيستنا كاهنًا مُمتازًا يجيد تلاوة القداس، وكذلك الشماس، والقداس فيه جد وصرامة، أما تلك الموسيقى التي يعزفونها في مكان مقدس، فإني أكرهها، وأعدها خفة وطيشًا، بل أعدها تدنيسا للمقدسات.

كانت ماريا ديمتريفنا تحبّ أيام الأحاد، وكان يسرّها أن تحتفل بها. فمنزلها يُغسل ويُنظَّف منذ السبت. وخدمها، وهي نفسها، لا يعملون يوم الأحد. والجميع يرتدون أجمل الحلل ويذهبون إلى الكنيسة لحضور القداس، ومائدة الأسياد تكون أحفل بألوان الأطعمة، والخدم يعطون فودكا وإوزّة مقلية أو خنزيرًا رضيعًا.

ولكن لا شيء في المنزل يُعبِّر عن الاحتفال بيوم الأحد كما يُعبِّر عنه وجه ماريا ديمتريفنا العريض الصارم الذي تجلّله الأبهة كلما جاء يوم الأحد.

فلما رجعوا من الصلاة، وفرغوا من احتساء القهوة في الصالون الذي نزعت أغطيته، جاء من يبلغ ماريا ديمتريفنا أن المركبة تنتظر في الباب، فنهضت ماريا ديمتريفنا وقد لبست الشال الذي تلبسه حين تقوم بزيارات، وقالت متجهّمة الوجه إنها ذاهبة إلى الأمير نيقولا آندريتش بولكونسكي تفاتحه في أمر ناتاشا.

وما إن مضت ماريا ديمتريفنا، حتى جاءت خيّاطة تسأل عن آل روستوف موفدة من مدام شالميه. فسرَّت ناتاشا بهذا الالتهاء أكبر السرور، وقامت إلى الغرفة المجاورة للصالون فأغلقت عليها بابها وتهيّأت لتجريب ثيابها الجديدة. فلما شرعت تجرّب صدارًا قد سُرّج تسريجًا ولا أكمام له بعد، وفيما كانت مائلة برأسها إلى الوراء لترى أهو حسن المظهر، إذا هي تسمع في الصالون صوت أبيها منتعشًا وصوت امرأة جعل وجهها يتضرّج. إنه صوت هيلين، وإذا الباب يُفتح قبل أن يتّسع وقتها لخلع الصدار. وإذا الكونتيسة بيزوخوف تدخل متألّقة الوجه بابتسامتها الودود التي تشبه أن تكون ابتسامة طفل، مرتدية فستانًا عالي الياقة من مخمل بلون البنفسج. قالت لناتاشا التي تخضّب وجهها بالحمرة:

- آه.. عزيزتي الحلوة العذبة! الفاتنة!

وأضافت تخاطب الكونت الذي تبعها:

- حقًّا أن أمركم لغريب عجيب! كيف يكون المرء في موسكو ثم لا يذهب إلى أي مكان؟ لا، لن أترككم! إن مادوموازيل جورج تلقي عندي أشعارًا هذا المساء، وسيكون معي عدد من الأصدقاء، فإذا لم تجئ بابنتيك الجميلتين الرائعتين، فلن أعرفك بعد الآن. ليس زوجي هنا، فقد سافر إلى نفير، ولولا ذلك لأرسلته إليكم ليجيء بكم. فقالوا حتمًا حتمًا، في نحو الساعة التاسعة.

وحيّت الخياطة بحركة من رأسها، وكانت تعرفها، فردت الخياطة التحية بحني ركبتيها احترامًا.

ثم جلست على أريكة بقرب المرآة وهي تسوِّي حول جسمها ثنيات فستانها المخملي بكثير من الحذق والفن. ولم تكفف عن الثرثرة في مرح وبساطة طيبة، منتشية بجمال ناتاشا. وقد أنعمت النظر في فساتينها فمدحتها، ومدحت كذلك فستانًا لها يجاري آخر صيحة من صيحات الموضة كانت قد تلقّته في الآونة الأخيرة من باريس، وهو مصنوع من شف معدنيّ، ونصحتها بأن تطلب فستانًا مثله. وختمت كلامها تقول:

- على كل حال، ما من شيء تلبسينه إلّا يصبح جميلًا بديعًا.

كانت ابتسامة سرور لا تفارق وجه ناتاشا، وكانت تحسّ بأنها سعيدة وكان محيَّاها يتفتح ويزهر وهي تسمع المديح من هذه الكونتيسة الأخاذة، بيزوخوف، التي بدت لها في أول الأمر سيدة كبيرة يتهيّب المرء أن يكلّمها، والتي تبدي لها الآن هذه المودّة الطيّبة كلّها. وسرعان ما غزا المرح والفرح نفس ناتاشا، حتى كادت تحسّ بأنها مولّهة بحب هذه السيدة التي تبلغ هذا المبلغ من الجمال والبشاشة. وكانت هيلين من جهتها قد أعجبت بناتاشا إعجابًا صادقًا. وكان أخوها آناتول قد سألها أن تهيئ له لقاء مع ناتاشا. ولهذا الغرض إنما جاءت تزور آل روستوف، وكانت ترى أن التقريب بين ناتاشا وأخيها مبعث مسرة وتسلية.

ورغم أنها غضبت في الماضي من ناتاشا لأن ناتاشا انتزعت منها بوريس في بطرسبورغ، فإنها الآن لا تفكر في هذا الأمر، وهي الآن تريد لها الخير

صادقة، ولكن على طريقتها الخاصّة، وحين قامت تنصرف انتحت بناتاشا التي أصبحت راعيتها وحاميتها، انتحت بها جانبًا وقالت لها:

- تعشّى أخي عندي بالأمس، فكدنا نفطس ضحكًا منه. أصبح لا يأكل من فرط هيامه بغرامك يا فتاتي. إنه مجنون حبًّا بك مجنون حقًّا يا عزيزتي.

فاحمرّت ناتاشا حتى صارت بلون القرمز.

فقالت هيلين معلّقة على احمرارها:

- آه... ما أشد ما تحمرّ، ما أشد ما تحمرّ، عزيزتي العذبة! اللذيذة! اتفقنا إذًا. سوف تجيئون، أليس كذلك، إذا كنت تحبين رجلًا يا عزيزتي الحلوة، فليس يدعوك هذا إلى أن تحبسي نفسك بين جدران أربعة. هبي أنك قطعت له على نفسك عهدًا بأن تكوني له، فإني لعلى يقين بأنه يتمنّى أن تخرجي إلى المجتمع في غيابه لا أن تذبلي ضجرًا من العزلة والوحدة.

حدثت ناتاشا نفسها قائلة: «هي تعرف إذًا أنني مخطوبة، فلا شك أنهما تحدّثا في الأمر، هي وزوجها بطرس، ذلك الرجل الشريف المستقيم، فضحكا مما حدث ضحكًا كثيرًا، فليس إذًا في ما حدث بأس، وليس عليه مأخذ». هكذا أصبح ما كان يبدو لها منذ قليل أمرًا رهيبًا فظيعًا، يبدو لها الآن بتأثير هيلين شيئًا بسيطًا طبيعيًّا. وقالت لنفسها وهي تنظر إلى هيلين بعينين واسعتين مشدوهتين: «هي سيدة عظيمة تبلغ غاية اللطف، وواضح أنها تحبّني حبًّا صادقًا. فلماذا لا أتسلّى؟».

رجعت ماريا ديمترفينا في ساعة العشاء صامتة عابسة، فكان واضحًا أن مساعيها لدى الأمير الشيخ قد باءت بالخذلان. كانت لا تزال مهتاجة من المجادلة التي قامت بينها وبين الأمير الشيخ اهتياجًا شديدًا، فلا تستطيع أن تقصّ ما جرى قصًّا هادئًا. وحين سألها الكونت أجابت بأن الأمور تجري مجرًى حسنًا، وأنها ستروي كل شيء غدًا. ولما علمت بزيارة الكونتيسة هيلين بيزوخوف، وبدعوتها آل روستوف إلى سهرة في منزلها، قالت:

- أنا لا أحبّ التردّد على السيدة بيزوخوف، ولا أنصحكم بذلك. ولكنها استدركت تقول لناتاشا:

- ولكن ما دمتِ قد وعدتيها، فاذهبي وتسلّي.

الفصل الثالث عشر

اصطحب الكونت إيليا آندريتش فتاتيه إلى منزل الكونتيسة بيزوخوف. وكان في المنزل عدد كبير من الضيوف لا تكاد تعرف منهم ناتاشا أحدًا. ساء الكونت إيليا آندريتش أن يلاحظ أن معظم الضيوف من رجال ونساء اشتهروا بالتحلّل. وكانت مادوموازيل جورج جالسة في ركن من الصالون يحدّق بها حشد من الشبان، وكان بين المدعوين عدد من الفرنسيين منهم ميتيفييه الذي أصبح منذ وصول هيلين أحد رواد المنزل الخلصاء. قرر الكونت إيليا آندريتش أن لا يقامر، وأن يلازم ابنتيه، وأن ينصرف متى انتهت مادوموازيل جورج من تمثيلها.

كان آناتول واقفًا عند الباب يترقّب وصول آل روستوف. فما إن سلَّم على الكونت حتى دنا من ناتاشا وتبعها. ولم تكد ناتاشا تلمحه حتى اعتراها ذلك الشعور نفسه الذي سبق أن اعتراها من قبل وهو شعور الزهو بإعجابه بها وفي الوقت نفسه الخوف من أنها لا تحسّ بوجود حاجز يفصل بينها وبينه.

استقبلت هيلين ناتاشا فرحة، وأعربت جهارًا عن افتتانها بجمالها وزينتها.

وخرجت مادوموازيل جورج ترتدي ثياب التمثيل. وصُفَّت الكراسي في الصالون، وجلس المدعوون. ودفع آناتول كرسيًّا لتجلس عليه ناتاشا، وأراد أن يجلس بقربها. ولكن الكونت الذي كان لا يحوِّل بصره عن ابنته، أسرع يجلس على الكرسي الذي كان آناتول يريد أن يشغله. فجلس آناتول في الخلف.

وطلعت مادوموازيل جورج بذراعيها البضّتين العاريتين اللتين لهما عند الكوع غمازتان، واضعة على إحدى كتفيها شالًا أحمر، وجلست في المكان الشاغر التي حُفظ لها بين الأرائك، واتخذت وضعًا فيه كثير من التكلّف والاصطناع، فسرت بين الحضور دمدمات الإعجاب.

شملت مادوموازيل جورج، الجمهور بنظرة صارمة مكفهرّة، وأخذت تلقي أشعارًا مدارها على حبّها ابنها حبًّا آثمًا، فكانت ترفع صوتها تارة وتدمدم به دمدمة تارة أخرى وهي تنتصب في أبهة وعظمة، وتتوقف تارة ثالثة فتحشرج وتذبل عينيها.

وأخذت الأصوات ترتفع من كل صوب صائحة:

- رائع، يا إلهي، لذيذة!

ولكن ناتاشا وقد جمدت نظرتها على مادوموازيل جورج ذات الأبهة والعظمة، كانت لا تسمع شيئًا، ولا ترى شيئًا، ولا تفهم شيئًا مما يجري أمامها، وأنها هي غارقة مرة أخرى غرقًا تامًّا لا رجعة عنه ولا أوبة منه في ذلك العالم الغريب من الجنون، ذلك العالم البعيد كل البعد عن العالم الذي عرفته حتى ذلك الحين، ذلك العالم الذي لا تمييز فيه بين الخير والشر، ولا بين العقل والجنون. وكان آناتول جالسًا وراءها، فكانت تحسّ بأنه قريب منها أشدّ القرب، وكانت تتوقّع على قلق وخوف أن يقع لها شيء.

فلما انتهت مادوموازيل جورج من إلقاء قصيدتها الأولى، قام جميع الحضور يحيطون بها، ويعربون لها عن إعجابهم.

وقالت ناتاشا لأبيها الذي قام مع القائمين وأقبل على الممثلة مع المقبلين.

- ما أجملها!

فإذا بآناتول الذي كان يتبع ناتاشا، يقول لها في لحظة لا يمكن أن يسمعه فيها أحد غيرها:

- لا أجدها جميلة حين أراك. إنك آسرة! منذ رأيتك لم أكف عن...

قال الكونت وقد قفل راجعًا إلى ابنته:

- تعالي يا ناتاشا، تعالي. ما أجملها!

انضمت ناتاشا إلى أبيها من دون أن تقول شيئًا، وألقت عليه نظرة فيها استفهام ودهشة.

انصرفت مادوموازيل جورج بعد أن ألقت عدة قصائد، وجاءت الكونتيسة هيلين بيزوخوف ترجو الحفل أن ينتقل إلى صالة الرقص.

فأراد الكونت أن ينصرف. ولكن هيلين ضرعت إليه ألا يفسد لها حفلة الرقص هذه التي ارتجلتها ارتجالًا، فلم يسع آل روستوف إلّا أن يبقوا. وبدأ الرقص فجاء آناتول يدعو ناتاشا أن تراقصه على ألحان الفالس؛ وفيما كان يشد إليه قامتها ويضغط لها يدها قال لها إنها فتانة وإنه يحبّها. حتى إذا كانت الرقصة الإيقوسية التي قامت ناتاشا ترقصها مع آناتول كوراجين أيضًا، لم يقل لها آناتول شيئًا واكتفى بأن ظلّ ينظر إليها مع إنهما وحيدان، فتساءلت ناتاشا ألم يكن ما قاله لها أثناء رقصة الفالس حلمًا حلمته. وفي نهاية الحركة الأولى من الرقصة الإيقوسية، عاد آناتول يضغط يدها، فرفعت إليه عينين مروَّعتين، ولكن نظرة آناتول وابتسامته كان فيهما من رقة العاطفة وقوة الثقة أنها لم تستطع أن تقول له ما كان ينبغي أن تقوله رافعة بصرها إليه، فخفضت عينيها، وقالت له بسرعة:

- لا تقل لي هذه الأشياء، أنا مخطوبة. أحبّ رجلًا غيرك.

ونظرت إليه، فلاحظت أن ما قالته لم يحدث له اضطرابًا ولا حزنًا. وها هو ذا يرد عليها بقوله:

- لا تكلّميني في هذا الأمر، فهو لا يهمّني وإنما أنا أقول لك إنني مجنون بحبِّك جنونًا. مجنون جنونًا. أهو ذنبي أنك فاتنة.

كانت ناتاشا من فرط اضطرابها واهتياجها تنظر بعينيها المرتاعتين فلا ترى شيئًا، وكانت تبدو أكثر مرحًا مما عُهد فيها من مرح. كانت لا تكاد تدرك ما يجري حولها. وبعد الرقصة الإيقوسية رقصت رقصة «الجد»، فأراد أبوها أن ينصرف، فطلبت منه البقاء. وكانت تحسّ بنظرة آناتول تلاحقها أينما ذهبت وأيًا كان الشخص الذي تكلّمه. وقد تذكّرت بعد تلك الليلة، أنها استأذنت أباها في أن تذهب إلى غرفة الزينة لتسوِّي فستانها، وأن هيلين تبعتها، وأنها كلّمتها عن حبِّ أخيها لها وهي تضحك، وأنها

التقت مرة أخرى في الصالون الصغير بآناتول، وكانت هيلين قد انصرفت، فإذا هما وحدهما في الصالون، وإذ بآناتول يمسك يدها ويقول لها بصوت تملأه عاطفة رقيقة حنون:

– أنا لا أستطيع أن أجيء إليك، ولكن هل يمكن ألا أراك بعد الآن أبدًا؟ إنني أحبّك حبّ جنون. هل يمكن حقًّا ألا أراك، أبدًا؟..

وسدَّ عليها الطريق، وقرَّب وجهه من وجهها. فكانت عيناه النجلاوان والساطعتان تبلغان من القرب منها أنها أصبحت لا ترى منه إلّا هاتين العينين، عيني الرجل. وتمتم صوته يقول:

– ناتاليا!

وأحسّت بأن أحدًا يشدّ على يديها شدًّا قويًّا يبعث على الصراخ.

وعاد صوت يناديها:

– ناتاليا!

فكانت نظرتها تجيب: «لا أفهم شيئًا. ليس عندي ما أقوله».

وأطبقت شفتان ملتهبتان على شفتيها، لكنها لم تلبث أن أحسّت بالتخلص منهما، لقد سمع وقع خطى هيلين وحفيف ثوبها في الغرفة، فالتفتت ناتاشا إلى هيلين، ثم ارتدّت ببصرها إليه مرتاعة العينين، محمرّة الوجه، مرتعدة، واتجهت إلى الباب.

قال آناتول:

– كلمة، كلمة واحدة، ناشدتك الله.

فوقفت. كانت في حاجة قوية إلى أن تسمع منه تلك الكلمة التي تفسّر ما حدث، والتي يمكن أن تجيب عنها. وراح آناتول يكرّر قوله:

– ناتاليا، كلمة، كلمة واحدة.

كان واضحًا أنه لا يعرف ماذا يريد أن يقول، فظل يردّد تلك الكلمات إلى أن أدركتهما هيلين.

ورجعت هيلين مع ناتاشا إلى الصالون، وانصرف آل روستوف قبل العشاء.

قضت ناتاشا ليلتها مسهَدة لا تنام. كان سؤال مستعصٍ على الحل يقضّ

مضجعها، من الذي تحبّه، آناتول أم الأمير أندريه؟ إنها تحبّ الأمير أندريه، وتعرف أنه يحبّها كثيرًا. ولكنها تحب آناتول أيضًا، ذلك أمر لا يخالجها فيه ريب. «وإلا فهل كان يمكن أن يحدث ما حدث؟ وإذا استطعت بعد أن حدث ما حدث، أن أرد على ابتسامة بابتسامة حين ودّعته، فذلك دليل على أنه طيب نبيل رائع فيستحيل ألا أحبّه. فماذا يجب أن افعل ما دمت أحبّه وأحبّ في الوقت نفسه رجلًا آخر؟». بذلك كانت ناتاشا تحدّث نفسها، وكذلك كانت تتساءل فلا تجد لهذه الأسئلة المعذّبة أجوبة.

الفصل الرابع عشر

جاء الصباح وجاءت معه مشاغله وحركته، صحا الجميع من نومهم، وأخذوا يسمعون ويتكلمون، ووصلت الخيّاطات من جديد، وظهرت ماريا ديمتريفنا، وجلس أهل الدار إلى مائدة الإفطار. فكانت ناتاشا محملقة العينين كأنها تبحث عن كل نظرة مستطلعة يرميها بها أحدهم، وكانت تنظر إلى الجميع قلقة الهيئة، وتحاول أن تظهر بمظهرها العادي المألوف.

وجلست ماريا ديمتريفنا على أريكتها بعد الأفطار (وتلك أحسن لحظاتها)، فنادت إليها ناتاشا والكونت الشيخ. وبدأت تتكلّم فقالت:

– فكرت في المسألة. كلها يا أصدقائي، فإليكم نصيحتي. تعلمون أنني ذهبت أمس إلى الأمير نيقولا. وقد كلمته في الأمر، فارتأى أن يصرخ... ولكن لست أنا من يمكن إخراسه. فأعلنت له رأيي صراحة.

قال الكونت يسألها:

– ماذا قال؟

فقالت ماريا ديمتريفنا:

– هو؟ هذا رجل طاغية مستبد. إنه لا يريد أن يسمع شيئًا، ولكن علام الحديث عما قاله. لقد عذّبا البنية المسكينة حتى الآن تعذيبًا كافيًا. نصيحتي أن تنهوا أعمالكم بسرعة، وأن تعودوا إلى أوترادنويا... فتنتظروا هناك.

صاحت ناتاشا تقول:

– لا.

فردّت عليها ماريا ديمتريفنا قائلة:

– بلى! يجب أن ترجعوا وتنتظروا هناك. إذا وصل الخطيب إلى هنا الآن، فلن تجري الأمور بغير مشاجرة. أما إذا خلا إلى أبيه، فسوف يعرف

كيف يناقشه وكيف يسوّي المسألة، فيمضي بعد ذلك إلى أوترادنويا يلحق بكم.

قال الشيخ الكونت:

- هذا هو الصواب عينه. وإنّي ليؤسفني أنني ذهبت إليه، واصطحبت ابنتي.

فأجابت ماريا ديمتريفنا وهي تبحث في حقيبة يدها عن شيء:

- لا، لِمَ الأسف؟ لم يكن في وسعك أن تصل إلى موسكو ثم لا تقوم بهذا الواجب. فإذا هو رفض، فذلك شأنه. وما دام الجهاز قد تمَّ فلا فائدة من البقاء مدة أطول. وما لم يتمَّ منه فسوف أرسله إليكم. يؤسفني أن تسافروا، ولكن السفر يا أصدقائي أفضل. أتمنّى لكم سفرًا موفقًا.

حتى إذا عثرت ماريا ديمتريفنا على ما كانت تبحث عنه في حقيبة يدها، سلمته إلى ناتاشا، وهو رسالة من الأميرة ماريا، وقالت:

- هذه رسالة منها. ما أشد ما تعانيه المسكينة من عذاب! هي تخشى أن تظنّي أنّها لا تحبّك.

فقالت ناتاشا:

- حتمًا هي لا تحبّني!

فصاحت ماريا ديمتريفنا:

- لا تقولي كلامًا سخيفًا.

أجابت ناتاشا بجرأة وهي تتناول الرسالة:

- لا أحد يستطيع أن يقنعني بنقيض ذلك.

وحين نطقت ناتاشا بهذه الكلمات كان وجهها يُعبِّر عن عناد يبلغ من الشدّة والخبث أن ماريا ديمتريفنا قلبت حاجبيها وأخذت تتفرّس فيها بمزيد من الانتباه، ثم قالت لها:

- لا تخاطبيني بهذه اللهجة يا صغيرتي. إن ما أقوله حق. هيًّا اكتبي لها جوابًا على رسالتها.

لم تردّ ناتاشا، ومضت إلى غرفتها تقرأ رسالة الأميرة ماريا.

تقول لها الأميرة ماريا في رسالتها، إنها آسفة أشد الأسف لسوء التفاهم الذي حدث بينهما، وإنها - أيًّا كانت عواطف أبيها - ترجو ناتاشا أن تصدق

أنها لا تستطيع إلّا أن تحبّ تلك التي اختارها أخوها، هذا الأخ الذي لا تردّد أن تضحّي في سبيل سعادته بكل شيء.

وقد جاء في رسالة الأميرة ماريا أيضًا قولها: «ولا تظني على كل حال أن أبي يضمر لك عواطف سيئة. إنه شيخ مريض يجب أن يُعذر. ولكنه طيّب القلب سمح النفس، ولسوف يحب تلك التي ستهيئ لابنه السعادة».

وبعد ذلك تطلب منها الأميرة ماريا أن تحدّد لها اليوم الذي تستطيع أن تراها فيه مرة أخرى.

فلما فرغت ناتاشا من قراءة الرسالة، جلست إلى طاولتها لتجيب، فكتبت بسرعة على نحو آلي: «الأميرة العزيزة»، ثم توقّفت عن الكتابة. ما الذي يمكنها أن تقوله بعد كل ما حدث في ليلة البارحة؟ كذلك سألت نفسها، ثم أجابت عن سؤالها وهي جالسة إلى طاولتها قائلة: «نعم، نعم، حدث هذا كله، والأمور تجري الآن مجرى آخر. يجب أن أعفيه من وعده. هل يجب أن أعفيه من وعده حقًّا؟ شيء رهيب!..». ومن أجل أن تتخلّص من هذه الخواطر الفظيعة، ذهبت إلى صونيا، وأخذت الفتاتان تتأملان وتنظران معًا في رسومات للتطريز.

وبعد العشاء، انسلّت ناتاشا إلى غرفتها وعادت إلى رسالة الأميرة ماريا. وتساءلت مع نفسها: «هل يمكن أن يكون كل شيء قد انتهى؟ هل يمكن أن يكون ذلك كلّه قد حدث بمثل هذه السرعة فهدم الماضي كله؟». وراحت تستعرض في خيالها حبّها للأمير أندريه بكل قوّته الأولى، فتحسّ في الوقت نفسه بأنها تحبّ آناتول كوراجين أيضًا. تصورت نفسها زوجة للأمير أندريه، وتأمّلت الصورة التي طالما تأمّلتها في خيالها عن سعادته بها وسعادتها معه؛ واستعرضت في الوقت نفسه جميع تفاصيل ليلة البارحة مع آناتول وهي تشتعل اهتياجًا. فكانت تتساءل في بعض الأحيان وقد أظلم فكرها إظلامًا تامًّا: «إذًا لا يمكن أن أحبّهما كليهما في آن واحد؟ لن أكون سعيدة سعادة كاملة إلّا إذا أمكن ذلك. أما الآن فيجب عليَّ أن أختار أحدهما. هناك أمر محقّ لا شك فيه، هو أنني يستحيل عليَّ أن أذكر للأمير أندريه ما حدث، ويستحيل عليَّ أيضًا أن أخفيه عنه. أما «الآخر»، فلا شيء من أمري معه فسد. ولكن هل يُعقل أن يكون عليّ أن أتنازل إلى الأبد عن

السعادة التي طالما عشت على تخيّلها، وهي أن يحبّني الأمير أندريه؟».

وإنها لكذلك إذا بخادمة تدخل الغرفة وتقول لها همسًا وقد بدت في وجهها معاني السر:

- يا آنسة، كلفني رجل بأن أسلمك هذا.

ومدت إليها رسالة وهي تضيف قولها:

- ولكن، ناشدتك الله...

غير أن ناتاشا كانت قد فضّت الظرف بحركة آلية من دون تفكير، وأخذت تقرأ رسالة الحبّ التي أرسلها إليها آناتول، والتي لم تفهم منها كلمة واحدة. كل ما فهمته هو أن هذه الرسالة آتية منه، من الرجل الذي تحبّه، «نعم، الرجل الذي تحبّه. وإلا فكيف كان يمكن أن يحدث كل ما حدث، وهل كان يمكن أن تصلها هذه الرسالة؟».

كانت يدا ناتاشا ترتعشان وهما ممسكتان برسالة الحب المشبوب هذه التي دبّجها دولوخوف لآناتول، وكانت ناتاشا وهي تقرأ الرسالة ترى فيها صدًى لكل ما تعتقد بأنها تحسّه هي نفسها.

كان مطلع الرسالة هو ما يلي: «تقرر مصيري في مساء الأمس، فإما أن أعرف أنك تحبينني وإما أن أموت. ليس لي مخرج آخر». ثم هو يقول في الرسالة إنه يعلم أن أهلها قد لا يوافقون على أن يتزوّجها، وذاك لأسباب خفية لا يستطيع أن يكشف عنها إلّا لها وحدها، ولكن إذا كانت تحبّه، فيكفي أن توافق حتى لا تبقى في العالم قوة يمكن أن تحول دون سعادتهما، لأن الحب سينتصر على كل شيء. فإذا وافقت خطفها ومضى بها إلى أقصى الأرض».

كانت ناتاشا تقول لنفسها وهي تعيد قراءة الرسالة للمرة العشرين، فتكتشف في كل كلمة معنى خاصًّا عميقًا: «نعم، نعم، أحبّه». وقد ذهبت ماريا ديمتريفنا في ذلك المساء إلى آل آخاروف وعرضت على الفتاتين أن يصحباها، ولكن ناتاشا تعلّلت بأنها تعاني من صداع فبقيت في المنزل.

الفصل الخامس عشر

عندما عادت صونيا، في ساعة متأخرة من السهرة، دخلت إلى غرفة ناتاشا، وكانت دهشتها شديدة حين وجدتها نائمة بثيابها على الأريكة. كانت رسالة آناتول المفضوضة على الطاولة بجانبها. فتناولتها وأخذت تقرأها.

كانت تقرأ وترمي بنظراتها ناتاشا النائمة تبحث في وجهها عن تفسير لما كانت تقرأه فلا تجده. كان وجهها مشرقًا، سعيدًا، ولم تلبث صونيا أن تهالكت على مقعد وأجهشت بالبكاء، وهي شاحبة مرتجفة من الخوف والانفعال، وقد أخذت تضغط صدرها بيديها لكي لا تختنق.

كانت صونيا تقول في نفسها: «كيف لم أرَ شيئًا؟ كيف يمكن للأشياء أن تمضي بعيدًا إلى هذا الحد؟ أمن الممكن أنها لم تعد تحبّ الأمير أندريه؟ وكيف سمحت بذلك لكوراجين؟ إنه لماكر وحقير. كيف سيكون وقع ذلك على نيقولا اللطيف، نيقولا النبيل، عندما يعلم به؟ هذا إذًا هو معنى ذلك الوجه المنفعل، المصمّم، غير الطبيعي الذي بدت به أول البارحة والبارحة واليوم؛ لكن ليس من الممكن أن تحبّه! لا شك أنها فضت الرسالة من دونَ أن تعلم من أين تأتي. ولا بد أنها أحسّت بالإهانة من جَرّائها. إنها غير قادرة على فعل ذلك!».

مسحت صونيا دموعها ودنت من ناتاشا التي راحت تتفحّص وجهها مرة أخرى وقالت بصوت لا يكاد يُسمع: ناتاشا!

استيقظت ناتاشا وشاهدت صونيا:

- آه! عدتِ؟

وطوّقت صديقتها بالعفوية والحنان اللذين يشعر بهما المرء أحيانًا في لحظة الاستيقاظ. لكن لدى رؤية وجهها المضطرب انتشر الاضطراب والشك على وجهها هي أيضًا. قالت:

- صونيا، هل قرأت الرسالة؟

همست صونيا:

- نعم.

فابتسمت ناتاشا ابتسامة نشوى وقالت:

- آه! يا صونيا، أعياني الأمر! ولست أستطيع أن أخفيه عنك أطول من ذلك! تعلمين، نحن متحابّان!... وهو يكتب إليَّ يا صونيا، يا عزيزتي.. صونيا..

راحت صونيا تحدّق في ناتاشا وكأنها لا تصدّق أذنيها وقالت:

- وبولكونسكي؟

قالت ناتاشا:

- آه! يا صونيا، آه، ليتك تعلمين مدى سعادتي! أنتِ لا تعلمين ما الحبّ...

- لكن، أمن الممكن يا ناتاشا، أن يكون كل شيء قد انتهى بينك وبين «الآخر».

حدَّقت ناتاشا فيها وكأنها لم تكن تفهم سؤالها.

قالت صونيا:

- وإذًا فسوف تفسخين خطبتك مع الأمير أندريه؟

قالت ناتاشا بغيظ مفاجئ:

- آه! أنت لا تفهمين شيئًا، لا تتفوّهي بحماقات، توقّفي واصغي إليَّ.

فردّدت صونيا:

- كلا، لا أستطيع أن أصدّق ذلك. لا أفهم. تحبّين رجلًا، سنة كاملة، وفجأة... ولم تريْه إلّا ثلاث مرات. إني لا أصدّقك يا ناتاشا، أنت تمزحين. تنسين كل شيء في ثلاثة أيام و...

قالت ناتاشا:

- ثلاثة أيام! يبدو لي أنني أحبّه منذ قرن. يبدو لي أنني لم أحبّ أحدًا قبله. أنت لا تستطيعين أن تفهمي ذلك يا صونيا، انتظري، اجلسي.

وأخذتها ناتاشا بين ذراعيها وعانقتها، وتابعت كلامها:

- لقد قيل لي إن ذلك يقع، ولا بد أنك سمعت أنت عن ذلك، لكنني لم أعلم إلّا الآن ما ذلك الحب. ليس الأمر كالسابق. فما إن رأيته حتى أحسست بأنه سيدي وأنني أمَته، وأنني لا استطيع ألّا أحبّه. نعم، أمَته! وسأفعل ما يأمرني به. أنت لا تفهمين ذلك. ما حيلتي؟ ما حيلتي، يا صونيا؟

كان وجه ناتاشا سعيدًا ومرتعبًا.

قالت صونيا بذعر واشمئزاز وجدت مشقّة في إخفائهما:

- لكنْ فكّري في ما تفعلين، وأنا لا أستطيع أن أدع الأمر هكذا. هذه الرسائل المرسلة سرًّا... كيف أجزتِ له ذلك؟

أجابت ناتاشا:

- قلت لك إنني فقدت إرادتي، كيف لم تفهمي ذلك، إنني أحبه!

هتفت صونيا من خلال الدموع التي طفرت من عينيها:

- وإذًا، فأنا التي ستحول بينك وبين ما تريدين، سوف أروي كل شيء.

قالت ناتاشا:

- ماذا تقولين، بحق الله... إذا رويت ذلك فأنتِ عدوتي. تريدين تعاستي، تريدين أن يفرقوا بيننا...

عندما رأت صونيا رعب ناتاشا بكت حياء ورحمة لصديقتها، ثم سألتها:

- لكنْ، ماذا جرى بينكما؟ ماذا قال لك؟ لمَ لا يأتي إلى هنا؟

لم تجب ناتاشا عن سؤالها وتوسّلت إليها:

- بحق السماء، يا صونيا، لا تحدّثي أحدًا عن ذلك، لا تعذّبيني. تذكّري أنه لا يجوز التدخّل في هذه الأمور. لقد كشفت لك...

وسألتها صونيا:

- لكنْ لمَ كل هذه الأسرار؟ ولمَ لا يأتي إلى البيت؟ ولم لا يطلب يدك بكل بساطة؟ لقد ترك لك الأمير أندريه كامل الحرية إذا كان ينبغي للأمور أن تصل حقًّا إلى هذا الحد، لكنني لا أصدّق ذلك. هل فكرت، يا ناتاشا، في

ما يمكن أن تكونه تلك «الأسباب السرّية»؟

كانت ناتاشا تنظر إلى صونيا بعينين مندهشتين. وكان واضحًا أن هذا السؤال يُعْرض لها للمرة الأولى، فلم تعرف كيف تجيب:

- هذه الأسباب، لا أعرف ما هي. لكن يجب الاعتقاد بأن هناك أسبابًا.

تنهّدت صونيا وهزّت رأسها كمن لم يصدّق وشرعت تقول:

- لو كان هناك أسباب...

لكن ناتاشا استشفّت شكوكها فقاطعتها مروّعة وصرخت:

- صونيا، لا يجوز الشك فيه. لا ينبغي ذلك، لا ينبغي، أتفهمين؟

- أيحبّك؟

فردت ناتاشا بابتسامة الرثاء لقصور فهم صديقتها:

- تسألينني إن كان يحبّني؟ هل قرأت رسالته، هل رأيته؟

- وإذا لم يكن إنسانًا شريفًا؟

قالت ناتاشا:

- هو!... إذا لم يكن إنسانًا شريفًا؟ ليتك تعلمين؟

قالت صونيا بحزم:

- إذا كان إنسانًا شريفًا، فينبغي إما أن يُعلن عن نياته وإما أن يكفّ عن رؤيتك، وإذا لم تشائي أن تفعلي ذلك فسوف أفعله بنفسي، وسوف أكتب إليه، وسوف أخبر الوالد بكل شيء.

صاحت ناتاشا:

- لكنني لا أستطيع العيش من دونه!

- لست أفهمك، يا ناتاشا. ماذا تقولين! فكري بوالدك، وبنيقولا.

فصرخت ناتاشا بفظاظة وبصوت مليء بالعنف المكبوت:

- لست بحاجة إلى أحد، لست أحبّ أحدًا غيره. كيف تجرؤين على القول إنه غير شريف؟ ألا تعلمين أنني أحبّه؟ امضي يا صونيا، فلست أريد أن أختلف معك، امضي، امضي بحق السماء، إنك ترين كم أتألم.

انفجرت صونيا باكية وهربت.

سارت ناتاشا إلى طاولتها من دون أن تتردّد لحظة كتبت إلى الأميرة

ماريا الجواب الذي لم تستطع كتابته طوال الصباح. وقد قالت لها بإيجاز في هذه الرسالة إن جميع الخلافات انتهت، وأنها تنتهز كرم الأمير أندريه الذي أطلق لها حريتها، عند رحيله، لترجوها أن تنسى كل شيء وأن تغفر لها أخطاءها إن بدرت منها أخطاء تجاهها، لكنها لا تستطيع أن تكون زوجة أخيها. لقد بدا لها ذلك كله الآن شديد السهولة، شديد البساطة، شديد الوضوح.

في نهار الجمعة، كان آل روستوف ينوون العودة إلى الريف، وفي نهار الأربعاء، قصد الكونت مع المشتري إلى أملاكه في ضواحي موسكو.

في يوم سفر الكونت، كانت صونيا وناتاشا مدعوَّتين إلى حفل عشاء كبير عند آل كاراجين، فأخذتهما ماريا ديمتريفنا. وفي العشاء، لاقت ناتاشا آناتول مرة أخرى، ولاحظت صونيا أنها تكلّمه بحيث لا يسمعها أحد، وأنها كانت أشد اضطرابًا أثناء المأدبة كلها. وعندما عادتا بادرت ناتاشا بالإيضاحات التي كانت تنتظرها صديقتها، فقالت بصوت عذب، بذلك الصوت الذي يعمد إليه الأطفال عندما يطمعون في الثناء:

- أترين، يا صونيا، كنت ترمينه بشتى الحماقات. لقد تفاهمنا قبل حين.

- ماذا وجدت؟ ماذا قال لك، كم أنا مسرورة، يا ناتاشا، لأنك لم تزعلي علي. قولي لي كل شيء، كل الحقيقة. ماذا قال لك؟

ففكرت ناتاشا لحظة:

- آه! ليتك تعرفينه، يا صونيا، كما أعرفه! قال... سألني إلى أي حد كنت مرتبطة ببولكونسكي. وسُرّ حين علم أن فسخ الخطبة يتوقّف علي.

زفرت صونيا زفرة وقالت:

- لكنك لم تفسخي خطبتك ببولكونسكي؟

- بل الأوْلى أنني فسختها! ولعل كل شيء قد انتهى مع بولكونسكي. لمَ أنت سيئة الرأي بي إلى هذا الحد؟

- لست سيئة الرأي، لكنني لا أفهم ذلك.

- انتظري، يا صونيا، ستفهمين كل شيء. سترين ما هو. ولا تسيئي الظن لا بي ولا به.

لست أسيء الظن بأحد، أنني أحبّ جميع الناس وأرثي لهم. لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟

لم تُؤخَذْ صونيا بالصوت الرقيق الذي كانت تكلّمها به ناتاشا. وكلما ازداد تعبيرها رقة وتملّقًا ازداد وجه صونيا جِدًّا وصرامة. فقالت لناتاشا:

- طلبِت إليَّ، يا ناتاشا، ألا أكلّمك في هذا، فلم أقل لك شيئًا، وأنت بدأت. لست أثق به، يا ناتاشا. لم هذه الأسرار؟

فقاطعتْها ناتاشا:

- عدتِ إلى الفكرة نفسها، عدت!

- أخاف عليك، يا ناتاشا.

- وممَّ تخافين؟

قالت صونيا بتصميم أخافها نفسها:

- أخاف أن تُسرعي إلي هلاكك.

عاد إلى وجه ناتاشا خبثُه:

- وسأهلك. سأهلك، سأهلك بأسرع ما يمكن. هذا لا يعنيك. أنا لا أنت التي ستتألم من ذلك. دعيني، دعيني. إنني أكرهك.

تضرعت إليها صونيا مروّعة:

- ناتاشا!

- إني أكرهك، أكرهك! وأنت عدوّتي إلى الأبد!

وهربت ناتاشا.

لم تكلّم صونيا بعد ذلك وتحاشتها. وكانت تروح وتجيء في البيت، وعلى وجهها نفس أمارة الدهشة المنفعلة المذنبة، منهمكة بأشياء وبأخرى لا تلبث أن تتركها.

كانت صونيا تراقب صديقتها عن كثب وإنْ شقّ ذلك عليها كثيرًا.

في عشية اليوم الذي كان سيعود فيه الكونت، لاحظت صونيا أن ناتاشا ظلت طوال الصباح، جالسة إلى نافذة الصالون كأنها تنتظر شيئًا ما، وأنها أشارت إلى عسكري كان يمر اعتقدت صونيا بأنه آناتول.

ضاعفت من يقظتها ولاحظت أن ناتاشا كانت، طوال العشاء والسهرة،

في حالة غريبة وغير طبيعية (كانت تجيب عن الأسئلة التي تُلقى عليها بأجوبة في غير محلها، وتبدأ جملة من دون أن تتمّها، وتضحك فى كل مناسبة).

وبعد الشاي، رأت صونيا أن إحدى الوصيفات التي بدا عليها الفزع كانت تترقّب مرورها بباب ناتاشا. فتركتها تمر، وتنصّتت عند الباب وتبينت أن رسالة جديدة قد سُلّمت إليها.

وفجأة بدت الحقيقة ساطعة أمام عيني صونيا:

لقد كانت ناتاشا تُعدُّ شيئًا رهيبًا لهذا المساء. فطرقت بابها، لكن ناتاشا لم تفتح.

قالت صونيا في نفسها: «ستهربُ معه. إنها قادرة على كل شيء. كان في وجهها اليوم ما يثير أعظم الشفقة وما ينمّ على عزم وطيد. لقد بكت وهي تودع عمّي. نعم، من المؤكد أنها ستهرب معه».

وتساءلت وهي تتذكّر الآن بعض الدلائل التي تثبت بوضوح أن ناتاشا كانت تبيت نية رهيبة:

«ماذا ينبغي أن أفعل! الكونت ليس هنا. ماذا ينبغي أن أفعل؟ أأكتب لكوراجين كي أطلب منه إيضاحًا؟ لكن من يرغمه على الإجابة؟ أأكتب لبطرس كما طلب الأمير أندريه أن نفعل في حالة الشدة؟... لكن لعلها قطعت علاقتها حقا ببولكونسكي (لقد أرسلت البارحة رسالة إلى الأميرة ماريا). وعمّي الذي ليس هنا..!».

وبدا شنيعًا لصونيا أن تخبر ماريا ديمتريفنا التي كانت تثق بناتاشا ثقة عظيمة. قالت في نفسها وهي واقفة في الممرّ المعتم: مهما يكنْ من أمر فإن هذه هي اللحظة الوحيدة التي أثبت فيها أنني لا أنسى فضل هذه الأسرة وأنني أحب نيقولا. لن أتحرّك من هذا الممر ولو قضيتُ فيه ثلاث ليال من دون نوم، وسأوقفها بالقوة ولن أدع العار يثقل كاهل أسرتها؟

الفصل السادس عشر

أقام آناتول، في هذه الآونة الأخيرة، عند دولوخوف. وكانت خطة اختطاف الآنسة روستوف قد دبّرها وأعدها دولوخوف، منذ بضعة أيام، وكان من المقرر تنفيذها في المساء الذي صممت فيه صونيا، وهي تراقب عند باب ناتاشا، أن تسهر عليها. وكانت ناتاشا قد وعدت بموافاة كوراجين في الساعة العاشرة، في مدخلِ الخدم. وهناك يُركبها في عربة ويقودها إلى بلدة كامنكار على ستين فرسخًا من موسكو، حيث يزوّجهما كاهن محروم. وكانت الخيول البديلة مهيأة لتمضي بهما على طريق فرسوفيا، ومنه يذهبان إلى الخارج في عربة البريد.

كان آناتول قد حصل على جواز سفر وعلى إذن بالركوب في عربة البريد، كما حصل على عشرة آلاف روبل أعطتها له أخته وعشرة آلاف أخرى اقترضها عن طريق دولوخوف.

كان الشاهدان: كفوزتيكوف وهو كاتب محام سابق كان دولوخوف يستخدمه في شؤون القمار، وماكارين وهو ضابط من ضباط الفرسان وفتى ضعيف وطيّب يحمل لكوراجين إعجابًا لا حدَّ له، يتناولان الشاي في الغرفة الأولى.

كان دولوخوف في غرفة عمله الكبيرة المزينة من فوق إلى تحت بالسجاد العجمي وبجلود الدببة وبالأسلحة، يجلس إلى مكتبه المفتوح، وهو يحتذي جزمةِ ويرتدي سترة السفر، وأمامه عدادة ورزم من الأوراق النقدية. وكان آناتول، في بزة محلولة الأزرار، يمر من الغرفة التي ينتظر فيها الشاهدان إلى الغرفة التي في الصدر حيث كان خادمه الفرنسي يحزم مع

غيره من الخدم آخر المتاع. كان دولوخوف يحصي النقود ويسجل الأرقام. قال:

- أتعلم أنه يجب إعطاء ألفي روبل لكفوزتيكوف.

قال آناتول:

- حسنًا! أعطه إياها.

قال دولوخوف وهو يريه القائمة:

- أما «ماكارا» (هكذا كانا يسميان »ماكارين«) فهو لا يطلب شيئًا لنفسه. إنه مستعد أن يلقي بنفسه في النار من أجلك. حسنًا! ها هي ذي الحسابات قد انتهت. اتفقنا؟

قال آناتول الذي كان من الواضح أنه لا يصغي إليه والذي كان ينظر أمامه مندون أن تفارق البسمة وجهه:

- نعم، بالتأكيد.

أغلق دولوخوف مكتبه والتفت إليه بابتسامة ساخرة، وقال:

- أتعلم، كفَّ عن هذا كله، فلا يزال في الوقت متّسعٌ!

فرد آناتول:

- يا غبي لا تتفوّه بحماقات. لو كنت تعلم...

فكرر دولوخوف:

- في الحقيقة، كفّ عن مشروعك هذا. إنني أخاطبك بلغة العقل، أتظن أن ما تقوم به مزحة؟

قال آناتول متجهمًا:

- إذًا أنت تعود إلى مضايقتي؟ أغرب عن وجهي!

وترك الغرفة.

كان دولوخوف يبتسم ابتسامة الاستخفاف والتسامح أثناء خروجه. فصرخ به:

- انتظر، إنني لا أمزح، وأنا أكلّمك جدّيًا، تعال، تعال من هنا.

عاد آناتول أدراجه ونظر إلى دولوخوف جاهدًا في أن يركّز انتباهه، وهو بادي الخضوع له بالرغم منه. قال له دولوخوف:

- إصغ إلي جيدًا، وأنا أخاطبك للمرة الأخيرة. ولماذا أمزح معك؟ هل أقمت العراقيل في وجهك؟ من ذا الذي رتّب كل شيء ووجد الكاهن وحصل على جواز السفر وأمّن المال. أنا الذي فعل كل ذلك.

- هذا مؤكّد، وأنا أشكرك على ذلك. أتظن أنني لست ممتنًّا لك؟

وتنهّد آناتول وعانق دولوخوف الذي تابع كلامه:

- لقد ساعدتك، لكن من واجبي أيضًا أن أقول لك الحقيقة، إن المشروع محفوف بالمخاطر، بل إنه يدل عند التفكير فيه، على الغباء. تريد اختطافها، ممتاز! أتظن أن الأمر سيجري هكذا. سيعلم الناس أنك متزوج، وستُحال إلى القضاء.

- قال آناتول وهو يتجهّم مرة أخرى؟

- آه! حماقات كل ذلك، حماقات! وقد شرحت لك ذلك من قبل. أتذكر؟

وكرّر على دولوخوف الحجّة التي رددها على مسمعه مائة مرة، كرّرها بتلك الأمانة التي يتثبث بها أناس حصروا أنفسهم في النتيجة التي توصلوا إليها بأنفسهم. وقال:

- شرحت لك ذلك. لقد توصلت إلى النتيجة التالية: إذا كان هذا الزواج غير صحيح - قال ذلك وهو يعدّ على أصابعه - فلا تقع عليَّ مسؤولية، وإذا كان صحيحًا فلا أهمية لذلك، لن يعلم أحد بالأمر في الخارج، أليس هذا صحيحًا؟ لن أزيد على ذلك كلمة، ولا كلمة، ولا كلمة.

- في الحقيقة، كفّ عن ذلك. سوف تقيّد نفسك فقط.

قال آناتول وهو يمسك رأسه بين يديه:

- اغرب عن وجهي! هيا اتركني!

ثم ذهب إلى الغرفة المجاورة وعاد من فوره وجلس في مقعد مقابل دولوخوف متربعًا، وأخذ يده ووضعها على قلبه وقال:

- هذا لا يصدق... انظر كم يدق! آه! يا لقدمها، يا عزيزي، ويا لنظرتها! آلهة! ألا ترى ذلك؟

كان دولوخوف ينظر إليه وعلى وجهه ابتسامة، وفي عينيه الجميلتين

الوقحتين ضياء، وكأنما كان متشوقًا إلى أن يتسلّى على حسابه:

- وإذا نفد المال، ماذا تفعل حينئذ.

فكرر آناتول وهو صادق الحيرة أمام هذا الاحتمال:

- ماذا أفعل حينئذ؟ ماذا أفعل حينئذ؟ لست أدري.. كفانا حماقات!.

ثم نظر إلى ساعته وقال:

- حان الوقت!

ومضى إلى الغرفة التي في الصدر، وصرخ بالخدم:

- ما لكم! هلا انتهيتم! ما لكم تتراخون؟

رتب دولوخوف المال وأمر خادمه أن يقدم للجميع شيئًا من الطعام قبل السفر، ثم مر إلى الغرفة التي كان ينتظر فيها كفوزتيكوف وماكارين.

كان آناتول مستلقيًا على الأريكة في المكتب، ورأسه مسنَد إلى يده يبتسم وهو بادي التفكير، ويتمتم بكلمات رقيقة.

صاح به دولوخوف من الغرفة الآخرى:

- تعال كُلْ شيئًا. تناول كأسًا على الأقل!

أجاب آناتول وهو لا يكف عن الابتسام:

- لا أريد!

- تعال، إن «بالاغا» هنا.

نهض آناتول وذهب إلى غرفة الطعام. كان بالاغا مؤجِّرًا شهيرًا للعربات يعرف دولوخوف وآناتول منذ ما يقرب من ست سنوات، وطالما استعان هذان بخدماته. وعندما كان فوج آناتول في موقع «تفير»، جاء بآناتول غير مرة في المساء، فبلغ موسكو في الفجر، وعاد به في الليلة التالية. ولقد خلّص دولوخوف غير مرة من مطارديه، وطاف به غير مرة خلال المدينة مع بوهيميات وسيدات صغيرات، كما كان يقول. وغير مرة، دهس، وهو يخدمهما في موسكو، المارة أو قلب العربات. وكان سيداه، كما كان يدعوهما، يخلّصانه دائمًا من مآزقه. وقد أهلك أكثر من جواد في خدمتهما، ولقد ضرباه غير مرة، وسقياه غير مرة من الشمبانيا ومن خمرة مادير التي كان يحبّها. وكان يعلم عن كل منهما أكثر من مغامرة جديرة أن ترمي

بعامة البشر إلى سيبيريا منذ زمن طويل. وكانا، أثناء مغامراتهما، كثيرًا ما يُدخلان بالاغا ويسقيانه ويرقّصانه مع البوهيميات. ولقد مرت بيديه أكثر من ورقة من ذوات الألف روبل، وجازف بحياته، في خدمتهما، عشرين مرة وأهلك من الجياد ما لا يفي بثمنها المال الذي كانا يعطيانه إياه. لكنه كان يحبّهما، كان يحبّ تلك الطلعات المجنونة بسرعة ثمانية عشر فرسخًا في الساعة. كان يحب أن يقلب عربة، ويدهس أحد المشاة، ويمر كالإعصار في شوارع موسكو. كان يحبّ أن يسمع وراءه الصراخ الوحشي لأصواتهما المخمورة: أسرع! زد سرعتك! في حين كان من المستحيل أن يزيد في سرعته؛ كان يحب أن يلسع بضربة سوط ظهر أحد القرويين الذي ما كان يحيد عن دربه من دون ذلك، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. وكان يقول في نفسه: »هذان سيدان حقيقيان.«

وكان آناتول ودولوخوف يحبّان بالاغا أيضًا حبًّا عظيمًا لمهارته كسائق، ولأن ذوقه كان كذوقهما. كان بالاغا مع الآخرين يساوم على السعر ويطلب خمسة وعشرين روبلًا لنزهة ساعتين، وقلما كان يقود العربة بنفسه وإنما كان يعهد بها إلى أحد مساعديه. لكنه كان مع هذين السيدين يتولى الأمر بنفسه ولا يطلب شيئًا مقابل جهده، إلّا إذا علم عن طريق خادميهما أنهما يملكان مالًا، فكان يأتيهما صباحًا مرة كل شهرين أو ثلاثة، من دون أن يشرب، ويطلب إليهما، وهو يسلّم عليهما بصوت خاف، أن يخلّصاه من ورطته.

كان آناتول ودولوخوف يعطيانه دائمًا، إذا ملكا المال، ألفًا أو ألفي روبل.

كان بالاغا فتًى قويًّا، أشقر، في نحو السابعة والعشرين، ربعة، ذا وجه أحسر، وعنق غليظ أشد حمرة، وأنف أخنس، وعينين صغيرتين متلمّعتين، وعثنون صغير، وكان يرتدي فوق فروته قفطانًا أزرق من القماش الناعم المبطّن بالحرير.

رسم إشارة الصليب أمام الأيقونات وتقدم نحو دولوخوف وهو يمد إليه يده الصغيرة السوداء. وقال وهو ينحني:

– سلامًا يا فيدور إيفانوفتش.

- سلامًا، أيها الصديق، ها هو ذا.

قال آناتول الذي كان يدخل ومد له يده أيضًا:

- مرحبًا، يا صاحب السعادة.

قال آناتول وهو يضع يديه على كتفيه:

- إصغ، يا بالاغا، أتحبّني أم أنت لا تحبّني؟ قل لي. المطلوب أن تؤدي لي خدمة... بأي جيادك جئت؟

ردّ بالاغا:

- بالجياد التي أمر رسولك بها، بجيادك البرية.

- إذًا، إصغ إليَّ جيدًا، يا بالاغا! أهلك جيادك كلها، ولكن ينبغي أن تصل في ثلاث ساعات. أتسمع؟

فقال بالاغا وهو يغمز بعينه:

- إذا أهلكتها، فكيف نسير؟

صرخ آناتول فجأة وهو يحملق بعينيه:

- انتبه! سأحطم وجهك، لا تمزح!

قال الحوذي وهو يبتسم:

- لا بأس في المزاح. أرفضت لسيديَّ شيئًا؟ سنجري بأقصى سرعة..

قال آناتول:

- هيًا، اجلس.

وكذلك طلب منه دولوخوف أن يجلس، لكنه قال:

- أستطيع أن أبقى كذلك، يا فيدور إيفانوفتش.

فقال آناتول بلهجة آمرة:

- اجلس، بلا مزاح. هي اجلس واشرب.

وصب له كأسًا كبيرة من خمر المادير. فالتمعت عينا الحوذي لمرأى الخمر. وبعد أن اتمنع تأدّبًا، شرب الكأس ومسح شفتيه بمنديل من الحرير الأحمر كان داخل قلنسوته.

- إذًا متى تسافر، يا صاحب السعادة؟

نظر آناتول إلى ساعته وقال:

- في الحال. انتبه. فهمت، هل تصل في الوقت المطلوب.

فرد بالاغا:

- هذا يتوقّف على الرحيل، ولم لا نصل في الوقت المطلوب إذا جرى كل شيء على ما يرام. لقد كنت أوصلك إلى «تفير» في أربع ساعات. لا شك أنك تذكر ذلك، يا صاحب السعادة.

قال آناتول وهو يبتسم لذكرياته، مخاطبًا ماكارين الذي كان يحدق فيه بمودّة:

- أتعلم، ذات مرة، في عيد الميلاد، كنت آتيًا من «تفير». أتصدّق، يا ماكاركا، لقد تقطعت أنفاسنا لفرط السرعة. وأثناء الطريق وقعنا على قافلة، فوثبنا على عربتين. أتسمع؟

فعقب بالاغا:

- يا لتلك الخيول، أيضًا! كان معي جوادان فتيان إلى جانب حصاني الأشقر.

والتفت إلى دولوخوف:

- أتصدق، يا فيدور إيفانوفتش، لقد قطعت هذه الجياد البرية ستين فرسخًا دفعة واحدة. لم يكن ممكنًا الإمساك بالأعنة، كانت يداي مخدرتين، وكان الجو صقيعًا، تركت الأعنة وقلت: خذها، يا صاحب السعادة. وارتميت في وسط الزلاجة مثل كتلة جامدة. لم يكن المطلوب حث الجياد على الجري، إنما لم يكن ممكنًا الإمساك بالأعنة حتى النهاية.

لقد قطعت الطريق في ثلاث ساعات، تلك الجياد النشيطة. الجواد الأيسر وحده هلك.

الفصل السابع عشر

خرج آناتول وعاد بعد لحظات مرتديًا فروة مشدودة على جسده بزنار فضي، مغطّيًا رأسه بقلنسوة من فرو السمور أمالها بزهو على أذنه، وتناسبت مع وجهه الجميل. وبعد أن تطلّع إلى نفسه في المرآة انتصب أمام دولوخوف، في الوضع نفسه، وتناول كأسًا وقال:

- هيا! الوداع، يا فيديا، شكرًا لك على كل شيء، هيا يا رفاقي، يا أصدقاء... ثم أضاف وهو يلتفت إلى ماكارين والآخرين:

- الوداع.

ومع أن الجميع كانوا سيرافقون آناتول، إلّا أنه قصد إلى إعطاء وداعه طابعًا مؤثرًا واحتفاليًا. كان يتكلّم ببطء وبصوت قوي ويتمايل على إحدى ساقيه وقد نفخ صدره:

- ارفعوا جميعًا كؤوسكم، وأنت أيضًا يا بالاغا. لقد لهونا كثيرًا يا رفاقي وأصدقاء شبابي. فمتى سنلتقي؟ سأذهب إلى الخارج. لقد عشنا حياة جميلة. الوداع يا أحبائي! على صحتكم! هورا!...

وأفرغ كأسه وحطّمه على الأرض.

قال بالاغا الذي أفرغ أيضًا كأسه ومسح فمه بمنديله؟

- على صحتك!

وضم ماكارين آناتول بين ذراعيه قائلًا:

- آه! أيها الأمير، ما أشد حزني لفراقك!

هتف آناتول:

- إلى المسير، إلى المسير.

كان بالاغا على وشك الخروج فقال آناتول:

- لا، انتظر. يجب أن نجلس. هكذا.

وأغلق الباب وجلس الجميع. وقال آناتول وهو ينهض:

- والآن، يا أبنائي، إلى الأمام سر.

ناوله خادمه يوسف السيف وجرابه وانتقل الجميع إلى البهو.

قال دولوخوف:

- والفروة، أين هي! يا اينياتكا! اذهب واطلب من ماتريونا سيمينيوفنا معطفًا من فرو السمور.

وأضاف وهو يغمز بعينيه:

- إنني أعرف كيف تتم عمليات الاختطاف. ستندفع هي خارج المنزل، وهي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، وليس على ظهرها شيء، وإذا ما وقع أدنى تأخر انهمرت دموعها على الفور، ونادت بابا، ماما، وتجمّت وطلبت العودة... حينئذ تتلقاها أنت في الفروة وتحملها إلى الزلاجة.

حمل الخادم فروة نسائية من فرو الثعلب.

فصرخ بصوت دوّى في أعماق الشقة:

- يا غبي، قلت لك: من فرو السمور. إيه! ماتريوشكا، معطف السمور!

وإذا ببوهيمية جميلة، نحيلة وشاحبة، لها عينان سوداوان برّاقتان، وخصلات سوداء ملتمعة التماعات زرقاء، مرتدية شالًا أحمر، تهرع وعلى ذراعها معطف السمور. وقالت وقد بدا عليها أنها تخاف سيدها ومعلمها وتأسف على معطفها:

- خذ، لا أبالي بذلك، خذه.

تناول دولوخوف المعطف وألقاه على كتفي ماتريوشا ولفهما به، ورفع الياقة حول رأسها، ولم يترك سوى فتحة صغيرة للوجه وقال:

- هكذا، ثم هكذا. ثم هكذا، أترى؟

وقرب رأس آناتول من الفتحة التي التمعت فيها ابتسامة ماتريوشا.

قال آناتول وهو يقبّلها:

- هيا، الوداع، يا ماتريوشا، إيه! انتهت الحياة الهنيئة! تحياتي لستيوخا.

هيا، الوداع! الوداع، يا ماتريوشا، تمنّي لي حظًا سعيدًا.

قالت ماتريوشا بلهجتها البوهيمية:

- ليعطك الرب سعادة عظمى، أيها الأمير.

كانت تقف أمام درج المدخل عربتان يمسك بهما حوذيان. صعد بالاغا إلى الأولى وجمع الأعنة من دون عجلة وهو يرفع مرفقيه إلى الأعلى، وصعد معه آناتول ودولوخوف، واستقر في الثانية كفوزيتكوف والخادم.

سأل بالاغا:

- أأنتم مستعدون؟

وصاح وهو يلف الأعنة حول ذراعه.

- فلنمض!

وانحدرت العربة بأقصى سرعتها في شارع نيكيتسكي. ثم لم يسمع سوى صرخات بالاغا ومعاونه الجالس على المقعد: هوو!.. هوو!.. وفي ساحة «آربات» صدمت العربة عربة أخرى، فحدثت قرقعة، وطلعت صرخات، ثم ما لبثت العربة أن انطلقت على طول الساحة.

بعد أن قطع بالاغا شارع بودنوفنسكي باتجاهيه، عدَّل جري الخيل ورجع إلى الوراء وأوقفها في مفترق شارع «الإسطبلات القديمة».

قفز الغلام من مقعده ليمسك بعنان الخيل، ودلف آناتول ودولوخوف إلى الرصيف. وعندما اقتربا من البوابة، صفر دولوخوف. فأجابه صفير وخرجت وصيفة وهي تركض وقالت:

- ادخلا إلى الفناء وإلا رآكما الناس. ستصل في الحال.

بقي دولوخوف قرب البوابة، وتبع آناتول الوصيفة في الفناء ودار عند الزاوية وصعد درجات الممشى.

تلقاه «غافريلو» خادم ماريا ديمتريفنا العملاق وقال بصوت جهير وهو يسد عليه الطريق:

- سيدتي تطلبك.

فتمتم آناتول بصوت لاهث:.

- أيّ سيدة؟ من أنت؟

- تفضل واتبعني، فقد أمرت باصطحابك.
صرخ دولوخوف:
- كوراجين، ارجع! لقد خانونا! ارجع!
كان دولوخوف، على الباب الذي وقف عنده، يصارع البواب الذي كان يحاول إغلاق الباب خلف آناتول. وقد استجمع قواه ودحره ثم أمسك بيد آناتول الذي هُرع إليه وسحبه من الباب الصغير وانطلق الاثنان إلى عربتهما.

الفصل الثامن عشر

بعد أن فاجأت ماريا ديمتريفنا في الممشى صونيا تذرف الدمع مدرارًا، حملتْها على الاعتراف بكل شيء. وقد وضعت يدها على بطاقة ناتاشا وقرأتها ودخلت إلى غرفتها، وهي تمسكها بيدها وقالت:

- يا نذلة، يا وقحة، لا أريد أن أسمع شيئًا!

وإذ دفعت ناتاشا التي كانت تنظر إليها بعينين مندهشتين وجامدتين، أغلقت عليها الباب بالمفتاح، وبعد أن أمرت البواب أن يدع القادمين، في هذا المساء، يدخلون من دون أن يسمح لهم بالخروج، وبعد أن أمرت خادمها أن يأتيها بهؤلاء القادمين، جلست في الصالون بانتظار المختطفين.

عندما جاء «غافريلو» لينبئها بأن القادمين قد فرّوا، نهضت مقطبة الجبين وتمشت طويلًا من غرفة إلى أخرى، ويداها خلف ظهرها، وهي تفكر في ما ينبغي أن تفعله. وفي منتصف الليل، تلمّست المفتاح في جيبها وتوجهت إلى غرفة ناتاشا، وكانت صونيا لا تزال تنتحب في الممر، فقالت لها:

- دعيني أدخل إليها، يا ماريا ديمتريفنا، أتوسّل إليك.

فتحت ماريا ديمتريفنا الباب ودخلت من دون أن تجيب. وقالت في نفسها وهي تجهد في كظم غيظها: «هذا مخجل، هذا دنيء، وتحت سقفي، يا لها من بنت حقيرة! لولا أنني أشفق على أبيها! سأفرض الصمت على الجميع وسأخفي كل شيء عن الكونت، مهما يكن ذلك صعبًا». دخلت بخطى ثابتة، وكانت ناتاشا مستلقية على الأريكة، ورأسها بين يديها، جامدة لا تتحرّك، في الوضع نفسه الذي تركتها فيه ماريا ديمتريفنا. فقالت لها:

- حلوٌ جِدًّا! ظريف جِدًّا! تحت سقفي تُعطى المواعيد للعشاق! كانت تركّز نظراتها عليها، وأضافت: لا جدوى من التصنّع. اصغي إليّ عندما أخاطبك. وأمسكتها من ذراعها وتابعت: اسمعيني عندما أخاطبك. لقد تجلّلت بالعار كأردأ الفتيات. أعرف ما ينبغي أن أفعله، لكنني أشفق على أبيك. لن أقول شيئًا.

لم تغير ناتاشا وضعها، لكن جسدها كله هزّه نحيب صامت تشنّجيّ كان يخنقها. ألقت ماريا ديمتريفنا نظرة على صونيا وجلست على الأريكة بجانب ناتاشا.

قالت بصوتها الخشن:

- كان محظوظًا حين أفلت مني، لكنني سألقاه. أتفهمين ما أقول؟

مرّرتْ يدها الضخمة تحت رأس ناتاشا وأدارتها نحوها. دهشت ماريا دميتريفا وصونيا عندما رأتا وجهها. كانت عيناها ملتمعتين وجامدتين، وشفتاها مزمومتين، وخداها غائرين.

قالت:

- دعوني... ما عاد يهمني شيء... أريد أن أموت.

وانتزعت نفسها من ماريا ديمتريفنا بحركة حانقة وعادت إلى وضعها السابق.

قالت ماريا ديمتريفنا:

- ناتالي!... أريد الخير لك. ظلي مستلقية إن شئت فلن أمسّك، لكن عليكِ أن تصغي... لن أقول لك إلى أي حد أنت مذنبة. أنت تعلمين ذلك. لكن أباك يعود غدًا: فماذا أقول له؟ أتسمعين؟

اهتز جسد ناتاشا مرة أخرى بالنحيب.

- وإذا علم بذلك، أو علم أخوك أو خطيبك؟

صرخت ناتاشا:

- ليس لي خطيب، فسخت الخطبة.

استأنفت ماريا ديمتريفنا كلامها:

- لا أهمية لذلك. لنفترض أنهم علموا بذلك، أتظنين أنهم سيتركون

الأمور هكذا؟ أما أبوك فأنا أعرفه، إنه قادر على دعوته إلى المبارزة أيعجبك هذا! ماذا تقولين؟

صرخت ناتاشا وقد انتصبت على أريكتها وراحت تنظر إلى ماريا ديمتريفنا بخبث:

- دعيني، لماذا حلت بيني وبين ما أريد، لماذا، لماذا؟ من طلب إليك ذلك؟

فصرخت ماريا ديمتريفنا وقد ثارت من جديد:

- لكن ما الذي كنت تبغينه؟ هل كنا نحبسك؟ من كان يمنعه من المجيء إلى البيت؟ لمَ يختطفك كما تُختطف البوهيمية؟ ولو قد اختطفك أما كانوا سيعثرون عليه؟ أبوك أو أخوك أو خطيبك؟ أما هو فإنه حقير ووغد، كذلك هو.

صرخت ناتاشا، وهي تنهض:

- إنه أفضل منكم جميعًا. لو لم تمنعيني... آه! يا الهي، لماذا، لماذا! صونيا، لماذا فعلت ذلك؟ انصرفا!...

انفجرت منتحبة وقد استبد بها ذلك اليأس الذي لا يعرفه إلّا الذين يحسّون بأنهم سبب شقاء أنفسهم. أرادت ماريا ديمتريفنا أن تتابع كلامها لكن ناتاشا صرخت:

- انصرفا، انصرفا، أنتم تكرهونني جميعًا، أنتم تحتقرونني جميعًا!

وارتمت على الأريكة من جديد.

ظلت ماريا ديمتريفنا بعض الوقت تنصحها وتفهمها أنه يجب إخفاء كل ذلك عن الكونت، وأن أحدًا لن يعرف شيئًا إذا ما خطر لناتاشا أن تتعهّد بنسيان كل شيء وبألا يندّ عنها شيء أمام الآخرين. لم تجب ناتاشا. وانقطعت عن النحيب لكن قشعريرة محمومة سرت في جسدها. فدسّت لها ماريا ديمتريفنا وسادة تحت رأسها، وغطتها بغطاءين، وجاءتها هي بنفسها بنقيع الزيزفون المغلي. لكن ناتاشا لم تبدِ حراكًا. قالت ماريا ديمتريفنا، وهي تخرج، وقد ظنتها نائمة:

- حسنًا، فلتنم.

لكن ناتاشا لم تكن نائمة، وإنما كانت تنظر أمامها شاحبة الوجه، شاخصة العينين. لم تنم في تلك الليلة ولم تبك ولم تخاطب صونيا التي نهضت عدة مرات لتقترب منها.

في اليوم التالي، في وقت الغداء، عاد الكونت إيليا آندريتش من أملاكه في الضواحي. كان فرحًا، ذلك أن الصفقة نجحت ولم يعد هناك ما يستبقيه في موسكو بعيدًا عن الكونتيسة التي اشتاق إليها. أنبأته ماريا ديمتريفنا رأسًا أن ناتاشا كانت مريضة جِدًّا في الليلة الماضية، وأنها استدعت الطبيب، وأنها قد تحسّنت الآن. أما ناتاشا فلم تغادر هذا الصباح حجرتها. كانت جالسة قرب النافذة تزم شفتيها المشقّقتين، وعيناها شاخصتان جامدتان، تتفحّص بقلق المارة في الشارع، وتستدير على عجل إذا دخل أحد إلى حجرتها، كان من الواضح أنها تنتظر أخباره، تنتظر أن يأتي هو نفسه أو يكتب إليها.

عندما دخل الكونت إلى حجرتها أدارت رأسها بلهفة لسماعها خطى رجل، لكن وجهها ما لبث أن استرد تعبيره البارد الخبيث. حتى إنها لم تنهض لملاقاته. سألها الكونت:

- ما بك، يا ملاكي، أأنت مريضة؟

لزمت ناتاشا الصمت للحظات. وأخيرًا أجابت:

- نعم.

وردًا على الأسئلة القلقة التي ألقاها الكونت ليعلم لم كانت منهكة إلى هذا الحد، وإذا لم يكن قد حدث حادث لخطيبها، أكدت له أن شيئًا من ذلك لم يكن، ورجته ألا يزعج نفسه. وأيدت ماريا ديمتريفنا له مزاعم ناتاشا. لكن مرض ابنته المزعوم، واضطرابها وأمارات الارتباك على صونيا وماريا ديمتريفنا، كل ذلك أظهر للكونت أن شيئًا ما قد حدث في غيابه؛ على أنه كان يرتعد كثيرًا لمجرد التفكير بأن شيئًا شائنًا قد وقع لابنته، وكان شديد الحرص على هدوئها الفرح حتى إنه تحاشى أن يلقي عليها أسئلة، وجهد في إقناع نفسه أنه لم يحدث شيء غير عادي، وأسف لكون مرض ابنته قد أخر عودته إلى الريف.

الفصل التاسع عشر

كان بطرس يعتزم، منذ وصول امرأته إلى موسكو، أن يذهب إلى أي مكان شريطة ألا يكون معها. وبعد وصول آل روستوف بقليل، دفعه الأثر الذي تركته فيه ناتاشا إلى تعجيل سفره فقصد «تفير» إلى منزل أرملة أوسيب أليكسيفيتش التي وعدت منذ زمن طويل أن تعهد إليه بأوراق الفقيد.

عندما عاد إلى موسكو تسلّم رسالة من ماريا ديمتريفنا ترجوه فيها أن يمر بمنزلها لأمر عظيم الأهمية يتعلّق بأندريه بولكونسكي وخطيبته. كان بطرس يتحاشى ناتاشا. وكان يبدو له أن شعوره إزاءها أشد مما ينبغي أن يحمله رجل متزوج لخطيبة صديقه. لكن كأنما كان القدر يحتال لأن يجمع بينهما.

كان يتساءل وهو يرتدي ثيابه ليذهب إلى منزل ماريا ديمتريفنا: «ماذا حدث؟ ما الذي يبغونه مني؟». وكان يفكر في نفسه أثناء الطريق: «ليعد الأمير أندريه بسرعة وليتزوّجها!».

دعاه أحدهم في شارع تفيرسكوي، وصرخ به صوت معروف:

- بطرس! هل عدت منذ زمن طويل؟

رفع بطرس رأسه، فرأى في زلاجة مقرونة بجوادين خبّابين أشهبين يثيران ركامًا من الثلج، آناتول يمر كالبرق بصحبة رفيقه الذي لا يفارقه: «ماكارين». كان يجلس جلسة معتدلة، في الوضع التقليدي للعسكريين المتأنقين، وقد غرق أدنى وجهه في ياقة من الكستور ومال رأسه قليلًا. كان وجهه نضرًا، متوردًا، وكانت قبعته ذات الريشة البيضاء موضوعة على جانب رأسه، كاشفة عن شعره الأجعد، المدهون، الذي انتشر عليه الثلج الناعم.

قال بطرس في نفسه: «من المؤكّد إن هذا حكيم حقًّا! انه لا يرى شيئًا وراء شهوة اللحظة الحاضرة، ولا شيء يثير قلقه، ولذلك فهو فرح أبدًا، مسرور ومرتاح. وفكر بشيء من الحسد: «لكم أدفع كي أكون مثله!».

في رواق السيدة أكروسيموف، أخبره الخادم الذي كان يساعده على نزع فروته أن ماريا ديمتريفنا. ترجوه أن يمر بغرفة نومها.

عندما فتح بطرس باب الصالون الكبير، شاهد ناتاشا جالسة إلى النافذة، ووجهها ناحل، شاحب، متجهّم. التفتت إليه وقطّبت حاجبيها وتركت الغرفة، وعلى وجهها أمارات الوقار البارد.

سأل بطرس وهو يدخل إلى غرفة ماريا ديمتريفنا:

- ماذا جرى؟

أجابت بصوتٍ مرتجف:

- جرى ما يخزي. فمنذ ثمانية وخمسين عامًا، منذ أن رأيت النور، لم أشهد عارًا مماثلًا.

وبعد أن استحلفت بطرس بكتمان كل ما ستخبره به، أنبأته بأن ناتاشا فسخت خطبتها بخطيبها من دون علم أهلها، وأن سبب هذا الفسخ هو آناتول كوراجين الذى ساعدته زوجة بطرس في مشاريعه والذي كانت ناتاشا تنوي الهرب معه، أثناء غياب أبيها، لتتزوّجه سرًّا.

كان بطرس يصغي إلى ماريا ديمتريفنا، ورأسه يغرق في كتفيه، وفمه فاغر، وهو لا يصدق أذنيه. الخطيبة التي شغف بها الأمير أندريه، ناتاشا روستوف، تلك الفاتنة، تفضّل على بولكونسكى هذا الغبي آناتول الذي كان متزوجًا (كان بطرس على علم بزواجه السري) وتغرم به إلى الحدّ الذي تقبل فيه الهرب معه! ذلك ما لم يستطع بطرس فهمه، ولم يستطع تصوره.

إن الذكرى الساحرة لناتاشا التي كان يعرفها منذ طفولتها ما كانت لتتوافق في ذهنه مع هذه الفكرة الجديدة عن دناءتها وغبائها وفظاظتها. وخطرت بباله امرأته، فقال في نفسه وهو يفكر في أنه ليس الوحيد الذي أوتي ذلك الامتياز البائس، بأن يرتبط بامرأة سيئة: «كلّهنّ سواء». ومع ذلك، فقد كان يرثي للأمير أندريه حتى تجري دموعه، وكان يتألم من أجل كبريائه.

وكلما ازداد إشفاقه على صديقه ازداد الازدراء والاشمئزاز اللذان كان يفكر بهما في ناتاشا هذه التي مرّت قبل حين أمامه في الصالون الكبير وعلى وجهها أمارات الوقار البارد.. لم يكن يعلم أن نفس ناتاشا كانت تفيض أسًى وخجلًا ومذلّة، وإنه لا ذنب لها أن نم وجهها، بالرغم منها، على هذا الوقار الهادئ القاسي.

قال بطرس ردًّا على كلمات ماريا ديمتريفنا:

- لكن كيف يتزوجها؟ لم يكن بمقدوره أن يتزوجها. فهو متزوج.

قالت ماريا ديمتريفنا:

- أحسن فأحسن! النذل المكتمل النذالة! الحقير! وهذه التي تنتظره هنا، ها قد مضى يومان وهي تنتظره. فلتكف على الأقل عن انتظاره. يجب أن تنصحها بذلك.

بعد أن أطلّعت ماريا ديمتريفنا على تفاصيل زواج آناتول وأطلقت غضبها في شتائم، وشرحت لبطرس الأسباب التي من أجلها استدعته. كانت تخشى أن يعمد الكونت أو بولكونسكي الذي قد يصل بين لحظة وأخرى، إلى تحدي كوراجين ودعوته إلى المبارزة إذا علما بالمغامرة التي تنوي إخفاءها عنهما، ورجت بطرس أن يفرض باسمه على كوراجين مغادرة موسكو وعدم الظهور أمامها. فوعدها بطرس بذلك وقد أدرك آنذاك فقط الخطر الذي كان يتهدّد الكونت الشيخ ونيقولا والأمير أندريه. وبعد أن شرحت له بإيجاز ودقة ما الذي كانت تنتظره منه أرسلته إلى الصالون. وقالت له:

- انتبه جيدًا فالكونت يجهل كل شيء. تصرّف وكأنك لا تعرف شيئًا. أما أنا فسأذهب لأقول لها إنه لم يبقَ لها ما تنتظره.

وصرخت به وهو يخرج:

- وابقَ للعشاء إذا شئت.

التقى بطرس بالكونت الشيخ، كان حائرًا، مغمومًا. لقد أنبأته ناتاشا في الصباح أنها فسخت خطبتها ببولكونسكي.

قال لبطرس:

- إنها لمصيبة، مصيبة، مصيبة حقيقية، هؤلاء البنات عندما يكنّ من دون أمهاتهن، لكم آسف لمجيئي. سأكون صريحًا معك.

سمعت بما جرى، لقد فسخت خطبتها بخطيبها؟ من دون أن تطلب شيئًا إلى أحد. الحقيقة أنني لم أبتهج قط بهذا الزواج. لا شك أنه فتى ممتاز، لكنهما ما كانا ليجدا السعادة إذا خالفا إرادة أبيه، ولن يعوز ناتاشا الطالبون. ومع ذلك فإن هذا الأمر قديم، ثم كيف تتّخذ مثل هذا القرار من دون أن تقول شيئًا لأبيها أو أمها! وهي الآن مريضة، الله يعلم ما بها؟ انها لبلية، أيها الكونت، بلية حقيقية، البنات من دون أمهاتهن... حاول بطرس، وقد رأى الكونت ثائرًا، أن يغيّر الحديث، لكن الكونت كان يعود دائمًا إلى ما يشغل باله.

دخلت صونيا، بادية القلق، إلى الصالون:

- ناتاشا متوعّكة قليلًا، هي في غرفتها وتريد أن تراك. وعندها ماريا ديمتريفنا وهي أيضًا ترجوك أن تأتي.

قال الكونت:

- صحيح، أنت تربطك علاقة جيدة ببولكونسكي، لا شك أنها تريد إبلاغه شيئًا ما. آه! يا إلهي! لكم كان كل شيء حسنًا!

وخرج الكونت وهو يشد على شعراته الرمادية النادرة.

كانت ماريا ديمتريفنا قد أخبرت ناتاشا أن آناتول متزوج. لم تشأ ناتاشا أن تصدّق وطلبت أن يؤيد لها بطرس النبأ. قالت صونيا ذلك لبطرس وهي تقوده خلال الممر إلى غرفة ناتاشا.

كانت ناتاشا جالسة إلى جانب ماريا ديمتريفنا، وهي شاحبة عابسة، ومنذ عتبة الباب، استقبلت بطرس بنظرة مستفهمة تبرق ببريق محموم. لم تبتسم له، ولم تحيّه برأسها، بل اكتفت بالتحديق فيه. كانت نظرتها لا تسأله إلّا عن شيء واحد، أهو صديق أم عدو كالآخرين في ما يخص آناتول؟ وبدا جليًا أن بطرس بذاته لم يكن موجودًا بالنسبة إليها.

قالت لها ماريا ديمتريفنا وهي تشير إليه:

- إنه يعرف كل شيء. دعيه يؤيد لك الحقيقة التي كنت قد قلتها لك.

كانت ناتاشا تنقّل عينيها بينهما كالحيوان الجريح المحاصر الذي يرى الصيادين وكلابهم يحيطون به.

بدأ بطرس كلامه وقد غضّ بصره، شاعرًا بالشفقة عليها وبالاشمئزاز من العملية التي سيقوم بها:

- يا ناتالي إيلينيشنا، سيان عندك إن كان ذلك صحيحًا أم لا...

- إذًا، ليس صحيحًا إنه متزوج؟

- بلى، إنه متزوج.

وسألت:

- أكان متزوجًا، ومنذ زمن بعيد؟ أتقسم بشرفك؟

فأقسم لها بطرس بشرفه.

سألته بحدّة:

- ألا يزال هنا؟

- نعم لقد رأيته قبل حين.

كان واضحًا أنها لا تقوى على أن تقول شيئًا فوق ذلك، فأومأت إليهما أن يتركاها وحدها.

الفصل العشرون

لم يبق بطرس للعشاء، بل ترك في الحال غرفة ناتاشا وانسحب. ذهب للبحث عن آناتول كوراجين الذي غدا التفكير فيه يدفع بدمه كلّه إلى قلبه ويقطع عليه تنفّسه. لم يجده لا في الجبال ولا لدى البوهيميين ولا لدى كومونينو. وذهب بطرس إلى النادي. هناك، كان كل شيء يسير سيره المعتاد، كان الأعضاء الذين جاؤوا للعشاء جالسين جماعات، وقد حيّوا بطرس وهم يتحدّثون عن أخبار اليوم. أقبل عليه خادم يعرف علاقاته وعاداته فأنبأه وهو ينحني أن مكانه محجوز في صالة الطعام الصغيرة، وأن الأمير ميشيل زاخاريتش في المكتبة، وأن بول تيموفيتش لم يصل بعد. وسأله أحد أصدقائه، وهو يتحدث عن أشياء مختلفة، إن كان قد علم باختطاف الآنسة روستوف على يد كوراجين، وهو اختطاف بات الناس يتحدّثون عنه في المدينة، وإن كان ذلك صحيحًا؟ فأجاب بطرس، وهو يضحك، بأن ذلك محال لأنه خرج للتو من منزل آل روستوف. واستفسر عن آناتول من الجميع، قال له أحدهم: إنه لم يصل بعد، وقال آخر إنه قد يأتي للعشاء. كان بطرس ينظر باستغراب إلى هذه الطائفة من الناس الهادئين اللامبالين الذين لا يخطر ببالهم ما يعتمل في نفسه. تجوّل في الصالونات، وانتظر وصول الناس جميعًا، وعندما رأى أن آناتول لم يحضر لم يبق للعشاء وعاد إلى بيته.

كان آناتول الذي بحث عنه بطرس يتعشّى هذا اليوم عند دولوخوف ويستشيره في الوسائل الكفيلة بإصلاح ما فَسُد من الأمر. لقد بدا له أن يرى الآنسة روستوف ثانية. ولذلك ذهب في المساء، إلى أخته ليتفق معها على

طريقة ترتيب هذا اللقاء. أما بطرس فبعد أن جاب موسكو كلها عبثًا عاد إلى بيته، فأخبره الخادم أن الأمير آناتول فاسيليفتس عند الكونتيسة. وكان صالون الكونتيسة مليئًا بالناس.

دخل بطرس إلى الصالون، من دون أن يسلِّم على امرأته التي لم يرها منذ عودته (كانت في هذه اللحظة أكره ما تكون عليه)، فلما لمح آناتول مضى إليه.

قالت الكونتيسة وهي تدنو من زوجها:

- - آه... بطرس إنك لا تدري أيّ وضع تورّط فيه آناتولنا...

وتوقفت وهي تتعرّف في رأسه المطرق وفي عينيه الملتمعين وفي مشيته الواثقة، على إمارات الهياج والعنف الرهيبة التي عرفتها والتي عانت آثارها بعد مبارزته لدولوخوف.

قال بطرس لامرأته:

- حيثما تكوني لا يكون غير الفساد والشر.

وأضاف بالفرنسية:

- تعال، يا آناتول. عليَّ أن أكلّمك.

ألقى آناتول نظرة على أخته ونهض ممتثلًا، مستعدًا لأن يتبع بطرس. جرَّه بطرس إلى خارج الصالون، وهو يمسكه بذراعه.

قالت هيلين همسًا:

- إذا سمحت لنفسك في صالوني...

لكن بطرس خرج ولم يستمع لكلامها.

تبعه آناتول بمشيته المتعجرفة المعتادة. وكان القلق باديًا على وجهه.

عندما دخل بطرس إلى مكتبه، أغلق الباب وخاطبه من دون أن ينظر إليه.

- وعدتَ الكونتيسة روستوف بأن تتزوّجها؟ كنت تريد اختطافها؟

أجاب آناتول بالفرنسية (كل الحديث جرى بالفرنسية):

- يا عزيزي. لا أظنني مجبرًا على الإجابة عن أسئلة تطرح بهذه اللهجة.

انقلب وجه بطرس من الهياج، وكان ممتقعًا من قبل، فأمسك بيده الضخمة آناتول من ياقة بزته وهزّه في كل الجهات حتى علت وجهه إمارات الرعب. فكرّر بطرس:

- عندما أقول: إن علي أن أكلّمك...
قاد آناتول وهو يتلمّس على ياقته زرًا انتزعه بطرس مع قماش القميص:
- لكنْ مهلًا، إنه لشيء سخيف!
قال بطرس بطريقة تكاد تكون غير طبيعية لأنه كان يتكلّم بالفرنسية.
- أنت حقير وفاسق، ولست أدري ما الذي يمنعني من تحطيم رأسك بهذه.
وأمسك بثقالة ورق ضخمة ورفعها بحركة مهدِّدة، ثم ما لبث أن أعادها إلى مكانها.
- هل وعدتها بالزواج؟
- أنا، أنا، أنا لم أفكر بذلك قط، على كل حال، أنا لم أعد بشيء قط لأن...
قاطعه بطرس وكرر وهو يسير إليه:
- ألديك رسائل منها؟ ألديك رسائل؟
رماه آناتول بنظرة، وسرعان ما دسّ يده في جيبه، وأخرج منها محفظته.
تناول بطرس الرسالة التي مدّها إليه ودفع الطاولة التي كانت في طريقه، وتهالك على الأريكة.
قال ردًّا على حركة آناتول الخائفة:
- لن أكون عنيفًا، هيا لا تخف.
وتابع كأنه يلقي درسًا حفظه:
- الرسائل، أولًا..
واستأنف بعد لحظة من الصمت، وقد نهض وأخذ يذرع الغرفة:
- ثانيًا، يجب أن تغادر موسكو غدًا.
- لكن، كيف أستطيع..
أردف بطرس من دون أن يصغي إليه:
- ثالثًا، لا تنبس بكلمة عما جرى بينك وبين الكونتيسة، وأنا لا أستطيع أن أمنعك من هذا، لكن، إن كان لديك ذرة من الضمير...
ثم خطا بصمت خطوات في الغرفة. كان آناتول جالسًا إلى الطاولة مقطّب الحاجبين، يعض شفتيه. وتابع بطرس قائلًا:

- لا يمكنك ألا تفهم في النهاية أن هناك، خارج نطاق لذّتك، سعادة الآخرين وطمأنينتهم، وأنك تفسد حياة بأسرها لمجرد رغبتك في أن تتسلّى. تسلّى مع نساء من نوع امرأتي، فلك ملء الحق أن تتسلى معهنّ، إنهنّ يعرفن ما الذي تريده منهنّ، وهن مسلّحات ضدك بتجربة الفجور نفسها، أما أن تعِد فتاة بالزواج.. أن تخدعها، وأن تخطفها.. كيف لم تفهم أن هذا العمل دنيء كضربك لشيخ أو لطفل..

سكت بطرس وألقى على آناتول نظرة، هي نظرة التساؤل لا الغضب.

فقال آناتول الذي كان يسترد شجاعته كلما تغلّب بطرس على غضبه.

- لست أعلم شيئًا مما تقول.

وتابع كلامه من دون أن ينظر إليه، وقد أخذ فكه الأسفل يرتجف ارتجافًا خفيفًا.

- لست أعلم شيئًا، ولا أريد أن أعلم شيئًا، لكنك قلت لي أشياء من مثل دنيء وهلمّ جرًّا. ولا يمكنني، باعتباري رجلًا شريفًا، أن أسمح لأحد باستعمالها.

نظر إليه بطرس بدهشة وهو لا يستطيع أن يفهم قصده من وراء ذلك.

وواصل آناتول:

- ومع أن ذلك ما جرى جرى بيننا الاثنين وحدنا، إلّا أنني لا أستطيع..

فقال بطرس بلهجة ساخرة:

- وإذًا فأنت تطلب مني ترضية؟

- تستطيع على الأقل أن تسحب ما قلت. هذا إذا أردت أن أفعل ما تطلبه.

- طيّب، طيّب، إنني أسحب كلامي وأرجوك أن تعذرني.

ونظر بالرغم منه إلى الزر المنزوع وأضاف:

- وإذا كنت بحاجة إلى المال من أجل السفر...

ابتسم آناتول. لكن التعبير الجبان والحقير لهذه الابتسامة التي كان بطرس يعرفها، لأنه طالما رآها على وجه امرأته، قد أخرجه عن طوره فقال:

- أوه! يا لهذه الذرية الحقيرة التي لا قلب لها!

قال ذلك وخرج.

في اليوم التالي سافر آناتول إلى بطرسبورغ.

الفصل الحادي والعشرون

قصد بطرس إلى منزل ماريا ديمتريفنا ليخبرها أن الأمور تمت وفق رغبتها، وكوراجين غادر موسكو. كان البيت بأسره نهبًا للقلق والاضطراب. وكانت ناتاشا مريضة جِدًّا. وقد كشفت له ماريا ديمتريفنا على سبيل السر، أن ناتاشا سممت نفسها ليلًا بالزرنيخ الذي حصلت عليه خلسة، في اليوم الذي علمت فيه أن آناتول كان متزوجًا. لقد ابتلعت منه مقدارًا طفيفًا فخافت خوفًا شديدًا حتى إنها أيقظت صونيا واعترفت لها بما فعلت. فاتّخذت، في الوقت المناسب، التدابير الضرورية وهي الآن بمنجى من الخطر؛ لكنها ضعيفة إلى الحد الذي لا يمكن معه التفكير بنقلها إلى الريف ولذا فقد طُلب إلى الكونتيسة أن تحضر. رأى بطرس الكونت مضطربًا وصونيا باكية، لكنه لم يستطع أن يرى ناتاشا.

تعشّى هذا اليوم في النادي وسمع الناس يتحدّثون من كل جانب عن محاولة اختطاف الآنسة روستوف، وهي محاولة لم يتوانَ عن تكذيبها، مؤكدًا لكل واحد أن كل ما جرى هو أن شقيق زوجته طلب يدها ورُدّ خائبًا. وكان بطرس يُقدّر أن من واجبه إخفاء الأمر وإنقاذ سمعة الآنسة روستوف.

كان بطرس ينتظر بهلع عودة الأمير أندريه، ويذهب كل يوم ليسأل الأمير العجوز عن أخباره.

وقد علم الأمير نيقولا آندريتش، عن طريق الآنسة بوريين، بكل الإشاعات التي راجت في المدينة، وكان قد قرأ البطاقة المرسلة إلى الأميرة ماريا والتي تفسخ فيها ناتاشا خطبتها بخطيبها. وكان يبدو أكثر ابتهاجًا من عادته وينتظر بفارغ الصبر عودة ابنه.

بعد سفر آناتول ببضعة أيام، تلقّى بطرس كلمة من الأمير أندريه ينبئه فيها بوصوله ويرجوه أن يمر لرؤيته.

تسلّم الأمير أندريه من أبيه، منذ وصوله إلى موسكو، بطاقة ناتاشا إلى الأميرة ماريا (كانت الآنسة بوريين قد سرقت هذه البطاقة وسلمتها إلى الأمير العجوز) وسمع منه رواية مطوّلة عن محاولة اختطاف ناتاشا.

كان الأمير أندريه قد وصل في العشيّة، فجاء بطرس لرؤيته في صباح اليوم التالي. وكان يتوقّع أن يجده في حال شبيهة بحال ناتاشا، لذلك دهش حين سمع، وهو يدخل، صوت الأمير أندريه في المكتب يتحدّث بحماسة عن إحدى دسائس بطرسبورغ. وكان الأمير العجوز وشخص آخر لا يُرى يقاطعانه بين وقت وآخر. جاءت الأميرة ماريا لملاقاة بطرس وتنهّدت وهي تدلّه بنظرتها على باب الغرفة التي كان فيها الأمير أندريه. وقد قصدت من نظرتها أن تظهر مدى مشاركتها شقيقها في حزنه. لكن بطرس رأى من وجهها أنها مسرورة مما جرى، ومن الطريقة التي تلقى بها شقيقها نبأ خيانة خطيبته. واتضح له ذلك من كلامها:

- لقد قال إنه كان يتوقّع ذلك، وأنا أعلم أن كبرياءه لا يسمح له أن يبدي عواطفه. لكنه تقبّل الأمر بأفضل، بأفضل كثيرًا ما كنت أقدّر... ينبغي الاعتقاد بأن ذلك كان لا بد أن يقع..

قال بطرس:

- لكن أمن الممكن أن يكون كل شيء قد انتهى حقًّا؟

نظرت إليه الأميرة ماريا بدهشة. لم تكن تفهم كيف أنه يمكن طرح مثل هذا السؤال. ودخل بطرس إلى المكتب فرأى الأمير أندريه بثياب مدنية، وقد تغير كثيرًا، وبدا في صحة أفضل، لكن مع تجعيدة جديدة بين الحاجبين، واقفًا مقابل أبيه والأمير ميتشرسكي يناقش بحماسة ويحرك يديه بقوة. كانوا يتحدثون عن سبيرانسكي الذي شاع في موسكو نبأ نفيه وخيانته المزعومة.

كان الأمير أندريه يقول:

- كل الذين كانوا منذ شهر، يرفعونه إلى الأوج، سيحكمون عليه الآن وسيدينونه. وكذلك كل الذين كانوا عاجزين عن فهم مقاصده. ومن السهل

جِدًّا أن ندين إنسانًا فقد حظوته وأن نحمّله جميع أخطاء الآخرين، أما أنا فأقول: إذا كان قد تم في هذا العهد شيء حسن فإليه، وإليه وحده، يعود الفضل..

توقّف عندما رأى بطرس. اختلج وجهه وسرعان ما اكتسى تعبيرًا قاسيًا. وختم كلامه:

- وسوف تعترف الأجيال القادمة بجميله.

ثم التفت رأسًا إلى بطرس وقد ازدادت التجعيدة الجديدة تغضّنًا على جبهته. فبادره بطرس:

- حسنًا! كيف حالك؟ إنك تسمن أبدًا.

وأجاب مبتسمًا:

- نعم إن صحتي جيدة.

رأى بطرس بوضوح أن ابتسامته كانت تعني: «إن صحتي جيدة، لكن ما جدوى ذلك؟».

وبعد أن بادله بضع كلمات عن حالة الطرق الرديئة بدءًا من حدود بولونيا، وعن معارف بطرس الذين لقيهم في سويسرا، وعن السيد ديسال الذي جاء به من الخارج ليعهد إليه بتربية ابنه. شارك، مرة ثانية بحماسة في الحديث الذي ظل دائرًا بين الشيخين عن سبيرانسكي.

فقال باندفاع وحدّة:

- لو كان هناك خيانة، أو أدلة على اتصاله بنابليون، لأذيعت على نحو واسع. وأنا شخصيًا لا أحبّ سبيرانسكي ولم أحبّه قط، لكنني أتمسّك بالعدالة.

كان بطرس يتعرّف الآن لدى صديقه على تلك الحاجة التي عرفها كثيرًا من قبل، وهي الحماسة لقضايا لا تعنيه في شيء، بل ومناقشة تلك القضايا، ليطرد فقط تلك الأفكار المضنية التي تخصّه.

عندما انصرف الأمير ميستشيرسكي، وضع الأمير أندريه ذراعه في ذراع بطرس وأخذه إلى الغرفة التي خُصّصت له. كان قد أعدّ فيها سرير وكان هناك حقائب وصناديق مفتوحة. مضى الأمير أندريه نحو أحدها وتناول علبة. ومن العلبة أخرج رزمة مغلّفة بالورق. كان يفعل ذلك كله بصمت

وبسرعة شديدة. كان وجهه متجهّمًا وشفتاه مزمومتين.

- سامحني إذا ضايقتكَ...

فهم بطرس أنه يريد أن يتحدّث عن ناتاشا فعكس وجهه العريض الرأفة والعطف. فأثار هذا التعبير الأمير أندريه، وتابع بصوت واثق منكسر:

- إن الكونتيسة روستوف نكثت بعهدها، وقد بلغتني إشاعات عن أن شقيق زوجتك طلب يدها، أو شيئًا من هذا القبيل. فهل هذا صحيح؟

بدأ بطرس كلامه.

- نعم ولا...

لكن الأمير أندريه قاطعه قائلًا:

- دونك رسائلها وصورتها أعد هذا إلى الكونتيسة. إن رأيتها.

وأخذ الرزمة عن الطاولة وناولها بطرس. فقال بطرس:

- إنها مريضة جِدًّا.

سأله الأمير أندريه:

- إنها لا تزال هنا، إذًا؟ وأضاف:

والأمير كوراجين؟

- لقد سافر منذ زمن طويل. لقد أوشكت أن تموت..

قال الأمير أندريه:

- آسف أسفًا شديدًا لمرضها.

وابتسم ابتسامة باردة خبيثة، كريهة، شبيهة بابتسامة أبيه وأضاف:

- وإذًا فإن السيد كوراجين لم يجد الكونتيسة روستوف جديرة به.

ونخر عدة مرات.

قال بطرس:

- لم يكن يستطيع أن يتزوجها لأنه متزوج.

ضحك الأمير أندريه ضحكة كريهة، تذكّر بأبيه مرة أخرى.

فأضاف بطرس:

- لقد سافر إلى بطرسـ... بل إني لا أعرف شيئًا عن ذلك.

قال الأمير أندريه:

- على كل حال، لا أهمية لذلك. قل للكونتيسة روستوف إنها كانت ولا

تزال حرة كل الحرية، وإنني أتمنى لها كل سعادة ممكنة.

تناول بطرس رزمة الأوراق. وكان الأمير أندريه يشخص إليه بنظره وكأنما كان يتساءل إن لم يبق لديه ما يقوله له، أو كأنما كان ينتظر أن يتكلّم بطرس. قال بطرس:

- اصغ إليَّ، أتذكر النقاش الذي دار بيننا في بطرسبورغ، أتذكر، عن...؟

أجاب الأمير أندريه مقاطعًا:

- أذكر ذلك. كنت أقول إنه يجب أن نصفح عن المرأة التي سقطت، لكنني لم أقل إن بوسعي أن أصفح. لا أستطيع ذلك.

قال بطرس:

- أيمكننا أن نقارن...؟

فقاطعه الأمير أندريه وصاح بعنف:

- نعم، تريدني أن أطلب يدها مرة أخرى، أن أكون كريمًا وهلمّ جرًّا؟... نعم، هذا نبيل جِدًّا، لكنني لست قادرًا على مزاحمة هذا السيد. وإذا أردت أن تظلّ صديقًا لي فلا تحدّثني بعد الآن عن هذه... عن ذلك كلّه. والآن الوداع. سوف تُسلّم، إذًا، هذه الرسالة؟

-.خرج بطرس وذهب لرؤية الأمير العجوز والأميرة ماريا.

بدا الشيخ أكثر نشاطًا من عادته. أما الأميرة ماريا فكانت هي هي، لكن بطرس رأى فرَحَها بفسخ الخطوبة يتبدّى من الوراء حنوّها على شقيقها. وقد أدرك، من النظر إليهما، مدى الاحتقار والحقد اللذين يحسان بهما إزاء آل روستوف. وأدرك أنه لا يمكن أن يتلفّظ المرء أمامهما باسم تلك التي استطاعت أن تفضل عليه إنسانًا آخر، أيًا كان ذلك الإنسان.

جرى الحديث أثناء العشاء عن الحرب التي غدا وقوعها وشيكًا. وتكلّم الأمير أندريه وناقش بلا انقطاع، حينًا مع أبيه، وحينًا آخر مع ديسال، المربّي السويسري. وقد بدا أشدّ حيوية من عادته، وهي حيوية يعرف بطرس حقّ المعرفة سببها الروحي.

الفصل الثاني والعشرون

ذهب بطرس، في المساء نفسه، إلى منزل آل روستوف ليؤدّي مهمته. كانت ناتاشا في السرير، والكونت في النادي. وبعد أن سلّم بطرس الرسائل إلي صونيا، دخل إلى غرفة ماريا ديمتريفنا التي كانت تريد أن تعلم كيف تلقّى الأمير أندريه النبأ. لكن صونيا جاءت بعد عشر دقائق وقالت:

- ناتاشا تصر على رؤية الكونت بطرس كيريلوفتش.

قالت ماريا ديمتريفنا:

- لكن كيف العمل، هل ينبغي أن تدخله إلى غرفتها وهي غير مرتبة.

أجابت صونيا:

- لقد ارتدت ثيابها وهي تنتظره في الصالون.

اكتفت ماريا ديمتريفنا بهزّ كتفيها وقالت:

- متى يصل الكونت أخيرًا؟ أعياني الأمر. خذ حذرك ولا تقل لها كل شيء. لن تجد الشجاعة على توبيخها، إنها تثير الشفقة إلى حد كبير، إلى حد كبير!

كانت ناتاشا تقف في وسط الصالون ناحلة، شاحبة الوجه عابسة (غير خجلة، خلافًا لما كان يتوقّعه بطرس).

وعندما ظهر على الباب اضطربت، فلعلها تساءلت إن كان يجب أن تتقدّم لتلاقيه أو تنتظره.

دنا بطرس بسرعة. وكان يقدّر أنها ستمدّ يدها كما كانت تمدّها من قبل، لكنّها تقدّمت حتى صارت إلى جانبه ثم وقفت محصورة النفس، جامدة الذراعين، كوقفتها حين كانت تتوسّط الصالون لتغنّي، وإن علت وجهها معان أخرى. وبدأت كلامها بسرعة:

- بطرس كيريلوفتش، لقد كان الأمير بولكونسكي صديقي..
واستدركت قائلة:
- ولا يزال صديقي (كان يبدو لها أن كل شيء قد صار من الماضي، وأن كل شيء قد صار الآن مختلفًا). كان قد نصحني بالرجوع إليك عندما أحتاج..
كان بطرس يتنفّس بقوة من أنفه وهو ينظر إليها من دون أن ينبس بكلمة. لقد لامها في أعماقه، حتى هذه اللحظة، وسعى جهده إلى احتقارها، أما الآن فهو يشفق عليها أعظم الشفقة بحيث لم يبق في نفسه مكان للّوم.
- إنه هنا، قل له.. أن يصعد.. وأن يصفح عني.
توقفت وتسارعت أنفاسها لكنها لم تبكِ.
أجاب بطرس:
- نعم... سأقول له، لكن..
ولم يجد ما يقوله.
بدت ناتاشا مروّعة من الفكرة التي لعلها مرّتْ بخاطر بطرس.
فقالت على عجل:
- كلا، إني أعرف أن كل شيء قد انتهى. ولن يتكرّر ذلك مرة ثانية. إنما يعذّبني الألم الذي سببته له. قل له فقط إنني أرجوه أن يصفح عني، أن يصفح، أن يصفح عن كل ما فعلته..
هزّتها رعدة وجلست على الكرسي.
طفحت نفس بطرس بشعور من الشفقة لم يحسّ بمثله من قبل. قال:
- سأقول له ذلك، سأقول له كل شيء مرة أخرى، لكنني.. كنت أود لو أعرف هذا الشيء...
سألته نظرتها: «تعرف ماذا!».
- كنت أود لو أعرف إن كنتِ أحببتِ...
ولم يعرف كيف يدعو آناتول واحمرّ وجهه وهو يفكر فيه:
- إن كنت أحببت هذا الإنسان السيئ.
قالت ناتاشا:
- لا تسمّه سيئًا. لست أدري شيئًا، لم أعد أدري شيئًا..

واستسلمت للبكاء. فاجتاح بطرس شعور أعمق من الشفقة والحنان والحب. وأحسّ بالدموع تنساب تحت نظارتيه وتمنّى ألا تلحظ ناتاشا. وقال:

- لندعْ هذا الحديث، يا صديقتي.

راع ناتاشا هذا الصوت الوادع، الرقيق، الواثق.

- لندع هذا الحديث، يا صديقتي، سأقول له كل شيء، لكنني أطلب إليك شيئًا واحدًا فقط، اعتبريني صديقًا لك، وإذا احتجت إلى مساعدة، إلى نصيحة، أو إذا احتجت فقط إلى أن تفصحي عن دخيلة نفسك أمام أحد الناس، ليس الآن، بل عندما تبصرين نفسك بوضوح، عند ذاك تذكّريني.

وتناول يدها وقبلها وأضاف:

- سيكون من دواعي سعادتي أن أستطيع..

وهنا اضطرب بطرس.

هتفت ناتاشا:

- لا تكلّمني بهذا الكلام، فلست جديرة به!

وأرادت أن تنسحب، لكن بطرس استوقفها ممسكًا بذراعها. كان يعلم أنه قد بقي في نفسه ما يقوله لها. ولكن عندما قاله دهش هو نفسه من أقواله:

- لا تقولي هذا، لا تقولي هذا، فلا تزال أمامك الحياة الرحبة.

قالت بخجل واتضاع:

- أنا؟ كلا ضاع مني كل شيء!

فردّ قائلًا:

- لم يضع كل شيء؟ لو لم أكن في ما أنا فيه، لو كنت أجمل الرجال في العالم وأذكاهم وأفضلهم، لو كنت حرًّا، لطلبت جاثيًا، في هذه اللحظة بالذات، يدك وحبك.

لأول مرة، منذ أيام كثيرة، ذرفت ناتاشا دموع الامتنان والحنان، وخرجت وهي ترميه بنظرتها.

خرج بطرس أيضًا وهو يركض في البهو ويحبس دموع الحنان والسعادة التي كانت تضغط حنجرته، وارتدى فروته كيفما اتفق له وصعد إلى زلاجته.

سأله الحوذي:

- أين يجب أن أذهب الآن؟

تساءل بطرس:

- أين؟ أين يمكن أن أذهب الآن؟ أمن الممكن أن أذهب إلى النادي أو أقوم بزيارة؟

لقد بدا له الناس جديرين بالرثاء ومساكين إلى حد بعيد، بالقياس إلى هذا الشعور بالحنان والحب الذي كان يشعر به. بالقياس إلى هذه النظرة الأخيرة، الحلوة، الممتنة التي منحته إياها من خلال دموعها.

قال وهو يدفع فروته التي من جلد الدب، عن صدره العريض الذي كان يتنفّس بفرح، بالرغم من برد الدرجات العشر:

- إلى البيت.

كان الجو جميلًا وباردًا. ومن فوق الشوارع القذرة العاتمة، انبسطت سماء مزدانة بالنجوم. لم يكن بطرس يحسّ بالدناءة المخزية للأمور الأرضية بالقياس إلى الأعالي التي كانت ترفرف فيها روحه إلّا حين ينظر إلى هذه السماء. وبينما كان يَدْلفُ إلى ساحة الأربات، انكشفت لعينيه مساحة عريضة من السماء المنجّمة. وفي وسط السماء تقريبًا، فوق شارع بريتشيزنتسكي، بدا مذنّب 1812 الهائل المتألّق، تحيط به من كل جانب وترصّعه النجوم، وان امتاز عنها بقربه الشديد من الأرض، وبضيائه الأبيض، وبذيله الطويل المرفوع، هذا المذنّب هو نفسه الذي كان ينذر، كما قيل، بالأهوال وبنهاية العالم. لكن هذه النجمة المضيئة ذات الذيل الطويل الساطع لم تكن توقظ في بطرس أي إحساس بالخوف. بل كان ينظر فرحًا بعينيه المبلّلتين بالدموع إلى هذا الكوكب المتألّق الذي كان يبدو، بعد اجتيازه مساحات لا حدّ لها، بسرعة لا نهاية لها، في خط ذي قطع مكافئ، كان يبدو كأنما استقر فجأة في المكان الذي اختاره، وسط السماء السوداء، كما يستقر السهم الذي يسقط على الأرض، وبقي حيث استقر، منتصب الذيل، يرقص نوره الأبيض به بين نجوم متلألئة لا حصر لها. كان يبدو لبطرس أن هذا الكوكب منسجم انسجامًا كاملًا مع ما يملأ نفسه المتفتّحة لحياة جديدة، نفسه التي خالطها الحنان والعزاء.

خلاصة الفصول

الكتاب الثاني

الجزء الأوّل

الفصل الأول: وصول نيقولا روستوف ودينيسوف الى موسكو في عطلة. نفاد صبر نيقولا عند اقترابه من موسكو ومن منزله. استقبال عائلته وصونيا له. آل روستوف يستقبلون دينيسوف. حديث نيقولا مع ناتاشا، في صباح اليوم التالي..

الفصل الثاني: مشاغل نيقولا روستوف في موسكو. هموم الكونت العجوز إيليا اندريفتش روستوف المكلّف بتنظيم عشاء في النادي الإنكليزي على شرف باغراتيون. حديث الكونت العجوز مع ابنه وآنا ميخائيلوفنا بشأن بطرس، الحالة النفسية في موسكو وفي النادي الإنكليزي عند وصول نبأ معركة أوسترلتز. أسباب اختيار باغراتيون بطلًا...

الفصل الثالث: في النادي الإنكليزي قبل المأدبة. أعضاء النادي والمدعوون. دينيسوف، روستوف، نيزفيتسكي، بطرس. الأحاديث بين جماعات الشيوخ. وصول باغراتيون واستقباله. تلاوة أبيات قيلت على شرف البطل. العشاء والأنخاب...

الفصل الرابع: اغتمام بطرس بيزوخوف أثناء العشاء وخواطره حول

خيانة زوجته. مرح نيقولا. حادث طارئ بين بطرس ودولوخوف والدعوة الى المبارزة، حديث دولوخوف وروستوف عن سر المبارزة. الاستعدادات للمبارزة في اليوم التالي. حالة بطرس النفسية. محاولات فاشلة للمصالحة يقوم بها شاهد بطرس: دينيسوف...

الفصل الخامس: المبارزة. بطرس يطلق النار ويجرح دولوخوف. روستوف ودينيسوف يوصلان دولوخوف الى منزل أمه.

الفصل السادس: حالة بطرس النفسية بعد المبارزة. تأملاته حول زواجه وعلاقاته بامرأته. إنه يقرر الذهاب إلى بطرسبورغ. وصول هيلين والاستفسار بشأن المبارزة. انفجار غضب بطرس وقطيعته مع امرأته.

الفصل السابع: وصول نبأ معركة أوسترلتز وموت الأمير أندريه إلى ليسييه جوري. الأمير العجوز ينبئ بذلك الأميرة ماريا. الأميرة ماريا تمهد للأميرة الصغيرة لكي تخبرها بموت الأمير أندريه...

الفصل الثامن: مخاض الأميرة الصغيرة يبدأ. ردود أفعال الأميرة مايا. مربيتها تأتي لتكون برفقتها. ردود أفعال الأمير العجوز وسكان البيت في ليسييه جوري. وصول الأمير أندريه المفاجئ. والتقاؤه بالأميرة ماريا..

الفصل التاسع: الأمير أندريه لدى زوجته. حالته النفسية. ولادة ابنه وموت الأميرة الصغيرة. الأمير أندريه والأمير العجوز. الدفن. عمادة الأمير الصغير نيقولا...

الفصل العاشر: نيقولا روستوف المرافق العسكري لحاكم موسكو العام. التقارب بين نيقولا روستوف ودولوخوف أثناء نقاهة هذا الأخير. رأي أم دولوخوف في ابنها ورأي دولوخوف في نفسه. جو الحبّ في منزل آل روستوف. دولوخوف يشغف بصونيا.

الفصل الحادي عشر: العشاء في منزل آل روستوف، في عيد الميلاد سنة 1806. توتر خاص في جو الحب. ناتاشا تنبئ نيقولا بأن دولوخوف

طلب يد صونيا وأنها رفضت. حديث نيقولا وصونيا بشأن طلب دولوخوف.

الفصل الثاني عشر: حفلة راقصة «للمراهقين» وحماسة شديدة تبديها ناتاشا وصونيا. دينيسوف وناتاشا يرقصان رقصة المازوركا البولونية.

الفصل الثالث عشر: سهرة الوداع لدى دولوخوف الذي يلتحق بالجيش. نيقولا روستوف يلتقي دولوخوف بعد رفض صونيا. دولوخوف يجرّ روستوف إلى المقامرة. نيقولا يلعب القمار. بدأ يخسر...

الفصل الرابع عشر: اللعب يتركز على روستوف، وحده. أفكار نيقولا روستوف عن خسارته. نهاية اللعبة: نيقولا يصبح مدينًا لدولوخوف بثلاثة وأربعين ألف روبل. الحديث بين دولوخوف ونيقولا عن تسديد هذا المبلغ...

الفصل الخامس عشر: عودة نيقولا إلى البيت - الشبيبة أمام البيان القيثاري. دينيسوف يغنّي قصيدة «الساحرة» التي كتبها. الأسرة تلاحظ اغتمام نيقولا. ناتاشا تغني. أفكار نيقولا تحت تأثير غنائها...

الفصل السادس عشر: نيقولا روستوف يبرّر سلوكه أمام أبيه عن خسارته في القمار. صونيا تشرح للكونتيسة تصرفها أمام عرض الزواج الذي عرضه عليها دينيسوف. حياة نيقولا في البيت قبل سفره إلى الجيش...

الجزء الثاني

الفصل الأول: بطرس يسافر إلى بطرسبورغ بعد استيضاح امرأته عن سلوكها. التوقف في مربط الأبدال بنورجك. أفكار بطرس القاتمة. وصول الماسونى ألكسيفيتش إلى المربط...

الفصل الثاني: حديث ألكسيفيتش وبطرس.. تغيّر حالة بطرس النفسية بعد رحيل الماسوني...

الفصل الثالث: بطرس في بطرسبورغ. وحدته وقراءة الكتب الماسونية. زيارة الكونت ويلارسكي. الاختبارات المفروضة على بطرس والطقوس التي تسبق قبوله في المحفل الماسوني..

الفصل الرابع: بطرس يبقى ثابتًا على قراره إكمال الطقوس ويدخل المحفل.

الفصل الخامس: بطرس يتلقّى زيارة الأمير فاسيلي الذي يريد أن يصالحه مع هيلين. بطرس يطرده. رحيل بطرس إلى أملاكه.

الفصل السادس: الناس يلومون بطرس بسبب قطيعته لامرأته ويستقبلون بحرارة هيلين عند عودتها إلى بطرسبورغ. سهرة عند آنا بافلوفنا شيرر في نهاية عام 1806. وصول بوريس دروبتسكوي إلى السهرة. آنا بافلوفنا تقدّمه لمدعوّيها على أنه بهجة السهرة. اهتمام هيلين بحكاية بوريس...

الفصل السابع: نكتة هيبوليت كوراجين عن ملك بروسيا. حديث عن المكافآت المتوقّعة. هيلين تدعو دروبتسكوي إلى منزلها. التقارب بين بوريس وهيلين...

الفصل الثامن: نشاط الأمير الشيخ بولكونسكي بصفته قائدًا عامًا للميليشيات. حياة الأمير أندريه بعد حملة 1805. مرض نيقولا الصغير. الأمير أندريه والأميرة ماريا في غرفة الطفل. رسالة الأمير العجوز إلى ابنه.

الفصل التاسع: رسالة بيليبين إلى الأميرة أندريه عن حملة 1806. الأمير أندريه وأخته عند سرير الطفل. أزمة مرض نيقولا الصغير وفرح الأمير أندريه...

الفصل العاشر: بطرس في كييف. يدعو جميع وكلاء أعماله ويعلن لهم عن نيته في تحرير الفلاحين. ميزانية بطرس.. حياة بطرس الماجنة في كييف. في ربيع 1807. زيارة ممتلكاته. مظاهر امتنان الفلاحين التي نظّمها مدير أعماله. بطرس يتعجّب وبسذاجة من حسن صنيعه لفلاحيه...

الفصل الحادي عشر: بطرس في بوغوتشاروفو عند بولكونسكي. اللقاء بين بطرس والأمير أندريه. تبدّل في نفس الأمير أندريه. حديث حميم بين بطرس والأمير أندريه حول حياة الإنسان ومصيره.

الفصل الثاني عشر: سفر الأمير أندريه وبطرس إلى ليسييه جوري. بطرس يشرح الماسونية للأمير أندريه. حديث الصديقين فوق المعبر. بداية حياة داخلية بالنسبة إلى الأمير أندريه بعد زيارة بطرس.

الفصل الثالث عشر: الأمير أندريه وبطرس في ليسييه جوري. زيارتهما للأميرة ماريا وحديث مع «رجال الله» الأتقياء.

الفصل الرابع عشر: حكاية المرأة الورعة. رأي الأميرة ماريا في الأمير أندريه. وصول الأمير العجوز. العلاقات الودية بين بطرس وعائلة بولكونسكي بأسرها...

الفصل الخامس عشر: عودة نيقولا روستوف إلى الفوج. الإحساس بالسكينة الذي يشعر به يعود إلى شروط الحياة المعتادة - معسكر الفوج في بافلوغراد قرب بارتنستين. الجنود يأكلون الماشكا. صداقة روستوف ودينيسوف. قصة البولوني العجوز وابنته اللذين أنقذهما نيقولا من المجاعة...

الفصل السادس عشر: دينيسوف وروستوف مع فوجيهما في المراكز المتقدّمة. دينيسوف يستولي على قافلة مؤن مرسلة إلى فوج المشاة. دينيسوف يذهب إلى الأركان ليسوي القضية، ضرب تيليانين وضرب موظفين آخرين في الأركان. دينيسوف يُحال إلى مجلس حربي. جرح دينيسوف وإدخاله المستشفى...

الفصل السابع عشر: الهدنة بين الروس والفرنسيين بعد معركة فريدلاند. نيقولا روستوف يعود دينيسوف في المستشفى. حديثه مع الطبيب. وضع المستشفى. الأثر المؤلم الذي يحسّ به عند رؤية المرضى والجرحى من الجنود...

الفصل الثامن عشر: روستوف في قاعة الضباط. يلتقي توشين الذي فقد ذراعه. حالة جرح دينيسوف. دينيسوف يتلو جوابه للجنة المكلّفة

بالتحقيق في قضية الاعتماد. دينيسوف يقرر أن يرسل طلب استرحام إلى الإمبراطور بواسطة روستوف...

الفصل التاسع عشر: روستوف يقصد تيليست من أجل قضية دينيسوف. لقاء اسكندر الأول ونابوليون في تيليست. بوريس دروبتسكوي في حاشية الإمبراطور. الكونت زيلنسكي يقيم مأدبة عشاء لمعارفه الفرنسيين.الإحساس الغريب الذي يحسّه روستوف عند مرأى الضباط الفرنسيين. حديثه مع بوريس بشأن قضية دينيسوف...

الفصل العشرون: نيقولا روستوف، بالثياب المدنية، يهيم في شوارع المدينة. تأملاته حول المسعى الذي سيقوم به لدى الإمبراطور وتسليم رسالة دينيسوف. روستوف في غرفة انتظار الإمبراطور. يلتقي جنرال خيّالة يعرفه ويرجوه أن يسلم الرسالة إلى الإمبراطور. حماسة روستوف عند رؤية القيصر...

الفصل الحادي والعشرون: لقاء امبراطورَيْ روسيا وفرنسا. نابليون يمنح لازاريف أحد جنود فوج بريوبراجنسكي وسام جوقة الشرف. كتيبة من الحرس الفرنسي تقيم عشاء لكتيبة من فوج بريوبراجنسكي. مخاض مؤلم يجري في ذهن روستوف عند مرأى الصداقة بين ألكسندر ونابليون.

الجزء الثالث

الفصل الأول: صداقة نابليون وألكسندر في سنة 1808 – 1809. حياة الأمير أندريه بولكونسكي ومشاغله في أملاكه. سفر الأمير أندريه إلى أملاك ابنه في ريازان. خواطره الحزينة عد مرأى سنديانة عتيقة.

الفصل الثاني: الأمير أندريه يقصد منزل آل روستوف في أوترادنويا. ويلتقي ناتاشا. الأمير أندريه يسمع ناتاشا عن غير قصد. ناتاشا تحدّث صونيا عن رغبتها في أن تطير إلى السماء...

الفصل الثالث: عودة الأمير أندريه إلى بيته. إحساسه الربيعي بالفرح والتجدد عند مرأى السنديانة العتيقة التى تغيّرت هيئتها. يعتقد بإمكان تجدّد السعادة والحب لديه، ويقرر استعادة الحياة والذهاب إلى بطرسبورغ في الخريف.

الفصل الرابع: وصول الأمير أندريه إلى بطرسبورغ. إصلاحات سبيرانسكي وذروة مجده. الأمير أندريه يستقبله آراكتشيف...

الفصل الخامس: شعور الأمير أندريه حول المعركة المدنية الضخمة التي تدور في بطرسبورغ. احتفاء مختلف حلقات المجتمع الراقي في بطرسبورغ. الأمير أندريه لدى الكونت كوتشوبي. اللقاء مع سبيرانسكي وحديثهما...

الفصل السادس: مشاغل الأمير أندريه في بطرسبورغ. الأثر الذي أحدثه فيه سبيرانسكي. تعيين الأمير أندريه عضوًا في لجنة النظام العسكري وفي لجنة القوانين...

الفصل السابع: بطرس على رأس الماسونية في بطرسبورغ. يسافر إلى الخارج ليطلع على أعلى أسرار الماسونية. حفلة موسيقية رسمية للمحفل الماسوني. خطاب بطرس والانفعال الذي يثيره في المحفل. القطيعة بين بطرس وماسونييّ بطرسبورغ...

الفصل الثامن: سويداء بطرس. يقصد موسكو ليرى يوسف أليكسيفتش. مذكرات بطرس. مصالحته لامرأته...

الفصل التاسع: حلقات من المجتمع الراقي في بطرسبورغ. الحلقة الفرنسية نصيرة التحالف مع نابليون. صالون هيلين. دور بطرس في صالون امرأته. الألفة بين هيلين وبوريس دروبتسكوي. مشاعر بطرس إزاء بوريس.

الفصل العاشر: مذكرات بطرس بيزوخوف...

الفصل الحادي عشر: وصول آل روستوف إلى بطرسبورغ. بيرج يطلب يد فيرا. نجاح بيرج في مهنته. حيرة آل روستوف أمام طلب بيرج

وموافقتهم. بيرج يتفاهم مع الكونت العجوز على المهر.

الفصل الثاني عشر: ناتاشا في بطرسبورغ. زيارة بوريس دروبتسكوي لناتاشا والانطباع الذي تركته فيه. بوريس عاشق لناتاشا.

الفصل الثالث عشر: في غرفة الكونتيسة. زيارة ليلية لناتاشا وحديث بين الأم وابنتها حول بوريس. تأمّلات ناتاشا حول نفسها.

الفصل الرابع عشر: حفلة راقصة في رأس السنة لدى احد النبلاء من عهد كاترين. الاستعدادات للحفل في منزل آل روستوف. انفعال ناتاشا قبل دخولها أول حفلة راقصة كبرى، استعدادات الوصيفة الملكية العجوز الآنسة بيرونسكي.

الفصل الخامس عشر: وصول ناتاشا إلى الحفلة الراقصة. الانطباع الذي أحدثته في ربة المنزل وبعض المدعوين. الآنسة بيرونسكي تسمي آل روستوف الشخصيات الحاضرة. بطرس والأمير أندريه في الحفلة الراقصة...

الفصل السادس عشر: وصول ألكسندر إلى الحفلة الراقصة. الإمبراطور يفتتح الرقص. اغتمام ناتاشا لأنها لم تكن بين أوائل الراقصين. الفالس، الأمير أندريه يدعو ناتاشا. انتعاش الأمير أندريه...

الفصل السابع عشر: ابتهاج ناتاشا التي ترقص طوال السهرة. الانطباع الذي احدثته في الأمير أندريه. اغتمام بطرس أثناء الحفلة الراقصة.

الفصل الثامن عشر: حالة الأمير أندريه النفسية بعد الحفلة الراقصة. بيتسكي يحدّثه عن جلسة المجلس الإمبراطوري. لا مبالاة الأمير أندريه. بولكونسكي يتعشّى عند سبيرانسكي. الأمير أندريه يخيب ظنّه بيسبيرانسكي ونشاطه...

الفصل التاسع عشر: بيرج يدعو بطرس إلى سهرته. بيرج وفيرا في منزلهما بانتظار المدعوين. وصول بطرس وبوريس وآخرون.

الفصل العشرون: زيارة الأمير أندريه لآل روستوف. ولوج الأمير أندريه إلى عالم ناتاشا الخاص. ناتاشا تغني. خواطر الأمير أندريه بعد زيارته.

الفصل الحادي والعشرون: ناتاشا والأمير أندريه في سهرة بيرج. ملاحظات بطرس حولهما. محادثة فيرا والأمير أندريه عن العواطف وعن ناتاشا وعن ألوان الحب الطفولي مع بوريس. انتعاش الأمير أندريه.

الفصل الثاني والعشرون: الأمير أندريه يقضي نهاره في منزل آل روستوف. توجّس آل روستوف انتظارًا لأمر خطير سيقع. حديث ناتاشا وأمها بشأن الأمير أندريه. حفلة استقبال لدى هيلين. اغتمام بطرس. الأمير أندريه يسرّ إلى بطرس بحبّه لناتاشا وبعزمه الثابت على الزواج بها. بطرس يبتهج بسعادة صديقه...

الفصل الثالث والعشرون: الأمير أندريه يطلب موافقة أبيه على زواجه. الأمير العجوز يطرح تأجيل الزواج سنة كشرط مطلق. ناتاشا تنتظر الأمير أندريه عبثًا. وصول الأمير أندريه وطلب يد ناتاشا. انفعال ناتاشا وبكاؤها. غمّها عندما علمت بتأجيل الزواج.

الفصل الرابع والعشرون: علاقات الأمير أندريه وناتاشا بعد خطبتهما. أسرة روستوف تألف بولكونسكي. موقف الأسرة من الخطيبين. وداع ناتاشا للأمير أندريه...

الفصل الخامس والعشرون: تدهور صحة الأمير العجوز بولكونسكي، وتفاقم حدّة طبعه. سخطه على الأميرة ماريا يزداد. رسالة الأميرة ماريا إلى جوليا كاراجين...

الفصل السادس والعشرون: الأميرة ماريا تتلقّى رسالة من أخيها ينبئها بخطبته للآنسة روستوف ويسألها أن تتدخّل مع أبيه لتقريب موعد الزواج. سخط الأمير العجوز على ابنه واعتزامه الزواج بالآنسة بورريين. الأميرة ماريا تحلم بترك عائلتها وهموم الأمور الأرضية لتخدم الدين...

الجزء الرابع

الفصل الأول: تأملات المؤلف حول الفراغ. خدمة نيقولا روستوف في فوج بافلوغراد. رسائل أسرته التي تحدّثه عن ثروتهم المعرّضة للخطر. تخوّف نيقولا من فكرة ترك الحياة التي اعتادها. رسالة الكونتيسة العجوز إلى ابنها وعزم هذا طلب إجازة. زملاء روستوف يحتفلون به بمناسبة سفره. وصول نيقولا إلى أوترادنويا. حديث نيقولا وناتاشا بشأن الأمير أندريه...

الفصل الثاني: تدخّل نيقولا في شؤون العائلة المالية، تصفية الحسابات مع ميتنكا. تفاهم الكونت العجوز مع ابنه. نيقولا يمزق صكًا ماليًا موقعًا من آنا ميخائيلوفنا...

الفصل الثالث: وقت مناسب للصيد. استعدادات نيقولا. حديثه مع دانيلو. ناتاشا تنبئ أخاها بتصميمها على مرافقته إلى الصيد...

الفصل الرابع: آل روستوف يذهبون إلى الصيد في الحقول. التقاؤهم بعمهم الكونت العجوز في الصيد. محادثته مع سيميون تيشيكمار بصدد ابنه وابنته. إيليا آندريتش يترك ذئبًا يفلت منه. سخط دانيلو على الكونت العجوز...

الفصل الخامس: نيقولا يترصّد ويدعو الله أن يجد الذئب ليصطاده، مطاردة الذئب واصطياده حيًّا.

الفصل السادس: الصيد يستمر. مطاردة ثعلب. حادث بين أحد صائدي روستوف وصيادي إيلاجين. نيقولا يجري حديثً مع جاره إيلاجين. آراء الصيادين في كلابهم، مطاردة مشتركة لأرنب. انفعال الصيادين.

الفصل السابع: نيقولا وناتاشا في منزل العم. آنيسيا فيدوروفنا ووجبتها. العم ميشيل نيكانوروفتش. ميكا يتعرف على البالاليكا. العم يعزف على القيثارة. رقص ناتاشا. العم يغني. عودة نيقولا وناتاشا إلى البيت...

الفصل الثامن: تردي أحوال آل روستوف. الحديث عن بيع منزل الأجداد وبيع الممتلكات في ضواحي موسكو. الكونتيسة العجوز تنوي تزويج نيقولا بوريثة غنية بغية إصلاح الوضع. حديثها مع ابنها حول زواجه بجوليا كاراجين. رفض نيقولا وتقرّبه من صونيا.

الفصل التاسع: عيد الميلاد عند آل روستوف. حالة ناتاشا النفسية حزنها بشأن خطيبها «وشيطناتها».

الفصل العاشر: نيقولا وصونيا وناتاشا في غرفة التدخين. استذكار الماضي. حديث عن الأزلية. وصول المتنكرين ورقصاتهم. نيقولا وناتاشا وصونيا وبيتيا يتنكّرون بدورهم ويقرّرون الذهاب إلى منزل الجيران. بهجة عيد الميلاد لدى الشبيبة. سباق بالعربات...

الفصل الحادي عشر: شباب آل روستوف في منزل آل ميليوكوف. رقصات المتنكّرين وألعابهم. حماسة خاصّةً لدى صونيا. وتذهب إلى مخزن الحبوب لتستطلع مستقبلها. نيقولا يلحق بها إلى الخارج.

الفصل الثاني عشر: عودة شباب آل روستوف إلى البيت. نيقولا يُسر إلى ناتاشا بنيّته في أن يتزوج صونيا واستحسان ناتاشا لقراره. أحلام السعادة لدى الصديقتين.. ناتاشا وصونيا تستطلعان المستقبل.

الفصل الثالث عشر: نيقولا يخبر أمه بقراره في أن يتزوج صونيا. مقاومة الكونتيسة ولومها لصونيا. تعليل نيقولا لتصرّفه وخلافه مع أمه. تدخّل ناتاشا. سفر نيقولا إلى الجيش. سفر الكونت العجوز وناتاشا وصونيا إلى موسكو.

الجزء الخامس

الفصل الأول: تبدّل في حياة بطرس بعد خطبة أندريه وناتاشا، وقطيعته مع الماسونيين. وتردّده على النادي وعلى حلقات العزّاب. سفره إلى موسكو. لقاء المجتمع الودي وحياته في موسكو. تأملات

بطرس بصدد حياته التي لا ترضيه...

الفصل الثاني: وصول الأمير العجوز بولكونسكي وابنته إلى موسكو. الأمير في دور زعيم المعارضة الموسكوفية للحكومة. الحياة الشاقّة التي تحياها الأميرة ماريا في موسكو. وحدتها، الألفة المتزايدة بين الأمير العجوز والآنسة بوريين. سخط الأمير العجوز على ابنته بسبب ردّها النزق على المربية الفرنسية...

الفصل الثالث: عيد الأمير نيقولا آندريتش. زيارة الطبيب الفرنسي ميتيفييه والأمير يطرده. غضب الأمير العجوز على ابنته بسبب ميتيفييه. العشاء. المدعوون: روستوبتشين، الأمير لوبوكين، بطرس وبوريس دروبتسكوي. حديث عن ضروب السياسة الجديدة.

الفصل الرابع: حديث بطرس مع الأميرة ماريا عن بوريس دروبتسكوي وقرار بوريس الزواج. صراحة عفوية للأميرة ماريا عن نفسها. تسأل بطرس عن ناتاشا.

الفصل الخامس: بوريس يتردّد بين فتاتين غنيتين صالحتين للزواج: جوليا والأميرة ماريا. جوليا كاراجين. مزاج بوريس وجوليا السوداوي. آنا ميخائيلوفنا تستعلم عن المهر. بوريس يطلب يد جوليا.

الفصل السادس: وصول الكونت إيليا آندريتش روستوف مع ناتاشا وصونيا إلى موسكو. ماريا ديمتريفنا آخروسيموف تستقبلهم في منزلها. حديث ماريا ديمتريفنا مع ناتاشا...

الفصل السابع: زيارة الكونت العجوز وناتاشا للأمير نيقولا آندريتش بولكونسكي. الأميرة ماريا تستقبلهما. إيليا آندريتش يترك ناتاشا معها. ناتاشا تشعر بالإهانة من استقبال الأميرة لها. إقبال الأمير العجوز بمبذله. بكاء ناتاشا...

الفصل الثامن: استعدادات آل روستوف للذهاب إلى الأوبرا. خواطر ناتاشا بصدد الأمير أندريه وحبها له. الوصول إلى المسرح. ناتاشا وصونيا تثيران الاهتمام العام. بوريس مع جوليا وآنا ميخائيلوفنا،

دولوخوف. شنشين في شرفة آل روستوف. هيلين...

الفصل التاسع: رفع الستارة. انطباعات ناتاشا. انتشاء ناتاشا. آناتول كوراجين في شرفة هيلين. بطرس أمام شرفة آل روستوف. الانطباع الذي أحدثته ناتاشا في كاراجين. حديث هيلين مع الكونت العجوز. ناتاشا تنتقل إلى شرفة هيلين.

الفصل العاشر: هيلين تقدّم ناتاشا لأخيها آناتول. حديث بين آناتول وناتاشا. إحساس بالألفة معه تشعر به ناتاشا. انصراف آل روستوف من المسرح. قلق ناتاشا في البيت وأفكارها بصدد ما جرى.

الفصل الحادي عشر: حياة آناتول كاراجين في موسكو. حديثه مع دولوخوف بشأن ناتاشا...

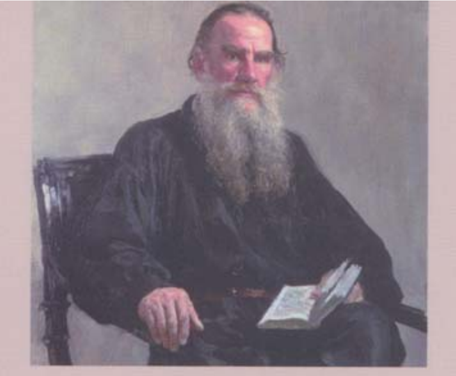
الفصل الثاني عشر: قلق ناتاشا إثر زيارتها لبولكونسكي وسهرتها في المسرح. ماريا ديمتريفنا تذهب إلى منزل الأمير العجوز بولكونسكي. هيلين تأتي لترى ناتاشا وتدعوها إلى سهرتها. عودة ماريا ديمتريفنا.

الفصل الثالث عشر: الكونت العجوز مع ناتاشا وصونيا في سهرة الكونتيسة بيزوخوف. الآنسة جورج تلقي أشعارًا. آناتول يغازل ناتاشا. رقصات. قبلة. ناتاشا تتساءل عند عودتها إلى البيت: أيهما تحبّ، الأمير أندريه أو آناتول...

الفصل الرابع عشر: ماريا ديمتريفنا تروي لناتاشا وللكونت العجوز زيارتها لبولكونسكي وتنصحهم بالعودة إلى الريف لينتظروا فيه الأمير أندريه. رسالة الأميرة ماريا إلى ناتاشا. مسألة لا حلّ لها مطروحة على ناتاشا. رسالة غرام من آناتول ألى ناتاشا...

الفصل الخامس عشر: صونيا تقرأ رسالة آناتول. استفسارها من صديقتها عن ذلك. ناتاشا تحدّث صونيا عن حبها لكاراجين. رسالة ناتاشا إلى الأميرة ماريا لفسخ الخطبة بالأمير أندريه. الاتفاق بين كاراجين وناتاشا على الفرار. انفعال صونيا التي ارتابت بأن ناتاشا تريد الهرب...

الفصل السادس عشر: آناتول عند دولوخوف. مشروع اختطاف الآنسة روستوف. حديث دولوخوف مع آناتول حول مشروعه وصول الحوذي «بالاغا» وحديثهما معه...
الفصل السابع عشر: استعدادات آناتول. وداعه لزملائه. حادث الفروة. الرحيل. فشل محاولة اختطاف ناتاشا...
الفصل الثامن عشر: ناتاشا تكتشف إفشال ماريا ديمتريفنا لخطة هربها. الكونت العجوز يبيع أملاكه. يأس ناتاشا وغضبها من صوفيا...
الفصل التاسع عشر: ماريا ديمتريفنا تستدعي بطرس برسالة.. ماريا ديمتريفنا تنبئ بطرس بفسخ خطبة ناتاشا والأمير أندريه وبمحاولة الاختطاف، وتطلب إليه أن يأمر آناتول بمغادرة موسكو. بطرس يخبر ناتاشا بأن آناتول متزوّج.
الفصل العشرون: بطرس يبحث عن آناتول في أرجاء المدينة ثم يجده عند امرأته. استفسار بطرس لآناتول....
الفصل الواحد والعشرون: بطرس عند السيدة أكروميسوف. ناتاشا تحاول أن تسمّم نفسها. مرضها. الإشاعات في المدينة حول محاولة اختطاف الآنسة روستوف. وصول الأمير أندريه. أبوه يسلمه رسالة فسخ الخطبة التي أرسلتها ناتاشا. بطرس عند آل بولكونسكي. حديث بين الأمير أندريه وبطرس بصدد رفض ناتاشا. انتعاش الأمير العجوز وفرح الأميرة ماريا لفشل زواج الأمير أندريه.
الفصل الثاني والعشرون: بطرس لدى آل روستوف. التقاؤه بناتاشا وحديثهما. الشعور بالرأفة والحنان والحب الذي يشعر به إزاء ناتاشا. بطرس يفصح عن دخيلته بالرغم منه. بكاء ناتاشا. بطرس أثناء طريق العودة. مذنّب 1812 وحالة بطرس النفسية...



ليف تولستوي

الحرب والسلام

II

على الرغم من صدور عدة ترجمات لهذه الرواية، فإن القرّاء دأبوا على السؤال عن ترجمة الدكتور سامي الدروبي الذي عرفوه في ترجماته المميّزة لأعمال دوستويفسكي.

وها هي دار التنوير تعيد نشر هذه الترجمة لهذا الكتاب العظيم الذي يصعب اختصاره، أو تلخيصه. فهذه الرواية التي لم تكفّ عن إثارة إعجاب ملايين القراء، وتعتبر من أكثر الروايات قراءة على مرّ العصور، كتب عنها شعراء وفلاسفة ونقّاد... حتى إن مؤلفه نفسه يقول عن عمله إنه: "ليس رواية، ولا هو قصيدة، ولا هو سجلّ لوقائع تاريخية. إنه ما أراد المؤلف، وما استطاع، أن يعبّر عنه في هذا الشكل الذي عبّر عنه". ولذلك فإن كل قارئ سيصل في قراءته إلى نتائج تخصّه من بين ما أراده المؤلف وتحدّث عنه هو نفسه في المقدّمة.

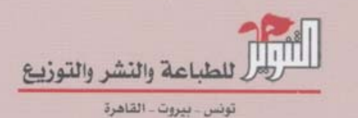
بالفعل إن هذا الكتاب يتجاوز التصنيف في فئة من فئات التأليف الأدبي. فهو إضافة إلى قيمته الأدبية، وقيمته التاريخية، يقدّم رؤى حول مسائل كبرى: حول تعارض حب الحياة مع مأساة الحروب، والدور الذي يمكن أن يلعبه الأشخاص في مجرى التاريخ، ودور الشعب بكل فئاته... فعبر هذا الكتاب نرى المسار الإنساني من جهتين: جهة الفرد وجهة الجماعة، ونتأمل في المصير الإنساني على طريق الحياة والموت.

إنها رواية تنفذ إلى روح المجتمع الروسي، معبَّراً عنها في أحداث ووقائع وشخصيات يرسم تولستوي لكل منها دوراً يعبّر من خلاله عن نفاذ بصيرته في رؤية النفس الإنسانية عمومًا.

للأسف، لم يستطع الدكتور سامي الدروبي أن يكمل ترجمة هذا الكتاب. وقد ترجم لنا جزأين من هذا الكتاب الضخم، وأكمل عمله الدكتور صباح الجهيم.

لوحة الغلاف للفنان Chris Collingwood


ISBN 978-9938-886-95-5



تونس - بيروت - القاهرة